اللباب

في علوم الكتاب

تأليف

الإمام المفسّر أبي حفص عمر بن عليّ

ابن عادل الدّمشقي الحنبلي

المتوفّى بعد سنة ٨٨٠ هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود — الشيخ علي محمد معوّض

شارك في تحقيقه برسالته الجامعيّة

الدكتور محمد سعد رمضان حسن / الدكتور محمد المتولي الدسوقي حرب

الجزء الثامن عشر

المحتوى:

أوّل سورة ق ـ آخر سورة الحشر

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

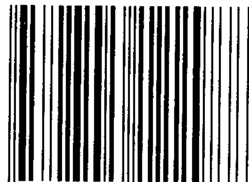
العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2298-3




90000>

9782745122988

http://www.al-ilmiyah.com.lb/
e-mail : baydoun@dm.net.lb

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة ق

مكية[(١)]، وهي خمس وأربعون آية، وثلاثمائة وسبع وخمسون كلمة، وألف وأربعمائة وأربعة وتسعون حرفاً[(٢)].

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿ق﴾ قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما[(٢)]) ـ هو قَسَمٌ. وقيل: اسم السورة. وقيل اسم من أسماء القرآن. وقال القرطبي[(٣)]: هو مفتاح اسمه قدير، وقادر، وقاهر وقريب وقابض. وقال عكرمة والضحاك: هو جبل محيط بالأرض من زُمُرُّدَةٍ خَضْراءَ ومنه: خُضْرَةُ السماء. والسماء مَقْبِيَّةٌ عليه، وعليه كتفاها ويقال: هو وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من ورائه بمسيرة سنةٍ. وقيل: معناه قضِي الأمر وقضي ما هو كائن، كما قالوا في حم[(٤)] (حم الأمر)، وفي ص: صدق الله، وقيل هو اسم فاعل من قَفَا يَقْفُوهُ[(٥)].

فصل

قال ابن الخطيب، لما حكى القول بأن «ق» اسم جبل محيط بالأرض عليه أطواق السماء قال: وهذا ضعيف لوجوه:

---

(١) نقل صاحب البحر المحيط عن ابن عباس: مكية، إلا قوله: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ». وانظر البغوي ٦/ ٢٢٣، والبحر ٨/ ١٢٠.

(٢) زيادة من (أ).

(٣) كذا في النسختين والأصح القرظي محمد بن كعب وانظر البغوي السابق.

(٤) البغوي والخازن ٦/ ٢٣٣. وقد رفض أبو حيان ذكر أي رأي من هذه الآراء.

(٥) وعلى ذلك فهي قاف كَدَاع وسام. ولم أعثر على الرأي الأخير هذا بينما ذكر الرأي قبله الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٤١ والفراء في معانيه أيضاً ٣/ ٧٥.

أحدها: أن أكثر القراء يقف عليها، ولو كان اسم جبل لما جاز الوقف في الإدراج لأنَّ من قال ذلك قال بأن الله تعالى أقسم به.

وثانيها: لو كان كذلك لذكر بحرف القسم كقوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ [الطور: ١]، ونحوه؛ لأن حرف القسم يحذف حيث يكون المقسم به مستحقاً لأنْ يُقْسَمَ بِهِ، كقولنا: «اللّه لأفْعَلَنَّ كَذَا» فاستحقاقه له يغني عن الدلالة عليه باللفظ ولا يحسن أن يقال: زَيْد لأفْعَلَنَّ كَذَا.

ثالثها: أنه لو كان كما ذكر لكان يكتب قاف مع الألف والفاء كما يكتب: ﴿عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية: ١٢]، ويكتب: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] وفي جميع المصاحف يكتب حرف «ق».

رابعها: أن الظاهر كون الأمر فيه كالأمر في «ص» و «ن» و «حم» وهي حروف لا كلمات فكذلك في «ق».

فإن قيل: هو منقول عن ابن عباس ـ (رضي الله عنهما[١]) ـ.

نقول: المنقول عنه: أن قاف اسم جبل، وأما أن المراد ههنا ذلك فَلاَ.

فصل

قال ابن الخطيب: هذه السورة وسورة ص يشتركان في افتتاح أولهما بالحرف المعجم والقسم بالقرآن بعده وقوله بعد القسم: بل والتعجب. ويشتركان أيضاً في أن أول السورتين وآخرهما متناسبات لأنه تعالى قال في أول السورة: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١] وفي آخرها: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٧] وقال في أولِ ق: «وَالقُرْآنِ المَجِيدِ»، وقال في آخرها: «فذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيد»، فافتتح بما اختتم[٢] به. وأيضاً في أول ص صرف العناية إلى تقرير الأصل الأول وهو التوحيد لقوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [صٓ: ٥] وفي هذه السورة صرف العناية إلى تقرير الأصل الآخر وهو الحشر فقال تعالى: ﴿أئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، فلما كان افتتاح سورة «ص» في تقرير المبدأ قال في آخرها: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١]. وختمه بحكاية بَدْء آدمَ، لأنّه دليل الوحدانية، ولما كان افتتاح «ق» لبيان الحشر قال في آخرها: «ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ»[٣].

---

(١) زيادة من (أ).

(٢) في (ب) ختم.

(٣) وانظر كل هذا في تفسير الإمام ٢٨/١٤٧.

فصل

قال ابن الخطيب: قد ذكرنا أن الحروف تنبيهات قدمت على القرآن ليكون السامع بسببها يقبل على استماع ما يرد على الأسماع، فلا يفوته شيء من الكلام الرائق والمعنى الفائق، وذكر أيضاً أن العبادة منها قلبية ومنها لسانية، ومنها خارجية ظاهرة ووجد في الخارجية ما عقل معناه ووجد فيها ما لم يعْقَلْ معناه كأعمال الحج من الرمي والسعي وغيرهما، ووجد في القلبية ما عقل بالدليل وعلم كالتوحيد وإمكان الحشر، وصفات الله تعالى، وصدق الرسل، ووجد فيها مَا لَمْ يُعْقَلْ ولا يمكن التصديق به لولا السمعُ كالصِّراط الممدود الأَحَدّ حَدًّا من السيف، الأرقّ من الشعر، والميزان الذي توزن به الأعمال، فكذلك ينبغي أن يكون الأذكار التي هي العبادة اللسانية فيها(١) ما يعْقَلُ معناه، كجميع القرآن إلاّ قليلاً منه، وفيها ما لا يعقل ولا يفهم كحروف التهجي ليكون التلفظ به لمحض الانقياد والأمر، لا لما يكون في الكلام من طيب الحكاية والقصد إلى غرض كقولنا: «رَبَّنا اغفرْ لنا وارحمنا» بل يكون النطق به تعبداً محضاً. ويؤيد هذا وجه آخر، وهو أن هذه الحروف مقسم بها لأن الله تعالى لما أقسم بالتِّين والزَّيْتُون تشريفاً لهما، فإذا أقسم بالحروف التي هي أصل الكلام الشريف الذي هو دليل المعرفة وآلة التعريف كان أولى.

وإذا عرف هذا نقول: القسم من الله تعالى وقع بأمر واحد كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ [العصر: ١] وقوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ [النجم: ١] وبحرف واحد كما في ﴿صٓ﴾ [ص: ١] و ﴿قٓ﴾ [ق: ١] ووقع بأمرين كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيْلِ﴾ [الضحى: ١ و ٢] وفي قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١] وبحرفين كما في قوله: ﴿طه﴾ [طه: ١] و ﴿طسٓ﴾ [النمل: ١] و ﴿حمٓ﴾ [غافر: ١]، ووقع بثلاثة أمور كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ١ ـ ٣]. وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ١ ـ ٣] وبثلاثة أحرف كما في قوله: ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: ١]، و ﴿طسٓمٓ﴾ [الشعراء والقصص: ١] و ﴿الٓر﴾ [هود: ١١] ووقع بأربعة أمور، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ١ ـ ٤] وفي قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ١ ـ ٣]، وبأربعة أحرف كما في قوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١] و ﴿الٓمٓر﴾ [الرعد: ١] ووقع بخمسة أمور كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ١ ـ ٦] وفي قوله: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١ ـ ٥] وفي النَّازِعاتِ(٢) وفي

---

(١) في (ب) فيها أيضاً وفي الرازي: منها.

(٢) الخمسة الأولى منها: «والنَّازِعَاتِ غَرْقاً والنَّاشِطَات نَشْطاً وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً فَالسَّابِقَاتِ سَبقاً فالمُدَبِّرَاتِ أمراً».

الفَجْر[١]، وبخمسة أحرف كما في: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١] و ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ [الشورى: ١ و ٢]، ولم يقسم بأكثر من خمسة أشياء إلا في سورة واحدة وهي الشَّمس: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١ ـ ٦]. ولما أقسم بالأشياء المعهودة ذكر حرف القسم وهو الواو فقال: «والطُّورِ» «والنَّجْمِ» «والشَّمْسِ» وعند القسم بالحروف لم يذكر حرف القسم فلم يقل: وق وحم؛ لأن القَسَم لما كان بنفس الحروف كان الحرف مقسماً فلم يورده في موضع كونه آلة القسم تسوية بين الحروف ولم يدخل القسم بالحروف في أثناء السورة لأنه يخلُّ بالنظم.

فصل

أقسم الله بالأشياء المركبة العناصر كالتِّينِ والطُّورِ، ولم يقسم بأصولها وهي الجواهر المفردة كالماء والتراب، وأقسم بالحروف من غير تركيب، لأن الأشياء عند تركيبها تكون على أحسن حالها، وأما الحروف إن ركبت لمعنى يقع الحَلِفُ بمعناه لا باللفظ، كقولنا والسماء والأرض وإن ركبت لا لمعنى فكأن المفرد أشرف فأقسم بمفردات الحرف.

فصل

هذه السورة تقرأ في صلاة العيد، لقوله تعالى فيها: **﴿ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوجِ﴾** وقوله: **﴿وكَذَلِكَ الخُرُوجِ﴾** وقوله: **﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾**، فإن العيد يوم الزينة فينبغي أن لا ينسى الإنسان خروجَه إلى عَرْصَاتِ الحِسَابِ. ولا يكون في ذلك اليوم فرحاً فخوراً ولا يرتكب فسقاً ولا فجوراً[٢]. والعامة على سكون الفاء من قاف[٣]. وقد تقدم. وفتحها عيسى[٤]، وكسرها الحسن، وابن أبي إسحاق، وضمها هارون وابن السميقع[٥] وقد مضى توجيه ذلك، وهو أن الفتح يحتمل البناء على الفتح للتخفيف، أو يكون منصوباً بفعل مقدر ومنع الصرف أو مجروراً بحرف قسم مقدر وإنَّما مُنعَ الصرف أيضاً. والضم على أنه مبتدأ وخبره منع الصرف أيضاً.

قال ابن الخطيب: فأما القراءة فيها فإن قلنا: هي مبنية على ما بينا فحقّها الوقف؛ إذ لا عامل فيها ويجوز الكسر حذراً من التقاء الساكنين، ويجوز الفتح اختياراً للأخَفِّ.

---

(١) الأربعة الأولى من الفجر: «والفَجْر. ولَيَالٍ عَشرٍ. والشَّفْعِ وَالوَتْرِ. وَاللَّيْلِ إذَا يَسْرِ».
(٢) وانظر الرازي الإمام ٢٨/١٤٦.
(٣) فتكون اسم فعل بمعنى أقف كما قال: قلنا لها قفي قالت قاف.
(٤) وسيجيء توجيه تلك القراءة هي وأختها التالية وانظر المحتسب ٢/٢٨١ ومختصر ابن خالويه ١٤٤.
(٥) وكذا قال أبو حيان في البحر ٨/١٢٠ وأضاف ابن خالويه الحسن لهذين بالإضافة إلى كسرِهِ قاف. وانظر المختصر ١٤٤.

فإن قيل: كيف جاز اختيار الفتح هَهُنَا ولم يَجُزْ عند التقاء الساكنين إذا كان أحدهما آخر كلمة والآخر أول كلمة أخرى، كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البينة: ١] ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ [الأنعام: ٥٢]؟!.

نقول: لأن هناك إنما وجب التحريك لأن الكسرة في الفعل تشبه حركة الإعراب، لأن الفعل إنما كان محلاً للرفع والنصب ولا يوجد فيه الجر اختير الكسرة التي لا يخفى على أحد أنها ليست بجر؛ لأن الفعل لا يجوز فيه الجر، ولو فتح لاشتبه بالنصب، وأما في أواخر الأسماء فالاشتباه لازم، لأن الاسم مِحلّ يرد عليه الحركات الثلاث فلم يمكن الاحتراز فاختاروا الأخَفَّ.

وإن قلنا: إنها حرف مقسم به فحقها الجر، ويجوز النصب على أنه مفعول به بـ «أُقْسِمُ» على وجه الاتصال وتقدير الباء كأن لم يوجد.

وإن قلنا: هي اسم السورة[(١)]، فإن قلنا: مقسم بها مع ذلك فحقها الفتح لأنها لا تنصرف حينئذ فتفتح في موضع الجر كما تقول: «وإِبْرَاهِيمَ وأَحْمَدَ»، إذا أقسمت بهما[(٢)] وإن قلنا: (إنه[(٣)]) ليس مقسماً بها فإن قلنا: هي اسم السورة فحقها الرفع إذا جعلناها خبراً تقديره: «هَذِهِ قٓ» وإن قلنا: هو من قَفَا يَقْفُو فحقه التنوين كقولنا: هَذَا دَاعٍ ورَاعٍ. وإن قلنا: اسم جبل فالجر والتنوين وإن كان قسماً[(٤)].

قوله: «وَالقُرْآنِ المَجِيدِ» قسم، وفي جوابه أوجه:

أحدها: أنه قوله: «قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْض»[(٥)].

الثاني: «ما يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ»[(٦)].

الثالث: «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ»[(٧)].

---

(١) في (ب) اسم للسورة.

(٢) هذا كله توجيه الرازي في تفسيره ٢٨/ ١٤٧ و ١٤٨. وعبر أبو الفتح بن جني عن الفتح بقوله: يحتمل قاف بالفتح أمرين: أحدهما: أن تكون حركته لالتقاء الساكنين كما أن من يقرأ قاف بالكسر كذلك غير أن من فتح أتبع الفتحة صوت الألف لأنها منها ومن كسر فعلى أصل التقاء الساكنين وانظر المحتسب ٢/ ٢٨١.

(٣) زيادة للسياق.

(٤) وانظر تفسير الرازي المرجع السابق ٢٨/ ١٤٨، وانظر التبيان ١١٧٣ ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٣١٨.

(٥) ذكر مكي في المشكل أنه رأي الأخفش انظر المشكل ٢/ ٣١٨ والتبيان ١١٧٣ وهو رأي الأخفش فعلاً في معاني القرآن ٦٩٦.

(٦) نقله في البحر دون نسبة انظر البحر ٨/ ١٢٠.

(٧) نسبه أبو حيان إلى ابن كيسان والأخفش.

الرابع: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى»[(١)].

الخامس: «بَلْ عَجِبُوا». وهو قول كوفي، قالوا: لأنه بمعنى قَدْ عجبُوا[(٢)].

السادس: أنه محذوف، فقدّره الزجاج[(٣)] والأخفش[(٤)] والمبرد: لَتُبْعَثُنَّ، وغيرهم: لَقَدْ جِئْتَهُمْ مُنْذِراً.

واعلم أن جوابات القسم سبعة، إنَّ المشددة كقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١ و ٢]، و «مَا» النافية كقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ ـ ٣] واللام المفتوحة كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾ [الحجر: ٩٢] وإنْ الخفيفة كقوله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٩٧] ولا النافية كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، و«قَدْ» كقوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١ ـ ٩]، وبَلْ كقوله: «والقُرْآن المَجِيد بَلْ عَجِبُوا»[(٥)]. والمجيدُ: العظيم. وقيل: المجيدُ: الكثير الكرم.

فإن قلنا: المجيد العظيم، فلأن القرآن عظيم الفائدة ولأنه ذكر الله العظيم، وذكر العظيم عظيم ولأنه لم يقدر عليه أحدٌ من الخلق، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]. ولا يبدل ولا يغير ولا يأتيهِ الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإن قلنا: المجيد هو الكثير الكرم فالقرآن كريم كل من طلب منه مقصوداً وَجَدَهُ، ويغني كل من لاَذَ به وإِغناء المحتاج غاية الكرم.

فإن قيل: القرآن مقسم به فما المقسم عليه؟.

فالجواب: أن المقسم عليه إما أن يفهم بقرينة حالية أو قرينة مَقَالِيَّة، والمقالية إما أن تكون متقدمة على المقسم به أو متأخرة، فإن فهم من قرينة مقالية متقدمة، فلا يتقدم هنا لفظاً إلا «ق» فيكون التقدير: هذَا ق والقرآنِ، أو قَ أنزلها الله تعالى والقرآنِ، كقولك: هذَا حَاتِمٌ واللَّهِ؛ أي هو المشهور بالسخاء، وتقول: الهلالُ واللَّهِ أيْ رأيته واللَّهِ. وإن فهم من قرينة مقالية متأخرة فذلك أمران:

أحدهما: أن التقدير: والقرآن المجيد إنك المنذر، أو والقرآن المجيد إن الرجع لكائن، لأن كلام الأمرين ورد طاهراً، أما الأوّل فقوله تعالى: ﴿يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إلى أن قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ [يس: ١ ـ ٦].

---

(١) نقله أيضاً عن محمد بن علي الترمذي.
(٢) نقله في البحر المرجع السابق.
(٣) قال في معاني القرآن: «إنكم لمبعوثون». معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٤١.
(٤) لم أجده في معاني القرآن له.
(٥) وانظر تفسير العلامة البغوي ٦/ ٢٣٣.

وأما الثاني: فقوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: ١ ـ ٧].

قال ابن الخطيب: وهذا الوجه يظهر غاية الظهور على قال من قال: «ق» اسم جبل فإن القسم يكون بالجبل والقرآن، وهناك أقسم بالطور والكتاب المسطور وهو الجبل والقرآن وإن فهم بقرينة حالية فهو كون محمد ـ ﷺ ـ على الحق فإن الكفار كانوا ينكرون ذلك[١].

قوله: «بَلْ عَجِبُوا» يقتضي أن يكون هناك أمرٌ مضروبٌ[٢] عنه فما ذلك؟ أجاب الواحدي ووافقه الزمخشريّ أنه تقرير كأنه قال: ما الأمر كما تقولون[٣]. قال ابن الخطيب: والتقدير والقرآن المجيد إنك لمنذر، وكأنه قال بعده: إنهم شكوا فيه. ثم أضرب عنه وقال: بَلْ عَجِبُوا أي فلم يكتفوا بالشك ولا بالردِّ حتى عَجِبُوا بل جَزَمُوا بالخلاف حتى جعلوا ذلك من الأُمُور العجيبَة.

فإن قيل: فما الحكمة في هذا الاختصار العظيم في موضع واحد حذف المقسم عليه والمُضْرَب عنه، وأتى بأمر لا يفهم إلا بعد الفكر العظيم ولا يفهم مع الفكر إلا بالتوثيق العزيز؟!.

قال ابن الخطيب: أما حذف المقسم عليه فلأن الترك في بعض المواضع يفهم منه ظهور لا يفهم من الذكر، لأن من ذكر المَلِكَ العظيم في مجلس، وأثنى عليه يكون قد عَظَّمَهُ، فإذا قال له غيره: هو لا يذكر في هذا المجلس يكون بالإرشاد إلى ترك الذكر دالاً على عظمة فوق ما استفيد بذكره فالله (تعالى[٤]) ذكر[٥] المقسم عليه لبيان هو أظهر من أن يذكر. وأما حذف المُضْرب عنه، فلأن المُضْرَب عنه إذا ذكر وأضرب عنه بأمرٍ آخر، وكان بين المذكورين تفاوتٌ ما، فإذا عظم[٦] التفاوت لا يحسن ذكرهما مع الإضراب، مثاله يحسن أن يقال: الوَزِيرُ يعظم، فلا يماثل الملك بعظمه، ولا يحسن أن يقال: البوابُ يُعَظَّم فلا يماثل الملك بعظمه لكون البوْن بينهما بعيداً، إذ الإِضراب للتدريج، فإذا ترك المتكلم المُضْرَبَ عنه صريحاً وأتى بحرف الإضراب اسْتُفِيدَ منه أمران:

أحدهما: الإشارة إلى أمر آخر قبله مضربٌ عنه.

---

(١) وانظر تفسير الإمام الفخر الرازي ٢٨/ ١٤٨ و ١٤٩.

(٢) كذا في النسختين والأصح كما في الرازي مضرب لأنه من الرباعي.

(٣) قال في الكشاف: إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب وهو أن ينذرهم بالخوف. وانظر الكشاف ٤/ ٣ و ٤ والرازي ٢٨/ ١٤٩.

(٤) زيادة من (أ).

(٥) في (ب) وهو الأصحّ ترك.

(٦) في (ب) علم.

والثاني: عِظَم التفاوت بينهما، وههنا كذلك لأن الشك بعد قيام البُرهان بعيد لكن القطع بخلافه في غاية ما يكون من البعد فالعجب منه أبعد[١].

قوله: «أَنْ جَاءَهُمْ» فيه سؤال، وهو: أنْ مع الفعل بتقدير المصدر... تقول: «أُمِرْتُ بِأَنْ أَقُومَ وأمرت بالقيام»، وإذا كان كذلك فلم ترك الإتيان بما هو في معنى المصدر ما يجب ذكره عند الإتيان بالمصدر حيث جاز (أن تقول)[٢]: أمرت أَنْ أقومَ من غير باء، ولا يجوز أن تقول: أُمِرْتُ القِيَامَ بل لا بد من الباء ولذلك قال: عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ، ولا يجوز أن يقال[٣]: عَجِبُوا مَجيئَهُ بل لا بد من قولك: عَجِبُوا مِنْ مَجِيئه!.

والجواب: أن قوله: أَنْ جَاءَهُمْ وإن كان في المعنى قائماً مَقَام المَصْدَر، لكنه في الصورة تقدير، وحروف التقدير كلها حروف جارَّة، والجارُّ لا يَدْخُل على الفعل فكان الواجب أن لا يدخل فلا أقلّ من أن يجوز الدخول فجاز أن يقال: عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ، ولا يجوز: عجبوا مَجِيئَهُمْ؛ لعدم جواز إدْخَال الحَرْف عَلَيْهِ[٤].

قوله: «مِنْهُمْ» أي يعرفون نَسَبَهُ وصدقه وأَمَانَتَهُ، وهذا يصلح أن يكون مذكوراً لتقرير تَعَجُّبهمْ ويصلح أن يكون مذكوراً لإبطال تَعَجبهم، أما وجه تقرير تعجبهم فلأنهم كانوا يقولون: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر: ٢٤] و ﴿قَالُوٓاْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] وذلك إشارة إلى أنه كيف يجوز اختصاصه بهذه المنزلة الرفيعة مع اشتراكنا في الحقيقة واللوازم؟ وأما تقدير الإبطال فلأنه إذا كان واحداً منهم ويرى بين أظهرهم وظهر منه ما عجزوا عنه كلهم ومن بعدهم فكان يجب عليهم أن يقولوا: هذا ليس من عنده ولا من عند أحد من جِنْسنَا فهو من عند الله بخلاف ما لو جاءهم واحدٌ من خلاف جنسهم، وأتى بما يعجزون عنه فإنهم كانوا يقولون: نحن لا نقدر على ذلك، لأن لكل نوع خاصيةً كما أن النّعامة تبلع النَّار، وابن آدم لا يقدر على ذلك[٥].

قوله: «فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ» قال الزمخشري: هذا تعجّبٌ[٦] آخرُ من أمر آخرَ، وهو الحشر الذي أشار إليه بقوله: «أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» فتعجبوا من كونه منذراً ومن وقوع الحَشْر، ويدل عليه قوله في أول «ص»: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ص: ٤] وقال: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] فذكر تعجبهم من أمرين. قال ابن الخطيب: والظاهر أن قولهم هذا إشارة إلى مجيء المنذر لا إلى الحشر، لأن هناك ذكر: إنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ بعد الاستفهام الإنكاري فقال: «أَجَعَلَ

---

(١) وانظر تفسير الإمام الرازيّ ٢٨/ ١٥٠.
(٢) سقط من (ب).
(٣) في (ب): أن تقول.
(٤) الرازي: ٢٨/ ١٥٠.
(٥) الرازي المرجع السابق.
(٦) قال: دلالة على أن تعجبهم من البعث أدخل في الاستبعاد وأحق بالإنكار. الكشاف ٣/ ٤.

الآلِهَةَ إِلَهاً واحداً إِنَّ هَذَا لشيءٌ عُجابٌ» وقال ههنا: «إِنَّ هذا شَيءٌ عَجيبٌ»، ولم يكن هناك ما تقع الإشارة إليه إلا مجيء المنذر، ثم قالوا: «أئِذَا متْنَا»، وأيضاً أن ههنا وُجد بعد الاستبعاد بالاستفهام أَمرٌ يؤدي معنى التعجب، وهو قولهم: «ذَلكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ»؛ فإنه استبعاد وهو كالتعجب فلو كان التعجب أيضاً عائداً إليه لكان كالتكرار.

فإن قيل: التكرار الصريح يلزم من قولك: «هذا شيء عجيب» يعود إلى مجيء المنذر فإن تعجبهم منه علم من قوله: «وعجبوا أن جاءهم» فقوله: «هذا شيء عجيب» ليس تكراراً!.

نقول: ذلك ليس بتكرار، بل هو تقرير؛ لأنه لما قال: بل عجبوا بصيغة الفعل وجاز أن يتعجب الإنسان مما لا يكون عجباً كقوله (تعالى[١]): ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٧٣] ويقال في العرف: لا وجه لِتَعَجُبِكَ مما ليس بعجب، فكأنهم لما عجبوا قيل لهم: لا معنى لتَعَجُّبِكُمْ، فقالوا: هذا شيء عجيب فكيف لا نعجب منه؟! ويدل على ذلك قوله تعالى ههنا: ﴿فَقَالَ الكَافِرُونَ هذَا شَيءٌ عَجِيبٌ﴾ بحرف الفاء وقال في «ص»: «وقال الكافرون هذا ساحر» بحرف الواو فكان نعتاً غير مرتب على ما تقدم، وهذا شيء عجيب أمر مرتب على ما تقدم، أي لما عجبوا أنكروا عليهم ذلك فقالوا: هذا شيء عجيب كيف لا نعجب منه؟ ويدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿ذلك رجع بعيد﴾ بلفظ الإشارة إلى البعيد. وقوله: «هذا ساحر» إشارة إلى الحاضر القريب فيَنْبَغِي أن يكون المشار إليه بذلك غير المشار إليه بهَذَا، وهذا لا يصحُّ إلا على قولنا[٢].

قوله: «أَئِذَا مِتْنَا» قرأ العامَّة بالاستفهام؛ وابن عامر ـ في رواية ـ وأبو جعفر والأعْمش والأعرج بهمزة واحدة[٣] فيحتمل الاستفهام كالجمهور. وإنما حذف الأداة للدلالة، ويحتمل الإخبار بذلك[٤]، والناصب للظرف في قراءة الجمهور مقدر أي أنُبْعَثُ أو أنَرْجِعُ إذا مِتْنَا[٥]. وجواب «إذا» على قراءة الخبر محذوف أي رَجَعْنَا. وقيل قوله: «ذَلِكَ رَجْعٌ» على حذف الفاء، وهذا رأي بعضهم[٦]. والجمهور لا يجوز ذلك إلاَّ في شعر[٧] (وقال الزمخشري)[٨]: ويجوز أن يكون الرَّجْعُ بمعنى المرجوع وهو الجواب،

---

(١) زيادة من (أ).

(٢) وانظر تفسير الرازي ٢٨/ ١٥٠ و ١٥١.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٢٠ والإتحاف ٣٩٨.

(٤) بالمعنى من البحر المرجع السابق. أقول: وحذف أداة الاستفهام جائز وهو شائع، وعلى إرادة الخبر يكون المعنى: إذا متنا بعد أن نرجع والدال عليه: «ذلك رجع بعيد».

(٥) قاله مكي في المشكل ٢/ ٣١٨ وأبو البقاء العكبري في التبيان ١١٧٣.

(٦) نقل أبو حيان القولين فنسب الثاني لصاحب اللوامح وترك الأول دون نسبة وانظر البحر المحيط ٨/ ١٢٠.

(٧) للضرورة. انظر السابق.

(٨) ما بين القوسين سقوط من (أ) وزيادة من (ب).

ويكون من كلام الله تعالى استبعاداً لإنكارهم ما أنذروا به من البعث والوقف على «ما» على هذا التفسير حَسَنٌ.

فإن قيل: فما ناصب الظرف إذا كان الرَّجْعُ بمعنى المرجوع؟.

فالجواب: ما دلّ عليه المُنْذِر من المُنْذَرِ به وهو البَعْثُ[١].

فصل

قال ابن الخطيب: «ذلك» إشارة إلى ما قاله وهو الإنذار، وقوله: هذا شيء عجيب إشارة إلى المجيء فلما اختلفت الصفتان[٢] نقول: المجيء والجائي كل واحد حاضراً[٣] وأما الإنذار وإن كان حاضراً لكن المنذر به كان جازماً على[٤] الحاضر، فقالوا فيه ذلك[٥]. والرجوع مصدر رَجَعَ إذا كان متعدياً والرجوعُ مصدر إذا كان لازماً وكذلك الرُّجعى مصدر عند لُزُومه. والرجوع أيضاً يصحّ مصدراً للاَّزم فيحتمل أن يكون المراد بقوله: «ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» أي رجوعٌ بعيد، ويحتمل أن يكون المراد: الرّجْعَى[٦] المتعدِّي، ويدل على الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العبق: ٨] وعلى الثاني قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠] أي مرجوعون؛ فإنه من الرجوع المتعدي.

فإن قلنا: هو من المتعدي فقد أنكروا كونه مقدوراً في نفسه[٧].

فصل

قال المفسرون: تقديره: أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً نُبْعَثُ، ترك ذكر البعث لدلالة الكلام عليه: «ذَلِكَ رَجْعٌ» أي رد إلى الحياة «بَعِيدٌ» غير كائن أي يَبْعُدُ أنْ نُبْعَثَ بعد الموت.

قوله تعالى: **﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرضُ مِنْهُمْ﴾** أي تأكل من لحومِهِم ودمائِهِم وعِظَامهم، لا يعزب عن علمه شيء. وقال السدي: هو الموت يَقُول: قد علمنا من يموتُ منهم، ومن يبقى[٨].

---

(١) مع اختلاف طفيف في العبارة له وانظر الكشاف ٤/ ٤٠.

(٢) كذا في (أ) والرازي وفي (ب) الصِّيغتان. وهو الأقرب.

(٣) كذا فيهما وفي الرازي: حاضر وهو الأصح لغة.

(٤) في الرازي: لكن لكون المنذر به لما كان غير حاضر قالوا فيه ذلك.

(٥) وانظر تفسيره ٢٨/ ١٥١.

(٦) في الرازي: الرجع. وقد ذكر صَاحب اللسان هذه الأشياء في معجمه رجع قال: ومصدره لازماً الرجوعُ ومصدره واقعاً الرَّجْعُ يقال: رَجَعْتُهُ رَجْعاً فرَجَعَ يستوي فيه بلفظ اللازم والواقع، ثم قال: رَجَعَ يَرْجِعُ رَجْعاً ورُجُوعاً ورُجْعَى ورُجْعَاناً ومَرْجِعاً ومَرْجِعَةً. انظر اللسان «رجع» ١٥٩١.

(٧) أي كون الرجع مقدوراً في نفسه وانظر تفسير الإمام ٢٨/ ١٥٢.

(٨) ٨١ من سورة يس. وانظر تفسير العلامتين البغوي والخازن ٦/ ٢٣٣ و ٢٣٤.

وهذه الآية تدل على جواز البعث وقدرته تعالى عليه، لأن الله سبحانه وتعالى عالم بأجزاء كل واحد من الموتى لا يشتبه عليه جزء واحد بجزء الآخر، وقادر على الجمع والتأليف فليس الرجعُ منه ببعيدٍ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[١]. حيث جعل العلم مدخلاً في الإعادة وهذا جواب لِمَا كانوا يقولون: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] أي أنه تعالى كما يعلم أجزاءهم يعلم أعمالهم فيرجعهم ويعذبهم بما كانوا يقولون وبما كانوا يعملون.

قوله تعالى: ﴿وعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أي محفوظ من الشياطين ومن أن يَدْرِس أو يتغيَّر. وهو اللوح المحفوظ. وقيل: معناه حافظ لعدتهم وأسمائهم وأعمالهم. قال ابن الخطيب: وهذا هو الأصحّ؛ لأن الحفيظ بمعنى الحافظ وارد في القرآن قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود ٦٦] وقال: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦] ولأن الكتاب للتمثيل ومعناه: العلم عندي كما يكون في الكتاب، فهو يحفظ الأشياء وهو مستغن عن أن يحفظ[٢].

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ هذا إضراب ثانٍ، قال الزمخشري: إضراب أتبع للإضراب الأول للدلالة على أنهم جاؤوا بما هو أفظع من تعجبهم وهو التكذيب بالحق[٣]. وقال أبو حيان: وكان هذا الإضراب الثاني بدلاً من الأوّل[٤]. قال شهاب الدين: وإطلاق مثل هذا في كتاب الله لا يجوز ألبتة. وقيل: قبل هذه الآية جملة مضرب عنها تقديرها: ما أجازُوا النظر بَلْ كَذَّبوا[٥]. وما قاله الزمخشري أحسَنُ.

فصل

في المضروب عنه وجهان:

أحدهما: أنه الشكّ تقديره: والقرآن المجيد إنَّك لَمُنْذرٌ، وإنهم شكوا فيك بل عجبوا بل كذبوا.

والثاني: تقديره: لم يكذب المنذر بل كذبوا هم[٦].

وفي المراد بالحق وجوه:

الأول: البرهان القائم على صدق الرسول ـ (عليه الصلاة والسلام ـ)[٧].

---

(١) قاله الرازي في مرجعه السابق.

(٢) الرازي المرجع السابق وانظر البغوي ٦/ ٢٣٣ ولباب التأويل للخازن نفس الجزء والصفحة.

(٣) الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات في أول وهلة من غير تفكر ولا تدبر. وانظر كشافه ٤/ ٤.

(٤) قال: وكلاهما بعد ذلك الجواب الذي قدرناه جواباً للقسم البحر ٨/ ١٢١.

(٥) ذِكره أبو حيان في مرجعه السابق.

(٦) ذكر الرازي الوجه في تفسيره ٢٨/ ١٥٢ و ١٥٣.

(٧) زيادة من الأصل ما بين القوسين.

الثاني: الفرقان المنزلُ وهو قريب من الأول؛ لأنه برهانٌ.

الثالث: السورة الثابتة بالمعجوة القاهرة فإنَّها حَقٌّ.

الرابع: الحشر الذي لا بد من وقوعه فهو حق.

فإن قيل: ما معنى الباء في قوله تعالى: (بالحَقِّ)؟ وأيةُ حاجة إليها؟ يعني أن التكذيبَ متعدٍّ بنفسه فهلْ هي التعدية إلى مفعول ثانٍ أو هي زائدة كما هي قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥ و ٦].

فالجواب: أنها في هذا الموضع لإظهار التعدية؛ لأن التكذيب (هو النسبة إلى[1] الكذب) لكن النسبة توجد تارة في القائلِ وأخرى في القول، تقول: كَذَّبَنِي فلانٌ وكنت صادقاً ويقول: كَذَّبَ فلانٌ قَوْلِي[2]، ويقال: كَذَّبَه أي جعله كاذباً وتقول: قلتُ لفلان: زيدٌ يجيء غداً، فتأخر عمداً حتى كَذَّبَني أو[3] كذب قولي. والتكذيب في القائل يستعمل بالباء وبدونها قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١] وقال ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣] وفي القول كذلك غيرَ أن الاستعمال في القائل بدون الباء أكثر قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ [الأعراف: ٦٤] وقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤]. وفي القول الاستعمال بالباء أكثر قال تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ [القمر: ٤٢] وقال: ﴿كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ٥]. وقال: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ [الزمر: ٣٢].

والتحقيق فيه أن الفعل المطلق هو المصدر، لأنه هو الذي يصدر من الفاعل، فإن من ضَرَبَ لم يصدر منه غير الضَّرب، غير أن له محلاً يقع فيه يسمى مضروباً. ثم إن كان ظاهراً لكونه محلاً للفعل يستغني بظهوره عن الحرف فيعدى من غير حرف يقال: ضَرَبْتُ عمراً وشَرِبْتُ مَاءَ للعلم بأن الضرب لا بدَّ له من محِل يقوم به وكذلك الشرب لا يستغني عن مشروب يتحقق[4] فيه؛ فإذا قلت: مَرَرْتُ يحتاج إلى الحرف ليظهر معنى التعدية، لعدم ظهوره في نفسه؛ لأن قولك: مَرَّ السَّحَاب يفهم[5] منه مُرُور، (و[6]) لا يفهم مَنْ مرَّ به.

ثم إن الفعل قد يكون في الظهور دون الضَّرْبِ والشُّرب وفي الخفاء فوق المرور، فيجوز الإتيان فيه بدون الحرف للظهور الذي فوق ظهور المرور، ومع الحرف لكون الظهور دون ظهور الضرب، ولهذا لا يجوز أن تقول: ضَرَبْتُ بعَمْرٍو إلا إذا جعلته آلة الضرب، أما إذا ضربته بسوطٍ[7] أو غيره فَلاَ يجوز فيه زيادة الباء، ولا يجوز: مَرَرْتُهُ[8]

---

(١) ما بين القوسين سقط من نسخة (ب).

(٢) في الرازي: قول فلان.

(٣) وفيه: «وكذب» بالواو لا أو.

(٤) في (ب) متحقق بالاسمية.

(٥) في (ب) معهم. تحريفٌ.

(٦) الواو ساقطة من (ب).

(٧) في (ب) الصوت تحريف.

(٨) كذا في النسختين وفي الرازي: مروا به بواو الجماعة.

إلا مع الاشتراك وتقول: مَسَحْتُهُ ومسحتُ به، وشَكَرْتُهُ وَشَكَرْتُ لَهُ لأن المسحَ إمرار اليد بالشيء فصار كالمُرور والشكر فعل جميل غير أنه يقع لمحسن[١] فالأصل في الشكر الفعل الجميل وكونه واقعاً لغيره كالتَّبَع[٢] بخلاف الضرب فإنه إمساسُ جسم بجسم بعنف، فالمضروب داخل في مفهوم الضَّرْب أولاً، والمشكور داخل في مفهومِ الشكر ثانياً، وإذا عرف هذا فالتكذيب في القائل ظاهر، لأنه هو الذي يصدق أو يكذب وفي القول غير ظاهر، فكان الاستعمال فيه بالباء أكثر والباء فيه لظهور معنى التعدية، وقوله: «لما جاءهم» هو المكذب تقديره: وكَذَّبوا بالحق لما جاءهم الحَقُّ أي لم يؤخروه إلى التفكر والتدبر[٣].

قوله: لَمَّا جَاءَهُمْ العامة على تشديد «لما»، وهي إما حرف وجوب لوجوب[٤] أو ظرف بمعنى حين[٥] كما تقدم. وقرأ الجَحْدريّ لِمَا ـ بكسر اللام وتخفيف الميم ـ على أنها لام الجر دخلت على ما المصدرية وهي نظير قولهم: كَتَبْتُهُ لخمسٍ خَلَوْنَ أي عندها[٦].

قوله: فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ، أي مختلط، قال أبو واقد:

٤٥٠٦ ـ ومَرِجَ الدِّينُ فَأَعْدَدْتُ لَهُ ... مُشْرِفَ الأَقْطَارِ مَحْبُوكَ الكَتَدْ[٧]

وقال آخر:

٤٥٠٧ ـ فَجَالَتْ والتَمَسْتُ به حَشَاهَا ... فَخَرَّ كَأَنَّهُ خُوطٌ مَرِيجُ[٨]

وأصله من الحركة والاضطراب، ومنه: مرج الخاتم في إصبعه وقال سعيد بن جبير ومجاهد: ملتبس.

---

(١) في الرازي: بمحسن.

(٢) وفيه: بغيره كالبيع وهو تحريف فالمقصود ما كتبه الناسخُ.

(٣) وانظر في هذا كله تفسير أستاذنا الإمام الفخر الرازي ٢٨/ ١٥٣ و ١٥٤.

(٤) هذا قول البعض وقال ابن هشام في المغني: حرف وجود لوجود.

(٥) وهو رأى ابن السراج والفارسي وابن جني وجماعة، وقال ابن مالك: بمعنى إذ وهو حسن لأنها مختصة بالماضي وبالإضافة إلى الجملة وانظر المغني ٢٨٠ والتسهيل ٩٢، و ٩٣ والهمع ١/ ٢١٥.

(٦) وقال أبو الفتح: بمعنى: «لما جاءهم» أي مجيئه إياهم كقولك: أعطيته ما سأل لطلبه أي: عند طلبه ومع طلبه. وانظر المحتسب ٢/ ٢١٢.

(٧) البيت من الرمل وهو لأبي دؤاد يصف فرساً والبيت رواية البحر وفي اللسان: الدّهر، ويروى: الحارك بدل الأقطار وهو أعلى الكاهل والمحبوك المحكم الخلق، والكَتَد: مجتمع الكتفين والمراد أن فيه استواء مع ارتفاع. وانظر البيت في اللسان «حبك» ٧٥٨ والبحر ٨/ ١٢١ والقرطبي ١٧/ ٥.

(٨) من الوافر لعمرو بن الداخل الهذلي وشاهده هو وما قبله في المرج بمعنى الخلط، ورواية البيت كالتهذيب للأزهري وفي اللسان: غصن مريع أي غصن له شُعَب قِصار قد التبَسَتْ. وانظر التهذيب واللسان «مرج» والطبري ٢٦/ ٧٧٦ والدر المنثور ٧/ ٥٩٠ ومجمع البيان ٩/ ٢١١ والبحر ٨/ ١٢١ والقرطبي ١٧/ ٥ وديوان الهذليين ٣/ ٩٨.

فصل

قال قتادة: معناه من ترك الحق مرج إليه أمره وألبس عليه دينه. وقال الحسن: ما ترك قومٌ الحقّ إلا مَرج أمرُهُمْ. وقال الزجاج: معنى اختلاط أمرهم أنهم يقولون للنبي ـ ﷺ ـ مرة شاعرٌ، ومرة ساحرٌ، ومرة معلّمٌ، ومرة كاهنٌ، ومرة معترٌ[١] ومرة ينسبونه إلى الجنون فكان أمرهم مُخْتَلِطاً ملتبساً عليهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾

ثم ذكر الدليل الذي يدفع قولهم: «ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» فقال: «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا بغير عمد وَزَيَّنَّاهَا» بالكواكب، وهو نظير قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾ [يس: ٨١] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

قوله: «أَفَلَمْ» الهمزة للاستفهام. واعْلَم أن همزة الاستفهام تارةً تدخل على الكلام بغير واو وتارة تدخل ومعها واو والفرق بينهما أن قولك: أَزَيدٌ فِي الدَارِ؟ بعد: وَقَدْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ (يذكره للإنكار[٢].

فإن قلت: أَوَ زَيْدٌ فِي الدار بعد: وَقَدْ طَلَعَتِ الشَّمس) يشير بالواو إلى أن قبح فعله صار بمنزلة فعلين قبيحين، لأن[٣] الواو تُنبِىءُ عن سبق أمر مغايرٍ لما بعدها وإن لم يكن هناك سابقٌ لكنك تأتي بالواو زيادة في الإنكار.

فإن قيل: كيف أتى هنا بالفاء فقال: «أَفَلَمْ» وفي موضع آخر بالواو؟!.

فالجواب: هنا سبق منهم إنكار الرجع فقال بحرف التعقيب لمخالفة ما قيلَ.

فإن قيل: ففي «يسۤ» سبق ذلك بقوله: «قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ»؟.

فالجواب: بأن هناك الاستدلال بالسموات لم يعقب الإنكار بل استدل بدليلٍ آخرَ وهو قوله: «قُلْ يُحيِيها الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ» ثم ذكر الدليل الآخر وههنا الدليلَ كان عقيب إنكارهم، فذكر بالفاء.

---

(١) في (ب) مفتر.

(٢) ما بين القوسين سقط من (ب) بسبب انتقال النظر.

(٣) في ب: فإن.

فإن قيل: كيف قال ههنا بلفظ النظر وفي الأحقاف بلفظ الرؤية؟!.

فالجواب: أنهُمْ ههنا لما استبعدوا أمر الرجع بقولهم: «ذلك رجع بعيد» استبعد استبعادهم وقال: أفلم ينظروا؛ لأن النظر دون الرؤية فقال النظر كاف[١] في حصول العلم بإمكان الرجع، ولا حاجة إلى الرؤية، ليقع الاستبعاد في مقابلة الاستبعاد[٢] وهناك لم يوجد منهم إنكار فأرشدهم إليه بالرؤية التي هي أتمُّ من النظر[٣].

قوله: «إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ» فقوله: «فَوْقَهُمْ» حال من السماء وهي مؤكدة وكَيْفَ منصوبة بما بعدها وهي معلِّقةٌ للنظر قبلها.

فإن قيل: كيف قال: إلى السماء ولم يقل: فِي السَّماء؟!.

فالجواب: لأنَّ النظر في الشيء ينبىء عن التأمّل والمبالغة والنظر إلى الشيء لا ينبىء عنه؛ لأن «إلى» غايةٌ منتهى النظر عنده وفي الدخول في معنى الظرف فإذا انتهى النظر إليه ينبغي أن ينفذ فيه حتى يصح معنى النظر فيه[٤].

قوله: «وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ» أي شُقوقٍ وفتوقٍ وصُدُوعٍ، واحدها فَرْج.

«وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا» بسطناها على وجه الماء «وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ» جبالاً ثوابتَ «وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» حَسَنٍ كريمٍ يبهج به أي يستر[٥].

قوله: «تَبْصِرَةً» العامة على نصيبها على المفعول من أجله[٦] أي تبصير أمثالهم وتذكير أمثالهم. وقيل: منصوبان بفعلٍ من لفظهما مقدر أي بَصِّرْهُم تبصرةً وذكِّرهم تذكرةً[٧]. وقيل: حالان أي مُبَصِّرين مُذَكِّرِينَ، وقيل: حال من المفعول أي ذات تبصير وتذكير لمن يراها[٨]. وزيد بن علي بالرفع. وقرأ: وذِكْرٌ أي هي: تبصرةٌ وذكرٌ[٩] و «لِكُلِّ» إما صفة وإما متعلق بنفس المصدر. وقال البغوي: تَبَصُّراً[١٠] وتَذْكِيراً.

---

(١) في الرازي: فكأن النظر كان في حصول العلم.
(٢) كذا في النسختين وفي الرازي: الاستبعاد.
(٣) وانظر الرازي ٢٨/ ١٥٥.
(٤) كذا في النسختين وفي الرازي معنى الظرفية.
(٥) قال بهذه المعاني القرطبي في الجامع ١٧/٦.
(٦) نقله القرطبي في المرجع السابق عن أبي حاتم.
(٧) وهو قول أبي حيان في البحر ٨/١٢١.
(٨) وقد نقل هذه الأقوال في كتابه أبو البقاء ١١٧٣.
(٩) أي ذلك الخلق على ذلك الوصف تبصرة فيكون لفظ تبصرة خبراً. وانظر البحر السابق وهي شاذة. وانظر أيضاً الكشاف ٤/ ٤.
(١٠) في معالم التنزيل له: تبصيراً مصدر بصر لا تبصُّراً مصدر تَبَصَّر. وانظر معالم التزيل ٦/ ٢٣٤.

فصل

قال ابن الخطيب: يحتمل أن يكون الأمْران عائدين إلى السماء والأرض أي خَلَقَ السماء تبصرةً وخلق الأرض ذكْرى. ويدل على ذلك أن السماء زينتها مستمرة غير مستجدّة في كل عام، فهي كالشيء المرئي على مرور الزمان. وأما الأرض فهي كل سنة تأخذ زخرفها فتُذَكِّر، فالسماء تبصرة والأرْض تذكرة، ويحتمل أن يكون كل واحد من الأمرين موجوداً في كلّ واحد من الأمرين فالسماء تبصرة وتذكرة والأرض كذلك والفرق بين التبصرة والتذكرة هو أن فيها آيات مستمرة منصوبة في مقابلة البصائر وآيات متجددة متذكرة[١] عند التَّنَاسِي.

قوله: «لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ» أي لتَبصِّرَ وتُذَكُّر كل عبد منيب: أي راجع التفكر والتذكّر والنظر في الدلائل.

قوله: ﴿**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً**﴾ كثير الخير، وفيه حياة كل شيء وهو المطر «فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيدِ»، يعني البُرّ والشّعير وسائر الحبوب التي تحصد[٢]، فقوله: «وحَبَّ الحَصِيدِ» يجوز أن يكون من باب حذف الموصوف للعلم به، تقديره وحب الزرع[٣] الحصيد، نحو: مَسْجِدُ الجَامِعِ وبابه وهذا مذهب البصريين[٤]؛ لئلا يلزم إِضافة الشيء إلى نفسه. ويجوز أن يكون من إِضافة الموصوف إلى صفته؛ لأن الأصل والحَبُّ الحصيدُ أي المَحْصُودُ.

فصل

هذا دليل آخر وهو ما بين السماء والأرض فيكون الاستدلال بالسماء والأرض وما بينهما وهو إِنزال الماء من فوق وإخراج النبات من تحت.

فإن قيل: هذا الاستدلال قد تقدم في قوله تعالى: ﴿**وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾ فما الفائدة من إعادة قوله: «فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيدِ»؟.

فالجواب: أن قوله: وأنبتنا إشارة إلى جعلها محلاً للنبات، اللحم والشعر

---

(١) في (ب) والرازي: مذكرة.

(٢) قاله البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢٣٤.

(٣) قدره القرطبي: وحب النبتِ الحصيدِ وهو كل ما يحصد وكذا الأمر في البغوي وانظر القرطبي ١٧/ ٦ والبغوي ٦/ ٢٣٤.

(٤) وإنما أضيف الحب إلى الحصيد وهما واحد لاختلاف اللفظين كما يقال: مسجد الجامع وربيع الأول. وانظر البغوي السابق والقرطبي ١٧/ ٦ وهذا الرأي الأخير ينسب للكوفيين قال الفراء: أضيف إلى نفسه لاختلاف لفظ اسميه. انظر معاني الفراء ٣/ ١٧٦.

وغيرهما، وقوله: «وَأَنْبَتْنَا» استدلال بنفس النبات أي الأشجار تنمو وتزيد فكذلك بدن الإنسانِ بعد الموت ينمُو ويزيدُ أي يُرجِعُ الله إليه قوة النماء كما يعيدها إلى الأشجار بواسطة ماء السماء(١).

قوله تعالى: ﴿وَالنَّخلَ بَاسِقَاتٍ﴾ والنخل منصوب عطفاً على مفعول أنبتنا أي وأنبتنا النخل و «باسقات» حال(٢)، وهي حال مقدّرة؛ لأنها وقت الإنبات لم تكن طُوالاً(٣). والبُسُوقُ الطّول يقال: بَسَقَ فُلانٌ على أصحابه أي طال عليهم في الفضل، ومنه قول ابْنِ نَوْفلٍ في ابن هُبَيْرَةَ:

٤٥٠٨ ـ يَا ابْنَ الَّذِينَ بِمَجْدِهِمْ بَسَقَتْ (عَلَى(٤)) قَيْسٍ فَزَارَهْ(٥)

وهو استعارة، والأصل استعماله في بسقت النخلة تبسُق بُسُوقاً أي طالت، قال الشاعر:

٤٥٠٩ ـ لَنَا خَمْرٌ وَلَيْسَتْ خَمْرَ كَرْمٍ وَلَكِنْ مِنْ نِتَاجِ البَاسِقَاتِ
كِرَامٌ فِي السَّمَاءِ ذَهَبْنَ طُولاً وَفَاتَ ثِمَارُهَا أَيْدِي الجُنَاةِ(٦)

وبَسَقَت الشَاةُ ولدت، وأبْسَقَتِ الناقةُ وَقَعَ في ضَرْعِهَا اللبأ قبل النتاج، ونُوقٌ مَبَاسِقٌ(٧) من ذلك. قال مجاهد وقتادة وعكرمة يعني باسقاتٍ طوالاً. وقال سعيد بن جبير: مستويات(٨) والعامة على السين في باسقات، وقرأ قُطْبَةُ بنُ مالك ـ ويرويها عن النبي ﷺ ـ باصِقَات(٩). وهي لغة لبنِي العنبر يُبْدلونَ السِّين صاداً قبل القاف والغين والعين والخاء والطاء إذا وليتها أو فصلت منها بحرف أو حرفين(١٠).

---

(١) بالمعنى قليلاً من تفسير الإمام الفخر الرازي ٢٨/ ١٥٧.
(٢) قاله العكبري في التبيان ١١٧٤.
(٣) قاله صاحب البحر المحيط ٨/ ١٢٢.
(٤) لفظ «على» سقط من النسختين.
(٥) والبيت من مجزوء الكامل وشاهده في بسقت فهو استعمال مجازي قصد منه الفضل والمدح فهو من استعمال الحسي في المعنوي، والبيت من مراجع البحر المحيط ٨/ ١١٩ ومجاز القرآن ٢/ ٢٢٣ والسراج المنير ٤/ ٨١ واللسان «بسق» ٢٨٤.
(٦) من الوافر ولم أعرف قائلهما والشاهد في باسقات أي طويلات فهو استعمال حسيٌ. وانظر البيت في القرطبي ١٧/ ٧ والسراج المنير ٤/ ٨١ والبحر ٨/ ١١٨ وفتح القدير ٥/ ٧٣.
(٧) في اللسان مباسيق وانظر اللسان «بسق» ٢٨٤.
(٨) وانظر القرطبي ١٧/ ٦ و ٧.
(٩) رواها أبو الفتح في المحتسب ٢/ ٢٨٢ و ٢٨٣ عن النبي ـ ﷺ ـ انظر المحتسب ٢٨٢ و ٢٨٣ وانظر البحر ٨/ ١٢٢ واللسان بسق المرجع السابق.
(١٠) قاله أبو حيان في مرجعه السابق.

قوله: «لَهَا طَلْعٌ» يجوز أن تكون الجملة حالاً من النخل أو من الضمير في «بَاسِقَاتٍ»[١] ويجوز أن يكون الحال وحده «لَهَا» وطلع فاعل به. ونَضِيدٌ بمعنى مَنضُود بعضها فوق بعض في كمامها كما في سنبلة الزرع، وهو عجيب، فإن الأشجار الطوال ثمارها بعضها على بعض، لكل واحد منها أصل يخرج منه كالجَوْزِ واللَّوز وغيرهما، والطَّلْعُ كالسُّنْبُلَة الواحدة يكون على أصل واحدٍ[٢].

قوله: «رزْقاً» يجوز أن يكون حالاً أي مرزوقاً للعباد أي ذا رزق، وإن يكون مصدراً من معنى أَنْبَتْنَا؛ لأن إنبات هذه رزق فكأنه قال: أنبتناها إنباتاً للعباد[٣] ويجوز أن تكون مفعولاً له[٤] للعباد، إمّا صفة، وإما متعلق بالمصدر، وإِما مفعولاً للمصدر، واللام زائدة، أي رِزْقاً العبادَ.

فصل

قال ابن الخطيب: ما الحكمة في قوله عند خلق السماء والأرض: «تَبْصِرَةً وذِكْرَى» وفي الثمار قال: «رِزْقاً» والثمار أيضاً فيها تبصرة وفي السماء والأرض أيضاً منفعة غير التبصرة والتذكرة؟

نقول: فيه وجوه:

أحدها: أن الاستدلال وقع لوجود أمرين: أحدهما الإعادة، والثاني: البقاء بعد الإعادة، فإن النبي ـ ﷺ[٥] ـ كان يخبرهم بحشر وجمع يكون بعده الثواب الدائم، والعقاب الدائم، وأنكروا ذلك، فقال أما الأوّل فالله القادر على خلق السموات والأرض قادر على خلق الخلق بعد الفناء، وأما الثاني فلأن البقاء في الدنيا بالرزق والقادر على إخراج الأرزاق من النّخل[٦] والشجر قادر على أن يرزق بعد الحشر فكان الأوَّل تبصرةً وتذكرةً بالخلق، والثاني تذكرة بالبقاء بالرزق، ويدل على هذا الفصل بينهما بقوله تعالى: ﴿**تبصرة وذكرى**﴾ حيث ذكر ذلك بعد الآيتين، ثم بدأ بذكر الماء وإنزاله وإنبات النبات.

ثانيها: منفعة الثمار الظاهرة وهي الرزق فذكرها، ومنفعة السماء الظاهرة ليست أمراً عائداً إلى انتفاع العباد لبعدها عن ذهنهم حتى أنهم لو توهموا عدم الزرع والثمر لظنوا أن يهلكوا ولو توهموا عدم السماء فوقهم لقالوا: لا يضرنا ذلك مع أن الأمر بالعكس أولى لأنّ السماء سبب الأرْزاق بقدرة الله تعالى، وفيها منافع غير ذلك والثمار وإن لم تكن كان[٧] العيش كما أنزل الله على قوم المنِّ والسلوى، وعلى قوم المائدة من السماء فذكر الأظهر للناس في هذا المواضع.

---

(١) التبيان ١١٧٤.
(٢) الرازي ٢٨/ ١٥٧.
(٣) قال بهذين الوجهين العكبري في مرجعه السابق.
(٤) الكشاف ٤/ ٥.
(٥) في ب: عليه الصلاة والسلام.
(٦) في الرازي: النجم.
(٧) كذا في النسختين والأصح: ما كان العيش.

ثالثها: قوله: رزْقاً إشارة إلى كونه منعماً ليكون تكذيبهم في غاية القبح فإنه يكون إشارة بالمنعم وهو أقبح ما يكون.

فصل

قال: «تبصرة وذكرى لكل عبد منيب» فقيّد العبد بكونه منيباً، لأنّ العبودية حصلت لكل أحد غير أن المنيب يأكل ذاكراً شاكراً للإنعام وغيره يأكل كما تأكل الأنْعام، فلم يخصص بقيدٍ[١].

قوله: «فَأَحْيَيْنَا بِهِ» أي بالماء و «مَيْتاً» صفة لـ «بَلْدَةً» ولم يؤنث[٢] حملاً على معنى المكان[٣]. والعامة على التخفيف. وأبو جعفر وخالد بالتَّثْقِيلِ[٤].

فإن قيل: ما الفرق بين هذا الموضع وبين قوله: «وآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ» حيث أثبت (الهاء)[٥] هناك؟

فالجواب: أن الأصل في الأرض الوصف فقال الميتة، لأن معنى الفاعلية ظاهرٌ هناك والبلدة الأصل فيها الحياة لأن الأرض إذا صارت حية صارت آهلة وأقام بها القوم وعَمَرُوهَا فصارت بلدة فأسقط الهاء لأن معنى[٦] الفاعلية ظاهر فيثبت[٧] فيه الهاء، وإذا كان بمعنى الفاعل لم يظهر لا يثبت فيه الهاء، ويحقق[٨] هذا قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ [سبأ: ١٥] حيث أثبت الهاء حيث ظهر معنى الفاعلية ولم يثبت حيث لم يظهر[٩].

قوله: «كَذَلِكَ الْخُرُوجُ» أي من القبور أي كالإحياء الخروج.

فإن قيل: الإحياء يشبه به الإخراج لا الخروج؟

فالجواب: تقديره أحيينا به بلدةً ميْتاً فتشققت وخرج منها النبات كذلك تَتَشققُ ويخرج منها الأموات.

قال ابن الخطيب: وهذا يؤكد قولنا: إن الرَّجْعَ بمعنى الرجوع في قوله: «ذلك رجع بعيد»؛ لأنه تعالى بين لهم ما استبعدوه فلو استبعدوا الرجع الذي هو من المتعدي لناسبهُ أن يقول: كذلك الإخراج فلما قال: كذلك الخروج فهم أنهم أنكروا الرجوع فقال: كذلك الرجوع والخروج[١٠].

---

(١) وانظر في هذا كله تفسير الإمام ٢٨/١٥٨. (٢) أي الميت.

(٣) ولو قال: ميتة لجاز قاله القرطبي في الجامع ١٧/٧.

(٤) وهي شاذة.

(٥) وهي شاذة ذُكِرَتْ في البحر ٨/١٢٢ ومختصر ابن خالويه ١٤٤ والإتحاف ٣٩٨. وما بين القوسين سقط من (ب) وفي الرازي: التاء وليس الهاء.

(٦) في (ب) نص. (٧) وفيها تنبت.

(٨) وفيها: وتحقيق. (٩) و (١٠) وانظر الرازي ٢٨/ ١٦٠.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نوح...﴾ الآية ذكر المكذبين تذكيراً لهم بحالهم وأنذرهم بإهلاكهم، وفيه تسلية للرسول، وتنبيه بأن حالَهُ كحال من تقدمه من الرسل كُذبوا وصَبَرُوا فأهلك الله مكذّبيهم ونصرهم. والمراد بأصحاب الرَّسِّ قيل: هم قوم شعيب، وقيل: الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى وهم من قوم عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقيل: هم أصحاب الأخْدود[١] والرس إمَّا موضع نسبوا إليه، أو فَعْل وهو حَفْرُ البئر، يقال رسَّ إذا حفر بئراً[٢]. وقد تقدم في الفرقان[٣]. وقال ههنا: «قوم نوح»، وقال: «إخوان لوط»؛ لأن لوطاً كان مرسلاً إلى طائفة من قوم إبراهيم هم معارف لوط، ونوح كان مرسلاً إلى خلْق عظيم، وقال: «فرعون» ولم يقل: «قوم فرعون»، وقال: «قوم تبع»؛ لأن فرعون كان هو المعتبر، المستبدّ بأمره، وتبَّع كان معتضداً بقومه فجعل الاعتبار لفرعون وخصه بالذكر. وتبع هو تبع الحِمْيرِيّ، واسمه سعد أبو كرب. قال قتادة: ذم الله قوم تبع ولم يذمه[٤] وتقدم ذكره في سورة الدخان.

قوله: «الأَيْكَة» تقدم الكلام عليها في الشعراء[٥]. وقرأ ههنا لَيْكَةَ ـ بزنة ليلة ـ أبو جعفر وشيبةُ[٦]، وقال أبو حيان: وقرأ أبو جعفر وشيبة وطلحة ونافع الأيكة ـ بلام التعريف ـ والجمهور لَيْكَة[٧]. وهذا الذي نقله غفلة منه بل الخلاف المشهور إنما هو في سورة الشعراء و «ص» كما تقدم تحقيقه وأما هنا فالجمهور على لام التَّعريْف[٨].

قوله: «كُلٌّ» التنوين عوض عن المضاف إليه[٩]. وكان بعض النحاة يُجيزُ (حَذْفَ)[١٠] تنوينها وبناءَها على الضم كالغاية نحو: قَبْلُ وبَعْدُ. واللام في الرسل قيل:

---

(١) انظر البغوي والخازن في معالم التنزيل ولباب التأويل ٦/ ٢٣٤ و ٢٣٥ والقرطبي في الجامع ١٧/ ٨ وتفسير الفخر الرازي ٢٨/ ١٦١.

(٢) لسان العرب لابن منظور «رسس» ١٦٤١.

(٣) عند قوله تعالى: ﴿وعاداً وثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾ من الآية ٣٨.

(٤) وانظر الرازي ٢٨/ ١٦١ والبغوي ٦/ ٢٣٤.

(٥) وقد تحدثت في سورة «ص» وحققت آية الشعراء من خلال الحديث في سورة «ص».

(٦) البحر المحيط ٨/ ١٢٢.

(٧) المرجع السابق.

(٨) وهذا ما أقره صاحب الإتحاف ٣٩٨.

(٩) وهو أحد أقسام التنوين مثل قوله: «وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ».

(١٠) ما بين القوسين سقط من (أ) الأصل. ويقصد المؤلف ببعض النحاة مُحمّد بن الوليد. وهو من قدمَاء نحاة مصر أجاز أن يحذف التنوينُ من كلّ جملة غاية ويبنى على الضم كما يبنى قبلُ وبعدُ. وانظر البحر المحيط ٨/ ١٢٢.

لتعريف الجنس وهو أن كل واحد كذب جميع الرسل وذلك على وجهين:

أحدهما: أن المكذب للرسول مكذب لكل الرّسل.

وثانيهما: أن المذكورين كانوا منكرين للرسالة والحشر بالكلية[١].

قوله: «فَحَقَّ وَعِيدِ» أي وجب لهم عذابي أي ما أوعد الله تعالى من نُصرة الرسل عليهم وإهلاكهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾

قوله: «أَفَعَيِينَا» العامة على ياء مكسورة بعدها ياء ساكنة. وقرأ ابنُ أبي عَبْلَةَ أفعُيِّنا[٢] بتشديد الياء من غير إشباع، وهذه القراءة على إشكالها قرأ بها الوليدُ بن مسلم وأبو جعفر وشيبةُ ونافعٌ في رواية[٣]. وروى ابن خالويه عن ابن عبلة أَفَعُيِّينَا كذلك، لكنه أتى بعد الياء المشددة بأخرى ساكنة[٤] وخرجها أبو حيان[٥] على لغة من يقول في عَيِيَ عَيَّ وفي حَيِيَ حَيَّ بالإدغام. ثم لما أسند هذا الفعل وهو مدغم اعتبر لغة بكرِ بْنِ وائل وهو أنهم لا يفكون الإدغامَ في مثل هذا إذا أسندوا ذلك الفعل المدغم لتاء المتكلم ولا إحدى أخواتها التي تسكن لها لام الفعل فيقولون في رَدّ ردّت وردّنا، قال: وعلى هذه اللغة تكون التاء مفتوحة[٦]. ولم يذكر توجيه القراءة الأخرى. وتوجيهها أنها من عَيَّا يُعَيِّي كَحلَّى يُحَلِّي.

فصل

ومعنى أفعيينا بالخلق الأول أي أَعَجَزْنَا حين خلقناهم أولاً فتعبنا بالإعادة. وهذا تقريع لهم لأنهم اعترفوا بالخلق الأول وأنكروا البعث، ويقال لكل من عجز عن شيء عَيِي بِهِ.

«بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ» أي شك «مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ» وهو البعث. والمراد بالخلق الأول قبل

---

(١) ويجوز أن تكون لتعريف العهد أي أن كل واحد كذب رسوله فهم كذبوا الرسل. وانظر الرازي ٢٨/ ١٦١.

(٢) في (ب) أفعيينا تحريف.

(٣) نقله أبو حيان في البحر ٨/ ١٢٣ عن الهُذَلِيّ صاحب القراءات الخمسين. وهي شاذة. ولم أجدْ هذه القراءة إلا في البحر لصاحبه أبي حيان.

(٤) مختصر ابن خالويه ١٤٤.

(٥) قال: وفكرت في توجيه هذه القراءة إذ لم يذكر أحد توجيهها فخرجتها على لغة من أدغم الياء في الياء في الماضي فقال: عَيّ وحيّ، فلما أدغم ألحقه ضمير المتكلم المعظّم نفسه ولم يفك الإدغام فقال عينا وهي لغة لبعض بكر بن وائل يَقُولُونَ في رَدَدْتُ ورَدَدْنا: ردّت وردّنا، فلا يفكون. وانظر البحر ٨/ ١٢٣.

(٦) المرجع السابق.

خلقهم ابتداء لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. وقيل: هو خلق السموات لأنه هو الخلق الأول فكأنه تعالى قال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ﴾ ثم قال: «أَفَعَيِينَا» بهذا، ويؤيدهُ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣] وقال بعد هذه الآية: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ» وعطفه بحرف الواو على ما تقدم من الخلق، وهو بناء السموات، ومدّ الأرض، وتنزيل الماء وإنبات الحبِّ(١).

فصل

عطف دلائل الآفاق بعضها على بعض بحرف الواو فقال: «وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا ونَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً»، ثم في الدليل النفسيّ ذكر حرف الاستفهام، والفاء بعده إشارة إلى أن تلك الدلائل من جنس، وهذا من جنس، فلم يجعل هذا تبعاً لذلك، ومثل هذا مراعى في سورة «يس» حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ﴾(٢) [يس: ٧٧].

فإن قيل: لِمَ لَمْ يعطف الدليل الآفاقيّ ههنا كما عطفه في سورة يس؟

فالجواب ـ والله أعلم ـ أن ههنا وُجِدَ منهم استبعاد بقولهم: «ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» فاستدل بالأكبر وهو خلق السموات، ثم نزل كأنه قال: لا حاجة إلى ذلك الاستدلال بل في أنفسهم دليل جواز إرْشادِهِمْ لا ليدفع استبعادهم فبدأ بالأَدْنَى وارتقى إلى الأعْلى.

فصل

في تعريف «الخلق الأول» وتنكير «خلق جديد» وجهان:

الأول: أن الأول عرفه كل أحد و «الخلق الجديد» لم يعرفه كل أحد ولم يعلم كيفيته ولأنَّ الكلام عنهم وهم لم يكونوا عالمين بالخلق الجديد.

الثاني: أن ذلك لبيان إنكارهم للخلق الثاني من كل وجه كأنهم قالوا: أيكون لنا خلق على وجه إنكار الإله بالكلية(٣).

قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ**﴾.

قوله: «وَنَعْلَمُ» خبر مبتدأ مضمر تقديره: ونَحْنُ نَعْلَمُ، والجملة الاسمية حينئذٍ حالٌ(٤). ولا يجوز أن يكون هو(٥) حالاً بنفسه، لأنه مضارع مثبت باشرته الواو، وكذلك قوله: «ونحن أقرب»(٦).

---

(١) انظر البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢٣٥ والرازي في التفسير الكبير ٢٨/ ١٦١ و ١٦٢.

(٢) وانظر تفسير الرازي السابق.

(٣) وانظر في هذا كله تفسير العلامة الرازي ٢٨/ ١٦١ و ١٦٢.

(٤) قاله العكبري في التبيان ١١٧٤. (٥) فعل «نعلم».

(٦) فهي حالية برمتها.

فصل

إذا قلنا: بأن الخلق الأول هو خلق السموات فهذا ابتداء استدلال بخلق الإنسان، وإذا قلنا: بأن الخلق الأول هو خلق الإنسان فهذا تتميم للاستدلال بأن خلق الإنسان أول مرة، وقوله «وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ» أي يحدث به قلبه، ولا يخفى علينا سرائره وضمائره «ونَحَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» لأن أبعاضه تحجب بعضها بعضاً ولا يحجب علمَ الله شيءٌ، وهذا بيان لكمال علمِهِ[(١)].

قوله: «مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» كقولهم: مَسْجِدُ الْجَامِعِ، أي حبل العِرْقِ الوَرِيدِ[(٢)]. أو لأنَّ الحبل أعم فأضيف للبيان نحو: بعيرُ سَانِيَةٍ[(٣)] أو يراد: حبل العاتق[(٤)] فأضيف إلى الوريد كما يضاف إلى العاتق لأنهما في عضو واحد[(٥)]. قال البغوي: حبل الوريد عرق العُنُق وهو عرق بين الحُلْقُوم والعِلْبَاوَيْنِ تتفرق في البدن، والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين[(٦)]. والوريد إما بمعنى الوارد وإما بمعنى الوُرُود. والوريدُ عرق كبير في العنق. فقال: إنهما وَرِيدان. قال الزمخشري: عرقان مُكْتَنِفَان بصفحتي العُنُق في مقدّمهما يتصلان بالوتين يردان من الرأس إليه يسمى وريداً لأنَّ الروح ترد إليه[(٧)] وأنشد:

٤٥١٠ ـ كَأَنَّ وَرِيدَيْهِ رِشَاءَا خُلَّبِ[(٨)]

وقال أَبْرَمُ[(٩)]: هو نهر الجسد وفي القلب الوتين، وفي الظهر الأبهر، وفي الذراع والفخذ الأكحل واللسان وفي الخنصر الأسلم.

قوله: «إِذْ يَتَلَقَّى» ظرف لـ «أَقْرَب» ويجوز أن يكون منصوباً باذْكُرْ[(١٠)]. والمعنى إذ

---

(١) الرازي المرجع السابق ٢٨/ ١٦٢.

(٢) فيجوز فيه ما جاز في مسجد الجامع هل أضيف إلى نفسه أو إلى مقدر.

(٣) من معاني السانية الناضحة وهي الناقة التي يستقى عليها وقال الليث: السانية وجمعها السواني ما يسقى عليه الزرع والحيوان من بعير وغيره. انظر لسان العرب «سنا» ٢١٢٩، فكأن البعير أخص أضيف إلى الأعم وهو السانية.

(٤) وهو ما بين المنكب والعنق مذكر وقد أنث وليس بثَبْتٍ. اللسان «عنق» ٢٨٠٠.

(٥) كما قالوا: حبل العلباء مثلاً وانظر الكشاف ٤/ ٦ والبحر ٨/ ١٢٣.

(٦) معالم التنزيل له ٦/ ٢٣٥.

(٧) بالمعنى من الكشاف المرجع السابق.

(٨) رجز لرؤبة وهو في ملحقات ديوان رؤبة والكتاب ٣/ ١٦٤ و ١٦٥، وابن يعيش ٨/ ٧٢ والمقتضب ١/ ٥٠ والإنصاف ١٩٨ واللسان «خلب» والبحر ٨/ ١١٢٩ والتصريح ١/ ٢٣٤ والكشاف ٤/ ٦ وشرح شواهده، والرشاء الحبل؛ والخُلْب بالضم الليف، والرواية الأعلى رواية الكشاف بالتثنية وقبل الشطر: ومُعْتدٍ فَظٍّ غَلِيظِ القَلْبِ. وبعده: غادرته مجدلاً كالكَلْبِ.

(٩) كذا في النسختين ولعله إبراهيم أي النخعي.

(١٠) ذكره البحر ٨/ ١٢٣.

يتلقى ويأخذ الملكان الموكلان بالإنسان عمله ومنطقه يحفظانه ويكتبانه.

قوله: «عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ» أي أحدهما عن يَمِينه والآخر عن شماله فالذي عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات. وقوله: «قَعِيدٌ» أي قاعد، فيجوز أن يكون مفرداً على بابه، فيكون بمعنى مُقَاعِد كخَلِيطٍ بمعنى مخالط. وفيه لطيفة، وهي أن الله تعالى قال: ونحن أقرب إليه من حبل الوريد المخالط لأجزائه الداخل في أعضائه والملك متنح عنه فيكون علمنا[1] به أكمل من علم الكاتب، أو يكون عدل من فاعل إلى فعيل مبالغَة كعليم[2]. وجوز الكوفيون أن يكون فعيلٌ واقعاً موقع الاثنين أراد قعوداً كالرسوب يجعل للاثنين والجمع كما قال تعالى في الاثنين: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]. وقال المبرد: الأصل: عن اليمين قعيد وعن الشمال، فأخر عن موضعه[3]، وهذا لا يُنَحّي من وقوع المفرد موقع المثنى، والأجود[4] أن يدعى حذف إما من الأول أي عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، وإما من الثاني فيكون قعيد الملفوظ به للأول. ومثله قوله:

٤٥١١ ـ رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيئاً وَمِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي[5]

قال المفسرون: أراد بالقعيد اللازم الذي لا يبرح لا القائم[6] الذي هو عند القائم. وقال مجاهد: القَعِيدُ: الرصيد.

قوله: «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ» أي ما يتكلم من كلام فيلقيه أي يرميه من فيه «إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» حافظ حاضر. وقرأ العامة «يَلْفِظُ» بكسر الفاء. ومحمد بن (أبي)[7] مَعْدَان[8] بفتحها[9]. وَ «رَقِيبٌ عَتِيدٌ» قيل: هو بمعنى رقيبان عتيدان أينما كان. قال الحسن (رضي الله عنه)[10] إن الملائكة يجتنبون الإنسان على حالتين عند غَائِطِهِ، وعند جَمَاعِهِ. وقال مجاهد: يكتبان عليه حتى أنينه في مرضه، وقال عكرمة: لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه

---

(١) في الرازي: علنا.
(٢) وانظر البحر المحيط ٨/ ١٢٣.
(٣) اتساعاً وحذف الثاني لدلالة الأول عليه وانظر القرطبي ١٧/ ١٠.
(٤) وهذا اختيار أبي حيان في البحر المحيط ٨/ ١٢٣.
(٥) البيت من الطويل وهو مختلف فيه في نسبته فقد نسبه صاحب اللسان للأزرق بن طرفة الفراصي. والطَّويّ البئر المطوية بالحجارة ورماني قذفني بأمر أكرهه. وقد نسبه سيبويه إلى ابن أحمر والشاهد: حذف خبر والدي أي كنت منه بريئاً ووالدي بريء لدلالة الأول عليه وما أكثره، وانظر الكتاب ١/ ٧٥، والهمع ١/ ١١٦ والبحر ٨/ ١٢٢ واللسان «جول».
(٦) في (ب) وهو الأصح القاعد.
(٧) زيادة من (ب).
(٨) ولم أعثر على ترجمة له.
(٩) في مختصر ابن خالويه نلفظ بفتح النون التعظيمية وكسر الفاء ولعله سهو من المحقق للكتاب انظر المختصر ١٤٤.
(١٠) زيادة من (ب).

ويُوزَرُ فيه. وقال الضحاك: مَجْلِسُهُمَا تحت الشعر على الحَنَك ومثله عن الحسن يعجبهُ أن ينظف عَنْفَقَته[١]. وروى أبو أُمامة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ كاتب الحسنات على يمين الرَّجل وكاتِبُ السَّيئات على يسار الرَّجُلِ وكَاتِبُ الْحَسَنَاتِ أَمِينٌ عَلَى كَاتِبِ السَّيِّئَاتِ، فَإِذَا عَمِلَ حَسَنَةً كَتَبَهَا صَاحِبُ الْيَمِينِ عَشْراً، وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً قَالَ صَاحِبُ الْيَمِينِ لِصَاحِبِ الشِّمَالِ: دَعْهُ سَبْعَ سَاعَاتٍ لَعَلَّهُ يُسَبِّحُ أَوْ يَسْتَغْفِرُ.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

قوله: «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ» أي غمرته وشدته التي تغشى الإنسان وتجلب على عقله[٢].

قوله: «بالْحَقِّ» يجوز أن تكون الباء للحال[٣] أي مُلْتَبسةً بالحقّ والمعنى بحقيقة الموت، ويجوز أن تكون للتعدية[٤] والمراد منه الموت فإنه حق كأن شدة الموت تحضر الموت، يقال: جاء فلان بكذا أي أحضره، وقيل: بالحق من أمر الآخرة حتى يتبينه الإنسان ويراه بالعَيَان. وقيل: بما يَؤُول إليه أمر الإنسان من السعادة والشقاوة[٥].

وقرأ عبد الله: سَكَرَاتُ[٦].

ويقال لمن جاءته سكرة الموت: ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تحيد أي تميل، من حَادَ عن الشيء يَحِيدُ حُيُوداً وحُيُودَةً وحَيْداً. وقال الحسن: تهرب، وقال ابن عباس ـ (رضي الله[٧] عنهما ـ) تكره وأصل الحَيْدِ: الميلُ، يقال: حُدْتُ عن الشيء أَحِيدُ حَيْداً ومَحِيداً إذا مِلْت عنه[٨]، و «ذلك» يحتمل أن يكون إشارة إلى الموت وأن يكون إشارة إلى الحق[٩]. والخطاب قيل مع النبي ـ ﷺ ـ. قال ابن الخطيب: وهو مُنْكَر، وقيل: مع الكافر. وهو أقرب. والأقوى أن يقال: هو خطاب عامٌّ مع السامع[١٠].

---

(١) قيل: هي ما بين الشفة السفلى والذقن منه لخفة شعرها. وقيل: ما بين الذقن وطرف الشفة السفلى كأن عليها شعراً ولم يكن. وقيل غير ذلك. انظر اللِّسان والصِّحَاح «عنفق».

(٢) وانظر البغوي والخازن ٦/ ٢٣٥ و ٢٣٦.

(٣) قاله العكبري في التبيان ١١٧٥ وسبقه الزمخشري في الكشاف ٤/ ٧.

(٤) قاله الكشاف المرجع السابق. (٥) ذكر هذه المعاني في مرجعه السابق.

(٦) وهي نفس قراءة أبي بكرٍ. وانظر الكشاف السابق والبحر ٨/ ١٢٤.

(٧) زيادة من (أ). (٨) البغوي المرجع السابق.

(٩) هذا قول الرازي في تفسيره ٢٨/ ١٦٤. (١٠) المرجع السابق.

قوله: «وَنُفخ فِي الصُّور» عطف على قوله: «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ» يعني نفخة البعث «ذَلِكَ يَوْمُ الوَعِيدِ» الذي وعد الكفار أن يعذبهم فيه. قال الزمخشري: «ذلك» إشارة إلى المصدر الذي هو قوله: «وَنُفِخَ» أي وقت ذلك النفخ يوم الوعيد(١). قال ابن الخطيب: وهذا ضعيف؛ لأن «يوم» لو كان منصوباً لكان ما ذكره ظاهراً، وأما رفع «يوم» فيفيد أن ذلك نفس اليوم، والمصدر لا يكون نفس الزمان وإنما يكون في الزمان.

فالأولى أن يقال: «ذلك» إشارة إلى الزمان المفهوم من قوله: «ونفخ» لأن الفعل كما يدل على المصدر يدل على الزمان فكأنه قال تعالى: ذلك الزمان يوم الوعيد، والوعيد هو الذي أَوْعَدَ به من الحَشر، والمجازاة(٢).

قوله: «وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ» قيل: السائق هو الذي يسوقه إلى الموقف ومنه إلى مقعده، والشهيدُ هو الكاتب. والسائق لازم للبرِّ والفَاجِرِ، أما البَرُّ فيساق إلى الجنة وأما الفاجر فإلى النار، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ . . . وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الزمر: ٧١ ـ ٧٣]، والشهيد(٣) يشهد عليها بما عملت. قال الضحاك: السائق من الملائكة والشاهد من أنفسهم الأيدي والأرجل، وهي رواية العَوْفي عن ابن عباس. وقيل: هما جميعاً من الملائكة.

قوله: «مَعَهَا سَائِقٌ» جملة في موضع جر صفة «لِنَفسٍ» أو في موضع رفع صفة «لِكُلّ» أو في موضع نصب حالاً من «كُلّ»(٤). والعامة على عدم الإدغام في «معها» وطلحة على الإدغام(٥) «مَحًّا» بحاءٍ مشددة، وذلك أنه أدغم العين في الهاء(٦)، ولا يمكن ذلك فقلبت الهاء حاء ثم أدغم فيها العين فقلبها حاءً. وسمع: ذَهَبَ مَحُّمْ أي معهم(٧). وقال الزمخشري: ومحل «مَعَهَا سَائقٌ» النصب على الحال من «كُلّ»؛ لتعرفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة(٨). وأنْحى عليه أبو حيان وقال: لا يقولُ هذا مبتدىءٌ في النحو، لأنه لو نعت «كُلُّ نَفْسٍ» مَا نعت إلا بالنكرة(٩). قال شهاب الدين: وهذا منه غير مرض إذ يعلم أنه لم يرد حقيقة ما قاله(١٠).

---

(١) الكشاف ٤/ ٧.

(٢) قاله في تفسيره الكبير ٢٨/ ١٦٤ المرجع السابق.

(٣) البغوي والخازن ٦/ ٢٣٦.

(٤) وجازت الحالية من (كل) النكرة لما فيه من العموم والتقدير: يقال له: لقد كنت وذكر عَلى المعنى. قاله العكبري بإعراباته تلك في التبيان ١١٧٥.

(٥) وهي شاذة انظر البحر ٨/ ١٢٤.

(٦) لأن الحرفين يخرجان من الحلق.

(٧) كذا قال أبو حيان في البحر المرجع السابق.

(٨) الكشاف ٤/ ٧.

(٩) البحر المرجع السابق.

(١٠) قاله في دره المصون مخطوط مكتبة الإسكندرية لوحة رقم ١٠٨.

قوله: «لَقَدْ كُنتَ» أي يقال له: لَقَدْ كُنتَ، والقول إما صفة أو حال. والعامة على فتح التاء في «كُنتَ» والكاف في «غِطَاءَكَ» و «بَصَرَكَ» حملاً على لفظ «كل» من التذكير[١]. والجَحْدَرِيّ: كُنْتِ بالكسر مخاطبة للنفس. وهو وطلحة بن مصرف: «عَنْكِ غَطاءَكِ فَبَصَرُكِ» بالكسر مراعاة للنفس أيضاً[٢]. ولم ينقل صاحب اللوَّامح[٣] الكسر في الكاف عن الجَحْدَري، وعلى كل فيكون قد راعى اللفظ مرةً والمعنى أُخْرَى[٤].

فصل

والمعنى «لقد كنت في غفلة من هذا» اليوم فكشفنا عنك الذي كان في الدنيا وعلى قلبك وسمعك وبصرك «فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» نفاذ تبصر ما كنت تنكر في الدنيا. وقال مجاهد: يعني نظرك على لسان ميزانك حيث توزن حسناتكَ وسيِّئَاتُكَ. والمعنى أزلنا غَفْلَتَكَ عنك فبصرك اليوم حديد وكان من قبل كليلاً.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (٢٦)﴾

قوله تعالى: **﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾** قيل: المراد بالقرين: الملك الموكل به وهو القعيد والشهيد الذي سبق ذكره «هذا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ» يريد كتاب أعماله معدٌّ محضَرٌ. وقيل: المراد بالقرين الشيطان الذي زين له الكفر والعصيان بدليل قوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [فصلت: ٢٥] وقال: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وقال تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [ق: ٣٨] فالإشارة بهذا السَّوْق إلى المرتكب للفجور والفسوق. والقعيد معناه المعتد[٥] الناد ومعناه أن الشيطان يقول: هذا العاصي شيء هو عندي معتد[٦] لجهنم أعتدته لها بالإغواء والإضلال[٦].

قوله: «هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ» يجوز أن تكون «ما» نكرة موصوفة و «عتيد» صفتها و «لَدَيَّ» متعلق بعَتِيدِ أي هذا شيء عتيدٌ لدي أي حاضر عندي ويجوز على هذا أن يكون «لَدَيَّ» وصفاً لـ «ما» و «عتيد» صفة ثانية، أو خبر مبتدأ محذوف أي هو عتيدٌ، ويجوز أن تكون موصولة بمعنى الذي و «لَدَيّ» صلتها ولَدَيَّ[٧] خبر الموصول والموصول وصلته خبر الإشارة[٨] ويجوز أن تكون «ما» بدلاً من هذا موصولة كانت أو موصوفة

---

(١) انظر التبيان ١١٧٥.
(٢) قراءتان شاذتان نقلها المختصر ١٤٤ والبحر المحيط ٨/ ١٢٥.
(٣) وهو أبو الفضل الرازي. وتقدم التعريف به.
(٤) البحر المحيط المرجع السابق.
(٥) في (ب) كذلك وفي الرازي: المعد معد.
(٦) وانظر الرازي ٢٨/ ١٦٥.
(٧) الأصح كما في (ب) عتيد.
(٨) وهو هذا.

بـ «لَدَيَّ» و «عتيد» خبر «هذا»[١]. وجوز الزمخشري في «عتيد» أن يكون بدلاً أو خبراً بعد خبر أو خبَر مبتدأ محذوف[٢]. والعامة على رفعه، وعبد[٣] الله نصبه حالاً[٤]. والأجود حينئذ أن تكون «ما» موصولة؛ لأنها معرفة والمعرفة يكثر مجيء الحال منها[٥]. قال أبو البقاء: «ولو جاز ذلك في غير القرآن لجاز نصبُهُ على الحال»[٦] كأنَّه لم يطلعْ عليها قراءةً.

قوله: «أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ» اختلفوا هل المأمور واحد أو اثنان؟ فقيل: واحد. وإنما أتى بضمير الاثنين دلالةً على تكرير الفعل كأنه قيل: أَلْقِ أَلْقِ[٧]. وقيل: أراد أَلْقِيَنْ بالنون الخفيفة، فأبدلها ألفاً إجراءً للوصل مُجْرَى الوقف[٨]، ويؤيده قراءة الحسن (ـ رضي الله عنه[٩] ـ) أَلْقِيَنْ بالنون[١٠]. وقيل: العرب تخاطب الواحد مخاطبةَ الاثنين تأكيداً كقوله:

٤٥١٢ ـ فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَا ابنَ عَفَّانَ أَزْدَجِرْ ... وَإِنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعَا[١١]

وقال آخر:

٤٥١٣ ـ فَقُلْتُ لِصَاحِبي: لاَ تَحبسانا ... بِنَزْعِ أُصُولِهِ واجْدَزَّ شِيحَا[١٢]

---

(١) قال بهذا الإعراب كله أبو البقاء في التبيان ١١٧٥ وانظر مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٣٢٠.

(٢) قال: . . . وإن جعلتها موصوله فهو بدل أو خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف الكشاف ٤/ ٧.

(٣) هو ابن مسعود.

(٤) شاذة قال بها في كتابه أبو حيان ٨/ ١٢٦، وابن خَالَوْيهِ في المختصر ١٤٤.

(٥) البحر المحيط المرجع السابق. (٦) التبيان ١١٧٥.

(٧) وهو رأي العكبري في مرجعه السابق ومشكل إِعْرَاب القرآن ٢/ ٣٢١ وهو رأي المبرد ونقله عنه أبو حيان في البحر ٨/ ١٢٦.

(٨) المرجع السابق. (٩) زيادة من (أ).

(١٠) فهو فعلٌ أمر مبنيٌّ على الفتح لاتصاله بالنون الخفيفة. وانظر المختصر ١٤٤ والبحر السابق والكشاف ٨/ ٤.

(١١) نسبهُ الفراء في المعاني ٣/ ٧٨ لأبي ثَرْوَان. وهو من الطويل ورواه: وإن، وانزجر، وروي في أصول القرطبي: تدعواني بدل: تدعاني والرواية الأخيرة هي المشهورة، وإن كانت الأولى لا تخلّ بوزن البيت. والشاهد في تزجراني وتَدَعَانِي فعلان بهما ألف التثنية رغم أن الخطاب للواحد وهو ابن عفان. وقال عن هذا الخليل والأخفش: هذا كلام العرب الفصيح أن تخاطب الواحد بلفظ الاثنين. وقد تقدم.

(١٢) من الوافر ونسب إلى يزيد بن الطَّثرية. والصحيح أنه لمضرس بن ربعيّ الأسديّ وروي: لا تحبسنّا بنون التوكيد الشديدة، ولا تحبسني ولنزع واحذر، وأراد بالصاحب من يحتطب له بدليل رواية: وقلت لحاطبي، والجزّ القطع وأصله في الصوف. والشِّيح نبات كثير الأنواع طيب الرائحة يقوي طبخ اللحم سريعاً. وانظر البيت في معاني الفراء ٣/ ٧٨ وشرح ابن يعيش للمفصل ١٠/ ٤٩، وشرح شواهد الشافية ٤٨١ وتأويل مشكل القرآن ٢٢٤ والأشموني ٤/ ٣٣٢ واللسان جزر ومجمع البيان ٩/ ٢١٨ والصّاحبيّ ١٤٠ والصِّحَاح «جزر». وشاهده كسابقهِ في مخاطبة ومعاملة المفرد معاملة المثنى في الخطاب. وهذا فصيح.

وتقول العرب: ويحك[١] ازجِلاَهَا وازْجُرَاهَا وخُذاها للواحد. قال الفراء: وأصل ذلك أن أدنى أعوانِ الرجل في إبله وغنمه وسفره اثنان فجرى كلام الواحد على صاحبه، ومنه قولهم في الشعر: خليليَّ[٢]. وقال الزجاج: هذا أمر السائق والشهيد[٣]. وقيل: للمتلقين.

قوله: «كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ» الكفار يحتمل أن يكون من الكُفْر فيكون بمعنى شديد الكفر لأن الشديدَ في اللفظ بدل على شدة في المعنى، ويحتمل أن يكون من الكُفْران فهو المنكر نعم الله مع كثرتها. و «العنيدُ» فعيل بمعنى فاعل من عَنِدَ عُنُوداً[٤]، ومنه العِنَادُ[٥]. والمعنى عاصٍ معرض عن الحق. قال عكرمة ومجاهد: مجانبٍ للحق ومعاندٍ لله[٦].

قوله: «مَنَّاعٍ للخير» أي كثير المنع للمال[٧] والواجب من الزَّكاة وكُلّ حق واجب في ماله هذا إذا قلْنا إن الكفار هو المنكر نعم الله تعالى. وإن قلنا: هو من الكفر فهو الذي أنكر دلائل وحدانية الله تعالى مع قوّتها وظهورها، فكان شديد الكفر عنيداً حيث أنكر الحق الواضح فهو مناع شديد المنع من الإيمان فهو مناع للخير وهو الإيمان الذي هو خَيْرٌ محض، كأنه يقول: كفر بالله ولم يقتنع[٨] بكفره، حتى مَنَعَ الخير من الغَيْر.

قوله: «مُعْتَدٍ» فإن فسرنا المَنَّاع بمنَّاع الزكاة فمعناه لمن يؤدِّ الواجب وتعدى ذلك حتى أخذ الحرام أيضاً بالرِّبا كما كان عادة المشركين، وإن كان المنّاع بمعنى منع الإيمان فكأنه يقول: مَنَعَ الإيمان ولم يقنع به حتى تعداه، وأهان مَنْ آمَن، وآذاهُ، وأعان من كفر فَآوَاهُ[٩]. قال المفسرون: هو الظالم الذي لا يُقِرُّ بتوحيد الله تعالى.

وقوله: «مُرِيبٍ» أي شاكٍّ في التوحيد. ومعناه دخل في الرَّيْب، وقيل: موقع للغير في الريب بإلقاء الشُّبَه[١٠]. وإن قيل: بأن المنَّاع مَنَّاعُ الزكاة فمعناه لا يعطي الزكاة لأنه في رَيْبٍ من الآخرة والثواب. قال ابن الخطيب: وفيه ترتيب آخر وهو أن يُقَالَ: هذا بيان أحوال الكافر بالنسبة إلى الله تعالى وإلى الرَّسُول وإلى اليوم الآخر[١١]. فقوله: «كَفَّار عَنيد» إشارة إلى حَالِهِ مَعَ اللَّهِ يكفر به ويعاند آياته. وقوله: «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ»، إشارة إلى حَالِهِ مع الرسول يمنع الناس اتّباعَهُ ومن الإنفاق على مَنْ عنده وَيتعدَّى بالإيذاء وقوله: «مريب» إشارة إلى حاله بالنسبة إلى اليوم الآخر يَرْتَاب فيه ولا يظن أن الساعة قائمةٌ.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ إلى غير ذلك

---

(١) في القرطبي: ويلك.
(٢) معاني الفراء ٣/ ٧٨.
(٣) قال: الوجه عندي أن يكون أمر الملكين انظر معاني القرآن وإعرابه له ٥/ ٤٥.
(٤) قاله الرازي ٢٨/ ١٦٥ و ١٦٦.
(٥) القرطبي ١٧/ ١٦ ـ ١٧.
(٦) في الرازي: المال الواجب.
(٧) في (ب) يقنع.
(٨) في الرازي المرجع السابق: «وآواه».
(٩) البغوي ٦/ ٢٣٦.
(١٠) الرازي المرجع السابق.
(١١) الرازي ٢٨/ ١٦٧ و ١٦٨ السابق.

يوجب أن يكون الإلقاءُ خاصاً بمن اجتمع فيه هذه الصفات بأسرها والكفر وحده كاف في إثبات الإلقاء في جهنم؟

فالجواب: أن قوله: «كَلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ» ليس المراد منه الوصف المميز كما يقال: أعطِ العالم الزاهدَ بل المراد الوصف المبين لكون الموصوف موصوفاً به إما على سبيل المدح أو على سبيل الذم كقولك: هَذَا حَاتِمٌ السخيُّ. فقوله: «كل كفار عنيد» معناه أن الكافر عنيد ومناع للخير؛ لأن آياتِ الوحدانية ظاهرةٌ ونِعَمَ الله على عباده وافرة وهو مع ذلك عنيد ومناع للخير، لأنه يمدح دينه ويذم دين الحق فهو يَمْنَعُ، ومُرِيب لأنه يرتاب في الحَشْر، وكل كافر فهو موصوف بهذه الصفات[١].

قوله: «الَّذِي جَعَلَ» يجوز أن يكون منصوباً على الذَّمِّ، أو على البدل من «كُلَّ» وأن يكون مجروراً بدلاً من «كَفَّارٍ»، أو مرفوعاً بالابتداء والخبر «فَأَلْقِيَاهُ»[٢]. قيل: ودخلت الفاء لشبههِ بالشرط، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ مضمر، أي هو الذي جعل، ويكون «فَأَلْقِيَاهُ» تأكيداً[٣].

وجوز ابن عَطِيَّة أن يكون صفة «لِكَفَّارٍ»؛ قال: من حيث يختص «كفار» بالأوصاف المذكورة فجاز وصفه لهذه المعرفة[٤]. وهذا مردودٌ. وقرىء بفتح التَّنوين[٥] في «مُرِيب» فراراً من تَوَالي أَرْبع متجانساتٍ[٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾

قوله: «قَالَ قَرِينُهُ» جاءت هذه بلا واو؛ لأنها قصد بها الاستئناف كأن الكافر قال: ربِّ هُو أطغاني فقال قرينه: مَا أَطْغَيْتُهُ بخلاف التي قبلها فإنها عطفت على ما قبلها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول أعني مجيء كل نفس مع المَلَكَيْن وقول قرينه ما قال[٧]. قال ابن الخطيب: جاءت هذه بلا واو وفي الأولى بالواو العاطفة لأن في الأولى إشارة وقعت إلى معنيين مجتمعين، فإن كل نفس في ذلك الوقت يجيء معها سائقٌ وشهيد فيقول الشهيد ذلك القول، وفي الثاني لم يوجد هناك معنيان مجتمعان حتى يذكر بالواو، فإن الفاء في قوله: «فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ» لا يناسب قوله: «قَالَ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ» فليس هناك مناسبة مقتضية للعطف بالواو.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢٦. (٢) السابق.
(٣) نقله في المرجع السابق.
(٤) لأن النكرة لو وصفت بأشياء كثيرة لم يجز أن تُوصفَ بالمعرفة.
(٥) لا أعرف لمن هذه القراءة وذكرها صَاحب التبيانِ ١١٧٦.
(٦) الكَسَرَات والياء. (٧) البحر ٨/ ١٢٦.

فصل

هذا جواب لكلام مقدر، كأن الكافر حين يلقى في النار يقول: ربنا أطغاني شَيْطَانِي، فيقول الشيطان: ربنا ما أطغيته بدليل قوله تعالى: ﴿لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾؛ لأن المخاصمة تستدعي كلاماً من الجانبين ونظيره قوله تعالى في سورة «ص»: ﴿قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ [ص: ٦٠] إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَالِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾(١) [ص: ٦٤]. قال الزمخشري: وهذا يدل على أن المراد بالقرين في الآية المتقدمة هو الشيطان لا الملك الذي هو شهيد وقعيدٌ(٢)، وعلى هذا فيكون قوله: «رَبَّنَا مَا أطغيته»، مناقضاً لقوله: أعتدته.

قال ابن الخطيب: وللزمخشري أن يُجِيبَ بوجهين:

أحدهما: أن يقول: (إن قول)(٣) الشيطان: أعتدته بمعنى زَيَّنْتُ له.

والثاني: أن تكون الإشارة إلى حالين، ففي الحالة الأولى أنا فعلت به ذلك إظهاراً للانتقام مِنْ بني آدم وتصحيحاً لقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] ثم إذا رأى العذاب وهو معه مشترك يقول: رَبَّنَا ما أَطْغَيْتُه فيرجع عن مقاله عند ظهور العذاب(٤). قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومقاتل: المُرادُ بالقرين هنا: الملك أي يقول الكافر: ربِّ إن الملك زاد عليّ في الكتابة فيقول الملك: رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ يعني ما زدت عليه وما كتبت إلا ما قال وعمل «وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدِ» أي طويل لا يرجع عنه إلى الحق(٥).

فإن قيل: القائل هنا واحد وقال: رَبَّنَا ما أطغيته ولم يقل: ربِّ وفي كثير من المواضع القائل واحد وقال: ربّ، كقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] وقال نوح: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ [نوح: ٢٨] ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [نوح: ٢٦] ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣] ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا﴾ [التحريم: ١١] «رَبِّ فَأَنْظِرْنِي»(٦).

فالجواب: أن في جميع تلك المواضع القائل طالب، ولا يحسن أن يقول الطالب يا رب أعطني وإنما يحسن أن يقول: أعطِنا لأن كونه: «رَبًّا» لا يناسب تخصيصَ الغَالِبِ. وأما هنا فالموضع موضع هبة وعظَمة وعرض حال فقال: ربنا ما أطغيته.

فإن قيل: ما الوجه في اتِّصاف الضَّلالِ بالبُعْدِ؟

---

(١) وانظر الرازي السابق.
(٢) انظر الكشاف ٤/ ٧.
(٣) زيادة من (أ).
(٤) وانظر الرازي ٢٨/ ١٦٩، ١٧٠.
(٥) البغوي والخازن ٦/ ٢٣٦ و ٢٣٧.
(٦) في النسختين تبعاً للرازي: «قال رب انظرني وهذا لحن فالقرآن: «رَبِّ» بلفظ الرب فأنظِرْنِي» وهي الآية ٣٦ من الحجر و ٧٩ من سورة «ص».

فالجواب: أن الضلال يكون أكثر ضلالاً من الطريق فإذا تَمَادى في الضلال وبقي فيه مدة يبعد عن المقصِد كثيراً، وإذا عدم[١] الضلال قَصُرَت الطريق عن قريب فلا يبعد عن المقصد كثيراً فقوله: «ضلال بعيد» وصف للمصدر بما يوصف به الفاعل، كما يقال: كلامٌ صَادقٌ، وعيشةٌ راضيةٌ أي (و)[٢] ضلال ذو بعد والضلال إذا بعد مَدَاه وامتد الضلال فيه فيصير بَيِّناً ويظهر الضلال لأن من حَادَ عن الطريق (وبَعُد عنه يبعد عليه الصواب[٣] ولا يرى للمقصد أثراً فيبَّن له أنه ضلّ عن الطريق) وربما يقع في أَوْدِيَةٍ ومَفاوزَ تظهر له أماراتُ الضلال بخلاف من حَادَ قليلاً، فالضلال وصفه الله بالوصفين في كثيرٍ من المواضع، فتارةً قال: «في ضلال مبين»، وأخرى: «في ضلال بعيد».

فإن قيل: كيف قال: ما أطغيته مع أنه قال: «لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ»؟

فالجواب من ثلاثة أوجه تقدم منها وجهان في الاعتذار عما قاله الزمخشري.

والثالث: أن المراد من قوله: «لأغوينهم» أي لأُديمنّهم على الغِوَاية كما أنّ الضالّ إذا قال له شخص: أنت على الجَادَّة فلا تترُكها، يقال: إنه يضله. كذا ههنا، فقوله: «ما أطغيته» أي ما كان ابتداء الإطغاء مِنِّي[٤].

قوله: «لاَ تَخْتَصِمُوا» استئناف أيضاً كأن قائلاً قال: فماذا قال الله له؟ فأجيب: يقال لا تختصموا[٥] وقوله: «لَدَيَّ» يفيد مفهومه أنَّ الاختصام كان ينبغي أن يكون قبلَ الحضورِ، والوقوفِ بين يَدَيَّ[٦].

قوله: «وَقَدْ قَدَّمْتُ» جملة حالية، ولا بدّ من تأويلها، وذلك أن النهي في الآخرة وتقدمه الوعد في الدنيا، فاختلف الزمنان فكيف يصح جعلها حالية؟ وتأويلها هو أن المعنى وقد صح أني قَدَّمْتُ وزمان الصحة وزمان النهي واحدٌ[٧]. و «قَدَّمْتُ» يجوز أن يكون «قدمت» على حاله متعدياً والباء مزيدة في المفعول أي قدمت إليكم الوعيد، كقوله تعالى: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] على قول من قال بزيادتها هناك. وقيل: الباء هنا للمصاحبة، كقولك: اشْتَرَيتُ الفَرَسَ بِلِجامِهِ وسَرْجِهِ أي معه فكأنه قال: قدمت إليكم ما يجب مع الوعيد عليَّ تركه والإنذار[٨].

---

(١) كذا في النسختين وفي الرازي: علم.

(٢) زيادة من النسختين لا معنى لها.

(٣) ما بين القوسين سقط من الأصل بسبب انتقال النظر.

(٤) وانظر تفسير العلامة الفخر ٢٨/ ١٦٨.

(٥) قاله أبو حيان في البحر ٨/ ١٢٦ والزمخشري في الكشاف ٤/ ٨.

(٦) وهو قول الرازي في تفسيره الكبير السابق ٢٨/ ١٦٩.

(٧) بالمعنى من الكشاف ٤/ ٨ والبحر ٨/ ١٢٨. أقول: وصحة التقديم بالحال على هذا التأويل مقارنة.

(٨) في (ب) بالإنذار ـ بالباء ـ وانظر الرازي ٢٨/ ١٦٩.

قوله: «مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ» أي لا تبديل لقولي، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]. وقيل المعنى ما يبدل القول لديَّ أي ما يكذب عندي ولا يغير القول عن وجهه لأني أعلمُ الغيب. وهذا قول الكلبي(١)، ومقاتل، واختيار الفراء(٢)؛ لأنه قال: «ما يبدَّل القول لدي» ولم يقل: «ما يبدل قولي»(٣). وقيل: معناه ما يبدل القول السابقُ أنّ هذا شقي وهذا سعيد حين خلقت العباد، فذلك القول عندي لا تبديل له بسَعي ساع. وهذا ردّ على المُرْجِئَةِ حيث قالوا: ما ورد في القرآن من الوَعيد فَهُو تخويفٌ ولا يحقّق اللَّهُ منه شيئاً، وقالوا: الكريم إذا وعد بخير وَفَى، وإذا أوعد أخْلَفَ وَعَفَا. وقيل: المعنى ما يُبَدَّلُ الكفر بالإيمان لَدَيَّ، فإن القيام عند القيام بين يدي الله في القيامة غير مقبول(٤) فقوله: «مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ» إشارة إلى نفي الحال، كأنه قال: ما يبدل اليومَ لدي القول؛ لأن «ما» إذا دخلت على الفعل المضارع ينفى بها الحال، تقول: مَاذَا يَفْعَلُ زَيْدٌ فِي بَيْتِهِ؟ فيقال: مَا يَفْعَلُ شيئاً أي في الحال فإذا قلت: ماذا يَفْعَلُ غداً؟ قيلَ: لا يفعل شيئاً إذا أريد زيادة بيان النفي(٥).

قوله: «وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ» أي فأعاقبهم بغير جُرْم. واعلم أن الظلاَّم مبالغةٌ في الظالم ويلزم من إثباته إثباتَ أصل الظلم فإذا قال القائل: هو كذاب يلزم أن يكون كثيرَ الكَذِب، فلا يلزم من نفيه نفي أصلِ الكذب لجواز أن يقال: ليس بكذاب كثير الكذب لكنه يكذب أحياناً(٦). فقوله: «مَا أَنَا بِظَلاَّمٍ» يفهم منه نَفي أصلِ الظلم وأن الله ليس بظالم. والوجه في ذلك من وجوه:

الأول: أن الظلام بمعنى الظالم كالتمار بمعنى التامر، فيكون اللام في قوله: «للعبيد» لتحقيق النِّسبةِ لأن الفَعَّال حينئذ بمعنى ذي ظلم.

الثاني: قال الزمخشري: إن ذَلِكَ أمرٌ تقديريّ كأنه تعالى يقول: لو ظلمتُ عبدي الضعيفَ الذي هو محلّ الرحمة لكان ذلك غايةَ الظلم(٧) وما أنا بذلك، فيلزم من نفي كونه ظلاماً نفي كونه ظالماً، ويحقق هذا الوجه إظهار لفظ العبيد حيث قال: «وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ» أي في ذلك اليوم الذي أملأ فيه جهنم مع وُسْعِها حتى تَصِيحَ وتقول: لم يبق لِيَ طاقةٌ بهم، ولم يبق فيَّ موضع لهم، «فَهَلْ مِنْ مَزِيدٍ» استفهام إنكار.

---

(١) البغوي والخازن ٦/ ٢٣٧.

(٢) قال: ما يكذب عندي لعلمه ـ عز وجل ـ بغيب ذلك. وانظر معاني الفراء ٣/ ٧٩.

(٣) في البغوي: يُبَدَّلُ لِي.

(٤) ذكر هذه الأقوال الرازي في تفسيره دُون نسبة لقائليها ٢٨/ ١٦٩ و ١٧٠.

(٥) السابق. (٦) السابق.

(٧) قال ـ رحمه الله ـ في الكشاف ٤/ ٩: «لو عذبت من لا يستحق العذاب لكنت ظلاماً مفرط الظلم فنفى ذلك».

الثالث: أنه لمقابلة الجمع بالجمع، والمعنى أن ذلك اليوم مع أني أُلْقِي في جهنم عدداً لا حصر له لا أكون بسبب كثرة التعذيب كثيرَ الظلم لأنه قال: «وما أنا بظلام للعبيد، يَوْمَ نَقُولُ» ولم يقل: مَا أَنَا بِظَلاَّمٍ في جميع الأزمان. وخصص بالعبيد حيث قال: «ما أنا بظلام للعبيد»، ولم يطلق فكذلك خصص[1] النفي بنوع من أنواع الظلم ولم يطلق، ولم يلزم منه أن يكون ظالماً في غير ذلك الوقت.

وبقية الأوجه مذكورة في آل عِمْرَانَ عند قوله: «بظلام للعبيد» ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾[2] [آل عمران: ١١].

فصل

هذه الآية تدل على أن التخصيص بالذكر لا يدل على نفي ما عداه؛ لأنه نفى كونه ظلاماً ولم يلزم منه كونهُ ظالماً للعبيد ولم يلزم منه كونه ظلاَّماً لِغَيْرِهم.

فصل

يحتمل أن يكون المراد الكفار كقوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ [يس: ٣٠]، والمعنى أعذبهم وما أنا بظلام لهم، ويحتمل أن يكون المراد المؤمنين. والمعنى أن الله تعالى يقول: لو بدلت قولي ورحمت الكافر لكنت في تكليف العباد ظالماً لعبادي المؤمنين لأني منعتهم من الشهواب لأجل هذا اليوم فلو كان ينال من لم يأتِ بما أتى به المؤمن لكان إتيان المؤمن بما أتى به من الإيمان والعبادة غير مفيد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠] وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] ويحتمل أن يكون المراد التعميمَ.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ نقولُ لِجَهنَّمَ**﴾ يوم منصوب إما «بظَلاَّم»[3] ولا مفهوم لهذا؛ لأنه إذا لم يظلم في هذا اليوم فنفي الظلم عنه في غيره أحرى. أو بقوله: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ». والإشارة بذلك إلى: يَوْمَ نَقُولُ. قاله الزمَخْشَرِيّ[4]. واستبعده أبُو حَيَّان؛ لكثرة

(١) والفائدة في التخصيص أنه أقرب إلى التصديق من التعميم.

(٢) ولا أعرفُ مناسبة الآية الأخيرة لما قَبْلَهَا.

(٣) وهو أحد قولي الزمخشري في الكشاف ٤/ ٩ ثم أبي حيان في البحر ٨/ ١٢٧ وأحد أقوال الرازي في تفسيره الكبير ٢٨/ ١٧٤.

(٤) الكشاف المرجع السابق.

الفواصل[١] أو باذْكُرْ مقدراً أو بأنْذِرْ[٢]. وهو على هذين الأخيرين مفعول به لا ظرف. وقرأ نافعٌ وأبو بكْرٍ: يَقُولُ لِجَهَنَّم بياء الغيبة[٣]، والفاعل: الله تعالى، لتقدم ذكره في قوله: «لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ» والأعمش: يُقالُ[٤] مبنياً للمفعول. وقوله: «هَل امْتَلأتِ» وذلك لما سبق من وعده إياها أنه يملأها من الجنَّةِ والنَّاسِ وهذا السؤال من الله ـ عزّ وجلّ ـ لتصديق خبره وتحقيق وَعْدِهِ.

قوله: «هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» سؤال تقرير وتوقيف[٥]. وقيل: معناه النفي. وقيل: السؤال لخزنتها والجواب منهم، فلا بدّ من حذف مضاف أي نقولُ لخزنة جهنم ويقولون ثم حذف[٦]. و «المزيد» يجوز أن يكون مصدراً[٧] أي مِنْ زيادةٍ وأن يكون اسمَ مفعول أي من شيءٍ تَزيدُونه أَحْرِقُهُ.

فصل

قال المفسرون: معنى قوله: هل من مزيد أي قد امتلأتُ ولم يبق فِيَّ موضعٌ لم يمتلىء، فهو استفهام إنكار بمعنى الاستزادة، رواه أبو صالح عن ابن عباس (رضي الله عنهم[٨]) وعلى هذا يكون السؤال وهو قوله: هل امتَلأتِ قبل دخول جميع أهلها فيها. روي عن ابن عباس: أن الله تعالى سبقت كلمته: لأمْلأَن جهنم من الجنة والناس أجمعين، فلما سبق أعداء الله تعالى إليها لا يلقى فيها فوجٌ إلا ذهب فيها ولا يَمْلأُها فتقول: ألستَ قد أقسمتَ لتَمَلأنّي فيضع قدمه عليها ثم يقول: هل امْتَلأتِ؟ فتقول: قَطْ قَطْ قَد امتلأت وليس فِيَّ مزيد[٩].

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ قربت وأدنيت[١٠] وقوله: «غَيْرَ بَعِيدٍ» يجوز أن يكون حالاً من «الجنة» ولم يؤنث؛ لأنها بمعنى البُسْتَان، أو لأن «فَعِيلاً» لا يؤنث؛ لأنه بزنة

(١) قال: «وهذا بعيد جداً قد فصل على هذا القول بين العامل والمعمول بجمل كثيرة فلا يناسب هذا القول فصاحة القرآن وبلاغته» وانظر البحر ٨/ ١٢٧.

(٢) وانظر البحر والكشاف السابقين.

(٣) وهي قراءة سبعية متواترة انظر الكشاف لمكي ٢/ ٢٨٥ والسبعة ٦٠٧ والقرطبي ١٧/ ١٨.

(٤) مشى المؤلف في نسبته تلك كما مشى أبو حيان في البحر ٨/ ١٢٧ وقد نسبها ابن خالويه في المختصر ١٤٤، والقرطبي في الجامع ١٧/ ١٨ إلى ابن مسعود بينما نَسَبها أبو الفتح في المحتسب إليهما هما والحسن وانظر المحتسب ٢/ ٢٨٤.

(٥) في البحر: السؤال من الله تقرير ومن النار حقيقة.

(٦) وقد نقل أبو حيان في البحر هذا الرأي للرماني ٨/ ١٢٧.

(٧) أي مصدراً ميمياً من الثلاثي. (٨) زيادة من (أ).

(٩) وانظر هذا في تفسير البغوي على الخازن والخازن أيضاً ٦/ ٢٣٧ و ٢٣٨.

(١٠) قاله ابن قتيبة في الغريب ٤١٩ وأبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٢٤.

المصادر، قاله الزمخشري[١] ومنعه أبو حيان[٢]، وقد تقدم في قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الأعراف: ٥٦] ويجوز أن يكون منصوباً على الظرف المكاني، أي[٣] مكاناً غير بعيد، ويجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف أي إزلافاً غير بعيد، وهو ظاهر عبارة الزمخشري، فإنه قال: أو شيئاً غير بعيد[٤].

فإن قيل: ما وجه التقريب مع أن الجنة مكانٌ، والأمكنة يقرب منها وهي لا تقرب؟ فالجواب من وجوه:

الأول: أن الجنة لا تزال ولا يؤمر المؤمن في ذلك اليوم بالانْتِقَال إليها مع بعدها لكن الله تعالى يطوي المسافة التي بين المؤمن والجنة فهو التقريب.

فإن قيل: فعلى هذا ليس إزْلاف الجنة من المؤمن بأولى من إزْلاَفِ المؤمنِ من الجنة فما فائدة قوله: «أزلفت الجنة»؟

فالجواب: أن ذلك إكرام للمؤمن وبيان لشرفه، وأنه مِمَّنْ يمشى إليه.

الثاني: قربت من الحصول في الدخول لا بمعنى القرب المكاني.

الثالث: أن الله تعالى قادر على نقل الجنة من السماء إلى الأرض فيقربها للمؤمن ويحتمل أنها أُزْلِفَتْ بمعنى جَمَعَت محاسنها، لأنها مخلوقة، وإما بمعنى قرب الحصول لها لأنها تنال بكلمة وحسنة وخص المتقين بذلك لأنهم أحقّ بها[٥].

قوله: «هَذَا مَا تُوعدُونَ» هذه الجملة يجوز فيها وجهان:

أحدهما: أن تكون معترضة بين البَدَلِ والمُبْدَلِ منه، وذلك أن «لِكُلِّ أَوَّاب» بدل من «المتقين» بإعادة العامل[٦].

والثاني: أن تكون منصوبة بقول مُضْمَرِ، ذلك القول منصوب على الحال أي مقولاً لهم[٧]. وقد تقدم في (سُورَة)[٨] «ص» أنه قرىء: يُوعَدُونَ بالياء والتاء[٩].

---

(١) الكشاف ٤/ ١٠ قال: والمصادر يستوي فيها الوصف بالمذكّر والمؤنّث.

(٢) أوضح أبو حيان كلامه قائلاً: «يعني بعيد، لأنه على زنة المصدر كالصَّلِيلِ، والزَّئِير، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث قال: وكونه على وزن المصدر لا يسوغ أن يكون المذكر صفة للمؤنث». أقول: ورد أبي حيان على الزمخشري ضعيف حيث ورد القرآن به في قوله: «إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ المُحْسِنِينَ».

(٣) وهو قول الزمخشري ثم أبي حَيَّان في مرجعيهما السابقين.

(٤) الكشاف المرجع السابق.

(٥) انظر تفسير الإمام ٢٨/ ١٧٤ و ١٧٥.

(٦) وهو قول الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٠.

(٧) وهو قول أبي البقاء في التبيان ١١٧٦.

(٨) زيادة لتوضيح السياق.

(٩) العامة على توعدون للخطاب وابن كثير على الياء على الخبر، لأنه أتى بعد ذكر المتقين وانظر القرطبي ٨/ ١٧، ٢٠ والإتحاف ٣٩٨.

ونسب أبو حيان قراءة الياء من تحت هنا لابن كثير، وأبي عمرو[١]، وإنما هي عن ابن كثيرٍ وَحْدَهُ.

فصل

والأواب الرَّجَّاعُ، قيل: هو الذي يَرْجِعُ عن الذنوب إلى الاستغفار والطاعة، قال سعيد بن المُسَيِّب: هو الذي يُذْنبُ ثم يتوب، ثم يُذْنِبُ ثم يتوبُ. وقال الشَّعْبِيُّ ومجاهدٌ: هو الذي يذكر ذنوبهُ في الخَلاَءِ فيستغفر منها. وقال عطاء، وابن عباس: هو المسبِّح من قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠] وقال قتادة: هو المصلِّي. والْحَفِيظُ: هو الذي يحفظ تَوبته من النَّقص. وقال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٢] ـ هو الذي يحفظ ذُنُوبَهُ حتَّى يرجع عنها ويستغفر منها. وقال ابن عباس أيضاً: الحفيظ لأمر الله، وقال قتادة: الحفيظ لما استودعه الله من حقِّه[٣]. والأَوَّابُ والحفيظ كلاهما من باب المبالغة أي يكون كثيرَ الأَوْبِ شديدَ الحِفْظِ.

قوله: «مَنْ خَشِيَ» يجوز أن يكون مجرور المَحَلّ بدلاً، أو بياناً لـ «كُلّ». وقال الزمخشري: يجوز أن يكون بدلاً بعد بدل تابعاً لكل. انتهى. يعني أنه بدل من كل بعد أن أبدلت «لكلّ» من «لِلْمُتَّقِينَ»[٤]. ولم يجعلْه بدلاً آخر من نفس «لِلْمُتَّقِينَ» لأنه لا يتكرر البدل والمبدل منه واحد[٥]. ويجوز أن يكون بدلاً من موصوف «أَوَّابٍ وحَفِيظٍ» قاله الزمخشري[٦]. يعني أن الأصل لكلّ شخص أوابٍ، فيكون «مَنْ خَشِيَ» بدلاً من «شَخْص» المقدر. قال: ولا يجوز أن يكون في حكم «أواب وحفيظ»؛ لأن «مَنْ» لا يوصف بها[٧]، لا يقال: الرجلُ مَنْ جاءني جالسٌ، كما يقال: الرجل الذي جَاءَني جالسٌ. والفرق بينهما يأتي في الفصل بعده. ولا يوصف من بين الموصولات إلاَّ بالَّذي[٨] يعني بقوله: «في حكم أواب» أن يجعل من صفة. وهذا كما قال لا يجوز، إلا أنَّ أبا حَيَّانَ استدرك عليه الحَصْرَ وقال: بل يوصف بغير الذي من الموصولات كوصفهم بما فيه أل الموصوفة، نحو: الضَّارِبُ والمَضْرُوب[٩]، وكوصفهم بذُو وذاتِ الطَّائِيَّتَين نحو قولهم: «بالْفَضْلِ ذُو فَضَّلَكُم اللَّهُ بِهِ، والْكَرَامَةِ[١٠] ذات أَكْرَمَكُمْ بِهِ»[١١].

---

(١) البحر ٨/ ١٢٧.
(٢) زيادة من (أ).
(٣) وانظر هذه الأقوال في البغوي والخازن ٦/ ٢٣٨ والقرطبي ١٧/ ٢٠.
(٤) نقله في الكشاف ٤/ ١٠ وانظر التبيان ١١٧٦ والبحر ٨/ ١٢٧.
(٥) قاله أبو حيان في المرجع السابق.
(٦) الكشاف المرجع السابق.
(٧) الكشاف المرجع السابق.
(٨) السابق.
(٩) فأل هنا في الفاعلية والمفعولية صفة لما قبلها و «ضارب ومضروب» صلتان أي الَّذِي هو ضاربٌ والذي هو مَضروبٌ.
(١٠) فذو ذات صفتان لما قبلهما أي الفضل الذي أكرمكم والكرامة التي أكرمكم.
(١١) انظر بحر أبي حيان المحيط ٨/ ١٢٧.

وقد جوز ابن عطية في: «مَنْ خَشِيَ» أن يكون نعتاً لما تقدم[١]. وهو مردود بما تقدم[٢]. ويجوز أن يرتفع: مَنْ خَشِيَ على أنه خبر ابتداءٍ مضمر[٣] أو ينصب بفعل مضمر[٤]، وكلاهما على القطع المُشْعِر بالمَدْح[٥]، وأن يكون مبتدأ خبره قولٌ مضمر ناصبٌ لقوله: ادْخُلُوهَا[٦] وحُمِلَ أولاً على اللفظ وفي الثَّاني على المَعْنَى[٧].

وقيل: مَنْ خَشِيَ منادى حذف منه حرف النداء أي يَا مَنْ خَشِيَ[٨] ادْخُلُوهَا باعتبار الجملتين المتقدمتين وحَذْفُ حرف النداء سائغٌ[٩]. وأن تكون شرطية وجوابها محذوف وهو ذلك القول، ولكن ردّ معه فاء أي فيقال لهم[١٠]. و «بالْغَيْبِ» حال أي غائباً عنه، فيحتمل أن يكون حالاً من الفاعل أو المفعول[١١] أو منهما، وقيل: الباء المسببة أي خشيةً بسبب الغَيْب الذي أوعد به من عذابه[١٢]. ويجوز أن يكون صفة لمصدر خشي أي خَشِيهُ خشْيَةً مُلتَبِسَةً بالْغَيْبِ[١٣].

فصل

قال ابن الخطيب: إذا كان «مَنْ والَّذي» يشتركان في كونهما من الموصولات فلماذا لا يشتركان في جواز الوصف بهما؟

فنقول: «ما» اسم مبهم يقع على كل شيء فمفهومه هو شيء، لكن الشيء هو أعم الأشياء فإن الجَوْهَرَ شيء، والعَرَضَ شيء، والواجب شيء، والممكن شيء، والأَعَمُّ قبل الأخص في الفهم لأنك إذا رأيت شيئاً[١٤] من البعد تقول أولاً: إنَّه شيء، ثم إذا ظهر لك منه ما يختص بالناس تقول: إنسان، فإذا بان لك أنه ذكر قلت: إنه رجل، فإذا وجدته ذا قوة تقول: شجاعٌ إلى غير ذلك فالأعَمّ أعرف، وهو قبل الأخَص في الفهم، فلا يجوز أن يكون صفة، لأنَّ الصفة بعد الموصوف. هذا من حيث المعقول، وأما من

(١) وهو أواب حفيظ.
(٢) من أن «مَنْ» لا ينعت بها.
(٣) التبيان ١١٧٦.
(٤) أي هم من خشي وأعني من خشي.
(٥) بتوضيح وتبيين من المؤلف لكتاب التبيان للعكبري ١١٧٦.
(٦) ذكر هذا الوجه الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٠ ثم أبو حيان في البحر ٨/ ١٢٧.
(٧) معنى الجمع وانظر الكشاف والبحر السابقين.
(٨) السابقين وذكره أيضاً الرازي ٢٨/ ١٧٧ قال: «وهو أغربُهَا».
(٩) وقد حذف حرف النداء للتقريب كما قالوا: من لا يزال محسناً أحسن إلي. وانظر المرجعين السابقين.
(١٠) لم أعثر على ذلك القول لمعين وهو في الحقيقة رأي وجيه.
(١١) وهو اختيار الزمخشريّ وأبي حيان في مرجعيهما السابقين الكشاف ٤/ ١٠ والبحر ٨/ ١٢٨.
(١٢) و (١٣) المرجعين السابقين أيضاً. وقد تناثرت أقوالٌ من هذه الأقوال في معَانِي الفراء ٣/ ٧٩ والبيان ٢/ ٣٨٧ ومشكل الإعراب ٢/ ٣٢١.
(١٤) في الرازي: شَبَحاً.

حيث النَّحْو، فلأن الحقائق لا يوصف بها، فلا يقال: جِسْمُ رَجُلٍ جَاءَنِي، كما يقال: جِسْمُ نَاطِقٍ جَاءَنِي؛ لأنَّ الوصف يقوم بالموصوف والحقيقة تقوم بنفسها لا بغيرها(١). فقولنا: عالم أي شيء له علم(٢).

فصل

والخَشْيَةُ والخَوْفُ معناهما واحد عند أهل اللغة، لكن بينهما فَرْقٌ، وهو أن الخشية خوفٌ من عَظَمَةِ المَخْشِيِّ، لأن تركيب حروف «شَ يَ خَ» في تقاليبها يلزمه معنى الهيبة، يقال: شَيْخٌ لِلسَّيِّدِ وللرجل الكبير السِّنِّ، وهما جميعاً مَهِيبَان والخوف خشيةٌ من ضعف الخاشي، لأنَّ تركيب «خَ وَ ف» في تقاليبها يدل على الضعف، ويدل على ذلك أنه حيث كان الخوف من عظمة المخشيّ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] وقال: ﴿هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] مع أن الملائكة والجبل أقوياء وحيث كان الخوفُ من ضعف الخاشِي سماه خوفاً قال تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] أي بسبب مكروه يلحقكم في الآخرة. وقال تعالى: ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨] وقال: «إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ»(٣) لوحدته وضعفه هذا في أكثر الاستعمال وربما يتخلف (المُدَّعَى عنه لكن الكثرة كافية)(٤).

فصل

معنى الآية من خاف الرحمن فأطاعه بالغيب، ولم يره. وقال الضّحاك والسّدي: يعني في الخلوة حيث لا يراه أحد. قال الحسن: إذا أرخى الستر وأغلق الباب.

«وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ» هذه صفة مدح، لأن شأن الخائف أن يَهْرب، فأما المتقي فجاء ربه لعلمه أنه لا ينجي الفِرار منه(٥).

وقوله: «مُنِيبٍ» أي مخلص مقبل على طاعة الله تعالى. والباء في «بِقَلْبٍ» إما للتعدية(٦)، وإما للمُصَاحَبة(٧)، وإما للسببية(٨).

---

(١) وكل ما يقع وصفاً للغير يكون معناه شيء له كذا.

(٢) وتلك من المقولات الفلسفية التي اشتهر بها الإمام الفخر الرازي وتوضيح الكلام أن من خشي عند الرازي وقصده حقيقة لا تقوم بغيرها فهي غير تامة. وانظر تفسيره ٢٨/ ١٧٧.

(٣) الأصَحّ قرآنياً: فأخاف وهي ١٤ من الشعراء و ٣٣ من القصص.

(٤) زيادة من الرازي لتحقيق المراد وتوضحيه وانظر الرازي المرجع السابق.

(٥) البغوي ٦/ ٢٣٨ والقرطبي ١٧/ ٢١.

(٦) أي أحضر قلباً سليماً.

(٧) أي مع قلب.

(٨) وهي الأغرف. وانظر الرازي المرجع السابق. والسببية معناها جاء بسبب قلبه المنيب.

والقلب المنيب كالقلب السليم في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤] أي سليم من الشرك.

قوله: «ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ» الجار والمجرور حال من فاعل «ادْخُلُوهَا» أي سالمين من الآفات فهي حال مقارنة[١]، أو مسلّماً عليكم فهي حال مقدرة[٢] كقوله: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. كذا قيل[٣] وفيه نظر، إذ لا مانع من مقارنة وتسليم الملائكة عليهم حال الدخول بخلاف فَادْخُلُوهَا خالدينَ فإنه لا يعقل الخلود إلا بعد الدخول[٤]، والضمير في «ادْخُلُوهَا» عائد إلى الجنة، أي ادخلوا الجنة بسلامةٍ من العذاب والهموم وقيل: بسلام من الله وملائكته عليهم[٥].

قوله: «ذَلِكَ يَوْمُ الخُلُودِ» قال أبو البقاء: أي ومن ذلكَ يَوْمُ الخلود[٦] كأنّه جعل «ذَلِكَ» إشارة إلى ما تقدم من إنعام الله عليهم بما ذكره، وقيل «ذَلك» مشارٌ به لما بعده من الزَّمان، كقولك: هَذَا زَيْدٌ[٧]. قال الزمخشري: في قوله: «ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُود» إضمار تقديره: ذَلِكَ يَوْم تَقْرِير[٨] الخُلُود. ويحتمل أن يقال: اليوم يُذْكَرُ ويراد به الزمان المطلق سواء كان يوماً أو ليلاً، تقول: يَوْمَ يُولَدُ لِفُلاَنَ[٩] يكون السرورُ العظيمُ، ولو ولد له بالليل لكان السرور حاصلاً فالمراد به الزّمان فكأنه تعالى قال: ذَلك زَمَانُ الإقامة الدَّائِمَةِ[١٠].

فإن قيل: المؤمن قد علم أنه إذا دخل الجنة خلد فيها فما فائدة القول؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن قوله: «ذَلِكَ يَوْمُ الخُلُودِ» قول قاله الله في الدنيا، إعلاماً وإخباراً، وليس ذلك قولاً يقولُه عند قوله: «ادخلوها»، فكأنه تعالى أخبر في يومنا أنَّ ذلك اليوم يومُ الخلود.

---

(١) والحال المقارنة هي المقارنة لعاملها وهو الغالب فيها.

(٢) وهي المستقبلة نحو: «مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مَعَهُ سَيْفٌ مقاتلاً به غداً» أي مقدراً ذلك. وعلى ذلك فالتنظير في الآية معناه: يسلّم عليكم بعد.

(٣) ذكره أبو حيان في بحره المحيط دون أن يحدد من قال به وانظر البحر ٨/ ١٢٨.

(٤) أي أن الحال المقارنة تظهر أكثر في تلك الآية آية «ق» من آية الزمر وفي ذلك اعتراض على أبي حيان صاحب الرأي أصلاً. ويُلْمَحُ من كلام الزمخشري في الكشاف مقارنة الحال وتقديرها في آية «ق» هذه وهي «بسلاَم».

(٥) البغويّ في معالم التنزيل ٦/ ٢٣٨.

(٦) التبيان ١١٧٧.

(٧) لم أعثر عليه لمعين.

(٨) في النسختين كذلك وفي الكشاف: تقديره بالدال وكلاهما متقاربان.

(٩) في (ب) له بدل لفلان.

(١٠) وهو رأي وجيه من المؤلف وإن كان قليلاً بالنسبة إلى الدقة. وقد نقله عن الرازي في تفسيره الكبير انظر ٢٨/ ١٨٠.

الثاني: أن اطمئنان القلب بالقول أكثر[١].

قوله: «لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا» يجوز أن يتعلق «فيهَا» بـ «يشاؤون» ويجوز أن يكون حالاً من الموصول[٢]، أو من عائِدِهِ[٣] والأول أولى.

فصل

ما الحكمة في أنه تعالى قال: ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ على المخاطبة، ثم قال: «لَهُمْ» ولم يقل: لَكُم؟

فالجواب من وجوه:

الأول: أن قوله تعالى: «ادْخُلُوهَا» فيه مقدر، أي فيُقَال لَهُمُ ادْخُلُوها. فلا يكون التفاتاً.

الثاني: أنه التفات، والحكمة الجمع بين الطرفين، كأنه تعالى يقول: غير محلّ بهم في غيبتهم وحضورهم.

ففي حضورهم الحبور، وفي غيبتهم الحورُ والقُصُور.

الثالث: أنه يجوز أن يكون قوله تعالى: «لَهُمْ» كلاماً مع الملائكة، يقول للملائكة توكلوا بخدمتهم، وَاعْلَمُوا أَنّ لهم ما يشاؤون فيها فأَحْضِروا بين أيديهم ما يشاؤون، وأما أنا فعندي ما لا يخطر ببالهم ولا تَقْدِرُون أنتم عليه[٤].

و «المزيد» يحتمل أن يكون معناه الزيادة[٥]، كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] ويحتمل أن يكون بمعنى المفعول[٦]، أي عندنا ما نَزِيدُه على ما يَرْجُون ويَأْمَلُونَ[٧].

قال أنس وجابر: هو النظر إلى وجه الله الكريم[٨].

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ نصب[٩] بما بعده[١٠]. وقدم إما لأنه استفهام، وإما

---

(١) المرجع السابق.
(٢) وهو «ما» من «ما يشاؤون».
(٣) المحذوف وتقديره يشاؤونه وانظر التبيان ١١٧٧.
(٤) الرازي في مرجعه السابق ٢٨/ ١٨١.
(٥) فيكون مصدراً ميمياً من الثُّلاثِيِّ.
(٦) ومعنى المفعول متأتّ من قوله نَزيده أي الهاء.
(٧) وقد قال بهذين الإعرابين الإمام أبو عبد الله فَخْر الدِّين الرازي في مرجعه السابق.
(٨) القرطبي ١٧/ ٢١.
(٩) وهو كم.
(١٠) وهو أهلكنا.

لأن «كم» الخبرية تَجْرِي مَجْرَى الاستفهامية في التصدير. و «مِنْ قَرْنٍ» تمييز و «هُمْ أَشَدُّ» صفة إما «لكَمْ» وإما لِقَرْنْ.

قوله: «فَنَقَّبُوا» الفاء عاطفة على المعنى كأنه قيل: اشتدَّ بطشهم فَنَقَّبُوا[١] والضمير في (نَقَّبُوا) إما للقرون المتقدمة وهو الظاهر وإما لقُرَيْشٍ، ويؤيده قراءة ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٢] ـ وابن يَعْمُرَ[٣]، وأَبِي العَالِيَة[٤]، ونَصْرِ بن يَسَار[٥]، وأبي حيوة، والأصمعي ـ عن أبي عمرو ـ (رضي الله عنهم)[٦] فَنَقِّبُوا[٧] ـ بكسر القاف ـ أمراً لهم بذلك.

والتَّنْقِيبُ التَّنْقِيرُ والتَّفتيش، ومعناه التَّطْوَافُ في البلاد، قال الحارثُ بنُ حِلِّزَةَ:

٤٥١٤ ـ نَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ مِنْ حَذَرِ الْمَو ... تِ وَجَالُوا فِي الأَرْضِ كُلَّ مَجَالِ[٨]

وقال امرؤ القيس:

٤٥١٥ ـ وَقَدْ نَقَّبْتُ فِي الآفَاقِ حَتَّى ... رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالإِيَابِ[٩]

وقرأ ابنُ عَباسٍ وأبو عمرو أيضاً في رواية: نَقَبُوا بفتح القاف خفيفة[١٠]. ومعناها كما تقدم. وقرىء: نَقِبُوا بكسرها خفيفة[١١] أي نَقِبَتْ أقدامُهُمْ وَأَقْدَام إبلهم

---

(١) مشى المؤلف في عرضه لتلك الإعرابات على سبيل التَّوْضِيح والتَّبْيينِ لكلام أبي البقاء العُكْبَرِيّ في التبيان ١١٧٧.

(٢) زيادة من (أ) الأصل.

(٣) هو يحيى بن يعمر وقد عُرِّف به.

(٤) الرِّياحيّ وقد عرف به أيضاً.

(٥) لم أعثر على ترجمته وفي المحتسب: سَيَّار لا يَسَار.

(٦) زيادة من (أ) الأصل.

(٧) وهي شاذة انظر الكشاف ٤/ ١١ والبحر المحيط ٨/ ١٢٩ ومختصر ابن خالويه ١٤٤ ومعاني الفراء ٣/ ٨٠ والمحتسب ٢/ ٢٨٥.

(٨) نسبه السيوطي في الدر المنثور لَهُ ٧/ ٦٨ لِعَدِيِّ بْن زَيْدٍ، والمشهور أنه لِلْحَارِث، وهو من الخفيف ومعناه أنهم طافوا بالبلاد يلتمسون محيصاً من الموت. والشاهد: في نقبوا فإن معناه التطواف كما أوضح أعلى. وانظر القرطبي ١٧/ ٢٠٢ وفتح القدير ٥/ ٨٠ والبحر ٨/ ١٢٩ والكشاف ٤/ ١١ وشرح شواهده ٤/ ٥٠٣.

(٩) من الوافر. وروايته في الديوان ٩٩ بلفظ «وقَد طوفتُ». وروي في اللسان بلفظ: «السلامة» بدل الغَنِيمَةِ. وقد تقدم.

(١٠) ولم تُرْوَ عن أبي عمرو في المتواتر، بل هي شاذَّة ذكرها صاحب الجامع الإمام القرطبي ١٧/ ٢٢ عن الحَسَن وأبي العالية بينما ذكر أبو حيان في البحر ٨/ ١٢٩ والزَّمَخْشريّ في الكشاف ٤/ ١٩ غير ذلك، ذكر أبو حيان قراءة التخفيف مع كسر القاف بينما ذكر الزمخشري التخفيف المطلق دون تحديد كسرٍ أو فتحٍ. وانظر المختصر ١٤٤ أيضاً بالنسبة إلى قائليها بفتح القاف من المحقق لكنه أطلق كالزمخشري.

(١١) نسبها محقق كتاب المختصر لابن يَعْمَرَ وأبي العالية وهو تحريف وقع فيه المحقِّق لا ابن خالويه=

ودَمِيَتْ فحذف المضاف، وذلك لكثرة تَطْوَافِهِمْ[١].

قوله: «هَلْ مِنْ مَحِيصٍ» مبتدأ[٢] أو خبر مضمر تقديره: هل لمن سلك طريقهم. أو هل لهم من محيص[٣]. وهذه الجملة يحتمل أن تكون على إضمار قولٍ[٤] وأن لا تكون[٥].

فصل

المعنى فَنَقَّبُوا أي فضربوا وسافروا وتقلبوا، وأصله من النَّقب وهو الطريق كأنهم سلكوا كُلَّ طريق، فلم يجدوا محيصاً من أمر الله. وعلى هذا فالمراد بهم أهل مكة، أي ساروا في الأسفار ورأوا ما فيها من الآثار ولم يجدوا ملجأً ومهرباً.

وقيل: المعنى صاروا نُقَبَاء في الأرض أراد ما أفادهم بَطْشُهُم وقُوَّتُهُم؛ لأن الفاء تدل على ترتيب الأمر على مقتضاه تقول: كانَ زَيْدٌ أَقوى من عَمْرٍو فَغَلَبَهُ. والمعنى كانوا أشدَّ منهم بطشاً فصاروا نقباءَ في الأرضِ، وهم قوم ثمود الذين جابوا الصخر بالواد، ومن قوتهم خَرَقُوا الطُّرق ونَقَّبُوها وقَطَعُوا الصُّخُورَ[٦].

وقيل: «هَلْ مِنْ مَحِيصٍ» مفر من[٧] الموت، فلم يجدوا. وهذا جمع بين الإنْذارِ بالعذاب العاجل والعقاب الآجل؛ لأنه أنذرهم بما يعجل لهم من العذاب المُهْلِك، والإهلاك المُدْرك. وهذا إنذار لأهل مكة لأنهم على مثل سَبِيلهم.

فإن قيل: إذا كان (ذلك للجمع)[٨] بين الإنذار بالعذاب العاجل والعقاب الآجل فَلِمَ توسَّطَهُمَا قوله تعالى: **﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتقِّين﴾**؟

فالجواب: ليكون ذلك رَدْعاً[٩] بالخوف والطمع، فذكر حال الكفور (المعاند)[١٠]، وحال الشكور ترهيباً وترغيباً.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يجمع بين التَّرْهيب والترغيب في العاجلة كما جمع بينهما في الآجلة ولم يذكر حال من أَسْلَمَ من قبل وأنعم عليه كما ذكر حال من أشرك به وأهلكه؟

= ظاهر الكتب تنسب القراءة إليهما بكسر القاف مع تشديدها. وقد ذكر هذه القراءة أبو حيان في البحر ٨/ ١٢٩ دون نسبة.

(١) المرجع السابق.

(٢) يقصد «محيص» وهو مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

(٣) وهو ظاهر كلام أبي البقاء في التبيان ١١٧٧.

(٤) أي يقولون هل من محيص فتكون لا محلَّ لها من الإعراب مَقُول القَوْلِ.

(٥) أي لا محيص من الموت فيكون توقيفاً وتقريراً. قاله أبو حيان في مرجعه السابق.

(٦) وانظر الرازي ٢٨/ ١٨١ و ١٨٢.

(٧) البغوي ٦/ ٢٣٨.

(٨) سقط من (ب).

(٩) كذا في النسختين وفي الرازي: دعاء.

(١٠) سقط كذلك من (ب).

فالجواب: أن النعمة كانت قد وصلت إليهم، وكانوا مُتَقَلِّبين في النِّعم فلم يُذَكِّرْهم به، وإنما كانوا غافلين عن الهلاك فأنذرهم به وأما في الآخرة فكانوا غافلين عن الأمْرين جميعاً فأخبرهم بها[١].

وقوله: «هَلْ مِنْ مَحِيصٍ» استفهام بمعنى الإنكار أي لم يكن لهم محيصٌ. وقيل: هو كلام مستأنف كأنه تعالى يقول لقوم محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ هم أهلكوا مع قوة بطشهم فهل من محيص لكم تَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ؟

ومن قرأ بالتشديد فهو مفعول أي بحثوا عن المَحِيص «هَلْ من محيص؟»[٢].

والمَحِيصُ كالمَحِيدِ[٣] غير أن المحيص مَعْدَل ومهرب عن الشدة بدليل قولهم: «وَقَعُوا فِي حَيْصَ بَيْصَ»[٤] أي في شدةٍ وضيق، والمَحِيدُ مَعْدَلٌ وإن كان بالاختيار، فيقال: حَادَ عن الطَّرِيق بَطراً[٥]. ولا يقال: حَاصَ عن الأَمر بَطَراً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ ذلك إشارة إلى الإهلاك، أو إلى إزلاف الجنة. و «الذِّكرى» مصدر أي تَذْكِرةٌ وعظةٌ «لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ».

قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٦] ـ: أي عَقْل. قال الفراء: هذا جائز في العربية تقول: مَا لَكَ قَلْبٌ وَلاَ قَلْبُكَ[٧] مَعَكَ، أي عَقْلُك مَعَكَ.

وقيل: له قلب حاضر مع الله[٨]. وقيل: قلبٌ واعٍ؛ وذلك لأن من لا يتذكر كأنَّه لا قلب له، ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] أي هم كالجماد، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤] أي لهم صُوَر، وليس لهم قلب، ولا لسانٌ للشُّكْر[٩].

---

(١) وانظر الرازي ٢٨/ ١٨١.

(٢) ذكر هذه الأوجه الإعرابية أبو عبد الله الرازي الإمام الفخر في مرجعه السابق.

(٣) معنى وفي اللفظ هو: مصدر ميمي أو اسم مفعول وكلاهما من الثلاثي أو اسم مكان أو زمان وهو مثلهما.

(٤) تنطق هكذا: حَيْصَ بَيْصَ، وحِيصَ بيصَ، وحَيْصِ بَيْصِ، وحاصِ باصِ أي في ضيق وشدة، وقيل: في اختلاط من أمر مخرج لهم منه. ونصب «حيص بيص» علَ كلّ حال وإذا أفردوه أجروه وربما تركوا إجراءهُ. وقال الجَوْهريّ: وحَيْصَ بَيْصَ اسمان جُعلا واحداً وبُنِيَا على الفتح مثل جاري بيت بيت. وفي معناهما كلام آخر انظر اللسان إن أردتَ والصِّحَاح «حَيصَ».

(٥) كذا في النسختين وفي الرازي: نظراً والأصح النُّسختان. وانظر هذا كله في الرازي ٢٨/ ١٨٢.

(٦) زيادة من (أ).

(٧) قال وهذا جائز في العربية أن تقول: ما لك قلب، وما قلبك معك، وأين ذهب قلبك؟ تريد العقل لكل ذلك. انظر معاني الفراء ٣/ ٨٠.

(٨) نقله البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢٣٩.

(٩) وقد ذكر هذين الرأيين الأخيرين الإمام الفخر في تفسيره الكبير ٢٨/ ٨٣.

قوله: «أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ» العامة على «أَلْقَى» مبنياً للفاعل، وطَلْحَةُ والسُّلَمِيُّ والسُّدِّيُّ وأبو البرهسم[١]: أُلْقِيَ مبنياً للمفعول «السَّمْعُ» رفع به[٢]. وذكرت هذه القراءة لِعَاصِم عن السّدّيّ فمقته وقال: أليس يقول: يُلْقُونَ السَّمْعَ[٣] وإلقاء السمع كناية عن الاستماع، لأن الذي لا يسمع كأنه حفظ سمعه فأمسكه[٤] والمعنى اسْتَمَع الْقُرْآنَ واستمع ما يقال له، لا يحدث نفسه بغيره، تقول العرب: أَلْقِ إِلَيَّ سَمْعَكَ، أي استمعْ[٥]، أو يكون معناه: لمن كان له قلبٌ فقصد الاستماع، أو أَلْقَى السمع بأن أرْسَلَه وإن لم يقصد السماع[٦].

«وَهُو شَهِيدٌ» حاضر الذِّهن.

ويحتمل أن يقال: الإشارة بذلك إلى القرآن في أول السورة أي في القرآن الذي سبق ذكره ذكرى لِمن كَان لَهُ قلب، أو لمن استمع ويكون معنى «وهو شهيد» أي المنذر الذي تَعَجَّبْتُم منه وهو شهيد عليكم كقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾[٧] [الأحزاب: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّموَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّام﴾** أعاد الدليل مرة أخرى وقد مرّ تفسيره في الَمّ السجدة، فقيل: إن هذا ردّ على اليهود في قولهم: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ استراح يوم السَّبْتِ. والظاهر أنها ردّ على المشركين، أي لم يَعْيَ عن الخلق الأول فكيف يعجز عن الإعادة؟

قال ابن الخطيب: وأشار بقوله: فِي ستَّة أيام إلى ستة أطْوَارٍ لأَنَّ المراد من الأيام لا يمكن أن يكون هو المفهوم من وضع اللغة، لأن اليوم في اللغة عبارة عن زمان مُكْثِ الشَّمْس فوق الأرض من الطُّلوع إلى الغُرُوب. وقيل: خلق السموات لم يكن شمسٌ ولا قمرٌ لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت، يقال: يَوْمَ يُولَدُ لِلْمَلِكِ ابْنٌ يَكُونُ سُرُورٌ عَظِيمٌ ويَوْمَ يَمُوت فُلاَنٌ يَكُون حُزْنٌ شَدِيدٌ، وإن اتفقت الوِلادة أو الموت لئلا لا يتعين ذلك. وقد يدخل في مراد القائل، لأنه أراد باليوم مُجَرّد الوقتِ[٨].

---

(١) سبق التعريف بكل هذه الأعلام.
(٢) على النائب عن الفاعل. وقد ذكر هذه القراءة أبو حيان في البحر ٨/ ١٢٩ وأبو الفتح في المحتسب ٢/ ٢٨٥ وابن خالويه في المختصر ١٤٤، والزمخشري في الكشاف ٤/ ١١.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٢٩.
(٤) قاله الرازي ٢٨/ ١٨٢.
(٥) قاله البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢٣٩.
(٦) الرازي المرجع السابق.
(٧) انظر المرجع السابق.
(٨) الرازي ٢٨/ ١٨٤ في التفسير الكبير.

قوله: «وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ» يجوز أن يكون حالاً[١]، وأن يكون مستأنفاً[٢]. والعامة على ضَمِّ لام اللُّغُوب. وعليٌّ وطلحةُ والسُّلَمِيّ ويَعْقُوبُ[٣] بفتحها. وهما مصدران (بمعنًى)[٤]. وينبغي[٥] أن يضم هذا إلى ما حكاه سِيبويه من المصادر الجائية على هذا الوزن وهي خمسة[٦] وإلى ما زاده الكسائي[٧] وهو الْوَزُوعُ فتصير سبعةً، وقد تقدم هذا في البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] واللّغوب العناءُ والتَّعَبُ[٨].

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من كَذِبِهِمْ، وقولهم بِالاسْتِرَاحَةِ، أو على قولهم: إن هذا لشيء عَجِيبٌ. وهذا قبل الأمر بقتالهم.

«وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» قيل: هذا أمر للنبي ـ ﷺ ـ بالصلاة كقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] وقوله «قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ» إشارة إلى طرفي النهار، وقوله: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ» إشارة إلى «زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ»[٩].

وتقريره أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان مشتغلاً بأمرين:

أحدهما: عبادة الله.

والثاني: هداية الخلق، فإذا لم يهتدوا قيل له: أقبل على شغلك الآخر وهو العبادة.

وقيل: معنى سَبِّحْ بحمد ربك، أي نَزِّههُ عما يقولون ولا تَسْأَمْ من تذكيرهم بعَظَمَةِ الله، بل نَزِّهه عن الشرك والعجز عن الممكن وهو الحشر قبل الطلوع وقبل الغروب؛ فإنهما وقت اجتماعهم ويكون المراد بقوله: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحهُ» أوله، لأنه أيضاً وقت اجتماعهم.

وقيل: المعنى: قُلْ سُبْحَان الله، لأن ألفاظاً جاءت بمعنى التلفظ بكلامهم كقولهم: كَبَّر لمن قال: اللَّهُ أَكْبَرُ وسلَّم لمن قال: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ، وحمَّد لمن قال: الْحَمْدُ لله.

---

(١) فتكون في محل نصب على الحالتين.

(٢) فتكون لا محل لها من الإعراب. وقد قال بهذين الوجهين أبو حيان في البحر ٨/ ١٢٩.

(٣) لم تُرْوَ عنه في المتواتر، وتلك قراءة شاذة ذكرت في البحر المرجع السابق والكشاف ٤/ ١٢، والمحتسب ٢/ ٢٨٥، ومختصر شواذ القراءات لابن خالويه ١٤٥.

(٤) سقط من (ب) قال أبو حيان: الأول مقيس (وهو الضّمّ) وأما الفتح فغير مقيس كالقَبول، والوَلُوع.

(٥) في (ب) وينبني.

(٦) وهي: الوَضُوء، والوَلُوع، والطَّهور، والوَزوع وهو الإغراء، والقَبُول.

(٧) البحر ٨/ ١٢٩.

(٨) القرطبي: ١٧/ ٢٣.

(٩) وانظر الرازي ٢٨/ ١٨٤ و ١٨٥.

وهلّك لمن قال: لاَ آله إلاَّ الله، وسبَّح لمن قال: سُبْحَان الله، وذلك أن هذه أمورٌ تَتَكَرَّر من الإنسان في الكلام، [فدعت][1] الحاجة إلى استعمال لفظة واحدة مفيدة للكلام وقالوا: هلل بخلاف قَوْلِهِمْ: زَيْدٌ فِي السُّوقِ، فإنَّ من قال: زيد في السوق وأراد أن يخبر عنه بذلك لا يجد لفظاً واحداً مفيداً لذلك لعدم تكرره.

ومناسبة هذا الوجه: هو[2] أن تكذيبهم وإنكارهم يقتضي مقابلتهم باللَّعْنِ، فقيل له: اصْبِرْ عَلَيْهِمْ، واجعل بدل الدعاء عليهم التسبيح لله، والحمد لله، «وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ» أو كنوح ـ عليهما الصلاة والسلام ـ حيث قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]

فصل

وقد استعمل التسبيح مع الباء ومع اللام وبدونهما. فإن قلنا: المراد بالتسبيح الصلاة فيحتمل أن يكون المراد بحمد ربك: الأمر بقراءة الفاتحة، كقولك: صَلَّى فلانٌ بسورة كذا. وهذا بعيدٌ.

وإن قلنا المراد: قُلْ سُبْحَانَ اللَّهِ، فالباء للمصاحبة. وكذلك إن قلنا: معناه التَّنْزِيهُ أي نَزِّهْهُ واحمَدْهُ حيث وَفَّقَكَ لتسبيحه فيكون المفعول محذوفاً، للعلم به، أي نزه الله بحمد ربك، أي ملتبساً أو مقترناً بحمد ربك[3].

وأما اللام فإمّا أن يكون من باب شَكَرَ ونَصَحَ[4]، وإما أن يكون معناها خالصاً لله[5].

وأما تعدّيه بنفسه فهو الأصل. وأعاد الأمر للتسبيح، إما تأكيداً وإما أن يكون الأول بمعنى الصلاة، والثاني بمعنى التَّسْبِيح والذكر. ودخلت الفاء؛ لأن المعنى: وأمَّا من الليل فسبحه[6].

ولما ذكر أوقات الصلوات ذكر أدْبَار السُّجود؛ ليَعُمَّ الأوقات فيكون كقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ [الشرح: ٧] و «من» إما لابتداء الغاية، أو[7] مِنْ أوَّل الليل، وإمَّا للتبعيضِ[8].

---

(١) ما بين القوسين سقط من (أ) الأصل.

(٢) في (ب) على.

(٣) قال بهذا كله الإمام الفخر في التفسير الكبير ٢٨/ ١٨٥ بالمعنى منه.

(٤) يقال شَكَرْتُهُ ونَصَحْتُهُ، وشَكَرْتُ لَهُ ونَصَحْتُ لَهُ.

(٥) فيكون لبيان الأظهر، أي يسبحون الله وقلوبهم لوجه الله خالصة. وانظر الرازي المرجع السابق.

(٦) فيكون متضمناً الشرط، فهو كقوله: «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ».

(٧) في (ب) أي وهو الصحيح.

(٨) وانظر الرازي بالمعنى المرجع السابق ٢٨/ ١٨٥.

فصل

قال المفسرون: قبل طلوع الشمس يعني صلاة الصبح، وقبل الغروب يعني العصر، وروي عن ابن عباس: قبل الغروب الظهر والعصر «ومِنَ اللَّيْل فَسَبِّحْهُ» يعني صلاة المغرب، والعِشَاءِ. وقال مجاهد: ومِنَ الليل يَعْنِي صلاة الليل، أيّ وقت صلى[1].

قوله: «وأدبار السجود» قرأ نافع وابن كثير، وحمزة: إدبار بكسر الهمزة[2]، على أنه مصدر قَامَ مَقَام ظَرْف الزمَان كقولهم: آتِيكَ خُفُوقَ النّجم وخِلاَفَة الحجّاج. ومعنى وقت إدبار الصلاة أي انتصابها وتمامها[3]. والباقون[4] بالفتح جمع (دُبُر)[5] وهو آخر الصلاة وعقبها. ومنه قول أوس:

٤٥١٦ ـ عَلَى دُبُر الشَّهْرِ الْحَرَام فَأرْضُنَا ... وَمَا حَوْلَهَا جَدْبٌ سِنُونَ تَلَمَّعُ[6]

ولم يختلفوا في: ﴿وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩].

وقوله: «وأدبار» معطوف إمّا على «قَبْلَ الْغُرُوبِ» وإمّا على «وَمِنَ اللَّيْلِ».

فصل

قال عمرُ بن الخطاب، وعليُّ بن أبي طالب، والحسنُ، والشعبيُّ، والنخعيُّ والأوزاعي: أدبار السجود الركعتان قبل صلاة الفجر، وهي رواية العَوْفي عن ابن عباس. وروي عنه مرفوعاً. وهذا قول أكثر المفسرين. وقال مجاهد: أدبار السجود هو التسبيح باللِّسان في أدبار الصلوات المكتوبات، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَنْ سَبَّحَ فِي دُبُر كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثاً وثلاثين وَكَبَّرَ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ وَحَمَّدَ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ» فَذَلك تِسْعَةٌ وتسعُونَ ثم قال: «تَمَام المِائَةِ لا إله إلا الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ له الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ

---

(١) وانظر تلك المعاني والأقوال في البغوي والخازن ٦/ ٢٣٩ والقرطبي ١٧/ ٢٤.

(٢) وهي سبعية متواترة ذكرت في الكشف ٢/ ٢٨٥، والسبعة ٦٠٧ والإتحاف ٣٩٨.

(٣) والتقدير: ومن الليل فسبحه ووقت أدبار السجود، أي وسبحه وقت. أقول: والمصادر تجعل ظروفاً على تقدير إضافة أسماء الزمان إليها وحذفها اتساعاً وحذف المضاف في هذا الباب هو المستعمل في أكثر الكلام. وانظر الكشف لمكي ٢/ ٢٨٧.

(٤) وهم أبُو عمرو وابنُ عامر، وعاصمٌ، والكِسَائيّ.

(٥) وقد استعمل ذلك أيضاً ظرفاً، قالوا: جئتك دُبُرَ كُلّ صَلاَة. انظر الكشف المرجع السابق.

(٦) من الطويل له كما هو ظاهر في ديوانه دار صادر ٥٨ ورواية الديوان:

وَجِئْنَا بِهَا شَهْبَاء ذَاتَ أَشِلَّةٍ ... لَهَا عَارِضٌ فِيهِ المَنِيَّة تلمعُ

ورواية المؤلف هي رواية البحر لأبي حيان. ورواه ابن يعيش في المفصل ٢/ ٤٥ «جدّت» بدل جدب و «بأرْضِنَا» بدل «فأرضنا». والشاهد: على دُبُر فالدبر هنا ظرف أيضاً ومعناه العَقِب كقولنا: جِئْتُكَ في دُبُر كل صلاة. وانظر مجمع البيان ٩/ ٢٢٢ والسراج المنير ٤/ ٩١ والبحر المحيط ٨/ ١٣٠.

يُحيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»[١].

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ﴾ هو استماع على بابه. وقيل: بمعنى الانتظار. وهو بعيد. فعلى الأول يجوز أن يكون المفعول محذوفاً، أي استمع نِدَاءَ المنادي، أو نداء الكافر بالوَيْل والثبور، فعلى هذا يكون «يَوْمَ يُنَادِي» ظرفاً لـ «اسْتَمِعْ» أي استمع ذلك فِي يَوْم. وقيل: استمع ما أقول لك فعلى هذا يكون «يَوْمَ يُنَادِي» مفعولاً به أي انتظر ذَلِكَ الْيَوْمَ[٢].

وَوَقَفَ ابن كثير على «يُنَادِي» بالياء. والباقون دون ياء. ووجه إثباتها أنه لا مقتضي لحذفها. ووجه حذفها وقفاً اتباع الرسم وكأن الوقْفَ محلّ تخفيفٍ[٣].

وأما «المنادي» فأثبت ابن كثير أيضاً ياءَه وصلاً ووقفاً. ونافع وأبو عمرو بإثباتها وصلاً وحذفها وقفاً، وباقي السبعة بحذفهما وصلاً ووقفاً. فمن أثبت، فلأنه الأصل، ومن حذف فلاتباع الرسم. ومن خص الوقف بالحذف فلأنه محلّ راحة ومحلّ تغيير[٤].

فصل

في «واستمعْ» وجوه:

الأول: أن يكون مفعوله محذوفاً رأساً، والمقصود: كُنْ مستمعاً ولا تكن مثلَ هؤلاء المُعْرِضين الغافلين، يقال: هو رجل سَمِيعٌ مطيعٌ، ولا يراد: مسموع بعينه.

الثاني: استمع ما يوحى إليك.

الثالث: استمع نداء المنادي.

فإن قيل: «استمع» عطف على «فَاصْبِرْ» وَ «سَبِّحْ» وهو في الدنيا، فالاستماع[٥] يكون في الدنيا وما يوحى (يكون)[٦] «يوم ينادي» لا يسمع في الدنيا.

فالجواب: أنه لا يلزم ذلك، لجواز أن يقال: صَلِّ وادْخُلِ الْجَنَّةَ أي صل في الدنيا وادخل الجنة في العُقْبَى فكذا ههنا.

ويحتمل أن يكون استمع بمعنى انْتَظِرْ. ويحتمل أن يكون المراد: تَأَهَّبْ لهذه الصيحة لئلا يَفْجَأَكَ فيُزْعِجكَ. والمراد بالمنادي: إما الله تعالى بقوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الصافات: ٢٢] وبقوله: «أَلْقِيَا فِي جَهَنَّم» أو بقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ [النحل: ٢٧] ويحتمل أن يكون المراد بالمنادي: إسرافيل قال مقاتل: ينادي إسرافيل بالحشر يا أيتها الْعِظَامُ البالية، والأوْصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشُّعور المتفرقة، إن الله يأمركم

---

(١) خرجه البغوي في معامل التنزيل عن أبي هريرة. وانظر هذه الأقوال في البغوي والخازن ٦/ ٢٤٠ والقرطبي ١٧/ ٢٥ و ٢٦.

(٢) قال بذلك معنى الرازي في تفسيره الكبير ٢٨/ ١٨٧ وأبو حيان في البحر المحيط ٨/ ١٣٠.

(٣) السبعة ٦٠٧ والإتحاف ٣٩٩ والبحر ٨/ ١٣٠.

(٤) المراجع السابقة وانظر الكشف أيضاً ٢/ ٣٨٦.

(٥) في (ب) كالاستماع.

(٦) سقط من (ب).

أن تجتَمِعُوا لفَصْل القضاء. أو يكون النداء للنفس فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٨] إذ[١] ينادي المنادي هؤلاء للجنة، وهؤلاء للنار، ويحتمل أن يكون المنادي: هو المكلف لقوله: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾ [الزخرف: ٧٧]. والظاهر الأول[٢]؛ لأن اللام للعهد والتعريف. والمعهود السابق قوله: «أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ».

وقوله: «مِنْ مَكَانٍ قَرِيب» أي لا يخفى على أحد. وقيل: منْ صَخْرَة بَيْتِ المَقْدِس وهي[٣] وسط الأرض. قال الكلبي: هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عَشَرَ ميلاً[٤].

قوله: «يَوْمَ يَسْمَعُونَ» بدل من «يَوْمَ يُنَادِي»[٥] و «بِالْحَقِّ» حال من «الصَّيْحَة» أي ملتبسة بالحق أو من الفاعل أي يسمعون مُلْتَبِسِينَ بسماع الحق.

قوله «ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ» يجوز أن يكون التقدير: ذلك الوقت ـ أي وقت النداء والسماع ـ يوم الخروج. ويجوز أن يكون «ذلك» إشارة إلى النداء، ويكون قد اتسع في الظرف فأخبر به عن المصدر، أو فقدر مضاف، أي ذَلِكَ النداء والاستماع نداءُ يوم الخروج، واستماعه[٦]. واللام في «الصَّيحة» للتعريف، لقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٢٩]. والمراد بالحق: الحشر أو اليقين، يقال: صَاحَ فلانٌ بِيَقِين لا بظنٍّ وتخمين أي وجد منه الصياح يقيناً لا كالصَّدى وغيره، أو يكون المراد المقترنة بالحق[٧]، يقال: اذْهَبْ بالسَّلاَمَة وارْجِع بالسَّعَادَةِ أي مقروناً ومصحوباً.

وقيل: «بالْحَقِّ» قسم، أي يسمعون الصيحة بالله (وَ)[٨] الْحَقِّ. وهو ضعيف[٩] وقوله: «ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ» أي من القبور.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

قوله: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ» قد تقدم الكلام على قوله: «إِنَّا نَحْنُ» في سورة

---

(١) في (ب) أو.

(٢) قال الرازي: إلاَّ أنَّ الظاهر أن المراد أحد الوجهين الأولين، لأن قوله: المنادي للتعريف، وكون الملك في ذلك اليوم منادياً معروف عرف حاله وإن لم يَجْرِ ذكرُهُ. وانظر فيما مضى معنى تفسير الإمام ٢٨/ ١٨٨.

(٣) في (ب) وهو.

(٤) وانظر هذه المعاني في تفسيري البغوي والخازن ٦/ ٢٤٠ و ٢٤١.

(٥) قاله أبو البقاء في التبيان ١١٧٧ وأبو حيان في البحر ٨/ ١٣٠.

(٦) بالمعنى من المرجع السابق وانظر تفسير الرازي ٢٨/ ١٨٨.

(٧) وتكون الباء للتعدية والإلصاق، فإن التعدية قد تتحقق بالباء، يقال: ذُهِبَ بزيد، على معنى ألصق الذهاب بزيد فوجد قائماً به فصار مفعولاً.

(٨) زيادة من النسختين لا معنى لها.

(٩) وانظر تفسير الرازي السابق.

يس. وأما قوله «نُحْيِي ونُمِيْتُ» فالمراد من الإحياء الإحياء أولاً، وقوله: «وَنُمِيتُ» إشارة إلى الموتة الأولى و «إِلَيْنَا المَصِيرُ» بيان للحشر. وهذا إشارة إلى قدرته على الحشر(١).

قوله: «يَوْمَ تَشَقَّق» يجوز أن يكون بدلاً من «يَوْم» قبله(٢). وقال أبو البقاء: إنه بدل من «يَوْم» الأوَّل(٣). وفيه نظر من حيث تعدد البدل والمبدل منه واحدٌ. وقد تقدم أنَّ الزَّمخشريَّ مَنَعَهُ.

ويجوز أن يكون «الْيَوْمَ» ظرفاً للمَصِيرِ(٤) أي يصيرون إلينا يوم تَشَقَّق الأَرْض. وقيل ظرف للخروج. وقيل منصوب بـ «يَخرجُونَ» مقدراً(٥).

وتقدم الخلاف في «تَشَقَّقُ» في الفُرْقَان(٦).

وقرأ زيد بن علي: «تتشقّق» بفك الإدْغَام(٧).

قوله: «سِرَاعاً» حال من الضمير في «عَنْهُمْ» والعامل فيها «تَشَقَّقُ».

وقيل: عاملها هو العاقل في «يَوْمَ تَشَقَّقُ» المقدّر أي يَخْرُجُون سراعاً يوم تشقق(٨)؛ لأن قوله تعالى: ﴿عَنۡهُمۡ﴾ يفيد كونهم مفعولين بالتشقق، فكأن التشقق عُدِّي(٩) بحرف الجر، كما يقال: «كَشَفْتُ عَنْهُ فَهُوَ مَكْشُوفٌ»، فيصير «سراعاً» هيئة المفعول كأنه قال: مُسْرِعِينَ.

والسراع جمع سريع، كالكِرَام جمع كَرِيم(١٠). وقوله: «ذَلِكَ» يحتمل أن يكون إشارة إلى التَّشقُّق عَنْهُمْ وإشارة إلى الإخراج المدلول عليه بقوله: «سِرَاعاً»، ويحتمل أن يكون معناه ذلك الحشر حشر يسير(١١). والحَشْر الجمع.

قوله: «عَلَيْنَا» متعلق بـ «يَسِيرٌ» ففصل بمعمول الصّفة بينها وبين موصوفها. ولا يضرّ ذلك(١٢). ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال منه؛ لأنه في الأصل يجوز أن يكون نعتاً.

---

(١) الرازي المرجع السابق.
(٢) السابق وأبو حيان في البحر ٨/ ١٣٠.
(٣) التبيان ١١٧٧.
(٤) التبيان المرجع السابق والبحر المحيط السابق أيضاً.
(٥) قال بها دون تحديد من قال بهما أبو حيان في البحر ٨/ ١٣٠ و ١٣١.
(٦) عند قوله: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ وهي الآية ٢٥ منها، فقد قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «تَشَقّق» بتشديد القاف فقط. وانظر السبعة ٦٠٧ و ٦٠٨ والإتحاف ٣٩٩ كما قرىء: تُشَقَّق بضم التاء مضارع شُقّقت على البناء للمجهول كما قرىء: تنشق مضارع انشَقتْ، وكلتا القراءتين الأخيرتين من الشواذ ولم ينسبها لأحد أبو حيان في البحر ٨/ ١٣٠.
(٧) ذكرها أبو علي الأهوازي في قراءة زيد بن علي من تأليفه وانظر المرجع السابق.
(٨) البحر السابق والتبيان ١١٧٧.
(٩) في النسختين عدّي وفي الرازي: عِنْدَ الخروج من القبر.
(١٠) وانظر الرازي ٢٨/ ١٩٠.
(١١) السابق أيضاً.
(١٢) وحسن ذلك كونُ الصفة فاصلة.

وقال الزمخشري: التقديم للاختصاص، أي لا يَتيَسَّر[١] ذلك إلا على الله وحده أي هو علينا هيِّن لا على غيرنا وهو إعادة جواب لهم.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ يعني كفار مكة في تكذيبك، وهذا تسلية للنبي ـ ﷺ ـ ويحتمل أن يكون تهديداً وتخويفاً لأن قوله: «وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ» ظاهر في التهديد، وبالعلم يكمل. ونظيره قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْه مَرْجِعُكُمْ فينبئكم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٢].

ويحتمل أن يكون تقريراً لأمر الحشر بالعلم؛ لأنه لما بين أن الحشر يسير لكمال قدرته ونفوذ إرادته، ولكن تمام ذلك بالعلم الشامل حتى يبين جزء زيد وجزء بدن[٣] عمرو، فقال: «ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ» لكمال قدرتنا، ولا يخفى عَلَيْنا الأجْزاء لكمال علمنا.

وقوله: «أَعْلَمُ» إما ليست للمشاركة في أصل الفعل[٤] كقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ[٥] عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أو معناه نَحْن أَعْلَمُ به من كل عالم بما يعلمه[٦].

قوله: «وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بجَبَّارٍ» أي بمسلِّط تجبر على الإسلام، وهذا تسلية للنبي ـ ﷺ ـ أي أنك لست حفيظاً عليهم، ومكلفاً بأن يؤمنوا، إنما أنت منذر، وقد فعلت ما أُمِرْتَ بِهِ.

قال المفسرون: هي منسوخة بآية القتال.

قوله: «فَذَكِّرْ بالْقُرآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ» تقدّم الخلاف في ياء ﴿وَعِيدِ﴾ [ق: ١٤] إثباتاً وحذفاً. والمعنى دُم على الإنذار ولا تترك الهداية بالكلية، بل ذكِّر المؤمنين فإن الذكرى تنفعُ المؤمنين.

وقوله: «بِالْقُرْآنِ» أي اتل عليهم القرآن ليحصل لهم المنفعة بسبب ما فيه أو فَذكِّر بالقُرْآنَ بين به أنك رسول الله لكونه معجزاً، أو يكون المراد فذكر بمقتضى ما في القرآن من الأوامر الواردة بالتبليغ والتذكير. وفي قوله: فذكر إشارة إلى أنه مُرْسَل مأمور بالتذكير

---

(١) قال في الكشاف: «وتقديم الظرف يدل على الاختصاص، يعني لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الأعلى القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن» الكشاف ٤/ ١٢.

(٢) من الآية ٧ من الزمر وانظر الرازي ٢٨/ ١٩١ وتصحيح الآية: ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم. فقد خلط بين آيَتي يونس ٢٣ وبين تلك الآية.

(٣) كذا في النسختين وفي الرازي: حتى يميز بين جزء بدنين، جزء بدون زيد وجزء بدون عمرو.

(٤) أي لا تكون للتفضيل مطلقاً.

(٥) أي هيِّن.

(٦) فتكون للتفضيل. و «وَيَعْلَمُهُ» هو لفظ الرازي وهو الأصح وفي النسختين: يعمله.

بالقرآن المنزل عليه، وقوله «وَعِيدِ» إشارة إلى اليوم الآخر وقوله: (وَعيدِ) إشارة إلى الوحدانية، إذ لو قال: وعيد الله لذهب الوَهْمُ إلى كل صَوْب. وضمير المتكلم أعرفُ المعارف، وأبعد عن الاشتراك. وقد تقدم أن أول السورة وآخرها مشتركان في المعنى حيث قال في الأول: «قٓ وَالْقُرآنِ المَجِيدِ»، وقال في آخرها: «فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ»[1].

روى أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَنْ قَرَأَ سُورَة قٓ هَوَّنَ الله عَلَيْهِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ»[2].

---

(١) وانظر تفسير العلامة الإمام الفخر في تفسيره الكبير ٢٨/ ١٩١ و ١٩٢.

(٢) ذكره الزمخشري في آخر تفسير سورة (ق) دون سند كعادته في نهاية كل سورة وفيه: هوّن الله عليه نارات الموت وسكراته. انظر الكشاف ٤/ ١٣.

سورة الذاريات

مكية[١] وهي ستون آية، وثلاثمائة وستون كلمة، وألف ومائتان وتسعة وثمانون[٢] حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)﴾

قوله تعالى: **﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً﴾** أول هذه السورة مناسب لآخرها قبلها، لأنه تعالى لما بين الحشر بدلائله، وقال: ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ وقال: «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ» تُجْبِرهم على الإيمان، إشارة إلى إصرارهم على الكفر بعد إقامة البرهان، وتلاوة القرآن عليهم، لم يبق إلا اليمين فقال: **﴿وَالذَّارِيَاتِ. . إنَّما تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾** وقال في آخرها «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِم الَّذِي يُوعَدُون».

فصل

وفي الحكمة في القسم ههنا وجوه:

أحدها: أن الكفار كانوا يَنْسبون النبي ـ ﷺ ـ للجدال، ومعرفة طرقه، وأنه عالم بفساد قولهم، وأنه يغلبهم بمعرفته بالجدال، وحينئذ لا يمكن أن يقابلهم بالأدلة، كما أن من أقام خَصْمُه عليه الدليل ولم يبق له حجة، يقول: إنه غلبني، لعلمه بالجدل وعجزي عن ذلك، وهو يعلم في نفسه أن الحق تبعي[٣] ولا يبقى للمتكلم المبرهن غير اليمين، ليقول: والله إن الأمر كما أقول ولا أجادلك بالباطل لأنه لو استدل بطريق آخر يقول خصمه فيه كقوله الأول، فلا يبقى إلا السكوت، أو التمسك بالأيمان، وترك إقامة البرهان.

---

(١) في قول الجميع.

(٢) في البغوي وثلاثون وانظر: القرطبي ١٧/ ٢٩ والبغوي ٦/ ٢٤.

(٣) كذا في أ وفي ب وفي الرازي: بيدي.

الثاني: أن العرب كانت تحترز عن الأيمان الكاذبة، وتعتقد أنها تخرب المنازل، فكان النبي ـ ﷺ[١] ـ يكثر الإقسام، دلالة على أنه صادق ولذلك كان أمره يتزايد ويعلموا[٢] أنه لا يحلف بها كاذباً.

الثالث: أن الأيمان التي أقسم بها كلها دلائل أخرجت في صورة الأيمان لينبّه بها على كمال القدرة، كقول القائل للمنعم: وحقّ نِعْمَتِك الكثيرة إنّي لا أزال أَشْكُركَ. فذكر النعم التي هي سبب مفيد لدوام الشكر، وإنما أخرجها مُخْرج الأيمان، إيذاناً بأنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم فيصغي إليه السامع أكثر ما يصغي إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر[٣] فبدأ بالحلف[٤].

فصل

أورد القسم على أمور منها الوحدانية، ولظهور أمرها واعترافهم بها حيث يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولهم: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] لم يقسم عليها إلا في سورة الصافات[٥] ومنها الرسالة وهو في سورتين «وَالنَّجْم»[٦] «وَالضُّحَى»[٧]، وبالحروف في «يس»[٨] ومنها الحشر، والجزاء وما يتعلق به، فلكثرة إنكارهم له كرر القسم عليه[٩].

فصل

أقسم الله بجمع السلامة المؤنث في سور خمس[١٠]، ولم يقسم بجمع السلامة المذكر في سورةٍ أصلاً، فلم يقل: والصَّالِحِينَ من عبادي، ولا المقربين إلى غير ذلك مع أن المذكر أشرف؛ لأن جموع السلامة بالواو والنون في الغالب لمن يعقل[١١].

---

(١) في ب: عليه الصلاة والسلام.

(٢) كذا في أ وب والأصح نحوياً: يعلمون رفعاً، ولعله سهوٌ من الناسخ، على أن عبارة الرازي: وكان يحصل لهم العلم بأنه لا يحلف بها كاذباً.

(٣) كذا في أ والرازي، وفي ب معتبراً. (٤) وانظر: الرازي ٢٨/ ١٩٤ و١٩٣.

(٥) حيث قال: إنَّ إلهَكُمْ لَوَاحِدٌ. الآية ٤.

(٦) قال: ﴿وَالنَّجم إذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ الآيتان ١ و٢ منها.

(٧) قال: ﴿والضُّحَى. واللَّيلِ إذا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ الآيات من (١) إلى (٣).

(٨) قال: ﴿يس والقُرآنِ الحَكِيمِ. إنَّك لمن المُرْسَلِينَ﴾ ١ و٢ منها.

(٩) وانظر: الرازي معنى المرجع السابق.

(١٠) هي الأولى من «الصافات» والأولى من «النازعات» والأولى من «المرسلات» والأولى من «العاديات» وتلك الآية وهي الأولى من الذاريات.

(١١) المرجع السابق.

فصل

روي عن علي ـ (رضي الله عنه)[١] ـ في قوله تعالى: ﴿والذَّارِيَات﴾ قال هي الرياح التي تَذْرُو التُّراب يقال: ذَرَتِ الرِّيحُ التُّرَابَ وأَذْرَتْ «الحَامِلاَت وِقْراً» يعني السحاب تحمل ثِقْلاً من الماء «فَالجَارِيَاتِ يُسْراً» هي السفن تجري في الماء جرياً سهلاً «فَالمُقَسِّماتِ أَمْراً» هي الملائكة يقسمون الأمور بين الخلق على ما أمروا به، أقسم بهذه الأشياء، لما فيها من الدلالة على صنعته وقدرته[٢].

قال ابن الخطيب: والأقرب أن هذه صفات للرياح، فالذاريات هي التي تُنْشىء السحاب أولاً، والحاملات هي التي تحمل السحب التي هي بحار[٣] المياه التي إذا سحّتْ جرت السيول العظيمة، وهي أوقارٌ أثقل من جبال. والجاريات هي التي تجري السحب عِنْدَ حَمْلِها، وَالمُقَسِّمَات هي الرياح التي تقسم الأمطار وتفرقها على الأقطار، ويحتمل أن يقال: هذه أمور أربعة ذكرت لأمور أربعة بها تتم الإعادة، لأن الأجزاء المتفرقة بعضها في تُخُوم الأرض، وبعضها في قَعْر[٤] البِحَار، وبعضها في جَوِّ الهواء، وفي الأجزاء البخارية اللطيفة المنفصلة عن الأبدان فالذاريات هي التي تجمع الذرات من الأرض، وتَذْرُو التُّراب من وجه الأرض والحاملات هي التي تجمع الأجزاء من الجو وتحمله حملاً، فإن التراب لا ترفعه الرياح حملاً مستقلاً بل تنقله من موضع إلى موضع، بخلاف السحاب فإنه يحمله في الجو حملاً لا يقع منه شيء، والجاريات هي الجامعة من الماء، فإن من يُجْرِي السفنَ الثقيلة في تيّار البحار قادرٌ على نقل الأجزاء من البحر إلى البرّ، فإذن تبين أن الجمع من الأرض وجو الهواء ووسط البحار ممكن، وإذا اجتمع ذلك كله بَقِيَ[٥] نفخُ الروح، وهي من أمر الله، فقال: «فالمُقَسِّمَاتِ أَمْراً» يعني الملائكة التي تنفخ الروح في الجسد بأَمْر الله[٦].

قوله: «ذَرواً» منصوب على المصدر المؤكد العامل فيه فرعه وهو اسم الفاعل[٧]، والمفعول محذوف اختصاراً[٨] إذ لا نظير لما تذروه هنا.

وأدغم أبو عمرو وحمزة تاء «الذاريات» في ذال «ذَرْواً»[٩] وأما «وِقْراً» فهو

---

(١) سقط من أ.

(٢) قاله الإمامان البغوي والخازن في تفسيريهما ٦/ ٢٤١ وانظر أيضاً القرطبي ١٧/ ٢٩، ومعاني الفراء ٣/ ٨٢ والزجاج ٥/ ٥١.

(٣) كذا في النسختين بالحاء جمع بحر، وفي الرازي: بخار بالخاء.

(٤) في ب قعور وكذا في الرازي.

(٥) في الرازي: يبقى بالمضارعة.

(٦) وانظر: تفسير الإمام فخر الدين ٢٨/ ١٩٥.

(٧) وهو ذارية ـ بزنة فاعلة ـ.

(٨) والتقدير: والذاريات الأشياء ذرواً.

(٩) وانظر: الإتحاف ٣٩٩.

مفعول[١] به بالحاملات، كما يقال: حَمَل فلانٌ .لاً ثَقِيلاً[٢].

قال ابن الخطيب: ويحتمل أن يكون اسماً أُقِيمَ مُقَام المصدر[٣]، كقوله: ضَرَبَهُ سَوْطاً[٤]. ويؤيده قراءة من قرأ بفتح الواو.

والوِقْرُ ـ بالكسر ـ اسم ما يوقِر أي يَحُلُّ. وقرىء بالفتح[٥]، وذلك على تسمية المفعول[٦] بالمصدر. ويجوز أن يكون مصدراً على حاله والعامل فيه معنى الفعل قبله، لأن الحَمْل والوَقْر بمعنى واحد، وإن كان بينهما عموم وخصوص[٧].

قوله: «يُسْراً» يجوز أن يكون مصدراً من معنى ما قبله أي جَرْياً يُسْراً[٨] وأن يكون حالاً، أي ذات يُسْرٍ أو مَيْسَرة أو جعلت نفس اليُسْر مبالغةً[٩].

قوله: «أَمْراً» يجوز أن يكون مفعولاً به، وهو الظاهر، كقولك: فُلاَنٌ قَسَّمَ الرِّزْقَ أَوِ المَالَ، وأن تكون حالاً أي مأمورة[١٠]. وعلى هذا فيحتاج إلى حذف مفعول «المُقَسِّمَات». وقد يقال: لا حاجة لتقديره كما في الذاريات. وهل هذه أشياء مختلفة فتكون الفاء على بابها من عطف المتغايرات، والفاء للترتيب في القسم لا في المقسم به؟

قال الزمخشري: ويجوز أن يراد الرياح وحدها، لأنها تُنْشِيء السحاب وتُقِلُّه، وتَصْرِفُهُ، وتجري في الجو جرياً سَهْلاً[١١] وعلى هذا يكون من عطف الصفات، والمراد واحد، كقوله (ـ رحمه الله[١٢] ـ):

٤٥١٧ ـ يا لَهْفَ زَيَّابَةِ لِلْحَارِثِ الصَّابِحِ فَالغَانِمِ فَالآيِبِ[١٣]

وقوله:

---

(١) التبيان ١١٧٨ والرازي ٢٨/ ١٩٦.

(٢) المرجع الأخير السابق.

(٣) فتكون مما ناب عن المفعول المطلق.

(٤) انظر: الرازي المرجع السابق.

(٥) ولم يحدد الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٣ وأبو حيان في البحر ٨/ ١٣٣ من قرأ بها وسكت عنها ابن خالويه في المختصر ١٤٥، وابن جني في المحتسب ٢/ ٢٨٦. وهي شاذة غير متواترة.

(٦) كذا في النسختين والأقرب كما في الفخر الرازي والكشاف والبحر: «المحمول». وانظر: الرازي ٢٨/ ٩٦ والكشاف ٤/ ١٣ والبحر ٨/ ١٣٣.

(٧) الكشاف المرجع السابق.

(٨) البحر والكشاف والرازي السابقان.

(٩) قال أبو حيان: «فيسراً مصدر وصف به على تقدير محذوف فهو على رأي سيبويه في موضع الحال» وانظر: البحر ٨/ ١٣٣.

(١٠) البحر المرجع السابق والرازي ٢٨/ ١٩٦.

(١١) الكشاف ٤/ ١٣.

(١٢) زيادة من أ.

(١٣) سبق هذا البيت، وشاهده هنا عطف صفات الغانم والآيب على الصابح عطف صفات وانظر: البحر ٨/ ١٣٤ و١٣٣.

٤٥١٨ ـ إِلَى المَلِكِ القَرْمِ وَابْنِ الهُمَامِ وَلَيْثِ الكَتِيبَةِ فِي المُزْدَحَمْ[١]

فتكون الفاء على هذا الترتيب[٢] الأمور في الوجود.

فإن قيل: إن كان «وقراً» مَفْعولاً فلِمَ لَمْ يُجمع وما قيل: أوقاراً؟.

فالجواب: لأن جماعةً مِنَ الرياح قد تحمل وقرا واحداً، وكذا القول في المقسّمات أمراً إذا قيل: إنه مفعول به، لأنه قد تجمع جماعة من الملائكة على أمر واحد[٣].

قوله: «إنَّمَا تُوعَدونَ» هذا جواب القسم، و «ما» يجوز أن تكون اسمية[٤]، وعائدها محذوف، أي تُوعَدُونَهُ وأن تكون مصدرية فلا عائدَ على المشهور، وحينئذ يحتمل أن يكون توعدون مَبْنِيًّا من الوعْدِ، وأن يكون مبنياً من الوَعِيد[٥]، لأنه يصلح أن يقال: أوْعَدْتُهُ فهو يُوعَدُ، وَوَعَدْتُهُ فهو يُوعَد لا يختلف، فالتقدير: إن وعدكم أو إن وعيدكم[٦]. ولا حاجة إلى قول من قال: إنه قوله: «لصادق» وقع فيه اسم الفاعل موقع المصدر أي لصدق لأن لفظ اسم الفاعل أبلغ إذا جعل الوعد أو الوعيد صادقاً مبالغة وإن كان الوصف إنما يقوم بمن يَعِدُ أو يُوعِدُ[٧].

قال ابن الخطيب: وبناؤه من «أوعد» هو الحق؛ لأن اليمين مع المنكر بوَعِيدٍ[٨] لا بوَعْد، و «الصادق» معناه ذو صدق «كعِيشَةٍ رَاضِيَةٍ»، ووصف به الفاعل كوصف الفاعل بالمصدر في إفادة المبالغة[٩].

قوله: «وإنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ» أي الحشر والجزاء كائن.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩)﴾

ثم ابتدأ قسماً آخر وهو قوله: «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الحبُكِ» العامة على الحُبُك ـ بضمتين ـ قال ابن عباس وقتادة وعكرمة: ذاتِ الخلق الحسن المستوي، يقال للنساج إذا نَسَجَ الثَّوْبَ فَأَجَاد: ما أَحْسَنَ حَبْكَهُ. وقال سعيد بن جبير: ذاتِ الزّينة أي المزينة بزينة

---

(١) سبق كسابقه، وشاهده مثله من عطف الصفات بعضها على بعض فقد عطف «ليث الكتيبة» على ابن الهمام وابن الهمام على القرم.

(٢) كذا في النسختين والأصح: لترتيب باللام الجارة.

(٣) بالمعنى من تفسيره السابق.

(٤) أي موصولة اسمية.

(٥) قال أبو حيان: لقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وعيد﴾.

(٦) بالمعنى من البحر ٨/ ١٣٤، وانظر أيضاً ٢٨/ ١٩٧ وفي الإعراب الكشاف ٤/ ١٤.

(٧) البحر المرجع السابق.

(٨) في الرازي بوعيد وفي النسختين: موعد وقد حققت الكلمة كما في الرازي.

(٩) عبارة الرازي: ووصف المصدر بما يوصف به الفاعل بالمصدر ففيه إفادة مبالغة، انظر: الرازي المرجع السابق ٢٨/ ١٩٦ و١٩٧.

الكواكب. قال الحسن: حُبِكَتْ بالنُّجوم. وقال مجاهد: هي المتقنة المبنيّات. وقال مقاتل والكلبي والضحاك: ذات الطرائق[١] كحَبْك الماء إذا ضَرَبَتْهُ الرِّيح، وحَبْكِ الرَّمل والشّعر الجَعْد وهو آثار تَثَنِّيه وَتَكسُّرِهِ[٢]، قال زهير:

٤٥١٩ ـ مُكَلَّلٌ بِأُصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ رِيحٌ خَرِيقٌ لِضَاحِي مَائِهِ حُبُكُ[٣]

والحبك جمع يحتمل أن يكون مفرده حَبِيكَة، كطَرِيقةٍ وطُرُق أو حِباك نحو: حِمَار وحُمُر قال:

٤٥٢٠ ـ كَأَنَّمَا جَلَّلَهَا الحُوَّاكُ طِنْفَسَةٌ فِي وَشْيِهَا حِبَاكُ[٤]

وأصل الحَبْك إحكام الشيء وإتقانه، ومنه يقال للدروع: مَحْبُوكة. وقيل: الحَبْكُ الشدّ والتَّوَثُّق، قال امرؤ القيس:

٤٥٢١ ـ قَدْ غَدَا يَحْمِلُنِي فِي أَنْفِهِ لاَحِقُ الإِطْلَيْنِ مَحْبُوكٌ مُمَرّ[٥]

وفي هذه اللفظة قراءات كثيرة، فعن الحسن ـ (رضي الله عنه[٦]) ـ ست قراءات، الحبك ـ بالضم ـ كالعُنُق، وبضم الحاء وسكون الباء وتروى عن ابن عباس، وأبي عمرو[٧]، وبكسر الحاء والباء[٨]، وبكسر الحاء وسكون الباء[٩]، وهو تخفيف

---

(١) وانظر: تفسير العلامتين الخازن والبغوي في تفسيريهما لباب التأويل ومعالم التنزيل ٦/ ٢٤١ وتفسير العلامة القرطبي في الجامع ١٧/ ٣١.

(٢) قاله أبو زكريا الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢ وانظر تفسير الإمام ٢٨/ ١٩٧.

(٣) من البسيط له. والنجم كل شيء من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل على أنه يروى في اللسان النبت «وريح خريق» شديدة.
والشاهد في: «حبك» فهو تكسر الماء القائم إذا مرت به الريح. وانظر البيت في القرطبي ١٧/ ٣٢ والهمع ٨/ ١٣٢ ومجمع البيان للطبرسي ٩/ ٢٢٩ واللسان «حبك» والمحتسب ٢/ ٢٨٧ والدر المنثور ٧/ ٦٩٢ والديوان ١٧٦.

(٤) رجز لم أعلم قائله والطِّنفسة ـ بكسر الطاء وضم الفاء وكسرها، وضبطها صاحب اللسان بتثليث الطاء والفاء وبكسر الطاء وفتح الفاء وبالعكس ـ النمرقة فوق الرحْل. والبيت شاهد على أن الحباك واحد حبك والحِباك والحَبِيكة الطريقة في الرمل ونحوه. وانظر البحر ٨/ ١٣٢ والقرطبي ١٧/ ٣٢.

(٥) البيت من الرمل له وهو في ديوانه ١٤٦. والإطلين مثنى إطل وهو الخاصرة كلها، وقيل غير ذلك والممرّ الشديد الخلق من الفرس وغيره. والمعنى يصف فرساً بالقوة والصلابة.
والشاهد محبوك مفعول وقد فسرته الآن. وانظر: فتح القدير ٥/ ٨٣ والبحر ٨/ ١٣٢ والقرطبي ١٧/ ٣٢.

(٦) سقط من أ.

(٧) ذكرها أبو الفتح في المحتسب ٢/ ٢٨٦. وانظر: البحر المحيط ٨/ ١٣٤.

(٨) ذكرها ابن خالويه في المختصر ١٤٥ وابن جني في المحتسب ٢/ ٢٨٦.

(٩) ذكرها بنسبة له ابن جني في المرجع السابق بينما قال ابن خالويه: «الحِبْك عن آخرين».

المكسور، وكسر الحاء وفتح الباء[١]، وكسر الحاء وضم الباء[٢]، وهذه أقلها لأن هذه الزنة مهملة في أبنية العرب[٣].

قال ابن عطية وغيره: هو من التداخل، يعني أن فيها لغتين الكسر في الحاء والباء والضم فيهما فأخذ هذا القارىء الكسرَ من لغةٍ، والضمّ من أُخْرَى[٤]. واستبعدها الناس؛ لأن التداخل إنما يكون في كلمتين. وخرجها أبو حيان على أن الحاء أتبعت لحركة التاء في ذات، قال: ولم يعتد باللام فاصلةً لأنها ساكنة فهي حاجز بَيِّنٌ حصين[٥].

وقد وافق الحسن على هذه القراءة أبو مالك[٦] الغِفَارّي.

وقرأ عكرمة بالضم والفتح جمع حُبْكَة نحو: غُرْفَة وغُرَف[٧]، وابن عباس وأبو مالك الحَبَك بفتحتين، جمع حَبَكَة كعَقَبَة وعَقَب[٨].

وقوله: «إِنَّكُم لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ» جواب القسم.

فصل

المعنى: إنكم يا أهل مكة لفي قول مختلف في حق محمد ـ ﷺ ـ تارة تقولون: إنه أمين، وأخرى إنه كاذب، وتارة تنسبونه إلى الجنون، وتارة كاهن، وشاعر، وساحر، وهذا القول ضعيف؛ إذ لا حاجة إلى اليمين على هذا، لأنهم كانوا يقولون ذلك من غير إنكار حتى يؤكد باليمين. وقيل: يقولون: إنه مجنون ثم يقولون: غلبنا بقُوَّةِ جداله. وقيل: لفي قول مختلف في القرآن، يقولون فيه إنه سِحْرٌ وكَهَانَةٌ وأساطير الأولين.

وقيل: قَوْلٌ مختلف أي مصدّق ومكذب[٩]. وقيل: غير ثابتين على أمر.

وقيل: متناقض، تارة يقولون: لا حَشْرَ ولا حَيَاةَ بعد الموت، ثم يقولون: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ.

---

(١) نسبها أبو حيان للحسن في البحر ٨/ ١٣٤.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٨٦ وقد ذكرها ابن عطية عن الحسن فيما حكى أبو حيان في البحر المرجع السابق.

(٣) قال أبو حيان: «وقال صاحب اللوامح: وهو عديم النظير في العربية في أبنيتها وأوزانها، ولا أرى ما رأى». انظر: البحر المرجع السابق.

(٤) بالمعنى من البحر ٨/ ١٣٤ فقد قال: «هي قراءة شاذة غير متوجّهة وكأنه أراد كسرها ثم توهم الحبك قراءة الضم بعد أن كسر الحاء وضم الباء وهذا على تداخل اللغات، وليس في كلام العرب هذا البناء» انتهى. البحر المرجع السابق.

(٥) البحر المرجع السابق.

(٦) سبق ترجمته.

(٧) وهي شاذة المحتسب ٢/ ٢٨٦.

(٨) وهذا قول أبي الفضل الرازي فيما نقله صاحب البحر ٨/ ١٣٤.

(٩) البغوي ٦/ ٢٤١.

قوله: «يُؤفك عنه» صفة لقول، والضمير في «عنه» للقرآن، أو الرسول، أو للدين، أو لما توعدون، أي يصرف عنه.

وقيل: عن السبب. والمأفوك عنه محذوف، والضمير في «عنه» على هذا القول مختلف، أي يؤفك بسبب القول من أراد الإسلام بأن يقول: هو سحرٌ وكَهَانَةٌ[1].

والعامة على بناء الفعلين للمفعول. وقتادة وابن جبير: يُؤْفَكُ عنه من أَفِكَ، الأول للمفعول، والثاني للفاعل، أي يُصْرَفُ عنه من صَرَفَ النَّاسَ عَنْهُ[2]. وزيد بن علي: يَأْفِكُ مبنياً للفاعل من أُفِكَ مبنياً للمفعول عكس ما قبله، أي يَصْرِف النَّاسَ عَنْه مَنْ هو مَأْفُوكٌ في نَفْسِهِ[3].

وعنه أيضاً: يُؤَفِّكُ عنه من أَفَّكَ بالتشديد، أي من هو أَفَّاك في نفسه.

وقرىء: يُؤْفَن عنه من أُفِن[4] بالنون فيهما أي يُحْرَمُهُ من حُرِمَهُ من أَفَنَ الضَّرْعَ إذا نَهَكَهُ حَلْباً[5].

فصل

قيل في تفسير قوله: «يؤفك عنه من أفك» وجوه:

أحدها: مدح المؤمنين، ومعناه يصرف عن القول المختلف من صرف عن ذلك القول، ويرشد إلى القول المستوي. وقيل: إنه ذم[6] ومعناه يؤفك عن الإيمان به من صرف حتى يكذبه، يعني من حرمه الله الإيمان بمحمد وبالقرآن. وقيل: «عن» بمعنى «مِنْ أجل»، أي يصرف من أجل هذا القول المختلف، أو بسببه عن الإيمان من صرف، وذلك أنهم كانوا يتلقون الرجل إذا أراد الإيمان، فيقولون: إنه ساحر، وكاهن، ومجنون، فيصرفونه عن الإيمان، قاله مجاهد[7].

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ

---

(١) انظر: الرازي ٢٨/١٩٧.

(٢) وهي شاذة. ذكرها صاحب البحر ٨/ ١٣٥ وحينئذ يكون الفاعل تقديره هو. وانظر: المختصر لابن خالويه ١٤٥ وقد ضبطها محقق ابن خالويه أَفَكَ بفتح الفاء في الماضي وجاءت مفتوحة الفاء ومكسورتها معاً في اللّسان «أ ف ك».

(٣) المرجع السابق وهو البحر المحيط ٨/ ١٣٥.

(٤) القرطبي ١٧/ ٣٣ وانظر: البحر المرجع السابق وانظر الكشاف في تلك القراءة وسابقتيها وكلها شاذة غير متواترة.

(٥) المراجع السابقة وفي القرطبي: أنهكه حَلباً بالرّباعي.

(٦) الرازي ٢٨/١٩٨.

(٧) وانظر: معالم التنزيل للإمام البَغَوِيّ ٦/ ٢٤١ و٢٤٢.

﴿ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله: «قُتِلَ الخَراصونَ» لُعِنَ الكَذَّابُونَ. وقرىء: قَتَلَ مبنياً للفاعل[١]، وهو الله تعالى: ﴿الخرّاصين﴾ مفعوله، والمعنى لُعِنَ الخراصون وهم الذين لا يجزمون بأمر ولا يثبتون عليه، بل هم شاكون متحيرون. وهذا دعاء عليهم، ثم يصفهم[٢] بأنهم في غمرة ساهون، فقوله: «سَاهُونَ» يحتمل أن يكون خبراً بعد خبر والمبتدأ قوله «هم»، والتقدير: هم كائنون في غَمْرَة ساهون، كقولك: زَيدٌ جَاهلٌ جَائرٌ، لا تقصد به وصف الجاهل بالجائر. ويحتمل أن يقال: «ساهون» خبر، و «في غمرة» ظرف له، كقولك: زَيْدٌ فِي بَيْتِهِ قَاعِدٌ فالخبر هو «قاعد» لا غير، و «في بيته» بيان لطرف القعود، فكذا قوله: «في غمرة» ظرف للسَّهْوَةِ[٣].

واعلم إن وصف الخارص بالسهو دليل على أن الخراص صفة ذم يقال: تَخَرَّصَ عليه الباطل. قال المفسرون: هم الذين اقتسموا عِقَاب مكة، فاقتسموا القول في النبي ـ ﷺ ـ ليصرفوا الناس عن دين الإسلام. وقال مجاهد: الكهنة الذين هم في غَمْرَة أي غَفْلة وعَمًى وجَهَالَةٍ «سَاهُونَ» غافلون عن أمر الآخرة. والسهو الغفلة عن الشيء وهو ذَهَابُ القلب عنه[٤].

قوله تعالى: ﴿يَسۡأَلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ فقوله: ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ مبتدأ أو خبر قيل: وهما ظرفان[٥] فكيف يقع أحد الظرفين[٦] في الآخر؟[٧].

وأجيب: بأنه على حذف حَدَثٍ أي أَيَّانَ وُقوع يَوْم الدِّين «فَأَيَّانَ» ظرف الوقوع، كما تقول: مَتَى يَكُونُ يَوْمُ الجُمُعَةِ[٨]، وتقدم قراءة إيَّانِ ـ بالكسر[٩] ـ في الأعراف.

قيل: وأيان من المركبات، ركب من «أيِّ» التي للاستفهام، و «آن» التي بمعنى متى، أو مِنْ «أيِّ» (و)[١٠] أَوَان؛ فكأنه قال: أَيّ أَوَان، فلما ركبت بُنِيَ. وهذا جواب قوله: «وَإنَّ الدِّين لَوَاقِعٌ» فكأنه قال: أَيَّانَ يَقَعُ؟ استهزاءً.

---

(١) ولم يذكر من قرأ بها أبو حيان في البحر ٨/ ١٣٥ والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٥.
(٢) في ب وصفهم.
(٣) الذي يصحح وصف المعرفة بالجملة، قاله الرازي ٢٨/ ١٩٨.
(٤) وانظر: تفسير العلامتين البغوي والخازن في تفسيريهما ٦/ ٢٤٢.
(٥) ومعروف أن الزمان يجعل ظرفاً للأفعال، ولا يمكن أن يكون الزمان ظرفاً لظرف آخر.
(٦) وهو «أيان». (٧) وهو «اليوم».
(٨) بالمعنى من الكشاف ٤/ ١٥ والرازي ٢٨/ ١٩٨ و١٩٩.
(٩) وهي قراءة السلمي وهي لغة وهي من الآية ١٨٧ من الأعراف: ﴿يَسۡأَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾. وسيجيء الآن أن المؤلف قد تكلم عن اشتقاقاتها، وانظر: اللباب ٢/ ٤٠٣ ب.
(١٠) سقط من ب.

وترك السؤال دلالة على أن الغرض ليس الجواب، وإنما يسألون استهزاءً، والمعنى يسألون أيان يوم الدين يقولون: يا محمد متى يكون يوم الجزاء؟ يعني يوم القيامة تكذيباً واستهزاء قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَوْمَ هُمْ﴾ أي يكون هذا الجزاء في يوم هُمْ على النار يُفْتَنُونَ أي يعذبون ويحرقون بها، كما يُفْتَنُ الذَّهَبُ بِالنَّارِ. وعلى هذا فالأولى أن يكون معنى يفتنون يُعْرَضُون عرض المجرِّب للذّهب على النار، لأن كلمة «على» تناسب ذلك ولو كان المراد يحرقون لقيل: بالنَّار، أي فِي النار[1].

قوله: «يَوْمَ هُمْ» يجوز أن يكون منصوباً بمضمر أي الجزاءُ كائنٌ يَوْمَ هُمْ[2] ويجوز أن يكون بدلاً من «يَوْم الدين»[3]، والفتحة للبناء على رأي من يُجيز بناء الظرف، وإن أُضِيفَ إلى جملة اسمية[4] وعلى هذا فيكون حكاية لمعنى كلامهم، قالوه على سَبيل الاستهزاء، ولو جاء على حكاية لفظهم المتقدم لقيل: يوم نَحْنُ عَلَى النَّار نُفْتَنُ.

و «يوم» منصوب بالدين، وقيل: بمضمر، أي يُجَازَوْنَ.

وقيل: هو مفعول بأعني مقدَّراً[5] وعُدّي يُفْتَنُونَ بعَلَى لأنه بمعنى يُخْتَبَرُون[6]. وقيل: على بمعنى في[7]. وقيل: على بمعنى الباء. وقيل: «يَوْمَ هُمْ» خبر مبتدأ مضمر، أي هُوَ يَوْمَ هُمْ والفتح لما تقدم. ويؤيد ذلك قراءة ابن أبي عبلة والزّعفرانيّ يَوْمُ هُمْ بالرفع[8]، وكذلك يؤيد القول بالبدل. وتقدم الكلام في مثل هذا في غَافِرٍ.

فصل

قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ قال ابن الخطيب: يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون جواباً عن قولهم أَيَّانَ يَقَعُ فكما أنهم لم يسألوا سؤال مستفهم طالب لعِلم، كذلك لم يجبهم جواب معلم مبين بل قال: يوم هم على النار يفتنون فجهلهم بالثاني أقوى من جهلم بالأول، ولا يجوز أن يكون الجواب بالأخفى، فلو قال قائل: مَتَى يَقْدمُ زَيْدٌ؟ فلو أجيب بقوله: يَوْم يقدم رفِيقُهُ ولا يعلم يوم قُدُوم الرفيق لم يصح هذا الجواب إلا إذا كان الكلام في صورة جواب ولا يكون جواباً كقول القَائل لمن

(١) وانظر: البغوي ٦/ ٢٤٢ والرازي ٢٨/ ١٩٩ والكشاف ٤/ ١٥.

(٢) وهو قول الزجاج في إعراب القرآن ٥/ ٥٢ في أحد قوليه.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٣٥.

(٤) أما الإعراب فعلى الأصل، وأما البناء فحملاً على إذْ وانظر الأشموني ٢/ ٢٥٦ والتبيان ١١٧٨.

(٥) قال بهذه الإعرابات أبو البقاء العكبري في التبيان المرجع السابق.

(٦) كذا في أ وفي ب مختبرون بالاسمية، وفي التبيان: يجبرون.

(٧) التبيان المرجع السابق.

(٨) الكشاف ٤/ ١٥ والبحر المحيط ٨/ ١٣٥.

يعد عِدَاتاً[١] ويخلفها: إلى متى هذا الإخلاف؟ فيغضب ويقول: إلى أَشْأَم يَوْمٍ عليك، فالكلامان في صورة سؤال وجواب، ولا يريد بالأول السؤال، ولا الثاني يريد به الجواب، فكذلك ههنا قال: «يوم هم على النار يفتنون» مقابلة لاستهزائهم بالإيعَادِ لا على وجه الإتيان بالبَيَان[٢].

الثاني: أن يكون «ذلك» ابتداء كلام تمامه (في قوله: «ذُوقُوا[٣] فِتْنَتَكُمْ»).

فإن قيل: هذا يفضي إلى الإضمار!.

فالجواب: أن الإضمار لا بد منه؛ لأن قوله: ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ غيرُ متصل بما قبله إلا بإضمار يقال.

قوله: «ذُوقُوا» أي[٤] يقال لهم ذُوقُوا[٥] و «هَذَا الَّذِي كُنتُمْ» مبتدأ وخبر «هذا» هو الظاهر[٦]. وجوَّز الزمخشري أن يكون «هذا» بدلاً من «فِتْنَتَكُمْ»[٧]؛ لأنها بمعنى العذاب، ومعنى فتنتكم عذابكم «هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ» في الدنيا تكذيباً به، وهو قولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦] وقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود: ٣٢] ونظائره، وقوله: «يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّين» فإنه نوع استعجالٍ بالقول. ويحتمل أن يكون المراد الاستعجال بالفعل وهو إصرارهم على العناد، وإظهار الفساد، فإنه يعجل العقوبة[٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**﴾ لما بين حال المجرمين بين بعده حال المتقين، والمتقي له مقامات، أدناها أن يتقي الشرك، وأدناها أن يتقي ما سِوَى الله، وأدنى دَرَجَات المُتقِي الجنة فما من أحد اجتنب الكفر إلا ويدخل الجنة.

قوله: «آخِذِينَ» حال من الضمير في قوله: «جَنَّاتٍ» و «مَا آتَاهُمْ» يعني مما في الجنة فيكون حالاً حقيقية، وقيل: مَا آتَاهُمُ من أوامره ونواهيه فيكون في الدنيا فتكون حالاً محكيةً، لاختلاف الزمانين[٩].

---

(١) كذا في النسختين والأصح لغويًّا ونحوياً: عِدَاتٍ جمع عِدَة كهبةٍ، وهِباتٍ، وزِنَةٍ وزِنَاتٍ.

(٢) وانظر: تفسير الرازي ٢٨/ ١٩٩.

(٣) الرازي ٢٨/ ١٩٩ وما بين القوسين زيادة من المؤلف عليه.

(٤) المرجع السابق.

(٥) فتكون هذه الجملة لا محل لها مقول القول. البحر المحيط ٨/ ١٣٥.

(٦) في الكشاف الذي خبره أي هذا العذاب. وانظر ٤/ ١٥.

(٧) أي ذوقوا هذا العذاب.

(٨) الرازي ٢٨/ ١٩٩.

(٩) بالمعنى من البحر المحيط ٨/ ١٣٥.

وجعل الجار خبراً، والصفة فضلة، وعكس هذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾، قيل: لأن الخبر مقصور الجملة، والغَرَضُ هناك الإخبار عن تخليدهم، لأن المؤمن قد يدخل النار، ولكن لا بد من خروجه، وأما آية المتقين، فجعل الظرف فيها خبراً لأمنهم الخروج منها، فجعل لذلك محط الفائدة ليحصل لهم الطمأنينة فانتصبت الصفة حالاً[١].

فصل

اعلم أنه تعالى وحد الجنة تارة، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] و [محمد: ١٥] وأخرى جمعها كقوله ههنا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ﴾[٢] وتارة ثَنَّاها، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، والحكمة فيه أن الجنة في توحيدها لاتصال المنازل والأشجار والأنهار كجنة واحدة، وأما جمعها فلأنها بالنسبة إلى الدنيا وبالإضافة إليها جنات لا يحصرها عدد، وأما تثنيتها فسيأتي في سورة الرحمن.

قال ابن الخطيب: غيرَ أنَّا نقول ههنا: إن الله تعالى عند الوعد وحَّد الجنة وعند الإعطاء جمعها إشارة إلى أن الزيادة في الوعد موجودة بخلاف ما لو وعد بجَنَّات ثم يقول إنه في جنة، لأنه دون الموعود، وقوله: «وَعُيُونٍ» يقتضي أن يكون المُتَّقِي فيها ولا لذة في كون الإنسان في ماءٍ؛ فالمعنى في خلال العيون، أي بين الأنهار كقوله: «في جَنَّاتٍ» معناه بين الجنات وفي خلالها؛ لأن الجنة هي الأحجار، ونكرها مع كونها معرفة للتعظيم كقولك: فُلاَنٌ رَجُلٌ أي عظيم في الرجولة[٣].

ومعنى: «آخذين» أي قابضين ما آتاهم شيئاً فشيئاً ولا يستوفونه بكماله، لامتناع استيفاء ما لا نهاية له. وقيل: معنى آخذين أي قابلين قبول راضٍ كقوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤] أي يقبلها، قاله الزمخشري[٤]. وقال ابن الخطيب: وفيه وجه ثالث، وهو أن قوله: فِي جَنَّاتٍ يدلّ على السُّكْنَى حيث قال: آخِذِينَ بلادَ كذا، أو قَلْعَة كذا، أي دخلها متملّكاً لها، وكذا يقال لمن اشترى داراً أو بستاناً أخذه بثمن قليلٍ أي تملكه، وإن لم يكن هناك قبض حسًا ولا قبول برضًى.

وحيئذ فائدته بيان أن دخولهم فيها ليس دخول مستعيرٍ أو من[٥] يسترد منه ذلك بل هو ملكُه الذي اشتراه بماله ونفسه من الله. وقوله: «آتَاهُمْ» لبيان (أن)[٦] أخذهم ذلك لم يكن عَنْوَةً، وإنما نال ذلك بإعطاء الله تعالى. وعلى هذا الوجه «ما» راجعة إلى الجَنَّاتِ والعُيُون.

---

(١) وانظر: التبيان لأبي البقاء ١١٧٩.
(٢) تلك الآية وغيرها.
(٣) وانظر: تفسير الرازي ٢٨/ ٣٠٠.
(٤) الكشاف ٤/ ١٥.
(٥) في الرازي: أو ضعف يسترد منه ذلك.
(٦) سقط من ب.

وقوله: «إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ» إشارة إلى أنهم أخذوها بثَمنها وملكوها بالإحسان في الدنيا، والإشارة بذلك إما لدخول الجنة، وإما لإيتاء الله، وإما ليوم الدين، والإحسان هو قول لا إله إلا الله؛ ولهذا قيل في معنى كلمة التقوى: إنها لا إله إلا الله، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣] وقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] هو الإتيان بكلمة لا إله إلا الله.

قوله: «كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ» وهذا كالتفسير لكونهم مُحْسِنِينَ(١)، وفيه أوجه:

أحدها: أن الكلام تَمَّ على «قَلِيلاً» ولهذا وقف بعضهم على قليلاً ليؤاخي بها قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] ويبتدىء: «مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُون» أي ما يهجعون من الليل. والمعنى كانوا من الناس قليلاً، ثم ابتدأ فقال: ما يَهْجَعُون وجعله جَحْداً أي لا ينامون بالليل ألبتة بل يقومون للصلاة والعبادة. وهو قول الضحاك ومقاتل(٢). وهذا لا يظهر من حيث المعنى، ولا من حيث الصناعة، أما الأول فلا بد أن يهجعوا، ولا يتصور نفي هجوعهم، وأما الصناعة فلأن «ما» في حيز النفي لا يتقدم عليه عند البصريين. هذا إن جعلتها نافية، وإن جعلتها مصدرية صار التقدير من الليل هُجُوعُهُمْ. ولا فائدة فيه، لأن غيره من سائر الناس بهذه المثابة(٣).

الثاني: أن تجعل «ما» مصدرية في محلِّ رفع(٤) «بِقَلِيلاً»، والتقدير: كَانُوا قليلاً هُجُوعُهُمْ.

الثالث: أن تجعل ما المصدرية بدلاً من اسم كان بدل اشتمال أي كان هُجُوعُهُمْ قليلاً(٥). و «مِنَ اللَّيْلِ» على هذين لا يتعلق بـ «يهجعون» لأن ما في حَيِّز المصدر لا يتقدم عليه على المشهور. وبعض المانعين(٦) اغتفروا في الظرف فيجوزُ هذا عنده والمانع يقدر فعلاً يدل عليه: «يَهْجَعُونَ مِنَ اللَّيْل».

الرابع: أن «ما» مزيدة و «يَهْجَعُون» خبر كان، والتقدير: كَانُوا يهجعون من الليل

---

(١) كقولنا: حاتم كان سَخِيًّا كان يَبْذُلُ مَوْجُودَهُ ولا يترك مَجْهُودَهُ.

(٢) البغوي ٦/ ٢٤٢ والرازي ٢٨/ ٢٠٢ والقرطبي ١٧/ ٣٦.

(٣) وهو قول ابن الأنباري أبي بكر فيما نقله عنه القرطبي في الجامع ١٧/ ٣٦ وقد نقل هذا القولَ الإمامُ القرطبي نفسه في مرجعه السابق وأبو البقاء في التبيان ١١٧٩.

(٤) على الفاعلية وهذا القول ذكره العكبري في التبيان المرجع السابق، وابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٨٩ ومكي في المشكل ٢/ ٣٢٢ والفراء في المعاني ٣/ ٨٤ وأبو حيان في البحر ٨/ ١٣٥.

(٥) نقله القرطبي في الجامع ١٧/ ٣٦ وأبو البقاء في التبيان ١١٧٩.

(٦) لم أعرف هذا البعض الذي قصده المؤلف وانظر: التبيان السابق.

هُجُوعاً قَلِيلاً، أو زمناً قليلاً، فـ «قليلاً»، نعت لمصدر أو ظرف[١].

الخامس: أنها بمعنى الذي، وعائدها محذوف تقديره: كَانُوا قليلاً من الليل الوقت الذي يهجعونه[٢]. وهذا فيه تَكَلُّفٌ.

فصل

قال ابن الخطيب: «قليلاً» منصوب على الظرف تقديره يهجَعونَ قليلاً يقال: قام بَعْضَ الليل، فنصب «بعض» على الظرف، وخبر كان هو قوله: «يَهْجَعُونَ» و «ما» زائدة هذا هو المشهور[٣]، وفيه وجه آخر: وهو أن يقال: كانوا قليلاً معناه كانوا من الناس قليلاً، فيكون «قليلاً» خبر كان. و «ما يهجعون» معناه نفي النوم عنهم. وهذا منقول عن الضَّحَّاك ومقاتل[٤].

وأنكر الزمخشري[٥] كون «ما» نافية، وقال: لا يجوز أن تكون نافية؛ لأن ما بعدها لا يعمل فيها قبلها لا تقول: زَيْداً ما ضَرَبْتُ ويجوز أن يعمل ما بعد «لم» فيما قبلها، تقول: زَيْداً لَمْ أَضْرِبْ[٦] وذلك أن الفعل المتعدي إنما يعمل في النفي حملاً له على الإثبات لأنك إذا قلت: ضَرَبَ زيدٌ عمْراً ثبت تعلق فعله بعمرو. فإذا قلت: مَا ضَرَبَهُ لم يوجد منه فعل حتى يتعلق به ويتعدى إليه، لكن النفي محمول على الإثبات، فإذا ثبت هذا فالنفي بالنسبة إلى الإثبات كاسم الفاعل بالنسبة إلى الفعل فإنه يعمل عَمَل الفعل لكن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي لا يعمل فلا تقول: زَيْداً[٧] ضاربٌ عَمْراً أمس، وتقول: زَيْدٌ ضَاربٌ عَمْراً غداً واليَوْمَ والآنَ؛ لأن الماضي لم يبقَ موجوداً ولا مُتوقَّع الوجود، فلا يتعلق بالمفعول حقيقة، لكن الفعل لقوته يعمل واسم الفاعل لضعفه لم يَعْمَلْ.

إذا عرف هذا فقوله: مَا ضَرَبْتُ للنفي في الماضي، فاجتمع فيه النفي والمضيّ فَضَعُفَ. وأما: لَم أَضْرِبْ فإن[٨] كان يقلب المستقبل فوجد فيه ما وجد في قول القائل: زَيْدٌ ضَارِبٌ عَمْراً غَداً فأُعْمِلَ[٩].

---

(١) ذكره أبو حيان في البحر ٨/ ١٣٥.

(٢) في تفسير أبي حيان السابق: «كانوا قليلاً من الليل من الوقت الذي يهجعون فيه» ولا اختلاف جوهريًّا بين ما قاله المؤلِّف وما قاله أبو حيان. وانظر: البحر ٨/ ١٣٦.

(٣) الرازي ٢٨/ ٢٠٢ و٢٠٣.

(٤) السابق.

(٥) ذكر الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٥ و١٦ كل الأوجه السابقة في ما عدا زيادتها، وله حُجَّتُهُ الآتية بَعْدُ.

(٦) بالمعنى من الكشاف ٤/ ١٦، وباللفظ من تفسير الإمام الرازي ٢٨/ ٢٠٣.

(٧) كذا في النسختين بنصب زيد والأصح: الرفع.

(٨) كذا في النسختين، وفي الرازي ـ وهو الصحيح ـ وإنْ كان. بالواو.

(٩) وهذا شرح الإمام الرازي لكلام أستاذه الزمخشري.

قال ابن الخطيب: غير أن القائل بذلك القول يقول: قليلاً ليس منصوباً بقوله: يَهْجَعُونَ، وإنما ذلك خبر (كانوا[١]؛ أي) كانوا قَلِيلِينَ[٢].

فصل

تقديم قليلاً في الذكر ليس لمجرد السَّجع حتى يقع يهجعون ويستغفرون في آخر الآيات، بل لأن الهجوع راحة لهم والمقصود بيان اجتهادهم وتحملهم السهر لله تعالى، فلا يناسبه تقديم (راحتهم)[٣]، وقد يَغْفَلُ السامع عما بعد الكلام فيعتقد كونهم محسنين بسبب هجوعهم، فقدم قوله: «قَلِيلاً» ليسبق إلى الفهم أولاً قلَّةُ الهجوع وقوله: «مِنَ اللَّيْل» إشارة إلى أنه الزمن الذي يهجع الناس فيه ولا يسهر في الطاعة إلا متعبد.

فإن قيل: الهجوع لا يكون إلا بالليل والنوم نهاراً لا يقالُ له: هُجُوع!.

فالجواب: أن ذِكرَ العام وإردافه بالتخصيص حَسَنٌ، تقول: رأيتُ حَيَوَاناً نَاطِقاً فَصِيحاً. وأما ذكر الخاص وإردافه بالعام فلا يَحْسُن إلا في بعض المواضع، فلا تقول: رأيتُ ناطقاً فصيحاً حيواناً.

وإذا عرف هذا فقوله تعالى: كَانُوا قليلاً من الليل ذكر أمراً هو كالعام يحتمل أن يكون بعده: كَانُوا من الليل يسبحون أو يستغفرون أو يسهرون، أو غير ذلك، فلما قال: يَهْجَعُون فكأنه خصّص ذلك بالأمر العام المحتمل له ولغيره فأَزَال الاحْتِمَال[٤].

قوله: «وَبِالأَسْحَارِ» متعلق بـ «يَسْتَغْفِرُونَ»، والباء بمعنى «فِي». وقدم متعلق الخبر[٥] على المبتدأ[٦] لجواز تقديم العامل.

فصل

معنى قوله: «قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ» أي يصلون أكثر الليل. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس: يعني كانوا قل ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها شيئاً إما من أولها وإما من أوسطها. وقال أنس بن مالك: كانوا يصلون العَتَمَةَ. وقال مُطرفُ بْنُ عَبْدِ اللَّه بنِ الشِّخِير: قَلَّ ليلة أتت عليهم يهجعونها كلها. وقال مجاهد: كانوا لا ينامون من الليل إلا أقله، وربما نَشِطُوا فَمَدُّوا إلى السَّحَر، ثم أخذوا بالأسحار في الاستغفار. وقال الكلبي

(١) ما بين القوسين زيادة من الرازي على النسختين وهي زيادة لازمة لا بدّ منها.
(٢) وانظر: الرازي ٢٨/ ٢٠٢.
(٣) ما بين القوسين سقط من ب وعبارة الرازي: فلو قال: كَانُوا يهجعون كان المذكور أولاً راحتهم ثم بصفة بالقلة. وانظر: الرازي ٢٨/ ٢٠٣.
(٤) بالمعنى من تفسير الإمام الرازيّ المرجع السابق.
(٥) وهو بالأسحار.
(٦) وهو «هُمْ».

ومجاهد ومقاتل: وبالأسحار يصلّونَ؛ وذلك لأن صلاتهم بالأسحار لطلب المغفرة[١].

روى أبو هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: يَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاء كُلَّ لَيْلَةٍ حينَ يَبْقى ثُلُثُ اللَّيْل فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ أَنَا المَلِكُ، مَنِ الَّذي يَدْعُوني فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنِ الَّذِي يسأَلُني فَأعْطِيَهُ؟ مِنَ الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟[٢].

فصل

في قوله: «وبالأسحار هُمْ يستغفرون» إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك وأخلص منه، فهم يستغفرون من التقصير. وهذه سيرة الكريم يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويَسْتَقِلُّه ويعتذر من التقصير واللئيم يأتي بالقليل ويستكثره ويَمُنُّ به.

وفي الآية لطائف:

الأولى: أنه تعالى لما ذكر قلة هجوعهم، والهجوع مُقْتَضى الطبع قال: يَسْتَغْفِرُونَ أي من ذلك القدر من النوم القليل.

الثانية: أنه تعالى مدحهم بقلة الهجوع ولم يمدحْهم بكَثْرة السَّهر فلم يقل: كَانُوا قليلاً من الليل ما يسهرون مع أن السَّهَر هو الكَلَفَةُ والاجتهاد لا الهجوع، وهذا إشارة إلى أن نَوْمَهم عبادةٌ حيث مدحهم الله بكونهم هاجعين قليلاً، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى، والاستغفار بالأسحار، ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم[٣].

فصل

الباء في قوله: «بالأسحار» استعملت للظرف هنا، وهي ليست للظرف. قال بعض النحاة: إن حروف الجر ينوب بعضُها عن بعض يقال في ظرف الزمان: خَرَجْتُ لِعَشْرٍ بَقِينَ، وبالليل، وفي شهر رمضان. فتستعمل اللام والباء، وفي، وكذلك في ظرف المكان تقول: قُمْتُ بِمدينة كذا، وفيها، ورأيته ببَلْدَةِ كذا، وفيها. قال ابن الخطيب: والتحقيقُ فيه أن نقول: الحروف لها معانٍ مختلفة كما أن الأسماء والأفعال كذلك غير أن الحروف مستقلة بإفادة المعنى والاسم والفعل مُسْتَقِلاَّنِ، لكن بين بعض الحروف وبعضها تنافرٌ (و)[٤] تباعد كما في الأسماء والأفعال، فإن البيتَ والسَّكَن متخالفان ومتقاربان[٥]،

---

(١) وانظر: تفسير البغوي والخازن ٦/ ٢٤٢.

(٢) أخرجه البغوي عن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة، انظر: البغوي المرجع السابق.

(٣) قال بذلك كله الإمام الفخر الرازي في تفسيره ٢٨/ ٢٠٣.

(٤) الواو ساقطة من أ الأصل. هذا وعبارة الرازي: تنافٍ وتباعُدٌ.

(٥) كذا في أ وب وفي الرازي وهو الأصح: متفاوتان.

وكذلك مَكَثَ، وسَكَنَ (وَأَلَمَّ)[١]، وكذلك كل اسمين أو كل فعلين يوجد كان[٢] بينهما تقارب وتباعد، لأن الباء للإلصاق، واللام للاختصاص، و «في» للظرف، والظرف مع المظروف ملتصق ومختص به. إذا عرف هذا فنقول: بين «الباء» و «اللام» و «في» مشاركة، أما الباء فلأنها للإلصاق، والمتمكن في مكان ملتصق به متصل، وكذلك الفعل بالنسبة إلى الزمان فإذا قال: سَارَ بالنَّهَارِ معناه ذهب ذَهَاباً مُتَّصِلاً بالنهار.

فقوله: «وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» أي متصلاً بالأسحار، أخبر عن الاقتراب، وذلك أدل على وجود الفعل مع أول جزء من أجزاء الوقت من قوله: «فِي اللَّيْلِ»؛ لأنه يستدعي احتواء الزمان بالفعل وكذلك قول القائل: أقمتُ ببَلْدَة كذا، لا يفيد أنه كان مخالطاً بالبلد. وقوله: أقمتُ فيها يدل على إحاطتها به، فإذن قول القائل: أَقَمْتُ بالبَلَدِ، ودَعَوْتُ بالأَسْحَارِ أعمُّ مِنْ قوله: أقمتُ فِيهِ؛ لأن القائم فيه قائمٌ به والقائم به ليس قائماً فيه[٣].

وإذا علم هذا فقوله: «وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرونَ» إشارة إلى أنهم لا يُخْلُونَ وقتاً عن العبادة وأنهم بالليل لا يهجعون، ومع أول جزء من السحر يستغفرون فيكون فيه بيان كونهم مستغفرين من غير أن يسبق منهم ذنب، لأنهم وقت الانتباه لم يُخلوا الوقت للذنب. ولا يطرد استعمال الباء بمعنى «في»، فلا تقول: خَرَجْتُ بِيَوْم الجُمُعَةِ لأن يوم الجمعة مع أنه زمان فيه خُصُوصيَّات وتقييدات زائدة على الزمان، لأنك إذا قلت: خَرَجْتُ بِنَهَارِنَا وبلَيْلَةِ الجُمُعَةِ، لم يحسن. ولو قلت: خَرَجْتُ بِيَوْم سَعْدٍ وخَرَجَ (بِيَوْم)[٤] نَحْسٍ حَسُن فالنهارُ والليل لمّا لم يكن فيهما خُصُوصٌ وتقييد جازَ استعمالُ الباء فيهما، فإذا قيدتهما وخصصتهما زال الجوازُ، و «يَوْمُ الجمعة» لمَّا كان فيه خصوص لم يجز استعمال الباء فيه، والفعل حدث مُقْتَرن بزمان لا ناشئاً عن الزمان فإذا زال الخصوص وقلت: خَرَجْتُ بِيَوْم سَعْدٍ جاز. وأما «فِي» فيصح مطلقاً؛ لأن ما حصل في العام حصل في الخاص، لأن العام جزءٌ داخل في الخاص، فتقول: فِي يَوم الجُمُعَةِ وفِي هذِهِ السَّاعة[٥]. وأما اللام فتقدم الكلام عليها عند قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ [يس: ٣٨].

---

(١) كذا في أ فقط. ولم أجدها في الرازي ولا في ب.

(٢) تلك الكلمتان في ب مضطربتان ونطقا: يحذفان وفي الرازي: ولا كذلك كل اسمين يفرض أو كل فعلين يوجد.

(٣) في الرازي: ليس قائماً ما فيه من كل بدّ. وانظر: تفسير الرازي ٢٨/ ٢٠٤ و٢٠٣.

(٤) كلمة يوم سقط من أ الأصل.

(٥) وانظر هذا كله في تفسير الرازي السابق.

فصل

وفائدة قَوْلِهِ: «هم»؛ قال الزمخشري: فائدتها انْحِصَار المستغفرين أي هم الكاملون فيه لا غيرهم كقولك: زَيْدٌ العَالِمُ، لكماله في العلم كأنه تفرد به، وأيضاً: فلو عطف بدون هم لأوهم أنهم يستغفرون قليلا[١]. والاستغفار إما طلب المغفرة، كقولهم: رَبَّنا اغْفِرْ لَنَا، وإما إتيانهم بعبارات يتقربون بها طلباً للمغفرة، وإما أن يكون من باب قولهم: اسْتَحْصَد الزَّرْع أي ذلك أوان المغفرة.

قوله: «وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالمَحْرُوم» لمّا تقدم التعظيم لأم الله ثَنَّى بالشفقة على خلق الله، وأضاف الأموال إليهم، لأنه مدح لهم، وقال في موضع آخر ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]؛ لأن ذلك تحريض وحث على النفقة وذلك يناسبه.

فإن قيل: كون الحق في المال لا يوجب مدحاً؛ لأن كون المسلم في ماله حقّ وهو الزكاة ليس صفة مدح، لأن كل مسلم كذلك بل الكافر إذا قلنا: إنه مخاطب بفروع الإسلام في ماله حق معلوم، غير أنه إذا أَسْلَمَ سقط عنه، وإن مات عُوقِبَ على تركه الأداء. وإن أَدَّى من غير إسلام لا يقع الموقع فكيف يفهم كونه مدحاً؟

فالجواب: أنا نفسر السائل بمن يطلب جزءاً من[٢] المَال وهو الزكاة والمَحْرُومُ من لا يطلب جزءاً معيّناً وهو طالب صدقة التطوع كأنه قال: في ماله زكاةٌ وصَدَقَةٌ.

أو يقالُ: بأن «في» للظرفية، والمعنى أَنَّهم لاَ يجمعون المال ولا يجعلونه ظرفاً للحُقُوق، والمطلوب من الظرف والمظروف إنما هو المظروف وهذا مدح عظيم.

فإن قيل: لَو قيل: مالهم للسائل كان أبلغ!

فالجواب: لا نسلم، فإن صرف جميع المال حتى يبقى فقيراً محتاجاً منهيٌّ عنه، وكذلك الصلاة والصوم الاقتصاد فيهما أبلغ لقوله: ـ عليه الصلاة والسلام ـ: إنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَادْخُلُوا[٣] فِيهِ بِرفقٍ؛ فَإنَّ المُنْبَتَّ لاَ أَرْضاً قَطَعَ وَلاَ ظَهْراً أَبْقَى[٤].

فصل

في السائل والمحروم وجوه:

أحدها: أن السائل هو الآدمي، والمحروم كل ذي روح غيره من الحيوانات

---

(١) بالمعنى من الكشاف وباللفظ من الرازي ٢٨/ ٢٠٥ فقد قال في الكشاف ٤/ ١٦: «فيه أنهم هم المستغفرون الأحقاء بالاستغفار دون المصرِّين فكأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه».

(٢) كذلك في الأصل وفي ب: عن تطلب وفي الرازي: بمن يطلب شرعاً.

(٣) عبارة الرازي: فأوغل فيه.

(٤) بالمعنى من تفسير الإمام ٢٨/ ٢٠٦ و٢٠٥.

المحترمة، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ حَرَّى أَجْرٌ» وهذا ترتيب حسن؛ لأن الآدمي يُقدَّمُ على البهائم.

الثاني: أن السائل هو الذي يَسْأَل، والمَحْرُوم هو المتعفّف يظن أنه غنيٌّ فيُحْرَمُ. وقدَّمَ السائلَ؛ لأن حاله يعرف بسؤاله، أو يكون إشارة إلى كثرة العَطَاء فيعطي السؤّال، فإذا لم يجدهم يسأل عن المحتاجين فيكون سائلاً ومسؤولاً.

الثالث: قدم السائل؛ لتجانس رُؤُوس الآي(١).

فصل

قال ابنُ عباس وسعيدُ بن المُسيّب: السّائل الذي يسأل الناس، والمحروم الذي ليس له في الغنائم سهمٌ ولا يُجْرَى عليه من الفَيء شَيءٌ. وقال قتادة والزُّهْري: المحروم المتعفّف الذي لا يسأل. وقال زيد بن أسلم: هو المصاب ثمره أو زرعه أو تشَلُّ ماشيتُه، وهو قول مُحَمّد بن كَعْب القُرَظيّ. قال: المحروم صاحب الحاجة، ثم قرأ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٦ ـ ٦٧].

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)﴾

قوله تعالى: **﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾** إذا ساروا فيها من الجبال والبحار والثمار وأنواع النبات تدلهم على أن الحَشْرَ كائن كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩] إلى أن قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩]، ويحتمل أن يكون المعنى: وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ تَدُلُّ على مُدَبِّرٍ قادرٍ قاهرٍ يجب أن يُعْبَدَ ويُحْذَرَ(٢).

فإن قيل: كيف خصص الآيات بالمُوقنينَ، ولم يُخَصِّصْ في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ [يس: ٣٣]؟

فالجواب: أن القَسَمَ إنما يكون مع المعَانِد في البرهان، فهو لا ينتفع بالآيات وإنما ينتفع بها المُوقِنُونَ فلذلك أقسم ههنا فقال: «فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إنّه لَحَقٌّ» وفي سورة يس لم يؤكد ذلك بالقسم الدال على المعاند. أو يقال: أطلقت هناك باعتبار حصولها وخصصت هنا باعتبار المنفعة بها. وجمعت «الآيات» هنا، لأن المُوقن يتنبه لأمور كثيرة، وكذلك قوله: وَفِي أَنْفُسِكُمْ آيات دالة على ذلك إذ كانت نطفةً ثم علقةً، ثم مضغةً، ثم عظاماً، إلى أن ينفخ فيها الرُّوح(٣).

(١) بالمعنى قليلاً من المرجع السابق.
(٢) وانظر: الرازي السابق والبغوي ٦/ ٢٤٤ والقرطبي ١٧/ ٣٨ و٣٩.
(٣) بالمعنى من الرازي ٢٨/ ٢٠٧ و٢٠٨.

وقال عطاء عن ابن عباس ـ (رَضِيَ[١] اللَّهُ عَنهُمْ ـ): يريد اختلاف الألْسنة والصور والألوان والطبائع.

وقال ابن الزُّبَيْر: يريد سبيل البول والغائط يَأكُلُ ويَشْرَبُ من مَدْخَلٍ واحد ويَخرج من سَبِيلَيْنِ.

وقوله: أفلا تبصرون» قال مقاتل: أفلا تبصرون كيف خلقكم فتعرفوا قدرته على البعث[٢]؟

قوله: «وفي أنفسكم» نَسَقٌ على (مَا)[٣] «في الأرض» فهو خبر عن «آيات» أيضاً، والتقدير: وفي الأرض وفي أنفسكم آيات.

وقال أبو البقاء: وَمَنْ رَفَعَ بالظرف جعل ضمير «الآيات» في الظرف[٤]. يعني من يرفع الفاعل[٥] بالظرف مطلقاً أي وإن لم يعتمد[٦] يرفع بهذا الجار فاعلاً هو ضمير «آيات».

وجوز بعضُهم أن يتعلق بـ «يُبْصِرُونَ». وهو فاسدٌ[٧]؛ لأن الاستفهام[٨] والفاء يمنعان جَوَازَهُ.

وقرأ قتادة: «آية» بالإفراد[٩]، وقوله: «فِي أَنْفُسِكُمْ» يُحْتَمَلُ أن يكون المراد فِيكُمْ، يقال: الحجارة في نفسها صُلْبَة، ولا يراد بها النفس التي هي مَنْبعُ الحياة والحِسّ والحَرَكَات. ويحتمل أن يكون المراد وفي نفوسكم التي بها حياتكم آيات وقوله: «أَفَلاَ تُبْصِرُونَ» بالاستفهام إشارة إلى ظهورها[١٠].

قوله: «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ» أي سبب رزقكم. وقرأ حُمَيْدٌ وابنُ مُحَيْصن: رازِقُكُمْ اسم فاعل[١١]، والله تعالى متعالٍ عَنِ الجِهَةِ. قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: يعني بالرزق: المطر؛ لأنه سبب الأرزاق. وقيل: في السماء رزقكم مكتوب، وقيل: تقدير الأرزاق كلها من السماء، ولولاه لما حصل في الأرض حبَّة قُوتٍ.

---

(١) زيادة من أ.
(٢) وانظر: البغوي والقرطبي السابقين.
(٣) زيادة من أ تحريفيّة.
(٤) التبيان ١١٨٠.
(٥) يقصد آيات من قوله: «وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ».
(٦) أي على نفي واستفهام.
(٧) عبر عنه أبو البقاء بالضعف.
(٨) فلا يعمل ما بعد الاستفهام فيما قبله فهو حرف له الصدر.
(٩) ذكرها صاحب البحر ٨/ ١٣٦. وهي شاذة.
(١٠) قاله الرازي في تفسيره ٢٨/ ٢٠٨.
(١١) ذكره ابن خالويه في المختصر ١٤٥ وروى عنه ـ أي ابن مُحَيْصِن ـ هو وأبو حيان في البحر ٨/ ١٣٦ أرزاقكم بلفظ الجمع المكّسر. وتلك القراءة رَازِقكم ذكرها صاحب الإتحاف ٣٩٩.

قوله: «وَمَا تُوعَدُونَ» قال عطاء: من الثَّوَاب والعِقَاب، وقال مجاهد: من الخَيْر والشَّرِّ. وقال الضحاك: وما توعدون من الجَنَّة والنار[(١)] فيكون المعنى على هذا: وما توعدون لحقّ، كقوله: «إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ» فإن قلنا: المراد بقوله: «وما توعدون» الجنة فهو من الوعد، وإن قيل: المراد العذاب فيكون الخطاب مع الكفار.

قوله: «فَوربِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ» الضمير إما للقرآن، وإما «للدِّين»، وإما «الْيَوْم» في قوله: «وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ» و «يَوْمَ هُمْ» و «يَوْم الدِّينِ»، وإما للنبيّ ـ ﷺ ـ ودخلت الفاء بمعنى إنَّ ما توعدون لحق بالبرهان المبين ثم بالقسم واليمين أو للعطف على قوله: «والذَّاريات» مع إعادة المقسم عليه لوقوع الفَصْل[(٢)].

وأقسم أولاً بالمخلوقات وههنا بربها تَرَقِّياً من الأدنى إلى الأعلى[(٣)].

قوله: «مِثْلَ مَا» قرأ الأخوانِ وأبو بكر مِثْلُ[(٤)] بالرفع، وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه خبر ثانٍ مستقلٌ كالأَول.

الثاني: أنه مع ما قبله خبرٌ واحد، كقولك: هَذَا حُلْوٌ حَامِضٌ نقلهما أبو البقاء[(٥)].

والثالث: أنه نعت لحَقٌّ[(٦)] و «ما» مزيدة على الأوجه الثلاثة و «أَنَّكُمْ» مضاف إليه، أي لَحَقٌّ مِثْلُ نُطْقِكُم، ولا يضر تقدير إضافتها لمعرفة، لأنها لا تتعرف بذلك لإبْهَامِهَا[(٧)].

والباقون بالنصب، وفيه أوجه:

أشهرها: أنه نعت «لحَقّ» أيضاً كما في القراءة الأولى، وإنما بني الاسم لإضافته إلى غير متمكن[(٨)]، كما بناه الآخر في قوله:

---

(١) ذكر هذه الأقوال البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢٤٤ والقرطبي ١٧/ ٤١.

(٢) بالمعنى هذا كله من تفسير الأستاذ الإمام فخر الدين الرازي ٢٨/ ٢٠٩ و٢٠٨.

(٣) المرجع السابق.

(٤) قراءة سبعية متواترة، ذكرها صاحب الكشف ٢/ ٢٨٧، وصاحب السبعة ٦٠٩، وابن خالويه في الحجة ٣٣٢ وانظر الإتحاف ٣٩٩، والتّبيان ١١٨٠، والكشاف ٤/ ١٧، والبحر ٨/ ١٣٦.

(٥) التبيان ١١٨٠.

(٦) السابق والبحر ٨/ ١٣٦ والمشكل ٢/ ٣٢٤ والكشاف ٤/ ١٧.

(٧) إذ الإضافة غير محضة، ولأن الأشياء التي يقع التماثل بها بين المتماثلين كثيرة، فلم يتعرف بإضافته إلى «أنكم» لذلك، فلمَّا لمْ يتعرف حَسُنَ وَصْف «لحَقٌّ» به، كما تقول: «مَرَرْتُ برجُلٍ مِثْلِكَ» وانظر: المشكل السابق والكشف ٢/ ٢٨٧، ومعاني الفراء ٣/ ٨٥ والبيان ٢/ ٣٩١ والتبيان ١١٨٠ والقرطبي ١٧/ ٤٣.

(٨) قاله مكي في الكشف ٢/ ٢٨٧ و٢٨٨ والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٧ وأبو حيان في البحر ٨/ ١٣٦ ومكي أيضاً في المشكل ٢/ ٣٢٣ وأبو البقاء في التبيان ١١٨٠.

٤٥٢٢ ـ فَتَدَاعَى[١] مِنْخَرَاهُ بِدَمٍ مِثْلَ مَا أثْمَرَ حُمَّاضُ الجَبَلْ[٢]

بفتح «مثل» مع أنها نعت لِـ «دَم» وكما بنيت «غَيْرُ» في قوله ـ (رحمةُ الله عليه)[٣] ـ:

٤٥٢٣ ـ لَمْ يَمْنَع الشُرْبَ مِنْهَا غيْرَ أنْ نَطَقَتْ حَمَامَةٌ فِي غُصُونٍ ذَاتِ أَوْقَالِ[٤]

«غير» فاعل يمنع، فبناها على الفتح لإضافتها إلى «أَنْ نَطَقَتْ» وقد تقدم في قراءة: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾[٥] [الأنعام: ٩٤] بالفتح ما يُغْنِي عن تقرير مِثْلِ هذا.

الثاني: أن «مِثْلَ» ركّب مع «ما» حتى صارا شيئاً واحداً[٦]، قال المازني: ومثله: وَيْحَمَا، وهَيَّمَا وَأيْنَمَا، وأنشد لحُمَيْد بن ثَوْر ـ (رحمةُ اللَّهِ عليه رَحْمةً واسعةً ـ)[٧]:

٤٥٢٤ ـ ألاَ هَيَّمَا مِمَّا لَقِيتُ وَهَيَّمَا وَوَيْحاً لِمَنْ لَمْ يَدْرِ مَا هُنَّ وَيْحَمَا[٨]

قال: فلولا البناء لكان منوناً.

وأنشد أيضاً:

---

(١) وروي: «وَتَدَاعَى» بالواو.

(٢) من الرَّمَلِ وهو من إنشاد ابن بَرّي كما نقله صاحب اللسان «حمض» ٩٩٨. والحُمَّاضُ: بقلة برية تنبُتُ أيامَ الربيع في مسايل الماء ولها ثمرة حمراء وهي ذكور البقول. والبيت تشبيه شيءٍ بشيءٍ بجامع الحُمْرَة. والشاهد: جعل «ما ومثل» اسماً واحداً على الفتح مع أنها نعت لدم وهو قول المازنيّ ـ رحمه الله ـ. وانظر: مجمع البيان ٩/ ٢٣٣ والسراج المنير ٤/ ٩٨ والكشف ٢/ ٢٨٧ و٢٨٨، والأشباه والنظائر ٣/ ٢١٠ والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٥٩٤.

(٣) زيادة من أ الأصل.

(٤) من البسيط لأبي قَيْس بن الأسْلَت، والبيت روايةً كروايةِ الكتاب ٢/ ٣٢٩ وقد روي البيت برفع وفتح غير كما روي في اللسان: سَحُوق بدل غصون، و «هَتَفَتْ» بدل نطقت. و «منها» من الوجناء وهي الناقة في بيت قبله والسَّحوق: ما طال من شجر الدوم، والأوقال جمع وَقْل وهو المقل اليابس والمعنى: لم يمنعها أن تشرب إلا أنها سمعت صوت حمامة فنفَرَت، يعني أنها حَدِيدة النفس يخامرها فزع وذعر لحدّة نفسها.
والشاهد: غَيْرَ أنْ نَطَقَتْ بفتح «غير» رغم أنها فاعل لإضافتها إلى مبنيٍّ غير متمكن، وقد تقدم.

(٥) وقد قال الأخفش في هذه الآية إن «مِثْل» مرفوع الموضع ولكنه فتح كما فتح الظرف في آية الأنعام تلك.

(٦) وانظر: مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٣٢٣ والبحر ٨/ ١٣٧ و١٣٦.

(٧) زيادة من أ الأصل.

(٨) البيت من الطويل أنشده أبو الفتح عن أبي علي في الخصائص ٢/ ١٨١ ورواه أبو حيان في البحر ٨/ ١٣٧ عن المازني. والشاهد في «هيما» «ويحما» فكل منهما كلمة أضيفت إلى «ما» وركبت حتى صارتا شيئاً واحد، و «هيما» و «ويحما» من «هَيَّ وَما» و «وَيْحَ وما» وهَيَّ معناها التعجب، والتأسف على الشيء يفوت، و «ما» في موضع رفع كأنه قال: يا عجبي. وانظر: اللسان «هيا» ٤٧٤٢ والبحر ٨/ ١٣٧ وقد نسب صاحب اللسان البيت لحميد الأرقط وهو في ملحقات ديوان ثور٢.

٤٥٢٥ ـ .... فَأَكْرِمْ بِنَا أباً وَأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا[١]

وهو الذي ذهب إليه بعض النحويين[٢] وأنشد:

٤٥٢٦ ـ أَثَوْرَ مَا أَصِيدُكُمْ أَمْ ثَوْرَيْنْ أَمْ هَذِهِ الجَمَّاءُ ذَاتُ القَرْنَيْنْ[٣]

وأما ما[٤] أنشده من قوله: «وَأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا» فليس من هذا الباب، لأن هذا «ابنٌ» زيدت عليه الميم وإذا زدتَ عليه الميم جعلت النون تابعةً للميم في الحركات على الفصيح، فتقول: هذا ابْنُمٌ، ورأيت ابْنَماً ومررت بابْنِمٍ، فتجري حركات الإعراب على الميم ويتبعها النون.

وابنما في البيت منصوب على التمييز فالفتح لأجل النصب لا البناء، وليس هذه «ما» الزائدة، بل الميم وحدها زائدة، والألف بدل من التنوين[٥].

الثالث: أنه منصوب على الظَّرْف، وهو قول الكوفيين[٦].

ويجيزون: زَيْدٌ مِثْلَكَ بالفتح، ونقله أبو البقاء عن أبي الحسن ولكن بعبارة مُشْكِلَةٍ فقال: ويقرأ بالفتح، وفيه وجهان:

أحدهما: هو معرب[٧]، ثم في نصبه أوجه، ثم قال: أو على أنه مرفوع الموضع،

---

(١) عجز بيت من المتقارب للنمر بن تولب والشاهد: تركيب «ابن» مع «ما» تركيباً حتى صارا شيئاً واحداً على رأي المازني، وقد اعترض عليه كما سيجيء الآن. وانظر: البحر ٨/ ١٣٧ وسمط اللآلي ٧٤٣ لجنة التأليف ١٣٥٤ هـ.

(٢) لعله أبو علي الفارسيّ، فقد قال ابن جني في الخصائص «ويدل على أنه قد يضم ما هذه إلى ما قبلها ما أنشدنا أبو علي عن أبي عُثْمَانَ».

(٣) رجزٌ لم أعرف قائله. وقد ورد في الخصائص والبَحْر واللّسان «ثور» «تِيكم» بدل «هذه» وقد ورد في الخصائص واللسان والبحر الجماء بالجيم وهي التي لا قرنين لها وهذا لا يتفق مع قوله: ذات القرنين غير أنه يحمل على هذه الرواية على الهزء والتهكم وقد ورد في أ الحماء بالحاء والكلام عليها ظاهر لا غبار عليه بينما في ب الجماعة تحريف. والشاهد: أثور ما ففتح الراء منه وفتحة تركيب ثور مع «ما» بعده كفتحة راء «حَضْرَمَوْتَ» ولو كان فتحة إعراب لوجب التنوين لا محالة لأنه مصروف. وانظر الخصائص ٢/ ١٨١ والبحر ٨/ ١٣٧ واللسان «ثور» والتصريح ١/ ٢٤٠ ورُوح المعاني للألوسيّ ٢٧/ ١٠.

(٤) هذا اعتراض أبي حيان على المازني وهو نفس القول لابن جني في الخصائص ٢/ ١٨٢ قال: «وجريان حركات الإعراب على الميم يدل على أنها ليست «ما» وإنما الميم في آخره كالميم في آخر ضِرْزِم ودِقْعِم ودِرْدِم.

(٥) المرجعين السابقين.

(٦) قال الفراء في معاني القرآن ٣/ ٨٥: «ومن نصبها جعلها في مذهب المصدر كقولك: إنه لحق حقاً وإن العرب لتنصبها إذا رفع بها الاسم فيقولون: مثلَ من عبد الله، ويقولون: عبد الله مِثلك وأنت مثلَه» وانظر: البحر ٨/ ١٣٧.

(٧) التبيان ١١٨٠.

ولكنه فتح كما فتح الظرف في قوله: «لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ» على قول الأخفش، ثم قال: **والوجه الثاني**: هو مبنيّ[١].

وقال أبو عُبَيْد: بعض العرب يجعل «مِثْلَ» نصباً أبداً، فيقولون: هَـٰذَا رَجُلٌ مِثْلَكَ[٢].

الرابع: أنه منصوب على إسقاط الجارِّ وهو كافُ التشبيه.

وقال الفراء: العرب تنصبها إذا رفع بها الاسم يعني المبتدأ فيقولون: مِثْلَ مَنْ عَبْد الله؟ وعَبْد الله مثْلَكَ وأنْتَ مِثْلَه لأن الكاف قد تكون داخلة عليها فتُنْصَب إذا ألقيت الكاف[٣].

قال شهاب الدين: وفي هذا نظر، أيّ حاجة إلى تقدير دخول الكاف و «مِثْلُ» تفيد فائدتها؟ وكأنه لما رأى أن الكاف قد دخلت عليها في قوله: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» قال ذلك[٤].

الخامس: أنه نعت لمصدر محذوف، أي لحَقّ حَقًّا مِثْلَ نُطْقِكُمْ[٥].

السادس: أنه حال من الضمير في «لَحَقٌّ»؛ لأنه قد كثر الوصف بهذا المصدر حتى جرى مَجْرى الأوصاف المشتقة، والعامل فيها «حَقٌّ»[٦].

السابع: أنه حال من نفس «حَقّ» وإن كان نكرة[٧]. وقد نصَّ سيبويه في مواضع من كتابه على جوازه، وتابعه أبو عمرو على ذلك.

و «ما» هذه في مثل هذا التركيب نحو قولهم: «هَذَا حَقٌّ»، كما أنك ههنا لا تجوّز حذفها، فلا يقال: هذا حق كأنك ههنا. نص على ذلك الخليلُ ـ رحمه الله ـ[٨].

---

(١) المرجع السابق.
(٢) وهو اختيار أبي حاتم أيضاً و «مثل» على معنى «كمثل». وانظر: الجامع للعلامة الإمام القرطبي ١٧/ ٤٤.
(٣) معاني القرآن له ٣/ ٨٥.
(٤) الدر المصون له مخطوط بمكتبة الإسكندرية لوحة رقم ١١.
(٥) البحر المحيط ٨/ ١٣٧ ومعاني الفراء ٣/ ٨٥.
(٦) وهو اختيار مكي قال: والأحسن أن يكون حالاً من المضمر المرفوع في: «لَحَقٌّ» وهو العامل في المضمر وفي الحال، وتكون عليه «ما» زائدة. و «مثل» مضاف إلى «أنكم». انظر: المشكل ٢/ ٣٢٤، كما ذكره أبو حيان في بحره المرجع السابق وانظر: الكشف ٢/ ٢٨٨.
(٧) وهو رأي الجَرْمي رحمه الله، وانظر المشكل والبحر والكشف المراجع السابقة.
(٨) بالمعنى من البحر لأبي حيان ٨/ ١٣٧ قال: «ويقول الناس: هذا حق كما أنك ههنا، وهذا حق كما أنك ترى وتسمع، وهذا كما في الآية و «ما» زائدة بنصّ الخليل، ولا يحفظ حذفها، فتقول: هذا حقّ كأنك ههنا».

فإذا جعلت «مِثْلَ» معربة كانت «ما» مزيدة و «أَنَّكُمْ» في محل خفض بالإضافة كما تقدم[١]. وإذا جعلتها مبنية إما للتركيب، وإما لإضافتها إلى غير متمكن جاز في «ما» هذه وجهان: الزيادة وأن تكون نكرة موصوفة، (كذا)[٢] قال أبو البَقَاءِ[٣].

وفيه نظر، لعدم الوصف هنا، فإن قال: هو محذوف فالأصل عَدمهُ، وأيضاً فنصوا[٤] على أن هذه الصفة لا تحذف، لإبهام مَوْصُوفِها. وأما «أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ» فيجوز أن يكون مجروراً بالإضافة إن كانت («ما»)[٥] مزيدة، وإن كانت نكرة كان في موضع نصب بإضمار أعْنِي، أو رفع بإضمار مبتدأ[٦].

فصل

المعنى: «فَوَرَبِّ السَّمَاءِ والأَرْضِ إنَّه لَحَقٌّ» أي ما ذكرت من أمر الرزق لَحق كَمِثْلِ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ فتقولون: لا إله إلاَّ الله.

وقيل: شَبَّه تحقيق ما أخبر عنه بتحقيق نُطْق الآدمي كقولك: إنَّه لَحَقٌّ كما أنت ههنا وإنه لحق كما أنك تتكلم والمعنى أنه في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة. قال بعض الحكماء: كما أنَّ كل إنسان ينطق بلسان نفسه لا يمكنه أن ينطق بلسان غيره فكذلك كل إنسان يأكل رزق نَفْسه الذي قُسِمَ له، ولا يقدر أن يأكل رزق غيره[٧].

وقيل: معناه إن القرآن لحق تكلم به الملك النازل من السماء مثل ما تتكلمون[٨].

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا
قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ
﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ
فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾
۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾
فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

---

(١) قاله أبو البقاء العكبري في التبيان ١١٨٠.
(٢) زيادة من «ب» وهو الأصح.
(٣) المرجع السابق.
(٤) كذا في النسختين والأوجه أسلوبياً: فقد نصوا.
(٥) ساقطة من ب والتصحيح من أ.
(٦) قال بهذا الإمام الفراء في المعاني ٣/ ٨٥ وابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٩١، ومكي في مشكل الإعراب ٢/ ٣٢٣ وأبو البقاء في التبيان ١١٨١.
(٧) البغوي والخازن ٦/ ٢٤٤.
(٨) وهو رأي الرازي في تفسيره ٢٨/ ٢٠٩.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ هذا تسلية للنبي ـ ﷺ ـ وتيسير له بالفرج، وسَمَّاهُمْ ضَيْفاً، لأنه حسبهم كذلك، ويقع على الواحد والجمع، لأنه مصدر وسمَّاهم مُكْرَمين أي عند الله أو لأن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أكرمهم بأن عَجَّل قِرَاهُم، وأجلسهم في أكرم المواضع واختار إبراهيم لكونه شيخ المرسلين، وكون النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ مأموراً بأن يتبع ملته، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]. وقيل: سماهم مكرمين لأنهم كانوا ضيف إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ (وكان[١] إبراهيم أكرمَ الخليقة، وضيف الكرام مكرمون. وقال ابن أبي نُجَيْح ـ عن مجاهد ـ: لأن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ خدمهم بنفسه) وعن ابن عباس: سماهم مكرمين لأنهم جاءوا غير مَدْعُوِّينَ، وقال عليه الصلاة والسلام: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ[٢].

فإن قيل: إذا كان المراد من الآية التسلية والإنذار، فأي فائدة في حكاية الضيافة؟

فالجواب: ليكون ذلك إشارة إلى أنَّ الفرجَ في حق الأنبياء، والبلاء على الجهلة يأتي من حيث لم يحتسبوا، كقوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٢٥]، فلم يكن عند إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ خبرٌ من إنزال العذاب مع ارتفاع منزلته وقد تقدم عددهم في سورة هود[٣].

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ العامل في «إذْ» أَوْجُهٌ:

أحدها: أنه «حديث» أي هل أتاك حديثهم الواقع في وقت دخولهم عليه.

الثاني: أنه منصوب بما في «ضَيْف» من معنى الفعل، لأنه في الأصل مصدر، ولذلك استوى فيه الواحد المذكور[٤] وغيره، كأنه قيل: الَّذِينَ أَضَافَهُمْ في وقت دخولهم عليه.

الثالث: أنه منصوب بالمكرمين إن أريد بإكرامهم أنَّ إبراهيم أكرمهم بخدمته لهم كأنه تعالى يقول: أُكْرِمُوا إذ دَخَلُوا.

الرابع: أنه منصوب بإضمار «اذْكُرْ» ولا يجوز نصبه بـ «أَتَاكَ» لاختلاف الزَّمَانَيْنِ[٥].

---

(١) ما بين القوسين ساقط من أ وموجود في ب.

(٢) وانظر: البغوي والخازن السابقين والقرطبي ١٧/ ٤٤ و٤٥.

(٣) من الآية ٦٩ منها. قيل: جاءه جبريل ومعه مَلَكَانِ وهو مرويّ عن ابن عباس. وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل. وقيل: كانوا تسعة، وعن السدي: أحد عشر. وانظر اللباب ٤/ ٥٧ ب والكشاف ٢/ ٢٨٠.

(٤) في ب المذكر.

(٥) زمان الأتي والدخول. وانظر: البحر ٨/ ١٣٨ والكشاف ٤/ ١٧ والتبيان ١١٨١.

وقرأ العامة المُكْرَمِينَ ـ بتخفيف الراء ـ من أَكْرَمَ، وعكرمة: بالتشديد(١).

فإن قيل: أرسلوا بالعذاب بدليل قولهم: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢] فما الحكمة في مجيئهم إلى إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن إبراهيمَ ـ عليه الصلاة والسلام ـ شيخ المرسلين، ولوط من قومه، ومن عادة الملك إذا أرسل رسولاً لملك وفي طريقه من هو أكبر منه يقول له: اعبر على فلان الملك، وأخبره برسالتك وخذ فيها رأيه.

الثاني: أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان شديد الشفقة حليماً فكان يشق عليه إهلاك أمة عظيمة وكان ذلك مما يُحْزن إبراهيمَ ـ عليه الصلاة والسلام ـ شفقةً منه على العباد فقال (لهم)(٢) بَشّروه بغلام يخرج من صلبه أضعاف من(٣) يَهْلَكُ، ويكون من صلبه خروج الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ(٤).

قوله: «فَقَالُوا سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ» العامة على نصب «سلاماً» الأول، ورفع الثاني. فأما نصب الأول فالمشهور أن السلام التحية أي نُسَلِّم سلاماً(٥). ويحتمل أن «سلاماً» معناه حَسَناً أي قالوا كلاماً حسناً؛ لأنه كلام سلم به المتكلم من أن يَلْغُو أو يأثم فكأنهم قالوا قولاً حسناً سَلِموا به من الإثم فيكون مفعولاً به لأنه في معنى القول(٦)، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، أو هو مفعول بفعل محذوف، أي نُبَلِّغُكَ سَلاَماً(٧).

ولم يقولوا من الله شفقة على قلب إبراهيم فأتوا به مجملاً، ثم فسروه بعْدَ ذلك.

وأما رفع الثاني فالمشهور أنه التحية، فهو مبتدأ، وخبره محذوف أي عَلَيْكُمْ، ويحتمل أنه السلامة، أي أَمْرِي سَلاَمٌ لأني لا أعرفكم، أو قولُكُم سَلاَمٌ(٨)، أي ينبىء عن السلامة وأنتم قوم منكرون فَما خَطْبُكُمْ؟

---

(١) البحر المرجع السابق وهي شاذة.

(٢) سقط من ب.

(٣) في الرازي: ما.

(٤) وانظر: تفسير الرازي ٢٨/ ٢١٠ و٢١١.

(٥) قال بذلك مكي في المشكل ٢/ ٣٢٤ والرازي ٢٨/ ٢١١ والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٧ والزجاج في المعاني ٥/ ٥٥ والقرطبي ١٧/ ٣٤ والتبيان ٧٠٥.

(٦) وهو قول الإمام الرازي في تفسيره السابق وهو قول مكي أيضاً في المشكل حيث قال: «أو بوقوع القول عليه» وانظر المشكل السابق أيضاً.

(٧) قاله الرازي أيضاً وهو نفس رأي ابن عطية فيما نقله عنه أبو حيان في البحر ٨/ ١١٩ لكنه جعل سلاماً بمعنى قولاً ويكون المعنى أنهم قالوا تحية وقولاً معناه سلاماً. وانظر البحر السابق.

(٨) المشكل والرازي السابقين والقرطبي ١٧/ ٤٥.

وأما الفرق بين النصب والرفع، فإن حملنا السلام على التّحية، فإنه مُبتدأ مع أنه نكرة تنبيهاً على أصله، لأنه النصب، لأن المعنى أسَلِّمُ سلاماً و «عَلَيْكُمْ» لبيان المسلَّم عليه، لا حظَّ له في الإعراب[١].

وأصل الكلام أسلم سلاماً، فالنصب أصل، فقدم على الرفع الذي هو فرع، وأيضاً فرد (إبراهيم)[٢] أبلغ لأنه أتى بالجملة الاسمية الدالة على الثبات بخلاف الفعلية، فإنها تدل على التَّجدّد والحُدُوث، ولهذا يستقيم قولنا: الله موجود الآن، ولا يستقيم قولنا: اللَّهُ وجدَ الآن.

وأما إن قلنا: معناه حَسَناً، أو ذا سلامة، فمعناه قلتم حسناً وأنتم مُنْكرون فالتبس الأمر عليَّ[٣].

وأما إن قلنا معناه المتاركة فمعناه سلَّمتم عليَّ، وأنا أمري متاركة لأني لا أعلم حالكم، ومنه: «وَإِذَا خاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً» وقال تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ [الزخرف: ٨٩] لأن سلامتهم عن الجاهلين لا يمنع التعرض لهم، بخلاف النبي ـ ﷺ ـ فمعناه سلم أمري متاركة إلى أن يأتي أمر الله[٤]. وتقدم تحرير نظير هذه الآية في سورة هُود[٥].

وتقدم أيضاً خلاف القراء في سَلام[٦] بالنسبة إلى فتح سِينه وكسرِها، وإلى سكون لامه وفتحها.

وقُرِئَا مرفُوعَيْن[٧]. وقرىء سلاماً قَالوا سِلْماً بكسر سين الثاني ونصبه[٨]، ولا

---

(١) في الرازي: في المعنى غير ذلك البيان.

(٢) سقط من ب.

(٣) وهذه التفصيلات كلها نقلها المؤلف بالمعنى عن الرازي ٢٨/ ٢١٢.

(٤) بالمعنى من الرازي السابق، فقد قال: وأما النبي ـ ﷺ ـ لو سلم عليهم لصار ذلك سبباً لحُرمة التعرض إليهم فقال: قل سلام أي أمري معكم متاركة تركناه إلى أن يأتي أمر الله بأمر. وانظر: الرازي ٢٨/ ٢١٣ و٢١٢.

(٥) اللباب الأسبق.

(٦) قراءة ابن وثاب والنّخعيّ وابن جُبَيْر وطَلْحَة قال: سِلْم بكسر السِّين وإسكان اللام، والمعنى نحن سِلْم، أو أنتم سِلْم وتلك قراءة كوفية وهي من الأربع عشرة فوق المتواترة وانظر الإتحاف ٣٩٩ وقد نسبت لحمزة والكسائي في الإتحاف.

(٧) لم أعرف من قرأ هكذا وانظر: البحر ٨/ ١٣٩ والكشاف ٤/ ١٧، وهي شاذة وحينئذ يكون الرفع على ما مرَّ من رفع «سَلاَمٌ» والثانية فمن الإمكان أن تكون ابتداءً والخبر محذوف أي سلام عليك أو خبراً لابتداء محذوف معناه قالوا أمرُنا سلام.

(٨) البحر والكشاف السابقين. ولم يحدِّدا من قرأ بها.

يخفى توجيه ذلك بما تقدم في هود ودخلت الفاء ههنا إشارة إلى أنهم لم يخلوا بأدب الدخول، بل جعلوا السلام عَقِيبَ الدخول.

قوله: «قَوْمٌ مُنْكَرُون» خبر مبتدأ مضمر، فَقدَّروه أنتم قَوْمٌ، ولم يَسْتَحْسِنْهُ بعضُهم[١]؛ لأن فيه عدم أنس فمثله لا يقع من إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فالأولى أن يقدر هَؤلاءِ قومٌ، أو هُمْ قَوْمٌ[٢]، وتكون مقالته هذه مع أهل بيته وخاصته، لا لنفس الملائكة لأن ذلك يوحشهم[٣].

وقال المفسرون: قوم منكرون أي غُرَبَاء ولا نعرفكم.

قال ابن عباس ـ (رضي الله[٤] عنهما ـ) قال في نفسه: هؤلاء قوم لا نَعرفهم. وقيل: إنما أنكر أمرهم، لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان. وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض[٥].

فإن قيل: قال في سورة هود: ﴿**فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ**﴾ فدل على أن إنكاره حصل بعد تقريب العِجْل إليهم وههنا قال: «فَقَالُوا سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ»، ثم قال: «فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ» بفاء التعقيب، وذلك يدل على أن تقريب الطعام منهم بعد حصول إنْكَارِهِ فما وجهه؟

فالجواب: أن يقال: لعلهم كانوا مخالفين لِصفة الناس في الشكل والهيئة، ولذلك قال: «قوم منكرون»، (أي) عند كل أحد (منا)، ثم لمّا امتنعوا عن الطعام تأكد الإنكار، لأن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ تَفَرَّد بمشاهدة إمساكهم فنَكِرَهُمْ فوق الإنكار الأول[٦].

وحكاية الحال في سورة «هود» أبْسَطُ مما ذكره ههنا، فإن هَهنا لم يبين المُبَشَّر به، وهناك ذكره باسمه وهو إسحاق وههنا لم يقل إن القوم قوم مَنْ، وهناك قال: قَوْم لوطٍ[٧].

فصل

ذكر ههنا من آداب الضيافة تسليمَ المُضِيفِ على الضَّيف، ولقاءَه بالوجه الحسن، والمبالغةَ في الإكرام بقوله: «سلام»، وهو آكد، وسلامهم بالمصدر، وفي قوله: سلام بالرفع زيادة على ذلك ولم يقل سلامٌ عليكم؛ لأن الامتناع من الطعام يدل على أن العداوة لا تليق بالأنبياء فقال: سلام أي أمري مُسَالمة، ثم فيها من أدب الضيف تعجيل

(١) لعله أبو حيان فتلك العبارات عباراته في البحر ٨/ ١٣٩.

(٢) المرجع السابق. (٣) المرجع السابق بالمعنى.

(٤) زيادة من أ. (٥) البغوي ٦/ ٢٤٤ و٢٤٥.

(٦) و (٧) المرجع السابق.

الضيافة، فإن الفاء في قوله: «فَرَاغ» يدل على التعقيب وإخفائها لأن الرَّوَغَانَ يقتضي الإخفاء وغيبة المُضِيفِ عن الضَّيْف ليستريح، ويأتي بما يمنعه الحياء منه، ويخدم الضيف بنفسه ويختار الأجود لقوله: «سَمِينٍ» ويُقَدِّم الطعام للضيف في مكانه لا ينقل الضيف للطعام لقوله: «فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ» ويَعْرِض الأكل عليه لا يأمره لقوله: «أَلاَ تَأْكُلُونَ» ولم يقل: كُلُوا. وسروره بأكله كما يوجد في بعض البخلاء[١] الذين يحضرون طعاماً كثيراً، ويجعل نظره ونظر أهل بيته إلى الطعام حتى يمسك الضيف يده عنه، لقوله: «فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً» بعدم أكلهم[٢].

ومن آداب الضيف إذا حضره الطعام ولم يكن يصلح له لكونه مضراً به، أو يكون ضَعِيفَ القوة عن هضم ذلك الطعام فلا يقول: هذا طعام غليظ لا يصلح لي بلْ يأتي بعبارة حسنة، ويقول: بي مانع من أكل الطعام، لأنهم أجابوه بقولهم: لا تخف، ولم يذكروا في الطعام شيئاً، ولا أنه يضّر بهم بل بشروه بالولد إشعاراً بأنهم ملائكة، وبشروه بالأشرف وهو الذكر حيث فهموه أنهم ليسوا ممن يأكلون.

ثم وصفوه بالعلم دون المال والجمال، لأن العلم أشرف الصفات ثم أدب آخر في البشارة وهو أن لا يخبر الإنسان بما يسرّهُ دَفْعةً واحدة، لأنه يورث رِضَاهُم[٣]، لأنهم جلسوا، واستأنس بهم إبراهيم، ثم قالوا: نُبَشِّرُكَ. وتقدم الكلام على فائدة تقديم البشارة[٤].

قوله: «فَرَاغَ» أي عدل ومال[٥] «إلى أَهْلِهِ»، وقوله: «فَجَاءَ» عطف على «فَرَاغَ» وتسببه عنه واضح «بِعِجْلٍ سَمِينٍ» أي مشويّ كقوله في مكان آخر: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]. «فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ» ليأكلوا، فلم يأكلوا قَالَ أَلاَ تَأكُلُون والهمزة في «أَلاَ تَأْكُلُونَ» للإنكار عليهم في عدم أكلهم، أو للعرض، أو للتحضيض[٦].

«فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خيفةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَم عَلِيمٍ».

---

(١) العبارة هنا قلقة وعبارة الرازي ـ مصدر المؤلف ـ هي الأوضح حيث يقول: ثم كون المضيف مَسْروراً بأكلهم غير مسرور تبركهم الطعام كما يوجد في بعض البخلاء المتكلفين الذين. . . . الخ.

(٢) هذه كلها آداب المضيف.

(٣) في ب وهو كما في الرازي: مرضاً بدل رضاهم وهو الأصح.

(٤) ليعلم أن الله تعالى يهلكهم إلى خلف ويأتي ببدلهم خيراً منهم. وانظر: الرازي المرجع السابق ٢٨/ ٢١٤، وهذا الذي ذكره المؤلف استقاه من تفسيره التفسير الكبير ٢٨/ ٢١٤ و٢١٥ بالمعنى.

(٥) قاله أبو عبيدة في المجاز ٢/ ٢٢٦، وابن قتيبة في الغريب ٤٢١.

(٦) الكشاف ٤/ ١٨ والبحر ٨/ ١٣٩ وإذا كانت الهمزة للإنكار يفهم أن هناك محذوفاً تقديره: فامتنعو عن الأكل فأنكر عليهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ قيل[١]: لم يكن ذلك إقبالاً من مكان إلى مكان، وإنما هو كقول القائل: أقبل يَشْتُمُنِي بمعنى أخذ في شَتْمِي، أي أخذت تُوَلْوِلُ، لقوله: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ [هود: ٧٢]، وذلك أنها كانت مع زوجها في خدمتهم، فلما تكلموا مع زوجها بولادتها استحت وأعرضت عنهم، فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الإقبال على الأهل، ولم يقل بلفظ الإدبار عن الملائكة[٢].

قوله: «فِي صَرَّةٍ» يجوز أن يكون حالاً من الفاعل أي كائنةً في صَرَّة[٣]. والصَّرة قيل: الصيحة، قال امرؤ القيس:

٤٥٢٧ ـ فَأَلْحَقَنَا بِالْهَادِيَاتِ وَدُونَهُ جَوَاحِرُهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تَزَيَّلِ[٤]

قال الزمخشري: من صَرَّ الجُنْدُبُ والبابُ والقلمُ[٥]، أي فصاحت كما جرت عادة النساء إذا سمعن شيئاً من أحوالهن يَصِحْنَ صيحةً معتادة لهن عند الاستحياء أو التعجب.

ويحتمل أن يقال: تلك الصيحة كانت بقولها: يَا وَيْلَتَا، ومحلّها النصب على الحال أي فجاءت صارةً.

ويجوز أن يتعلق بـ «أَقْبَلَتْ» أي أقبلت في جماعة نسوةٍ[٦] كُنَّ معها، والصَّرة الجماعة من النساء.

قوله: «فَصَكَّتْ وَجْهَهَا» قال ابن عباس ـ (رضي[٧] الله عنهما) ـ: فلطمت[٨] وَجْهَهَا. واختلف في صفته فقيل: هو الضرب باليد مبسوطةً. وقيل: بل ضرب الوجه بأطرافِ الأصابع فعل المتعجِّب، وهو عادة النساء إذا أنكرنَ شيئاً. وأصل الصكّ ضرب الشيء بالشيء العَرِيض[٩].

قوله: «عَجُوزٌ» خبر مبتدأ مضمر أي أنا عجوزٌ عقيمٌ فكيف ألد؟ وتفسرها الآية الأخرى، فاستبعدت ذلك ظنًّا منها أن ذلك منهم على سبيل الدعاء، فكأنها قالت: يا ليتكم دعوتم دعاء قريباً من الإجابة، فأجابوها بأن ذلك من الله تعالى، وأن هذا ليس

---

(١) ذكره البغوي دون ما تحديدٍ لواحدٍ معين. انظر: البغوي ٦/ ٢٤٥.
(٢) نقل تلك العلة الإمام الفخر الرازي في تفسيره ٢٨/ ٢١٤.
(٣) وهو قول أبي البقاء في التبيان ١١٨١.
(٤) من الطويل له وروي في القرطبي فألحقهُ. والهاديات: أوائل بقر الوحش، وجوارحها: متخلفاتها، ولم تُزَيَّل: لم تتفرق. والمعنى لما لحق هذا الفرس أوائل بقر الوحش بقيت أواخرها لم تتفرق. والشاهد: صَرَّة ومعناها صيحة وجماعة. والبيت في معلقته، وقد تقدم.
(٥) يَصِرّ صَرِيراً إذا امتد وكل صوت شبه ذلك. انظر: اللسان السابق وانظر الكشاف ٤/ ١٨.
(٦) قال بالوجه السابق الكشاف السابق.
(٧) زيادة من أ.
(٨) قاله ابن قتيبة في الغريب ٤٢١.
(٩) اللسان: «صكك» ٢٤٧٤.

بدعاء، وإنما هو قول الله «كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ» ثم دفعوا استبعادها بقولهم: «إِنَّه هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ».

قوله: «كَذَلِك» منصوب على المصدر بـ «قَالَ»[١] الثانية أي مثلُ ذلك القول الذي أخبرناكِ[٢] به قال ربُّك، أي إنه من جهة الله فلا تعجبي منه.

قال ابن الخطيب: وقال ههنا: الحكيم العليم وفي سورة (هود)[٣]: إِنَّهُ حَمِيدٌ مجيدٌ؛ لأن الحكاية في هود أبسطُ فذكروا ما يدفع استبعادها[٤] بقولهم: «أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ»، ثم أرشدوها إلى القيام بشكر نعم الله بقولهم: «حَمِيدٌ» فإن الحميد هو الذي يفعل الأفعال الحسنة، والمجيد إشارة إلى أنه لا يحمد لفعله وإنما يحمد لذاته.

وههنا لما لم يقولوا: أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله أَشَارُوا إلى ما يدفع تعجبها بقولهم: «حكيم عليم». فالحميد يتعلق بالفعل، والمجيد يتعلق بالذات، وكذلك الحكيم هو الذي فعله قاصداً إليه، فإن من يتقلب في النوم[٥] على حية فماتت لا يعد حكيماً، وأما إذا قصد قتلها بحيث يسلم من نهشها، يقال: إنه حكيم والعليم صفة راجعة إلى الذات، فقدم وصف الفعل وارتقى درجة إلى وصف الذات إشارة إلى أنه يستحق الحمد وإن لم يفعل فعلاً[٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ هذا أيضاً من آداب المُضِيف، إذا بادر الضيف إلى الخروج قال له: ما هذه العَجَلَةُ؟ وما شَأْنك؟ لأن في سُكُوته ما يوهم باسْتِثْقَالهم[٧] ثم إنهم[٨] أتوا بما هو من أدب الصديق الذي لا يسر عن الصديق شيئاً، وكان ذلك بإذن الله لهم في إطلاع إبراهيم على إهلاكهم وجبر قلبه بتقديم البشارة بأبي الأنبياء إسحاق ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

فإن قيل: فما الذي اقتضى ذكره بالفاء ولِمَ لا قال: مَا هَذَا[٩] الاستعجال؟ ومَا خَطْبكُم المعجل لكم؟

فالجواب: أنه لما أوجسَ منهم خيفةً أو خرجوا من غير بشارة وإيناس ما كان يقول شيئاً فلما أَنِسُوه قال: ما خَطْبُكُم أي بعد هذا الأُنس العظيم ما هذا الإيحاش الأليم[١٠]!

---

(١) قاله صاحب التبيان ١١٨١.

(٢) الكشاف ٤/ ١٨.

(٣) لفظ هود ساقط من أ الأصل.

(٤) في ب استبعاده وفي الرازي الاستبعاد.

(٥) في ب نومه وفي الرازي: جنبه.

(٦) وانظر تفسير العلامة الرازي ٢٨/ ١٥ بالمعنى قليلاً.

(٧) في ب باشتغالهم والتصحيح من أ.

(٨) في ب وإنهم.

(٩) كذا ذلك الأسلوب في النسختين وفي الرازي: ولو كان كما ذكرتم لقال: ما هذا الاستعجال.. الخ.

(١٠) الرازي ٢٨/ ٢١٥ و٢١٦.

فصل

والخَطْب يُسْتَعْمل في الأمر العظيم، ولذلك قال: فَمَا خَطْبُكُم أي لعظمتكم لا ترسلون إلاَّ في أمر عظيم، ولو قال بلفظ مركب بأن يقول: ما شُغْلكم الخَطِيرُ وأمركم العظيم للزم التطويل فالخَطْبُ أفاد التعظيم مع الإيجاز وعرف أنهم مرسلون بقولهم: «إنَّا أُرْسِلْنَا» أو بقولهم لامرأته: «كَذَلِك قَالَ رَبُّكِ» لحكايتهم قول الله تعالى.

وقالوا في سورة هود: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ [هود: ٧٠] وقالوا هنا: «إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ»، لأن الحكاية عن معنى قولهم.

ويحتمل أنهم قالوا الأمرين ولما حكى لفظهم في السلام أتى في الموضعين بصفة واحدة[١].

والمُجْرم قال ابن عباس ـ (رضي الله[٢] عنهما ـ): هو المشرك، لأن الشرك أسرف الذنوب وأعظمها.

قال ابن الخطيب: المُجْرم هو الآتي بالذنب العظيم، لأن المجرم فيه دلالة على العظيم ومنه جُرْم الشيء لعِظَمِهِ ومقْدَاره[٣].

قوله: «لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ» فيه دليل على رَجْم اللائط. والفائدة في إرسال جماعة من الملائكة لهذا الأمر وإن كان يكفي فيه الواحد منهم، أنَّ الملك العظيم قد يهلك بالأمر الحقير كما هلك النُمْرُود بالبَعُوض، وكما أُهْلِكَ بالقُمَّل والجَرَاد بل بالرِّيح التي بها الحياة إظهاراً للقدرة، وقد تكثر الأسباب كما في يوم بدر أُمِرَ خمسة آلاف من الملائكة بإهلاك أهل بدر مع قلتهم إظهاراً لعظيم قدرته. وقوله: «مِنْ طِينٍ» أي ليست من البَرَدِ والفاعلُ لذلك هُو اللَّهُ تعالى لا كما يقول الحكماء فإنهم يقولون: إن البَرَد يسمى حجارة فقوله: «مِنْ طِينٍ» يدفع ذلك التَّوَهُّمَ[٤].

قال ابن الخطيب: إن بعض من يَدَّعي العَقل[٥] (يقول)[٦]: لا ينزل من السماء إلا حجارة من طين مدوَّرات على هيئة البَرد وهيئة البَنَادِق التي يتخذها الرماة، قالوا: وسبب ذلك أن الإعصار يصعد[٧] الغُبَار من الفلَوَاتِ العظيمة التي لا عِمَارَةَ فيها والرياح تسوقها إلى بعض البلاد ويتفق (وصول)[٨] ذلك إلى هواء نَدِيّ فيصير طيناً رَطْباً، والرطب إذا نزل وتفرق استدار بدليل أنك إذا رميت الماء إلى فوق ثم نظرت إليه رأيته ينزل كراتٍ

---

(١) الرازي المرجع السابق.
(٢) زيادة من «أ».
(٣) تفسيره ٢٨/٢١٨.
(٤) بالمعنى من المرجع السابق.
(٥) في الرازي: النظر.
(٦) سقط من أ وكذا هو موجود في الرازي كـ «ب».
(٧) في ب تَصْعَد.
(٨) زيادة من الرازي للتوضيح.

مُدَوَّرَاتٍ كاللآلىءِ الكِبَار ثم في النزول إذا اتفق أن تضربه النيران التي في الجو جعلته حجارة كالآجُرّ[١] المطبوخ فينزل فيصيب من قدر الله هلاكه وقد ينزل كثيراً في المواضع التي لا عِمارة بها، فلا يُرى ولا يُدْرَى به فلهذا قال: «مِنْ طينٍ» لأ (نَّ) ما لا يكون من طين كالحجر الذي في الصواعق لا يكون كثيراً بحيث يمطر، وهذا تعسُّف، لأن ذلك الإعصار لما وقع فإن وقع بحادث آخر لزم التسلسل، ولا بدّ من الانتهاء إلى محدِث ليس بحادث فذلك المحدث لا بدّ وأن يكون فاعلاً مختاراً، والمختار له أن يفعل وله أن يَخْلُق الحِجَارة من طين على وجه آخر من غير نارٍ ولا غبارٍ، لكن العَقل لا طريق له إلى الجزم بطريق إحداثه وما لا يصل العقل إليه فلا يؤخذ إلا بالنقل والنص ومن المعلوم أن نُزُول حجارة[٢] الطين من السماء أغرب وأعجب من غيرها[٣].

قوله: «مُسَوَّمَةً» فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه منصوب على النَّعت لحِجَارةٍ.

الثاني: أنه حال من الضمير المستكنّ في الجارّ قبله[٤].

الثالث: أنه حال من «حجارة»، وحسَّنَ ذلك كونُ النكرة وُصِفَتْ بالجارِّ بعدها.

ومعنى مسومة قيل: على كل حجر منها اسم صاحبه. وقيل: خلقت وأعدت لتعذيبهم. وقيل: مُرْسَلَة للمجرمين؛ لأن الإرسال يقال في التسويم، يقال أرسلها لِتَرْعَى، كما قيل في الخيل المُسَوَّمَةِ أي مستغنى عنها[٥].

قوله: «عِنْدَ رَبِّكَ» ظرف «لمُسومَةٍ»[٦] أي معلَّمة عنده «والمُسْرِفُ» المتمادي ولو في الصغائر فهم مجرمُون مُسْرفُونَ.

وهنا لطيفة وهي أن الحجارة سُوِّمَتْ للمسرف المُصِرّ الذي لا يترك الذنب في المستقبل وذلك إنما يعلمه الله تعالى، فلذلك قال: «عِنْدَ رَبّكَ لِلْمُسْرِفِينَ» ولما كان الإجرام ظاهراً قالوا: «إنَّا أُرْسِلْنَا إلَى قَوْم مُجْرِمِينَ» واللام في «المسرفين» لتعريف العهد، أي لِهؤلاء المسرفين؛ إذ ليس لكل مسرف حجارة مسوَّمة.

وإسرافهم بأنهم أتوا بما لم يَسْبِقْهم به أحدٌ من العَالَمِين[٧].

قوله: «فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» هذه الآية تدل على بيان القدرة

---

(١) ويسمى: الأَجُورُ واليَأْجُور والآجُرُونُ والآجُرّ والآجُرُ وكلها بمعنى طبيخ الطين. والبرد حَبّ الغَمَام

(٢) في ب الحجارة الطين، وفي الرازي: الحجارة التي من طين.

(٣) وانظر: تفسير الإمام الرازي ٢٨/٢١٨ و٢١٧.

(٤) قال بهذين الوجهين العُكْبَرِيُّ في التبيان ١١٨١.

(٥) الرازي السابق.

(٦) التبيان السابق.

(٧) بالمعنى من تفسير الإمام ٢٨/٢١٨ السابق.

والاختيار، لأنه تعالى لما ميز المجرمَ عن المحسن يدل[١] على الاختيار وأيضاً فيها بيان أن ببَركَة المحسن ينجو المسيء، فإن القرية ما دام فيها المؤمنون لم تَهْلَكْ. والضمير في «فِيهَا» عائد على القرية وهي معلومة وإن لم تكن مذكورة.

والمعنى: فأَخرجْنا من كان في قُرَى قومِ لوط من المؤمنين، وذلك قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [الحجر: ٦٥].

وقوله: «فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» يعني لوطاً وابنتيه وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعاً، لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم، وفيه إشارة إلى أن الكفر إذا غلب، والفِسْقَ إذا فَشَا لا ينفع معه عبادة المؤمنين، بخلاف ما لو كان[٢] أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة، وفيهم شِرْذِمَةٌ يسيرة يسرقون ويزنون، ومثاله أن العالم كالبَدَن، ووجود الصالحين كالأغذية الباردة والحارة والسموم الواردة عليه الضارة ثم إن البدن إن خلا عن المنافع وفيه الضارّ هلك وإن خلا عن الضار وفيه النافع طاب ونما، وإن وُجِدَا فيه فالحكم للغالب.

وإذا علم أن إطلاق العَامّ على الخَاصّ لا مانع منه، لأن المسلم أعمّ من المؤمن فإذا سمي[٣] المؤمن مسلماً، لا يدل على اتحاد مفهوميهما فكأنه تعالى قال: أخرجنا المؤمنين، فما وجدنا الأعمَّ منهم إلا بَيْتاً من المسلمين، ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين[٤].

قوله: «وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً» يجوز أن يعود الضمير على القَرْية، أي تركنا في القرية علامةً أي عِبرة كالحجارة أو الماء المنتن ويجوز أن يعود على الإهلاكة[٥] المفهومة من السِّياق[٦].

وقوله: «لِلَّذِينَ يَخَافُونَ» أي ما ينتفع بها إلا الخائف، كقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥] ومعنى الآية: أن «الآية» تدلهم على أن الله تعالى أهلكهم فيخافون مثل عذابهم[٧].

---

(١) كذا في النسختين بلفظ المضارع وفي الرازي: دل وهو الأقرب.

(٢) في ب فقط: ما لو كان معه.

(٣) في ب سلم وهو تحريف

(٤) بالمعنى من تفسير الرازي ٢٨/ ٢١٩.

(٥) وهو اسم مرة من غير الثلاثي كتَقْدِيسَةٍ وتَبْيِينَةٍ وغيرهما.

(٦) وقد ذكر العلامة أبو حيان في البحر ٨/ ١٤٠ هذه الآراء دون نسبة لقائليها بينما ذكر القرطبي في الجامع ١٧/ ٤٩ الأول والثاني فقط عن مجهولين أيضاً، وذكر الرازي في مرجعه السابق الثاني والثالث.

(٧) وهو رأى البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢٤٥.

قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى﴾ فِيهِ أوجه:

أظهرها: أنه عطف على قوله: «فِيهَا» بإعادة الجار؛ لأنَّ المعطُوفَ عَلَيْهِ ضميرٌ مجرورٌ فيتعلق بـ «تَرَكْنَا» من حيث المعنى[١] ويكون التقدير: وتَرَكْنَا في قصةِ موسى آية. وهذا واضح.

والثاني: أنه معطوف على قوله: «فِي الأَرْضِ آيَاتٌ» أي وفي الأرض وفي موسى آياتٌ للموقنين. قاله الزمخشري[٢] وابنُ عطية[٣].

قال أبو حيان: وهذا بعيد جدًّا يُنَزَّه القرآن عن[٤] مثله.

قال شهاب الدين: وجه استبعاده له بعد ما بينهما، وقد فعل أهل العلم هذا في أكثر من ذلكَ[٥].

والثالث: أنه متعلق بـ «جَعَلْنَا» مقدرة، لدلالة: «وَتَرَكْنَا» عليه.

قال الزمخشري: أو على قوله ـ يعني أو يعطف على قوله ـ: «وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً» على معنى وجعلنا في موسى آية[٦] كقوله:

٤٥٢٨ ـ عَلَفْتُهَا تِبْناً ومَاءً بَارِداً ....[٧]

قال أبو حيان: ولا حاجة إلى إضمار: «وَجَعَلْنَا» لأنه قد أمكن أن يكون العامل في المجرور «وتركنا».

---

(١) وهو ظاهر كلام أبي البقاء في التِّبْيَان ١١٨١ وأبي حَيَّانَ في البحر المحيط ٨/ ١٤٠.

(٢) الكشاف ٤/ ١٩ وهو أحد قوليه والقول الأول السابق.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٤٠. (٤) المرجع السابق.

(٥) الدر المصون مخطوط بمكتبة الإسكندرية لوحة رقم ١١٠.

(٦) الكشاف ٤/ ١٩.

(٧) صدر بيت من الرجز وعجزه:

.... حَتَّى شَتَتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا

وهو لذي الرمة، وهو من شواهد الخصائص ٢/ ٤٣١ والإنصاف ٦١٣ وابن يعيش ٢/ ٨ والمغني ٦٣٢ وشرح شواهده للسيوطي ٣١٤ وشذور الذهب ٢٩٩ والتصريح ١/ ٢٤٦ والهمع ٢/ ١٣٠ والأشموني ٢/ ١٤٠ واللسان: «ق ل د» وليس في ديوانه ولا في ملحقاته لكن صدره في الملحقات مع شطر آخر سابق له وقال البغدادي في الخزانة: ففتشت ديوانه فلم أجده فيه وهو في البحر المحيط ٨/ ١٤٠ والكشاف ٤/ ١٩ وفي تأويل المشكل ٢١٣.

وهمالة من قولهم: هَمَلَتْ عَيْنُ فُلاَنٍ إذا أرسلتْ دَمْعَها إرسالاً. والشاهد: «وماءً» فهو ليس معطوفاً على تِبْناً لكون العامل في المعطوف عليه لا يصح تسليطه على المعطوف مع بقاء معنى هذا العامل على حاله.

قال شهاب الدين: والزمخشري إنما أراد الوجه الأول بدليل قوله: «وَفِي مُوسَى» معطوف على «وَفِي الأَرْضِ»، أو على قوله: «وَتَرَكْنَا فِيهَا» وإنما قال: على جهة تفسير المعنى لا الإعراب. وإنما أظهر الفعل تنبيهاً على مغايرة الفعلين يعني أن هذا الترك غير ذاك الترك، ولذلك أبرزه بمادة الجَعْل دون مادة الترك ليظهر[١] المخالفة.

الرابع[٢]: أن يعطف على «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ» تقديره: وفي حديث موسى إذْ أَرْسَلْنَاهُ. وَهُوَ مناسب، لأن الله تعالى جمع كثيراً بين ذكر إبراهيم وموسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ (كقوله تعالى)[٣]: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٦ ـ ٣٧]، وقال: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩] قاله ابن الخطيب[٤].

فصل

المعنى: لك[٥] في إبراهيم تسلية وفي موسى، أو لقومك في لوط وقومه عبرة، وفي موسى وفرعون، أو تَفَكَّرُوا في إبراهيم ولوط وقومهما وفي موسى وفرعون. هذا إن عطفناه على (معْلُوم[٦]، وإن عطفناه) على مذكور فقد تقدم آنفاً. و «السلطان المبين» الحجة الظاهرة[٧].

قوله: «إذْ أَرْسَلْنَاهُ» يجوز في هذا الظرف ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون منصوباً بـ «آيَة» على الوجه الأول؛ أي تركنا في قِصة موسى علامةً في وقتِ إرسالنا إيَّاهُ.

الثاني: أنه يتعلق بمحذوف لأنه نعت لآيةٍ، أي آية كائنةً في وقت إرسالنا.

الثالث: أنه منصوب بـ «تَرَكْنَا».

قوله: «بِسُلْطَانٍ» يجوز أن يتعلق بنفس الإرسال، وأن يتعلق بمحذوف على أنه حال إما من موسى وإما من ضميره أي ملتبساً بسُلطان وهو الحُجَّة[٨]. و «المبين» الفارق بين سِحْر السَّاحِرِين وأمْر المُرْسَلِينَ.

ويحتمل أن يكون المراد بالمبين أي البراهين القاطعة التي حَاجَّ بِهَا فِرْعَوْنَ[٩].

---

(١) الدر المصون المرجع السابق.

(٢) قال بهذا الوجه ـ وبالأوجه السابقة أيضاً ـ الإمام الرازي في تفسيره ٢٨/ ٢٢٠.

(٣) زيادة من ب.

(٤) المرجع السابق.

(٥) كذا في النسختين وفي الرازي: ذلك.

(٦) ما بين القوسين سقط من ب.

(٧) وانظر: الرازي السابق ٢٨/ ٢٢٠.

(٨) نقل المؤلف هذه الإعرابات بتفصيل وتوضيح من أبي البقاء في التبيان ١١٨١.

(٩) الرازي المرجع السابق.

قوله: «فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ» الجار والمجرور حال من فاعل «تَوَلَّى»[١] ومعنى «تَوَلَّى» أَدْبَرَ عن الإيمان[٢]. والباء للمصاحبة. والمراد بالركن أي بجمعِهِ وجنوده الذين كان يَتَقَوَّى بهم كالرُّكْن الذي يَتَقَوَّى به البُنْيَان، كقوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

وقيل: الباء للتعدية فتكون بمعنى تقوى بجنده[٣]. ويحتمل أن يكون المراد تَوَلَّى أَمْر موسى بقُوَّتِهِ، كأنه قال: أقتل موسى لِئَلاّ يُبَدِّلَ دينكم، فتولى أمره بنفسه، فيكون المفعول غير مذكور وركنه هو نفسه القوية. ويحتمل أن يكون المراد بركنه هامان فإنه كان وزيره[٤].

قوله: «سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» «أو» هنا على بابها من الإبهام على السامع أو للشكّ نَزَّل نفسه مع أنه يعرفه بَيِّناً حقاً منزلة الشاكّ في أمره تمويهاً على قومه. وقال أبو عبيدة[٥]: «أو» بمعنى الواو، قال: لأنه قد قالهما[٦]، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[٧] [الشعراء: ٢٧]، وتجيء «أو» بمعنى الواو، كقوله:

٤٥٢٩ ـ أَثَعْلَبَةَ الفَوَارِسِ أَوْ رِيَاحاً عَدَلْتَ بِهِمْ طُهَيَّةَ والخِشَابَا[٨]

ورد الناس عليه[٩] هذا وقالوا: لا ضرورة تدعو إلى ذلك. وأما الآيتان فلا يدلاَّن على أنه قالهما معاً، وإنما يفيد أنه قالهما أعم[١٠] من أن يكونا معاً أو هذه في وقت وهذه في آخَرَ[١١].

قوله: «وَجُنودَهُ» يجوز أن يكون معطوفاً على مفعول «أَخَذْنَاهُ»[١٢] وهو الظاهر، وأن يكون مفعولاً معه. «فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليَمِّ» أغرقناهم في البَحْرِ.

قوله: «وَهُو مُلِيمٌ» جملة حالية، فإن كانت حالاً من مفعول «نَبَذْنَاهُمْ» فالواو لازمةٌ؛

---

(١) قاله العكبري في المرجع السابق.

(٢) هذا قول البغوي والخازن في تفسيريهما ٦/ ٢٤٥. وقد قال بذلك كل المفسرين أيضاً وانظر: القرطبي ١٧/ ٤٩.

(٣) أي اتخذ ولياً.

(٤) قال بهذه المعاني والاحتمالات الإمام الفخر ٢٨/ ٢٢٠.

(٥) وهو قول أبي حَيَّان في البحر ٨/ ١٤٠.

(٦) في المجاز: لأنهم قد قالوهما جميعاً له. وانظر: المجاز ١/ ٢٢٧.

(٧) أقول: ونفس رأي أبي عبيدة هو رأي الفراء والمؤرِّج انظر: القرطبي ١٧/ ٥٠.

(٨) من الوافر لجرير، وطُهَيَّة كسُمَيَّة حَيٌّ من تميم نسبوا إلى أمهم والخِشَاب من تميم أيضاً وثَعْلَبَةُ ورياح من يربُوع. والمعنى يحتم أن «أو» بمعنى «الواو». وقد تقدم.

(٩) أي على أبي عبيدة ومن حذا حذوه.

(١٠) كذا في أ وفي ب أهم بالهاء.

(١١) بالمعنى من البحر ٨/ ١٤٠.

(١٢) وهو الهاء.

إذ ليس فيها ذكر يعود على صاحب الحال[١]، وإن كانت حالاً من مفعول «أَخَذْنَاهُ» فالواو ليست واجبة؛ إذ في الجملة ذكرٌ يعودُ عليه. وقد يقال: إنَّ الضمير في «نَبَذْنَاهُمْ» يعود على «فِرْعَوْنَ» وعلى «جُنُودِهِ» فصار في الحال ذكر يعود على بعض[٢] ما شَمِلَه الضمير الأول. وفيه نظر، إذ يصير نظير قولك: جَاءَ السُّلْطَانُ وَجُنُودُهُ فأكرمتهم راكباً فَرَسَهُ، فتجعل «راكباً» حَالاً من بعض ما اشتمل عليه ضمير «أكرمتهم»[٣].

فصل

ومعنى «مليم» أي أتَى بما يُلاَم عليه[٤] من دعوى الربوبيّة وتكذيب الرسول.

قوله تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وَفي عَادٍ إذْ أَرْسَلْنَا**﴾ الكلام عليه قد تقدم عَلَى نظيره[٥].

واعلم أن المراد بهذه الحكايات تسلية قلب النبي ـ ﷺ ـ وتذكيره بحال الأنبياء.

فإن قيل: لِمَ لَم يذكر في «عَادٍ» و «ثمُودَ» أنبياءهم كما ذكر إبراهيم وموسى ولوطاً ـ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسلام ـ؟!.

فالجواب: أنه ذكر ست حكايات، حكاية إبراهيم وبشارته وحكاية قوم لوط ونجاة مَنْ كان فيها من المؤمنين وحكاية موسى، ففي هذه الحكايات الثلاث ذكر الرسل والمؤمنين لأن الناجين منهم كانوا كثيرين، فأما في حق إبراهيم وموسى فظاهر وأما في حق لوطٍ فلأن الناجين وإن كَانُوا أهْلَ بَيْتٍ واحد لكن المهلكين أيضاً كانوا أهل بُقْعَةٍ واحدة. وأما عاد وثمود وقوم نوح فكان عدد المهلكين بالنسبة إلى الناجين أضعافَ المهلكين من قوم لوط عليهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمِ؛ فذكر الحكايات الثلاث الأول للتسلية بإهلاك العدو والكل مذكور للتسلية بدليل قوله تعالى في آخر هذه الآيات: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢] إلى أن قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤] وقال في سورة هود بعد الحكايات: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ [هود: ١٠٠] إلى أن قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

---

(١) وهو «هم» من نَبَذْنَاهُمْ.

(٢) ففرعون مشتمل في فَنَبَذْنَاهُمْ الجمع.

(٣) ولا مانع من إجازة مثل هذا الأسلوب وإن كان نَادِراً.

(٤) وهذا معناه اللغوي كما قال الزجاج والفراء في معانيهما. الأول في ٥/ ٥٦ والثاني في ٣/ ٨٧.

(٥) في آية: «وَفِي مُوسَى» ويقصد الكلام من ناحية اللفظ والإعراب.

قوله: «إذ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ» وهي التي لا خير فيها ولا بركة، ولا تلقح شَجَراً، ولا تَحْمل مطراً لأنها تكسر وتقلع فكيف تلقح؟![١].

واعلم أن الفَعِيلَ[٢] لا يلحق به تاء التأنيث (إن كان[٣] بمعنى مفعول وكذلك) إذا كان بمعنى فَاعِل في بعض الصُّور[٤]. وقد تقدم ذكر سببه، وهو أن فَعِيلاً[٥] لما جاء للمفعول والفاعل جميعاً ولم يتميز المفعول عن الفاعل فأولى أن لا يتميز المؤنث عن المذكر فيه لأنه (لو تميز)[٦] لَتَميَّزَ[٧] الفاعل عن المفعول قبل تمييز المؤنث والمذكر، لأن الفاعلَ جزءٌ من الكلام محتاجٌ إليه، والمفعول فيه فائدة أكيدةٌ وإن لم يكن جزءاً من الكلام محتاجاً إليه، فأول ما يحصل في الفعل الفاعل ثم التذكير والتأنيث يصير كالصفة للفاعل (والمفعول)[٨] تقول: فَاعِلٌ وفَاعِلَةٌ، ومَفْعُولٌ ومفعُولَةٌ، ويدل على ذلك أيضاً أن التمييز بين الفاعل والمفعول جعل بحرف ممازج للكلمة فقيل: فَاعل بألف فاصلة بين الفاء والعين التي هي من أصل الكلمة، وقيل: مفعُول بواو فاصلة بين العين واللام والتأنيث كان بحرف في آخر الكلمة، فالمميز فيهما[٩] غيَّر نظم الكلمة لشدّة الحاجةِ (وفي[١٠] التأنيث) لم يؤثر، ولأن التمييز في الفاعل والمفعول كان بأمرين يختص كُلّ واحد منهما بأحدهما فالألف بعد الفاء يختص بالفاعل، والميم والواو يختص بالمفعول والتمييز في التذكير والتأنيث بحرف (واحد[١١] عند) وجوده يميز المؤنث وعدمه يبقي اللفظ على أصل التذكير فإذا لم يكن «فَعِيلٌ» يمتاز فيه الفاعل عن المفعول إلا بأمر منفصل كذلك (المؤنث[١٢] والمذكر لا يمتاز أحدهما عن الآخر إلا بحرف غير متصل به[١٣].

---

(١) وانظر في كل هذا تفسير العلامة الرازي ٢٨/ ٢٢١ و٢٢٢.

(٢) كذا هو الأصح وفي النسختين الفعل وهو تحريف غير مقصود بل يقصد الفَعِيل وهو العَقِيم.

(٣) زيادة لا بدّ منها من الرازي والعُرْفِ اللّغوي فقد سَقَطَتْ مِنَ النّسْخَتَين.

(٤) فعيل يستوي فيه المذكر والمؤنث إذا علم الموصوفُ، تقول: امرأة جَريحٌ ورَجُلٌ جَريحٌ، وتلك الصيغة ـ هي وغيرها مما حدده أهل اللغة ـ ليست قياسية. وجعل بعض العلماء فَعِيلاً لكثرتها قياسياً فيما ليس له فعيل بمعنى فاعل، فإن كان قد ورد من المصدر فعيل بمعنى فاعل كحَفيظٍ وقديرٍ لا يأتي منه فعيلٌ بمعنى مَفْعُولٍ قياساً خوف اللبس (بتصرف من التبيان ٧٠).

(٥) في النسختين فعل. والأصح ما أثبته صرفاً ونحواً.

(٦) زيادة من الرازي عن النسختين لِتوضيح السياق وبيان مراده.

(٧) في النسختين: لتمييز والصواب ما أثبت من لفظ الفعليّة.

(٨) زيادة من الرازي للسياق.

(٩) أي في فاعل ومفعول.

(١٠) زيادة من الرازي والسياق للتوضيح للمراد.

(١١) كلمة واحد وجدت في ب فقط وكلمة «عند» زيادة على النسختين من الرازي.

(١٢) ما بين القوسين كله سقط من أ ووجد في ب والرازي.

(١٣) وانظر بالمعنى قليلاً تفسير الرازي ٢٨/ ٢٢٢.

قوله: «مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ» فيه وجهان):

أحدهما: أنه نصب على أنه صفة للريح بعد صفة «العَقِيم». قاله الواحدي[١].

فإن قيل: كيف يكون وصفاً والمعرف لا يوصف بالجُمَلِ؟ و «مَا تَذَرُ» جملة فلا يوصف بها النكرات؟!.

فالجواب من وجهين:

الأول: أن يكون بإعادة الريح تقديراً، كأنه يقول: وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ ريحاً مَا تَذَرُ[٢].

الثاني: أنها لما لم تكن معهودة صارت منكَّرة كأنه يقول: لم تكن من الرياحِ التي تقع ولا وقع مثلُها، فهي لشدتها منكرة، ولهذا أكثر ما ذكرت في القرآن منكّرة، ووصفت بالجملة كقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ﴾ [الحاقة: ٦ و ٧] إلى غير ذلك.

الوجه الثاني[٣]: أنه نصب على الحال، تقول: جَاءَنِي ما يَفْهَمُ شَيْئاً فَعَلَّمْتُهُ وفَهَّمْتُهُ أي حاله كذا.

فإن قيل: لم يكن حال الإرسال ما تذر والحال ينبغي أن يكون موجوداً مع ذِي الحال وقت الفعل فلا يجوز أن يقال: جاءني زيد أمس راكباً غداً، والريح بعد ما أرسلت بزمان صارت ما تذرُ شيئاً!

فالجواب: أن المراد بيان الصلاحية أي التي أرسلناها على قوةٍ وصلاحيّةٍ لا تذر، وتقول لمن جاء وأقام عندك أياماً ثم سألك شيئاً: جئْتَني سَائلاً أيْ وقت السؤال بالصلاحية والإمكان.

هذا إن قيل: بأنه نصب على المشهور.

ويحتمل أنه رفع على خبر مبتدأ محذوف تقديره هِيَ مَا تَذَرُ[٤].

فَإن قِيلَ: «ما تذر» لنفي حال المتكلم؛ يقال: مَا خَرَجَ[٥] زَيْدٌ إلَى الآن، وَإذا أَرَدْتَ المستقبل تقول: لا يخرجُ أو لن يَخْرُجَ. وتقول للماضي: مَا خَرَجَ ولم يَخْرُجْ، والريح

(١) المرجع السابق.

(٢) وتكون ريحاً المقدرة بدل من «الريح» الأولى.

(٣) وهو اختيار الإمام الرازي في تفسيره ٢٨/ ٢٢٢ فإنه رجحه بعد ما ذكر الوجه الأول.

(٤) وهذه الأشياء كلها تخريجات وتأويلات من الإمام الرازي على كلام الواحِديّ بأن العقيم صفة للريح، أقول: وجواب الرازي بالنسبة للوجه الأول يعتبر عرفاً من حيث التأويل والتقدير، أما الثاني ففيه العقلية البحتة الاجتهادية.

(٥) في الرازي: ما يخرج زيد أي الآن.

حالة الكلام مع النبي ـ ﷺ ـ كانت ما تركت من شيء إلا جعلته كالرميم فكيف قال بلفظ الحال[١]: ما تذر؟!

فالجواب: أنّ الحكايات مقدرة على أنها محكية حال الوقوع، كقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨] مع أن اسم الفاعل بمعنى الماضي لا يعمل، وإنما يعمل ما كان منه بمعنى الحال والاستقبال.

فإن قيل: هل في قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ تخصيص كما في قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

فالجواب: أن المراد به المبالغة، لأن قوله: «أَتَتْ عَلَيْهِ» وصف لقوله: «شَيْء» كأنه قال: كُلّ شيءٍ أَتَتْ عَلَيْه، أو كل شيء تأتي عليه، ولا يدخل فيه السموات، لأنها ما أتت عليه[٢]، وإنما يدخل فيه الأجسام التي تَهُبُّ عليها الرِّياحُ.

فإن قيل: فالجبال والصخور أتت عليه[٣] وما جعلته كالرَّميم!.

فالجواب: أن المراد أتت عليه قاصدةً له وهو عادٌ وأبنيتُهم وعروشُهم لأنها كانت مأمورة بأمر من عند الله فكأنها كانت قاصدة لهم، فما تركت شيئاً من تلك الأشياء إلا جعلته كالرميم[٤].

قوله: «إِلاَّ جَعَلته كَالرَّمِيم» هذه الجملة في موضع المفعول الثاني لـ «تَذَرُ» كأنه قيل: مَا تَتْرُكُ مِنْ شيء إلا مجعولاً نحو: مَا تَرَكْتُ زَيْداً إلاَّ عَالِماً. وأعربها أبو حيان[٥]: حالاً. وليس بظاهر.

فصل

المعنى «مَا تَذَرُ» ما تترك «مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ» من أنفسهم وأموالهم وأنعامهم «إلاَّ جعلته كالرميم» أي كالشيء الهالك البالي، وهو نبات الأرض إذا يَبِسَ ودِيسَ. قال مجاهد: كالتِّبْن اليابسِ.

وقال أبو العالية: كالتراب المدقُوق. وقيل: أصله من العظم البَالي[٦].

قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ الكلام فيه كما تقدم في قوله: «وفي موسى»[٧]، وقوله:

---

(١) كذا في النسختين وفي الرازي الحال.
(٢) في الرازي: عليها.
(٣) وكذلك تلك بلفظ عليها فيه أيضاً.
(٤) وانظر: الرازي السابق ٢٨/ ٢٢٢، ٢٢٣.
(٥) البحر المحيط ٨/ ١٤١.
(٦) قال بهذه الأقوال البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢٤٦.
(٧) وفي قوله: وفي عاد.

«إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ». قال بعض[١] المفسرين: المراد منه هو ما أَمْهَلَهُم الله بعد عقرهم الناقة وهو ثلاثة أيام (كما) في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥] وكان في تلك الأيام تغيير ألوانهم فتصفرُّ وتحمرُّ وتسودُّ. قال ابن الخطيب: وهذا ضعيف؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ بحرف الفاء دليل على أن العُتُوَّ كان بعد قوله: «تمتعوا»، فإذن الظاهر أن المراد هو ما قدر الله للناس من الآجال فما من أحد إلا وهو مُمْهَلٌ مدَّة الأجل[٢].

قوله: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ «عَتَا» يتعدى تارة «بعَلَى»، كقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩]، وههنا استعمل بعَنْ؛ لأن فيه معنى الاستكبار كقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩] وحيث استعمل بعلى، فهو كقولك: فُلاَنٌ يتكبَّر عَلَيْنَا[٣].

قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ وهذه قراءة العامة. وقرأ الكسائي الصَّعْقَةُ[٤]. والحسن الصَّاقِعَة[٥]. وتقدم ذكره في البقرة[٦]. وقوله: «وَهُمْ يَنْظُرُونَ» جملة حالية من المفعول. و «يَنْظُرُونَ» قيل: من النَّظَرِ. وقيل: من الانتظار أي ينتظرون ما وُعدوهُ من العذاب.

قوله (تعالى)[٧]: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ أي فما قاموا بعد نزول العذاب ولا قدروا على دفعه.

قال قتادة: لم ينهضوا من تلك الصرعة.

وقوله: «من قيام» بدل قوله: منْ هَرَب؛ لأن العاجز عن القيام أحرى أن يعجز عن الهَرَب. ويحتمل أن يكون المراد منه من القيام بالأمر أي ما استطاعوا من قيامٍ به. «وما كانوا منتصرين» أي منتقمين منا. قال قتادة: كان عندهم قوة من الله[٨].

---

(١) ذكر تلك الرازي ولم يحدد من قال بذلك ورجعت إلى البغوي والقرطبي والزمخشري والفراء وأبي حيان فوجدتهم قالوا مثل ما قال المؤلف أعلى وانظر: البغوي ٦/ ٢٤٦ والقرطبي ١٧/ ٥١ والكشاف ٤/ ١٩ والفراء ٣/ ٨٨ والبحر ٨/ ١٤١.

(٢) تفسيره ٢٨/ ٢٢٣ و٢٢٤.

(٣) المرجع السابق.

(٤) شاذة وهي اسم مرة على فَعْلَة. انظر: الجامع للقرطبي ١٧/ ٥١ والبحر المحيط ٨/ ١٤١ وهي نفس قراءة عُمَرَ بْنِ الخطاب وابن مُحَيْصِنٍ وحُمَيْدٍ ومُجَاهِدٍ.

(٥) كذا في البحر لأبي حيان السابق وفي ابن خالويه ١٤٥ الصواقع جمعاً.

(٦) من الآية ١٩ من سورة «البقرة»: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ والآية ٥٥ منها أيضاً: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾. وفيها لغتان في الصاعقة التي تنزل وتَخرِق. وقيل: الصاعقة هي التي تنزل من السماء وتحرق والصعقة بغير ألف الزجرة. وقد روي: الصعقة بغير ألف عن عُمَرَ وعثمانَ. والصاقعة كالصاعقة.

(٧) زيادة من أ.

(٨) وانظر: البغوي ٦/ ٢٤٦ والقرطبي ١٧/ ٥٢.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦)﴾

قوله تعالى: ﴿وقَوْم نُوح﴾ قرأ الأخوان وأبو عمرو بجر الميم[١]، والباقون بنصبها. وأبو السَّمَّال وابن مِقْسم وأبو عمرو في رواية الأصمعيّ: وقَوْمُ نُوحٍ بالرفع[٢].

فأما الخفض ففيه أربعة أوجه:

أحدها: أنه معطوف على «وَفِي الأرض».

(الثاني[٣]: أنه معطوف على «وَفِي مُوسَى».

الثالث: أنه معطوف على: «وَفِي عَادٍ»).

الرابع: أنه معطوف على «وَفِي ثَمُودَ». وهو[٤] الظاهر؛ لقُرْبه، وبُعْدِ غيره، ولم يذكر الزمخشري غَيْرَهُ، فإنه قال: قُرِىء بالجرِّ على معنى وقوم نوح وتقوِّيه قراءةُ عبد الله: وفِي قَوْمِ نُوحٍ[٥]؛ أي لكم عبرة. ولم يَذْكُرْ أبو البقاء غير الوجه الأخير لظهوره.

وأما النَصبَ ففيه ستة أوجُهٍ:

أحدها: أنه منصوب بفعل مضمر أي وأهْلَكْنَا قَوْمَ نوح[٦]؛ لأن ما قبله يدل عليه.

الثاني: أنه منصوب بـ «اذْكُرْ» مقدراً، ولم يذكر الزمخَشَريُّ غيره[٧].

الثالث: أنه منصوب عطفاً على مفعول «فَأَخَذْنَاهُ».

الرابع: أنه معطوف على مفعول فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليمِّ أي أَغْرَقْنَاهم[٨]، وناسب ذلك أن قوم نوح مغرقون من قبل لكن يشكل أنهم لم يغرقوا في اليمِّ. وأصل العطف أن يقتضي التشريك في المتعلقات.

الخامس: أنه معطوف على مفعول «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ»[٩]. وفيه إشكال لأنه لم تأخذهم الصاعقة وإنما أهلكوا إلا أن يراد بالصَّاعقة الداهية والنازلة العظيمة من أي نوعٍ كانت فيقرب ذلك.

السادس: أنه معطوف على محل: «وفي موسى»[١٠]. نقله أبو البقاء. وهو ضعيف. وأما الرفع فعلى الابتداء والخبر مقدر أي أهْلَكْنَاهُمْ. وقال أبو البقاء: والخبر ما

---

(١) انظر: الكشف ٢/ ٢٨٦ والسبعة ٦٠٩ وحجة ابن خالويه ٣٣٢ وهي متواترة.

(٢) شاذة ذكرها البحر ٨/ ١٤١ ولم تُرْوَ في المتواتر عن أبي عَمْرو.

(٣) ما بين القوسين سقط من أ كله. (٤) التبيان ١١٨٢.

(٥) الكشاف ٤/ ١٩. (٦) الكشاف السابق والبيان ١١٨٢.

(٧) بل ذكره غيره بتقدير: «أهلكنا». وانظر هذين الوجهين في البحر ٨/ ١٤١.

(٨) قال بهذا الوجه القرطبي في الجامع ١٧/ ٥٢، ومكي في المشكل ٢/ ٣٢٥ كما ذكر المَرْجِعَانِ الوجه الثالث قبله.

(٩) المرجعين السابقين.

(١٠) التبيان ١١٨٢ ومشكل الإعراب ٢/ ٣٢٥ وإن كان الظاهر عن مَكِّيّ الخفضَ.

بعده[١] يعني من قوله: «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ» ولا يجوز أن يكون مراده قوله «مِنْ قَبْلُ» إذِ الظرفُ ناقصٌ فلا يُخْبَرُ بِهِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله: ﴿والسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بأَيْدٍ﴾ العامة على النصب على الاشتغال، وكذلك قوله: ﴿والأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ والتقدير: وَبَنَيْنَا السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا. وقال أبو البقاء: أي وَرَفَعْنَا السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا[٢] فقدر الناصب من غير لفظ الظاهر. وهذا إنما يصار إليه عند تعذر التقدير الموافق لفظاً نحو: زَيْدٌ مررْتُ بِهِ، وزيد ضَرَبْتُ غُلاَمَهُ وأما في نحو: زَيْداً ضَرَبْتُهُ، فلا يقدر إلا ضَرَبْتُ زَيْداً.

وقرأ أبو السَّمَّال وابن مِقسم برفعهما[٣]؛ على الابتداء، والخبر ما بعدهما. والنصب أرجح لعطف جملة الاشتغال على جملة فعلية قبلها.

قوله: «بأَيْدٍ» يجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال وفيها وجهان:

أحدهما: أنها حال من فاعل «بَنَيْنَاهَا» أي ملتبسينَ بأيدٍ[٤] أي بقوة؛ قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧].

الثاني: أنه حال من مفعوله أي ملتبسةً بقوة. ويجوز أن تكون الباء للسبب أي بسبب قُدْرَتِنَا. ويجوز أن تكون البَاء معدّية مجازاً على أن تجعل الأيدي كالآلة المبنيِّ بها، كقولك: بَنَيْتُ بَيْتَكَ بالآجُرّ.

قوله: «وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ» يجوز أن تكون الجملة حالاً من فاعل «بَنَيْنَاهَا». ويجوز أن تكون حالاً من مفعوله ومفعول «موسِعُون» محذوف أي مُوسِعُونَ بِنَاءَهَا. ويجوز أن لا يقدر له مفعولٌ؛ لأن معناه: لَقَادِرُونَ كقولك: ما في وُسْعِي كذا أي ما في طاقتي وقُوَّتِي؛ كقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قاله ابن عَبَّاسٍ وعنه أيضاً: لموسعون الرزق على خَلْقِنَا.

وقيل: ذُو سَعَةٍ. وقال الضحاك: أغنياء، دليله قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾[٥] [البقرة: ٢٣٦].

---

(١) قال: أو على تقدير: أهلكوا. وانظر التبيان السابق.
(٢) السابق أيضاً.
(٣) وهي شاذة انظر البحر المحيط ٨/ ١٤٢.
(٤) والفاعل هو «نا» من لفظ «بَنَيْنَاهَا».
(٥) وانظر: البغوي ٦/ ٢٤٦.

قال ابن الخطيب: ويجوز أن يكون من السَّعَة أي أوْسَعْنَاهَا بحيث صارت الأرض وما يحيط بها من الماءِ والهواء بالنسبة إلى سعتها داخل فيها والبناء الواسع الفضاء عجيب، فإنَّ القُبَّة الواسعة لا يقدر عليها البَنَّاؤونَ، لأنهم محتاجون إلى إقامة آلة يصح بها استدارتها، ويثبت بها تَمَاسُك أجزائها إلى أن يتصل بعضها ببعض. فقوله: «وإنا لموسعون» بيان للإعراب (في[1] الفعل).

فصل

والحكمة في كَثْرة ذكر البناء في السموات كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥]، وقوله: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧] أن بناء السماءِ باقٍ إلى قيام الساعة، لم يسقط منها شيء، ولم يُعْدَم منها جزءٌ. وأما الأرض فَهي في التبدل والتغير كالفراش الذي يُبْسَط ويُطْوَى ويُنْقَلُ، والسماء كالبناء المبنيّ الثابت كما أشار إليه بقوله: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢] وأما الأرض فكَمْ صارت بحراً، وعادت أرضاً من وقت حدوثها، وأيضاً فالسماء ترى كالقُبَّةِ المبنية فوق الرؤوس، والأرض مبسوطة مَدْحُوَّة، وذكر البناء بالمرفوع أليق كقوله تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ [النازعات: ٢٨].

وقال بعض الحكماء: السماء مسكَن الأرْواحِ، والأرض موضع الأعمال والمسكن أليق بكونه بناءً. والله أعلم[2].

فإن قيل: ما الحكمة في تقديم المفعول على الفعل ولو قال: وبَنَيْنَا السَّمَاءَ بأيدٍ كان أَوْجَز؟!.

فالجواب: قال ابن الخطيب: لأن الصُّنْعَ قبل الصانع عند الناظر في المعرفة، فلما كان المقصود إثبات العلم بالصانع قدم الدليل وقال: والسَّمَاء المبنية التي لا تَشُكُّون في بُنْيَانِها، فاعْرفونا بها إن كنتم لا تَعْرِفُونَنا[3].

فإن قيل: إذا كان إثبات التوحيد فكيف قال: بَنَيْنَاها، ولم يقل: بَنَيْتُها؟ ولا بناها الله؟!

فالجواب: أن قوله: بنيناها أدل على عدم الشريك، لأن الشّركة ضعيفة؛ فإن الشريكَ يمنع شَريكه عن التصرف والاستبداد، وقوله: «بَنَيْنَاهَا» يدل على العَظَمَة، وبين العظمة والضعف تنافرٌ فبين[4] قوله: «بَنَيْنَاهَا» وبين أن يكون شريك منافاة. وتقريره أن قوله تعالى: ﴿بَنَيْنَاها﴾ لا يورث إيهاماً بأن الآلهة التي كانوا يعبدونها هي التي يرجع إليها

---

(١) ما بين القوسين سقط من ب. وانظر: تفسير الرازي ٢٨/ ٢٢٧.

(٢) وانظر: تفسير الرازي ٢٨/ ٢٢٥ و٢٢٦. (٣) السابق.

(٤) في ب بين.

الضمير، لأن تلك إما أصنام منحوتة وإما كواكب جعلوا الأصنام على صُوَرِها وطَبَائِعِهَا، فأما الأصنام المنحوتة فلا يَشكون أنها ما بنت من السماء شيئاً، وأما الكواكب فهي في السماء محتاجة إليها فلا تكون هي بانيتها؛ وإنما يقال: بُنيتْ لها وجعلت أماكنها، فلمّا لم يتوهم ما قالوا قال: بَنَيْنَا نَحْنُ ونحن غير ما يقولون ويدعونه فلا يصلحون لنا شُرَكَاءَ. ثم لما بين أن قولهم لا يُوهم شريكاً أصلاً، لأن كل ما هو غير السماء فهو محتاج إلى السماء دون السماء في المرتبة فلا يكون خالقاً للسماء ولا بانيها، فعلم أن المراد جمعُ التعظيم، فأفاد النص عظمة، والعظمة أنفى للشريك، فعلم أن قوله: «بَنَيْنَاهَا» أدلّ على نفي الشّريك من «بَنَيْتُهَا» و «بِنَاء اللَّهِ»[١].

فإن قيل: لِمَ لَمْ يقل: بَنَيْنَاهَا بأيدينا كما قال: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ [يس: ٧١].

فالجواب: أن ذلك لفائدة جليلة، وهي أنَّ السماء لا يخطر ببال أحد أنها مخلوقة غير الله والأنعام ليست كذلك.

فقال هناك: عملت أيدينا تصريحاً بأن الحيوان مخلوق لله تعالى من غير واسطة. وكذلك: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥] وفي السماء قال: بأيد من غير إضافة للاستغناء عنها.

وفيه لطيفة (أخرى[٢]) وهي: أن هناك لما أثبت الإضافة لم يعد الضمير العائد إلى المفعول فلم يقل خلقته ولا عملته، وأما السماء: فبعض الجهال يزعم أنها غير مجعولة، فقال: بَنَيْنَاهَا بعَوْدِ الضمير تصريحاً بأنها مخلوقة.

قوله: «وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا» أي بسطناها ومَهَّدْنَاها، وفيه دليل على أن خلق الأرض بعد خلق السماء لأن بناء البيت يكون في العادة قبل الفرش[٣].

قوله: «فَنِعْمَ المَاهِدُونَ» المخصوص بالمدح محذوف لفهم المعنى، أي نَحْنُ، كقوله: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ﴾ [ص: ٣٠]، قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما ـ)[٤]: معناه الباسطون أي نعم ما وطأت لعبادي[٥].

قوله تعالى: ﴿ومِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يجوز أن يتعلق «بخَلَقْنَا» أي خلقنا من كل شيء زَوْجَيْن، وأن يتعلق بمحذوف على أنه حال من: «زَوْجَيْنِ» لأنه في الأصل صفة له، إذْ التقدير خَلَقْنَا زَوْجَيْنَ كَائِنَيْن مِنْ كلِّ شيء[٦]. والأول أقوى في المعنى.

فصل

المعنى «خلقنا زوجين» صِنْفَيْن ونوعين مختلفين، كالسَّمَاءِ والأرض، والشَّمس

(١) السابق ٢٨/٢٢٦.
(٢) سقط من ب.
(٣) الرازي ٢٨/٢٢٧ السابق.
(٤) زيادة من أ.
(٥) البغوي ٦/٢٤٦.
(٦) بتوضيح من التِّبيان ١١٨٢.

والقمر، والليل والنهار، والبَرّ والبحر، والسَّهْل والجبل، والشتاء والصَّيْف، والجنّ والإنس، والذَّكَر والأنثى، والنور والظُّلْمَة، والإيمان والكفر، والسعادة (والشقاوة)[١] والحق والباطل، والحُلْو والمُرّ «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» فتعلمون أنّ خالق الأزواج واحد لا شريك له، لا يعجز عن حشر الأَجْساد وجَمْع الأرواح.

قوله: «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ» أي فاهربُوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة. قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما[٢] ـ): فروا منه إليه واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبد الله: فروا ممَّا سوى الله إلى الله «إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ»[٣] وهذا إشارة إلى الرسالة[٤].

قوله: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ إتماماً للتوحيد، لأن التوحيد يباين[٥] التعطيل والتشريك، لأن المُعَطِّل يقول: لا إله أصلاً والمشرك يقول بوجود إله آخر، والموحِّد يقول: قول الاثنين باطل، لأن نفي الواحد باطل والقول بالاثنين باطل، فلما قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أثبت وجود الله، فلما قال: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ نفى الأكثر من واحد فصح القول بالتوحيد بالآيتين.

ولهذا قال مرتين: «إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ» أي في المقامين والموضِعَيْنِ[٦].

قوله: «كَذَلِكَ» فيه وجهان:

أظهرهما: أنه خبر مبتدأ محذوف أي الأمرُ[٧] مِثْلُ ذلك، (قال الزمخشري[٨]): والإشارة بذلك[٩] إلى تكذيبهم الرسول وتسميته ساحراً ومجنوناً[١٠]. ثم فسَّر ما أجمل بقوله: «مَا أَتى».

والثاني: أن الكاف في محل نصب نعتاً لمصدر محذوف. قاله مكي[١١]. ولم يبين تَقْدِيرَهُ. ولا يصح أن ينتصب بما بعده لأجل ما النافية. وأما المعنى فلا يمتنع، ولذلك قال الزمخشري: ولا يصح أن يكون الكاف منصوبة بـ «أَتى» لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلَها؛ ولو قيل: لم يأت لكان صحيحاً[١٢]، يعني لو أتى في موضع «مَا» بـ «لم» لجاز أن ينتصب الكاف بـ «أَتى» لأن المعنى يسوغ عليه، والتقدير: كَذَّبَتْ قُرَيْشٌ تكذيباً مِثْلَ تَكْذِيبِ الأُمَم السَّابِقَة رُسُلَهُمْ، ويدل عليه قوله: ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الآية.

---

(١) سقط من ب.
(٢) زيادة من أ كالعادة.
(٣) وانظر: البغوي والخازن ٦/ ٢٤٦.
(٤) قاله الرازي ٢٨/ ٢٢٨.
(٥) كذا في النسختين وفي الرازي: بين.
(٦) بالمعنى من المرجع السابق ٢٨/ ٢٢٩.
(٧) قاله في التبيان ١١٨٢.
(٨) سقط من أ الأصل.
(٩) في الكشاف: «وذلك إشارة».
(١٠) الكشاف ٤/ ٢٠
(١١) مشكل الإعراب ٢/ ٣٢٥ و٣٢٦ كما قال بالأوَّل أيضاً.
(١٢) الكشاف السابق.

قوله: ﴿إِلاَّ قَالوا﴾ الجملة القولية في محل نصب على الحال من: «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» و «مِنْ رَسُولٍ» فاعل: «أتى» كأنه قيل: ما أتى الأولينَ رسولٌ إلاّ في حال قولهم: هُوَ سَاحِرٌ.

فإن قيل: إن من الأنبياء من قرر دين النبي الذي كان قبله وبقي القوم على ما كانوا عليه كأنبياء بني إسرائيل وكيف وآدم لما أرسل لَمْ يُكَذَّبْ؟!.

فالجواب: أنا لا نسلم أن المقرر رسول، بل هو نبي على دين رسولٍ ومن كَذَّب رَسُولَه فهو يكذبه أيضاً ضرورةً.

فإن قيل: قوله: «ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا» يدل على أنهم كلّهم قالوا: ساحر والأمر ليس كذلك لأن ما مِنْ رسول إلا وآمن به قومٌ وهم ما قالوا ذلك!.

فالجواب: أن ذلك ليس بعَامٍّ، فإنه لم يقل: إلا قال كلهم وإنما قال: «إلاَّ قَالوا» ولما كان كثير منهم قابلينَ ذلك قال الله تعالى: إِلاَّ قَالُوا.

فإن قيل: لِمَ لمْ يذكر المصدّقين كما ذكر المُكَذّبين، وقال: إِلاَّ قَالَ بَعْضُهُمْ صدقتَ وبعضهم كذبتَ؟.

فالجواب: لأن المقصود التسلية وهي على التكذيب، فكأنه تعالى قال: لا تأسَ على تكذيب قومِكَ، فإن أقواماً قبلك كَذّبوا ورسلاً كُذّبُوا.

قوله: «أَتَوَاصَوا به» الاستفهام للتعجب والتوبيخ والضمير في «بِهِ» يعود على القول المدلول عليه بقَالُوا، أي أتواصى الأولون والآخرون بهذا القول المتضمن كساحر أو مجنون؟. والمعنى: كيف اتفقوا على قول واحد كأنهم تواطؤوا عليه، وقال بعضهم لبعض: لا تقولوا إلا هذا وأوصى أولهم آخرَهم بالتكذيب. ثم قال: لم يكن ذلك لتواطُؤ قولٍ وإنما كان لمعنى جامع وهو أن الكُلّ أترفوا فاستغنوا فنَسُوا الله وطغوا فكذبوا رُسُلَهُ[١]، قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما[٢] ـ) حملهم الطغيان فيما أعطيتهم ووسعت عليهم على تكذيبك.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله «فَتَوَلَّ عَنهُمْ» فأعرض عنهم، «فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ» لا لوم عليك، قد أديت الرسالة، وما قصرت فيما أمرت به[٣]. وهذه تسليةٌ أُخْرَى.

قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية حَزِنَ رسول الله ـ ﷺ ـ فاشتدّ ذلك على

(١) وانظر في هذا كله تفسير الفخر الرازي ٢٨/ ٢٢٩ و٢٣٠.

(٢) زيادة من أ. (٣) قاله البغوي ٦/ ٢٤٧.

أصحابه وظنوا أن الوحي قد انقطع، وأن العذاب قد حضر إذ أمر النبي ـ ﷺ ـ أن يتولّى عنهم فأنزل الله: ﴿وَذَكِّر فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ﴾ فطابت أنفسهم. والمعنى: ليس التولي مطلقاً، بل تَوَلَّ وأَقْبِلْ وأعرض وادعُ فلا التولي يضرك إذا كان علهيم، ولا التذكير يضيع إذا كان مع المؤمنين.

قال مقاتل: معناه عِظ بالقرآن كفار مكة، فإن الذكرى تنفع من علم الله أنه يؤمن منهم. وقال الكلبي: عظ بالقرآن من آمن من قومك، فإن الذكرى تنفعهم(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون﴾. هذا الجار(٢) متعلق «بخَلَقْتُ».

واختلف في الجن والإنس، قيل: المراد بهم العموم والمعنى إلا لآمرهم بالعبادة وليقروا بها، وهذا منقول عن علي بن أبي طالب، ويؤيده: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾(٣) [التوبة: ٣١] أو يكون المعنى: ليطيعوني وينقادوا لقضائي(٤)، فالمؤمن يفعل ذلك طوعاً والكافر كرهاً، فكل مخلوق من الجنّ والإنس خاضع لقضاء الله متذلّل لمشيئته(٥)، لا يملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق عليه. أو يكون المعنى: إلا معدين للعبادة، ثم منهم من يتأتى منه ذلك، ومنهم من لا، كقولك: هَذَا القَلَمُ بَرَيْتُهُ لِلْكِتَابَةِ، ثم قد يكتب به، وقد لا يُكْتَب وقيل: المراد به الخصوص، أي ما خلقت السعداءَ من الجنّ والإنس إلا لعبادتي، والأشقياء منهم إلا لمعصيتي. قاله زيد بن أسلم. قال: هو ما جُبلوا عليه من السعادة والشقاوة، ويؤيده قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال مجاهدٌ: معناه إلاّ ليعْرفُون. قال البغوي: وهذا أحسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده، بدليل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقيل: إلا ليعبدون أي إلا ليوحدون، فأما المؤمن فيُوَحِّده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشّدة والبلاء دون النعمة والرخاء قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقيل: المراد وما خلقت الجِنَّ والإِنْسَ المؤمنين. وقيل: الطائعين(٦). قال شهاب الدين: والأول أحسنُ.

---

(١) وانظر: تفسير العلامة البغوي والخازن ٦/ ٢٤٧.
(٢) المصدر المؤول أي إلا للعبادة. (٣) وانظر: القرطبي ١٧/ ٥٥.
(٤) رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وانظر: السابق والبغوي ٦/ ٢٤٧.
(٥) في ب بتذلل المشيئة. (٦) السابقين.

فصل

في تعلق الآية بما قبلها أن بعثة الأنبياء منحصرة في أمرين عبادة الله وهداية الخلق، فلما قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ بين أن الهداية قد سقطت عند اليأس، وأمّا العبادة فهي لازمة للخلق المطلق وليس الخلق المطلق للهداية، وقيل: إنه لما بين حال من قبله فِي التكذيب ذكر هذه ليتبين سُوءَ صنيعهم، حيث تركوا عبادة الله الذي خلقهم للعبادة.

فإنْ قِيلَ: ما الحكمة في أنه لم يذكر الملائكة مع أنهم من أصناف المكلفين وعبادتهم أكثر من عبادة غيرهم من المكلَّفين، قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] وقال: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه تقدم أن الآية سيقت لبيان قُبْح ما يفعله الكَفَرَةُ، من ترك ما خُلِقُوا له. وهذا مختص بالجِنّ والإنس؛ لأن الكفر موجودٌ في الجنّ والإنس بخلافِ الملائكة.

الثاني: أن النبي ـ ﷺ[1] ـ كان مبعوثاً إلى الجنّ والإنس، فلما قال: «وَذَكِّرْ» بين ما يذكر به وهو كون الخلق للعبادة، وخصص أمته بالذكر أي ذكر الإنس والجن.

الثالث: أن عباد الأصنام كانوا يقولون: إن الله تعالى عظيم الشأن خلق الملائكة وجعلهم مقربين، فهُم يعبدون الله وخلقهم لعبادته ونحن لنزول درجتنا لا نصلح لعبادة الله فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله كما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ ولم يذكر الملائكة لأن الأمر فيهم كان مسلماً من القوم، فذكر المتنازع فيه.

الرابع: فعل الجن يتناول الملائكة، لأن أصل الجن من الاستتار، وهم مُسْتَتِرُون عن الخلق فذكر الجن لدخول الملائكة فيهم[2].

قوله: «مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ» أي يرزقوا أحداً من خَلْقِي، ولا أن يرزقوا أنفسهم «وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُون» أي يطعموا أحداً من خلقي. وإنما أسند الإطعام إلى نفسه لأن الخلق عِيالُ الله ومن أطعم عيالَ أحدٍ فقد أطعمَهُ، قال عليه الصلاة والسلام[3]: «اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي»، أي لم تطعم عبدي[4].

فصل

استدل المعتزلة بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ على أن

---

(١) في ب ـ عليه الصلاة والسلام ـ.
(٢) الرازي ٢٨/ ٢٣١ و٢٣٢.
(٣) عن ربه في الحديث القدسيّ.
(٤) وانظر: البغوي ٦/ ٢٤٨.

أفعال الله تعالى معلّلة بالأغراض وأجيبوا بوجوه تقدمت منها: أن اللام قد تثبت لغير الغرض كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وقوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] ومعناه المقارنة فمعناه: قرنت الخلق بالعبادة أي خلقتهم، وفرضت عليهم العبادة.

ومنها: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] و [الرعد: ١٦].

ومنها: ما يدل على أن الإضلال بفعل الله كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣] وأمثاله.

ومنها: قوله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وقوله: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] و «يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ».

وقوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ معناه: أن النفع يعود إليهم لا لي.

فإن قيل: ما الفائدة في تكرير الإرادتين[1] مع أن من لا يريد من أحدٍ رزقاً لا يريد أن يُطْعِمَهُ؟!.

فالجواب: أن السيِّدَ قد يطلب من العبد المتكسّب[2] له، فيطلب منه الرزق، وقد يكون للسَّيدِ مالٌ وافر يستغني به عن التكسب لكنه يطلب من العبد قضاءَ حوائجه وإحضار الطعام بين يديه، فقال: لا أريد ذلك ولا هذا. وقد طلب الرزق على طلب الإطعام من باب الارتقاء من الأدنَى إلى الأعلى.

فإن قيل: ما فائدة تخصيص الإطعام بالذكر مع أن المراد عدم طلب فعل منهم غير التعظيم؟!.

فالجواب: أنه لما عمم النفي في الطلب الأول بقوله: «من رزق» وذلك إشارة إلى التعميم بذكر الإطعام ونفي الأدنى يستتبعه نفي الأعلى بطريق الأولى، فكأنه قال: ما أريد منهم من غِنًى ولا عَمَلٍ.

فإن قيل: المطالب لا تنحصر فيما ذكره فإن السيِّد قد يشتري العبد لا لطلب عمل منه، ولا لطلب رزق ولا للتعظيم، بل يشتريه للتجارة!

فالجواب: أن عموم قوله: «مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ» يتناول ذلك.

قوله: «أَنْ يُطْعِمُونِ» قيل: فيه حذف مضاف أي يطعموا خَلْقِي كما تقدم في التفسير. وقيل: المعنى أن يَنْفَعُون فعبر ببعض وجوه الانتفاعات لأن[3] عادة السادة أن ينتفعوا بعبيدهم، والله مُسْتَغْنٍ عن ذلك.

---

(١) في ب الإفادتين. وما في «أ» هو ما في الرازيّ.

(٢) في ب كذلك وفي الرازي: الكسب. (٣) النون سقطت من نسخة ب سهواً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ يعني لجميع خلقه، وهذا تقرير لعدم طلب الرزق، وقوله: «ذو القُوَّةِ» تقرير لعدم طلب العمل لأن من يطلب رزقاً يكون فقيراً محتاجاً، ومن يطلب عملاً يكون عاجزاً لا قوة له فكأنه يقول: ما أريدُ منهم من رزق فإني أنا الرزّاق، ولا العمل فإني قَوِيّ[١].

وروي أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قرأ: إنِّي أنا الرزَّاق[٢]، وقرأ ابن مُحَيْصِن: الرَّازق[٣]، كما تقدم في قراءته: «وَفي السَّمَاء رازِقُكمْ».

قوله: «المَتِينُ» العامة على رفعه، وفيه أوجه:

إما النعت للرزَّاق[٤]، وإما النعت لِذُو[٥]، وإما النعت لاسم «إنَّ» على الموضع[٦]. وهو مذهب الجَرْمِيِّ والفراء[٧]، وغيرهما. وإما خبر بعد خبر، وإما خبر مبتدأ مضمر[٨]. وعلى كل تقدير فهو تأكيد، لأن «ذو القوة» يفيد فائدتَهُ.

وقرأ يَحْيَى بْنُ وَثَّاب والأعمشُ المَتِينِ ـ بالجر[٩] ـ فقيل: صفة «القوة»، وإنما ذكر وصفها لكوْن تأنيثِها غيرَ حَقِيقِيٍّ. وقيل: لأنها في معنى الأيْدِ[١٠].

وقال ابن جنّي: هو خفض على الجوار كقولهم: «هَذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ» يعني أنه صفة للمرفوع، وإنما جر لما[١١] جاور مجروراً. وهذا مرجوحٌ لإمكان غيره، والجوار لا يصار إليه إلا عند الحاجة.

فصل

قال تعالى: «ما أريد» ولم يقل: إني رازق بل قال على الحكاية عن الغائب إن الله هو الرزّاق فما الحكمة فيه؟.

---

(١) وانظر في هذا كله بالمعنى قليلاً تفسير الإمام الرازي ٢٨/ ٢٣٥.

(٢) نقل ذلك ابن خالويه في المختصر ١٤٥ ولكن بلفظ مختلف فقد قال: إن الله هو الرازق النبي ـ ﷺ ـ وابن محيصن. وفي الكشاف: وفي قراءة النبي ـ ﷺ ـ إني أنا الرازق بلفظ اسم الفاعل كقراءة ابن محيصن. وانظر الكشاف ٤/ ٢١.

(٣) المرجع السابقة وانظر قراءة ابن مُحَيْصِن في البحر ٨/ ١٤٣.

(٤) و (٥) قاله القرطبي في الجامع ١٧/ ٥٦.

(٦) التبيان ١١٨٢ وانظر القرطبي السابق.

(٧) معاني القرآن له ٣/ ٩٠.

(٨) القرطبي والتبيان السابقين.

(٩) وهي شاذة ذكرها الفراء في مرجعه السابق وابن جني في المحتسب ٢/ ٢٨٩.

(١٠) قال الفراء في المعاني: «.... وإن كان أنثى في اللفظ فإنه ذهب إلى الحبل وإلى الشيء المفتول».

(١١) قال في المحتسب ٢/ ٢٨٩: «يحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون للقوة فذكره على معنى الحَبْل، يريد قوي الحَبْل لقوله: «فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى» والآخر: أن يكون أراد الرفع وصفاً للرزاق إلا أنه جاء على لفظ القوة لِجوارها إياه على قولهم: هذا جُحْر ضَبٍّ خَرِبٍ».

قال ابن الخطيب: نقول: قد رُوِيَ أن النبي ـ ﷺ ـ قرأ: إنِّي أنا الرَّزَّاق. وأما على القراءة المشهورة فالمعنى: قُلْ يا محمد إن الله هو الرزّاق، أو يكون من باب الالتفات من التكلم إلى الغيبة، أو يكون قل مضمراً عند قوله: «مَا أُرِيدُ» أي قل يا محمد: ما أريد منهم من رزق فيكون بمعنى قوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [ص: ٨٦] ويكون على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾، ولم يقل: القوي، بل قال: ذُو القوة، لأن المقصود تقرير ما تقدم من عدم إرادة الرزق، وعدم الاستعانة بالغير لكن في عدم طلب الرزق لا يكفي كون المستغني بحيث يرزق واحداً، فإن كثيراً من الناس يرزق ولده وعبده ويسترزق والملك يرزق الجند، ويسترزق، فإذا كثر منه الرزق قل منه الطلب لأن المسترزِقَ منه يكثر الرزق، لا يسترزق من رزقه فلم يكن ذلك المقصود يحصل إلا بالمبالغة في وصف الرازق[١]، فقال: الرزَّاق، وأما ما يُغني عن الاستعانة بالغير، فهو دون ذلك لأن القوي إذا كان في غاية القوة يعين الغير، فإذا كان دون ذلك لا يعين غيره ولا يستعين به استعانة قوية بل استعانة ما وتتفاوت بعد ذلك، ولما قال: «وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ» كفاه بيان نفس القوة فقال: «ذُو القوة»، لأن قولنا: ذُو القوة في إفادة معنى القوي دون إفادة القَوِيّ، لأن ذلك لا يقال في الوصف اللازم البين، يقال في الآدمي: ذُو مَال ومتمول، وذو جَمال، وجميل، وذو خلق حسن إلى غير ذلك مما (لا)[٢] يلزم لزوماً بيناً. ولا يقال في الثلاثة: ذات فردية، ولا في الأربعة: ذات زوجية، وهذا لم يرد في الأوصاف الحقيقية فلم يسمع ذو الوجود ولا ذو الحياة ولا ذو العِلم، ويقال في الإنسان: ذو علم، وذو حياة لأنها فيه عرض لا لازم بين.

وفي صفات الفعل يقال: الله تعالى ذُو الفضل كثيراً (وذو الخلق[٣] قليلاً)؛ لأن «ذا كذا» بمعنى صاحب والصحبة لا يفهم منها اللزوم فضلاً عن اللزوم البين. ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] فجعل غيره ذا علم ووصف نفسه بالفعل فبين ذي العِلم والعليم فرق وكذلك بين ذي القوة والقويّ، ويؤيده أيضاً قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾ [غافر: ٢٢] وقوله: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْقَوِىُّ﴾ [الشورى: ١٩] وقال: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] لأن هذه الصور كان المراد بها بيان القيام بالأفعال العظيمة وههنا المراد عدم الاحتياج ومن لا يحتاج إلى الغير يكفيه من القوة قدر (ما)[٤]. ومن يقوم مستبداً بالفعل لا بد له من قوة عظيمة، لأن عدم الحاجة قد يكون بترك الفعل والاستغناء عَنْه.

---

(١) كذا في النسختين وفي الرازي: الرزق.

(٢) سقط من ب وفي الرازي مما لا يلزمه لزوماً.

(٣) ما بين القوسين زيادة من الرازي لتوضيح السياق وتكميله.

(٤) لفظ ما سقط من ب وانظر الرازي ٣٨/ ٢٣٦.

فصل

قوله: «المَتِينُ»، لأن ذا القوة كما تقدم لا يدل إلا على أن له قوةً ما، فزاد في الوصف المتانة وهو الذي له ثبات لا يتزلزل وهو مع المتين من باب واحد لفظاً ومعنى، فإن معنى مَتْن الشيء هو أصله الذي عليه ثباته والمتن هو الظهر الذي عليه أساس البدن والمتانة مع القوة كالعزّة مع القوي حيث قرن العزة مع القوة في قوله: «قَوِيٌّ عَزِيزٌ» وقوله: «القَوِيّ العَزِيزُ».

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً﴾ قد تقدم الكلام على الفاء في وجه التعلق[١]. والمراد بالذين ظلموا: كفار مكة. ومعنى ذنوباً أي نصيباً من العذاب «مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ» أي مثل نصيب أصحابهم الذين هلكوا من قوم نوح وعادٍ، وثمود. والذنوب: في الأصل الدلو العظيمة المملوءة ماء، وفي الحديث الشريف: «فَأُتي بذَنُوبٍ مِنْ مَاءٍ» فإن لم تكن مَلأَى فهو الدَّلْو، ثم عبر به عن النَّصيب، قال علقمة:

٤٥٣٠ ـ وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ[٢]

ويجمع في القلة على أَذْنِبَةٍ، وفي الكثرة على ذَنَائِبَ. وقال المَلكُ[٣] لما أنشد هذا البيت نَعَمْ وأَذْنِبَة.

وقال الزمخشري: الذَّنُوب الدلو العظيمة، وهذا تمثيل أصله في السّقاة يقتسمون[٤] الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب[٥] قال الشاعر:

٤٥٣١ ـ لَنَا ذَنُوبٌ ولَكُم ذنُوبُ فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا القَلِيبُ[٦]

---

(١) وذلك لأن الله تعالى لما بين أن من يضع نفسه في موضع عبادة غير الله يكون وضع الشيء في غير موضعه فيكون ظالماً فقال: إذا ثبت أن الإنس مخلوقون للعبادة فإن الذين ظلموا بعبادة الغير لهم هلاك. وانظر: الرازي السابق ٢٨/ ٢٣٧.

(٢) من الطويل وهو لعلقمة بن عبدة، والبيت روايته كرواية البحر والكشاف والقرطبي والكتاب، وروى أبو عبيدة في المجاز ٢/ ٢٢٨: وفي كل يوم وبِنَائِل. وشَاسٌ أخو الشاعر، وخبطت أسديت وأعطيت. والشاهد في الذنوب فهو الدلو وضربه مثلاً في القَسْم والحظّ وقد تقدم.

وانظر: الكتاب ٤/ ٤٧١ والبحر ٨/ ١٣٢ والكشاف ٤/ ٢١ وشرح شواهده ٤/ ٣٤٥ وشرح شواهد الشافية ٤٩٤ وابن يعيش ٥/ ٤٨ و١٠/ ٤٨ و١٥١ والقرطبي ١٧/ ٥٧ وروح المعاني ٢٧/ ٢٤ ومجمع البيان ٩/ ٢٤٢ والديوان ١٣٢ والوهبية ١٢٣٩.

(٣) والملك الذي يقصده الحارث بن أبي شَمِر الغَسّاني وكان قد أَسَرَهُ.

(٤) كذا في أ وفي ب يقسمون وفي الكشاف: يتقسمون.

(٥) وانظر: الكشاف ٤/ ٢١ و٢٢.

(٦) لم أعرف نسبة هذا البيت لمعين فلم تنسبه المراجع التي رجعت إليها وهو من الرجز، فالزمخشري لم ينسبه بينما نسب ما قبله إلى عمرو بن شاس وكذلك لم ينسبه الفراء، والشاهد فيه: ذنوب فهي=

وقال الراغب: الذنوب الدلو الذي له ذنب انتهى[١]. فراعى الاشتقاق. والذنوب أيضاً الفَرَسُ الطّويل الذّنب وهو صفة على فَعُول. والذَّنوب لحم أسفل المَتْن[٢]. ويقال: يَوْم ذَنُوب أي طويل الشر[٣] استعارة من ذلك.

قوله: ﴿فَلاَ يَسْتَعْجِلون﴾ أي بالعذاب. ووجه مناسبة الذنوب أن العذاب منصبّ عليهم كما يُصَبُّ الذَّنُوبُ، قال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٨] والذّنوب كذلك فكأنه قال: نصبّ فوق رؤوسهم ذَنُوباً من العذاب كذنوب صُبّ فوق رؤوس أولئك. ووجه آخر وهو أن العرب يستقون من الآبار على النَّوْبَة ذنوباً فذنوباً وذلك وقت عيْشِهم الطيب، فكأنه تعالى قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من الدنيا وطيباتها «ذَنُوباً» إذا ملأوه ولا يكون لهم في الآخرة من نصيب كما كان عليه حال أصحابهم استقوا[٤] ذنوباً وتركوها، وعلى هذا فالذنوب ليس بعذاب ولا هلاك وإنما هو رَغَدُ العيش.

قال ابن الخطيب: وهو أليق بالعربية[٥].

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ للّذينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِم الّذي يُوعَدُونَ﴾ يعني يوم القيامة. وقيل: يوم بدر[٦]، وحذف العائد لاستكمال شُرُوطه[٧]، أي يُوعدونه.

= هنا بمعنى الدلو العظيمة فالمعنى أنه يقسم الماء مرة له ومرة لهم فإن أبوا فالقَلِيبُ أي البئر لَهُم وانظر: القرطبي ٥٧/١٧ ومعاني الفراء ٣/ ٩٠ والكشاف ٢١/٤ وشرح شواهده ٣٤/ ٤ والبحر ٨/ ١٣٢ ومجمع البيان ٢٤٢/٩ وقد ورد بشرح شواهد الكشاف:

إنا إذا شاربنا شريب
له ذنوب ولنا ذنوب
فإن أبي فله القليب

والمعنى: إني أوثر شريبي بالحظ الأوفر، والنصيب الأجزل، فإن لم يرضَ أُوثره بالجميع.

(١) قاله في المفردات ١٨١ (ذنب).

(٢) قاله الجَوْهَرِيّ في الصحاح «ذنب».

(٣) نقله القرطبي في ٥٧/١٧ عن ابن الأعرابي. وانظر في هذا اللسان ذنب ١٥٢١.

(٤) في ب اسقوا.

(٥) انظر: تفسير الإمام فخر الدين الرازي ٢٣٨/٢٨.

(٦) انظر: تفسير العلامة البغوي والخازن ٢٤٨/٦ وقال القرطبي في الجامع ٥٧/١٧ بالأخير.

(٧) عائد الصلة غير الألف واللام إن كان بعض معمول الصلة جاز حذفه مطلقاً كحذف المعمول، نحو: أينَ الرجلُ الذي قلتَ تريد قلتُ أنه أو نحوه، وإن لم يكن فإما أن يكون منفصلاً أو متصلاً فإن كان منفصلاً لم يجز حذفه نحو: جَاءَ الذي إياه أكرمت، أو ما أكرمتُ إلا إياه، وإن كان متصلاً فله أحوال:
أحدها: أن يكون منصوباً، إما بفعل أو وصف أو بغيرهما، فإن كان بهما جاز حذفه كما في الآية التي معنا وإن كان بغيرهما لم يجز نحو: جَاءَ الذي إنه جائز، وألحق به أبو حيان المنصوب بفعل ناقص. =

روى الثعلبي عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَنْ قَرَأَ سُورَة «وَالذَّارِيَاتِ» أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ كُلّ رِيحٍ هَبَّتْ وَجَرَتْ فِي الدُّنْيَا»(١) (والله سبحانه وتعالى أعلم وأشفق وأرحم)(٢).

= **الثاني**: أن يكون مجروراً، فيجوز حذفه في صور منها أن يجر بإضافة صفة ناصبة له تقديراً نحو: «فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ».

الثالث: أن يكون مرفوعاً، فإن كان فاعلاً أو نائباً عنه أو خبراً لمبتدأ أو لناسخ لم يجز حذفه نحو: جاءني اللذان قاما أو ضربا، وجاء الذي الفاضل هو وإن الفاضل هو. وإن كان مبتدأ جاز بشروط ذكرها السيوطي في الهمع على أن ما يعنينا هو العائد المنصوب كما نلمحه في الآية أعلى. أما وقد استكمل الشروط التي يقصدها المؤلف فإنه يجوز حذفه.

وانظر ـ بتصرف ـ هَمْعَ الهوامع للعلامة السيوطي ١/ ٨٩ و٩٠.

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٢.

(٢) ما بين القوسين زيادة من نسخة ب.

سورة الطور

مَكيَّة وهي تسع وأربعون آية، وثلاثمائة واثنتي[1] عشرة كلمة، وألف وخمسمائة حرفٍ[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾ وما بعده أقسام جوابها «إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ» والواوات[3] التي بعد الأولى عواطف لا حروف قسم كما تقدم في أول هذا الكتاب عن الخليل.

ونكر الكتابَ تفخيماً وتعظيماً.

فصل

مناسبة هذه السورة لما قبلها من حيث الافتتاح بالقسم وبيان الحشر فيهما، وأول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها، لأن في آخرها قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٦٠] وفي أول هذه السورة ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١] وفي آخر تلك السورة قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا﴾ [الذاريات: ٥٩]؛ وذلك إشارة إلى العذاب، وقال هَهُنَا: إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ.

فصل

قيل: المراد بالطور الجبل الذي كلم الله عليه موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالأرض المقدسة، أقسم الله به. وقيل: هو الجبل الذي قال الله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾

---

(١) كذا في النسختين. والصحيح واثنتا رفعاً.

(٢) وانظر البغوي والقرطبي في مرجعيهما ٦/٢٤٨ و ١٧/٥٨.

(٣) كذا في (أ) وفي (ب) والواو الذي بعد الأولى.

[التين: ٢]. وقيل: هو اسم جنس، والمراد بالكتاب المسطور كتاب موسى عليه الصلاة والسلام، وهو التوراة. وقيل: الكتاب الذي في السماء، وقيل: صحائف أعمال الخلق، وقال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]. وقيل: الفرقان. والمراد بالمسطور المكتوب.

قوله: فِي رَقٍّ يجوز أن يتعلق «بمَسْطُور»؛ أي مكتوب في رَقٍّ[١]. وجوَّز أبو البقاء[٢] أن يكون نعتاً آخر لكتاب[٣] وفيه نظر؛ لأنه يشبه تَهْيِئَةَ العَامِلِ للعَمَلِ وقطْعِهِ منْهُ.

والرَّقُّ ـ بالفتح ـ الجلد الرقيق يكتب فيه[٤]. وقال الرَّاغِب: الرق ما يكتبُ فيه شبه كاغد[٥]. انتهى فهو أعم من كونه جلداً أو غيرَهُ. ويقال فيه: رِقٌّ بالكسر. فأما مِلْكُ العبيد فلا يقال إلا رِقٌّ بالكسر[٦]. وقال الزَّمخشري: والرَّقُّ الصحيفة. وقيل: الجلد الذي يكتب فيه[٧]. انتهى. وقد غلط بعضهم من يقول: كَتَبْتُ في الرِّقّ بالكسر؛ وليس بغلط لثبوته به لُغَةً[٨].

وقد قرأ أبو السَّمَّال: في رِقٍّ، بالكسر[٩].

فإن قيل: ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿فِي رَقٍّ منشورٍ﴾ وعظمة الكتاب بلفظه ومعناه لا بخطِّه ورقه؟!.

فالجواب: أن هذا إشارة إلى الوضع لأن الكتاب المطويَّ لا يعلم ما فيه فقال: في رق منشور أي ليس كالكتب المطويّة أي منشورٌ لكم لا يمنعكم أحدٌ من مُطَالَعتِهِ[١٠].

(قوله: «والبيت المعمور» قيل: هو بيت في السماء العليا تحت العرش بِحيَالِ الكَعْبَةِ يقال له: الضّراح حُرْمَتُهُ في السماء كحُرْمَةِ الكعبة في الأرض يدخله كُلَّ يوم سبعونَ ألفاً من الملائكة يطُوفُونَ به ويُصَلُّون فيه، ثم لا يعودون إليه أبداً[١١].

ووصفه بالعمارة لكثرة الطائفين به من الملائكة. وقيل: هو بيت الله الحرام وهو معمورٌ بالحُجَّاج الطائفين به.

---

(١) في (ب) القرآن. (٢) التبيان ١١٨٣.
(٣) نعتاً له أي لكتاب أي كائناً في رق.
(٤) وهو قوله الجوهري في الصِّحَاح «رقق». ولكن الفراء في المعاني ٣/ ٩٠ له رأي آخر سأذكره بعد.
(٥) في المفردات: شبه الكاغد قال في اللسان: الكاغد معروف، وهو فارسي معرَّب. انظر المفردات «رقق» ٢٠٠ واللسان «كغد».
(٦) وانظر اللسان «رقق» ١٧٠٧. (٧) الكتاب الذي يكتب فيه الأعمال الكشاف ٤/ ٢٢.
(٨) بدليل قول الزمخشري السابق وقول الفراء في المعاني ٣/ ٩١: «والرقّ الصحائف التي تَخرُج إلى بَنِي آدَمَ».
(٩) بنفس المعنى. انظر البحر ٨/ ١٤٦. وهي شاذة.
(١٠) الرازي ٢٨/ ٢٤٠.
(١١) وهذا رأي علي وابن عباس انظر القرطبي ١٧/ ٥٩ و ٦٠.

وقيل: اللام في «البيت المعمور» لتعريف الجنس كأنه يُقْسِمُ بالبيوتِ المَعْمُورة والعمائر المشهورة)[١].

قوله: «والسَّقْفِ المَرْفُوعِ» يعني السماء. ونظيرهِ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾[٢] [الأنبياء: ٣٢].

قوله: «والبَحْر المَسْجُور» قيل: هو من الأضداد، يقال: بَحْرٌ مَسْجُورٌ أي مملوء، وبَحْرٌ مَسْجُورٌ أي فارِغٌ[٣]. وروى ذو الرمة الشاعر عن ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٤] ـ أنه قال: خرجت أُمَةٌ لتَسْتَقي فَقَالَتْ: إِن الحَوْضَ مَسْجُورٌ؛ أي فارغ[٥]. ويؤيد هذا أن البحار يذهب ماؤها يومَ القيامة.

وقيل: المسجور المسموك، ومنه ساجُور الكلب لأنه يمسكه ويحبسه[٦]. وقال محمد بن كعب القرظيّ والضَّحَّاكُ: يعني الموقَد المحمّى بمنزلة التَّنُّور المُحَمَّى، وهو قول ابن عباس (ـ رضي الله عنهما ـ)[٧]؛ لما روى أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة ناراً فيزاد بها في نار جهنم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦].

وروى عَبْدُ اللَّهِ بْن عُمَرَ ـ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا)[٨] ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لاَ يَرْكَبَنَّ رَجُلٌ بَحْراً إلاَّ غَازِياً أَوْ مُعْتَمِراً أَوْ حَاجًّا، فَإِنَّ تَحْتَ البَحْرِ نَاراً وتَحْتَ النَّارِ بَحْراً». وقال الربيع بن أنس: المسجور المختلط العذب بالمالح. وروى الضحاك عن النَّزّال[٩] بن سَبْرَةَ[١٠] عن علي أنه قال: البحر المسجور: هو بحر تحت العرش، كما بين سبع سموات إلى سبع أرضين فيه ماءٌ غليظٌ، يقال له: بحرُ الحيوان يمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً فينبتون في قبورهم. وهذا قول مقاتل[١١].

فصل

قيل: الحكمة في القسم بهذه الثلاثة أشياء أن هذه الأماكن الثلاثة وهي: الطور، والبيت المعمور، والبحر المسجور كانت لثلاثة أنبياء للخلوة بربهم والخلاص من الخلق

---

(١) الرازي ٢٨/ ٢٣٩. هذا وما بين القوسين كله سقط من نسخة «ب».
(٢) وانظر القرطبي السابق والبغوي ٦/ ٢٤٧.
(٣) رواه صاحب اللسان عن أبي عليٍّ. وانظر اللسان «سجر» ١٩٤٣ كما رواه أيضاً عن أبي زيدٍ.
(٤) زيادة من (أ).
(٥) وقال ابن أبي داود: ليس لذي الرمة حديث إلا هذا. وانظر القرطبي ١٧/ ٦١.
(٦) اللسان سجر ١٩٤٣.
(٧) زيادة من (أ).
(٨) زيادة من (أ).
(٩) في (ب) البزار.
(١٠) وفي كلتا النسختين سَمُرة والتصحيح من البغوي.
(١١) وانظر هذه الأقوال في تفسير البغوي ٦/ ٢٤٩.

وخطابهم مع الله. أما الطور فانتقل إليه موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وخاطب الله تعالى هناك وأما البيت المعمور فانتقل إليه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقال لربه: «سَلاَمٌ عَلَيْنَا وعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، لاَ أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نَفسك». وأما البحر المسجور فانتقل إليه يونسُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ونادى في الظلمات: «أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» فصارت هذه الأماكن شريفة بهذه الأسباب فأقسم الله تعالى بها.

وأما ذكر الكتاب فلأن الأنبياء كان لهم في هذه (الأماكن)[١] مع الله تعالى كلام والكلام في الكتاب (واقترانه[٢] بالطور أدل على ذلك؛ لأن موسى ـ عليه السلام ـ كان له مكتوبٌ ينزل عليه وهو بالطُّور).

فصل

أقسم في بعض السور بجموع كقوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ [الذاريات: ١] ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ [المرسلات: ١] ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ [النازعات: ١] وفي بعضها بأفراد كقوله: «والطُّورِ» ولم يقل: والأَطوار والبِحار.

قال ابن الخطيب: والحكمة فيه: أن في أكثر الجموع أقسم عليها بالمتحركات والريح الواحدة ليست بثابتة بل هي متبدِّلة بأفرادها مستمرة بأنواعها، والمقصود مِنْهَا لا يحصل إلا بالبَدَل والتَّغيُّر، فقال: «والذاريات» إشارة إلى النوع المستمر، لا الفرد المعين المستقر، وأما الجبل فهو ثابت غير[٣] متغير عادة فالواحد من الجبال دائمٌ زماناً ودهراً، فأقسم في ذلك بالواحد، وكذلك في قوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ [النجم: ١]، ولو قال: «والريح» لما علم المقسَمُ به، وفي الطور عُلِمَ[٤].

قوله: «إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ» نازل وكائن. وقوله: «مِنْ دَافِعٍ» يجوز أن تكون الجملة خبراً ثانياً، وأن تكون صفة لواقع أي واقع غير مدفوع. قال أبو البقاء[٥]. و «مِنْ دَافِعٍ» يجوز أن يكون فاعلاً[٦]، وأن يكون مبتدأ[٧] و «مِنْ» مزيدة على الوجهين.

---

(١) سقط من نسخة (ب).

(٢) ما بين القوسين زيادة من الرازي لاكتمال الكلام وهو ساقط من النسختين.

(٣) في الرازي: قليل التغير.

(٤) وانظر تفسير العلامة الرازي ٢٨/ ٢٤٠ و ٢٤١.

(٥) التبيان ١١٨٣.

(٦) لـ «لَهُ» وأرى أن تكون نائب فاعل أي ما وُجِدَ له دافعٌ يَدْفَعُ العَذَابَ.

(٧) والخبر: «له» وهو يكون ـ أي دافع ـ مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

فصل

قال جُبَيْرُ بْنُ مُطْعم: قدمت المدينة لأكلمَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ في أُسَارَى بدر فدفعت إليه وهي يصلي بأصحابه المغرب وصوته يخرج من المسجد فسمعته يقرأ «والطور» إلى قوله: «إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ» فكأنما صُدِّع قلبي حين سمعتـ (ـه) ولم أَكُن أُسْلِمُ[١] يومئذ قال: فأسلمتُ خوفاً من نزول العذاب وما كنت أظن أن أقومَ من مكاني حتى يقع بي العذاب[٢].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله: «يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ» يجوز أن يكون العامل فيه: «واقع» أي يقع في ذلك اليوم. وعلى هذا فتكون الجملة المنفية معترضة بين العامل[٣] ومعموله[٤]. ويجوز أن يكون العامل فيه «دافع». قاله الحَوْفِيُّ[٥]، وأبو البقاء[٦]. ومنعه مَكِّيٌّ[٧].

قال أبو حيان: ولم يذكر دليل المنع[٨]. قال شهاب الدين: وقد ذكر دليل المنع في الكشف[٩] إلا أنه ربما يكون غلطاً عليه فإنه وَهَمٌ، وعبارته قال: العامل فيه واقعٌ أي إن عذاب ربك لَوَاقِعٌ في[١٠] يوم تَمُورُ السَّماء، ولا يعمل فيه «دافع»؛ لأن المنفي لا يعمل فيما قبل النَّافي، لا يقول: طَعَامَكَ ما زَيْدٌ آكلاً، رفعت آكلاً أو نصبته أو أدخلت عليه الباء. فإن رفعت الطعام بالابتداء وأوقعت «آكلاً» على «هاء» جاز وما بعد الطعام خبراً[١١]. انتهى[١٢].

---

(١) في البغوي: ولم يكن أسلم يومئذ، وفي (ب) ولم أكن أسلمت والبغوي و(ب) هما الواضحان بالمقصود.

(٢) وانظر تفسير البغوي والخازن ٦/ ٢٤٩.

(٣) وهو واقع.

(٤) وهو يوم.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٤٧.

(٦) التبيان ١١٨٣.

(٧) مشكل الإعراب ٢/ ٣٢٧.

(٨) بل ذكر الدليل كما سيأتي بعد وانظر قول أبي حيان في البحر ٨/ ١٤٧.

(٩) هذا خطأ. والصحيح المشكل المرجع السابق. ولم يتعرض في الكشف لهذا الكلام على الإطلاق، فَلَعَلَّهُ سَهْوٌ من النَّاسِخِ أو المؤلف.

(١٠) زيادة عما في المشكل.

(١١) كذا في النسختين وفي المشكل: «خبرة».

(١٢) وانظر مشكل إعراب القرآن لمَكّي ٢/ ٣٢٧.

وهذا كلام صحيح في نفسه، إلا أنه ليس في الآية شيءٌ من ذلك؛ لأن العامل ـ وهو دافع ـ والمعمول ـ وهو يوم ـ كلاهما بعد النافي وفي حَيِّزِهِ. وقوله: وأَوْقَعْتَ آكلاً على هاء أي على ضمير يعود على الطعام فتقول: طَعَامَكَ مَا زيْدٌ آكِلُه.

وقد يقال: إن وجه المنع من ذلك خوف الوَهَم أنه يفهم أن أحداً يدفع العذاب في غير ذلك اليوم. والغرض أن عذاب الله لا يدفع في كل وقت وهذا أمرٌ مناسب قد ذكر مثلهُ كثيرٌ، ولذلك منع بعضهم أن ينتصب ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ [آل عمران: ٣٠] بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩] لئلا يفهم منه ما لا يليق.. وهذا أبعد من هذا في الوَهَم كثير.

وقال أبو البقاء: وقيل: يجوز أن يكون ظرفاً لما دل عليه[(١)] «فَوَيْلٌ» انتهى.

وقال ابن الخطيب: والذي أظنه أن العامل هو الفعل المدلول عليه بقوله: «مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ»؛ لأن العذاب الواقع على هذا ينبغي أن يقع في ذلك اليوم، لأن[(٢)] العذاب الذي به التخويف هو الذي بعد الحَشْر ومَوْر السَّماء لأنه في معنى قوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾[(٣)] [غافر: ٨٥].

فصل

والمَوْرُ الاضطراب والحركة. يقال: مَارَ الشيْءُ أي ذهب وجاء. وقال الأخفش[(٤)] وأبو عبيدةَ تَكَفَأُ[(٥)] وأنشد للأعشى:

٤٥٣٢ ـ كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيتِ جَارَتِهَا ... مَوْرُ السَّحَابَةِ لاَ رَيثٌ وَلاَ عَجَلُ[(٦)]

وقال الزمخشري: وقيل: هو تحرك في تموج. وهو الشيء يتردد في عرض كالداغصة[(٧)] وهي الجلدة التي فوق قُفل الركبة[(٨)]. وقال الراغب: المَوْر: الجريان

---

(١) التبيان ١١٣٨.

(٢) في الرازي: لكن.

(٣) وانظر الرازي بالمعنى من تفسيره ٢٨/ ٢٤٢.

(٤) لم أجده في المعاني له وإنما نقله عنه القرطبي في الجامع ١٧/ ٦٣.

(٥) المجاز له ٢/ ٢٣١.

(٦) من البسيط له كما في الديوان وفيه: مَرُّ السحابة. وعليه فلا شاهد فيه وهو من قصيدة يمدح فيها يزيد بن مسهر الشيباني، وانظر البحر ٨/ ١٤٤ والقرطبي ١٧/ ٦٣ وفتح القدير ٥/ ٩٥ ومجمع البيان ٩/ ٢٤٦ والطبري ٢٧/ ١١ واللسان «مور» والمجاز ٢/ ٢٣١. والشاهد: مور فهو بمعنى الكَفْء. وانظر ديوانه ١٤٤.

(٧) هي النكفة، وقيل: هي عظم مدور يديص ويموج فوق رضف الركبة. وقيل يتحرك على رأس الركبة. وقيل: هي الشحمة التي تحت الجلدة الكائنة فوق الركبة. وانظر اللسان «دغَصَ».

(٨) وانظر الكشاف ٤/ ٢٣.

السريع ومَار الدَّمُ على وجهه والمُور ـ أي بالضم ـ التراب المتردد به الريح[١].

وأكد بالمصدرية دفعاً للمجاز أي هذان الجرمان العظيمان مع كثافتهما يقع ذلك منهما حقيقة.

وقال ابن الخطيب: فيه فائدة جليلة، وهي أن قوله: «وتَسِيرُ الجِبَالُ» يحتمل أن يكون بياناً لكيفية مور السماء؛ لأن الجبال إذا سارت وسيرت معها سكانها يظهر السماء كالسائرة إلى خلاف تلك الجهة، كما يشاهده راكب السفينة، فإنه يرى الجبلَ الساكن متحركاً فكان لقائل أن يقول: السماء تمُور في رأي العين بسبب سير الجبال كما يَرَى القمرَ سائراً راكبُ السفينة، والسماء إذا كانت[٢] كذلك فلا يبقى مَهْرَب ولا مَفْزَع لا في الأرض ولا في السماء.

فصل

لما ذكر أن العذاب واقع بين أنه متى يقع العذاب، فقال: يوم تمور السماء موراً، قال المفسرون: أي تَدُورُ كما يدور الرَّحَا وتَتَكفأ بأهلها تَكَفُّؤَ السَّفِينَةِ.

قال عطاء الخُراسَانيّ: يختلف أجزاؤها بعضها في بعض.

وقيل: تضطرب. «وَتَسِيرُ الجِبَالُ سَيْراً» فتزول عن أماكنها، وتصير هباءً منثوراً، وهذا إيذان وإعلام بأن لا عود إلى السماء[٣] لأن الأرضَ والجبالَ والسماءَ والنجومَ كلها لعمارة الدنيا والانتفاع لبني آدم فإذا لم يبقَ فيها نفع فلذلك أعدمها الله تعالى[٤].

قوله: «فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» يومئذ منصوب «بوَيلٍ» والخبر «للمكذبين». والفاء في قوله «فَوَيْلٌ» قال مكي: جواب الجملة المتقدمة[٥] وحسن ذلك، لأن في الكلام معنى الشرط، لأن المعنى إذا كان ما ذُكِرَ فَوَيْلٌ[٦].

قال ابن الخطيب: أي إذا علم أن عذاب الله واقع، وأنه ليس له دافع فويل إذَنْ للمكذبين؛ فالفاء لاتصال المعنى، ولمعنى آخر وهو الإيذان بأمان أهل الإيمان، لأنه لما قال: إن عذاب ربك لواقع وأنه ليس له دافع لم يبين موقعه بِمَنْ، فلما قال: «فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبينَ» علم المخصوص (به)[٧] وهو المكذب[٨].

فإن قيل: إذا قلت بأن قوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» بيان لمن يقع به العذاب فمن

---

(١) المفردات له ص ٢٠٠.

(٢) في الرازي مارت. وانظر الرازي ٢٨/ ٢٤٣، واللسان «مور».

(٣) الصحيح كما في (ب) والرازي: الدنيا فالمعنى يحتم ذلك.

(٤) وانظر الرازي ٢٨/ ٢٤٣ ورأي الخراساني في البغوي ٦/ ٢٤٩.

(٥) في (ب) جملة المقدمة.

(٦) قال بذلك كله مكي في المشكل ٢/ ٣٢٧.

(٧) سقط من (ب) فقط دون (أ) والرازيّ.

(٨) وانظر الرازي المرجع السابق.

لا يكذب لا يعذب فأهل الكبائر لا يعذبون لأنهم لا يُكَذِّبُون.

فالجواب: أن ذلك العذاب لا يقع إلا على أهل الكبائر، وإنما هذا كقوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: ٨ و ٩] فالمؤمن لا يُلْقَى فيها إلقاء بهوان، وإنما يُدْخَلُ فيها للتطهير إدْخالاً مع نوع إكرامٍ، والويل إنما هو للمكَذِّبِينَ.

والويل ينبىء عن الشدة، لأن تركيب حروف الواو والياء واللام لا ينفك عن وُقُوع شدةٍ، ومنه لَوَى إذا دافع[١] ولَوَاه يلويه إذا فَتَلَهُ فَتْلاً قوياً[٢].

والوَلِيُّ فيه القوة على المُولَى عَلَيْهِ. وقد تقدم وجه جواز التنكير في قوله: «وَيْلٌ» مع كونه مبتدأ؛ لأنه في تقدير المنصوب لأنه دعاء في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ [الذاريات: ٢٥].

قوله: ﴿**الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ**﴾ الخَوْضُ: هو الاندفاع في الأباطيل، قال تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩] وقال تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥].

وتنكير الخوض يحتمل وجهين:

الأول: أن يكون للتكثير أي في خوضٍ عظيم.

الثاني: أن يكون التنوين عوضاً عن المضاف إليه، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [هود: ١١١] والأصل في خوضهم المعْرُوف منهم. وقوله: يعلبون أي غافلون لاهون.

واعلم أن قوله تعالى: «الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ» ليس وصفاً للمكذبين بما يميزهم، وإنما هو للذم كقولك: «الشيطانُ الرجيمُ» ولا تُرِيدُ فَصْله عن الشيطان الذي ليس برجيم بخلاف قولك: أَكْرِمِ الرَّجُلَ العَالِمَ فالوصف بالرجيم للذم له لا للتعريف.

وتقول في المدح: الله الذي خلق، والله العظيم للمدح لا للتمييز، ولا للتعريف عن إله لم يخلق أو إله ليس بعظيم، فإن الله واحد لا غير[٣].

قوله: ﴿**يَوْمَ يُدَعُّونَ**﴾ يجوز أن يكون ظرفاً «ليُقَالُ» المقدرة مع قوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ﴾ [الطور: ١٤] يوم يدعون المكذبين[٤]؛ لأن معناه يوم يقع العذابُ ذلك اليوم وهو يوم يُدَعُّون فيه إلى النار.

---

(١) كذا في (أ) والصحيح دفع من دون ألف كما في المعاجم والرازي فالفعل ثُلاثِيّ.

(٢) وانظر اللسان «لوى».

(٣) قال بهذه المعلومة الرازي ٢٨/ ٢٤٥ و ٢٤٦.

(٤) وهو أحد قولي أبي البقاء في التبيان ١١٨٣.

والعامة على فتح الدال وتشديد العين من دَعَّهُ يَدُعُّهُ أي دفعه في صدره بعُنْفٍ وشِدَّةٍ. قال الراغب: وأصله أن يقال للعاثر: دع كما يقال له لَعاً[١].

وهذا بعيد من معنى هذه اللفظة[٢].

وقرأ علي ـ رضي الله عنه ـ والسّلمي وأبو رجاء وزيد بن علي بسكون الدال وتخفيف العين مفتوحة[٣] من الدُّعَاءِ أي يُدْعَوْنَ إليها فيقال لهم: هَلُمُّوا فادخلوها[٤].

قوله: دَعًّا مصدر معناه تدفعهم الملائكة دفعاً على وجوههم بعُنْفٍ أي يُدْفَعُونَ إِلى النار، فإِذا دَنَوْا منها قال لهم خزنتها: هَذِهِ النَّار التي كنتم بها تكذبون في الدنيا.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّم﴾ يدل على أن خزنتها يقذفونهم في النار وهم بعيداً[٥] عنها وقوله تعالى: ﴿يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] يدلّ على أنهم فيها.

فالجواب من وجوه:

الأول: أن الملائكة يَسْحَبُونَهُمْ في النار، ثم إذا قربوا من نار مخصوصة وهي نار جهنم يقذفونهم فيها من بعيد فيكون السحب في نار، والدفع في نار أشد وأقوى، بدليل قوله: ﴿يُسْحَبُونَ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١ و ٧٢]. أي يسحبون في حَمْوَةِ النار، ثم بعد ذلك يكون لهم إدخالٌ.

الثاني: يجوز أن يكون في كل زمان يتولى أمرهم ملائكة فإِلى[٦] النار يدفعهم ملك وفي النار يَسْحَبُهُم آخر.

الثالث: أن يكون السحبُ بسَلاَسِلَ أي يسحبون في النار، والساحب خارج النار.

الرابع: أن يكون الملائكة يدفعونهم إِلى النار إهانةً لهم، واستخفافاً بهم ويدخلون معهم النار ويسحبونهم[٧].

قوله: «أَفَسِحْرٌ» خبر مقدم و «هذا» مبتدأ مؤخر.

---

(١) نقله الراغب في المفردات «د ع ع» كما نقله ابن منظور في اللسان أيضاً «د ع ع». انظر اللسان ١٣٨٢.

(٢) فاللفظة هذه المراد منها الدفع، بخلاف تِلْكَ.

(٣) على البناء للمفعول أي يُدْعَوْنَ إليها كما أوضحه أعْلَى.

(٤) كذا أورد هذا القراءة أبو حيان في البحر ٨/١٤٧ والزمخشري في الكشاف ٤/٢٣، بينما سكت عنها أبو الفتح في المحتسب عند التعرض لهذه الصورة وقال ابن خالويه: يوم تُدْعَوْنَ علي والسلمي، فرواها بتاء المضارع لا يائه وعلى كلٍّ فهي شاذة. وانظر المختصر ١٤٥.

(٥) كذا في النسختين وفي الرازي: بعداء.

(٦) في (ب) وإلى ـ بالواو ـ.

(٧) بالمعنى من الرازي ٢٨/٢٤٦.

ودخلت الفاء قال الزمخشري: بمعنى كنتم تقولون للوحي: هذَا سِحرٌ فسحر هذا يريد[١] هذا المِصْداق أيضاً سحر[٢]؛ ودخلت الفاء لهذا المعنى، وهذا تحقيقٌ للأمر؛ لأن من يرى شيئاً ولا يكون الأمر على ما يراه فذلك الخطأ يكون لأجل أحد أمرين: إما لأمر عائدٍ إلى المرئيّ، وإمّا لأمرٍ عائد إلى الرائي، فقوله: «أَفَسحرٌ هَذَا» أي هل في الموت[٣] شكٌّ أمْ هل في بصركم خَلَلٌ؟! فهو استفهام إنكار أي لا أمر مِنْهُمَا ثابتٌ فالذي تَرَوْنَهُ حق وقد كنتم تقولون: إنه ليس بحق[٤]، وذلك أنهم كانوا ينسبون محمداً ـ ﷺ ـ إلى السحر، وأنه يغطي الأبصار بالسِّحر، وانشقاق القمر وأمثاله سحر، فوبخوا به، وقيل لهم: أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون[٥].

قوله: اصْلَوْ(هَا)[٦] أي إذْ لم يمكنكم إنكارها، وتحقق أنه ليس بسحر ولا خَلَل في أبصاركم فاصْلَوْهَا[٧]؛ أي قاسوا[٨] شدتها. «فَاصْبروا أَوْ لاَ تَصْبروا» أي الصبر وعدمه سواءٌ، وهذا بيان لعدم الخَلاص.

قوله: «سَوَاءٌ» فيه وجهان:

أحدهما: أنه خبر مبتدأ محذوف أي صبركم وتركه سواء. قاله أبو البقاء[٩].

والثاني: أنه مبتدأ والخبر محذوف أي سواء الصبرُ والجزعُ، قاله أبو حيان[١٠].

قال شَهابُ الدِّين: والأول أحسن، لأن جعل النكرة خبراً أولى من جعلها مبتدأ وجعلِ المَعْرِفَةِ خبراً.

ونحا الزمخشري مَنْحَى الوجه الثاني فقال: «سواء» خبره محذوف أي سواء عليكم الصَّبْرَانه الصبرُ وَعَدَمُهُ[١١].

قوله: «إنَّما تُجزَون مَا كُنتُمْ تَعْملونَ» فيه لطيفة، وهي أن المؤمن بإيمانه اسْتَفَادَ أن الخير الذي يَنْويهِ يُثَابُ عَلَيْه، والشَّرَّ الذي يقصِدُهُ ولا يقع منه لا يعاقَبُ عليه ولا ظلم، فإن الله تعالى أخبره به وهو اختار ذلك ودخل (فيه)[١٢] باختياره، فإن الله تعالى قال بأن من كفر ومات كافراً عذبته أبداً فاحذَرُوا، ومن آمن أَثَبْتُهُ دائماً فمن ارتكب الكفر ودام عليه بعدما سمع ذلك فإذا عوقب دائماً فهو تحقيق لما أَوْعَدَ به[١٣] فلا يكون ظلماً.

---

(١) في (ب) يريد هذا مصداق.
(٢) بالمعنى من الكشاف ٤/ ٢٣.
(٣) في الرازي: المرئيّ.
(٤) الرازي ٢٨/ ٢٤٧.
(٥) قال بتلك العلة الإمام البغويُّ وتبعه الخازن في مَرْجِعَيْهِمَا مَعَالِمِ التَّنْزِيلِ ولُبَابِ التأويل ٦/ ٢٥٠.
(٦) لفظة (ها) ساقطة من (أ) الأصل.
(٧) قال بهذا المعنى الرازي في مرجعه السابق.
(٨) بينما قال بهذا المعنى البغوي في مرجعه السابق أيضاً.
(٩) التبيان ١١٨٣.
(١٠) البحر المحيط ٨/ ١٤٨.
(١١) الكشاف ٤/ ٢٣.
(١٢) ما بين القوسين سقط من (ب).
(١٣) في (ب) وعده. والصحيح من (أ) كما في الرازي فإن معنى الوعد والوعيد والسياق تُحَتِّم أَصَحيَّة (أ).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤)﴾

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُتَقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيم**﴾ يجوز أن يكون مستأنفاً، أخبر الله تعالى بذلك بشارة، ويجوز أن يكون من جملة المقول للكفار زيادة في غَمِّهِمْ وتَحَسُّرِهم. والجنة هي موضع السرور لكن الناطُور قد يكون في البستان الذي هو في غاية الطيبة، فلما قال: «وَنَعِيم» أفاد أنهم فيها متنعمون كما يكون المتفرج لا كما يكون الناطُور والعمال[(١)].

وقوله: «فَاكِهِينَ» يريد[(٢)] في ذلك، لأن المتنعم قد يكون آثار النعيم عليه ظاهرة وقلبه مشغول، فلما قال: «فَاكِهينَ» دل على غاية الطيبة[(٣)].

قوله: «فَاكِهِينَ» هذه قراءة العامة نصب على الحال، والخبر الظرف، وصاحب الحال الضمير المستتر في الظرف.

وقرأ خَالِدٌ: «فاكِهُونَ»[(٤)] بالرفع، فيجوز أن يكون الظرف لغواً، متعلقاً بالخبر[(٥)] ويجوز أن يكون خبراً[(٦)] آخر عند من يجيز تعداد الخبر[(٧)].

وقرىء فَكِهينَ مقصوراً، وسيأتي أنه قرأ به في المُطَفِّفِينَ في المتواتر حفصٌ عن عَاصِمٍ.

---

(١) بالمعنى من تفسير الرازي ٢٨/ ٢٤٧ و ٢٤٨.

(٢) كذا في النسختين: يريد. وفي الرازي: يَزِيد، وهو المراد.

(٣) المرجع السابق. (٤) وهي شاذة. وانظر البحر ٨/ ١٤٨ والكشاف ٤/ ٢٣.

(٥) وانظر الكشاف السابق والبحر السابق أيضاً. (٦) البحر المحيط السابق.

(٧) في جواز تعدد الخبر لمبتدأ واحد أقوال:

أحدها: وهو الأصح وعليه الجمهور الجواز، كما في النعوت، سواء اقترن بعاطف أم لا مثل: ﴿**وهَوَ الغَفُور الوَدُودُ ذُو العَرْشِ المَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ**﴾ [البروج: ١٤ ـ ١٦].

الثاني: المنع وهو اختيار ابن عصفور وكثير من المغاربة، وقد جعلوا المتعدد إما صفةً للخبر أو خبراً لمبتدأ مقدر.

الثالث: الجواز إن اتحدا في الإفراد والجملة والمنع إن كان أحدُهما مفرداً والآخر جملة.

الرابع: قصر الجواز على ما كان المعنى منها واحداً نحو: الرُّمَّانُ حلوٌ حامض أي مزٌّ. وانظر الهمع ١/ ١٠٨. والأشموني على الألفية ١/ ٢٢١ إلى ٢٢٣.

قوله: «بِمَا آتَاهُمْ» يجوز أن تكون الباء على أصلها وتكون: «ما» حينئذ واقعةً على «الفواكه» التي هي في الجنة أي متلذذين بفاكهةِ الجنة، ويجوز أن تكون بمعنى في أي فيما آتاهم من الثمار وغير ذلك(١). ويجوز أن تكون «ما» مصدريةً أيضاً.

قوله: «وَوَقَاهُمْ» يجوز فيه أوجه:

أظهرها: أنه معطوف على الصلة أي فَكِهينَ بإيتائِهم رَبُّهُمْ وبوقايَتِهِ لهم عذابَ الجَحِيم.

والثاني: أن الجملة حال فتكون «قد» مقدرة(٢) عند من يشترط اقترانها بالماضي الواقع(٣) حالاً.

الثالث: أن يكون معطوفاً على: «فِي جَنَّاتٍ». قاله الزمخشري(٤) يعني فيكون مخبراً به عن المتقين أيضاً فيكون المراد أنهم فاكهون بأمرين: **أحدِهِمَا**: بما آتاهم، **والثاني**: بأنه وَقَاهُمْ.

والعامة على تخفيف القاف من الوقاية. وأبو حيوة بتَشْدِيدِهَا(٥).

قوله: «كلوا واشربوا» أي يقال لهم كُلُوا واشربوا هنيئاً. وقد تقدم الكلام في: «هَنِيئاً» فِي النِّسَاء.

قال الزمخشري: هنا يقال لهم كلوا واشربوا أكلاً وشُرْباً هنيئاً أو طعاماً وشرباً هنيئاً. وهو الذي لاَ تَنْغِيصَ فِيهِ.

ويجوز أن يكون مثله في قوله:

٤٥٣٣ ـ هَنِيئاً مَرِيئاً غَيْرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ(٦)

أعني صفةً استعملت استعمال المصدر القائم مقام الفعل، مرتفعاً به «ما اسْتَحَلَّت» كما يرتفع بالفعل كأنه قيل هَنَأ عَزَّةَ المُسْتَحَلُّ منْ أعْرَاضِنَا، فكذلك(٧) معنى «هنيئاً» هُنَا(٨) هنَأَكُمُ الأَكْلُ والشُّرْبُ، أو هَنَّأَكُمْ مَا كُنْتُم تَعْملونَ(٩) والباء مزيدة كما في «كَفَى بِاللَّهِ»

---

(١) بالتوضيح لما في التبيان للعكبري ١١٨٣. (٢) قاله في البحر ٨/١٤٨.

(٣) قال في الهمع ١/٢٤٧: «ويجب في الماضي المثبت المتصرف غير التالي «إلاَّ» والمتلوّ بأَوْ العاري من الضمير «قد» مع الواو، فإن كان جامداً كليس أو منفياً فلا. هذا ما جزم به المتأخرون كابن عُصْفُورٍ والابذِيّ والجُزُوليّ تبعاً للمبرد والفارسيّ. قال أبو حيان: والصحيح وقوع الماضي حالاً بدون قد. ولا يحتاج إلى تقديرها للكَثْرة». انظر همع الهوامع المرجع السابق.

(٤) الكشاف ٤/٢٣. (٥) البحر ٨/١٤٨ شاذة.

(٦) من الطويل وهو لكُثَيِّر وهو بالديوان. والشاهد قد أوضحه أعلى وهو وقوع «هنيئاً» صفة استعملت استعمال المصدر كما أوضحه أعلى وانظر الكشاف ٤/٢٤، وشرح شواهده ٣٥٤ والبحر ٨/١٤٨، وديوانه ١/٤٩ الجزائر ١٩٢٨.

(٧) في الكشاف: وكذلك. (٨) وفيه: ههنا.

(٩) وانظر الكشاف ٤/٢٣ و ٢٤.

والباء متعلقة بكُلُوا واشْرَبُوا إذا جعلت الفاعل الأكل والشرب[١]. وهذا من محاسن كلامه.

قال أبو حيان: أما تجويزه زيادة الباء فليست بمَقِيسةٍ في الفاعل إلا في فاعل «كَفَى» على خلافٍ[٢] فيها فتجويزها هنا لا يسوغ.

وأما قوله: إنَّها تتعلق بـ «كُلُوا واشْرَبُوا» فلا يصح إلا على الإعمال فهي تتعلق بأحدهما. انتهى[٣]. وهذا قريب.

قوله: «مُتَّكِئِينَ» فيه أوجه:

أحدها: أنه حال من فاعل: «كُلُوا».

الثاني: أنه حال من فاعل: «أَتَاهُمْ».

الثالث: أنه حال من فاعل: «وَقَاهُمْ».

الرابع: أنه حال من الضمير المُسْتَكِنّ في الظرف.

الخامس: أنه حال من الضمير في: «فَاكِهِينَ»[٤].

وأحسنها أن يكون حالاً من ضمير الظرف[٥] لكونه عُمْدَةً.

وقوله: «عَلَى سُرُرٍ» متعلق بـ «متَّكِئينَ».

وقراءة العامة بضم الراء الأولى. وأبو السَّمَّال بفتحها[٦]. وقد تقدم أنها لغة لكَلْبٍ في المضعف يَفرونَ من تَوَالِي ضمتين في المضعف.

قوله: «وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ» قرأ عكرمةُ بحُورِ عينٍ[٧] بإضافة الموصوف إلى صفته على التأويل المشهور[٨].

فصل

اعلم أنه تعالى بين أسباب التنعيم على الترتيب، فأول ما يكون المَسْكَن وهو الجَنّات ثم الأكل والشرب، ثم الفرش والبسط ثم الأزواج، فهذه أمور أربعة ذكرها الله

---

(١) المرجع السابق.

(٢) زيادة الباء في كفى غالبة وواجبة، وضرورة، فالغالبة كما هنا في: «كَفَى بِاللَّهِ»، وقال الزجاج: دخلت الباء لتضمن كفى معنى اكْتَفِ. وقال ابن السَّرَّاج: الفاعل ضمير الاكتفاء وصحة قوله موقوفة على جواز تعلق الجار بضمير المصدر. وهو قول الفارسيّ والرُّمانيّ أجازوا: «مُروري بِزَيْدٍ حَسَنٌ وهُو بعَمْرٍو قبيحٌ». وانظر المغني في حرف «الباء» ص ١٠٦ و ١٠٧ إلى ١١١.

(٣) البحر ٨/١٤٨.

(٤) قاله بهذه الأوجه العُكْبَريُّ في التبيان ١١٨٤.

(٥) البحر السابق.

(٦) على وزن فُعَل.

(٧) وقد ذكر هاتين القراءتين أبو حيان في البحر المحيط ٨/١٤٨ وكلتاهما شَاذَّةٌ.

(٨) أي بزوجاتِ حورٍ عينٍ.

على الترتيب، وذكر في كل واحد منها ما يدل على كماله، فقوله: «جَنّات» إشارة إلى المسكن وقال: «فاكهين» إشارة إلى عدم التَّنغُّص وعلو المرتبة بكونه مما آتاهم الله، وقال: «كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً» أي مأمون العاقبة من التَّخَم والسَّقَم، وترك ذكر المأكول والمشروب دلالة على تنوعهما وكثرتهما، وقوله: «بِمَا كُنتُمْ تَعملون» إشارة إلى أنه تعالى يقول: إني مع كوني ربكم وخالقَكم وأدْخَلْتُكم الجنة بفضلي فلا مِنَّة لي عليكم اليوم وإنما مِنَّتي عليكم كان في الدنيا هديتكم ووفقتكم للأعمال الصالحة كما قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] وأما اليوم فلا مِنَّةَ عليكم لأن هذا إِنجازُ الوَعْدِ[١].

فإن قيل: قال في حقّ الكفار: «إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تعملونَ» وقال في حق المؤمنين: «بِمَا كُنتُمْ تَعْملونَ» فما الفرق بينهما؟.

فالجواب من وجوه:

الأول: أن كلمة «إنَّما» للحصر، أي لا يجزون إلا ذلك، ولم يذكر هذا في حق المؤمن، لأنه يجزيه أضعاف ما عَمِلَ، ويَزِيدُهُ من فضله.

الثاني: قال هنا: «بِمَا كُنتُمْ» وقال هناك: ﴿مَا كُنتُمْ﴾ [النمل: ٩٠] أي تجزون عن أعمالكم. وهذا إشارة إلى المبالغة في المماثلة، كأنه يقول: هذا عينُ ما عملت. وقوله في حق المؤمن: بِمَا كُنتُمْ كأنَّ ذلك أمر ثابتٌ مستمرٌّ يفيدكم هذا.

الثالث: أنه ذكر الجزاء هناك، وقال هنا: «بِمَا كُنتُمْ تعملون» لأنَّ الجزاء يُنبِىء عن الانقطاع، فإن من أحسن إلى أحد فأتى بجزائه لا يتوقع المحسنُ منه شيئاً آخر.

فإن قيل: فاللّه تعالى قال في موضع آخر: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات: ٤٣] في الثواب.

فالجواب: أنه في تلك المواضع لَمَّا لم يخاطب المجزيَّ ولم يقل: بما كنت تفعل أتى بما يفيد العلم بالدوام وعدم الانْقِطَاع. وأما في السرر فذكر أموراً:

أحدها: الاتّكاء فإنه هيئة مختصّة بالمنعم والفارغ الذي لا كُلْفَة عليه. وجمع السرر لأَمْرَيْنِ:

أظهرهما: أن يكون لكل واحد سُرَرٌ؛ لأنه قوله: «مَصْفُوفة» يدل على أنها لواحِدٍ، لأن سرر الكل لا تكون في موضع واحد مصطفَّة، ولفظ السَّرير فيه حروف السُّرُور، بخلاف التَّخْتِ وغيره، وقوله: «مَصْفُوفَة» أي منتظمة بعضُها[٢] إلى جَنْبِ بعض فإنها لو كانت متفرقة لقيل في كل موضع واحد يتكىء عليه صاحبه إذا حضر هذا الموضع. وقول

(١) وانظر الرازي بالمعنى منه ٢٨/٢٤٨ و ٢٤٩. (٢) في (ب) بعضاً.

تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ إشارة إِلى النِّعمة الرابعة، وفيها ما يدل على كمال الحال من وجوه:

الأول: أنه هو المزوج وهو الولي الذي يلي الطرفين يُزوج عباده بإِمائه ومن يكون كذلك لا يفعل إلا ما فيه راحة العباد والإماء.

الثاني: قال: «وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُور» ولم يقل: وَزَوَّجْنَاهُمْ حوراً مع أن لفظ التزويج يتعدى فعله إلى مفعولين بغير حرف، تقول زَوَّجْتُكَهَا، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وذلك إشارة إلى أن المنفعة في التزويج لهم، وإنما زوجوا للذتهم بالحور لا لِلَذَّة الحور بهم.

الثالث: عدم الاقتصار على الزوجات بل وصفهن بالحُسْن واختار الأحسن من الأحسن، فإِنَّ أَحْسَنَ ما في صورة الآدميِّ وَجْهُهُ، وأحسنَ ما في الوجه العَيْنُ[١].

قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مبتدأ، والخبر الجملة من قوله: «أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ»، والذُّرِّيَّات هنا يصدق على الآباء، وعلى الأبناء، أي أن المؤمن إذا كان عمله أكثر أُلْحِقَ به مَنْ دُونَهُ في العمل ابناً كان أو أباً. وهو منقول عن ابنِ عَبَّاسٍ وغيره.

الثاني: أنه منصوب بفعل مقدر، قال أبو البقاء على تقدير: وَأَكْرَمْنَا الَّذِينَ آمَنُوا[٢]. قال شهاب الدين: فيجوز أن يريد أنه من باب الاشتغال، وأن قوله: «أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتهُمْ» مفسرٌ لذلك الفعل من حيثُ المعنى وأن يريد أنه مضمرٌ لدلالة السِّياق عليه، فلا تكون المسألة من الاشتغال في شَيْء[٣].

الثالث: قال ابن الخطيب: إنه معطوف على: «إنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّات» ثم قال: فإذا كان كذلك فَلِمَ أَعادَ لفظ «الَذين آمنوا» وكان المقصود يحصل بقوله تعالى: ﴿وأَلْحَقْنَا بِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بعد قوله ﴿وزَوَّجْناهُمْ﴾ كان يصير التقديرُ: وزوَّجْنَاهم وألحقنا بهم؟ نقول: فيه فائدة وهي أن المتقين هم الذين اتقوا الشرك والمعصية وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقال ههنا: الذين آمنوا بمجرد الإيمان يصير ولده من أهل الجنة، ثم إِن ارتكب الأب كبيرةً أو صغيرة لا يعاقب به ولده بل الوالد، وربما يدخل الجنةَ الابنُ قبل الأب، وقد ورد في الخبر أن الوَلَد الصغيرَ يشفع لأبيه، وذلك إشارة إلى الجزاء[٤].

---

(١) وانظر هذا في المرجع السابق ٢٨/ ٢٤٩.

(٢) قال بهذين الوجهين العكبري في التبيان ١١٨٤ وأبو حيان في البحر ٨/ ١٤٨ وقد اختار الأول أبو حيان.

(٣) الدر المصون مخطوط بمكتبة الاسكندرية لوحة رقم ١١٣.

(٤) قاله الإمام الفخر في مرجعه السابق ٢٨/ ٢٥١.

وذكر الزمخشري أنه مجرورٌ عطفاً على «حُورٍ عينٍ» قال الزمخشري: «وَالَّذِينَ آمَنُوا» معطوف على «حُورٍ عينٍ» أي قَرَنَّاهُمْ بالحور وبالذين آمنوا أي بالرفقاء والجلساء منهم كقوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] فيتمتعون تارة بمُلاَعَبَةِ الحُور، وتارةً بمُؤَانَسَةِ الإخوان[١].

ثم قال الزمخشري: ثم قال: «بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ» أي بسبب إيمان عظيم رفيعِ المحل وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجتهم ذُرِّيَّتَهُم وإن كانوا لا يستأهلونها تفضلاً عليهم[٢].

قال أبو حيان: ولا يتخيل أحد أن «وَالَّذِينَ آمَنُوا» معطوف على «بحُورٍ عِينٍ» غير هذا الرجل. وهو تخيُّلٌ أعجميّ، مخالف لفهم العربي القُحِّ ابن عباس وغيره[٣].

قال شهاب الدين: أما ما ذكره أبو القاسم من المعنى فلا شك في حُسْنِهِ ونضارته، وليس في كلام العربي القُحِّ ما يدفعه بل لو عرض على ابن عباس وغيره لأعجبهم، وأيُّ مانع مَعْنَوِيٍّ أو صناعيٍّ يمنعه؟![٤].

قوله: «وَأَتْبَعْنَاهُمْ» يجوز أن يكون عطفاً على الصلة، ويكون «والذين آمنوا»[٥] مبتدأ ويتعلق «بإيمان» بالاتِّباع[٦]، بمعنى أن الله تعالى يلحق الأولاد الصّغار وإن لم يبلغوا الإيمان بأحكام الآباء المؤمنين. وهذا المعنى منقول عن ابن عباس والضَّحَّاك[٧]. ويجوز أن يكون معترضاً بين المبتدأ والخبر. قال الزمشخري[٨] ويجوز أن يتعلق «بإِيمَانٍ» بـ «أَلْحَقْنَا» كما تقدم[٩].

فإن قيل: قوله: أَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ يفيد فائدة قوله: «أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ».

فالجواب: أن قوله: «أَلْحَقْنا بِهِمْ» أي في الدرجات والاتّباع إنما هو في حكم الإِيمان وإن لم يبلغوه كما تقدم[١٠].

وقرأ أبو عمرو: «وأَتْبَعْنَاهُمْ» بإسناد الفعل إلى المتكلم نفسه. والباقون واتَّبَعَتْهُمْ

---

(١) في الكشاف: الإخوان المؤمنين.

(٢) وفيه أيضاً: تفضلاً عليهم وعلى آبائهم. وانظر الكشاف ٤/ ٢٤.

(٣) وكلام ابن عباس حديثٌ رواه عن الرسول (ص) «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ المُؤْمِنِ فِي دَرَجَتِهِ وَإِنْ كَانُوا دُونَهُ لِتقَرَّ بِهِمْ عَيْنُهُ». وانظر البحر المحيط ٨/ ٢٤.

(٤) وهَذَا اعتراض نقله المؤلف عن السمين الحلبي في الدر المصون على أبي حيان أستاذه في تعقبه لكلام الزمخشري. أقول: وأنا لا أرى أيضاً أيّ مانع عن عطف «الذين آمنوا» على «حُورٍ عينٍ» وهو كلام جميل ومقبول من الزمخشري ـ رحمه الله ـ.

(٥) الواو سقط من (ب) من قوله: «والذين».

(٦) من قوله: «واتَّبَعَتْهُمْ».

(٧) بالمعنى من تفسير البحر المحيط ٨/ ١٤٨.

(٨) الكشاف ٤/ ٢٤.

(٩) البحر المرجع السابق.

(١٠) الرازي ٢٨/ ٢٥١.

بإسناد الفعل إلى الذرية وإلحاق تاء التأنيث[١]. وقد تقدم الخلاف في إفراد ذرياتهم وجَمْعِهِ في سورة الأَعْرَافِ[٢].

فصل

اختلفوا في معنى الآية، فقيل معناها: والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان يعني أولادهم الصغار والكبار فالكبار بإيمانهم بأنفسهم، والصغار بإيمان آبائهم، فإن الولد الصغير يُحْكَمُ بإسلامه تبعاً لأحد الأبوين.

وقوله: أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ، أي المؤمنين في الجنة بدرجاتهم وإن لم يبلغوا بأعمالهم درجات آبائهم تَكْرِمَةً لآبائهم، لِتَقَرَّ بذلك أعينهم. وهي روايةُ سعيدِ بن جبير عن ابنِ عباس. وقيل: معناه «والَّذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم» البالغون «بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم» الصِّغار الذين لم يبلغوا الإِيمان بإيمان آبائهم. وهو قول الضَّحَّاك في رواية[٣] العوفيّ عن ابن عباس. أخبر الله عز وجل أنه يَجْمَع لعبده ذُرّيته في الجنة كما كان يحب في الدنيا أن يجتمعوا إليه يدخلهم الجنة بفضله ويلحقهم بدرجته بعمل أيديهم من غير أن يَنْقُصَ الآباء من أعمالهم شيئاً فذلك قوله: «وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ».

روي عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت خديجة النبي ـ ﷺ ـ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: هما في النار، فلما رأى الكراهية في وجهها قال: لَوْ رأيتِ مكانهما لأَبْغَضْتِهِمَا. قالت يا رسول الله: فولدي منك قال: في الجنة. ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ المُؤْمِنِينَ وَأَوْلاَدَهُمْ فِي الجَنَّةِ وإنَّ المُشْرِكِينَ وَأَوْلاَدَهُمْ فِي النَّارِ» ثم قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ بإيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ»[٤].

قوله: «وَمَا أَلَتْنَاهُمْ» قرأ ابن كثير أَلِتْنَاهُمْ بِكَسْرِ[٥] اللام. والباقون بفتحها[٦].

فأما الأُولى فمن أَلِتَ يَأْلَتُ بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع كَعِلَمَ يَعْلَمُ. وأما الثانية: فيحتمل أن تكون من أَلَتَ يَأْلِتُ كَضَرب يَضْرِبُ، وأن يكون من أَلاَتَ يُلِيتُ كأَمَاتَ يُمِيتُ فأَلَتْنَاهُمْ كأَمَتْنَاهُمْ.

وقرأ ابْنُ هُرْمُزَ آلَتْنَاهُمْ[٧] ـ بألف بعد الهمزة ـ على وزن أَفْعَلْنَاهُمْ، يقال: آلَتَ

---

(١) الكشف ٢/ ٢٩٠ وحجة ابن خالويه ٣٣٣ وهي قراءة سبعية متواترة.

(٢) عند قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

(٣) في (ب): «ورواية». وهو المناسب والموافق لما في البغوي.

(٤) وانظر تفسيري البغوي والخازن ٦/ ٢٥٠ و ٢٥١.

(٥) وهي لغة فيه.

(٦) وهي لغة أيضاً. وانظر الكشف والحجة لابن خَالَوَيْهِ السابقين. وانظر أيضاً السبعة ٦١٢.

(٧) وهي قراءة شاذة غير متواترة. ذكرها أبو الفتح في المحتسب ٢/ ٢٩٠ وابن خالويه في المختصر ١٤٦ وانظر أيضاً الكشاف ٤/ ٢٤ والبحر ٨/ ١٤٩.

يُؤْلِتُ كآمَنَ يُؤْمِنُ. وعبد الله وأُبيّ والأعمش وطلحةُ ـ وتُرْوى[١] عن ابن كثيرٍ ـ لِتْنَاهُمْ بكسر اللام[٢].

قال سهل[٣]: لا يجوز فتح اللام من غير ألف بحال، ولذلك أنكر آلَتْنَاهُمْ بالمد وقال: لا يدل عليها لغةٌ ولا تفسيرٌ.

وليس كما زَعَمَ، بل نقلَ أهلُ اللغةِ آلَتَ يُؤْلِتُ.

وقرئ: ـ وَلَتْنَاهُمْ ـ بالواو ـ كَوعَدْنَاهُمْ نقلها هارُون[٤]. قال ابن خَالَوَيْهِ: فيكون هذا الحرف من لاَتَ يَلِيتُ وولَتَ يَلِيت[٥] وأَلِتَ يأْلَتُ وأَلَت يأْلِتُ[٦] وأَلاَتَ يُلِيتُ، وكلها بِمَعْنَى نَقَصَ.

ويقال: ألت بمعنى غلَّظَ وقام رجل إلى (أمير المؤمنين) عُمَرَ يَعِظُهُ فقال له رجل: لاَ تَأْلِتْ أَمِيرَ المؤمنين، أي لا تُغَلِّظ عليه[٧].

قال شهابُ الدِّين: ويجوز أن يكون هذا الأثر على حاله والمعنى لا تَنْقُصْ أمير المؤمنين حقه؛ لأنه إذا أغلظ القول نقصه حقه.

وفي الضمير في «أَلَتْنَاهُمْ» وَجْهَانِ:

أظهرهما: أنه عائد على «المؤمنين»[٨].

الثاني: أنه عائد على «أَلَتْنَاهُمْ». قيل: ويقويه قوله تعالى: **﴿كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾**[٩].

قوله: «مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» من شيء مفعول ثان لـ «أَلْتْنَاهُمْ» و «مِنْ» مزيدة؛ والأولى في محل نصب على الحال مِنْ (شَيْءٍ)؛ لأنها في الأصل صفةٌ له، فلما قدمت

---

(١) قال في البحر: ورويت عن شِبْلٍ وابْنِ كَثِيرٍ. ورواها عن ابن كثير صاحب الكَشْف ٢/ ٢٩١ وابن مجاهد في السبعة ٦١٢.

(٢) وانظر المحتسب والبحر وابن خالويه في المختصر والكشاف المراجع السابقة.

(٣) سهل هو أبو حَاتم السِّجستَانيّ. وقد تقدم التعريف به.

(٤) ابن خالويه في المختصر، والزمخشري في الكشاف وأبو حيان في البحر السابقة. وهي شاذة.

(٥) في (ب) يولت و(أ) و (ب) كلتاهما خطأ. والصحيح يَلِتُ كما في المختصر وكما هو العُرف النحويّ.

(٦) هذا الفعلان الثلاثيان مفتوحا العين ومضمومهما في المضارع ليسا في المختصر.

(٧) وانظر المختصر السابق وانظر اللغة في الألت ومادته المختلفة في اللِّسان والصِّحاح «ألت» والمجاز لأبي عبيدة ٢/ ٢٣٢. والقرطبي ١٧/ ٦٧ و ٦٨.

(٨) وهو اختيار أبي حَيَّان قال: والظاهر أنَّ الضمير في «ألتناهم» عائدٌ على المؤمنين والمعنى أنه تعالى يلحق المقصِّر بالمحسن ولا ينقص المحسن من أجره شيئاً. وهذا تأويل ابن عباس وابن جبير والجُمْهُورِ.

(٩) وقد نقل أبو حيان في البحر أنه رأيُ ابنِ زيد. وانظر البحر ٨/ ١٤٩.

نصبت حالاً. وجوز أبو البقاء أن يتعلق بِأَلَتْنَاهُمْ[١].

فصل

في قوله: «وَمَا أَلَتْنَاهُمْ» تطييب لقلبهم، وإزالة وَهَم المتوهِّم أن ثواب عمل الأب يوزع على الوَالِدِ والوَلَدِ بل للوالد أجْر عَمَلِهِ، ولأولاده مثل ذلك فضلاً من الله ورحمة. وقال: «مِنْ عملهم» ولم يقل: من أجرهم لأن قوله: وما ألتناهم من عملهم دليل على بقاء عملهم كما كان، والأجر على العمل مع الزيادة فيكون فيه إشارة إلى بقاء العمل الذي له الأجر الكبير الزائد عليه العظيم العائد إليه، ولو قال: وَمَا أَلَتْنَاهُمْ من أجرهم لكان ذلك حاصلاً بأدنى شيء، لأن كل ما يعطي الله عبده على عمله فهو أجر كامل، ولأنه لو قال: مَا أَلَتْنَاهُمْ من أجرهم كان مع ذلك يحتمل أن يقال: إن الله تعالى يفضل عليه بالأجر الكامل على العمل الناقص، وأعطاه الأجر الجزيل مع أن عمله كان له ولولده جميعاً[٢].

فإن قيل: ما الفائدة في تنكير الإيمان في قوله: «وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ بِإِيمانٍ ألحقنا»؟.

فالجواب: (هو)[٣] إما للتحقير أو للتكثير كأنه يقول أتبعناهم ذرياتهم بإيمان مخلصٍ كاملٍ. أو نقول: أتبعناهم بإيمان ما أي شيء منه، فإن الإيمانَ كاملاً لا يوجد في الولد، بدليل أنَّ من آمنَ له ولدٌ صغيرٌ حكم بإيمانه، فإذا بلغ وصرح بالكفر وأنكر التَّبَعِيَّة[٤] قيل: بأنه لا يكون مرتداً وتبيين بقوله أنه لم يُتْبَعْ. وقيل: بأنه يكون مرتداً؛ لأنه كفر بعدما حكم بإيمانه كولد المسلم الأصلي. فإذن تبين بهذا الخلاف أنَّ إيمانَه ليس بقويٍّ. ذكر هذين الوجهين الزمخشري[٥].

ويحتمل أن يكون المراد أن يكون التنوينُ للتعويض عن المضاف إليه كقوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٨٨] و [الزخرف: ٦٧] ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠] لأن التقدير: أتبعناهم ذرياتهم بإيمان أي بسبب إيمانهم لأن الإتباع ليس بإيمانٍ كَيْفَ كان وممَّنْ كَانَ وإنما هو إيمان الآباء، لكن الإضافة تُنبِىءُ عن تَقْييد، وعدم كون الإيمان إيماناً على الإطلاق، فإن قول القائل: ماءُ الشجر وماءُ الرمان فيصحّ، وإطلاق اسم «ماء» من غير إضافة لا يصح، فقوله «بإيمانهم» يوهم أنه إيمان مضافٌ إليهم كقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] حيث أثبت الإيمان المضاف فلم يكن إيماناً فقطع[٦] الإضافة مع إردتها ليعلم أنه إيمان صحيحٌ وعوض التنوين ليعلم أنه مضاف لا

(١) التبيان ١١٨٤.
(٢) وانظر تفسير الرازي ٢٨/ ٢٥٠.
(٣) لفظ «هو» سقط من (ب).
(٤) في (ب) البعثة. وهو خطأ وتحريف.
(٥) باللفظ من الرازي ٢٨/ ٢٥٢، وبالمعنى من الكشاف ٤/ ٢٤.
(٦) في (ب) لقطع.

يوجب الإيمان[١] في الدنيا إلا إيمان الآباء. قال ابن الخطيب: وهَذا وجهٌ حَسَنٌ[٢].

قوله: «كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ» قال مقاتل: كل امرىء كافر بما عمل من الشرك فهو مرتهن في النار والمؤمن لا يكون مرتهناً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨ ـ ٣٩]. قال الواحدي: هذا يعود إلى ذكر أهل النار. وهُو قولُ مُجَاهِدٍ أيْضاً[٣].

وقال الزمخشري: هذا عام في كل واحد أنه يكون مرهوناً عند الله بالكسب فإن كَسَبَ خيراً فك رقبته وإلا أغلق[٤] الرهن.

قال ابن الخطيب: وفيه وجه آخر وهو أن يكون الرهينُ فَعِيلاً بمعنى الفاعل فيكون المعنى: كل امرىء بما كسب راهن أي دائم إن أحسن ففي الجنة مؤبداً، وإن أساء ففي النار مخلداً؛ لأن في الدنيا دوام الأعمال بدوام الأعيان فإن العَرَض لا يبقى إلا في جوهر فلا يوجد إلا فيه، وفي الآخرة دوام الأعيان بدوام الأعمال فإن الله يبقي أعمالهم لكونها عند الله تعالى من الباقيات الصالحات، وما عند الله باقٍ والباقي يبقى مع عمله[٥].

قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ﴾، زيادة على ما كان لهم «وَلَحْم مِمَّا يَشْتَهُونَ» من أنواع اللّحْمَانِ. والمعنى زدناهم مأكولاً ومشروباً فالمأكول الفاكهةُ واللّحم، والمشروب الكأس. وفي هذا لطيفةٌ وهي أنه لما قال: مَا أَلَتْنَاهُمْ ونفي النقصان يصدق بحصول المساوىء، فقال: ليس عدم النقصان باقتصار على المساوىء؛ بل بالزيادة والإمداد[٦].

قوله: «يَتَنَازَعُونَ» في موضع نصب على الحال من مفعول: «أَمْدَدْنَاهُمْ»[٧] ويجوز أن يكون مستأنفاً.

وتقدم الخلاف في قوله: «لاَ لَغْوٌ فِيهَا» في البقرة[٨]. والجملة في موضع نصب صفة لكأسٍ. وقوله: فِيهَا أي في شَرَابِهَا. وقيل: في الجَنَّة. ومعنى يتنازعون أي يَتَعَاطَوْن. ويحتمل أن يقال: التنازع التجاذب ويكون تجاذبهم تجاذب مُلاَعَبَةٍ لا تَجَاذُبَ مُنَازَعَة. وفيه نوع لَذَّةٍ، قال الشاعر:

---

(١) كذا في (ب) أيضاً وفي الرازي: الأمَان. (٢) وانظر تفسير الإمام الفخر الرازي ٢٨/ ٢٥٢.

(٣) وانظر الرازي المرجع السابق.

(٤) في (ب) أعلق والصحيح «أوْبَق» كما في الرَّازِيِّ والكشاف وكما يقتضيه المعنى. وعبارة الكشاف: «أي مَرْهُون كأن نفس العبد رهن عند الله بالعمل الصالح الذي هو مطالب به كما يرهن الرجل عبده بدَيْنٍ عليه، فإن عمل صالحاً فكّها وخلّصها وإلاّ أوْبَقَهَا». وانظر الكشاف ٤/ ٢٤.

(٥) في الرازي: مع عامله. وانظر الرازي ٢٨/ ٢٥٢ و ٢٥٣.

(٦) السابق أيضاً. (٧) وهو قول أَبِي البَقَاءِ في التِّبْيَان ١١٨٤.

(٨) عند قوله: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ من الآية ٢٢٥.

٤٥٣٤ ـ نَازَعْتُهُ طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وَقَدْ صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقْعَةُ السَّارِي[(١)]

وقوله: «لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ» قال قتادة: اللَّغْو: الباطل. وقال مقاتل بن حيّان: لا فضولَ فيها. وقال سعيد بن المسيب: لاَ رَفَث فيها. وقال ابن زَيْد: لا سبابَ ولا تخاصُمَ فيها[(٢)].

وقال القُتَيْبِيُّ: لا يذهب عقولهم فيَلْغُوا أو يَرْفُثُوا «وَلاَ تَأْثِيمٌ» أي لا يكون منهم ما يُؤْثِمُهُمْ[(٣)]. قال ابن الخطيب: ويحتمل أن يكون المراد من التأثيم السُّكْر[(٤)]. وقال الزجاج: لا يجري منهم ما يُلْغَى ولا ما فيه إثم كما يجري في الدنيا لشَرَبَةِ الخَمْر[(٥)].

وقيل: لا يأثمون في شُرْبِهَا.

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾ أي يطوف عليهم بالخِدمة غلمانٌ لهم «كَأَنَّهُمْ» في الحسن والبياض والصَّفاء.

قوله: «كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ» صفة ثانية «لِغِلْمَانٍ». والمعنى يطوف عليهم بالكُؤُوس غلمانٌ لهم. وهم الوِلْدَان المُخَلَّدُون «كأنهم لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ» أي مخزون مَصُونٌ لم تَمَسَّهُ الأَيْدِي.

قال سعيدُ بن جُبَيْر: يعني في الصِّدق، وقال عبد الله بن عمر: ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألفُ غلام وكل غلام على عمل ما عليه صاحبه. وروي عن الحسن أنه لما تلا هذه الآية قال: قَالُوا يا رسول الله: الخادم كاللؤلؤ المكنون فكيف المخْدُوم؟ قال: فَضْلُ المَخْدُومِ عَلَى الْخَادِمِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ البدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَواكِبِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يسألُ بعضُهم بعضاً في الجنة. قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ: يتذاكرُون ما كانوا فيه من التَّعَب والخوف في الدنيا؛ فقوله: «يَتَسَاءَلُونَ» جملة حالية من «بَعْضُهُمْ».

---

(١) من البسيط وهو للأخطل. والساري هو السائر بالليل ويروى وَقْفة الساري. وانظر الديوان ٧٩ و٨٠. وشاهدهُ: أن «نازعته» بمعنى جاذبتُهُ بلذة وملاعبة. وانظر البحر ٨/ ١٤٩، والقرطبي ١٧/ ٦٨، وحجة ابن خالويه ٣٣٤ والشعر والشعراء ٤٨٣.

(٢) وانظر هذه الأقوال في البغوي والخازن ٦/ ٢٥١.

(٣) غريب القرآن له ٤٢٥.

(٤) الرازي ٢٨/ ٢٥٤.

(٥) معاني القرآن له ٥/ ٦٣.

قوله: «قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ» أي خائفين. والمعنى أنهم يسألون عن سبب ما وصلوا إليه فيقولون: خَشْيَةَ اللَّهِ أي كنا نخاف الله «فَمَنَّ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ». قال الكلبي: عذاب النار. وقال الحسن: (ـ رضي الله عنه ـ)[١]: السموم اسمٌ من أسماء جهنم. والسَّمُوم في الأصل الرِّيحُ الحَارَّة التي تَتَخَلَّل المَسَامَّ، والجمع سَمَائِمُ. وسُمَّ يَوْمُنَا أي اشتدَ حَرُّهُ[٢]. وقال ثعلب: السموم شدة الحر أو شدة البرد في النَّهار[٣] وقال أبو عبيدة: السموم بالنهار وقد يكون بالليل والحَرُور بالليل وقد يكون بالنهار وقد يستعمل السموم في لَفْحِ البَرد وهو في لفح الحر والشمس أكثر[٤]. وقد تقدم شيء من ذلك في سُورة «فاطر».

وقرأ العامة: وَوَقَانَا بالتخفيف، وأبو حَيْوَة بالتَّشديد[٥] وقد تقدم. قوله: «إِنَّا كُنَّا قَبْلُ» أي في الدنيا «نَدْعُوهُ» نُخْلِصُ له العبادة.

وقوله: «إِنَّهُ هُو البَرُّ» قرأ نافعٌ والكسائيُّ بفتح الهمزة على التعليل أي لأنَّه والباقون بالكسر على الاستئناف[٦] الذي فيه معنى العلة فيتحد معنى القراءتين.

وقوله: «هُوَ البَرُّ». قال ابن عباس: اللطيف. وقال الضحاك: الصادق فيما وعد الرحيم بعباده، (اللَّهُمَّ ارْحَمْنَا)[٧].

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ

---

(١) ما بين الأقواس سقط من (ب). وانظر هذه الأقوال في تفاسير البغوي والخازن ٦/ ٢٥١ والقرطبي ١٧/ ٧٠.

(٢) وانظر القرطبي المرجع السابق.

(٣) ينظر فصيح الإمام ثعلب واللسان «سَ مَ مَ» ٢١٠٣.

(٤) كذا نسبه أيضاً القرطبي في الجامع ١٧/ ٧٠ وصاحب اللسان «سَمَمَ» لأبي عبيدة ولم أجده في مجازه عند التحدث عن تلك الآية. وانظر اللسان «سَمَمَ» ٢١٠٣.

(٥) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ١٥٠ وهي شاذة.

(٦) من القراءة السبعية المتواترة وانظر الكشف ٢/ ٢٩١.

(٧) هذه الجملة الدعائية زيادة من أ.

ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ لما بين تعالى أن في الوجود قوماً يخافون الله، ويشفقون في أهلهم والنبي ـ عبليه الصلاة والسلام ـ مأمور بتذكير من يخاف الله تعالى لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] فوجب التذكير فلذلك ذَكَرَهُ بالفاء[١].

قوله: «بِنِعْمَةِ رَبِّكَ» فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مقسم به متوسط بين اسم «ما» وخبرها. ويكون الجواب حينئذ محذوفاً لدلالة هذا المذكور عليه والتقدير: «وَنِعْمَةَ رَبِّكَ مَا أَنْتَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ»[٢].

الثاني: أن الباء في موضع نصب على الحال، والعامل فيها: «بِكَاهِنٍ أَوْ مَجْنُون» والتقدير: ما أنت كاهناً ولا مجنوناً ملتبساً بنعمة ربك. قاله أبو البقاء[٣]. وعلى هذا فهي حالٌ لازمة؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يفارق هَذِهِ الحَالَ.

الثالث: أن الباء متعلقة بما دل عليه الكلام وهو اعتراض بين اسم «ما» وخبرها والتقدير: ما أنت في حال أذْكَارِك بنعمةِ ربك بكاهنٍ ولا مجنون. قاله الحوفيّ[٤]. قال شهاب الدين: ويظهر وجه رابع وهو أن تكون الباء سببية وتتعلق حينئذ بمضمون الجملة المنفية. وهذا هو مقصود الآية الكريمة. والمعنى انتفى عنك الكَهَانَةُ والجنونُ بسبب نعمةِ الله عليك كما تقول: مَا أَنْتَ بمُعْسِرٍ بحمْدِ اللَّهِ وَغِنَائِهِ[٥].

فصل

المعنى «فَذَكِّرْ» يا محمد أهل مكة بالْقُرْآنِ «فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ» أي برحمته وعصمته «بِكَاهِنٍ» مبتدع القول ومخبر بما في غد من غير وحي «وَلاَ مَجْنُونٍ» نزلت في الذين اقتسموا عِقَابَ[٦] مكة يرمون رسول الله ـ ﷺ ـ بالكَهانةِ والسِّحر والجُنُون والشِّعر[٧].

---

(١) بالمعنى من كلام الرّازيّ ٢٨/ ٢٥٥.

(٢) وهو قول أبي حيان في البحر ٨/ ١٥١ وفي البحر: ما أنت كاهن.

(٣) التبيان ١١٨٤.

(٤) نقله عنه أستاذنا أبو حيان في بحره، المرجع السابق.

(٥) ذكره في الدر المصون له مخطوط بمكتبة الإسكندرية لوحة رقم ١١٣.

(٦) في البغوي: عقبات وفي الخازن: أَعْقَاب. والعِقَاب واحدتها عَقَبَة طريقٌ في الجبل وعِقَاب التي هي أَعْلَى جمع أيضاً لعقبة وعَقَبَات جمع أيضاً لَهَا، فلا تعارض بين روايات الكتب. وانظر اللسان «عقب» ٣٠٢٨.

(٧) وانظر البغوي والخازن ٦/ ٢٥٢.

قوله: «أَمْ يَقُولُونَ» قال الثعلبي: قال الخليل: كل ما في سورة الطور من «أم» فاسْتِفْهَامٌ وليس بِعَطْفٍ[(١)].

وقال أبو البقاء: «أم» في هذه الآيات منقطعة[(٢)]. وتقدم الخلاف في المنقطعة هل تقدر بِبَلْ وحدَها أو بِبَلْ والهمزة أو بالهمزة وحدها. والصحيحُ الثاني.

وقال مجاهد في قوله: «إنْ تَأمُرهُمْ» تقديره بَلْ تَأمُرُهُمْ. وقرأ: «بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ» يدل: أم هُمْ قَوْمٌ.

قوله: «نَتَرَبَّصُ» في موضع رفع صفة لـ «شَاعِرٌ» والعامة على «نَتَرَبَّص» بإسناد الفعل لجماعة المتكلمين «رَيْبَ» بالنصب.

وزيد بن علي: يُتَرَبَّصُ ـ بالياء من تحت ـ على البناء للمفعول «رَيْبُ» بالرفع[(٣)].

و «رَيْبُ المَنُونِ»: حَوَادِثُ الدَّهر، وتَقَلُّبَات الزَّمان؛ لأنها لا تدوم على حال كالريب وهو الشك فإنه لا يبقى بل هو متزلزل. قال الشاعر:

٤٥٣٥ ـ تَرَبَّصْ بِهَا رَيْبَ الْمَنُونِ لَعَلَّهَا تُطَلَّقُ يَوماً أَوْ يَمُوتُ خَلِيلُهَا[(٤)]

وقال أبو ذُؤَيْب:

٤٥٣٦ ـ أَمِنَ الْمَنُونَ وَرَيْبِهِ تَتَوَجَّعُ وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ[(٥)]

والمنون في الأصل الدهر. وقال الراغب: المَنُونُ: المنيّة؛ لأنها تَنْقُصُ العَدَدَ، وتَقْطَعُ الْمَدَدَ، وجَعَلَ من ذلك قوله: «أجر غير ممنون»[(٦)] أي غير منقطع[(٧)]. وقال الزمخشري: وهو في الأصل: فعول من منه إذا قطعه لأن الموت قطوع، ولذلك سميت شعوب[(٨)]. و «رَيْبَ» وريبة مفعول به أي ننتظر به حوادث الدهر أو المنية.

فصل

المعنى: بل يقولون يعني هؤلاء المقتسمين الخَرَّاصين شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ به رَيْبَ المنون

---

(١) نقله في كتابه أبو حيان في البحر ٨/ ١٥١ و١٥٢.

(٢) التبيان ١١٨٤.

(٣) قراءة شاذة ذكرها صاحب البحر ٨/ ١٥١ والكشاف ٤/ ٢٥.

(٤) من الطويل وجيء به على أن «ريب المنون» معناه حوادث الدهر كما أوضح أعلى. وانظر القرطبي ١٧/ ٧٢ وفتح القدير ٥/ ٩٩ وروح المعاني ١٧/ ٣٦ ومجمع البيان ٩/ ٢٥٣ وقد روي عَجزهُ: سَيَهلِك عَنها بَعْلُهَا أو سَيَجْنَحُ.

(٥) من الكامل لأبي ذؤيبٍ، وشاهده كالبيت السابق. وانظر القرطبي ١٧/ ٧٢ والبحر ٨/ ١٥١ والكشاف ٤/ ٢٥ وشرح شواهده ٥/ ٤٤٢.

(٦) الآية ٣ من القلم، و٢٥ من الانشقاق، و٦ من التين، و٨ من فصّلت.

(٧) وانظر المفردات للراغب ٤٧٤.

(٨) الكشاف ٤/ ٢٥.

حوادث الدهر وصروفه وذلك أن العرب كانت تحترز عن إيذاء الشعراء، فإن الشعر كان عندهم يحفظ ويدون فقالوا: لا نعارضه في الحال مخافة أن يغلبنا بقوة شِعْره وإنما نصبر وَنَترَبَّصُ موتَهُ ويَهْلِك كما هلك من قبله من الشعراء ويتفرق أصحابه وإنّ أباه مات شاباً ونحن نرجو أن يكون موته كموت أبيه. والمنون يكون بمعنى الدهر فيكون بمعنى الموت سُمِّيَا بذلك لأنَّهما يقطعان الأجل. أو يقال: إنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يقول: إن الحَقَّ دين الله، وإنَّ الشرع الذي أتيت به يبقى أبد الدهر، وكتابي يُمْلَى إلى قيام الساعة فقالوا: ليس كذلك إنما هو شاعر والذي يذكره شعر ولا ناصر له وسيصيبه من بعض آلهتنا الهَلاَكَ فنتربص به ذلك. وَرَيْبُ المَنُون: هو اسم للموت فَعُولٌ من المَنِّ، وهو القطع.

ويحتمل وجهاً آخر وهو أن يكونَ المراد أنه إذا كان شاعراً فصروف الزمان ربما تضعف ذِهْنَهُ وتُورِثُ وَهَنَهُ فيتبين لكل أحد فساد أمره وكساد شعره.

قوله: «قُلْ تَرَبَّصُوا» أي انتظروا بي الموت.

فإن قيل: هذا أمر للنبي ـ ﷺ[١] ـ ولفظ الأمر يوجب المأمور به أو يُبِيحُه ويجوزه وتربصتم[٢] كان حراماً.

فالجواب: ليس ذلك بأمر وإنما هو تهديد أي تربصوا فإني متربصٌ الهلاك بكم كقول الغَضْبَانِ لعبده: افْعَلْ مَا شِئْتَ فإني لَسْتُ عَنْكَ بغافلٍ.

فإن قيل: لو كان كذلك لقال: تَرَبَّصوا أو لا تَتَرَبَّصُوا كما قال: «اصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا».

فالجواب: ليس كذلك، لأن ذلك يفيد عدم الخوف أكثر[٣].

قوله: «فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ» أي أتربصُ هَلاَكَكُمْ، وقد أهلكوا يوم بدر وغيره من الأيَّام. قال ابن الخطيب: ويحتمل أن يكون معناه إذا قلنا: (إن)[٤] ريب المنون صروفُ الدهر فمعناه إنكار كَوْن صروف الدهر مؤثرة فكأنه يقول: أَنَا مِنَ المتربِّصين حتى أُبْصِرَ ماذا يأتي به الذي تجعلونه مهلكاً وماذا يُصِيبُنِي منه.

قوله: «أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُمْ» عقولهم «بهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ» والإشارة بقوله: «بهَذَا» إلى ما ظهر منهم عقلاً ونقلاً. وهو عبادة الأوثان وقولهم[٥] الهَذَيَان. وقيل: إشارة إلى قولهم: كَاهنٌ وشاعرٌ ومجنونٌ. وقيل إشارة إلى التربص وذلك أن الأشياء إما أن

---

(١) في ب ـ عليه الصلاة والسلام ـ. (٢) في ب وهو الأقرب تربصهم.

(٣) وانظر المعني أعلى في تفسير البغوي والخازن ٦/ ٢٥٢ وهذان القِيلاَن وجوابُهما في تفسير الرازي ٢٨/ ٢٥٥ و٢٥٦.

(٤) سقط من ب. (٥) في ب وقوله على الرسول.

تَثْبُتَ بعقلٍ أو نقلٍ فقال: هل ورد أمرٌ سَمْعِيّ أم عقولهم[١] تأمرهم بما كانوا يقولون أم هم قوم طاغون مُفْتَرُونَ ويَقُولُونَ ما لا دليل عليه سمعاً ولا مقتضى له عقلاً؟ والطُّغْيَانُ مُجَاوَزَةُ الحَدِّ في العِصْيَانِ وكذلك كل شيء مكروهٌ ظاهرٌ، قال تعالى: ﴿لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١].

واعلم أن قوله: «أَمْ تَأْمُرُهُمْ» متصل تقديره: أنزل عليهم ذكر أم تأمرهم أحلامهم بهذا. وفي هذه الآية إشارة إلى أن كل ما لا يكون على وَفْق العقل لا ينبغي أن يقال؛ وإنما ينبغي أن يقال ما يجب قولهُ عقلاً.

والأحلام جمع حِلم وهو العقل فهما من باب واحد من حيث المعنى لأن العقل يضبط المرء فيكون كالبعير المَعْقُول لا يتحرك عن مكانه والحِلْم من الاحتلام، وهو أيضاً سبب وقار المرء وثباته لأن الحُلم في أصل اللغة هو ما يراه النائم فينزل ويلزمه الغسل الذي هو سبب البلوغ وعنده يصير الإنسان مكلّفاً، فالله تعالى من لطيفِ حِكمته قَرَن الشهوة بالعقل وعند ظهور الشهوة يكمل العقل ويكلف صاحبه فأشار تعالى إلى العقل بالإشارة إلى ما يقارنه وهو الحِلْم ليعلم أنه يريد به كمال العقل[٢].

قوله: «أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ» أي يخلق القرآن من تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، والتَّقَوُّلُ تكلّف القول ولا يستعمل إلا في الكذب وهذا أيضاً متصل بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ تقديره: كاهن أم يقولون تقوله بالمعنى ليس الأمر كما زَعَمُوا بل لا يؤمنون بالقرآن استكباراً.

ثم ألزمهم الحُجَّة وأبطل جميع الأقسام فقال: «فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ» أي القُرْآنِ ونظمه «إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ» أنَّ محمداً تقوَّلهُ من قِبَلِ نفسه، ولما امتنع ذلك كَذَّبوا في الكُلّ.

قوله: «فَلْيأْتُوا» الفاء للتعقيب أي إذا كان كذلك فيجب عليهم أن يأتوا بمثل ما أتى بهِ لِيَصحَّ[٣] كلامُهُم ويبطل كلامه. قال بعض العلماء: وهذا أمر تعجيز[٤] قال ابن الخطيب: والظاهر أن الأمر ههنا على حقيقته لأنه لم يقل: إيتوا مطلقاً بل قال: إيتوا إن كنتم صادقين فهو أمر معلق على شرط إذا وجد ذلك الشرط يَجِبُ الإتيان به وأمر التعجيز كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وليس هذا بحثاً يورث خللاً في كلامهم[٥].

---

(١) في ب عقليّ.
(٢) وانظر في هذا كله تفسير الرازي ٢٨/٢٥٦ و٢٥٧.
(٣) كذا في النسختين وفي الرازي: ليصحح أي الآتون به. وقد نقل هذا الرأيَ في معنى الفاء فخرُ الدين الرازي في تفسيره السابق.
(٤) فيراد به المَجَازُ.
(٥) من اللطائف التي تكثر في تفسير الإمام الرازي والتي تدل على تَمَيُّز كِتَابِهِ دُون كُتُب التَّفَاسِيرِ الأخرى باللَّطَائِفِ وإعمال العقل. وانظر المرجع السابق.

قوله: «بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ» العامة على تنوين «حَدِيثٍ» وَوَصْفِهِ بـ «مِثْلِهِ». والجَحْدَرِيُّ وأبو السَّمَّال «بحَدِيثِ مِثْلِهِ»[١] بإضافة حديث إلى «المِثْل» على حذف موصوف أي بحديثِ رجلٍ مِثْلِهِ من جِنسِهِ.

فصل

قالت المعتزلة: الحديث مُحْدَث، والقرآن سماه حديثاً فيكون مُحْدَثاً.

وأجيبوا: بأن الحديث اسمٌ مشترك يقال للمُحْدَث[٢] والمنقول وهذا يصح أن يقال: هذا حديث قديم أي متقادم العَهْد، لا بمعنى سبب الأزلية وذلك لاَ نِزَاع فِيهِ.

فإن قيل: الصّفة تتبع الموصوف في التعريف والتنكير والموصوف هنا: «حَدِيث» وهو مُنَكَّر، و «مِثْلِهِ» مضاف إلى «القرآن» والمضاف إلى القرآن مُعَرَّف فكيف هذا؟

فالجواب: أن «مِثْلاً» و «غَيْراً» لا يتعرَّفان بالإضافة[٣]، وكذلك كل ما هو مثله كشِبْهِ، وذلك أن «غَيْراً ومِثْلاً» وأمثالهما في غاية التنكير؛ لأنك إذا قلت: «مِثْلُ زَيْدٍ» يتناول كل شيء، فإن كل شيء مثل زيد في شيء[٤] فالحِمار مثله في الجسم والحجم والإمكان والنباتُ مثله في النُّشُوء والنَّمَاء والذّبُول والفَنَاء، والحَيَوَان مثله في الحركة والإدراك وغيرها من الأوصاف. وأما «غَيْرُ» فهو عند الإضافة ينكّر وعند قطع الإضافة ربَّما يَتَعرَّف[٥]؛ فإنك إذا قلت: غَيْر زيدٍ صار في غاية الإبهام، فإنه يتناول أموراً لا حصر لها، وأما إذا قطعتَ «غير» عن الإضافة فربَّما يكون الغَيْرُ والمُغَايَرَةُ من بابٍ واحد وكذلك التَّغيُّر فتجعل الغير كأسماء الجنس وتَجْعَلُهُ مبتدأً أو تريد به معنى معيَّناً.

قوله: «أَمْ خُلِقُوا» لا خلاف أن «أم» هنا ليست بمعنى بل لكن أكثر المفسرين على

---

(١) وهي قراءة شاذة ذكرها صاحب البحر المحيط بنسبةٍ ٧/ ١٥٢ بينما نَسَب الإمام القرطبي القراءة إلى الجَحْدَري في ١٧/ ٧٣.

(٢) في ب للحدث وهو تحريف. (٣) لشدة إبهامها كما سيأتي.

(٤) عبارة الرازي: فإنك إذا قلت: «ما رأيت شيئاً مثلَ زيدٍ» يتناول كل شيء فإن كل شيء مثل زيد في كونه شيئاً.

(٥) «غير» اسم ملازم للإضافة في المعنى، ويجوز أن يقطع عنها لفظاً إن فهم المعنى وتقدمت عليها كلمة «ليس» وتستعمل غير المضافة لفظاً على وجهين:
أحدهما: وهو الأصل: أن تكون صفة للنكرة نحو «نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ» أو لمعرفة قريبةٍ منها نحو: «صِرَاطِ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»؛ لأن المعرف الجنسي قريبٌ من النكرة ولأن «غيراً» إذا وقَعت بين ضِدَّين ضعف إبهامها حتى زعم ابنُ السَّراج أنها حينئذ تتعرف وترده الآية الأولى.
الثاني: أن تكونَ استثناءً فتعرب إعراب الاسم التالي إلا في ذلك الكلام. وانظر المغني ١٥٨ و١٥٧ والأشموني ٢/ ٢٦٦ و٢٦٧.

أن المراد ما وقع في صدر الكلام من الاستفهام بالهمزة كأنه يقول: «أَخُلِقُوا مِنْ غير شيء»[١].

قال ابن الخطيب: ويحتمل أن يقال: هو على أصل الوضع للاستفهام الذي يقع في أثناء الكلام وتقديره: أَم خُلِقُوا من غير شيء أم هم الخالقون؟[٢]

قوله: «مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ» يجوز أن تكون «من» لابْتِدَاء الغاية على معنى: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شيء حَيٍّ كالجَمَادِ فهم لا يُؤْمَرُون ولا يُنْهَوْنَ كما الجَمَادَات، وقيل: هي للسَّبَبِيَّة على معنى من غير عِلَّةٍ[٣]، ولاَ لِغَايَةٍ[٤] ثوابٍ ولا عقابٍ.

فصل

وجه تعلق الآية بما قبلها أنهم لما كذبوا النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونسبوه إلى الكَهَانَةِ والشِّعْر والجُنُونِ وبرأه الله من ذلك ذكر الدليل على صِدْقِهِ إبطالاً لتكذيبهم وبدأ بأنفسهم فكأنه يقول: كيف تكذبونَهُ[٥] وفي أنفسكم دليل صدقه، لأن قوله كانَ في ثلاثة أشياء، في التوحيدِ، والحَشْرِ، والرسالة ففي أنفسهم ما يعلم صدقه وهو أنهم خلقوا وذلك دليل التوحيد لما تقدم أنَّ:

فِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ تَـدُلُّ عَـلَـى أَنَّـهُ الـوَاحِـدُ؟

وأما الحشر فلأن الخلق الأول دليل على جواز الخلق الثاني[٦].

فصل

قال المفسرون: معنى الآية: أم خلقوا من غير شَيْءٍ فوُجِدُوا بلا خالق وذلك مما لا يجوز أن يكون «أَمْ هُمُ الْخَالِقُون» لأنفسهم وذلك في البُطْلاَن أشدُّ؛ لأن ما لا وجودَ له كيف يخلق فإذا بَطَلَ الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقاً فليؤمنوا به. قال هذا المعنى أبو سليمان الخَطَّابِيُّ[٧]. وقال الزجاج: معناه أَخُلِقُوا باطلاً لا يُحَاسَبُون ولا يُؤْمِنُون[٨] وقال ابْنُ كَيْسَانَ: أخلقوا عبثاً وتركوا سُدًى لا يُؤْمَرُون ولا يُنهَوْن كقول القائل

---

(١) أو هَلْ. قاله الرازي في تفسيره ٢٨/ ٢٥٩، والقرطبي في الجامع ١٧/ ٧٤.

(٢) الرازي السابق. أقول: ويقصد «بأم» الثانيةَ لا الأُولَى.

(٣) ذكر هذين الوجهين أبو حيان في البحر ٨/ ١٥٢.

(٤) في ب ولا لِقاء ثواب ولا عقابٍ.

(٥) في ب والرازي يكذبونه بياء الغيبة.

(٦) وانظر تفسير الإمام ٢٨/ ٢٥٩.

(٧) انظر هذا القول في معالم التنزيل للبغوي ٦/ ٢٥٢. وأبو سليمان الخَطَّابِيُّ هو: حَمَد بن محمد بن إبراهيم أبو سليمان الخطّابي كان حُجَّة صدوقاً، له من التصانيف غريبُ الحديث، شرحُ البخاري. مات سنة ٣٨٨ هـ انظر بغية الوعاة ١/ ٥٤٧.

(٨) الصحيح أن الزجاج قال بمعنى آخر خلاف هذا المعنى وهذا المعنى المذكور هو رأي نَقَلَهُ في كتاب=

فعلت كذا وكذا (وقوله): «مِنْ غير شيء» لغير شيء «أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ» لأنفسهم فلا يجب عليهم لله أمر[١].

وقيل: معناه أخلقوا من غير أبٍ وأُمٍّ[٢].

قال ابن الخطيب: ويحتمل أن يقال: أم خلقوا من غير شيء أي أَلَمْ يُخْلَقُوا من ترابٍ أو من ماء لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] ويحتمل أن يقال: الإستفهام ليس بنفي بل هو بمعنى الإثبات كقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ و ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ و ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٥٩ و ٦٤ و ٧٢] كل ذلك في الأول منفي وفي الثاني مثبت كذلك ههنا قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي إنَّ الصادقَ هو الثاني وهذا حينئذ كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

فإن قيل: كيف يكون ذلك الإثبات والآدمي خلق من تراب؟

نقول: والتراب خلق من غير شيء، فالإنسان إذا نظرت إلى خلقه ونظرت إلى ابتداء أمره تجده مخلوقاً من غير شيء.

أو نقول: المراد أم خلقوا من غير شيء مذكوراً أو متغيراً وهو الماء المَهِينُ؟[٣]

قوله: «أَمْ خَلَقُوا السَّمَواتِ وَالأَرْضَ بَلْ لاَ يُوقِنُونَ» قال الزمخشري: «لا يوقنون بأنهم خُلِقُوا»[٤] وهو في معنى قوله: «وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» أي هم معترفون بأنه خلق الله وليس خلق أنفسهم.

وقيل: بل لا يوقنون بأن الله خالقٌ واحدٌ أي ليس الأمر كذلك وما خلقوا وإنما لا يوقنون بوَحْدَةِ الله. وقيل المعنى لا يوقنون أصلاً من غير ذكر مفعول كَقَوْلِكَ: فُلاَنٌ لَيْسَ بمُؤْمِنٍ وفُلاَنٌ كَافِرٌ[٥] لبيان مذهبه وإن لم يَنْوِ مفعولاً. والمعنى أنهم ما خلقوا السموات والأرض ولا يوقنون بهذه الدلائل، بل لا يوقنون أصلاً وإن جئتهم بكل آية بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾. وهذه الآية دليل الآفاق وقوله من قَبْلُ[٦] دَلِيلُ الأنفس[٧].

= لغيره قال: «معناه بل أخلقوا من غير شيءٍ» وفي المعاني له: «لا يؤمرون» بدل يؤمنون. وانظر المعاني ٥/ ٦٥.

(١) وانظر هذه الأقوال والمعانيَ مجتمعة في البغوي ٦/ ٢٥٢، وانظر أيضاً القرطبي ١٧/ ٧٤.

(٢) السابق والرازي ٢٨/ ٢٦٠. (٣) الرازي السابق.

(٤) بالمعنى من الكشاف ٤/ ٢٦ وباللفظ من الرازي السابق.

(٥) في الرازي: ليس بكافر.

(٦) وهو: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ الآية ٣٥ من نفس السورة.

(٧) وانظر الرازي السابق ٢٨/ ٢٦١.

قوله: «أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ» قال عكرمة: يعني النبوة، وقال مقاتل: أبأيديهم مفاتيحُ ربك بالرسالة فيضعونها حيث شاؤوا؟ وقال الكلبي: خَزَائِنُ المَطَر والرِّزق[١]. وقيل: خزائن الرحمة.

قوله: «أَمْ هُمُ المُصَيْطِرُونَ» وهذه تَتِمَّةُ الردِّ عليهم؛ لأنه لما (قَا)[٢] ل: «أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ» أشار على أنهم ليسوا بخزنة الله فعلموا خزائن الله لكن بمجرد[٣] انتفاء كونهم خزنة (لا)[٤] ينتفي العلم لجواز أن يكون مشرفاً على الخَزَنَةِ[٥]، فإن العلم بالخَزَائِنِ عند الخازن والكاتب بالخِزَانَة[٦] فقال: لستم بخَزَنَةٍ ولا بِكَتَبة الخزانة المسلطين عليها.

قال ابن الخطيب: ولا يبعد تفسير: «المُسَيْطِرين» بكَتَبَةِ الخزائن؛ لأن التركيب يدل على السَّطْر وهو يستعمل في الكِتَابة[٧].

قال أهل اللغة: المُسَيْطِرُ الغالب القاهر من سَيْطَرَ عليه إذا راقبه وَحَفِظَهُ أو قَهَرَهُ[٨]. قال المفسرون: المسيطرون المسلطون الجَبَّارُون. وقال عطاء: أربابٌ قاهرونَ، فلا يكونوا تحت أمرٍ أو نهي يفعلون ما شَاؤُوا. ويجوز بالسين والصاد جميعاً.

وقرأ العامة: المُصَيْطِرُون بصاد خالصة من غير إشْمَامِها زاياً لأجل الطاء كما تقدم في: «**صراط**»[٩] [الفاتحة: ٧].

وقرأ هشامٌ وقُنْبُلٌ من غير خلاف عنهما بالسين الخالصة التي هي الأصل وحفصٌ بخلافٍ عنه[١٠].

وقرأ خلاَّدٌ[١١] بصاد مشمَّةٍ زاياً من غير خلاف[١٢] عنه. وقرأ خلادٌ[١٣] بالوجهين أعني كخَلَفٍ والعامَّةِ. وتوجيه[١٤] هذه القراءات واضحٌ مما تقدم في أول الفاتحة، ولم

---

(١) ذكر تلك الأقوال العلماء البغوي والخازن في تفسيريهما ٦/ ٢٥٣ والقرطبي في الجامع ٢٧/ ٧٤ و٧٥.
(٢) ذلك المقطع سقط من نسخة أ.
(٣) في الرازي: وليس بِمجرَّدِ.
(٤) زيادة من النسختين على الرازي.
(٥) وفيه الخِزَانَة لا الخَزَنَة.
(٦) وفيه: في الخزانة.
(٧) وانظر الرازي ٢٨/ ٢٦١.
(٨) اللسان «سطر» ٢٠٠٧.
(٩) وهذه القراءة للعامة ليعمل اللسان عملاً واحداً في الإطباق والاسْتِعْلاء.
(١٠) وانظر الكشف ٢/ ٢٩٢ والإتحاف ١٩٩ وانظر أيضاً السبعة ٦١٣.
(١١) هو هكذا في الإتحاف وفي البحر: وأَشَمَّ خَلَفٌ عن حمزةَ وخلاَّد عنه بخلاف عنه الزّاي. وفي الكشف لمَكّيٍّ: وقرأ حمزة بين الصاد والزاي على اللّغة.
(١٢) في الإتحاف المرجع السابق، قال: وأثبتَ له الخلاف في التيسير وتبعه الشاطبيّ.
(١٣) وفي الإتحاف أيضاً: والصاد الخالصة هي رواية الحَلْوَانيّ والبزّار عن خلاّدٍ. وبه قرأ الباقون.
(١٤) السين على الأصل من سَطَرَ. والصاد لأجل الطاء حيث يعمل اللسان عملاً واحداً في الإطباق والاسْتِعْلاء. وقراءة الإشمام بين الصّاد والزاي لغةٌ. وانظر الكشف ٢/ ٢٩٢، وحجة ابن خالويه ٦٢ و٣٢٥.

يأتِ على «مُفَيْعِلٍ» إلا خمسة ألفاظ، أربعةٌ صفةٌ اسمُ فاعل نحن مُهَيْمِن ومُبَيْقِر[١]، ومُسَيْطِرِ ومُبَيْطر[٢] وواحد اسم جبل ـ وقيل: اسم أرضٍ لبني فِزارة ـ وهو المُجَيْمِر[٣] قال امرؤ القيس:

٤٥٣٧ ـ كَأَنَّ ذُرَى رَأْسِ المُجَيْمِرِ غُدْوَةً ... مِنَ السَّيْلِ والغُثَّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ[٤]

قوله: «أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ» أي مِرْقَاةٌ ومِصْعَد إلى السماء «يَسْتَمِعُونَ فِيهِ». وهذا أيضاً تتميم الدليل، فإن مَنْ لا يكون خازناً ولا كاتباً قد يطلع على الأمر بالسماع من الخازن أو الكاتب فقال: أنتم لستم بخزنة ولا كَتَبَةٍ ولا اجتمعتم بهم، لأنهم ملائكة ولا صعود لكم.

قوله: «يَسْتَمِعُونَ فِيهِ» صفة «لِسُلَّم» و «فِيهِ» على بابه من الظرفية. وقيل: هي بمعنى «عَلَى». قاله الواحدي[٥]، كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]. ولا حاجة إلَيْهِ[٦].

وقدَّره الزمخشري متعلقاً بحال محذوفة تقديرها: صَاعِدِينَ فيه. ومفعول «يَسْتَمِعُونَ» محذوف فقدره الزمخشري يستمعون ما يوحى إلى الملائكة من عِلْم الغيب[٧]. وقدره غيره[٨] يستمعون الخبر بصحة ما يدعون من أنه شاعر، وأنَّ لِلَّهِ شركاءَ.

والظاهر أنه لا يقدر له مفعول بل المعنى يوقعون الاستماع أي هل لهم قوة الاستماع من السماء حتى يعلموا أنه ليس[٩] برسول.

قوله: «فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ» إن ادَّعَوْا ذلك «بسلطان مبين» أي حجة وبينة.

فإن قيل كيف قال: «فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ» ولم يقل: فَلْيَأْتُوا كما قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤]؟

---

(١) كذا ذكرها ابن خالويه في الحجة في القراءات السبع ولم أعرف معناها بعد طُولِ بَحْث.

(٢) ذكر ابن منظور في اللسان أنه معالج الدّوابّ. انظر اللسان «بطر» ٣٠١.

(٣) ذكر السيوطي في المزهر عن ابن قتيبةَ عن أبي عبيدَة ثلاثَ كلمات مُهَيْمِن ومُسَيْطِرٍ ومُبَيْطِر. انظر المزهر ٢/ ٩٣، بينما ذكر ابن خَالَوَيْهِ في الحجة الأربعة الأول. انظر الحُجَّة ٣٣٥.

(٤) من الطويل له، والذُّروة أعلى الشيء والمُجَيْمر: أكمة والغُثَاء ما جاء به السيلُ من الحَشيش والشجر والكَلأ والتراب وغير ذلك والجمع الأغثاء. يقول: كأنَّ هذه الأَكَمَة غدوة مما أحاط بها من أغثاء السيل فَلْكةُ مغزلٍ فهو شبه استدارة هذه الأكمة بما أحاط بها من الأغثاء باستدارة فلكة المغزل. وانظر شرح المعلقات السبع للزوزني ٤٧ (معلقة امرىء القيس) واللسان «غزل» العَجُز فقط ٣٢٥٢.

(٥) تفسير الفخر الرازي ٢٨/ ٢٦٢.

(٦) لما فيه من التَّغْيير.

(٧) الكشاف ٤/ ٢٦.

(٨) هو أبو حيان في البحر ٨/ ١٥٢.

(٩) وهو رأي الإمام الرازي في تفسيره ٢٨/ ٢٦٢.

فالجواب: أنه طلب منهم الأهون على تقدير صدقهم ليكون امتناعُه عليهم[١] أدلَّ على بُطْلان قولهم، وقال هناك: فَلْيَأتوا أي اجتمعوا عليه وتعاونوا وأتوا بمثله، فإن ذلك عند الاجتماع أهون وأما الارْتِقَاءُ في السلم بالاجتماع فمتعذِّر، لأنه يرتقي واحدٌ بعد واحد فلا يحصل في الدرجة العليا إلا واحد فقال: فَلْيَأتِ ذَلك الواحد بما سَمِعَهُ. وفيه لطيفة وهي أنه لو طلب منهم ما سمعوه لكان لواحد أن يفتري ويقول: سَمِعْتُ كذا فقال: لاَ بل الواجب أن يأتي بدليل يَدُلُّ عليه[٢].

قوله: «أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ» وهذا إنكار عليهم حين جعلوا لله ما يكرهون كقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩].

«أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً» جعلاً على ما جئتهم به ودعوتهم إليه «فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ» أي أثقلهم ذلك المَغْرَم الذي يسألهم، فيمنعهم ذلك عن الإسلام.

فإن قيل: ما الفائدة في سؤال النبي ـ ﷺ ـ[٣] حيث قال: أَمْ تَسْأَلُهُمْ ولم يقل: أَمْ تُسْأَلُونَ أجراً كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ «أَمْ يُرِيدُون كَيْداً» إلى غير ذلك؟

فالجواب: أنَّ فيه فائدتين:

إحداهما[٤]: تسلية قلب النبي ـ ﷺ ـ لأنهم لما امتنعوا عن الاستماع صَعُبَ على النبي ـ ﷺ ـ فقال له ربه: أَنْتَ أتيتَ بما عليك فلا يَضيقُ صدرُك حيث لم يُؤْمنوا، فأنت غير مُلْزَم، وإنما كنت تُلاَمُ إن كنت طلبت منهم أجراً فهل طلبت ذلك فأَثْقَلْتَهُمْ فلا حَرَجَ عليك إذَنْ.

الثانية: لو قال: أَمْ تُسْأَلُونَ ففي طلب الأجر مطلقاً وليس كذلك لأنهم كانوا مشركين مطالبين بالأجر من رؤسائهم وأما النبي ـ ﷺ ـ[٥] فقال: أنتَ لا تسألهم أجراً فهم لاَ يَتَّبِعُونَك وغيرهُم يسألهم وهم يسألون ويتَّبِعون السائلين هذا غاية الضَّلاَل.

قوله: «أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ» أي علم ما غاب عنهم حتى علموا أن ما يخبرهم من أمر القيامة والبعث باطل. قال قتادة: هذا جواب لقوله: «نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ» يقول: أعندهم الغيب حتى علموا أن محمداً يموت قبلهم فهم يكتبون.

قال ابن الخطيب: وهذا ضعيف لبعد ذكره، أو لأن قوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ متصل به وذلك يمنع اتصال هذا بذاك[٦].

---

(١) كذا في النسختين وفي الرازي: اجتماعهم عليه.

(٢) وانظر الرازي المرجع السابق.

(٣) في ب ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

(٤) في النسختين أحدهما. وهو خطأ نحويّ.

(٥) في ب ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

(٦) وانظر في هذا كله تفسير الإمام ٢٨/ ٢٦٤.

قال القُتَيْبِيّ: أي يحكمون[١] والكِتَاب الْحُكم قال النبي ـ ﷺ ـ للرجلين اللذين تخاصما إليه: أقضي بينكما بكِتَاب الله أي بحُكْمِ الله.

وقال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٢] ـ معناه: أم عِنْدهُمُ اللَّوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويُخْبِرُون الناس به[٣].

والألف واللام في ﴿ٱلْغَيْبُ﴾ لا للْعَهْد ولا لتعريف الجنس بل المراد نوع الغيب، كما تقول: اشْتَرِ اللَّحْمَ تريد بيان الحقيقة لا كلّ لحم ولا لحماً معيناً[٤].

قوله «أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً» أي مكراً بك «فَالَّذِينَ كَفرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ» أي المَخْزِيُّونَ[٥] بِكَيْدِهِمْ، أي إن ضَرَرَ ذلك يعود عليهم ويحيق مكرهم بهم لأنهم مكروا به في دَار الندوة فقُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ[٦].

فصل

وجه التعلق إذا قيل بأن قوله: «أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ» متصل بقوله تعالى: ﴿**نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ**﴾ فالمعنى أنهم لما قالوا: نتربص به ريب المنون قيل لهم: أتعلمون الغيب فتعلمون أنه يموت قبلكم أَمْ تُرِيدُون كيداً فتقولون نقتله فيموت فقيل لهم: إن كنتم تدعون الغيب فأنتم كاذبون وإن كنتم تظنُّون أنكم تقدرون عليه فأنتم غالِطُون فإن الله يَصُونُه ويَنْصُره عليكم.

وإن قيل بأن المراد أنه عليه الصلاة والسلام لا يسألكم عن الهداية مالاً وأنتم لا تعلمون ما جاء به لكونه من الغُيُوبِ ففي المراد بقوله: «أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً» وجهان:

الأول: أن المعنى أم يريدون أي من الشيطان فكأنه تعالى قال: أنتَ لا تَسْألهم أجراً وهم لا يعلمون الغيب فهم محتاجون إليك وأعرضوا فقد اختاروا كَيْدَ الشيطان، وارتَضَوْا بإزاغَتِهِ.

والإرادة بمعنى الاختيار كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ [الشورى: ٢٠] وقوله: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦] وقوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩].

الثاني: أن المراد أم يريدون كيداً، فهو واصل إليهم وهم عن قريب مكيدونَ والمعنى

---

(١) لم أجد نصه هذا في كتابه غريب القرآن عند هذه الآية؛ وإنما نقله عنه البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢٥٣.

(٢) زيادة من أ.

(٣) وانظر البغوي السابق ٦/ ٢٥٣.

(٤) قاله الرازي في مَرْجِعِهِ السَّابق.

(٥) جمع مَخْزِيّ من الخِزْي. وانظر هذا المعنى في البغوي ٦/ ٢٥٣.

(٦) السابق.

أنه لم يبق لهم حجةٌ في الإعراض فهم يريدون نُزول العذاب والله أرسل إليهم رسولاً لا يسألهم أجراً ويَهْدِيهم إلى ما لاَ عِلْم لَهم به ولا كتابَ عندهم وهم معرضون فهم يريدون إذَنْ أن يهلكهم ويكيدهم، لأن الاستدراجَ كيدٌ، والإملاء لازدياد الإثم كذلك ولا يقال: هذا فاسد، لأن الكيد والإساءة لا تطلق على فعل الله تعالى إلا بطريق المقابلة وكذلك المكر فلا يقال: أسَاءَ اللّهُ إلى الكافر ولا اعتدى الله إلا إذا ذكر أولاً منهم[1] شيء من ذلك، ثم يقال بعده مثله لفظاً في حق الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤] ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٦]؛ لأنا نقول: الكيد (ما)[2] يسُوءُ مَنْ نَزَلَ به، وإن حسن ممن وجد منه كقول[3] إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧] من غير مقابلة. ونكر الكيد، إشارةً إلى وقوع العذاب من حيث لا يشعرُون، فكأنه قال: يأتيهم بَغْتة ولا يكون لهم علم بِعظمِهِ[4].

قوله: «فَالَّذِينَ كَفَرُوا» هذا من وقوع الظاهر موقع المضمر تنبيهاً على اتِّصافهم بهذه الصفة القبيحة، والأصل أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَهُم المكيدون، أو حكم على جنس هم نوع منه فيندرجون اندراجاً أوَّلِيًّا لتوغلهم في هذه الصفة[5].

قوله: «أَمْ لَهُمْ إلهٌ غيرُ اللَّهِ» يرزقهم وينصرهم «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يشرِكُونَ».

قال الخليل: ما في هذه السورة من ذكر «أَمْ» كلمةُ استفهام وليس بعطف[6].

فصل

قَالَ أَهْلُ اللُّغَة: «سُبْحَانَ اللَّهِ» اسم علم على التسبيح، و «مَا» في قوله «عَمَّا يُشرِكُونَ» يحتمل أن تكون مصدرية أي عن إشراكهم، ويحتمل أن تكون خبريةً أي عن الذين يشركون. وعلى هذا يحتمل أن يكون عن الولد[7] لأنهم كانوا يقولون: لَهُ البَنَاتُ فقال: «سُبْحَانَ اللَّهِ عن البنات والبنين». ويحتمل أن يكون عن مثل الآلهة أي سبحانه الله عن مِثْل ما يعبدونه[8].

قوله تعالى: **﴿وإنْ يَرَوا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً﴾** «إنْ» هذه شرطية على بابها. وقيل: هي بمعنى «لو»[9]. وليس بِشَيءٍ.

---

(١) كذا في النسختين وفي الرازي: فيهم لا مِنهم.
(٢) سقط من ب.
(٣) في ب لقول.
(٤) وانظر الرازي ٢٨/ ٢٦٦.
(٥) قال بتلك العلتين أبو حيان في البحر ٨/ ١٥٣.
(٦) سبق هذا القول في السورة نفسها.
(٧) في ب عن الواو وهو تحريف من الناسخ.
(٨) قال بهذا الاحتمالات إمامنا الفخر الرازي في تفسيره ٢٨/ ٢٦٧.
(٩) ذكرهما دُون نِسْبَةِ القولِ الثاني لقائله أبو البقاء في التبيان ١١٨٥.

وقوله: «سَحَابٌ» خبر مبتدأ مضمر أي هذا سَحَابٌ، والجملة نَصْبٌ بالقول.

فصل

لما بين فَسَاد أقوالهم وسقوطها أشار إلى أنه لم يبق لهم عُذْرٌ، فإن الآيات والحُجَج قد ظهرت ولم يؤمنوا فبعد ذلك «إنْ يَرَوْا كِسْفاً» أي قطعةً «مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُون سَحَابٌ» أي ينكرون كونه آية. ومعنى الآية لو عذبناهم بسقوط بعض من السماء عليهم لم يَنْتَهُوا عن كفرهم ويقولوا لمعاندتهم: هَذَا سَحَابٌ مَرْكُومٌ أي بعضه على بعض.

قوله: «سَاقِطاً» يحتمل أن يكون مفعولاً ثانياً كقولك: رَأَيْتُ زيداً عَالِماً، وأن يكون حالاً كقولك: ضربته قائماً.

والثاني أولى؛ لأن الرؤية عند التعدي إلى مفعولين في أكثر الأمر تكونُ بمعنى العلم، تقول: رَأَيْتُ هَذَا المَذْهَبَ صَحِيحاً وهذا الوجه ظاهراً وعند التعدي إلى واحد تكون بمعنى «رأي العين» في الأكثر، تقول: رأيت زيداً؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] وقال: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦].

والمراد من الآية رؤية العين[١].

فصل

قولهم: «سَحَابٌ مَرْكومٌ» إشارة إلى أنهم حين يعجزون عن التكذيب ولا يمكنهم أن يعقلوا وقوع شيء على الأرض يَرْجِعون إلى التأويل والتَّخْييل، وقالوا: سَحَابٌ ولم يقولوا: هذا سحاب إشارة إلى وضوح الأمر وظهور العِنَاد فأتوا بما لا شك فيه. وقالوا: «سحاب مركوم» وحذفوا المبتدأ ليبقى للقائل فيه مجال فيقولون عند تكذيب الخلق إيّاهم: قُلْنَا سَحَابٌ مَرْكُومٌ شبهة أو مثلة. وإن مشى الأمر على[٢] عوامِّهم استمروا. وهذه طريق من يخاف من كلام لا يعلم هل يقبل منه أم لا فيجعل كلامه ذَا وَجْهَيْنِ[٣]. فإن رأى القبول صرح بمرادهِ، وإن أنكر عليه أحدهما فَسَّره بالآخر[٤].

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

قوله: «فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمْ» «يومهم» مفعول به لا ظرف. وقرأ أبو حيوة:

---

(١) وانظر الرازي ٢٨/ ٢٦٩ و٢٦٨.

(٢) في ب مع وهو ما وافق الرازي.

(٣) في النسختين «ذو» والصحيح ما أثبته أعلى.

(٤) بالمعنى من الرازي ٢٨/ ٢٦٩.

يَلْقُوا[١] مضارع لَقِيَ ويُضْعِفُ أن يكون المفعول محذوفاً و «يَوْمَهم» ظرف أي يلاقوا أو يلقوا جزاء أعمالهم في يَوْمِهِمْ[٢].

فصل

قوله: «فذرهم» كقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨]، ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [الصافات: ١٧٨] إلى غير ذلك. فقيل: كلها منسوخة بآية القتال. وهو ضعيف. وإنما المراد التهديد كقول السيد لعبده الجاني لمن ينصحه: دَعْهُ فإنه سَيَنَالُ جِنَايَتَهُ[٣].

قوله: «الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ» قرأ ابنُ عامر وعاصم بضم ياء يصعقون مبنياً للمجهول. وباقي السبعة بفتحها مبنياً للفاعل[٤]. وقرأ أبو عبد الرَّحْمَنِ: بضم الياء وكسر العين.

فأما الأولى: فيحتمل أن تكون من صُعِقَ فهو مَصْعُوق مبنياً للمفعول. وهو ثلاثي حكاه الأخفش[٥]، فيكون مثل سُعِدُوا وأن يكون من أَصْعَقَ رُبَاعِيًّا، يقال: أُصْعِقَ فهو مُصْعَقٌ. قاله الفارسي. والمعنى أن غيرَهم أَصْعَقَهُمْ[٦].

وقراءة السلمي[٧] تؤذن أن أَفْعَلَ بمعنى فَعِلَ. ومعنى يصعقون أي يموتون أي حتى يعاينوا الموت.

وقوله: «يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ» يوم بدل من «يَوْمَهُمْ»[٨].

وقيل: ظرف «يُلاَقُوا»[٩].

فإن قيل: يلزم منه أن يكون اليومُ في يوم فيكون اليومُ ظرفَ الْيَوْمِ؟

فالجواب: هو على حدّ قولك: يأتي يَوْمُ قتل[١٠] فلان يَوْمَ تَبين جَرائِمُهُ. قاله ابن الخطيب[١١]. وقوله «وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ» أي لا ينفعهم كيدهم يوم الموت ولا يمنعهم من العذاب مانعٌ.

قوله: «وإنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا» يجوز أن يكون من إتباع الظاهر موقع المضمر وأن لا يكون كما تقدم. والمعنى وإن للذين ظلموا أي كفروا «عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ» أي عذاباً في

---

(١) وهي شاذة. انظر البحر ٨/ ١٥٣ والكَشَّاف ٤/ ٢٦.

(٢) فما لا حذف فيه أولى مِمَّا فيه حَذْف.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٢٧٠.

(٤) قراءة سبعية متواترة ذكرها صاحب الكشف ٢/ ٢٩٢ وصاحب الإتحاف ٤٠١.

(٥) نقله صاحب الكشف السابق قال: وقد حكى الأخفش «صُعِقَ» كسُعِدَ لغة مشهورة فعلى هذا يجوز أن يكون من الثلاثي غير منقول لغةً لا قياس عليها.

(٦) قال بهذا الوجه صاحب الإتحاف ٤٠١.

(٧) وقد ذكرها صاحب البحر ٨/ ١٥٣. وهي شاذة.

(٨) التبيان ١١٨٥.

(٩) قاله الرازي في تفسيره ٢٨/ ٢٧١.

(١٠) في النسختين: قيل. وفي الرازي ما أثبتُّ أعلى.

(١١) الرازي السابق.

الدنيا قبل عذاب الآخرة. قال ابن عباس ـ (رَضِيَ الله[١] عنهما) ـ يعني القتل يوم بدر.

وقال الضحاك: هو الجوع والقحط سَبْعَ سنين. وقال البراءُ بن عازب: عذاب القبر.

«وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ» أن العذاب نازل بهم[٢].

والمراد بالظلم هنا هو كيدهم نَبِيَّهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهم أهل مكة. وقيل: ظلموا بعبادة غير الله فيكون عاماً في كل ظالم. والإشارة بقوله: «ذَلِكَ» إلى اليوم الذي فيه يُصْعَقُونَ.

ومقعول «يعلمون» يجوز أن يكون ما تقدم[٣]، ويجوز أن يكونَ لا مفعولَ له أي أكثرهم غافِلونَ جَاهِلُونَ[٤].

قوله تعالى: ﴿فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾. أي إلى أن يقع بهم العذاب الذي حكمت عليهم «فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا» قراءة العامةَ بالفك، وأبو السَّمَّال بإدغام النون فيما بعدها[٥]. وناسب جمع الضمير هنا جمع العين ألا تراه أفرد حَيْثُ أفردها في قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]. قاله الزمخشري[٦]. والمعنى: فَإنك بِمرأًى مِنَّا.

قال ابن عباس: نَرَى ما يُعْمَلُ بك. وقال الزجاج: إنك بحيث نراك ونحفظك فلا يصلون إلى مَكْرُوهِكَ[٧].

قال ابن الخطيب: اللام في قوله «لِحُكْمِ رَبِّكَ» تحتمل وجوهاً:

أحدها: هي بمعنى «إلى» أي اصبر إلى أن يحكم الله.

الثاني: أن الصبر فيه معنى الثبات أي تَثَبَّت لحكم ربك واحْتَمِلْهُ.

الثالث: هي اللام التي للسبب، يقال: لِم خرجت؟ فتقول: لحكم فلان عليَّ بالخروج، فقال: فَاصْبِرْ واجعل سبب الصبر امتثال الأمر، أي فاصبر لهذا الحكم عليك لا لشيءٍ آخر[٨].

قوله: «وَسَبِّحْ بحَمْدِ رَبِّكَ» تقدم الكلام على نظيره[٩] وقوله: «حِينَ تَقُومُ» قال سعيد بن جبير وعطاء: أي قل حين تقوم من مجلسك: سُبْحَانك اللهم وبحمدك، فإن

---

(١) زياد من أ.

(٢) وانظر البغوي ٦/ ٢٥٤.

(٣) من الأمر وهو أن لهم عذاباً دون ذلك.

(٤) وانظر في هذا كله تفسير الإمام ٢٨/ ٢٧٤.

(٥) فتكون هكذا: بأعيُنَّا. وهي شاذة. انظر الكشاف ٤/ ٢٦ و٢٧، والبحر ٨/ ١٥٣.

(٦) الكشاف المرجع السابق.

(٧) معاني القرآن وإعرابه له ٥/ ٦٨.

(٨) بالمعنى من تفسير الإمام ٢٨/ ٢٧٤ و٢٧٥.

(٩) في سورة «ق» من قوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

كان المجلس خيراً ازددتَ إحساناً وإن كان غير ذلك كان كفارةً له.

وروى أبو هريرة قال: قَالَ رَسُول الله ـ ﷺ ـ: مَنْ جَلَسَ مَجْلِساً وكَثُر فيه لَغَطُهُ فقال قبل أن يقوم: سُبْحَانَكَ اللَّهُ وَبِحَمْدِك أَشْهَدُ أَنْ لاَ إلهَ إلاَّ أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إلَيْكَ إلاَّ كَانَ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهُمَا. وقال ابن عباس (ـ رضي الله[1] عنهما ـ): معناه: صَلِّ لله حين تقوم من مقامك. وقال الضحاك والربيع: إذا قمت إلى الصلاة فقل: سبحانَك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جَدُّك ولا إله غيرك. وقال الكلبي: هو ذكر الله باللسان «حِينَ تَقُومُ» من الفراش إلى أن تدخل في الصلاة، لِمَا رَوَى عاصمُ بنُ حُمَيْدٍ قال: سألتُ عائشةَ بأيِّ شيءٍ كان يَفْتَتِحُ رسولُ الله ـ ﷺ ـ قيامَ الليل؟ فقالت: كان إذا قَامَ كَبَّر عَشْراً، وحَمِدَ الله عشراً وهَلَّلَ عَشْراً واسْتَغْفَر عَشْراً وقال: اللهم اغْفِرْ لي واهْدِنِي وارْزُقْنِي وعَافِنِي ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة. وقيل: حين تقوم لأمر ما ولا سيما إذا كنت تَنْتَصِبُ لمُجَاهَدةِ قومك ومُعَادَاتِهِم والدعاء عليهم «فسبح بحمد ربك» وبدل قيامك بالمناداة، وانتصابك للانتقام بقيامك بذكر الله وتسبيحه[2].

قوله: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ» أي صَلِّ له، قال مقاتل: حتَّى صلاة المغربِ والعشاءِ «وإدْبَارَ النُّجُومِ» يعني الركعتين قبل صلاة الفجر وذلك حين تُدْبِرُ النجوم أي تغيب بضوء الصبح.

هذا قول أكثر المفسرين. وقال الضحاك: هي فريضة صلاة الصبح.

قوله: «وإدْبَارَ النجُومِ» العامة على كسر الهمزة مصدراً، بخلاف التي في آخر «ق»[3] كما تقدم، فإنَّ الفتحَ هناك لائق لأنه يراد به الجمع[4] لدَبْر السجود أي أعْقَابِهِ.

على أنه قرأ سالم الجَعديُّ ويعقوب، والمِنْهَالُ بن عمرو بفتحها[5] هنا؛ أي أعقاب النجوم وآثارها إذا غَرُبَتْ.

فصل

هذه الآية نظير قوله: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] وقد تقدم الكلام عليها.

قال ابن الخطيب: قال ههنا: «وإدبار النجوم» وقال في «ق» «وأَدْبَار السُّجُودِ»

---

(١) سقط من ب.
(٢) وانظر البغوي والخازن في معالم التنزيل ولباب التأويل ٦/ ٢٥٤.
(٣) وهي قوله تعالى: ﴿وَأَدْبَار السُّجُودِ﴾ من الآية ٤٠.
(٤) وانظر البحر ٨/ ١٥٣ والإتحاف ٤٠١ و٤٠٢.
(٥) البحر المرجع السابق وذكر في الإتحاف الفَتْحَ عن المُطَوِّعي. انظر الإتحاف المرجع السابق وهي من الأرْبَع فوق العشر المتواترة.

فيحتمل أن يكون المعنى واحداً[١]، والمراد من السجود جمع ساجد، والنُّجُوم سجود قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

وقيل: المراد من النجوم نجوم السماء. وقيل: النجم: ما لا ساق له من النبات قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . . .﴾ [الرعد: ١٥]. والمراد من النجوم الوظائف وكل وظيفة نَجْمٌ في اللغة إذا فرغت من وظائف الصلاة[٢] فقل: سبحان الله كما تقدم.

روى أبيّ بن كعب ـ (رضي الله عنه وأَرْضَاهُ)[٣] ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: مَنْ قَرَأَ سُورَة «والطُّورِ» كان حَقًّا على اللَّه ـ عزَّ وَجَلَّ ـ أن يُؤمِّنَهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْر وَأَنْ يُدْخِلَهُ بنِعْمَتِهِ فِي جَنَّتِهِ[٤].

(والله ـ سبحانه وتعالى ـ) أعْلَمُ.

---

(١) عبارة الرازي: ويحتمل أن يقال: المعنى واحد وفي النسختين: أن يكون المعنى واحد.

(٢) في ب الصلاة وفي أ الله. والتصحيح من ب.

(٣) ما بين الأقواس زيادة من أ.

(٤) وانظر الكشاف دون سند لأحد ٤/٢٧ وانظر الكلام قَبْلُ في الفخر الرازي ٢٨/ ٢٧٦.

سورة النجم

مكية في قول الحسن وعكرمةَ وعطاءٍ وجابرٍ. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ﴾ الآية. وهي إحدى وستون آيةً. وقيل: إن السورة مدنية. والصحيح أنها مكية لقول ابن مسعود: هي أول سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكة. وقيل: اثنتان وستون آية وثلاثمائة وستون كلمة وألف وأربعمائة وخمسة أحرف(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ قال ابن عباس (رضي الله عنهما)(٢) في رواية الوالبيِّ العَوْفِيِّ يعني الثُّرَيَّا إذا سقطت وغابت. وهُوِيُّهُ مَغِيبُهُ(٣). والعرب تسمي «الثُّرَيَّا» نَجْماً قال قائلهم:

٤٥٣٨ ـ إِذَا طَلَعَ النَّجْمُ عِشَاءَا ابْتَغَى الرَّاعِي كِسَاءَا(٤)

وجاء في الحديث عن أبي هريرة مرفوعاً: مَا طَلَعَ النَّجْمُ قَطّ وَفِي الأَرْضِ مِنَ العَاهَةِ شَيْءٌ إلاَّ رُفِعَ(٥).

وأراد بالنجم الثريا. قال شهاب الدين: وهذا هو الصحيح لأن هذا صار علماً بالغلبة ومنه قول العرب:

---

(١) وانظر هذا كله في تفسيري البغوي والخازن ٦/ ٢٥٥، والقرطبي في الجامع ١٧/ ٨١.

(٢) زيادة من (أ).   (٣) البغوي المرجع السابق.

(٤) نُقِلَ في البحر لأبي حيان ٨/ ١٥٧.

(٥) لم أجده في كتب الحديث الصحاح وقد نقله البغوي في تفسيره، المرجع السابق.

٤٥٣٩ ـ طَلَعَ النَّجْمُ غُدَيَّهْ فَابْتَغَى الرَّاعِي كُسَيَّهْ[١]

وقال عمر بن أبي ربيعة:

٤٥٤٠ ـ أَحْسَنُ النَّجْمِ فِي السَّمَاءِ الثُّرَيَّا وَالثُّرَيَّا فِي الأَرْضِ زَيْنُ النِّسَاءِ[٢]

يقال: إنها سبعة أنجم ستةٌ منها ظاهرة وواحدٌ خفي يمتحن الناس به أبصارهم. وروى القاضي عِياضٌ في «الشِّفا» أن النبي ـ ﷺ ـ كان يرى الثريا أحد عشر نجماً. وقال مجاهد: هي نجوم السماء كلها حين تغرب. لفظه واحد ومعناه الجمع. سمي الكوكب نجماً لطلوعه، وكل طالع نجم، يقال: نَجَم السِّنُّ والقَرْن والنَّبْتُ إذا طَلَعَ. وروى عكرمة عن ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٣] ـ أنها ما يرمى به الشياطين عند استراقهم السمع. وقال أبو حمزة[٤] الثُّماليُّ: هي النجوم إِذا انْتَثَرَتْ يوم القيامة. وقيل المراد بالنجم هنا الجِنْس.

قال الشاعر ـ (رحمة الله[٥] عليه ـ):

٤٥٤١ ـ فَبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ فِي مُسْتَحِيرَةٍ سَرِيعٍ بِأَيْدِي الآكِلِينَ جُمُودُهَا[٦]

أي تَعُدُّ النجوم. وهذا هو معنى قول مجاهد المتقدم. وقيل: المراد بالنجم الشِّعْرَى؛ لقوله: «وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى». وقيل: الزهرة؛ لأنها كانت تُعْبَدُ. وقيل: أراد بالنجم القرآن، لأنه نزل نجوماً متفرقاً في عشرين سنة. وسمي التفريق تنجيماً والمفرق منجماً. قاله الكلبي ورواه عطاء عن ابن عباس. والهويُّ النزول من أعلى إلى أسفل. وقال الأخفش: النجم هو النبت الذي لا ساق له[٧] ومنه قوله ـ عَزَّ وجَلَ ـ ﴿**وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ**﴾. وهُوِيُّهُ سقوطه على الأرض. وقال جعفر الصادق: يعني محمداً ـ

---

(١) أبو حيان، المرجع السابق. وهو من الرَّمَل مجهول قائله.

(٢) من الخفيف له. والشاهد فيه أن الثريا تطلق على النجم فالنجم لفظ مفرد ومعناه جمع. والبيت لم أجده بديوان عمر. وانظر القرطبي ١٧/ ٨٢ وفتح القدير ٥/ ١٠٤.

(٣) زيادة من (أ).

(٤) ثابت بن أبي صفية الثُّماليّ أبو حمزة رافضيّ من الخامسةِ. مات في خلافة أبي جَعْفَر. وانظر تقريب التهذيب ١/ ١١٦.

(٥) زيادة من (أ).

(٦) من الطويل للراعي. والمستحيرة الجَفْنَةُ الممتلئة وقوله: «سريع» يريد أن الوقت كان وقت الشتاء فكان يجمد دسمه على أيدي الآكلين وهو يقول: نظرت في هذه الجفنة فرأيت فيها النجوم لعظمها. والشاهد في النجم وهو يريد جنس النجوم. وانظر البحر ٨/ ١٥٧ والقرطبي ١٧/ ٨٢ والكشاف ٤/ ٢٧ وشرح شواهده ٣٨٨ وروح المعاني ٢٧/ ٤٤ ومجمع البيان ٩/ ٢٦٠ واللسان «نجم»، والديوان ٩٢.

(٧) لم أجده في المعاني له عند هذه الآية ونقله عنه البغوي في تفسيره ٦/ ٢٥٥ والقرطبي أيضاً ١٧/ ٨٣.

ﷺ ـ إذ نزل من السماء ليلة المعراج. والهويُّ النزول، يقال هَوَى يَهْوِي هُوِيًّا[١]. والكلام في قوله: «والنجم» كالكلام في قوله: «والطُّورِ» حيث لم يقل: وَالنُّجُوم[٢] ولا الأَطْوَار وقال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ [الذاريات: ١] ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾[٣] [المرسلات: ١] كما تقدم.

فصل

السور التي تقدمت وافتتاحها بالقسم بالأشياء دون الحروف هي «الصَّافَّات»، و «الذَّارِيَات» و «الطُّور» وهذه السورة بعدها فالأولى أن يقسم لإثبات الوحدانية كما قال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ [الصافات: ٤] وفي الثانية أقسم لوقوع الحشر والجزاء كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات: ٥ و ٦] وفي الثالثة لدوام العذاب بعد وقوعه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧ و ٨] وفي هذه أقسم لإثبات النبوة لتكمل الأصول الثلاثة الوحدانية، والحشر، والنبوة.

واعلم أنه تعالى لم يقسم على الوحدانية ولا على النبوة كثيراً، لأنه أقسم على الوحدانية في سورة واحدة وهي «وَالصَّافَّاتِ»، وأما النبوة فأقسم عليها بأمر واحد في هذه السورة وبأمرين في سورة (وَالضُّحَى) وأكثر من القسم على الحشر وما يتعلق به فقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١] ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] إلى غير ذلك وكلها في الحشر أو ما يتعلق به، وذلك لأن دلائل الوحدانية كثيرة كلها عقلية كما قيل:

٤٥٤٢ ـ وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ

ودلائل النبوة أيضاً كثيرة وهي المعجزات المشهورة وأما الحشر ووقوعه فلا يمكن إثباته إلاً بالسمع فأكثر فيه القسم ليقطع بها المكلف ويعتقده اعتقاداً جازماً.

فصل

قال ابن الخطيب: والفائدة في تقييد القسم به بوقت هويه إذا كان في وسط السماء بعيداً عن الأرض لا يهتدي إليه[٤] السَّارِي لأنه لا يعلم به المَشرِق من المَغْرِب ولا الجنوب من الشّمال. فإذا زال عن وسط السماء تبين بزواله جانب المغرب من المشرق والجنوب عن الشمال. وخص الهويَّ دون الطلوع لعموم الاهتداء به في الدين والدنيا كما قال الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]. وفيه لطيفة وهي أن القسم بالنجم يقتضي تعظيمه وقد كان منهم من يعبده فنبه بهُوِيِّه على عدم صلاحيته للإلهيَّة بأُفُولِهِ.

---

(١) البغوي والقرطبي السابقين أيضاً.
(٢) حيث أراد الجنس.
(٣) انظر البغوي السابق ثم الرازي ٢٨/ ٢٧٩.
(٤) في (ب) به.

فصل

أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها لفظاً ومعنى، أما لفظاً فقوله: «وَإِدْبَارَ النُّجُوم» وافتتح هذه بالنجم مع واو القسم، وأما معنًى فلأنه تعالى لما قال لنبيه: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وإِدْبَارَ النُّجُوم» بين له أنه (جزأه في أجزاء[1] مكابدة النبي ـ ﷺ ـ بالنجم) وبعده (عما لا يجوز له)[2] فقال: «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى»[3].

قوله: «إِذَا هَوَى» في العامل في هذا الظرف أوجه وعلى كل منها إشكال.

أحدها: أنه منصوب بفعل القسم المحذوف تقديره: أُقْسِمُ بالنجم وقْتَ هُويه. قاله أبو البقاء[4]. وهو مشكِل؛ فإن فعل القسم إنشاء والإنشاء حال و «إذا» لما يستقبل من الزمان فكيف يتلاقيان؟!.

الثاني: أن العاملِ فيه مقدر على أنه حال من (النَّجْمِ) أقْسَمَ به حال كونه مستقراً في زمان هُوِيِّهِ. وهو مشكلٌ من وجهين:

أحدهما: أن النجم جثّة والزمان لا يكون حالاً كما لا يكون خبراً.

والثاني: أن (إذَا) للمستقبل فيكف يكون حالاً؟!.

وقد أجيب عن الأول بأن المراد بالنَّجم القطعة من القرآن والقرآن قد نزل منجماً في عشرين سنة. وهذا تفسير عن ابن عباس وعن غيره.

وعن الثاني بأنها حال مقدرة.

الثالث: أن العامل فيه نفس النجم إذا أريد به القرآن. قاله أبو البقاء[5]. وفيه نَظَرٌ؛ لأن القرآن لا يعمل في الظرف إذا أريد أنه اسم لهذا الكتاب المخصوص. وقد يقال: إنَّ النجم بمعنى المنجَّمِ كأنه قيل والقرآن المُنَجَّم في هَذَا الوَقْتِ.

وهذا البحث وارد في مواضع منها: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ وما بعده [الشمس: ١ ـ ٥] وقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١ و ٢] وسيأتي في الشمس بحث أخص من هذا إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى[6]. والهوِيُّ[7] قال الراغب: سقوطٌ

(١) ما بين القوسين بياض في النسختين وتكملة من الرازي.

(٢) ما بين القوسين هذين وجد في النسختين ولم يوجد في الرازي.

(٣) وانظر تفسير الرازي ٢٨/ ٢٧٧، ٢٧٩.

(٤) التبيان ١١٨٦.

(٥) التبيان المرجع السابق.

(٦) عند قوله تعالى: «وَالقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا» من الآية الثانية من الشمس. وقد استقى المؤلف ذلك من كلام أبي حيان في البحر ٨/ ٤٨٠، إلا أنه برّر وخرج قول أبي البقاء وهو قوله: إن العامل فيه نفس النجم إذا أريد به القرآن.

(٧) ضبطها ابن بري نقلاً عن صاحب اللسان بالفَتْح فَقَطْ ـ فتح الهاء بينما أجيز فيها الفتح والضمّ عن كثيرٍ وانظر اللسان هوى ٤٧٢٧.

من عُلوّ ثم قال: «والهَوِيُّ ذهاب في انحدار والهُوِيّ ذهاب في ارْتفاع»[١]، وأنشد:

٤٥٤٣ ـ .... يَـهْـوِي مَـخَـارِمُـهَـا هُـوِيَّ الأَجْـدَلِ[٢]

وقيل: هَوَى في اللغة خرق الهواء، ومقصده السّفْل أو مصيره إليه وإن لم يقْصِدْه قال ـ (رحمةُ اللَّهِ عليه[٣] ـ):

٤٥٤٤ ـ .... هُـوِيَّ الـدَّلْـوِ أَسْـلَـمَـهَـا الـرِّشَـاءُ[٤]

وقال أهل اللغة: هَوَى يَهْوِي هُوِيًّا أي سقط من علُوٍّ، وهَوِيَ يَهْوَى هَوًى أي صَبَا. وقد تقدم الكلام في هذا مُشبعاً.

قوله: «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ» هذا جواب القسم، والمعنى: ما ضل صاحبكم يعني محمداً ـ ﷺ ـ ما ضل عن طريق الهدى «وَمَا غَوَى» ذهب أكثر المفسرين إلى أن الضلال والغي بمعنى واحد. وفرق بعضهم بينهما قال: الضلال في مقابلة الهدى والغي في مقابلة الرشد، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال ابن الخطيب: وتحقيق القول فيه أن الضلال أعمّ استعمالاً في الوضع، تقول: ضَلَّ بَعِيرِي ورَحْلِي ولا تقول غيَّ[٥]؛ فالمراد من الضلال أن لا يجد السالك إلى مقصده طريقاً أصلاً، والغواية أن لا يكون له طريق إلَى القصد مستقيم، ومما يدل على هذا قولك للمؤمن الذي ليس على طريق السداد: إنَّه سَفِيهٌ غير رشيدٍ ولا تقول: إنه ضال فالضال كالكافر والغَاوي كالفاسق فكأنه تعالى قال: ما ضَلَّ أي ما كفر ولا أقلّ من ذلك فما فسق أو يقال: الضلال كالعدم والغواية كالوجود الفاسد في الدرجة والمرتبة.

---

(١) المفردات له (هوى) ٥٤٨.

(٢) عجز بيت من الكامل لأحد الهُذَلِيِّينَ صدره:

وَإِذَا رَأَيْـتَ بِـهِ الـفِـجَـاجَ رَأَيْـتَـهُ

والفجاج جمع الفَجّ وهو الطريق الواسع الواضح بين جبلين، والأَجدَل الصَّقر، والمخارم جمع مَخْرَم أفواه الفجاج وهو يشبه فرساً بالصقر أي إذا سِرْت به في فجاج الأرض رأيته يهوِي ـ وهو محل الشاهد ـ أي يسقط من أفواه الفجاج هويّ الصقر أي سقوطه. وانظر مجمع البيان للطبرسي ٩/ ٢٥٩ والمفردات السابق ٥٤٨.

(٣) زيادة من (أ).

(٤) عجز بيت من الوافر لزهير صدره:

فَـشَـجَّ بِـهَـا الأَمَـاعِـزَ وَهْـيَ تَـهْـوِي

وشج: علا. والبيت في وصف عَيْر وأَتنِه. يقول: لمَا وجد العير أن قد انقطع مَاؤها انتقل عنها إلى غيرها فجعل يعلو بالأُتن الأماعز وهي حزون الأرض الكثيرة الحصى. وشاهده في أن الهوي هو خرق الهواء، وانظر اللسان «هوى» ٤٧٢٧ والقرطبي ١٧/ ٨٣.

(٥) كذا في النسختين وفي الرازي: «غوى».

قال: ويحتمل أن يكون المراد معنى قوله «مَا ضلَّ» أي ما جُنَّ فإنَّ المجنون ضالٌّ وعلى هذا فهو كقوله: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١ و ٢]. ومعنى صاحبكم إما سيدكم أو وصاحبكم (مَا غَوَى) أي ما تكلم بالباطل[١]. وقيل: ما خاب والغَيّ الخيبة[٢].

قوله: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى» أي ما يصدر عن الهوى نُطْقُهُ (فعن) على بابها. وقيل: بمعنى الباء[٣]، أي ما ينطق بالهوى يريد لا يتكلم بالباطل، وذلك أنهم قالوا: إنَّ محمداً يقول القرآن من تِلْقَاءِ نَفْسِهِ.

وفي فاعل (يَنْطِقُ) وجهان:

أحدهما: هو ضمير النبي ـ ﷺ ـ وهو الظاهر.

والثاني: أنه ضمير القرآن كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩].

واعلم أن في قوله تعالى: **﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾** بصيغة الماضي وفي قوله: «وَمَا يَنْطِقُ» بصيغة المستقبل ترتيب في غاية الحسن أي ما ضل حين اعتزلكم وما تعبدون في صِغَرِهِ «وَمَا غَوَى» حين اختلى بنفسه ورأى في منامه ما رأى وما ينطق عن الهوى الآن حيث أُرْسِلَ إليكم وجعل رسولاً شاهداً عليكم فلم يكن أولاً ضالاً ولا غاوياً وصار الآن منقذاً من الضلالة مرشداً وهادياً[٤].

قوله تعالى: **﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾** إن هو أي إن الذي ينطق به. وقيل: إن القرآن إلا وحي من الله. وقوله: «يُوحَى» صفة لوحي. وفائدة المجيء بهذا الوصف أنه ينفي المجاز أي هو وحي حقيقة لا بمجرد تسمية كقولك: هَذَا قَوْلٌ يُقَالُ. وقيل: تقديره يُوحَى إليه. ففيه مزيدُ فَائدةٍ[٥].

نقل القُرْطُبِيُّ[٦] عن السِّجِسْتَانِيِّ[٧] أنه قال: إن شئت أبدلت «إِنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى» من «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ». قال ابن الأنباريّ[٨]: وهذا غلط، لأن «إِنْ» الحقيقية لا تكون مبدلة من «ما»؛ بدليل أنك لا تقول وَاللَّهِ مَا قُمْتُ إِنْ أنا لَقَاعِدٌ[٩].

---

(١) وانظر تفسير الرازي ٢٨/ ٢٨٠.

(٢) نقله إمام قرطبة في الجامع له ولم يحدده. انظر الجامع للقرطبي ١٧/ ٨٤.

(٣) ونسبه القرطبي لأبي عبيدة وهو له كما في المجاز ٢/ ٣٤٦. ومعظم المفسرين على أن (عن) على بابها.

(٤) الرازي السابق ٢٨/ ٢٨٠ و ٢٨١. (٥) بالمعنى من الرازي ٢٨/ ٢٨٤.

(٦) الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي صاحب الجامع لأحكام القرآن التفسير الشهير والمعتمد عليه في بحثنا هذا وصاحب كتاب التذكرة والمتوفى سنة ٦٧١ هـ.

(٧) هو أبو حاتم وقد مر ترجمته وذكره مراراً.

(٨) الإمام أبو بكر الكوفيّ الشهير. وقد مرّ أيضاً ترجمته.

(٩) نقل تلك العبارات في الجامع القرطبي ١٧/ ٨٥.

فصل

والوحي قد يكون اسماً ومعناه الكتاب، وقد يكون مصدراً وله معان منها الإرسال والإلهام والكتابة والكلام والإشارَة والإفهام، وهذه الآية تدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يجتهد، وهو خلافُ الظَّاهر فإنَّه اجتهد في الحروب وأيضاً حرم في قوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾[١] وأذن قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]. قوله «عَلَّمَهُ» يجوز أن تكون هذه الهاء للرسول وهو الظاهر فيكون المفعول الثاني محذوفاً أي عَلَّم الرسولَ الوحيَ أي الموحَى، ويجوز أن يكون للقرآن والوحي فيكون المفعول الأول محذوفاً أي علمه الرسولَ، والوحي إن كان هو الكتاب فظاهر وإن كان الإلهام فهو كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[٢] [الشعراء: ١٩٣ و ١٩٤].

وقوله: «شَدِيدُ القُوَى» قيل: هو جبريل، وهو الظاهر. وقيل: الباري تعالى لقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١ و ٢] و «شَدِيدُ القُوَى» من إضافة الصفة المشبهة لمرفوعها فهي غير حقيقية[٣]. والقُوَى جمع القُوَّة.

قوله: «ذُو مِرَّة» المرة القوة والشدة. ومنه: أَمْرَرْتُ الحَبْلَ أي أحكمت فَتْلَهُ. والمَرِيرُ: الحَبْلُ، وكذلك المَمَرُّ كأنه كرّر فَتْلَهُ مرةً بعد أُخرَى.

وقال قطرب ـ (رحمه الله[٤]) ـ: «العرب تقول لكل جزل الرأي حَصِيف العَقْلِ: ذُو مِرَّةٍ» وأنشد ـ (رحمه الله[٥]) ـ:

٤٥٤٥ ـ وَإِنِّــي لَـــذُو مِـــرَّةٍ مُـــرَّةٍ إِذَا رَكِـبَــتْ خَـالَــةٌ خَـالَــهَـا[٦]

وقال:

٤٥٤٦ ـ قَدْ كُنْتُ قَبْلَ لِقَائِكُمْ ذُو مِرَّةٍ عِـنْـدِي لِـكُـلِّ مُـخَـاصِـمٍ مِـيـزَانُـهُ[٧]

---

(١) عبارة الرازي: وحرم ما قال الله لم يحرم وأذن لمن قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ نقول: على ما ثبت لا تدل عليه الآية.

(٢) قال بهذه الإعرابات الرازي في تفسيره ٢٨/ ٢٨٤.

(٣) أي ليست محضة فهي في تقدير الانفصال، كما تسمى إضافةً لفظيةً والإضافة تلك المضاف فيها صفةٌ تشبه المضارع في كونها مراداً بها الحال أو الاستقبال. وهذه الإضافة لا تفيد المضاف تعريفاً وتسمى تلك الإضافة لفظية لأنها أفادت أمراً لفظياً وهو التخفيف بحذف التنوين وغير محضة كما سبق لأنها في تقدير الانفصال فإن المضاف فيها لا بد أن يكون وصفاً عاملاً وكثيراً ما يرفع ضميراً مستتراً. بتصرف من «ضِيَاء السَّالك إلى أوضح المسالك» ٢/ ٣٢٤ إلى ٣٢٨.

(٤) زيادة من (أ) الأصل. (٥) كذلك.

(٦) هذا البيت من المتقارب وأنشده قطرب فيما نقله أبو حيان في البحر ٨/ ١٥٤. والشاهِدُ في «مُرّة» حيث معناها العقل الممتاز والقطع بالرأي القوي كما أوضح.

(٧) من الكامل، ولم أعرف قائله، وشاهده: في «مِرّة» معناها حصافة العقل ورجاحته. انظر القرطبي ١٧/ ٨٦، وفتح القدير ٥/ ١٠٥.

وقال الجوهري: والمِّرة أحد الطبائع الأربع. والمرة: القوة وشدة العقل أيضاً. ورجل مرير أي قريب ذو مرة قال:

٤٥٤٧ ـ تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ وَحَشْوُ ثِيَابِهِ أَسَدٌ مَرِيرُ[١]

وقال لقيط:

٤٥٤٨ ـ حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ مُرَّ العَزِيمَةِ لاَ رَتًّا وَلاَ ضَرِعَا[٢]

فصل

ذو مرة ذو قوة وشدة في خلقه يعني جبريل قال ابن عباس: ذو مِرّة أي ذو منظر حسن. وقال مقاتل: وقيل: ذو كمال في العقل والدين ذو خلق طويل حسن. وقيل: ذو كمال في العقل والدين جميعاً. وقيل: ذو منظر وهيئة عظيمة. فإن قيل: قد تبين كونه ذا قوة بقوله: «شَدِيدُ القُوَى» فكيف قال بعده: ذو مرة إذا فسرنا المرَّة بالقوة؟!.

قال ابنُ الخطيب: وقوله هنا: ذُو قُوة بدل من «شَدِيدُ القُوَى» وليس وصفاً له تقديره: ذو قوة عظيمة. ووجه آخر وهو أن إفراد «قُوَى» بالذكر ربّما يكون لبيان أن قواه المشهورة شديدة وله قوة أخرى خَصَّه الله بها، يقال فلانٌ كثيرُ المال وله مال لا يعرفه أحدٌ أي أمواله الظاهرة كثيرة وله مال باطن. ثم قال: على أنَّا نَقُول: المراد ذو شدة وهي غير القوة وتقديره علمه من قواه شديدة وفي ذاته أيضاً شدة فإن الإنسان رُبَّمَا تكون قواه شديدةً وفي جسمه حقارةٌ. ويحتمل أن يكون المراد بقوله: «شديد القوى» قوته في العلم وبقوله: «ذو مرة» أي شدة في جسمه فقدم العِلْميَّة على الجِسْمِيَّة كقوله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾[٣] [البقرة: ٢٤٧].

وقوله: «فَاسْتَوَى» يعني جبريل في خلقه. قال مكي[٤]: اسْتَوَى يقع للواحد وأكثر ما يقع من اثنين ولذلك جعل الفَرَّاءُ الضمير لاثنين[٥].

قوله: ﴿وَهُوَ بالأُفُقِ الأَعْلَى﴾ في الضمير وجهان:

---

(١) من الوافر للعباس بن مرادس وفي تاج العروس: وفي أثوابه رجل مزير. ويروى: أسد مزير. والمزير: شديد القلب القوي النافذ في الأمور. وعلى الروايتين الأخيرتين لا شاهد، فالشاهد على الرواية الأولى حيث يراد بالمرير القوي، وانظر التاج «مرر» والقرطبي ١٧/ ٨٦، والصِّحَاح (م ر ر).

(٢) من البسيط للقيط بن زرارة. والرّتة رَدة قبيحة في اللسان من العيب وما في الديوان: «لا قحماً» والقحم الشيخ الهرم يعتريه خرق وخرف، والضَّرع اللين الذليل والبيت بعدُ واضح. وانظر اللغة في اللسان والصحاح «مرر» والشاهد كسابقه في المريرة حيث أن معناها القوة وانظر القرطبي ١٧/ ٨٦.

(٣) انظر تفسير الرازي ٢٨/ ٢٨٥. (٤) مشكل الإعراب له ٢/ ٣٣٠.

(٥) من بقية كلامه وانظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٥ والقرطبي ١٧/ ٨٥.

أظهرهما: أنه مبتدأ و «بِالأُفُقِ» خبره[١]. والضمير لجبريل أو للنبي ـ ﷺ ـ. ثم في هذه الجملة وجهان:

أحدهما: أن هذه الجملة حال من فاعل «استوى»[٢]. قاله مكي[٣].

والثاني: أنها مستأنفة. أخبر الله تعالى بذلك.

والثالث: أن «وَهُوَ» معطوف على الضمير المستتر في «اسْتَوَى»[٤] وضمير «اسْتَوَى» و «هُوَ» إما أن يكونا لله تعالى. وهو قول الحسن[٥]. وقيل: ضمير استوى لجبريل و «هُوَ» لمحمد ـ ﷺ ـ[٦]. قال البغوي في توجيه هذا القول: أكثر كلام العرب إذا أرادوا العطف في مثل هذا أن يظهروا كناية المعطوف فيه فيقولون: اسْتَوَى هُوَ وَفُلاَنٌ وقَلَّ ما يقولون: اسْتَوَى وفُلاَنٌ. ونظير هذا قوله عز وجل: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ﴾ [النمل: ٦٧] عطف «الآباء» على المكنيّ في «كُنَّا» من غير إظهار «نَحْنُ». ومعنى الآية استوى جبريل ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ليلة المعراج «بالأُفُقِ الأَعْلَى»، وهو أقصى الدنيا عند مطلع الشمس[٧].

وقيل: ضمير «استوى» لمحمد و «هو» لجبريل[٨]. وهذا الوجه الثاني يتمشى على قول الكوفيين[٩] لأن فيه العطف على الضمير المرفوع المتصل من غير تأكيد، ولا فاصل. وهذا الوجه منقول عن الفراء[١٠] والطبري[١١].

وإذَا قِيلَ: بأن الضميرين أعني «اسْتَوَى» و «هُوَ» لجبريل فمعناه قام في صورته التي خلقه الله فيها «وهو بالأفق الأعلى»، وذلك أن جبريل كان يأتي رسول الله ـ ﷺ ـ في صورة الآدميين كما كان يأتي النبيين، فسأله رسول الله ﷺ أن يُرِيهُ نفسه في صورته التي جُبِلَ عليها فأراه نفسه مرتين مرة في الأرض ومرة في السماء فأما في الأرض ففي الأفق الأعلى وهو جانب المشرق وذلك أن محمداً ـ ﷺ ـ كان بِحرَاءَ فطلع له جبريلُ من المَشْرِقِ فسدَّ الأرض من المَغرِب، فخر رسول الله ـ ﷺ ـ مَغْشِيًّا عليه فنزل جبريل في

---

(١) والجملة حال من فاعل «استوى». وانظر التبيان ١١٨٦ والمشكل ٢/ ٣٣٠.

(٢) وهو قول أبي البقاء السابق أيضاً. (٣) مشكل الإعراب ٢/ ٣٣٠.

(٤) وضعف هذا أبو البقاء في التبيان السابق قال: إذ لو كان كذلك لقال تعالى: فاسْتَوَى هُوَ وَهُوَ.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٥٧.

(٦) وهو مذهب الجمهور. وانظر البحر والكشف والتبيان المراجع السابقة.

(٧) معالم التنزيل للبغوي ٦/ ٢٥٦. وهذا الوجه جائز ولكنه قليل، وانظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٥.

(٨) نقله في البحر ٨/ ١٥٨.

(٩) رجح الفراء في المعاني القول الأكثر مجيئاً حيث يقول: «وأكثر كلام العرب أن يقولوا: اسْتَوَى هُوَ وَأَبُوهُ ولا يكادون يقولون: استوى وأبوه. وهو جائز لأن في الفعل مضمراً». انظر المعاني ٣/ ٩٥.

(١٠) معاني القرآن له ٣/ ٩٥. (١١) جَامِعُ البيان له سورة النجم.

صورة الآدميين فضمه إلى نفسه، وجعل يمسح التراب عن وجهه وهو قوله: «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى».

وأما في السماء فعند سدرة المنتهى، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلاَّ محمداً ـ ﷺ[١] ـ.

وقيل: معنى: «فَاسْتَوَى» أي استوى القرآن في صدره. وعلى هذا فيه وجهان:

أحدهما: فاستوى أي فاعتدل في قوته.

الثاني: في رسالته. نقله القرطبي عن المَاوَرْدِي. قال: وعلى هذا يكون تمام الكلام ذو مرة، وعلى الثاني شَدِيد القوى.

وقيل: اسْتَوَى أي ارتفع. وفيه على هذا وجهان:

أحدهما: أنه جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ أي ارتفع إلى مكانه.

الثاني: أنه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أي ارتفع بالمعراج.

وقيل: معنى استوى أي الله عز وجل استوى على العرش. قاله الحسن[٢].

قوله: «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى» التدلي: الامتداد من علو إلى سفل، فيستعمل في القرب من العلو قاله الفراء[٣]، وابن الأعرابي[٤].

وقال الهذلي:

٤٥٤٩ ـ تَدَلَّى عَلَيْنَا وَهوَ زَرْقُ حَمَامَةٍ ... لَهُ طِحْلِبٌ فِي مُنْتَهَى القَيْظِ هَامِدُ[٥]

وقال الشاعر:

٤٥٥٠ ـ .... تَدَلَّى عَلَيْنَا بَيْنَ سِبٍّ وَخَبْطَةٍ[٦]

---

(١) نقل هذا الوجه بتفصيلاته وتقييداته الإمام البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢٥٦، وكذلك الخازن في لباب التأويل ٦/ ٢٥٦.

(٢) ذكر كل هذه الأقوال في الجامع الإمام القرطبي. انظُرْ تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٨٧ و ٨٨.

(٣) قال في المعاني ٣/ ٩٥: «كأن المعنى ثم تدلى فدنا». ولم أجد ما قاله المؤلف بلفظه في المعاني له بينما قال في اللسان «دَلاَ»: ولا يكون التدلي إلا من عُلوٍّ إلى استفال.

(٤) المرجع السابق.

(٥) من الطويل وهو لأسامة الهذلي كما في اللسان ولم ينسب في البحر. ورواية المؤلف كرواية البحر وفي اللسان «عَلَيْه» بدل «عَلَيْنَا» و «القَيْض» بدل القَيْظ. والشاهد في «تدلى» فمعناه أتى علينا من مكان. وانظر البيت في اللسان دلا ١٤١٨، والبحر ٨/ ١٥٤ وروح المعاني للألوسي ٢٧/ ٤٨.

(٦) صدر بيت من الطويل عجزه:

بِجَرْدَاءَ مِثْلِ الوَكْفِ يَكْبُو غُرَابُهَا

وهو لأبي ذؤيب يصف مشتار العسل. والسّب الحبل. وقيل: الوتد. والخبطة رأس الجبل. يقول: =

ويقال: هُوَ كَالقِرِلّى[١] إنْ رأى خِيراً تدلّى وإن لم يَرَه تَوَلّى[٢].

فصل

في قوله: «دَنَا فَتَدَلَّى» وجوه:

أشهرها: أن جبريل ـ ﷺ ـ دنا من النبي ـ ﷺ ـ أي بعد ما مد جَنَاحَهُ «وهو بالأفق» عاد إلى الصورة التي كان يعتاد النزول عليها وقَرُب من النبي ـ ﷺ ـ وعلى هذا ففي «تَدَلَّى» وجوه:

الأول: فيه تقديم وتأخير أي تدلى من الأفق الأعلى فدنا من النبي ـ ﷺ ـ.

الثاني: أن الدُّنُوَّ والتَّدلِّي بمعنًى واحد فكأنه قال: دَنَا فَقَرُبَ[٣].

وذهب الفراء إلى أن الفاء في قوله: (فَـ) ـتدلى بمعنى الواو[٤]، والتقدير: ثم تدلى جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ ودنا ولكنه جائزٌ إذا كان معنى الفعلين واحداً قدمتَ أَيَّهُمَا شئتَ، فقلت: فَدَنَا فقرب، وقرب فدنا، وشتمني فأساء، وأَسَاءَ فَشَتَمَني؛ لأن الإساءة والشتم شيءٌ واحد[٥] وكذلك قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] أي انشق القمر واقْتَرَبَت الساعة.

الثالث: دنا أي قصد القرب من محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتحول عن المكان الذي كان فيه فتدلّى إلى النبي ـ ﷺ ـ.

الوجه الثاني: أن محمداً ـ ﷺ ـ دنا من الخلق والأمة وَلان لهم وصار كواحد منهم فتدلى أي تدلى إليهم بالقول اللّين والدعاء بالرفق فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

الوجه الثالث: دَنَا منه ربه فقرب منه منزلته كقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ حكاية عن ربه تعالى: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً وَمَنْ مَشَى إِلَيَّ أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» وهذا إشارة إلى المنع المجازي.

قوله: «فَكَانَ قَابَ» ها هنا مضافان محذوفان يُضْطَرُّ لتقديرهما أي فكان مقدارُ مسافةِ قربه منه مقدارَ مسافةِ قَاب.

وقد فعل أبو علي هذا في قول الشاعر:

= إنه تدلى من رأس جبل على خلية عسل ليشتارها بحبل شده في وتد أثبته في رأس الجبل. وانظر البيت عجزاً في الكشاف ٤/ ٢٨، واللسان «سبب».

(١) طائر صغير.
(٢) وانظر الكشاف ٤/ ٢٨.
(٣) انظر الرازي ٢٨/ ٢٨٥ و ٢٨٦.
(٤) الظاهر أنه يقصد (ثم).
(٥) بالمعنى من معاني الفراء ٣/ ٩٥.

٤٥٥١ ـ .... وَقَدْ جَعَلَتْنِي مِنْ خَزِيمَةَ[١] إِصْبَعَا[٢]

أي ذا مقدار مسافة إصبع.

والقابُ القَدْرُ؛ يقول: هذا قاب هذا أي قَدْرُهُ. ومثله القِيبُ والقَادُ والقِيدُ والقِيسُ. قال الزمخشري: وقد جاء التقدير بالقَوْس والرّمح والسَّوْط والذّراع والباع والخُطْوة، والشّبر، والفَتْر، والإصبع ومنه: «لاَ صَلاةَ إِلَى أَنْ تَرْتَفِعَ الشَّمْسُ مِقْدَارَ رُمْحَيْنِ» وفي الحديث: «مِقْدَارُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ وَمَوْضِع قِدِّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»، والقِدُّ السَّوْط[٣]. وألف «قاب» عن واو. نص عليه أبو البقاء. وأما قِيبٌ[٤] فلا دلالة فيه على كونها ياء لأن الواو إذا انكسر ما قبلها قلبت ياء كدِيمَةٍ وقِيمَةٍ.

وذكره الراغب أيضاً في مادة «قوب» إلا أنه قال في تفسيره: هو ما بين المِقْبض والسِّيَة[٥] من القَوس[٦]. فعلى هذا يكون مقدار نصف القوس، لأن المقبض في نصفه والسّية[٧] هي العَرضة التي يحط فيها الوَتَر. وفيما قاله نظرٌ لا يخفى.

ويروى عن مجاهد أنه من الوتر إلى مقبض القوس في وسطه. وقيل: إن القوسَ ذراعٌ يقاس به. نُقل ذلك عن ابن عباس (ـ رضي الله عنهما[٨] ـ) وأنه لغة للحجازيين (والشّنُوئيّينَ)[٩]

---

(١) كذا في القرطبي والكشاف والبحر وفي (ب)، بينما في (أ) مسافة. وهو تحريف.

(٢) عجز بيت من الطويل صدره:

فَأَدْرَكَ إِبْقَاءَ العَرَادةِ ظَلْعُهَا

وهو مختلف في قائله. ونسبه في شرح شواهد الكشاف لحسان «رضي الله عنه» وإبقاء الفرس ما تبقيه من العدو إلى أن تقرب من المقصد. والعَرَادَة اسم فرس القائل. والظلع ـ بتسكين اللام ـ الغمز في المشي. والمعنى أنها لما وصلتني إلى العدو والذي هو خزيمة وبقي بيني وبينه قَدْرُ مسافةِ إصبع عرض لها طلع وهو داء في الرجل ففات منّي وهرب. والشاهد: إصبعاً فهنا مضاف محذوف أي مقدار مسافة إصبع فحذف. وانظر القرطبي ١٧/ ٨٩ والكشاف ٤/ ٢٩ وشرح شواهده ٤٥٣، وروح المعاني ٢٧/ ٤٨ والبحر ٨/ ١٥٨.

(٣) وانظر الكشاف ٤/ ٢٨ وانظر اللسان قيب وقوب وقيس وقوس.

(٤) قال في اللسان: والقِيب بمعنى القدر وعينها واو من قولهم: قوبوا في الأرض أي أثروا فيها بوطئهم ثم قال: «وقوَّب الشيء قلعه من أصله وتقوّب الشيء إذا انقلع من أصله». وانظر اللسان قوب ٣٧٦٨.

(٥) سِيَةُ القَوْسِ طرف قابِها، وقيل: رأسها. وقيل: ما اعوجَّ من رَأسها والنسب إليه سِيوِيّ. وانظر اللسان سيا ٢١٧٣.

(٦) مفردات الراغب قوب ٤١٤.

(٧) في النسختين الشّية وهو تحريف. ولعل الناسخ ظن أن الشدة شين.

(٨) زيادة من (أ) وانظر البحر ٨/ ١٥٨.

(٩) ما بين القوسين سقط من (ب) وانظر القرطبي ١٧/ ٩١ قال: وهي لغة لبعض الحجازيين. وقيل هي لغة أزد شنوءة.

والقوس معروفةٌ[١] وهي مؤنثة وشذوا في تصغيرها فقالوا: قُوَيْسٌ من غير تأنيث كعُرَيْبٍ وحُرَيْبٍ ويجمع على قِسِيٍّ. وهو مقلوب[٢] من قُوُوس[٣].

والقَوْسُ برج في السماء[٤]، فأما القُوسُ ـ بالضم ـ فصَوْمَعَةُ الرَّاهِبِ[٥] قال الشاعر:

٤٥٥٢ ـ لاسْتَفْتَنَتْنِي وَذَا المِسْحَيْنِ فِي القُوسِ[٦]

قوله: «أَوْ أَدْنَى» هي كقوله: «أَوْ يَزِيدُونَ»؛ لأن المعنى فكان يأخذ هذين المقدارين في رأي الرائي أي لتقارب ما بينهما يشك الرائي في ذلك.

و «أَدْنَى» أفعل تفضيل والمفضل عليه محذوف أي أو أَدْنَى مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ.

فصل

روى الشيبانيّ قال: سألت زِرًّا عن قوله تعالى: «قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» قال: أخبرنا عبد الله يعني ابن مسعود أن محمداً رأى جبريل له ستمائة جَناح. فمعنى الآية: ثم دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض فتدلى فنزل إلى محمد ـ ﷺ ـ فكان منه قابَ قَوْسَيْن أو أدنى بل أدنى؛ وبهذا قال ابن عباس، والحسنُ، وقتادة. وقال آخرون: دَنَا الربُّ من محمد ـ ﷺ ـ فتدلى فقرب منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى.

قال البغوي: وروينا في قصة المعراج عن شريك بن عبد الله عن أنس: ودنا الجبَّار ربُّ العزة فتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى[٧]. وهذه رواية ابن سلمة عن ابن عباس.

وقال مجاهد: دنا جبريل من ربه. وقال الضحاك: دنا محمد من ربه. فتدلى فأهوى للسجود فكان منه قاب قوسين أو أدنى. وتقدم الكلام على القاب. والقوس ما يرمى به في قول مجاهد، وعكرمة، وعطاء عن ابن عباس فأخبر أنه كان بين جبريل وبين

---

(١) في (ب) معروف. (٢) قلبا مكانياً.

(٣) على فُعُولِ. وبعد القلب أصبح على «فُلُوعٍ» بتقديم اللام على العين.

(٤) اللسان «قوس» ٣٧٧٤.

(٥) وقيل: رأس الصومعة. وقيل: موضع الراهب. وقيل: هو الراهب بعينه. وانظر المرجع السابق.

(٦) عجز بيت من البسيط لِجرير وصدره:

لاَ وَصْلَ إِذْ صَرَفَتْ هِنْدٌ وَلَوْ وَقَفَتْ

والشاهد: في كلمة القوس فمعناها صاحب الصومعة أو الراهب أو رأس الصومعة، وانظر البيت في الديوان ٣٩١، والقرطبي ١٧/ ٩١، واللسان قوس وبعد البيت:

قَدْ كُنْتَ تِرْباً لنا يا هندُ فاعْتَبِرِي ... مَاذَا يريبك من شَيْبِي وتقويسي

أي قد كنت ترباً من أترابي، وشبت كما شبت فما بالك يريبك شيبي ولا يريبني شيبك؟!.

(٧) معالم التنزيل ٦/ ٢٥٦.

محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ مقدارُ قَوْسَيْن. وقال مجاهد: معناه حيث الوتر من القوس وهذا إشارة إلى تأكيد القرب، والأصل فيه أن الخَلِيفَتَيْن[١] من العرب كانا إذا تعاقدا على الصفاء والعهد خرجا بقوسهما فألصقاهُ بينهما يريدان بذلك أنهما متظاهران يُحَامِي كل واحد منهما عن صاحبه. وقال عبد الله بن مسعود: قاب قوسين قَدْرَ ذراعين. وهو قول سعيدِ بنِ جبير، وشقيقِ بنِ سلمة، والقوس الذراع يقاس بها كل شيء «أو أدنى» بل أقْرَبُ[٢].

وإنما ضرب المثل بالقوس لأنها لا تختلف بالقاب[٣].

قوله: «فَأَوْحَى» أي أوحى الله وإن لم يَجْرِ له ذكر لعدم اللبس «إلى عبده» محمد. وقوله «مَا أَوْحَى» أبهمَ تعظيماً له ورفعاً من شأنه. وبهذه الآية استدل ابن مالك على أنه لا يشترط في الصلة أن تكون معهودة[٤] عند المخاطب.

ومثله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] إلا أن هذا الشرط هو المشهور عند النحويين[٥]. والوحي هو إلقاء الشيء بسرعة ومنه: الوحاء الوحاء[٦].

فصل

في فاعل (أوحى) الأول وجهان:

أحدهما: أن الله تعالى أوحى. وعلى هذا ففي «عبده» وجهان:

أحدهما: أنه جبريل أي أوحى الله إلى جبريلَ، وعلى هذا (أيضاً)[٧] ففي فاعل أوحى «الأخير» وجهان:

أحدهما: أنه الله تعالى أيضاً. والمعنى حينئذ فأوحى الله تعالى إلى جبريل الذي أوحاه (الله)[٨] أبهمه تفخيماً وتعظيماً للموحِي.

ثانيهما: فاعل (أوحى) الثاني جبريل أي أوحى إلى جبريل ما أوحى جبريلُ. وعلى هذا فالمراد من الذي أوحى جبريل ـ عليه (الصلاة)[٩] والسلام ـ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون مبنياً وهو الذي أوحى جبريل إلى محمد (ﷺ)[١٠].

---

(١) كذا في النسختين وفي البغويّ: الحليفتين. وهو الأقرب والمراد.

(٢) وانظر في هذا تفسير العلامتين البغوي والخازن في معالم التنزيل ولباب التأويل ٦/ ٢٥٧.

(٣) قاله القرطبي في الجامع ١٧/ ٩٠.

(٤) إلا أن هذا غير لازم؛ لأن الموصول قد يراد به معهود فتكون صلته معهودةً كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾.

(٥) وانظر همع الهوامع للعلامة السيوطي ١/ ٨٥.

(٦) يمد ويقصر، ومعناه البدار البدار.

(٧) زيادة للسياق.

(٨) سقط من (ب).

(٩) زيادة من (أ).

(١٠) زيادة من (أ).

وثانيهما: أن يكون عاماً أي أوحى الله إلى جبريل ما أوحى إلى كل رسول.

الوجه الثاني في (عبده) على قولنا: الموحِي هو الله: أنه محمد عليه الصلاة والسلام أي أوحى الله إلى محمد ما أوحى إليه (للتفخيم[١] والتعظيم.

الوجه الثاني في فاعل أوحى الأول: هو أنه جبريل أوحى إلى عبده أي عبد الله يعني محمداً ما أوحى إليه) ربه عز وجل؛ قاله ابن عباس في رواية عطاء والكلبي والحسن والربيع وابن زيد. وعلى هذا ففي فاعل «أوحى» الثاني وجهان:

أحدهما: أنه جبريل أي أوحى جبريل إلى عبد الله ما أوحى جبريل للتفخيم.

وثانيهما: أن يكون هو الله تعالى أي أوحى جبريل إلى محمد ما أوحى الله إليه[٢].

فصل

وفي الذي أوحى وجوه:

الأول: قال سعيد بن جبير أوحى الله إليه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى: ٦] إلى قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

الثاني: أوحى إليه الصلاة.

الثالث: أن أحداً من الأنبياء لا يدخل الجنة قبلك وأنَّ أمة من الأمم لا تدخلها قبل أمتك.

الرابع: أنه مبهم لا يطلع عليه أحد وتعبدنا به على الجملة.

الخامس: أن ما للعموم والمراد كل ما جاء به جبريل[٣].

قوله: «مَا كَذَبَ» قرأ هشامٌ وأبو جَعْفَر بتشديد الذال والباقون بتخفيفها[٤].

فأما الأولى فإن معناها أن ما رآه محمد بعينه صدَّقه قلبهُ ولم ينكره أي لم يقل: لم أعرفْكَ و(ما) مفعول به موصولة والعائد محذوف ففاعل (رأى) ضمير يعود على النبي ـ ﷺ ـ.

وأما قراءة التخفيف فقيل كذلك. و «كَذَبَ» يتعدى بنفسه وقيل: هو على إسقاط الخافض أي فيما رآه قاله مكي[٥] وغيره[٦] فأسقط حرف الصفة، قال حسان:

---

(١) ما بين القوسين كله ساقط من (أ) الأصل.

(٢) وانظر هذه الأوجه في تفسير الرازي ٢٨/ ٢٨٨ والبغوي ٦/ ٢٥٧ والقرطبي في الجامع ١٧/ ٩١ وأبي حيان في البحر ٨/ ١٥٨.

(٣) ذكر هذه الأوجه مجتمعة، ونقلها المؤلّف عنه معنًى، الفخر الرازي في تفسيره السابق ٢٨/ ٢٨٧، ٢٨٨.

(٤) وهي سبعية متواترة. وانظر الكشف ٢/ ٢٩٤.

(٥) المشكل له ٢/ ٣٣١.

(٦) كأبي حيان في البحر ٨/ ١٥٨، والقرطبي في الجامع ١٧/ ٩٣.

٤٥٥٣ ـ لَوْ كُنْتِ صَادِقَةَ الَّذِي حَدَّثْتِنِي لَنَجَوْتُ مَنْجَى الحَارِثِ بْنِ هِشَامِ[١]

أي في الذي حدثتني.
وجوز في (ما) وجهين[٢] آخرين:
أحدهما: أن يكون بمعنى الذي.

والثاني: أن تكون مصدرية ويجوز أن يكون فاعل (رأى) ضميراً يعود على الفؤاد أي لم يشك قلبه فيما رآه بعَيْنِهِ[٣].

فصل

قال الزمخشري معناه: أن قلبه لم يكذب وما قال إن من يراه بصرك ليس بصحيح ولو قال فؤاده ذلك لكان كاذباً فيما قاله[٤] فما كذب الفؤاد. هذا على قراءة التخفيف، يقال: كَذَبَهُ إِذَا قال له الكَذِبَ.

وأما قراءة التشديد فمعناه ما قال: إن المرئيَّ خيالٌ لا حقيقةٌ[٥].

وأما الرائي فقيل: هو الفؤاد كأنه تعالى قال: ما كذب الفؤادُ ما رآه الفؤاد أي لم يقل: إنه هاجس شيطان بل تيقن أن ما رآه بفؤاده صدق صحيح. وقيل: الرائي هو البصر أي ما كذب الفؤاد ما رآه البصر خيال. وقيل: ما كذب الفؤاد وما رأى محمد ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ وعلى هذا فالمراد بالفؤاد الجنس؛ أي القلوب شهدت بصحة ما رآه محمد ـ ﷺ ـ.

وأمَّا المرئي فقيل: هو الرب تعالى. وقيل: جبريل ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ وقيل: الآيات العجيبةُ الإلهيَّة. فالقائل بأن المرئي جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو ابنُ مسعودٍ وعائشةُ ـ رضي الله عنهما ـ ومن قال بأن المرئيَّ هو الله تعالى اختلفوا في معنى الرؤية، فقال بعضهم: جعل بصره في فؤاده فرآه بفؤاده. وهو قول ابن عباس، قال: رآه بفؤاده مرتين «مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى» «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى». وقال أنس والحسن وعكرمة: رأى محمدٌ ربَّه بعينيه. وروى عكرمة عن ابن عباس (رضي الله[٦] عنهما) قال: «إنَّ اللَّهَ

---

(١) من الكامل له ـ رضي الله عنه ـ وهو في القرطبي ١٧/ ٩٣ وإعجاز القرآن للباقلاني ١٨٠. وشاهده: أن ما موصولة قد حذف حرف الجر الداخل عليها كما أخبر هو أعلى في التقدير، و «ما» هنا قبل التقدير في موضع نصب على نزع الخافض.

(٢) كذا في النسختين بالنصب فإن كان يقصد مكيًا فهو كذب أو تكرير حيث تحدث قبل عن موصولية «ما»، وإن كان يقصد الرفع على نائب الفاعل فإن الكلمة تصبح خطأ.

(٣) وانظر المشكل لمكي السابق ٢/ ٣٣١ والتبيان ١١٨٧.

(٤) باللفظ من الرازي ٢٨/ ٢٨٩ وبالمعنى من الكشاف ٤/ ٢٩.

(٥) وهو قول الرازي في مرجعه السابق. (٦) زيادة من (أ).

اصْطَفَى إبْرَاهِيمَ بالخلَّةِ، واصْطَفَى مُوسَى بالكَلاَم، واصْطَفَى مُحَمَّداً بالرُّؤْيَةِ ـ ﷺ ـ». وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: لم ير رسول الله ﷺ ـ ربه. وتحمل الرؤية على رؤية جبريل. وقال مسروق: قلت لعائشة: يا أمَّتاه هل رأى محمدٌ رَبَّه؟ فقالت: لقد قفَّ شعري لما قلت أين أنت من ثلاث من حَدَّثَكَهُنَّ فَقَدْ كَذَبَ، من حَدَّثَكَ أنَّ محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأتْ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] ومن حَدَّثَك أنه يَعْلم مَا في غَدٍ فقد كَذَب ثم قرأت: «﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤] ومن حدّثك أَنَّهُ كَتَم شيئاً مما أنزل الله فقد كذب ثم قرأت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ الآية [المائدة: ٦٧] ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين. وروى أبو ذر قال: سألت رسول الله ـ ﷺ ـ: هل رأيت ربك قط؟ قال: نُورٌ أنَّى أَرَاهُ[1].

قوله: «أَفتُمَارُونه» قرأ الأخوان أَفَتَمْرُونَهُ بفتح التاء وسكون الميم، والباقون تُمَارُونَهُ. وعبد الله الشعبي أَفَتُمْرونه بضم التاء وسكون الميم. فأما الأولى ففيها وجهان:

أحدهما: أنها من مَرَيْتُهُ حَقَّه إذا علمته وجَحَدتَهُ إياه، وعدي بعلى لتضمنه معنى الغلبة. وأنشد:

٤٥٥٤ ـ لَئِنْ هَجَوْتَ[2] أَخَا صِدْقٍ ومَكْرُمَةٍ لَقَدْ مَرَيْتَ أَخاً مَا كَانَ يَمْرِيكَا[3]

لأنه إذا جحده حقه فقد غلبه عليه.

وقال المبردُ يقال: مَرَاهُ عَنْ حَقِّه وعَلَى حَقِّه إذا مَنَعَهُ منه، قال: ومثلُ «على» بمعنى «عن» قول بني كعب بن ربيعة: «رَضِيَ اللَّه عَليكَ»؛ أي: عَنْكَ[4].

والثاني: أنها من مَرَأَهُ على كذا أي غلبه عليه، فهو من المِرَاءِ وهو الجِدَالُ.

وأما الثانية: فهي من مَارَاه يُمَارِيه مراءً أي جَادَلَهُ. واشتقاقه من مَرْي[5] الناقة لأن كل واحد من المُتَجادِلَيْنِ يَمْرِي ما عند صاحبه. وكان من حقه أن يتعدى بفي كقولك: جَادَلْتهُ فِي كذا. وإنّما ضُمِّن معنى الغلبة. وأما قراءة عبد الله فمن أَمْرَاهُ رباعيًا[6].

---

(١) وانظر في هذه الآثار تفسيري البغوي والخازن لباب التأويل ومعالم التنزيل ٦/٢٥٧ إلى ٢٥٩.

(٢) روي هجرت كما في القرطبي.

(٣) من البسيط ولم أعرف قائله. وجيء به على أن المَرْي معناه الجحد. وانظر الكشاف ٤/٢٩ والقرطبي ١٧/٩٣ والبحر ٨/١٥٩ بلفظ «سخرت» وروح المعاني ٢٧/٤٩ وفتح القدير ٥/١٠٦.

(٤) نقله في القرطبي ١٧/٩٣.

(٥) والمري مسح ضرع الناقة لِتَدِرّ.

(٦) القراءتان الأوليان متواتران ذكرتا في الكشف ٢٣/٢٩٤، ٢٩٥ والبحر ٨/١٥٩ والقرطبي ١٧/٩٣ والسبعة ٦١٤ و ٦١٥ والكشاف ٤/٢٩. وأما قراة عبد الله وأمثاله كالشعبي فهي شاذة وانظر البحر =

فصل

المعنى أفتجادلونه أي كيف تجادلونه على ما يرى، وذلك أنهم جادلوه حين أُسْرِيَ به فقالوا: صِفْ لنا بيتَ المقدس وأخبرنا عن عيرنا في الطريق وغير ذلك مما جادلوه والمعنى أفتجادلونه جدالاً ترومون به دفعه عما رآه وعلمه وتيقَّنه[١].

فإن قيل: هلا قيل: أفتماروه على ما رأى بصيغة الماضي لأنهم إنما جادلوه حين أسري به كما تقدم وما الحكمة في إبرازه بصيغة المضارع؟ فالجواب: أن التقدير أفتُمَارُونَه على ما يرى فكيف وهو قد رآه في السماء فماذا تقولون فيه؟[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

قوله: (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى) في نصب نزلة ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها منصوبة على الظرف؛ قال الزمخشري: نصب الظرف الذي هو «مَرَّةً»؛ لأن الفَعْلَةَ اسم للمرة من الفعل فكانت في حكمها[٣]. قال شهاب الدين: وهذا ليس مذهب البصريين وإنما هو مذهب الفَرَّاء[٤] نقله عنه مكي[٥].

الثاني: أنها منصوبة نصب المصدر الواقع موقع الحال[٦]، قال مكي: أي رَآهُ نازلاً نَزْلَةً أُخْرَى. وإليه ذهب الحَوْفيُّ وابنُ عَطِيَّةَ[٧].

الثالث: أنه منصوب على المصدر المؤكد، فقدره أبو البقاء مَرَّة أخرى أو رُؤْيَةً أُخْرَى[٨].

قال شهاب الدين: وفي تأويل نزلة «برؤية» نظر، و «أخرى» تدل على سبق رؤية

= والكشاف في المرجعين السابقين ومختصر ابن خالويه ١٤٦. وقد نقل أبو حيان عن أبي حاتم تغليط تلك القراءة ولم يبين كل منهما وجه الغلط، وانظر تلك الاشتقاقات في اللسان (مرا) والكشف ٢/ ٢٩٤ و ٢٩٥.

(١) قال بذلك البغوي والخازن والقرطبي في تفاسيرهم السابقة.

(٢) بالمعنى من الرازي ٢٨/ ٢٩٠ و ٢٩١.

(٣) قال: أي نزل عليه السلام نزلة أخرى في صورة نفسه فرآه عليها وذلك ليلة المعراج. وانظر الكشاف ٤/ ٢٩.

(٤) معاني القرآن له ٣/ ٩٧.

(٥) قال في المشكل ٢/ ٣٣١: وهو عند الفراء نصب لأنه في موضع الظرف إذْ مَعناهُ مرة أُخْرَى.

(٦) قال بذلك صاحب التبيان ١١٨٧ والقرطبي ١٧/ ٩٤.

(٧) البحر ٨/ ١٥٩ ولكن أبا البقاء قال بالمصدر وأطلق.

(٨) المرجع السابق.

قبلها[١] و «عِنْدَ سِدْرَةِ» ظرف لـ «رَآه» و «عِنْدَهَا جَنَّةُ» جملة ابتدائية في موضع الحال[٢]، والأحسن أن يكون الحال الظرف و «جنة المأوى» فاعل به. والعامة على (جَنَّة) اسم مرفوع. وقرأ أميرُ المؤمنين وأبو الدَّرْدَاءِ وأبو هُرَيْرَة وابنُ الزبير وأنس وزِرّ بنُ حبيش ومحمد بن كعب (جَنَّهُ) فعلاً ماضياً[٣]. والهاء ضمير المفعول يعود للنبي ﷺ.

والْمَأْوَى فاعل بمعنى سَتَرَهُ إيواء الله تعالى. وقيل: المعنى ضمَّه المبيت والليل، وقيل: جنَّهُ بظِلاَلِهِ ودخل فيه. قال ابن الخطيب: والضمير في قوله (عندها) على هذه القراءة عائد إلى النزلة أي عند النزلة جَنَّ محمداً المأوى.

والصحيح أنه عائد إلى السِّدرة[٤]. وقد ردت عائشة ـ (رضي الله عنها)[٥] هذه القراءة وتبعها جماعةٌ وقالوا أجنَّ الله من قرأها[٦]. وإذا ثبتت قراءة عن مثل هؤلاء فلا سبيل[٧] إلى ردِّها ولكن المستعمل إنما هو أجنَّهُ رباعياً فإن استعمل ثلاثياً تعدى بعلى كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾.

وقال أبو البقاء: وهو شاذ والمستعمل أَجَنَّهُ[٨]. وقد تقدم الكلام على هذه المادة في الأَنْعَامِ[٩].

فصل

والواو في (وَلَقَدْ) يحتمل أن تكون عاطفة، ويحتمل أن تكون للحال أي كيف

---

(١) الدر المصون له مكتبة البلدية بالإسكندرية تحت رقم ١٣١٢ لوحة رقم ١١٢ و ١١٣.
(٢) قال بتلك الإعرابات صاحب التبيان في مرجعه السابق.
(٣) قراءة شاذة ذكرها الإمام أبو الفتح في المحتسب ٢/ ٢٩٣، وابن خالويه في المختصر ١٤٦، وإن كان الناسخ قد ضبطها خطأً حيث جعلها تاءً لا هاءً. وهو خلاف المراد. انظر المختصر ١٤٦. وقد وردت تلك القراءة فيما نقله أبو الفتح عن أبي حاتم فيما نقله هو عن عائشة كما سيجيء الآن. انظر المحتسب ٢/ ٢٩٣.
(٤) وهو ترجيح الرازي فيما نقله في التفسير الكبير ٢٨/ ٢٩٢.
(٥) زيادة من (أ).
(٦) انظر المحتسب السابق فيما رواه أبو حاتم عن ابن عباس وآخرين.
(٧) فقد روى أبو حاتم فيما نقله ابن جني في المحتسب أن عبد الله بن قيس قال: سمعت عبد الله بن الزبير يقرؤها جَنَّهُ المأوى. المحتسب ٢/ ٢٩٣.
(٨) وانظر التبيان ١١٨٧.
(٩) عند الآية سالفة الذكر. أقول: والذي عليه أهل اللغة أن جنَّهُ الليل: أدركه الليلُ وجن عليه الليلُ وأجنهُ ألبسه سوادَهُ، جنَّ عليه الليلُ جُنوناً وجِنَاناً وأجنَّهُ إجْنَاناً، والمعنى الجامع لتصريف (ج ن ن) أين وقعت إنما هو الاستخفاء والستر ومنه الجِنّ والجِنَّة، والجَانّ والجِنَّان لاستتار الجنّ، ومنه المِجَنّ للتّرس لستره ومنه الجَنِين لاستتاره في الرحم ومنه الجَنّة لأنها لا تكون جنة حتى يكون الشجر فيها وذلك ستر لها والجَنَان روح القلب لاستتار ذلك، والجَنَن القبر وعليه بقية الباب، وانظر اللّسان جَنَن والمحتسب ٢٠/ ٢٩٣ و ٢٩٤.

تجادلونه فيما رآه وقد رآه على وجهٍ لا شك فيه؟[١]

واعلم أن قوله: (نَزْلَةً) هي فَعْلَةٌ من النزول كجَلْسَةٍ من الجُلُوس فلا بدّ من نُزُولٍ. واختلفوا في ذلك النزول وفيه وجوه:

الأول: أن الضمير في (رآه) عائد إلى الله تعالى، أي رأى اللَّهَ نزلةً أخرى. وهذا قول من قال في قوله (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) هو الله تعالى. وقد قيل: بأن النبي ـ ﷺ ـ رأى ربه بقلبه مرتين. وعلى هذا ففي النزول وجهان:

أحدهما: قول من يجوز على الله الحركة[٢].

وثانيهما: أن النزول بمعنى القُرْبِ بالرَّحْمَةِ والفَضْلِ.

الثاني: أن محمداً ـ ﷺ ـ رأى الله نزله أخرى، والمراد من النزلة ضدها، وهي العَرْجة كأنه قال: رآه عَرْجَةً أخرى[٣] قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما ـ)[٤] نزلة أخرى هو أنه كانت للنبي ـ ﷺ ـ عَرَجَاتٌ في تلك الليلة لمسألة التخفيف من الصلوات فيكون لكل عرجة نزلة فرأى ربه في بعضها. وروي عن ابن عباس أن النبي ـ ﷺ[٥] ـ رأى ربه بفؤاده مرتين. وعنه أنه رأى ربَّه بعيْنَيْهِ[٦].

القول الثاني: أن الضمير في (رآه) عائد إلى جبريل أي رأى جبريل نزلةً أخرى أي رأى جبريل في صورته التي خلق (عليها)[٧] نازلاً من السَّمَاء مرةً أخرى وذلك أنه رآه في صورته مرتين مرة في الأرض ومرة في السماء «عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى» قال ابن الخطيب: ويحتمل أن تكون النَّزْلَةُ لمحمَّدٍ ـ ﷺ[٨] ـ كما تقدم في العَرْجَانِ[٩].

فصل

وقوله (عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى) المشهور أن السدرة شجرةٌ في السماء السابعة. وقيل: في السماء السادسة، كما ورد عنه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ أنه قال: «نَبْقُهَا كَقِلاَلِ هَجَرَ، وَوَرَقُهَا كَآذَانِ الفِيلَةِ».

وقيل: سدرة المنتهى الحيرة القصوى من السدرة. والسدرة كالركبة من الراكب. يعني عندها يَحَار العقل حيرةً لا حيرة فوقها، وما حار النبي ـ ﷺ ـ وما غاب ورأى مَا رَأَى.

---

(١) وهو قول الرازي.
(٢) وهذا باطل.
(٣) الرازي ٢٨/ ٢٩١ معنى.
(٤) زيادة من (أ).
(٥) في (ب) ـ عليه الصلاة والسلام ـ.
(٦) وانظر البغوي والخازن ٦/ ٢٥٩، ٢٥٨.
(٧) في (أ) تلك اللفظ وقد سقطت من (ب).
(٨) في (ب) عليه السلام.
(٩) وانظر تفسير الرازي ٢٨/ ٢٩١ معنى.

وهل قوله: «عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهى» ظرف مكان أو ظرف زمان في هذا الموضع؟

قال ابن الخطيب: المشهور أنه ظرف مكان أي رأى جبريل أو غيره بقرب سدرة المنتهى. وقيل: ظرف زمان كما يقال: صليت عِنْدَ طُلُوع الفَجْر، والتقدير رآه عند الحِيرة القُصْوَى أي في الزمان الذي يَحَار فيه عقل العقلاء. فهو عليه الصلاة والسلام ما حار مما من شأنه أن يحار العاقل فيه.

فإن قيل: هذا التأويل يبطل بقوله: «يغشى السدرة ما يغشى» فالجواب: أن المراد من الغشيان غشيان حالة على حالة أي ورد على حالة الحيرة حال الرؤية واليقين وأن محمداً عندما يحار العقل مما رآه وقت ما طرأ على تلك الحالة ما طرأ من فضل الله ورحمته.

والصحيح الأول[١].

فصل

إذا قِيلَ بأنَّ[٢] محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ رأى الله فمعناه أنه رآه عند سدرة المنتهى. والظرف قد يكون ظرفاً للرائي كما إذا قال القائل: رَأَيْتُ الهِلاَلَ فيقال (له)[٣] أينَ[٤] رأيتَهُ؟ فيقول عَلَى السطح وقد يقول عند الشجرة الفلانية. وأما قول من قال: بأن الله تعالى في مكان فذلك باطل. وإن قيل: بأن المرئي جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فظاهرٌ[٥].

فصل

إضافة السدرة إلى المنتهى يحتمل وجوهاً:

أحدها: إضافة الشيء إلى مكانه كقولك: أشجار بلدةِ كَذَا، فالمنتهى حينئذ موضع لا يتعداه مَلَكٌ[٦] قال هلال بْنُ يَسَار: سأل ابن عباس كعباً عن سِدرة المنتهى وأنا حاضر فقال كعب: إنها سدرة في أصل العرش على رؤوس حملة العرش، وإليها ينتهي عِلم الخلائق وما خلقها غيب لا يعلمه إلاّ الله[٧]. وقيل: ينتهي إليها ما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها. وقال كعب: ينتهي إليها الملائكة والأنبياءُ. وقال الربيع: ينتهي إليها أرواح الشهداء. وقال قتادة[٨]: ينتهي إليها أرواح المؤمنين[٩].

---

(١) المرجع السابق بالمعنى أيضاً.
(٢) في (ب) إنّ، دون الباء.
(٣) سقط من (ب).
(٤) في (ب) والرازي: أين كما كتب أعلى وفي (أ) أنت والتصحيح من (ب) والرازي.
(٥) بالمعنى من تفسير الإمام ٢٨/ ٢٩٢.
(٦) المرجع السابق.
(٧) البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢٥٩.
(٨) في (أ) بدل قتادة: تعالى. وهو لَحنٌ وتحريفٌ.
(٩) انظر هذه الأقوال في القرطبي ١٧/ ٩٥.

ثانيها: إضافة المحلِّ إلى الحالِّ فيه كقولك: كتابُ الْفِقهِ، وعلى هذا فالتقدير سدرة عندها[1] مُنْتَهَى العلوم.

ثالثها: إضافة المِلْكِ إلى مالكه كقولك: دَارُ زَيْدٍ، وشَجَرَةُ زَيْدٍ، وحينئذ فالمنتهى إليه محذوف تقديره سدرة المنتهى إليه، قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى**﴾ فالمنتهى إليه هو الله تعالى وإضافة السِّدْرَة إليه حينئذ كإضافةِ البَيْتِ إليه للتشريف والتعظيم، كما يقال في التسبيح: يا غايَةَ رغبَتَاهُ يا منتهى أملاهُ[2].

فصل

وجنة المأوى قيل: هي الجنة التي وعد بها المتقون، كقوله: ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ [فاطر: ٣٥]. وقيل: هي جنة أخرى عندها تكون أرواح الشهداء وقيل: هي جنة الملائكة[3].

قوله: (إِذْ يَغْشَى) منصوب بـ (رَآهُ) وقوله: «مَا يَغْشَى» كقوله: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]. وقال ابن الخطيب العامل في (إِذْ) ما قبلها أو ما بعدها؟ فيه وجهان:

فإنْ قلنا: ما قبلها ففيه احتمالان:

أظهرهما: «رآه» أي رآه وقت ما يغشى السِّدْرَة الذي يغشى.

والثاني: العامل فيه الفعل الذي في النزلة أي رآه نزلةً أخرى تلك النزلة وقت ما يغشى السِّدرة ما يغشى أي نزوله لم يكن إلاَّ بعدما ظهرت العجائب عند السدرة، وغَشِيهَا مَا غشي.

وإن قلنا: العامل فيها ما بعدها فالعامل فيه «مَا زَاغَ الْبَصَرُ» أي ما زاغ بصره وَقْتَ غَشَيَان السِّدْرَةِ ما غَشِيَهَا[4].

فصل

اختلفوا فيما يَغْشَى السدرة فقيل: فَرَاشٌ وَجَرَادٌ مِنْ ذَهب[5]. وهو قول ابن عباس، وابن مسعود، والضحاك. قال القرطبي: وعن النبي ـ ﷺ ـ قال: رأيتُ السِّدْرَة يَغْشَاهَا فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَرَأَيْتُ عَلَى كُلِّ وَرْدَةٍ مَلَكاً قَائِماً يُسَبِّح؛ وذلك قوله تعالى: ﴿**إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى**﴾[6]. قال ابن الخطيب: وهذا ضعيف لأن ذلك لا يثبت إلاَّ بدليل سَمْعِيٍّ فإن صح فيه خبر[7] وإلاَّ فلا وجه له.

وقيل: ملائكة يَغْشَوْنَها كأنهم طيورٌ[8] يرتَقُونَ إليها متشرِّفين متبرِّكين بها زائرين كما يزور الناس الكعبة.

---

(١) في (ب) عندها كذلك وفي الرازي: عند سدرة بدون (ها).
(٢) قال بهذه الأوجه والاحتمالات الإمام الفخر في تفسيره ٢٨/ ٢٩٢.
(٣) وانظر القرطبي ١٧/ ٩٦.
(٤) تفسير الإمام الفخر الرازي ٢٨/ ٢٩٣.
(٥) وهو ضعيف لأن ذلك لا يثبت إلا بدليل سمعي كما سيجيء الآن.
(٦) انظر القرطبي ١٧/ ٩٦.
(٧) فلا يبعد من جواز التأويل.
(٨) وهو قريب لأن المكان مكان لا يتعداه الملك. وانظر الرازي ٢٨/ ٢٩٣.

وقيل: يغشاها أنوار الله؛ لأن النبي ـ ﷺ ـ لما وصل إليها تجلّى ربه لها كما تجلى للجبل فظهرت الأنوار لكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت فجعل الجبل دكًا ولم تتحرك الشجرة، وخَرَّ موسى صَعِقاً ولم يتزلزل محمد. وقيل: أبهمه تعظيماً له[1]. والْغشَيَانُ[2] يكون بمعنى التغطية والسَّتْر ومنه الغَوَاشِي[3]، ويكون بمعنى الإتيان، يقال: فُلاَنٌ يَغْشَانِي كُلَّ وقت أي يأتِيني.

فصل

قال الماوردي في معاني القرآن: قيل: لما اختيرت السدرةُ لهذا الأمر دون غيرها من الشجر؟ قال: لأن السدرة تختص بثلاثة أوصاف: ظلٌّ مديدٍ، وطعم لذيذٍ، ورائحة زكيةٍ فشابهت الإيمانَ الذي يجمع قولاً وعملاً ونيةً، فظلها من الإيمانَ بمنزلة العمل لتجاوزه وطعمها بمنزلة النية لكمونه، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره. وروى أبو الدرداء عن النبيّ ـ ﷺ ـ قال: «مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً صَوَّبَ اللَّهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ» وسئل أبو الدرداء عن معنى هذا الحديث فقال: هو مختصر بمعنى من قطع سدرة في فَلاَةٍ يستظل بها ابن السَّبيل والبهائم عبثاً وظُلْماً بغير حق يكون له فيها صوَّب الله رأسه في النار[4].

قوله: (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) اللام في البصر يحتمل وجهين:

أحدهما: المعروف أي ما زاغ بصرُ محمدٍ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعلى هذا فقدم الزيغ لوجوه إن قيل: بأن الغَاشِيَ للسدرة هو الجرادُ والفَرَاشُ فمعناه لم يلتفت إليه ولم يشتغل به ولم يقطع نظره عن مقصوده فيكون غَشَيَانُ الجراد والفراش ابتلاءً وامتحاناً لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإنْ قِيلَ إنّ الغاشي أنوار الله تعالى ففيه وجهان:

أحدهما: معناه لم يلتفت يَمْنَةً ويَسْرَةً بل اشتغل بمطالعتها.

والثاني: ما زاغ البصر بصَعْقَة، بخلاف موسى ـ «عليه الصلاة والسلام ـ» فإنه قطع النظر وغشي عليه، ففي الأول بيان أدبِ محمَّدٍ ـ ﷺ ـ وفي الثاني بيان قُوَّتِهِ.

الوجه الثاني: لتعريف الجنس أي ما زاغ بَصَرُهُ أصلاً في ذلك الوضع لِعظمِ هَيْبَتِهِ.

فإن قيل: لو كان كذلك[5] لقال: ما زاغ بصرٌ، فإنه أدل على العموم، لأن النكرة في مَعْرِضِ النفي تَعُمُّ.

---

(١) وانظر الرازي المرجع السابق.

(٢) ضبطت غَشَيَان وغِشْيَان بفتح الأول والثاني وكسره وسكون الثاني.

(٣) للغواشي ـ جمع غاش ـ معانٍ كثيرة، فهم السؤال الذين يغشَون يرجُونَ الفضل والثَّواب ومعناهم الأصدقاء والزوار ولها معانٍ أخر ذكرها صاحب اللسان. وانظر اللسان غشا ٣٢٦١.

(٤) انظر القرطبي ١٧/٩٧.

(٥) أي لتعريف الجنس.

فالجواب: هو كقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولم يقل: ولم يدرك له بَصَر[١].

قوله: (وَمَا طَغَى) فيه وجهان:

الأول: أنه عطفُ جملةٍ[٢] مستقلة على جملةٍ أخرى[٣].

والثاني: أنه عطف جملة مقدرة على جملة. فمثال المستقلة: خَرَجَ زَيْدٌ ودَخَلَ عَمْرو. ومثال المقدرة خَرَجَ زَيْدٌ ودَخَلَ. والوجهان جائزانِ هنا.

أما الأول: فكأنه تعالى قال عند ظهور النور: مَا زَاغَ بصرُ محمَّد ـ ﷺ ـ وما طغى مُحَمَّد بسبب الالتفات ولو التفت لكان طاغياً.

وأما الثاني: فظاهر. فإن قيل: بأن الغاشي للسِّدْرة جرادٌ فالمعنى لم يلتفت إليه وما طغى أي لم يلتفت إلى غير الله ولم يلتفت إلى الجراد ولا إلى غير الجراد بل إلى اللَّه تَعَالَى.

وإن قيل: غَشِيَها نُورٌ فقوله: «ما زاغ» أي ما مال عن الأنوار «وما طغى» أي ما طلب شيئاً وراءه. وفيه لطيفة وهي أن تكون ذَانِك[٤] بياناً لوصول محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى سدرة اليقين الذي لا يقين فوقه وذلك أن بصر محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما زاغ أي ما مال عن الطريق فلم يَرَ الشيء على خلاف ما هو عليه بخلاف من ينظر إلى عين الشمس مثلاً ثم ينظر إلى شيءٍ أبيضَ فإنه يراه أصفَر أو أخْضَرَ يزيغ بصره عن جَادَّة الإبصار، وقوله: «وَمَا طَغَى» أي ما تخيل المعدوم موجوداً[٥]. وقيل: «وما طغى» أي ما جاوز ما أُمِرَ بِهِ[٦].

قوله: «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّه الكُبْرَى» في «الكبرى» وجهان:

أظهرهما: أنها مفعول (رأى) و (من آياتِ ربه) حال مقدرة، والتقدير لقد رأى الآيات الكبرى من آيات ربه.

والثاني: أن «مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ» هو مفعول الرؤية و «الكُبْرَى» صفة «لآيات ربه»[٧]. وهذا الجمع يجوز وصفه بوصف المؤنثة الواحدة، وحسَّنَهُ هنا كونها فاصلة[٨]. وقد تقدم مثله في «طه» عند قوله ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٣].

---

(١) أي فعرف أن المراد به الجنس. وانظر تفسير الرازي ٢٨/ ٢٩٣ و ٢٩٤.
(٢) وهي «وما طغى». (٣) وهي «ما زاغ البصر».
(٤) في (ب) ذلك وكذا في الرازي.
(٥) وانظر هذه كله في تفسير العلامة الرازي ٢٨/ ٢٩٤.
(٦) نقله القرطبي دون نسبة لقائله. وانظر الجامع له ١٧/ ٩٧.
(٧) أخذه الإمام أبو حيان نقلاً عن الإمام الفخر في تفسيره كما سيجيء الآن، وانظر البحر ٨/ ١٦٠.
(٨) أي كون الصفة «كبرى» فاصلة وآخر آية وتبتدىء بعدها آية أخرى.

قال ابن الخطيب: في «الكُبْرَى» وجهان:

أحدهما: أنها صفة لمحذوف تقديره لقد رأى من آيات ربه الآيَة الكُبْرَى.

ثانيهما: صفة لآيات ربه فيكون مفعول رأى محذوفاً تقديره رأى من آيات ربّه الكبرى آيةً أو شيئاً[١].

فصل

قال بعض المفسرين: آيات ربه الكبرى هي أنه رأى جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ في صورته. قال ابن الخطيب: والظاهر أن هذه الآيات غير تِيكَ[٢]، لأن جبريلَ ـ عَلَيْهِ الصَّلاة والسلامُ ـ وإن كان عظيماً، لكن ورد في الأخبار أن لله[٣] ملائكةً أعظمَ منه. و «الكُبْرَى» تأنيث الأكبر فكأنه تعالى قال: رأى من آياتِ ربِّه آياتٍ هي أكبر الآيَاتِ[٤].

فصل

قال المفسرون: رأى رَفْرَفاً أخْضَرَ سَدَّ أُفُقَ السماء. قال البيهقيُّ[٥]: الرفرف جبريلُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ في صورته على رفرف، والرَّفْرَفُ البسَاط. وقيل: ثوبٌ كان يَلْبَسُهُ. وقال القرطبي: وروى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿**دَنَا فَتَدَلَّى**﴾ أنه على التقديم والتأخير، أي تدلى الرفرف لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليلة المعراج فجلس عليه ثم رفع فدنا من ربه قال: فَارَقَني جبريلُ وانْقَطَعت عَنّي الأَصْوَاتُ وسَمِعْتُ كَلاَمَ رَبِّي. فعلى هذا الرفرف ما يجلس[٦] عليه كالبسَاط ونَحْوِهِ.

فصل

قال ابن الخطيب (هذه الآية)[٧] تدل على أن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم ير الله ليلة المعراج وإنما رأى آيات الله. وفيه خلاف. ووجه الدلالة أنه ختم قصة المعراج ههنا برؤية الآيات وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ إلى أن قال: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] ولو كان رأى ربه لكان ذلك أعظمَ ما يمكن فكان أكبر شيء هو الرؤية، فكان الأمر للرؤية[٨].

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ

---

(١) التفسير الكبير ٢٨/ ٢٩٥.

(٢) كذا في النسختين وفي تفسيره: تلك.

(٣) في (ب) الله ملكه.

(٤) وانظر الرازي ٢٨/ ٢٩٥ السابق.

(٥) سَبَق التعريف بِهِ.

(٦) في القرطبي: ما يقعَد ويجلس عليه. وانظر القرطبي ١٧/ ٩٨.

(٧) ما بين القوسين تكملة من (ب).

(٨) والمعنى من تفسير الرازي ٢٨/ ٢٩٥.

ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾
أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾

قوله: «أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ والْعُزَّى» لما قرر الرسالة ذكر ما ينبغي أن يبتدىء به الرسول وهو التوحيد ومنع الخلق عن الإشراك، فقوله: «أَفَرَأَيْتُمْ» إشارة إلى إبطال قولهم بنفس القول كما إذا ادعى ضعيفُ الملكَ ثم رآه العقلاء في غاية البعد عما يدعيه يقولون: انْظُرُوا إلى هذا الذي يدعي المُلْكَ منكرين عليه غير مستدلين بدليل لظهور أمره فكذلك قال: «أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ والْعُزَّى» أي كما هما فكيف تشركونهما بالله؟[1]

فصل

والألف واللام في (اللات) زائدة لازمة، فأما قوله:

٤٥٥٥ ـ .... **إِلَى لاتِهَا** ....[2]

فحذفت للإضافة.

وقيل: هي والعزى علمان بالوَضْع، أو صفتان غَالِبَتَانِ[3]؟ خلاف. ويترتب على ذلك جواز صدق «أَل» وعدمه.

فإن قلنا: إنهما ليسا وصفين في الأصل فلا تحذف منهما «أل». وإن قلنا: إنهما صفتان وإنّ «أَلْ» لِلَمْحِ الصفة جاز، وبالتقديرين «فأل» زائدة. وقال أبو البقاء: وقيل: هما صفتان غالبتان مثل الْحَارِث والْعَبَّاس فلا تكون أل زائدة[4]. انتهى.

قال شهاب الدين: وهو غلط، لأن التي للمح الصفة منصوص على زيادتها[5] بمعنى أنها لم تُؤْثِر تَعْريفاً. واختلف في تاء اللات، فقيل: أصل[6] وأصله من لاَتَ يَلِيتُ فألفها عن ياء، فإن مادة «ل ي ت» موجودة. وقيل: زائدة وهي من لَوَى يَلْوِي، لأنهم

---

(١) قال بهذه الحجج الإمام الفخر في مرجعه السابق.

(٢) جزء من بيت سيجيء تحقيقه الآن.

(٣) نَقُولُ: والعلم بالوضع أي المرتجل وهو يقابل العلم بالنقل وهناك واسطة بَيْنَهُما لا توصف بنقل أو ارتجال. وهذا رأي الأكثرين. وذهب بعضهم: إلى أن الأعلام كلها منقولة وليس منها شيء مرتجل وقال: إن الوضع سبق ووصل إلى المسمى الأول، وعلم مدلول تلك اللفظة في النكرات وسمي بها وجهلنا نحن أصلها فتوهمها من سمى بها من أجل ذلك مرتجلة، وذهب الزجاج إلى أنها كلها مرتجلة والمرتجل عنده ما لم يقصد في وضعه النقل من محلٍّ آخَرَ إلى هذا. ولهذا لم تجعل «أل» في الحارث زائدةً. وانظر همع الهوامع ١/ ٧١.

(٤) التبيان ١١٨٧. أقول: وقوله موافق لرأي الزجاج في العَلَم.

(٥) وإن كانت زيادة غير لازمة وهي كثيرة واقعة في الفَصِيح ويتوقف هذا على السماع ألا ترى أنه لا يقال مثل ذلك في نحو: مُحَمَّد وَمَعْرُوف وأحمد. وانظر مغني ابن هشام ٥١.

(٦) كالياء من الباب.

كانوا يلوون أَعْنَاقَهُمْ إليها، أو يلتوون أي يَعْتَكِفُونَ عليها. وأصلها لَوْيَةٌ فحذفت لامها، فألفها على هذا (بدلٌ)[١] من واو[٢].

قال الزمخشري: هي فَعْلَة من لَوَى يَلْوِي[٣]، وعلى هذا فأصلها لوية فسكنت الياء وحذفت لالتقاء الساكنين، بقيت لَوْة فقلبت الواو ألفاً لفتح ما قبلها فصارت «لاَت». واخْتَلَف القُرَّاءُ في الوقف على تائها فوقف الكسائي عليها بالهاء[٤]. والباقون بالتاء. وهو[٥] مبني على القولين المتقدمين.

فمن اعتقد تاءها أصلية أَقرها في الوقت كتَاء بِنْتٍ، ومن اعتقد زيادتها وقف عليها هاءً.

قال ابن الخطيب: والتاء في اللات تاء تأنيث كما في المَنَاة لكنها تكتب ممطوطةً لئلا يوقف عليها فتصير هاءً فتشبه باسم (الله) فإن الهاء في (الله) أصلية ليست تاءَ تأنيث ووقف عليها فانقلبت هاءً[٦].

واللاَّتُ اسمُ صنم. وقيل: كان لثقيف بالطائف. قاله قتادة. وقيل: بعُكَاظ. وقال زيد: بيت بنخلة. وقيل: صنم. ورجح ابن عطية الأول لقول الشاعر:

٤٥٥٦ ـ وَفَـرَّتْ ثَـقِـيـفٌ إلـى لاَتِـهَـا بِـمُـنْـقَـلَـبِ الْـخَـائِـبِ الْـخَـاسِـرِ[٧]

والعامة على تخفيف تائها.

وقرأ ابن عباس، ومجاهدٌ، ومنصورُ بن المُعْتَمِر، وأبو الجَوْزَاء، وأبو صالح وابنُ كثير ـ في رواية ـ بتشديد التاء[٨].

فقيل: هو رجل كان يَلِتُّ السَّوِيقَ، ويُطْعِمهُ الْحَاجَّ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه، فهو اسم فاعل في الأصل غلب على هذا الرجل وكان يجلس عند حجر، فلما

---

(١) زيادة للسياق. (٢) وانظر البحر المحيط ٨/ ١٦٠.

(٣) الكشاف ٤/ ٦٠.

(٤) كذا هو الأصح كما في (ب) وفي (أ) بالياء. وهو لحن وتحريف. وانظر معاني الفراء ٣/ ٩٧ والقرطبي ١٧/ ١٠١ والإتحاف ٤٠٢ و ٤٠١.

(٥) يقصد لفظ «اللات».

(٦) كلمة قلقة كيف الانقلاب وهي في الأصل هاء. وانظر تفسير الرازي ٢٨/ ٢٩٥.

(٧) بيت من المتقارب ولم أعرف قائله وجاء به دلالة على أن اللات اسم صنم وانظر البيت في البحر المحيط ٨/ ١٦٠ وروح المعاني للألوسيّ ٢٧/ ٥٤.

(٨) قراءة شاذة انظر الفخر الرازي ٢٨/ ٢٩٦ والإتحاف ٤٠٢ ومختصر ابن خالويه ١٤٧ والمحتسب ٢/ ٢٩٤ قالوا: كان رجل يلِتّ السويق والسّمن بسوق عكاظ عند صخرة فإذا باع السويق والسمن صبَّ على الصخرة ثم يلِت، فما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لذلك الرجل صاحب السويق. وانظر المحتسب المرجع السابق.

مات سمي الحجر باسمه وعُبِدَ من دون الله. وقال مجاهد: كان في رأس جبل له غنيمة يَسْلأُ[١] منها السَّمْنَ ويأخذ منها الأقطَ[٢] ويجمع رسلها ويتخذ منه حيساً فيطعم الحاج وكان ببطن النخلة فلما مات عبدوه وهو اللات. وقال الكلبي: كان رجلاً من ثقيف يقال له: صَرْمَة بن غَنْم وكان يَسْلأُ السَّمن فيضعه على صخْرة، ثم تأتيه العرب فتلتُّ به أَسْوِقَتَهُمْ، فلما مات الرجل حَوَّلَتْهَا ثَقيفٌ إلى منازلها فعبدتها[٣]. وقال القرطبي: كانت صخرة مربَّعة وكان سَدَنَتُها من ثقيف وكانوا قد بنوا عليها بناءً، فكانت قريش وجميع العرب تعظمها وبها كانت العربُ تسمّي زيدَ اللاتِ وتَيْمَ اللات، وكانت في موضع مسجد الطائف اليسرى، فلم تزل كذلك إلى أن أسلمت ثقيفٌ. فبعث رسول الله ـ ﷺ ـ عليًا[٤] فَهَدَمَهَا وحَرَقَها بالنار، ثم اتخذ العرب العزى وهي أحدث من اللات، اتخذها ظالمُ بن سَعِيد[٥].

والعزى: فعلى من العز وهي تأنيث الأعَزّ كالفُضْلَى والأَفْضَل. وهي اسم صنم. وقيل: شجرة كانت تُعبد.

قال مجاهد: هي شجرة كانت بغَطَفَان كانوا يعبدونها، فبعث النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ خالدَ بن الوليد فقطعها فجعل خالدٌ يضربُها بالفَأس ويقول:

٤٥٥٧ ـ يَا عُزَّ كُفْرَانَكِ لاَ سُبْحَانَكِ إنِّي رَأيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكِ[٦]

فخرجت منها شيطانة مكشوفة الرأس، ناشرةً شعرها، تضرب رأسَها وتدعو بالوَيْل والثُّبُور فقتلها خالد.

وروي أَنَّ خالداً لما قطع الشجرة رجع إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: قد قَطَعْتُها، فقال: ما رأيت؟ قال: ما رأيت شيئاً. فقال النبي ـ ﷺ ـ: ما بلغت. فعاودها ومعه المعول فقلعها واجتثَّ أصلها فخرجت منها امرأة عُرْيَانة فقتلَها، ثم رَجَعَ إلى النبي ـ ﷺ ـ وأخبره بذلك فقال: تلك العُزَّى، ولن تُعْبَدَ أبداً.

وقال الضحاك: هو صنم لغَطَفَان وضعها لهم سعدُ بن ظالم الغَطَفَانِيّ. وذلك أنه قَدِمَ مكة فرأى الصَّفَا والمَرْوَة، ورأى أهل مكة يطوفون بينهما فعاد إلى بطن نخلة وقال

---

(١) سَلأ السَّمْنَ يَسْلأهُ سلأً واسْتَلأَهُ طَبَخَهُ وعَالَجَهُ فأذاب زُبْدَه والاسم: السِّلاء والجمع أَسْلِئة، وانظر اللسان سلأ ٢٠٥٧.

(٢) الأقِطُ والأَقْطُ شيء يتخذ من اللّبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يَمْصُل. وانظر المرجع السابق «أقط» ٩٩.

(٣) وانظر البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢٦٢ والخازن في لباب التأويل ٦/ ٢٦٢.

(٤) في القرطبي: المغيرة بن شعبة. (٥) الجامع له ١٧/ ٩٩.

(٦) من الرجز له و(عُزّ) ترخيم «عُزّى» وانظر البيت في القرطبي السابق والبغوي والخازن ٦/ ٢٦٢ والكشاف ٤/ ٣٠ والتصريح ١/ ١٥١ واللسان عزز، والبحر ٨/ ١٦١ ومعاني الفراء ٣/ ٩٨، وروح المعاني ٢٧/ ٥٥ ومجمع البيان ٩/ ٢٦٦ والسراج المنير ٤/ ١٢٨.

لقومه: إن لأهلِ مكة الصَّفَا والمَرْوَةَ وليستَا لكم ولهم إله يعبدونه وليس لكم قالوا: فما تأمرنا؟ قال: أنا أصنع لكم ذلك، فأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ونقلهما إلى نخلة فوضع الذي أخذ من الصَّفا فقالَ: هذا الصفا ثم وضع الذي أخذ من المروة فقال: هذا المروة ثم أخذ ثلاثة أحجار فأسندها إلى شجرة وقال: هذا ربكم فجعلوا يطوفون بين الحَجَرين ويعبدون الحجارة حتى افتتح رسول الله ـ ﷺ ـ مكة فأمر برفع الحجارة، وبعث خالد بن الوليد إلى العُزَّى فقطَعَها. وقال قتادة وابن زيد: هي بيت بالطائف كانت تعبده ثقيف. وقال ابن جبير العزى حجر أبيض كانوا يعبدونه(١).

قوله: (وَمَنَاةَ) قرأ ابن كثير(٢): مَنَأَةَ بهمزة مفتوحة بعد الألف، والباقون بألف(٣) وحدها، وهي صخرة كانت تعبد من دون الله. فأما قراءة ابن كثير فاشتقاقها من النَّوْءِ، وهو المطر، لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء ووزنها حينئذ «مَفْعَلَة» فألفها عن واو وهمزتها أصلية وميمها زائدة وأنشدوا على ذلك:

٤٥٥٨ ـ أَلا هَلْ أَتَى تَيم بْنَ عَبْدِ مَنَاءَةٍ عَلَى النَّأْيِ فِيمَا بَيْنَنَا ابْنُ تَمِيمِ(٤)

وقد أنكر أبو عبيدة قراءة ابْنِ كثير، وقال: لم أسمع الْهَمْزَ(٥).

قال شهاب الدين: قد سمعه غيرهُ، والبيت حجَّةٌ عليه(٦). وأما قراءة العامة فاشتقاقها من مَنَى يَمْنِي أي صَبَّ لأن دِمَاءَ النَّسائك كانت تُصَبُّ عندَها(٧)، وأنشدوا لجرير:

٤٥٥٩ ـ أَزَيْدَ مَنَاةَ تُوعِدُ يَا ابْنَ تَيْمٍ تَأَمَّلْ أَيْنَ تَاهَ بِكَ الوَعِيدُ(٨)

وقال أبو البقاء: وألفه عن ياء كقولك: مَنَى يَمْنِي إذا قدر، ويجوز أن تكون من الواو، ومنه مَنَوَانِ(٩) فوزنها على قراءة القصر فَعَلَةٌ.

---

(١) وانظر الخازن والبغوي المرجعين السابقين لفظاً والقرطبي معنى.

(٢) وهي قراءة ابن مُحَيْصِن أيضاً وحُمَيْد ومُجَاهِد والسُّلَمِي والأعمش عن أبي بكرٍ.

(٣) وهما لغتان وانظر الإتحاف ٤٠٣ والقرطبي ١٧/ ١٠١.

(٤) نسبه القرطبي لهَوْبَر الحارثيّ بلفظ: «التّيم» بدل «تيم» و «الشيء» بدل «النأي». وشاهده: مدّ «مَنَاة» هو جائز القصر والمد. وانظر البحر ٨/ ١٦١ وروح المعاني للألوسي ٢٧/ ٥٥، والقرطبي ١٧/ ١٠٢.

(٥) لم أجده في المجاز له ٢/ ٢٣٦.

(٦) وانظر الدر المصون مخطوط بمكتبة الإسكندرية لوحة رقم ١١٦.

(٧) القرطبي ١٧/ ١٠١.

(٨) من الوافر له وفي البحر: بأس تيم وفي الديوان تَبَيَّنْ بدل تَأَمَّل. والشاهد: في مناة فإن الهمز أصل ولكنهم قصروا لأن القصر أشهر. وانظر البحر ٨/ ١٦١ والديوان دار صادر ص ١٢٩، وفتح القدير ٥/ ١٠٨.

(٩) التبيان ١١٨٨. رغم أنه يجوز: منيان وهو تثنية «منا» وهو الكيل أو الميزان الذي يوزن به ولكن مَنَوَان أعلى من مَنَيَان. وانظر اللسان مني ٤٢٨٥.

فصل

قال قتادة: مناة صخرة كانت لخُزَاعةَ بقَدِيد. وقالت عائشة (رضي الله عنها)[١] في الأنصار كانوا يصلون لمناةَ فكانت حذو قَديدٍ. وقال ابن زيد: بيت كان بالمشلل تعبده بنو كعب. وقال الضحاك مناة صنم لهُذَيْل وخُزَاعَة تعبده أهل مكة. وقيل: اللاَّتُ والعُزَّى ومناة أصنامٌ مِنْ حجارةٍ كانت في جوف الكعبة يعبدونها.

قوله: (الأُخْرَى) صفة لمَنَاةَ[٢]. قال أبو البقاء: و «الأُخْرَى» توكيد لأن الثالثة لا تكون إلا أُخْرَى[٣].

وقال الزمخشري: والأخرى ذم وهي المتأخِّرة الوضيعة المقدار، كقوله[٤]: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي وُضَعاؤهم لأَشْرَافِهِمْ[٥]. ويجوز أن تكون الأولية والتقدم عندهم لِلاَّتِ والْعُزَّى[٦]. انتهى.

وفيه نظر، لأن «الأخرى» إنما تدل على الغيرية، وليس فيها تعرض لمدح ولا ذمٍّ، فإن جاء شيء فلقرينة خارجيَّةٍ.

وقيل: الأخرى صفة للعُزَّى؛ لأن الثانية أخرى بالنسبة إلى الأولى[٧]. وقال الحُسَيْنُ بن الفَضْلِ: فيه تقديم وتأخير أي العزَّى الأُخْرَى، ومناة الثالثة. ولا حاجة إلى ذلك؛ لأن الأصل عَدَمُهُ[٨].

فصل

قال ابن الخطيب: فإنْ قيلَ: إنما يقال: أَخَّرُوا «أُخْرى» إذا (تقدم)[٩] أول مشاركٌ للثاني فلا يقال جَاءَنِي رَجُلٌ وامْرَأَةٌ أُخْرَى فيلزم أن تكون العُزَّى ثالثةً!

فالجواب: قد يستعمل الآخر والأُخرى للذَّمِّ، فالمراد بالأخرى المتأخرة الذليلة. واللات على صورة آدمي[١٠]. والعُزَّى شجرة وهي نبات. وقيل: صخرة جَمَاد وهي متأخرة عنهما. أو في الكلام حذف أي اللات والعزى المعبودين بالباطل ومناة الثالثة الأخرى. أو المعنى ومناة الأخرى الثالثة على التقديم والتأخير[١١]. ومعنى الآية هل

---

(١) زيادة من (أ).
(٢) وانظر البغوي والخازن ٦/ ٢٦٣.
(٣) التبيان ١١٨٨.
(٤) في (أ) كقولك. وفي الكشاف: كقوله تعالى.
(٥) وفيه لرؤسائهم وأشرافهم.
(٦) وانظر الكشاف ٤/ ٣٠.
(٧) نقله القرطبي في تفسيره ولم يحدّد من قال به، انظر القرطبي ١٧/ ١٠٢.
(٨) وانظر المرجع السابق.
(٩) سقط من (ب) وقال الناسخ: كذا بياض من الأصل.
(١٠) بالمعنى من الرازي ٢٨/ ٢٩٦.
(١١) الرازي والقرطبي السابقين.

رأيتم هذه الأصنام حقَّ الرؤية فَإنْ رأيتموها علمتم أنها لا تَصْلُحُ للإلهيَّةِ. والمقصود إبطال الشركاء وإثبات التوحيد.

فصل

«أرأيت» بمعنى أخبرني فيتعدى لاثنين أولهما اللات وما عطف عليه، والثاني: الجملة الاستفهامية من قوله: «أَلَكُمُ الذَّكَرُ».

فإن قيل: لم يعد من هذه الجملة ضمير على المفعول الأول.

فالجواب: أن قوله «وَلَهُ الأُنْثَى» في قوة: له هذه الأصنام وإن كان أصل التركيب ألكم الذكر وله هُنَّ أي تلك الأصنام. وإنما أوثر هذا الاسم الظاهر لوقوعه رأسَ فاصلةٍ[١].

وقد جعل الزجاج المفعولَ الثَّانِي محذوفاً، فإنَّه قال: وجه تلفيق هذه الآية مع ما قبلها فيقول أخبروني عن آلهتكم هل لها شيء من القدرة والعظمة التي وصف بها ربّ العزة في الآي السالِفةِ. انتهى[٢].

فعلى هذا يكون قوله (أَلَكُمُ الذَّكَرُ) مُتعلِّقاً بما قبله من حيثُ المَعْنى لا من حيثُ الإعراب[٣].

وجعل ابن عطية الرؤية هنا بصرية فقال: وهي من رؤية العين، لأنه أحال على أجرام مرئيَّة، ولو كانت «أرأيت» التي هي استفتاء لم يتعد[٤]. وقد تقدم الكلام على ذلك في الأنعام وغيرها.

فإن قيل: ما فائدة الفاء في قوله: «أَفَرَأَيْتُمْ» وقد وردت في مواضعَ بغير فاء، كقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٨] (و) ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ [فاطر: ٤٠].

فالجواب: لما تقدم عظمة الله في ملكوته وأن رسوله إلى الرسل يسد الآفاق ببعض أجنحته ويهلك المدائن بشدته وقوته ولا يمكنه مع هذا أن يتعدى السدرة في مقام جلال الله وعزته قال: أَفَرَأَيْتُمْ هذه الأصنام مع ذلتها وحقارتها شركاء لله مع ما تقدم فقال بالفاء

---

(١) بالمعنى من البحر ٨/ ١٦١.

(٢) اللفظ لفظ أبي حيان في البحر ٨/ ١٦١ فقد قال في إعراب القرآن ٥/ ٧٢: كأن المعنى ـ والله أعلم ـ أخبرونا عن هذه الآلهة التي لكم تعبدونها من دون الله عز وجل، هل لها من هذه القدرة والعظمة التي وصف بها رب العزة ـ جل وعزّ ـ شيء؟.

(٣) البحر السابق.

(٤) البحر المحيط السابق أيضاً وقد هاجم أبو حيان ابن عطية قائلاً: «ودل كلام ابن عطية على أنه لم يطالع ما قاله الناس في «أَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ اسْتِفتَاءً» على اصطلاحه وهي التي بمعنى أخبرني». ويقصد بآية الأنعام قوله: **﴿قُلْ أَرَأَيتَمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُم السَّاعة أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾** من الآية ٤٠ منها.

أي عقيب ما سمعتم من عَظَمَةِ آياتِ الله الكبرى ونفادِ أمْرِهِ في الملأ الأعلى وما تحت الثَّرى انظروا إلى اللات والعزى تَعْلَمُوا فَسَادَ ما ذهبتم إليه[١].

قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى﴾ قال الكلبي: كان المشركون بمكة يقولون للأصنام والملائكة بناتِ الله.

قال ابن الخطيب: معناه كيف جعلتم لله البنات وقد اعترفتم في أنفسكم أن البناتِ ناقصاتٌ والبنون كاملونَ والله كامل العظمة فكيف نسبتم إليه الناقص وهو في غاية الذلة والحقارة حيث عبدتم الجماد من الحجارة والشجر ثم نسبتم إليكم الكامل فهذه قسمةٌ جائرةٌ على زعمكم وعادتكم لأنه كان ينبغي أن تجعلوا الأعظم للعظيم والأنقص للحقير فخالفتم النقل والعقل والعادة؟[٢]

قوله: «تِلْكَ إذَنْ قِسْمَةٌ ضِيزَى»، «تلك» إشارة إلى محذوف تقديره تلكَ القِسْمَةُ قسمةٌ غير عادلةٍ. ويحتمل أن يقال: تلك النسبة؛ أي التي نسبوها إلى الله بأَنَّ له البناتِ. وقوله (إذَنْ) جواب نسبتهم البنات إلى الله[٣].

وقوله: «ضيزَى» قرأ ابن كثير ضِئْزَى بهمزة ساكنة والباقون بياء ساكنة[٤]. وزيد بن عليّ ضَيْزَى، بفتح الضاد والياء الساكنة. فأما قراءة العامة فيحتمل أن تكون من ضَازَهُ يَضِيزُهُ إذا ضَامَهُ وجار عليه فمعنى ضِيزَى أي جائرة[٥]. وقال مجاهد ومقاتل: قِسْمَةٌ عَوْجَاءُ.

وقال الحسن: غير معتدلة، قال الشاعر:

٤٥٦٠ ـ ضَازَتْ بَنُو أَسَدٍ بِحُكْمِهِمُ إذْ يَجْعَلُونَ الرَّأسَ كَالذَّنَبِ[٦]

وعلى هذا فيحتمل وجهين:

أحدهما: أن تكون صفة على «فُعْلَى» ـ بضم الفاء ـ وإنما كسرت الفاء لتصحَّ الياء «كَبِيضٍ». فإن قيل: وأي ضرورة إلى أن يقدر أصلها ضمّ الفاء؟ ولم لا قيل: إنَّها فِعْلَى بالكسر؟.

---

(١) الرازي ٢٨/ ٢٩٦ و ٢٩٧.

(٢) بالمعنى من التفسير الكبير للرازي ٢٨/ ٢٩٧.

(٣) المرجع السابق أيضاً.

(٤) قال مكي في الكشف: وهما لُغَتَانِ وهي قراءة متواترة. وانظر الكشف ٢/ ٢٩٥ والسبعة ٦١٥ والإتحاف ٤٠٣.

(٥) البغوي ٦/ ٢٦٣.

(٦) نسب لامرىء القيس وهو من الكامل ولم أجدْه في الديوان. وشاهده أن ضَازَ بمعنى ظَلَمَ واعوجَّ. وانظر القرطبي ١٧/ ١٠٢، والبحر ٨/ ٥٤ وفتح القدير ٥/ ١٠٩، والدر المنثور ٧/ ١٥٤، وروح المعاني ٢٧/ ٥٧.

فالجواب: أن سيبويه حكى أنه لم يرد في الصفات فِعْلَى ـ بكسر الفاء ـ إنما ورد بضَمِّها، نحو: حُبْلَى وأُنْثَى ورُبَّى وما أشبهه إلا أنه قد حكى غيره في الصِّفات ذلك[١]؛ حكى ثعلب: مِشْيَةٌ حِيكَى[٢]. وَرُجلٌ كِيصَى[٣]، وحكى غيره: امرأةٌ عِزْهَى[٤]، وامرأة سِعْلَى[٥]. وهذا لا ينقض، لأن سيبويه يقول في حِيكَى وكِيصَى كقوله في ضِيزَى: لتصحَّ الياء.

وأما عِزْهَى وسِعْلَى فالمشهور فيهما عِزْهَاةٌ وسِعْلاَةٌ. وقال البغوي: ليس في كلام العرب فِعْلَى بكسر الفاء في النعوت إنما يكون في الأسماء مثل ذِكْرَى، وشِعْرَى[٦].

والوجه الثاني: أن تكون مصدراً كَذِكْرَى.

قال الكسائي: يقال ضَازَ يَضِيزُ كَذكَرَ يَذْكُرُ، ويحتمل أن يكون من ضَأَزَهُ بالهمز ـ كقراءة ابن كثير، إلا أنه خفف همزها وإن لم يكن من أصول القراء كلهم إبدالُ مثل هذه الهمزة ياء لكنها لغة التزمت فقرأوا بها[٧].

ومعنى ضَأَزَهُ يَضْأَزُهُ بالهمز نَقَصَهُ ظلماً وجوراً.

وممن جوز أن تكون الياء بدلاً من همزة أبو عُبَيْدٍ وأن يكون أصلها ضُوزَى بالواو، لأنه سمع ضَازَه يَضُوزهُ ضُوزَى وَضَازهُ يَضِيزُهُ ضِيزَى وَضَأَزَهُ يَضْأَزُهُ ضَأزاً، حكى ذلك كله الكسائي[٨]. وحكى أبو عبيد: ضِزْتُهُ[٩] وضُزْتُهُ[١٠] بكسر الفاء وضمها فكسرت

---

(١) قال في الكتاب ٤/ ٣٦٤: «وهذا باب ما تقلب فيه الياءُ واواً، وذلك فُعْلَى إذا كانت اسماً، وذلك الطّوبَى والكُوسَى لأنها لا تكون وصفاً بغير ألف ولام فأجريت مُجْرى الأسماء التي لا تكون وصفاً».
انظر الكتاب السابق، والمزهر ٢/ ٥٣.

(٢) مدح في النّساء ذم في الرجال، لأن المرأة تمشي هذه المشية من عظم فَخِذَيْها والرجل يمشي هذه المشية إذا كان أفحج. وانظر اللسان «حَيَك» ١٠٧٢.

(٣) رجل كيصى وكِيصٌ (عن ابن الأعرابي) مُتَفرِّد في طعامه لا يؤاكلُ أحداً. وانظر اللسان السابق كيص ٣٩٦٧.

(٤) رجل عِزْهَاةٌ وعِنْزَهْوَةٌ وعِزْهَاءَةٌ وعزهًى لَئِيمٌ اللسان عزه ٢٩٣٣.

(٥) اسْتَسْعَلَت المرأة صارت كالسّعْلاة خُبثاً وسلاطة؛ يقال ذلك للمرأة الصَّخابة البَذِيَّة. وانظر اللّسان سعل ٢٠١٨.

(٦) معالم التنزيل ٦/ ٢٦٣.

(٧) البحر المحيط ٨/ ١٦٢ والقرطبي ١٧/ ١٠٣ ومعاني الفراء ٣/ ٩٨ و ٩٩.

(٨) نقله عنه صاحب «الجامع» الإمام القرطبيّ في تفسيره ١٧/ ١٠٢، كما نقل هذا صاحب اللّسان والصِّحاح (ضَوَزَ وضَأَزَ وضَيَزَ).

(٩) نقلها ابن منظور في اللسان ضيز، قال: «وضِزْتُ فُلاَناً أَضِيزُهُ ضَيْزاً جُزْتُ عَلَيْهِ».

(١٠) قال أيضاً في اللسان ضوز: ويقال: ضزته حقه أي نقصته وضازني يَضُوزُني (عن كُراعٍ). إلاَّ أن صاحب اللسان ضبطها بالكسر. ولعل ذلك من المحقق.

الضاد من ضُوزَى، لأن الضمة ثقيلةٌ مع الواو. وفعلوا ذلك لِيَتَوصَّلوا به إلى قلبِ الواو ياءً[١] وأنشد الأخضر على لغة الهمز:

٤٥٦١ ـ فَإنْ تَنْأَ عَنْهَا تَنْتَقِصْكَ وإنْ تَغِبْ فَسَهْمُكَ مَضْئُوزٌ وَأَنْفُكَ رَاغِمُ[٢]

وضيزَى في قراءة ابن كثير مصدر وُصِفَ به، ولا يكون وصفاً أصلياً لما تقدم عن سيبويه. فإن قيلَ: لِمَ لا قيلَ في ضيزى بالكسر والهمز إنّ أصله ضُيْزَى بالضم فكسرت الفاء كما قيل فيها مع ألفها؟

فالجواب: أنه لا موجب هنا للتغيير، إذ الضم مع الهمز لا يستثقل استثقاله مع الياء الساكنةِ.

وسمع منهم: ضُؤْزَى بضمِّ الضاد مع الواو والْهَمْزِ[٣].

وأمَّا قراءة زيد[٤] فيحتمل أن تكون مصدراً وُصِفَ بِهِ كَدعوى وأن تكون صفة كسَكْرَى وعَطْشَى وغَضْبَى[٥].

قوله: (إنْ هِيَ) في (هي) وجهان:

أحدهما: أنها ضمير الأصنام أي وما هي إلا أسماءٌ ليس تحتها في الحقيقة مُسَمياتٌ لأنكم تدعون الإلهية لما هو أبعد شيء منها، وأشد منافاة لها. وهذا على سبيل المبالغة والتجوز، كما يقال لتحقير إنسان: ما زيد إلا اسم إذا لم يكن مشتملاً على صفة معتبرة كقوله: «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إلاَّ اسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا».

الثاني: أن يكون ضمير الأسماء وهي اللاَّت والعُزَّى ومَنَاة، وهم يقصدون بها أسماء الآلهة يعني وما هذه الأسماء إلا سَمَّيْتُمُوها بهواكم وشهْوتكم ليس لكم على صحة تسميتها بُرهانٌ تتعلقون به[٦].

قال أبو البقاء: «أَسْمَاءٌ» يجب أن يكون المعنى ذَوَاتُ أَسْمَاءٍ، لقوله: «سَمَّيْتُمُوهَا»؛ لأن الاسم لا يسمى[٧].

---

(١) اللسان ضَيَزَ ٢٦٢٤، والقرطبي ١٧/ ١٠٣، ومعاني الفراء ٣/ ٩٨.

(٢) من الطويل وهو مجهول القائل وفي اللّسان والصِّحاح: وَإنْ تَغِبْ وفي القُرْطبِيّ: وإنْ تَقُم. وروي البيت فحظّك وقسمك بَدل «فَسَهْمُك». والشاهد مضئوز فهو مفعول من ضأز مهموزاً. وانظر القرطبي ١٧/ ١٠٠٢ وفتح القدير ٥/ ١٠٩ واللسان والصحاح ضأز، ورُوح المعاني ٢٧/ ٥٧، والبحر المحيط ٨/ ١٦٢.

(٣) نقلها صاحب اللسان عن ابن الأعرابي ضأز ٢٥٤٠.

(٤) وهي شاذة ذكرها صاحب البحر المحيط ٨/ ١٦٢.

(٥) قال بهذين التخريجين صاحب البحر في المرجع السابق.

(٦) بالمعنى من الكشاف له ٤/ ٣١. (٧) التبيان ١١٨٨.

فإن قيل: كيف قال: سميتموها أنتم مع أن هذه الأسماء موضوعة قبلنا؟

فالجواب: أن كل من نطق بهذه الألفاظ فهو كالمُبْتَدِىء الواضع؛ لأن الواضع الأول لهذه الأسماء لما لم يكن واضعاً بدليل نقلي أو عقلي لم يجب اتباعه ولا يجوز فصار هو كالمبتدىء؛ إذ لا مُقْتدى لَهُ.

فإن قيل: الأسماء لا تسمَّى وإنما يسمى بها فكيف قال: أسماء سميتموها؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن التسمية وضع الاسم فكأنه قال: أسماء وضعتموها، فاستعمل سَمَّيْتُمُوهَا استعمال وضَعْتُمُوهَا.

الثاني: لو قال: أسماءٌ سمَّيْتُم بها لكان هناك غير الاسم شيء يتعلّق به الباء في قولك بها؛ لأن قول القائل: سميت به يستدعي دخُولاً آخر، تقول: سميتُ بزيدٍ ابني أو عبدي أو غير ذلك فيكون قد جعل للأصنام اعتباراً.

فإن قيل: هذا باطل بقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦] حيث لم يقل: وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا بِمَرْيَمَ ولم يكن ما ذكرت مقصوداً وإلا لكانت مريم غير ملتفت إليها كما قلت في الأصنام.

فالجواب: بَيْنَهما بونٌ عظيم؛ لأن هناك قال: سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ فذكر المفعولين فاعتبر حقيقة مريم بقوله: سميتها واسمها بقوله: مريم، وأما ههنا فقال: «إنْ هِيَ إلاّ أَسْمَاءٌ» موضوعة فلم تعتبر الحقيقة ههنا واعتبرها في مريم[1].

قوله: (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) أي حجة بما يقولون: إنها آلهة. واستعملت الباء في قوله (بِهَا) كقولك: ارْتَحَلَ فُلاَنٌ بأهله ومَتَاعِهِ أي ارتحل ومعه الأهل والمتاع. كذلك ههنا[2] قوله: «إنْ يَتَّبِعُونَ إلاّ الظَّنَّ» هذا رجوع إلى الخبر بعد المخاطبة فقال: إن يتَّبعون إلاّ الظَّنَّ في قولهم: إنها آلهة.

قرأها العامة على الغيبة التفاتاً من خطابهم إلى الغيبة عنهم تحقيراً لهم، كأنه قطع الكلام معهم وقال لنبيِّه: إنهم لا يتبعون إلا الظن فلا تلتفت إلى قولهم.

ويحتمل أن يكون المراد غيرهم، وفيه وجهان:

الأول: أن يكون المراد آباءهم كأنه تعالى قال: سَمَّيْتُمُوهَا أنتم وآباؤكم فكأنهم قالوا: هذه الأسماء لم نضعها نحن، وإنَّما تلقيناها من آبائنا فقال: وسمَّاها آباؤكم وما يتبعون إلاّ الظَّنّ[3].

---

(١) وانظر تفسير الإمام ٢٨/ ٢٩٩ و ٣٠٠. (٢) المرجع السابق.

(٣) ذكر هذه التحليلات والتوجيهات الإمام فخر الدين في مرجعه السَّابق أيضاً.

فإن قيل: كان ينبغي أن يكون بصيغة الماضي.

فالجواب: وبصيغة المستقبل أيضاً كأنه يفرض الزمان (بعد)[١] زمان الكلام كقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ [الكهف: ١٨].

الثاني: أن يكون المراد عامة الكفار.

وقرأ عبدُ الله وابنُ عباس وطلحةُ وعيسى بن عُمَر وابنُ وثاب: بالخطاب[٢]. وهو حسن موافقٌ.

فإن قيل: كيف ذمهم على اتِّباع الظَّنِّ ونحن مأمورون باتباعه في الفقه، وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ حكاية عن الله تعالى أنه قال: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي؟

فالجواب: أن الظن خلاف العلم وقد استعمل مجازاً مكان العلم والعلم مكانه وأصل العلم الظهور ومنه العَالِم. وحروف العلم في تَقَالِيبِها فيها معنى الظهور منها لَمَعَ البَرْقُ إذا ظَهَرَ، ولَمَعَ الغَزَالُ إذا عَدا، وكذلك عَلِمت.

والظن إذا كان في مقابلة العلم ففيه الخفاء ومنه بئرٌ ظنونٌ لا يدرى أفيه[٣] ماءٌ أم لا؛ لخفاء الأمر فيه ودينٌ ظَنُونٌ[٤] يخفى الأمر فيه فنقول: يجوز بناء الأمر على الظن عند العجز عن درك اليقين، وأما الاعتقاد فليس كذلك، لأن اليقين لم يتعذّر علينا. وإلى هذا أشار بقوله: «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِن ربِّهِمُ الْهُدَى» أي اتبعوا الظن وقد أمكنهم الأخذ باليقين. وفي العمل يمتنع ذلك أيضاً. والله أعلم[٥].

قوله: (وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ) نسق على (الظَّن) و «ما» مصدرية، أو بمعنى الذي. والمراد بما تهوى الأنفس هو ما زين لهم الشيطان.

قوله: (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ ربِّهِمُ الْهُدَى) يجوز أن يكون حالاً من فاعل (يَتَّبِعُونَ) أي يَتَّبِعُون الظَّنَّ وهوى النفس في حالٍ تُنافي ذلك وهي مجيء الهدى من عند ربهم. ويجوز أن يكون اعتراضاً فإن قوله: «أَمْ لِلإِنْسَانِ» متصل بقوله: «وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ»، وهي أم المنقطعة، فتقدر ببل والهَمْزَة على الصَّحِيح[٦].

قال الزمخشري: ومعنى الهمزة فيها الإنكار أي ليس للإنسان[٧] ما تمنى.

---

(١) زيادة من الرازي وساقطة من النسختين.

(٢) هذه القراءات شاذة غير متواترة ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ١٦٢ و ١٦٣ والزمخشري في الكشاف دون نسبة ٤/ ٣١ والقرطبي في الجامع ١٧/ ١٠٣ و ١٠٤ ونسبها لأيوب وابن السميقع أيضاً ١٧/ ١٠٣ و ١٠٤.

(٣) كذا في النسختين وفي الرازي: أفيها بتأنيث البئر.

(٤) وانظر اللسان ظنن وكذلك المحكم. اللسان ٢٧٦٤.

(٥) وانظر الرازي ٢٨/ ٣٠١.

(٦) بالمعنى من الرازي ٢٨/ ٣٠١ و ٣٠٢.

(٧) الكشاف ٤/ ٣١.

فصل

المعنى ولقد جاءهم من ربهم البيان بالكتاب والرسول أنها ليست بآلهة وأن العبادة لا تصلح إلاَّ للَّهِ الواحد القهار.

«أَمْ لِلإنسَانِ مَا تَمَنَّى» أيظن أن له ما يتمنى ويشتهي من شفاعة الأصنام. ويحتمل أن يكون معناه: هل للإنسان أن يعبد بالتمني والاشتهاء ما تهوى نَفْسُهُ.

قوله «فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى» أي ليس كما ظن وتمنى بل لله الآخرة والأولى لا يملك فيها أحدٌ شَيْئاً إلاَّ بإذنه.

قوله تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

قوله: (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ) «كم» هنا خبرية تفيد التكثير، ومحلها الرفع على الابتداء. و «لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ» هو الخبر. والعامة على إفراد الشفاعة. وجُمعَ الضمير اعتباراً بمعنى «ملك» وبمعنى «كم». وزيد بن عليّ شَفَاعَتُهُ بإفرادها اعتبر لفظ «كم وملك». وابن مِقْسِم شَفَاعَاتُهُم بجمعِهَا[١]. و «شَيْئاً»[٢] مصدر أي شيئاً من الإغْنَاء.

فصل

المعنى وكم من ملك في السموات ممن يعبدهُمْ هؤلاء الكفار ويرجون شفاعَتَهم عند الله لا تغني شفاعَتُهُمْ شيئاً إلاَّ من بعد أن يأذن الله في الشفاعة (لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) أي من أهل التوحيد.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يريد لا تشفع الملائكة إلا لمن رضي الله عنه. وجمع الكناية في قوله: «شفاعتهم» والملك واحد؛ لأن المراد من قوله: «وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ» الكثرة، فهو كقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾[٣] [الحاقة: ٤٧].

قوله تعالى: **﴿إنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى﴾** اعلم أن المراد بالذين لا يؤمنون بالآخرة هم الذين لا يؤمنون بالرسل، لأن كل من آمن بالرسل

---

(١) وهو اختيار صاحب الكامل في القراءات الخمسين للهذلي فيما نقله صاحب البحر المحيط ٨/ ١٦٣.

(٢) فليست مفعولاً به وهي نائب عن المفعول المطلق (المصدر السابق).

(٣) وانظر تفسير البغوي ٦/ ٢٦٤.

اعترف بالحشر، وذلك أنهم كانوا يقولون: الملائكة وجدوا من الله فهم أولاده بمعنى الإيجاد، ثم رأوا في الملائكة تاء التأنيث، وصحَّ عندهم أن يقال: سَجَدَت الملائكة، فقالوا: بنات الله فسمَّوهُمْ تسميةَ الإناث.

فإن قيل: كيف يصح أن يقال: إنهم لا يؤمنون بالآخرة مع أنهم كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤُنَا عند الله وكان من عادتهم أن يربطوا مركوباً على قبر مَنْ يموت، ويعتقدون أنه يحشر عليه؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنهم ما كانوا يجزمون به، بل كانوا يقولون: إنه لا حشر، فإن كان فلنا شفعاءُ بدليلِ ما حكى الله عنهم ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآيِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

الثاني: أنهم ما كانوا يعترفون بالآخرة على الوجه الذي ورد به الرسل.

فصل

وأما مناسبة هذه الآية لما قبلها فهي أنهم لما قيل لهم: إنَّ الصَّنَمَ جمادٌ لا يشفع، وبين لهم أن أعظمَ أجناس الخلق لا شفاعة لهم إلا بالإذن قالوا: نَحْنُ لا نَعْبُدُ الأصنام لأنها جمادات وإنما نعبد الملائكة بعبادتها فإنها على صورها ونضعها[١] بين أيدينا لنذكر بالشاهد الغائب فنعظم الملك المقرب فرد الله عليهم بهذه الآية أي كيف تعظموهم وأنتم تسموهم تسمية الإناث؟[٢]

فإن قيل: كيف قال تسمية الأنثى ولم يقل: تسمية الإناث؟

فالجواب: أن المراد بيان الجنس وهذا اللفظ أليق بهذا الموضع لمؤاخاة رؤوس الآي. أو يقال: إنه لو قال الإناث لأوهم أعلام الإناث، كعائشةَ وفاطمةَ. والمراد إنما هو البنات[٣]. وقد تقدمت شبهتهم.

قوله: «وَمَا لَهُمْ بِهِ منْ عِلْم» قال الزمخشري: الضمير في (به) يعود إلى ما كانوا يقولون[٤]. وقيل يعود إلى ما تقدمَ من عدم قَبُول الشفاعة.

وقيل: يعود إلى الله أي ما لهم بالله من علم فيُشْرِكُونَ[٥]. وقال مكي: الهاء تعود على الاسم لأن التسمية والاسم بمعنًى[٦]. وقرأ أبيّ: بِهَا[٧] أي بالآخرة أي ما لهم بالآخرة مِنْ علمٍ.

---

(١) في الرازي: وتنصبها.
(٢) وانظر الرازي ٢٨/ ٣٠٨ بالمعنى.
(٣) المرجع السابق.
(٤) الكشاف ٤/ ٣٢.
(٥) الرازي ٢٨/ ٣١٠.
(٦) قال في المشكل: «الهاء تعود على الأسماء؛ لأن التسمية والأسماء بمعنى واحد». وانظر المشكل ٢/ ٣٣١.
(٧) شاذة غير متواترة انظر الرازي السابق والكشاف ٤/ ٣٢.

وقيل: بالملائكة. وقيل: بالتسمية. وهذا يقوّي قول مَكِّيٍّ. فإن قلنا: ما لهم بالآخرة فهو جواب كما قلنا: إنهم وإن كانوا يقولون: إن الأصنام شفعاؤنا عند الله، وكانوا يربطون الإبل على قبور الموتى ليركبوها لكن ما كانوا يقولون به عَنْ عِلْمٍ.

وإنْ قُلْنا بالتسمية ففيه إشكال، وهو أن العلم بالتسمية حاصل لهم فإنهم يعلمون أنَّهم (لَيْسُوا[١] في شكٍّ).

والجواب: أن التسمية قد يكون واضعها الأول عالماً بأنه وضع، وقد يكون استعمالاً معنوياً يتطرق إليه الصدق والكذب والعِلْم. فمثال الصدق مَنْ وَضَعَ أولاً اسم السماء لموضوعها وقال: هذا سماءٌ، ومثال الكذب إذا قلنا بعد ذلك للماء والحَجَر: هذا سماء، فإنه كذب ومن اعتقد فهو جَاهِل وكذلك قولهم في الملائكة: إنَّهم بنات الله لم تكن تسميةً وضعيةً، وإنما أرادوا به أنهم موصوفون باسم يجب به استعمال لفظ البنات فيهم، وذلك كذب ومعتَقده جاهلٌ، فالمراد التسمية التي هي عن وصفٍ حقيقي لا التسمية الوضْعيَّة؛ لأنهم عالمون بها فهذا هو المراد. قاله ابن الخطيب[٢].

وقوله: (إنْ يتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ) تقدم الكلام عليه.

وقوله: (إنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً) قيل: الحق بمعنى العلم أي لا يقوم الظنّ مَقَام العلم. وقيل: الحق بمعنى العذاب، أي إنّ ظنهم لا يُنْقِذُهُمْ من الْعَذَابِ.

قال ابن الخطيب: المراد منه أن الظن لا يُغْني في الاعتقادات شيئاً وأما الأفعال العُرْفية أو الشرعية فإنه يتبع عند عدم الوصول إلى اليقين. ويحتمل أن يقال: المراد من الحق هو الله والمعنى أن الظن لا يفيد شيئاً من الله أي أن الأوصافَ الإلهيَّة لا تستخرج بالظنون بدليل قوله تعالى: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾**.

فإن قيل: أليس الظن قد يصيب فكيف يحكم عليه بأنه لا يغني أصلاً؟

فالجواب: أن المكلف لا يحتاج إلى مميز يُمَيّز الحقَّ من الباطل؛ ليعتقد الحق ويميز الخير من الشر ليفعل الخير لكن في الحق ينبغي أن يكون جازماً لاعتقاد مُطَابَقَتِهِ، والظَّانّ لا يكون جازماً وفي الخير ربما يعتبر الظن في مَوَاضِعَ.

فصل

اعلم أن الله تعالى منع من الظن في ثلاثة مواضع:

أحدها: قوله تعالى: **﴿إنْ هِيَ إلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ﴾**.

---

(١) زيادة من الرازي.

(٢) بالمعنى ٢٨/ ٣١٠.

وثانيها: هذه الآية.

ثالثها: في الحجرات وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢] **فالأول**: كان المنع عقيب التسمية، **والثاني**: عقيب الدعاء بالألقاب وكل ذلك دليل على أن حفظ اللسان أولى من حفظ غيره من الأركان وأن الكذب أقبح من السيئات الظاهرة من الأيدي والأرجل. فهذه المواضع الثلاثة دلت على أن الظن فيها مذمومٌ **أحدها**: مدح ما لا يستحق المدح كاللاَّتِ والعُزَّى من العزة، **وثانيها**: ذمّ من لا يستحق الذم وهم الملائكة الذين هم عِبَاد الرَّحْمَن يُسَمُّونَهُمْ تسمية الأنثى، **وثالثها**: ذمّ من لم يعلم حاله، وأما مدح من يُعْلَمُ حاله فلم يقلْ فيه: لا يتبعون الظن بل الظن معتبر فيه والأخذ بظاهر حال العاقل واجب(١).

قوله: «فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا» يعني القرآن. وقيل: الإيمان؛ أي اترك مجادلتهم فقد بلَّغت وأتيت بما عليك.

قال ابنُ الخطيب: وأكثر المفسرين يقولون: كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ منسوخ بآية القتال، وهو باطل؛ لأن الأمر بالإعراض موافق لآية القتال فكيف ينسخ به؟ وذلك لأن النبي ـ ﷺ ـ في الأول كان مأموراً بالدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة فلما عارضوه بأباطيلهم أُمر بإزالة شبههم والجواب عن أباطيلهم، وقيل له: «وَجَادِلْهُمْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» ثم لَمّا لم ينفع قال له ربه: أَعْرِضْ عَنْهُمْ ولا تقل لهم(٢) بالدليل والبرهان فإنهم لا ينتفعون به ولا يتبعون الحق وقاتلهم، فالإعراض عن المناظرة شرط لجواز المُقَاتَلَةِ فكيف يكون منسوخاً بها؟(٣)

قوله: «وَلَمْ يُرِدْ إلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» إشارة إلى إنكارهم الحشر كقوله تعالى عنهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩] وقوله: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٣٨] وذلك أنه إذا تَرَكَ النظر في آلاء الله لا يعرفُهُ فلا يتبع رسوله فلا ينفعه كلامه، وإذا لم يقل بالحشر والحساب لا يخاف فلا يرجع عما هو عليه فلا يبقى في الدعاء فائدة.

واعلم أن النبي ـ ﷺ ـ كان كالطبيب للقلوب، فأتى على ترتيب الأَطِبَّاء في أن المرض إذا أمكن إصلاحُهُ بالغذاء لا يستعملون الدواء القوي، ثم إذا عجز(٤) عن المداواة بالمشروبات وغيرها عدلوا إلى الحَدِيد والكَيّ كما قيل: «آخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ»، فالنبي ـ

---

(١) وانظر تفسير الإمام ٢٨/ ٣١٠، ٣١١.

(٢) كذا في النسختين وفي الرازي: ولا تقاتلهم.

(٣) المرجع السابق.

(٤) في الرازي: عجزوا. وفيه إذا أمكن إصلاحه بالغذاء لا يستعملون الدواء وما أمكن إصلاحه بالدواء الضعيف لا يستعملون الدواء القوي.

عليه الصلاة والسلام ـ أولاً أمر القلوب بذكر الله حَسْب، فإن بذكْرِ الله تطمئن القلوب، كما أن بالغذاء تطمئن النفوس فالذكر غذاء القلب ولهذا قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ أولاً: «قُولُوا لاَ إلَه إلاَّ اللَّهُ» أمر بالذكر، فانتفع مثلُ أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ومن لم ينتفع ذكر لهم الدليلَ وقال ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ١٨٤] ﴿قُلِ انْظُرُوا﴾ [يونس: ١٠١] ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ [الغاشية: ١٧] إلى غير ذلك فلما لم ينتفعوا أتى بالوعيد والتهديد فلما لم ينتفعوا قال: أَعْرِضْ عن المعالجة واقطع الفاسد لئلا يفسد الصَّالح[(١)].

قوله: «ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ» قال الزمخشري: هو اعتراض (أي[(٢)] فأعرض عنه ولا تُعَامِلْهُ[(٣)] إنَّ رَبَّكَ هُو أَعْلَمُ.

قال أبو حيَّان: كأنه يقول: هو اعتراض) بين «فَأَعْرِضْ» وبين: «إِنَّ رَبَّكَ» ولا يظهر هذا الذي يقوله من الاعتراض[(٤)].

قال شهاب الدين: كيف يقول: كأنه يقول: هو اعتراض وما معنى الشبيه وهو قد نصَّ عليه وصرح به فقال: أي فأعرض عنه ولا تعامله[(٥)] إنَّ رَبَّكَ. وقوله «وَلاَ يَظْهَرْ» ما أدري عدم الظهر مع ظهور أن هذا علة لذاك أي قوله: «إنَّ رَبَّكَ» علة لقوله «فَأَعْرِضْ» والاعتراض بين العلّة والمعلول ظاهر وإذا كانوا يقولون: هذا معترض فيما يجيء في أثناء قصَّة فكيف بما بين علة ومعلول؟[(٦)]

فصل

«ذَلِكَ» إشارة إلى نهاية عِلْمهم وقدر عقولهم إن آثروا الدنيا على الآخرة[(٧)]. وقيل: إشارة إلى الظن أي لم يبلغوا من العلم إلا ظنهم أن الملائكةَ بناتُ الله وأنها تشفع لهم، واعتمدوا على ذلك وأعرضُوا عن القرآن. وقيل: إشارة إلى الإعراض أي فأعرضْ عمَّن تولى؛ وذلك لأن الإعراض غاية ما بلغوه من العلم وعلى هذا يكون المراد من العِلْم المَعْلُوم وتكون الألف واللام للتعريف والعلم المعلوم هو ما في القرآن[(٨)].

فإن قيل: إنَّ الله تعالى بين أن غايتهم ذلك في العلم ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها والمجنون الذي لا علم له أو الصبي لا يؤمر بما فوق احتماله فكيف يعاقبهم الله؟

فالجواب: أنه ذكر قبل ذلك أنهم تَوَلَّوْا عن ذكر الله فكان عدم علمهم لعدم قبولهم

(١) وانظر تفسير الرازي ٢٨/ ٣١٢.
(٢) ما بين القوسين سقط من (ب).
(٣) في الكشاف: ولا تقابله.
(٤) البحر المحيط ٨/ ١٦٤.
(٥) كذا في (أ) وفي (ب) تقاتِله وفي الدر تُقَابِلْه.
(٦) وهو يؤيد تماماً ما ذهب إليه جار الله الزمخشري في رأيه هذا، وانظر الدر المصون مخطوطٌ ببلدية إسكندرية.
(٧) قال بذلك الفراء في المعاني ٣/ ١٠٠ والقرطبي في الجامع ١٧/ ١٠٥ وأبو حيان في البحر ٨/ ١٦٤.
(٨) انظر المرجع الأخير السابق.

العلم وإنما قدر الله توليهم ليُضَاف الجَهْلُ إلى ذلك فيتحقق العِقَابُ.

قوله: «إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ» جوز مَكِّيٌّ أن يكون على بابه من التفضيل أي هو أعلم من كل أحدٍ بهذين الوصفين وبغيرهما، وأن يكون[١] بمعنى عالِمٍ، وتقدم ذلك مراراً.

فصل

المعنى أن الله عالم بالفريقين فيجازيهم. ووجه المناسبة أن الله تعالى لَمَّا قال للنبي ـ ﷺ ـ أعرض وكان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ شديد الميل إلى إيمان قومه كأنه هجس في خَاطِرِه أن في ذكراهم منفعة، وربما يؤمن من الكفار قومٌ آخرون من غير قتال، فقال له: «ربك أعلم بمن ضل عن سبيله» أي لا يؤمن بمجرد الدعاء أحد المتخلفين وإنما ينفع فيهم وَقْع السيف والقتال فأعرض عن الجدال، وأقبل على القتال. وعلى هذا فقوله: «بِمَنِ اهْتَدَى» أي علم في الأزل من ضل ومن اهتدى فلا يشتبه عليه الأمر، ولا بأسَ في الإعراض.

فإن قيل: قال في الضلال عن سبيله ولم يقل في الاهتداء إلى سبيله.

فالجواب: أنَّ الضلال عن السبيل هو الضلال وهو كافٍ في الضَّلال، لأن الضّلال لا يكون إلاَّ في السبيل وأما بعد الوصول فلا ضلالَ، أو لأن من ضلَّ عن سبيله لا يصل إلى المقصود سواء سلك سبيلاً أو لم يَسْلُكْهُ وأما من اهتدى إلى سبيل فلا وصول له إن لم يسلكه فقال من اهتدى إلى السبيل وسلوكه.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢)﴾

قوله تعالى: **﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾** وهذا معترض بين الآية الأولى وبين قوله: «لِيَجْزِي الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا»[٢].

واللام في قوله: «لِيَجْزِي» فيها أوجه:

أحدها: أن يتعلق بقوله: «لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ» ذكره مكّي[٣]. وهو بعيد من حيث اللّفْظ ومن حيث المعنى.

---

(١) في المشكل ٢/ ٣٣١ و ٣٣٢: ويجوز أن يكونا بألف التشبيه فهو يقصد أعلم مكررة من قوله: «إنَّ ربَّكَ هُوَ أعلَمُ بمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِه وَهُوَ أعلَمُ بِمَن اهْتَدَى».

(٢) والمعنى: إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ليجزي. الجامع ١٧/ ١٠٥.

(٣) قاله في مشكل الإعراب ٢/ ٢٣٢.

الثاني: أن يتعلق بما دل عليه قوله: «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ» أي له ملكهما يضلّ من يشاء ويهدِي من يشاء ليجزي المُحْسِنَ والمُسِيءَ[١].

الثالث: أن يتعلق بقوله: «بِمَنْ ضَلَّ، وَبِمَن اهْتَدَى» واللام للصيرورة أي عاقبة أمرهم جميعاً للجزاء بما عملوا[٢]. قال معناه الزمخشري[٣].

الرابع: أن يتعلق بما دل عليه قوله: «أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ»[٤] أي حفظ ذلك لِيَجْزِيَ. قاله أبو البقاء[٥].

وقرأ زيد بن علي: لِنَجْزِي بنون العظمة[٦] والباقون بياء الغيبة. وقوله: «الَّذِينَ أحْسَنُوا» وحَّدُوا ربهم «بالْحُسْنَى» بالْجَنَّة. وإنما يقدر على مجازاة المحسن والمسيء إذا كان مالكاً فلذلك قال تعالى: **﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾**.

قوله: «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ» يجوز أن يكون منصوباً بدلاً أو بياناً أو نعتاً «لِلَّذِينَ [(أَحْسَنُوا)[٧].

فإن قيل: إذا كان بدلاً عن «الَّذِينَ][٨] أَحْسَنُوا» فَلِمَ خالف ما بعده بالمُضِيِّ والاستقبال حيث قال «الَّذِين أَحْسَنُوا» وقال: «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ» ولم يقل: اجْتَنَبُوا؟

فالجواب: هو كقول القائل: الَّذِينَ سَأَلُونِي أَعْطَيْتُهُم الذين يترددون إليَّ سائلين أي الذين عادتهم التَّرداد[٩] للسؤال سألوني وأعطيتهم فكذلك ههنا أي الذين عادتهم ودأبهم الاجتناب لا الذين اجتنبوا مرة واحدة[١٠]. ويجوز أن يكون الموصول منصوباً بإضمار «أَعْنِي»، وأن يكون خبر مبتدأ مضمر أي هم الذين[١١]، وهذا نعت للمحسنين[١٢].

وقد تقدم الكلام في كبائر وكبير[١٣] الإثْم.

قوله: «إلاَّ اللَّمَمَ» فيه أوجه:

---

(١) وهو رأى مَكيٍّ في مرجعه السابق، والقرطبي في الجامع ١٧/ ١٠٥.

(٢) نقله أبو حيان في بحره ٨/ ١٦٤ بصيغة المجهول.

(٣) قال الزمخشري: ومعناه أن الله عز وجل إنما خلق العالم وسوى هذا الملكوت لهذا الغرض ثم قال ويجوز أن يتعلق بقوله: هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى.

(٤) وهو رأي الزمخشري السابق، انظر الكشاف ٤/ ٣٢.

(٥) التبيان ١١٨٩.

(٦) شاذة انظر البحر ٨/ ١٦٤ والكشاف السابق.

(٧) وهو رأي التبيان والجامع الأول ١١٨٩ والثاني ١٧/ ١٠٦.

(٨) ما بين القوسين سقط من (ب) بسب انتقال النظر.

(٩) في (ب) التردُّد.

(١٠) وقد قال بالبدلية مكي في المشكل ٢/ ٣٣٢.

(١١) قال بذلك أبو البقاء في التبيان ١١٨٩.

(١٢) أي الذين أحسنوا والجملة في محل نصب صفة لهؤلاَءِ.

(١٣) تقدم ذلك في سورة الشورى من الآية ٣٧ وقبل في سورة النساء من الآية ٣١.

أحدها: أنه استثناء[١] منقطع؛ لأن اللمم الصغائر فلم يندرج فيما قبلها. وهذا هو المشهور.

الثاني: أنه صفة، و «إلاَّ» بمنزلة غير كقوله: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا» أي كبائر الإثم والفواحش غيرَ اللَّمم[٢].

الثالث: أنه متصل[٣]. وهذا عند من يفسر اللّمم بغير الصغائر، قالوا: إن اللَّمَمَ من الكبائر والفواحش قالوا: معنى الآية إلا أن يلم بالفاحشة مرة ثم يتوب وتقع الواقعة ثم ينتهي. وهو قول أبي هريرةَ ومجاهدٍ والْحَسَن ورواية عطاء عن ابْن عَبَّاس، قال عبد الله بن عمرو بن العاص: اللَّمم ما دون الشرك.

قال السدي: قال أبو صالح: سئلت عن قول الله عزّ وجلّ: إلاَّ اللَّمم فقلت: هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يُعَاوِدُه، فذكرت ذلك لابن عباس فقال: أعانك عليها مَلَكٌ كريمٌ.

وروى ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٤] في قوله: إلاَّ اللمم قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

٤٥٦٢ ـ إنْ تَغْفِر اللَّهُمّ تَغْفِرْ جَمَّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لاَ أَلَمَّا؟[٥]

وأصل اللمم ما قلَّ وصَغُر، ومنه اللَّمَمُ وهو المسُّ من الجُنُون وألَمَّ بالمكان قَلَّ لَبْثُهُ فيه، وأَلَمَّ بالطعام أي قل أكلُهُ منه.

وقال أبو العباس[٦]: أصل اللَّمَم أن يلمَّ بالشيء من غير أن يَرْكَبَهُ فقال: أَلَمَّ بكَذَا إذا قاربه، ولم يخالطه. وقال الأزهري: العرب تستعمل الإلمام في معنى الدُّنُوّ

---

(١) مشكل الإعراب ٢/ ٣٣٢ والقرطبي ١٧/ ١٠٦ والكشاف ٤/ ٣٢ والبحر ٨/ ١٦٤ وبالمعنى من معاني الفراء ٣/ ١٠٠ ومعاني الزجاج ٥/ ٧٤.

(٢) وهو رأي الزمخشري في الكشاف ٤/ ٣٢ وأبي حيان في البحر ٨/ ١٦٤. والآية ٢٣ من الأنبياء.

(٣) البحر المحيط السابق.

(٤) زيادة من (أ).

(٥) كذا في النسختين كما في البغوي والخازن ٦/ ٢٦٥ وفي القرطبي:

إن يغفر الله يغفر جما ....

والبيت الأغلى نسبه القرطبي لأمية بن أبي الصلت وانظر القرطبي ١٧/ ١٠٧ ورواية القرطبي: وقال ابن عباس أيضاً: هو الرجل يلمّ بذنب ثم يتوب. قال: تسمع النبي ـ ﷺ ـ كان يقول:

إن يَغْفِرِ اللَّهُ يَغْفِرْ جَمَّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لاَ أَلَمَّا

ثم قال: رواه عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس. ثم قال أيضاً: وروى شعبة عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس في قول الله عز وجل: ﴿**إلا اللَّمَمَ**﴾قال: هو أن يلم العبد بالذنب ثم لا يعاوده قال الشاعر؛ وأنشد البيت. وكذلك نسبه صاحب اللسان لأمية وهو من مشطورِ الرجز كما كتبه صاحب اللسان.

(٦) هو المبرد وقد ترجم له. وانظر الكامل.

والقرب[١]، وقال جرير: (رضي الله عنه وأرْضَاهُ)[٢]:

٤٥٦٣ ـ بِنَفْسِي مَنْ تَجَنِّيهِ عَزِيزٌ عَلَيَّ وَمَنْ زِيَارَتُهُ لِمَامُ[٣]

وقال آخر:

٤٥٦٤ ـ مَتَى تَأْتِنَا تَلْمُمْ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وَنَاراً تَأَجَّجَا[٤]

وقال آخر:

٤٥٦٥ ـ لِقَاءُ أَخِلاَءِ الصَّفَا لِمَامُ ....[٥]

ومنه أيضاً لمّة الشعر لما دون الوَفْرة.

فصل

قال ابن الخطيب: الكبائر إشارة لما فيها من مقدار السيئة.

والفواحش في اللغة مختصة بالقبح الخارج قبحه عن حد الخفاء وتركيب الحروف في التأليف يدل عليه، فإنك إذا قلبتها وقلت: حَشَفَ كان فيه معنى الزيادة الخارجة عن الحد، فَإن الحَشَفَ أرذلُ التَّمر[٦]، وكذلك فَشَحَ[٧] يَدُلُّ عَلَى حَالَة رَديئةٍ، يُقَال: فَشَحَت[٨] النَّاقَةُ إذَا وَقَفَتْ على هيئةٍ مخصوصةٍ للبَوْلِ فالفُحْش يلازمه القبح، ولهذا لم يقل الفواحش من الإثم، وقال في الكبائر من الإثم؛ لأن الكبائر إن لم يميزها بالإضافة في قوله: كَبَائِر الإثم لما حصل المقصود بخلاف الفواحش.

واختلفوا في الكبائر والفواحش، فقيل: الكبائر ما وعد الله عليه بالنار صريحاً

---

(١) نقله في التهذيب «لمم». (٢) تلك العبارة زيادة من (أ).

(٣) من الوافر له في هجو الأخطل وبني التغلب. والشاهد على أن اللّمام بمعنى القرب. والبيت بديوانه ٦١٣ دار الكتب اللبنانية إيليا الحاوي، والبحر ٨/ ١٥٥، وفتح القدير ٥/ ١١٣.

(٤) من الطويل لعبيد الله بن الحر أو الحطيئة، وليس في ديوانه. والشاهد في تلمم فإنه بمعنى المقاربة والدنو، وانظر الإنصاف ٥٨٣ وابن يعيش ٧/ ٥٣ و ١٠/ ٢٠ والهمع ٢/ ١٢٨ والأشموني ٣/ ١٣١، وليس ٢/ ١٦٢ والكتاب ٣/ ٨٦.

(٥) صدر بيت من الطويل عجزه:

وَكُلّ وِصَالِ الغَانِيَاتِ ذِمَامُ

والشاهد فيه إن اللمام بمعنى القلة فهو يقول: إن لقاء أخِلاء الصفا وإن تواتر قليل، والإلمام زيارة لا لَبْثَ فيها ووصال الغانيات وإن دام شرب غير مُرْوٍ لأن أيامَ السرور قصارٌ وإن طالت. وانظر الكشاف ٤/ ٣٢ وشرح شواهده ٥٤٠، والبحر المحيط ٨/ ١٥٤ و ١٥٥، وانظر اللسان لَمَمَ ٤٠٧٧ و ٤٠٧٩ ومعاني القرآن للفراء ٣/ ١٠٠ ومعاني القرآن وإعرابه للزجّاج ٥/ ٧٤.

(٦) اللسان حشف ٨٨٧.

(٧) وروى ثعلب عن ابن الأعرابي: فَشَحَ وفَشَجَ وَفَشَّحَ وفَشَّجَ إذا فرج ما بين رجليه بالحاء والجيم. انظر السابق فشح وفشج ٣٤١٦.

(٨) وفشجت ـ بالجيم ـ أيضاً ـ كما في اللسان.

وظاهراً والفواحش ما أوجب عليه حدًّا في الدنيا. وقيل: الكبائر: ما يُكَفَّرُ مستحلُّها. وقيل: الكبائر ما لا يغفر الله لفاعله إلا بعد التوبة وهو مذهب المعتزلة.

قال ابن الخطيب: كل هذه التعريفات تعريف للشيء بما هو مثله في الخفاء أو فوقه. وقد ذكرنا أن الكبائر هي التي مقدارها عظيم والفواحش هي التي قبحها واضح، فالكبيرة صفة عائدة إلى المقدار والفاحشة صفة عائدة إلى الكيفية(١).

فصل

اختلفوا في معنى الآية، فقال بعضهم: ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم الله به وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: إنهم كانوا بالأمس يعملون معاً فأنزل الله هذه الآية. وهذا قول زيدِ بنِ ثابت وزيدِ بن أسلم.

وقيل: هو صغار الذنوب كالنَّظرة والغَمْزَة، والقُبْلَة وما كان دون الزنا. وهذا قول ابن مسعود وأبي هريرة ومسروقٍ، والشَّعْبي(٢) ورواية طاوس عن ابن عباس قال: ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ «إنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وزِنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ، والنَّفْسُ تَتَمَنَّى وتَشْتهِي والفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ وَيُكَذِّبُهُ». وفي رواية: «والأُذُنَانِ زِنَاهُما الاسْتِمَاعُ(٣)، واليَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ والرِّجْلُ زِناها الخُطَى».

وقال الكلبي: اللمم على وجهين:

[الأوّل]: كل ذنب لم يذكر الله عليه حداً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائرَ والفواحشَ.

والوجه الآخر: هو الذنب العظيم يلمُّ به المسلم المرة بعد المرة فيتوب منه.

وقال سعيد بن المسيب: هو ما لَمَّ على القلب أي خَطَرَ. وقال الحُسَيْنُ بن الفضل: اللَّمَمُ النظرةُ عن غير تعمد فهو مغفورٌ، فإن أعاد النظر فليس بلَمَم بل هُو ذنبٌ.

قوله: «إنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ»، قال ابن عباس ـ (رضي الله عنه)(٤) ـ لمن يفعل ذلك وتاب. وههنا تَمَّ الكلام(٥).

قوله: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ» في تعلق الآية وجوه:

---

(١) وانظر الرازي ج ١٥ دار الفكر ص ٨ و ٩.

(٢) وانظر تفسير العلامة القرطبي ١٧/١٠٦ و ١٠٧ والبغوي والخازن ٦/ ٢٦٥ و ٢٦٦.

(٣) في البغوي: والعَيْنَان زِنَاهُمَا النَّظَرُ والأُذُنَانِ. . . .

(٤) زياد من (أ).

(٥) في (أ) الكتاب بدل الكلام. تحريف. وانظر البغوي والخازن السابقين.

أحدها: هو تصوير[١] لما قال من قبل، فإنه لو قال: هو أعلم بمن فعل[٢] كان القائل[٣] من الكفار يقول: نحن نعلم[٤] أموراً في جوفِ الليل المُظْلم، وفي البيت الخالي فكيف يعلمه الله؟ قال: ليس علمكم أخفى من أحوالِكم وأنتم أَجِنَّة في بطون أمهاتكم، فإنّ الله عالمٌ بتلك الأحوال.

الثاني: أنه إشارة إلى أن الضالَّ والمهتدي حصلا على ما هما عليه بتقدير الله فإنه عَلِمَ الحق وأنتم في بطون الأمهات فكتب على البعض أنه ضال، وكتب على البعض أنه مُهْتَد.

الثالث: أنه تأكيد لبيان الجزاء، لأنه لما قال: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا» قال الكافرون هذا الجزاء لا يستحق إلا بالحشر وجمع الأجزاء بعد تفرقها وإعادة ما كان لزيدٍ من الأجزاء في بدنه من غير اختلاط، وذلك غير ممكن فقال تعالى هو عالم مماذا[٥] أنشأكم فيجمعها بعد ذلك على وفق علمه كما أنشأكم.

فصل

العامل في (قوله)[٦]: «إذْ» يحتمل أن يكون «اذْكُرْ» فيكون هذا تقريراً لكونه عالماً ويكون تقديره هو أعلم بكم. وقد تم الكلام ثم يقول: إن كنتم في شك من علمه بكم فاذكروا حال إنشائكم من التراب. وقد تقدم الكلام على قوله: «خلقكم من تراب» بأن كل أحد أصله من التراب، فإنَّه يصير غذاء، ثم يصير دماً ثم يصير نطفة.

فإن قيل: لا بدّ من صرف قوله «إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ» إلى آدم، لأن قوله: «وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ» عائد إلى غيره، فإنه لم يكنْ جنيناً. وإن قلت بأن قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنشَأَكُمْ﴾ عائد إلى جميع الناس فينبغي أن يكون جميع الناس أجنة في بطون الأمهات وهو قول الفلاسفة؟

فالجواب: ليس كذلك، لأنا نقول: الخطاب مع الموجودين حالة الخطاب، فقوله: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ» خطاب مع من حَضَر (وقت)[٧] الإنزال وهم كانوا أجنَّةً، وخلقوا من الأرض على ما قررناه.

قوله: «أجنة» جمع جنين وهو الحمل في البطن لاستتاره. و «جَنِينٌ، وأَجِنَّة» كسَرِيرٍ وأَسِرَّةٍ.

---

(١) في (ب) والرازي: تقرير وليس تصوير. (٢) في (ب) ضل.

(٣) وفيها: فإن القائل. وفي الرازي: العامل. (٤) في (ب) لا نعلم. وفي الرازي: نعمل.

(٥) في (ب) عالم ماذا أنشأكم وفي الرازي: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ» وانظر الرازي بالمعنى ١٥/ ١٠.

(٦) كلمة قوله سقطت من (أ). (٧) زيادة للسياق.

فإن قيل: الأجنة هم الذين في بطون الأمهات وبعد الخروج لا يسمى إلا ولداً أو سَقْطاً، فما فائدة قوله تعالى: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾؟

فالجواب: أن ذلك تنبيه على كمال العلم والقدرة، فإن بطون الأمهات في غاية الظُّلْمَةِ ومن علم حالَ الجنين فيها لا يخفى عليه ما يظهر من حال العِبَادِ[١].

قوله: «فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ» قال ابن عباس ـ (رضي[٢] الله عنهما) ـ: لا تمدحوها. وقال الحسن: علم الله من كل نفس ما هي صانعة، وإلى ما هي صائرة «فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ» تُبَرِّئُوها عن الآثَام ولا تمدحوها بحسن أعمالها. وقال الكلبي ومقاتل: كان الناس يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون: صلاتُنا وصيامُنا وحَجُّنا فأنزل الله هذه الآية. ثم قال: «هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى» أيَ برَّ وأَطَاعَ وأَخْلَصَ الْعَمَلَ[٣].

فصل

يحتمل أن يكون هذا خطاباً[٤] مع الكفار، فإنهم قالوا: كيف يعلمنا[٥] الله؟ فرد عليهم قولهم ويحتمل أن يكون خطاباً مع كل من كان في زمن الخطاب وبعده من المؤمنين والكفار، ويحتمل أن يكون خطاباً مع المؤمنين وتقريره[٦] أن الله تعالى لما قال فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا قال لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد علم كونك ومن تَبِعَكَ[٧] على الحق وكون الكفار على الباطل فأعرض عنهم ولا تقولوا[٨] نحن على الحق وأنتم على الضلال؛ لأنهم يقابلونكم بمثل ذلك وفوض الأمر إلى الله، فهو أعلم بمن اتقى ومن طغى.

وعلى هذا قول من قال: «فأعرض» منسوخٌ أظهر، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] يعني الله أعلم بجملة الأمر.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ

---

(١) وانظر تفسير الإمام الرازي المرجع السابق.
(٢) زيادة من (أ).
(٣) البغوي والخازن ٦/٢٦٧ والقرطبي ١٧/١١٠.
(٤) في النسختين خطاب. وهو تحريف نحوي.
(٥) كذا في النسختين وفي الرازي: يعلمه ـ عائد على محمد ﷺ.
(٦) كذا في الرازي وفي النسختين تقديره.
(٧) كذا في (أ) وفي (ب) والرازي معك.
(٨) في (ب) يقولون.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

قوله: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى» لما بين جهل المشركين في عبادة الأصنام ذكر واحداً منهم معيناً بسوء فعله[١].

قال مجاهد وابن زيد ومقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة كان قد اتبع النبي ـ ﷺ ـ على دينه فعيَّره بعض المشركين وقالوا له: تركت دين الأشياخ وضللتهم فقال: إنِّي خَشِيتُ عذاب الله فضمن الذي عاتبه إن هو أعطاه كذا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذابَ الله، فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى الذي عيره بعض ذلك المال الذي ضمن ومنعه تمامه، فأنزل الله «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى» أي أدبر عن الإيمان «وأعطى» صاحبه «قَلِيلاً وأَكْدَى» بخل بالباقي. وقال السدي: نزلت في العاصِ بن وائل السَّهمّي، وذلك أنه ربما وافق النبي ـ ﷺ ـ في بعض الأمور. وقال محمد بن كعب القرظي: نزلت في أبي جهل وذلك أنه قال: والله ما يأمرنا محمدٌ إلا بمكارم الأخلاق فذلك قوله «وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى» أي لم يؤمن به[٢]. ومعنى «أَكْدَى» أي قطع.

قوله: «وَأَكْدَى» أصله من أَكْدَى الحَافِر إذا حَفَرَ[٣] شيئاً فصادف كُدْيَةً منعته من الحفر، ومثله: أَجْبَلَ أي صادف جَبَلاً مَنَعَهُ من الحَفْرِ، وكَدِيَتْ أَصَابِعُهُ كَلَّتْ من الحفر، ثم استعمل في كل من طلب شيئاً فلم يصل إليه أو لم يتمِّمه ولمن طلب شيئاً ولم يبلغ آخِرَه[٤]. قال الحطيئة:

٤٥٦٠ ـ فَأَعْطَى قَلِيلاً ثُمَّ أَكْدَى عَطَاؤُهُ ... وَمَنْ يَبْذُلِ المَعْرُوفَ فِي النَّاسِ يُحْمَدِ[٥]

ويقال: كَدَى[٦] النبتُ إذا قلّ ريعُهُ، وكَدَتِ الأَرْضُ تَكْدُو كُدُّوا فهي كَادِيَةٌ إذا أبطأ نباتها. عن أبي زَيْدٍ[٧].

---

(١) الرازي المرجع السابق.

(٢) وانظر البغوي والخازن ٦/ ٢٦٧.

(٣) قال في اللسان: إذا حفر فبلغ الكُدَى.

(٤) وانظر اللسان «كدا» ٣٨٣٩ وانظر غريب القرآن ٤٢٩ والمجاز لأبي عبيدة ٢/ ٢٣٨.

(٥) من الطويل له ولم أجده بديوانه. والشاهد في «أكدى» أي قطع القليل. وانظر القرطبي ١٧/ ١١٢ وفتح القدير ٥/ ١١٤ والبحر ٨/ ١٥٥ والدر المنثور ٧/ ٦٥٩ والإتقان للإمام السيوطي ١/ ١٦٥، والسراج المنير ٤/ ١٣٤.

(٦) في اللسان: أكدى.

(٧) وأنشد:

عقر العقيلة من مالي إذا أمنت ... عقائل المال عقل المصرخ الكادي

وانظر النوادر له.

وأَكْدَيْتُ الرَّجُلَ عن الشيء رَدَدْتُهُ. وأَكْدَى الرَّجُلُ إذَا قَلَّ خَيْرُهُ، فقوله: «وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى» أي قطع القليل.

و «أَرَأَيْتَ» بمعنى أخبرني. وقوله: «الَّذِي» يعود إلى الوليد (بنِ المُغِيرة) قال ابن الخطيب: والظاهر أنه يعود إلى المتولّي في قوله: «فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى».

فإن قيل: كان ينبغي أن يقول: الذين تولوا لأن (مَنْ) للعموم؟.

فالجواب: إن العود إلى اللفظ كقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٠] ولم يقل: فلهم[١].

قوله: «فَهُوَ يَرَى» هذه الجملة مترتبة على ما قبلها ترتّباً ظاهراً. وقال أبو البقاء: «فَهُوَ يَرَى» جملة اسمية واقعة موقع الفعلية، والأصل: أعِنْده علمُ الغيب فَيَرَى، ولو جاء على ذلك لكان نصباً[٢][٣] على جواب الاستفهام، انتهى. وهذا لا حاجة إليه مع ظهور الترتيب بالجملة الاسمية. وقد تقدم له نظير هذا الكلام والردّ عليه.

ومعنى الآية أعند هذا المُكْدِي علمُ الغيب ـ أي علم ما غابَ عنه ـ من العذاب فهو يرى أي يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة وما يكون من أمره حتى يضمن حَمْلَ العذاب عن غيره وكفى بهذا جهلاً بأنه يرى ما غاب عنه ويعلم أن صاحبه يتحمل عنه عذابه.

قوله: «أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ» أي لم يخبر «بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى» يعني أسفار التوراة و«أم» منقطعة أي بل ألم ينبأ. و «ما» في قوله «بِمَا» يحتمل أن يكون المراد جنس ما قبلها أي لم ينبأ بالتوحيد والحشر وغيره. ويحتمل أن يكون عين ما في التوراة لا جنسه. وعلى هذا فالكلام مع أهل الكتاب[٤].

قوله: «وَإِبْرَاهِيمَ» عطف على «موسى»، أي وصحف إبراهيم، لقوله في سورة الأعلى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩].

وإنما خص هذين النبيين بالذكر، لأنه كان بين إبراهيم وموسى يؤخذ الرجلُ بجريرة غيره فأول من خالفهم إبراهيم[٥] قاله الهذيل بن شُرَحْبِيل. والعامة على وَفَّى بالتشديد. وقرأ أبو أُمامة الباهلي وسعيدُ بن جبير وابن السَّمَيْقَع: وَفَى مُخففاً[٦]. وقد تقدم أن فيه ثلاث لغات[٧]. وأطلق التوفية والوفاء ليتناولا كل ما وفى به والمعنى تَمَّ وأكمل ما أُمِرَ به.

---

(١) تفسير الرازي ١٥/ ١٢. (٢) بأن مضمرة وجوباً.

(٣) التبيان ١١٨٩. (٤) بالمعنى من الرازي ١٥/ ١٤.

(٥) حكاه القرطبي في الجامع ١٧/ ١١٣. (٦) القرطبي ١٧/ ١١٣ السابق والإتحاف ٤٠٣.

(٧) وَفَى وَوفَّى وأَوْفَى فمن قال: وفى فإنه يقول: تَمَّ كقولك: وَفَى لنا فلانٌ ومن قال أَوْفَى معناه أوفاني حَقّي أي أتمه ولم ينقص منه شيئاً ووفّى أبلغ من وَفَى، فالذي اختُبِرَ به إبراهيم من أعظم المِحَن. بتصرف من اللّسان وفى ٤٨٨٥.

قال الحسن وسعيد بن جبير وقتادة: عمل ما أمر به، وبلغ رسالةَ ربه إلى خلقه. وقال مجاهد: وفى بما فرض عليه. وقال الربيع: وفى رُؤياه وقام بذبح ابْنه. وقال عطاء الخراساني: استكمل الطاعة. وقال أبو العالية: هو الإتمام في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] والتوفية الإتمام. وقال الضحاك: وفَّى المناسك. وروي عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إبرَاهِيمُ الَّذِي وَفَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ»[١].

قوله: «ألاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» «أن» مخففة من الثقيلة واسمها محذوف هو ضمير الشأن و «لاَ تَزِرُ» هو الخبر. وجيء بالنفي لكون الخبر جملة فعلية متصرفة غير مقرونة كما تقدم تحريره في المائدة. و «أن» وما في حيّزها فيها قولان:

أظهرهما: الجر بدلاً من «ما» في قوله «بما في صحف».

والثاني: الرفع خبراً لمبتدأ مضمر أي ذَلِك أن لا تزرُ أو هو أن لا تزرُ. وهو جواب لسؤال مقدر؛ كأن قائلاً قال: وما في صحفهما؟ فأجيبَ بذلك[٢].

قال شهاب الدين: ويجوز أن يكون نصباً بإضمار «أعني» جواباً لذلك السائل وكل موضع أضمر فيه هذا المبتدأ لهذا المعنى أضمر فيه هذا الفِعل[٣].

فصل

معنى الآية: أنه لا تحمل نفسٌ حِمْلَ أخرى أي لا تُؤخَذُ نفس بإثم غيرها. وفي هذا إبطال قول من ضمن للوليد بن المغيرة أن يحمل عنه الإثم.

وروى عكرمة عن ابن عباس (رضي الله عنهما)[٤] قال: كانوا قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يأخذون الرجل بذنب غيره وكان الرجل يُقْتَلُ بقَتْل أبيه وابنه وأخواته حتى جاءهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام فنهاهم عن ذلك وبلغهم عن الله عز وجل أن لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخْرى[٥].

فإن قيل: الآية مذكورة لبيان أن وِزْرَ الرجل لا يحمل عنه وبهذا الكلام لا تحصل هذه الفائدة، لأن الوَازِرَةَ تكون مثقلةً بوِزْرِها وكل أحد يعلم أنها لا تحمل شيئاً فلو قال: لا تحمل فارغة وزر أخرى كان أبلغ.

(١) أسنده البغوي إلى أبي أمامة وانظر البغوي ٦/ ٢٦٨.
(٢) بتوضيح لما في التبيان ١١٨٩.
(٣) الدر المصون مخطوط بمكتبة الإسكندرية لوحة رقم ١١٧.
(٤) زيادة من أ الأصل.
(٥) البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢٦٨ والخازن في لباب التأويل ٦/ ٢٦٨ وما بين القوسين زيادة من أ.

فالجواب: أن المراد من الوَازِرَةِ هي التي يتوقع منها الوزر والحمل لا التي وَزَرت وحَمَلَتْ[(١)].

ونقل القرطبي عن أبي مالك الغِفاريّ قال: قوله تعالى: ﴿**أَنْ لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾ إلى قوله: ﴿**فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى**﴾ في صحف إبراهيم[(٢)] وموسى.

قوله تعالى: ﴿**وَأَنْ لَيسَ لِلإِنْسَان إلاَّ مَا سَعَى**﴾ أن هي المخففة أيضاً ولم يفصل هنا بينها وبين الفعل، لأنه لا يتصرف. ومحلها الجر[(٣)] أو الرفع[(٤)]، أو النصب[(٥)] لعطفها على (أن) قبلها، وكذلك محل: «وَأَنَّ سَعْيَهُ». و «يُرَى» مبني للمجهول، فيجوز أن تكون من البَصَرِية أي يُبْصَر، وأن تكون من العِلْميَّة فيكون الثاني محذوفاً[(٦)] أي يرى حاضراً. والأول أوضح.

وقال مكي[(٧)]: وأجاز الزجاج: يَرَى بفتح الياء على إضمار الهاء؛ أي سَوْفَ يَرَاهُ[(٨)] ولم يُجِزْه الكوفيُّونَ لأن «سعيه» يصير قد عمل فيه أنّ، و «يَرَى». وهو جائز عند المبرِّد وغيرِهِ؛ لأنَّ دخولَ «أنّ» على «سَعْيَهُ» وعملها فيه، يدل على الهاء المحذوفة مِنْ «يُرَى»؛ وعلى هذا جوز البصريون: إنَّ زيداً ضَرَبْتَ بغير هاء[(٩)].

قال شهاب الدين: وهو خلاف ضعيف توهموا أن الاسم توجه عليه عاملانِ مختلفان في الجنسية، لأن رأي بعضهم أن يعمل فِعْلاَنِ في معمول واحد، ومنه باب التنازع في بعض صوره، نحو: قَامَ وقَعَدَ زَيْدٌ وضَرَبْتُ وأكرمْتُ عَمْراً وأن يعمل عامل واحد في اسم وفي ضميره معاً نحو: زَيْداً ضَرَبْتُهُ في باب الاشتغال. وهذا توهم باطل؛ لأنا نقول: سَعْيَهُ منصوب «بأَنَّ» و «يُرَى» متسلط على ضميره المقدر فظاهر هذا أنه لم يقرأ به[(١٠)].

وقد حكى أبو البقاء أنه قرىء به[(١١)] شاذًا، ولكه ضعفه من جهة أخرى فقال:

---

(١) نقله الرازي في تفسيره ١٥/ ١٥.
(٢) الجامع في أحكام القرآن للإمام القرطبي ١٧/ ١١٣ و١١٤.
(٣) لأن «أن لا تزر» جملة في محل جر بدلاً من «مَا فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى».
(٤) فـ «أن لا تزر» يجوز فيها أن تكون خبر مبتدأ محذوف.
(٥) فجملة «أن لا تزر» يجوز أن تكون منصوبة بأعني مقدراً. وقد سبق كل هذا عن قرب والبدل المعطوف حكمه حكم المعطوف عليه جراً ونصباً ورفعاً مفرداً أو جملة محلاً.
(٦) والأول هو نائب الفاعل. وقد قال بالإعراب مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٣٣٣.
(٧) المرجع السابق.
(٨) قال: معناه فهو يعلم. والرؤية على ضربين؛ أحدهما: (رأيت) أبصرت والآخر علمت كما تقول: «... رأيت زيداً أخاك.....» معاني القرآن ٥/ ٧٥.
(٩) انظر مشكل الإعراب السابق ٢/ ٣٣٣.
(١٠) ولم أعثر عليه قراءة في كتب القراءات الشاذة أو المتواترة.
(١١) ولم يُحَدِّد من قرأ بذلك. فلم أجد من قرأ به كما قلت.

وقرىء بفتح الياء، وهو ضعيف؛ لأنه ليس فيه ضمير يعودُ على اسم أنَّ وهو السَّعْي والضمير الذي فيه الهاء فيبقى الاسم بغير خبر وهو كقولك: إنَّ غُلاَمَ زَيْدٍ قَامَ وأنت تعني قام زيد، فلا خبر «لِغُلاَم».

وقد وُجِّه على أنَّ التقدير سوف يَرَاهُ فتعود الهاء على السَّعي[١]. وفيه بعد. انتهى[٢].

قال شهاب الدين: وليت شعري كيف توهم المانع المذكور وكيف نظّره بما ذكر؟! ثم أي بعد في تقدير سوف يَرَى سَعْي نَفْسِهِ؟! وكأنه اطلع على مذهب الكوفيين في المنع إلا أن المُدْرَكَ غير المُدْرِكِ[٣].

قوله: «وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إلاَّ مَا سَعَى» أي عَمِل، كقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]. وهذا أيضاً في صُحُف إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى. قال ابن عباس ـ (رضي الله[٤] عنهما) ـ هذا منسوخ الحكم في هذه الشريعة بقوله: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] فأدخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء.

وقال عكرمة: كان ذلك لقَوم إبراهيم وموسى أما هذه الأمة فلهم ما سعوا وما سعى لهم غيرهم لِمَا رُوِيَ أن امرأةً رَفَعَتْ صبيًّا لها فقالت يا رسول الله: ألهذا حَجٌّ؟ قال: نعم، ولكِ أجرٌ.

وقال رجل للنبي ـ ﷺ ـ: إن أمّي قَتَلَتْ نفسها فهل لها أجر إن تصدّقت عنها؟ قال: نعم[٥].

قال الشيخ تقي الدين أبو العباس أحمد بن تَيْمِيةَ: من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله فقد خرق الإجماع وذلك باطل من وجوه كثيرة:

أحدها: أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره وهو انتفاع بعمل الغير.

الثاني: أن النبي ـ ﷺ ـ يشفع لأهل الموقف في الحساب ثم لأهل الجنة في دخولها، ثم لأهل الكبائر في الإخراج من النار، وهذا انتفاع بسعي الغير.

الثالث: أن كل نبي وصالح له شفاعة وذلك انتفاع بعمل الغير.

الرابع: أن الملائكة يدعون ويستغفرون لمن في الأرض وذلك منفعة بعمل الغير.

الخامس: أن الله يُخْرِج من النار من لم يعمل خيراً قطّ بمَحْض رحمته. وهذا انتفاع بغير عملهم.

---

(١) وهو رأي السمين السابق.
(٢) قاله في التبيان له ١١٩٠.
(٣) الدر المصون له مخطوط بمكتبة الإسكندرية لوحة رقم ١١١.
(٤) زيادة من أ.
(٥) وانظر البغوي والخازن ٦/٢٦٨ و٢٦٩.

السادس: أن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم وذلك انتفاع بمَحْضِ عَمَل الغَيْرِ.

السابع: قال تعالى في قصة الغلامين اليتيمين: «وَكَانَ أَبُوهُما صَالِحاً». فانتفعا بصلاح أبيهما وليس هو من سعيهما.

الثامن: أن الميت ينتفع بالصدقة عنه، وبالعِتْق بنصِّ السّنة والإجماع، وهو من عمل غيره.

التاسع: أن الحج المفروض يسقط عن الميت بحج وَلِيِّه بِنَصِّ السُّنَّة وهو انتفاع بعمل الغير.

العاشر: أن الصوم المنذور والحجَّ المنذور يسقط عن الميت بعَمَلِ غيره بنص السنة وهو انتفاع بعمل الغير الذي امتنع عليه الصلاة والسلام من الصلاة عليه حتى قضى دينَهُ أبو قَتَادَةَ، وقضى دَيْنَ الآخر عليُّ بن أبي طالب قد انتفع بصلاة النبيِّ ـ ﷺ ـ وبردت جلدته بقضاء دينه وهو من عمل الغير.

الحادي عشر: أن النَّبيَّ ـ ﷺ ـ قال لمن صلَّى وحده: ألا رجل يتصدق على هذا الرجل فيصلي معه فقد حصل له فضل الجماعة بفضل الغير.

الثاني عشر: أن الإنسان تبرأ ذمته من ديوان الخَلْق إذا قضاها قاض عنه وذلك انتفاع بعمل غيره.

الثالث عشر: أن من عليه تبعاتٌ ومظالم إذا حلل منها سقطت عنه وهذا انتفاع بعمل غيره.

الرابع عشر: أن الجار الصالح ينفع في المحيا والممات كما جاء في الأثر، وهذا انتفاع بعمل الغير.

الخامس عشر: أن جليسَ أهلِ الذكر يرحم بهم وهو لم يكن منهم، ولم يجلس لذلك بل لحاجةٍ عَرَضَتْ له والأعمال بالنيات فقد انتفع بعمل غيره.

السادس عشر: الصَّلاة على الميت والدعاء له في الصلاة انتفاع للميت بصلاة الحي عليه وهو عمل غيره.

السابع عشر: أن الجُمعَة تحصل باجتماع العدد، وكذلك الجماعة بكثرة العدد وهو انتفاع للبعْضِ بالبَعْضِ.

الثامن عشر: أن الله قال لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأَنْتَ فِيهِمْ» وقال: «وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ ونِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ» وقال «وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ» فقد دفع الله العذاب عن بعض الناس بسبب بعض وذلك انتفاع بعمل الغير.

التاسع عشر: أن صدقة الفطر تجب على الصغير وغيره ممن الرجل ينفع بذلك من يخرج عنه ولا سعي له.

العشرون: أن الزكاة تجب في مال الصبي والمجنون ويثاب على ذلك ولا سعي له، ومن تأمل العلم وجد من انتفاع الإنسان بما لم يعمله ما لا يكاد يحصى فكيف يجوز أن يتناول الآية على خلاف صريح الكتاب والسنة وإجماع الأمة؟!.

والمراد بالإنسان العُمُوم.

وقال الربيع بن أنس: ليس للإنسان ـ يعني الكافر ـ وأما المؤمن فله ما سعى وما سُعي له. وقيل: ليس للكافر من الخير إلا ما عمله يثاب عليه في الدنيا حتى لا يبقى له في الآخرة خير.

ويروى: أن عبد الله بن أبي (ابن سلول) كان أعطى العَبَّاس قميصاً ألبسه إياه فلما مات أرسل رسول الله ـ ﷺ ـ قميصه ليكفن فيه فلم يبق له حسنةٌ في الآخرة يُثَابُ عَلَيْهَا.

وقوله: «وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى» أي يرى في ميزانه يوم القيامة من أَرَيْتُهُ الشيءَ أي يعرض عليه ويكشف له[١].

فإن قيل: العمل كيف يرى بعد وُجوده ومُضِيِّه؟!.

فالجواب من وجهين:

أحدهما: يرى على صورة جميلة إن كان العملُ صالحاً.

الثاني: قال ابن الخطيب: وذلك على مذهبنا غير بعيد، فإن كلّ موجود يَرَى الله والله قادر على إعادة كل ما عُدِمَ فبعد الفعل فيرى. ووجه آخر وهو أن ذلك مجاز عن الثواب كقولك: «سترى إحسانك» أي جزاءه. وفيه نظر؛ لقوله بعد ذلك: «ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفَى»[٢].

قوله: «ثُمَّ يُجْزَاهُ» يجوز في الضمير وجهان:

أظهرهما: أن الضمير المرفوع يعود على الإنسان[٣] والمنصوب يعود على «سَعْيُهُ» والجزاء مصدر مبيِّن للنوع[٤].

والثاني: قال الزمخشري: ويجوز أن يكون الضمير للجزاء، ثم فسره بقوله: «الجَزَاءَ»، أو أبدله منه كقوله: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾[٥] [الأنبياء: ٣].

قال أبو حيان: وإذا كان تفسيراً للضمير المنصوب في «يُجْزَاهُ» فعلى ماذا

---

(١) وانظر تفسير العلامتين البغوي والخازن في لباب التأويل ومعالم التنزيل ٦/ ٢٦٨ و٢٦٩.

(٢) بالمعنى من الرازي ١٥/ ١٧.

(٣) وبه قال الرازي في مرجعه السابق وأبو حَيَّان في البحر ٨/ ١٦٨.

(٤) المرجع الأخير السابق.

(٥) وانظر الكشاف ٤/ ٣٣ و٣٤.

يَنْتَصِبُ[(١)]؟ وأما إذا كان بدلاً فهو من بدل الظاهر من المُضْمَر. وهو مسألة خلاف[(٢)]. والصحيح المنعُ.

قال شهاب الدين: العجب كيف يقول: فعلى ماذا ينتصب؟ وانتصابه من وجهين:

أظهرهما: أن يكون عطف بيان وعطف البَيَان يصدق عليه أنه مفسِّر. وهي عبارة شائعة.

الثاني: أن ينتصب بإضمار «أعني» وهي عبارة شائعة أيضاً يسمون مثل ذلك تفسيراً[(٣)].

وقد منع أبو البقاء أن ينتصب «الجَزَاءَ الأَوْفَى» على المصدر فقال: «الجَزَاءَ الأَوْفَى» هو مفعول «يُجْزَاهُ»[(٤)] وليس بمصدر؛ لأنه وصفه بالأَوْفَى وذلك من صفة المجزيّ به لا من صفة الفِعْلِ[(٥)].

قال شهاب الدين: وهذا لا يبعد عن الغَلَط؛ لأنه يلزم أن يتعدى «يُجْزَى» إلى ثلاثة مفاعيل؛ لأن الأول قام مقام الفاعل[(٦)] والثاني «الهاء» التي هي ضمير السعي، والثالث «الجزاء الأوفى». وأيضاً فكيف ينتظم المعنى؟ وقد يجاب عنه بأنّه أراد أنه بدل من الهاء، كما تقدَّم عن الزمخشريِّ.

ويصح أن يقال: هو مفعول «يُجْزَاه» فلا يتعدى لثلاثة حينئذ إلا أنه بعيدٌ عن غرضِهِ. ومثل هذا إلْغَازٌ.

---

(١) في البحر: فعلى ماذا انتصابه؟

(٢) منع ابن مالك إبدال المضمر من الظاهر بدل كل، قال: لأنه لم يسمع من العرب لا نَثْراً ولا نَظْماً ولو سمع لكان توكيداً لا بدلاً، وأجازه الأصحاب نحو: رأيتُ زيداً أَبَاهُ وفي جواز بدل البعض والاشتمال خلف قيل: يجوز نحو ثلث التفاحة أكلت التفاحة إياه وحسن الجارية أعجبني الجارية هو. وقيل: يمنع قال أبو حيان: وهو كالخلاف في إبدالهما مضمراً من مضمر ومقتضاه ترجيح المنع على رأيه. وقد نقل الأشموني في باب البدل ما معناة يجوز إبدال الظاهر من الظاهر ومن ضمير الغائب ولا يجوز أن يبدل الظاهر من ضمير المتكلم أو المخاطب «إلا ما إحاطة جلا» أي إلا إذا كان البدلُ بدلَ كل فيه الإحاطة نحو: «تَكُونُ لَنَا عِيداً لأوّلنا وَآخِرنَا»، فإن لم يكن فيه معنى الإحاطة ففيه ثلاثة مذاهب **أولها**: المنع وهو مذهب البصرة، **والثاني**: الجوَاز وهو قول الأخفش **والثالث**: أنه يجوز في الاستثناء نحو: مَا ضَرَبْتُكُمْ إلا زيداً وهو قول قطرب. ولا يبدل الظاهر من المضمر كذلك إلا إذا اقتضى بعضاً أو اشتمالاً أي كان بدل بعض أو اشتمال نحو: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ، وقوله:

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاؤُنَا ....

وانظر بتصرف الهمع ٢/١٢٨ وحاشية الصبان على الأشموني ٣/١٢٨ و١٢٩ و١٣٠ والتسهيل ١٧٢.

(٣) انظر الدر المصون للسمين مخطوط بمكتبة الإسكندرية لوحة رقم ١١٧.

(٤) فيكون مفعولاً ثانياً والأول الهاء.

(٥) التبيان ١١٩٠.

(٦) وهو نائب الفاعل.

وأما قوله: «وَالأَوْفَى ليس من صفات الفعل» ممنوعٌ، بل هو من صفاته مجازاً، كما يوصف المجزيّ به مجازاً فإن الحقيقة في كليهما منتفيةٌ وإنما المتصف به حقيقة المجازى[١].

وقال ابن الخطيب: والجزاء يتعدى إلى مفعولين، قال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢] ويقال جزاك الله خيراً، ويتعدى إلى ثلاثة مفاعيل بحرف الجر، فيقال: جَزَاهُ الخَيْرَ عَلَى عَمَله الجَنَّة[٢]، وقد يحذف الجار ويوصل الفعل، فيقال: جَزَاهُ الخَيْرَ عَمَلَه الجَنَّة[٣].

فصل

والمُرَادُ بالجَزَاء الأوفى: الأكمل والأتمّ أي يُجْزَى الإنسانُ سَعْيَهُ؛ يقال: جَزَيْتُ فلاناً سَعْيَهُ وبِسَعْيِهِ قال الشاعر:

٤٥٦٧ ـ إنْ أَجْزِ عَلْقَمَةَ بْنَ سَعْدٍ سَعْيَهُ ... لَمْ أَجْزِهِ بِبَلاَءِ يَوْمٍ وَاحِدِ[٤]

فجمع بين اللغتين[٥].

قال ابن الخطيب: والجزاء الأوفى يليق بالمؤمنين الصالحين؛ لأن[٦] جزاء الصالح وافرٌ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣] وذلك أن جهنم ضررها أكثر من نفع الآثام، فهي في نفسها أوفى. فإن قيل: «ثُمَّ» لتراخي الجزاء أو لتراخي الكلام أي ثم نقول يُجْزَاهُ؟ فإن تكان لتراخي الجزاء فكيف يُؤَخَّر الجزاء عن الصالح وقد قلت[٧]: إن الظاهر أن المراد منه الصالحون؟!.

نقول: الوجهان محتملان وجواب السؤال أن الوصف بالأوفى يدفع ما ذكرت؛ لأن الله تعالى من أوّل زمان يتوبُ[٨] الصالح يجزيه خيراً ويؤخِّر له الجزاء الأوفى وهي الجنَّة.

أو نقول: الأوفى إشارة إلى الزيادة فصار كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ﴾ وهي الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وهي الرؤية، فكأنه تعالى قال: وأنَّ سعيه سوف يرى ثم

---

(١) الدر المصون المرجع السابق لوحة رقم ١١٧. (٢) في الرازي: على عمله الخَيْر الجَنَّةَ.

(٣) وفيه: جزاه الله عمله الخير الجنة، وانظر تفسير الإمام ١٥/ ١٧.

(٤) من الكامل ولم أعرف قائله، فهو مجهول. والشاهد: «أَجْزِ عَلْقَمَةَ» و«أَجْزِهِ بِبَلاَءِ» حيث عدى الفعل «جزى» بنفسه وبحرف الجر وهو ممكن فيهما. فقد جمع بين القولَين. وانظر تفسير القرطبي في الجامع ١٧/ ١١٥.

(٥) القرطبي السابق.

(٦) في ب لأن جزاء الصالح وافر، وفي الرازي: لأنه جزاء الصالح.

(٧) كذا في النسختين وفي الرازي: ثبت. (٨) في الرازي: يتوب كذلك.

يرزقُ الرؤيةَ. وهذا الوجه يليق بتفسير اللفظ، فإن الأوفى مطلقٌ غير مبيّن، فلم يقل: أوفى من كذا فينبغي أن يكون أوفى من كل وافٍ ولا يتصف به غير رؤية الله تعالى.

فصل

قال في حق المسيء: لاَ تزرُ وَازِرَةٌ (وِزْرَ أُخْرَى) وهو لا يدل إلا على عدم الحمل عن[1] الوَازرة، ولا يلزم من ذلك بقاء الوِزر عليها من ضَرُورة اللفظ؛ لجواز أن يسقط عنها، ويمحو الله ذلك الوِزر، فلا يبقى عليها ولا يحمل عنها غيرُها، ولو قال: لا تَزرُ (وَازِرَةٌ)[2] إلا وزر نفسها لكان من ضرورة الاستثناء أنها تزر. وقال في حق المحسن: «لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إلاَّ مَا سَعَى» ولم يقل: ليس له ما لم يَسْعَ؛ لأن العبارة الثانية ليس فيها أن له ما سعى وفي العبارة الأولى أن له ما سعى نظراً إلى الاستثناء فقال في حق المسيء بعبارة لا تقطع رجاءَه، وفي حق المحسن بعبارة تقطع خوفه، وكل ذلك إشارةٌ إلى سَبْق الرحمةِ الغَضَبَ[3].

قوله [تَعَالَى[4]:] ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ العامة على فتح همزة «أَنَّ» وما عطف عليها بمعنى أن الجميع في صحف مُوسَى وإِبْرَاهِيمَ.

وقر أبو السَّمَّال بالكسر في الجميع على الابتداء[5] ومعنى الآية: إن منتهى الخَلْق ومصيرَهم إليه فيجازيهم بأعمالهم. وقيل: منه ابتداء المنَّة وإليه انتهاء الآمَال[6]. وروى أو هريرةَ مرفوعاً: تَفَكَّرُوا فِي الخَلْق وَلاَ تَفَكَّرُوا في الخَالِقِ، فَإن اللَّه لاَ يُحِيطُ بِهِ الفِكْرُ[7].

قال القرطبيُّ: ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام: يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ ولْيَنْتَهِ[8]. ولهذا أحسن من قال (رحمة الله عليه[9] ورضاه) (شعْراً)[10]:

٤٥٦٨ ـ وَلاَ تُفَكِّرَنْ فِي ذَا العُلاَ عَزَّ وَجْهُهُ ... فَـإِنَّـكَ تُـرْدَى إنْ فَـعَـلْـتَ وتُـخْـذَلُ
وَدُونَـكَ مَـصْـنُـوعَـاتِـهِ فَـاعْـتَـبِـرْ بِـهَـا ... وَقُلْ مِثْلَ مَا قَالَ الخَلِيلُ المُبَجَّلُ[11]

---

(١) في ب على.
(٢) سقط من ب.
(٣) وانظر تفسير الإمام ١٥/١٧ و١٨ معنى.
(٤) سقط من أ الأصل.
(٥) وهي قراءة شاذة ذكرها صاحب البحر ١٦٨/٨.
(٦) في القرطبي: الأمان.
(٧) البغوي والخازن في تفسيريهما ٢٦٩/٦ و٢٧٠.
(٨) الجامع لأحكام القرآن ١١٦/١٧.
(٩) زيادة من أ.
(١٠) زيادة من ب فقط.
(١١) من الطويل ومجهول قائلهما. وجاء بهما المؤلف استئناساً على أن الله لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وانظر القرطبي ١١٦/١٧ والسراج المنير ١٣٧/٣.

وقيل: المراد من هذه الآية التوحيد.

وفي المخاطب وجهان:

أحدهما: أنه عام تقديره إلى ربك أيها السامع أو العاقل.

والثاني: أنه خطاب مع النبي ـ ﷺ ـ فعلى الأولى يكون تهديداً وعلى الثاني يكون تسليةً لقلب النبي ـ ﷺ ـ.

فعلى الأول أيضاً تكون اللام في «المُنْتَهَى» للعهد الموعود في القرآنِ.

وعلى الثاني تكون للعموم أي إلى ربك كُلُّ مُنْتَهى.

فإن قيل: فعلى هذا الوجه يكون مُنْتَهًى، وعلى الأول يكون «مُبْتَدًى».

فالجواب: منتهى الإدراكاتِ والمُدْرَكَاتِ فإن الإنسان أولاً يُدْرِكُ الأشياء الظاهرة ثم يُمْعِنُ النظر فينتهي إلى الله فيقف عنده(١).

قوله: «وَأَنَّه هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى» (أضحك وأبكى)(٢) ما بعده هذا يسميه البيانيون الطِّباق والتضاد وهو نوع من البديع، وهو أن يذكر ضِدّان أو نقيضان أو متنافيان بوجه من الوجوه.

و «أَضْحَك وَأَبْكَى» لا مفعول لهما في هذا الموضع؛ لأنها(٣) مسوقة لقدرة الله تعالى لا لبيان المقدور، فلا حاجة إلى المفعول كقول القائل: فُلاَنٌ بِيَدِهِ الأَخذُ والعَطَاءُ يُعْطِي ويمنع ولا يريد ممنوعاً ومُعْطًى(٤).

فصل

اختار هذين الوصفين المذكورين لأنهما أمران لا يُعَلَّلان، فلا يقدر أحد من الطَّبِيعِيِّينَ(٥) أن يُبْدِيَ في اختصاص الإنسان بالضَّحِكِ والبكاء وجهاً وسبباً وإذا لم يعلل بأمر، فلا بد له من موجد فهو الله بخلاف الصِّحة والسَّقَم، فإنهم يقولون: سببهما اعتلالُ المِزاج وخروجُه عن الاعْتِدَال.

ومما يدل على ما ذكرنا أنهم عللوا الضحك قالوا: لقوة التعجب وهو باطل، لأن الإنسان ربما يبهت عند رؤية الأمور العَجِيبة ولا يضحك. وقيل: لقوة الفرح؛ وليس كذلك؛ لأن الإنسان قد يبكي لقوة الفرح كما قال بعضهم (شعراً)

٤٥٦٩ ـ هَجَمَ السُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى إنَّنِي ... مِنْ عِظَمِ مَا قَدْ سَرَّنِي أَبْكَانِي(٦)

(١) بالمعنى من تفسير الإمام ١٥/١٩.

(٢) زيادة للسياق.

(٣) كذا في النسختين والأحسن: لأنهما مسبوقتان.

(٤) الرازي ١٥/٨١٩.

(٥) كذا في الرازي وفي ب الطبائعيين.

(٦) من تامّ الكامل. ولم أعرف قائله. وانظر السراج المنير ٤/١٣٨.

وأيضاً فالذي يحزن غايةَ الحزن قد يضحك وقد يخرج الدمع من العين عند أمور مخصوصة لا يقدرون على تعليلها بتعليل صحيحٍ.

وأيضاً عند الخواص كالتي في المَغْنَاطيس وغيره ينقطع الطبيعيّ كما ينقطع هو والمهندس الذي لا يُفَوِّضُ أمره إلى قدرة الله وإرادته عند أوضاع الكواكب.

فصل

إذا قيل: بأن المراد بقوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ إثبات الوَحْدانية فهذه الآيات مبيِّنَات لمسائل يتوقف عليها الإسلام من جملتها قدرة الله تعالى، فإن من الفلاسفة من يقول: بأنَّ الله المنتهى وأنه واحد لكن يقول: بأنه موجب لا قادر فقال تعالى: هو أَوْجَدَ ضِدَّين الضَّحِكَ والبُكَاءَ في مَحلٍّ واحد على التعاقب والتراخي، والموت والحياة، والذُّكُورَة والأنوثة في مادة واحدة، وذلك لا يكون إلا من قادرٍ يعترف به كُلُّ عاقل.

وإن قيل: بأن المراد بالمنتهى بيانُ المعاد فهو إشارة إلى أن الإنسان كما كان في الدنيا في بعض الأمور ضاحكاً وفي بعضها باكياً محزوناً كذلك في الآخرة[١]

فصل

هذه الآية تدل على أن كل مَا يَعْمَلُهُ الإنسان فبقضاء الله وخَلْقِهِ حتى الضَّحك والبكاء قال مجاهد والكلبي: أضحك أهل الجنة في الجنة وأبكى أهل النار في النار، وقال الضحاك: أضحك الأرضَ بالنبات، وأبكى السماءَ بالمَطَر، وقال عَطَاءُ بن أبي مسلم[٢]: يعني أفرح وأحزن؛ لأن الفرح يجلب الضَّحك والحزن يجلب البكاء[٣].

فصل

روى مسلمٌ عن عائشةَ ـ (رضي الله عنها)[٤] ـ قالت: والله ما قال رسول الله ـ ﷺ ـ إن الميت ليعذب ببكاءِ أهله، ولكنه قال: إن الكافر يزيده اللَّهُ ببكاءِ أهلهِ عذاباً، وإن الله لهو أضحك وأبكى، وَمَا تزر وازرة وزر أخرى[٥].

وعنها قالت: مر النبي ـ ﷺ ـ على قوم من أصحابه وهم يضحكون فقال: لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً ولَبَكَيْتُمْ كَثِيراً، فَنزل جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال يا محمد: إن الله يقول لك: إنه هو أضحك وأبكى فَرَجَعَ إليهم فقال: ما خطوت أربعين خطوة حتى أتاني جبريل فقال: إيت هؤلاء فقل لهم إن الله يقول: هُوَ أضحك وأبكى أي قضى أسباب الضَّحِك والبكاء[٦].

---

(١) بالمعنى كل هذا من تفسير الإمام ١٩/١٥ و٢٠.

(٢) سبق التعريف به.

(٣) البغويّ والخازن في تفسيريهما ٦/ ٢٧٠.

(٤) زيادة من أ.

(٥) روي: «لا واللَّهِ ما قال رسول الله قَطّ».

(٦) وانظر القرطبي ١١/١٧ وصحيح مسلم.

وقال بَسَّامُ بن عبد الله[١]: أضحك أسنانهم وأبكى قلوبهم، وأنشد [رحمه الله][٢]:

٤٥٧٠ ـ السِّنُّ تَضْحَكُ وَالأَحْشَاءُ تَحْتَرِق وَإِنَّمَا ضِحْكُهَا زُورٌ ومُخْتَلَقُ
يَا رُبَّ بَاكٍ بِعَيْنٍ لاَ دُمُوعَ لَهَا وَرُبَّ ضَاحِكِ سِنٍّ مَا بِهِ رَمَقُ[٣]

قيل: إن الله تعالى خص الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوانات. وقيل: إن القِرْدَ وَحْدَهُ يضحك ولا يبكي، وإن الإبل وحدها تبكي ولا تضحك. وقال يوسف بن الحسين: سئل طاهر المَقْدِسيُّ[٤]: أَتَضْحَكُ المَلائِكَةُ؟ فقال: ما ضَحِكُوا ولا كُلّ مَنْ دُون العَرْشِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي أمات في الدُّنْيَا، وأحيا للبعث. وقال القرطبي: قضى أسباب الموت والحياة. وقيل: خَلَقَ الموت والحياة. قاله ابن بحر. وقيل: أمات النُّطْفَة وأحيا النَّسمة، وقيل: أمات الآباء وأحيا الأبناء. وقيل: أمات الكافر بالكفر، وأحيا المؤمن بالإيمان[٥].

قال ابن الخطيب: فإن قيل: معنى أمات وأحيا حتى يعلم ذلك بل مشاهدة الإحياء والإماتة بناء على الحياة والموت؟.

نقول: فيه وجوه:

أحدها: أنه على التقديم والتأخير كأنه قال: أَحْيَا وَأَمَاتَ.

ثانيها: هو بمعنى المستقبل، فإن الأمرَ قريبُ المُسْتَقْبل، يقال: كأَنّ فلاناً وصل والليلُ دَخَلَ، إذا قرب مكانه وزمانه فكذلك الإحياء والإماتة.

ثالثها: أنه خلق الموت والجمود في العَنَاصر ثم ركَّبها و «أَحْيَا» أي خلق الحِسَّ والحركة فيها[٦].

قوله: «وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْن الذكَرَ وَالأُنْثَى» أي من كل حيوان. ولم يرد آدمَ وحوّاء؛ لأنهما ما خُلقا من نطفة. وهذا أيضاً من جملة المتضادات الواردة على النطفة، فبعضها يخلق ذكراً وبعضها يخلق أنثى، ولا يصل إليه فهم الطَّبِيعِيّ، والذي يقولونه من البرد والرطوبة في الأنثى فرُبَّ امرأةٍ أحر وأَيْبَسُ مزاجاً من الرّجُل.

---

(١) القرطبي المرجع السابق. (٢) زيادة من أ.

(٣) بيتانِ من البسيط لم أعرف مُنْشِدَهُما وجاء بهما المؤلف للمعنى المسوق وهي ضحك الأسنان وبكاء القلوب وانظر القرطبي ١٧/ ١١٧ والسراج المنير ٤/ ١٣٧.

(٤) طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي، سمع من المقومي ثم رحل إلى همذان وتوفي سنة ٥٦٦، وانظر شذرات الذهب ٤/ ٢١٧.

(٥) ذكر هذه الأقوال القرطبيُّ في الجامع ١٧/ ١١٧.

(٦) الرازي ١٥/ ٢٠.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ﴾ ولم يقل: «وأَنَّهُ هُوَ خَلَقَ» كما قال: «وَأَنَّهُ هو أَضْحَكَ وَأَبْكَى»؟

فالجواب: أن الضحك والبكاء ربما يتوهم أنه بفعل الإنسان، والإماتة والإحياء وإن كان ذلك التوهم أبعد لكن ربما يقول به جَاهلٌ كما قال من حَاجَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فأكد ذلك بالفصل. وأما خلق الذكر والأنثى من النطفة فلا يتوهم أحدٌ أنه بفعل واحدٍ من الناس، فلم يؤكد بالفصل، ألا ترى إلى قوله: «وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى» حيث كان الإغناء عندهم غيرَ مسند إلى الله، وكان في معتقدهم أن ذلك بفعلهم كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨] وكذلك قال: «وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى» فأكد في مواضع استبعادهم إلى الإسناد ولم يؤكد في غيره.

واختلفوا في الذكر والأنثى هل هما اسمانِ وهما صفةٌ؟ أو اسمان ليسا بصفة؟ فالمشهور عند أهل اللغة أنهما اسمان ليسا بصفةٍ.

قال ابن الخطيب: والظاهر أنهما من الأسماء التي هي صفات فالذكر كالحَسَنِ، والأنثى كالحُبْلَى والكُبْرَى(١).

قوله: «مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى» أي تُصَبُّ في الرَّحِمِ؛ يُقَالُ: مَنَى الرَّجُلُ وأَمْنَى. قاله الضحاك وعطاء بن أبي رباح.

وقيل: تقدر، يقال: مَنَيْتُ الشَّيْءَ إذا قَدَّرْتَهُ(٢). وهذا أيضاً تنبيه على كمال القدرة، لأن النطفة جسم متناسب الأجزاء يخلق اللَّهُ منها أعضاء مختلفةً، وطباعاً متباينةً، وخلق الذكر والأنثى منها أعجب ما يكون، ولهذا لم يَقْدِرِ أحد على أن يَدَّعِيَهُ كما لم يَقْدِر على أن يَدَّعِيَ خلق السموات، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾(٣) [لقمان: ٢٥].

قوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى﴾ أي الخلق الثاني للبعث يوم القيامة. قال ابن الخطيب: يحتمل أن يكون المراد من قوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى﴾ هو نفخ الروح الإنسانية فيه كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمًا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ [المؤمنون: ١٣ و ١٤] أي غير خلق النطفة علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظاماً. وبهذا الخلق الآخر وهو نفخ الروح تميز الإنسان عن أنواع الحيوانات فكما قال هناك: «أنشأناه خلقاً آخر»

(١) وانظر في هذا كله تفسير العلاّمة الإمام الفخر الرازي ١٥/ ٢٠ و٢١.

(٢) البغوي والخازن ٦/ ٢٧٠. (٣) انظر الرازي السابق

بعد خلق النطفة قال ههنا: «وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى» فجعل خلق الروح نشأةً أخرى كما جَعَلَه هناك إنشاءً آخَرَ.

فإن قيل: الإعادة لا تجب على الله، فما معنى قوله تعالى: «وأنَّ عَلَيْهِ»؟

فالجواب على مذهب المعتزلة يجب عليه عقلاً، فإن الجزاء واجب، وذلك لا يتم إلا بالحشر فتجب الإعادة عليه عقلاً، وأما على مذهب أهب السنة ففيه وجهان:

الأول: «عَلَيْهِ» بحكم الوعد، فإنه قال: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي المَوْتَى» «فَعَلَيْهِ» بحكم الوعد لا بالعقل ولا بالشَّرْع.

الثاني: «عليه» بحكم التعيين، فإن من حَضَرَ بين جمع وحاولوا أمراً وعجزوا عنه، يقال له: وَجَبَ عَلَيْكَ إِذَنْ أَنْ تَفْعَلَه أي تَعَيَّنْتَ لَه[١].

فصل

قرىء النَّشْأَةَ على أنه مصدر كالضَّرْبَةِ على وزن فَعْلَةٍ وهي المَرَّة يقال: ضَرْبَةٌ وضَرْبَتَانِ يعني النشأة مرة أخرى عليه. وقرىء النَّشاءة ـ بالمد ـ على أنه مصدر على وزن فَعَالَةٍ[٢]، كالكَفَالَةِ. وكيفما قُرِىءَ فهي من «نَشَأَ»، وهو لازمٌ.

قوله: «وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى» قال أبو صالح: «أغنى» الناسَ بالأَمْوَالِ «وأقنى» أعطى القُنيَةَ وأصول الأموال وما يَدَّخِرُونَه بعد الكِفاية.

وقال الضحاك: «أغنى» بالذهب والفضة، وصنوف الأموال، «وأقنى» بالإبل والبَقَر والغنم، وقال الحسن وقتادة: أَخْدَمَ. وقال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٣] أَغْنَى وأَقْنَى أعْطَى فَأَرْضَى. وقال مجاهد ومقاتل: أرضى بما أعطى وقنع. وقال الراغب: وتحقيقه أنه جعل له قنيةً من الرِّضا. وقال سُلَيْمَان التَّيْميّ: أغنى نفسه وأفقر خلقه إليه. وقال ابن زيد: «أغنى» أكثر «وأقنى» أقلَّ، وقرأ: «يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ»[٤].

وقال الأخفش: «أقنى»: أفقر[٥]. وقال ابن كيسان: أَوْلَدَ[٦]. قال الزمخشري: «أقنى» أعطى القُنْيَةَ، وهي المال الذي تأثَّلته[٧] وعزمت أن لا يخرج من يدك. وقال

---

(١) بالمعنى كل هذا من تفسير العلاَّمة الرازي ١٥/ ٢٢.

(٢) ونسبها صاحب الإتحاف إلى ابن كثير وأبي عمرو، وقد مرت في العنكبوت، وانظر الإتحاف ٤٠٣ وقد نقلها صاحب التفسير الكبير الإمام الرازي دون نسبة كما نقلها صاحب الكشاف الزمخشري ٤/ ٣٤ دون نسبة أيضاً وقد نسبها القرطبي ١٧/ ١١٨.

(٣) زيادة من أ.

(٤) ذكرت هذه الأقوال في البغوي والخازن ٦/ ٢٧٠ والقرطبي ١٧/ ١١٨ و١١٩ والمفردات للراغب قنا.

(٥) لم أجدها في المعاني له فقد نقلها عنه البغوي السابق.

(٦) السابق أيضاً.

(٧) تَأَثَّلَ المالَ اكتسبه وثَمَّرَهُ واتَّخَذَهُ. عن اللسان «أثل».

الجَوْهَرِيُّ: «قَنِيَ الرجلُ يَقْنَى قِنَى» مثل «غَنِيَ يَغْنَى غِنَى»[١]، ثم يتعدى بتغيير الحركة فيقال: قَنيتُ مالاً أي كَسَبْتُهُ، وهو نظير: شَتِرَتْ عَيْنُه[٢] ـ بالكسر ـ وشَتَرَها اللَّهُ ـ بالفتح ـ فإذا أدخلت عليه الهمزة أو التضعيف اكتسب مفعولاً ثانياً فيقال: أَقْنَاهُ اللَّهُ مالاً، وقناه إياه أي أكْسَبَهُ إيَّاه، قال الشاعر:

٤٥٧١ ـ كَمْ مِنْ غَنِيٍّ أَصَابَ الدَّهْرُ ثَرْوَتَهُ وَمِنْ فَقِيرٍ تَقَنَّى بَعْدَ إقْلالِ[٣]

أي تقنى مالاً، فحذف (المفعول الثاني). وحذف مفعولا «أغنى وأقنى»؛ لأن المراد نسبةُ هذيْنِ الفعلين إليه وحْدَهُ، وكذلك في باقيها، وألف «أقنى» عن ياءٍ، لأنه من القِنْيَة؛ قال:

٤٥٧٢ ـ ألاَ إنَّ بَعْدَ العُدْمِ لِلْمَرْءِ قِنْيَةً[٤]

ويقال: قَنِيتُ كَذَا وأَقْنَيْتُهُ، قال:

٤٥٧٣ ـ .... قَنِيتُ حَيَائِي عِفَّةً وَتَكَرُّمَا[٥]

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ والشِّعْرَى في لسان العرب كوكبان يسمى أحدهما الشعرى العبور وهو المراد في الآية الكريمة، فإنَّ خُزَاعَةَ كانت تعبدها، وسن عبادتها أبو كبشة رجلٌ من سادتهم فعبدها وقال: لأن النجوم تقطع السماء عَرْضاً والشِّعْرى تقطعها طولاً فهي مخالفة لها فعبدتها خُزَاعَةُ وحِميرُ وأبو كبشة أحد أجداد النبي ـ ﷺ ـ من قِبَل أمهاته، وبذلك كان مشركو قريش يُسمونَ النبي ـ ﷺ ـ: ابن أبي كبشة حين دعا إلى الله، وخالف أدْيَانَهُمْ، فكانت قريشٌ تقولُ لرسول الله ـ ﷺ ـ: ابْنَ أبي كبشة تشبيهاً بذلك الرجل في أنه أحْدَثَ ديناً غيرَ دِينِهِمْ.

والشِّعرى العبور تطلع بعد الجوْزَاء في شدة الحر ويقال لها: مرزم الجوزاء وتسمى كلب الجبار، ويسمى الشعرى اليمانية والثاني الشعرى الغُمَيْصَاء، وهي التي في الذِّراع

---

(١) صِحَاح الجوهري قنا.

(٢) والشتر انتقال في جَفْنِ العين أعلى وأسفل. وانظر اللسان شتر ٢١٩٢.

(٣) من البسيط ولم أعرف قائله فهو مجهول. والشاهد تعدية «تَقَنَّى» من قَنِيَ ماضياً إلى المفعول الثاني، والأول هو النائب عن الفاعل والأصل: قَنَّاه الله مالاً، فالأول هو الهاء.

(٤) نصفُ بيت من الطويل، لا أعرف أصدر هو أو عجز، وبالتالي لم أعرف قائله، فقد بحثت عنه كثيراً فلم أهتد إليه والشاهد: في قنية فهي عن ياء كما يقتضيه كلام أهل الكوفة.

(٥) عجز بيت من الطويل لحاتم الطائي صدره:

إذَا قَلَّ مَالِي أَوْ نُكِبْتُ بِنَكْبَةٍ

وشاهده كسابقه من أن أصل ألف «أقنى» ياء من قنيَت الحياء أي لزمته. والبيت بعدُ واضح، وانظر اللسان: قنا ٣٧٦٠ والكتاب ١/٣٦٨ و ٣/١٢٦ والمقتضب ٢/٣٤٨ وابن يعيش ٢/ ٥٤ والتصريح ١/ ٣٩٢، والأشموني ٢/ ١٨٩ وديوان الوهبية ١٢٩٣ من مجموع خمسةِ دواوين ص ١٠٨.

والمجرة بينهما وتسمى الشامية، وسبب تسميتها بالغميصاء ـ على ما زعمت العرب في بعض خرافاتها ـ أنهما كانتا أختين لسُهَيْل فانحدر سُهَيْلٌ إلى اليمن فاتبعته الشّعرى العَبُور فعبرت المجرة فسُمِّيَت العبور، وأقامت الغميصاءُ تبكي لفَقْدِهِ، حتى غمصت عينها، ولذلك كانت أخفى من العبور. وقد كان من لا يعبد الشِّعرى من العرب يعلمها ويعتقد تأثيرها في العالم قال:

٤٥٧٤ ـ مَضَى أَيْلُولُ وَارْتَفَعَ الحَرُورُ وَأَخْبَتْ نَارَهَا الشِّعْرَى العَبُورُ[١]

فصل

وهذا الآية إشارة إلى فساده قولِ قوم آخرين؛ لأن بعض الناس يذهب إلى أن الفقر والغنى بكسب الإنسان واجتهاده، فمن كسب استغنَى، ومن كسل افْتَقَرَ، وبعضهم يذهب إلى أن ذلك بسبب الطالع وذلك بالنجوم فقال: هو أغنى وأقنى وإن قال قائل: إن الغنى بالنجوم فيقال: هو رَبّ النجوم ومُحَرِّكُها لقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى**﴾ لإنكارهم ذلك أُكِّد بالفصل[٢].

قوله: «وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى» اعلم أن هذه الآية الكريمة من أشكل الآيات نقلاً وتوجيهاً.

قال شهاب الدين (رحمه الله)[٣]: وَقَد يَسَّرَ الله تعالى تحرير ذلك بحَوْله وقوّته فأقول: إن القراء اختلفوا في ذلك على أربع رتب:

إحْدَاها: قرأ ابن كثير وابنُ عامر والكوفيون «عَادِ الأُولَى» بالتنوين مكسوراً وسكون اللام وتحقيق الهمزة بعدها. هذا كله في الوصل، فإذا وقفوا على «عَادٍ» ابتدأوا بـ «الأولى» فقياسهم أن يقولوا الأولى بهمزة الوصل وسكون اللام وتحقيق الهمزة[٤].

الثانية: قرأ قالون: عَاداً لُؤْلَى بإدغام التنوين في اللام ونقل حركة الهمزة إلى لام التعريف وهمز الواو[٥] هذا في الوصل، وأما في الابتداء بـ «الأولى» فله ثلاثة أوجه:

الأول: الُؤْلَى ـ بهمزة وصل ثم بلام مضمومة ثم بهمزة ساكنة.

---

(١) من الوافر ولم أعرف قائله وجاء به شاهداً على أن الشِّعرى نوع من أنواع الكواكب كما أخبر أعلى. وانظر القرطبي ١٧/ ١١٩ وتفسير البغوي والخازن ٦/ ٢٧٠ و ٢٧١.

(٢) بالمعنى من الرازي ١٥/ ٢٣ و٢٤.

(٣) زيادة من أ. وانظر رأيه في تلك القراءة في الدر المصون مخطوط بلدية اسكندرية تحت رقم ١١٨.

(٤) ذكر هذه القراءة ابن مجاهد في السبعة وصاحب الإتحاف ٤٠٤ ونسب أبو حيان هذه القراءة إلى الجمهور. انظُرْ البحر ٨/ ١٦٩ وكذلك مَكّيٌ في المشكل ٢/ ٢٩٦.

(٥) قال في الإتحاف: واختلف عن قالون في طريقته في همز الواو، غير أن الهمز أشهرُ عن الحلواني وعَدمه أشهر عن أبي نشيطٍ.

الثاني: لُؤْلَى ـ بلام مضمومة، ثم بهمزة ساكنة.

الثالث: كابتداء ابن كثير ومن معه[1].

الثالثة: قرأ ورشٌ عاداً لُولى بإدغام التنوين في اللام ونقل حركة الهمزة إليها كقالون، إلا أنه أبقى الواو على حالها غير مبدلةٍ[2] همزةً. هذا (كله) في الوصل وأما في الابتداء فله وجهان الُؤْلَى بالهمزة والنقل، ولُولَى بالنقل دون همزة وصل. والواو ساكنة على حالها في هذين الوجهين.

الرابعة: قرأ أبو عمرو كورشٍ وصلاً وابتداءً سواءً بسواءٍ إلاّ أنه يزيد عليه في الابتداء بوجه ثالث وهو وجه ابن كثيرٍ وَمَنْ مَعَهُ[3].

فقد تحصل أن لكل من قالون وأبي عمرو في الابتداء ثلاثةَ أوجهٍ وأن لورشٍ وَجْهَيْنِ؛ فتأمل ذلك، فإنَّ تحريره ضعيفُ المأخذ من كتب القراءات[4].

وأما توجيهها فيتوقف على معرفة ثلاثة أصول:

الأول: حكم التنوين إذا وقع بعده ساكن.

الثاني: حكم حركة النقل.

الثالث: أصل «أولى» ما هو.

أما الأول فحكم التنوين الملاقي أن يكسر لالتقاء الساكنين نحو: «**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٍ اللَّهُ**» [الإخلاص: ١ ـ ٢] أو يحذف تشبيهاً بحرف العلة كقراءة: «أَحدُ اللَّهُ الصَّمَدُ» وكَقَوْلِهِ:

٤٥٧٥ ـ وَلاَ ذَاكِـرَ الـلَّـهَ إلاَّ قَـلِـيـلا[5]

وهو قليل جداً. وقد مضى تحقيقه.

وأما الثاني: فإن للعرب في الحركة المنقولة مذهبين الاعتداد بالحركة، وعدم الاعتداد بها وهي اللغة الغالبة.

وأما الثالث: فأُولَى تأنيث «أَوَّل». وقد تقدم الخلاف في أصله في: «أَوَّل» فليُلْتَفَتْ إليه[6].

إذا تقررت هذه الأصول الثلاثة فأقول:

---

(١) قال في الإتحاف: ويجوز لغير ورش وجه ثالث وهو الابتداء بالأصْل فتأتي بهمزة الوصل مع تسكين اللام وتخفيف الهمزة المضمومة بعدها الواو. وقال في الكشف ٢/ ٢٩٦: غير أن قالون يأتي بهمزة ساكنة بعد اللام في موضع الواو. وانظر الإتحاف ٤٠٤.

(٢) الإتحاف المرجع السابق وهي ليست سبعية كسابقتها بخلاف الأولى والرابعة الآتية بعدُ.

(٣) السبعة والإتحاف السابقين والكشف ٢/ ٢٩٦.

(٤) وانظر هذا في المشكل والإتحاف والسبعة والبحر والكَشاف ٤/ ٣٤ والقرطبي ١٧/ ١٢٠.

(٥) مضَى الكلام عليه أكثر من مرة.

(٦) أصل أولى عند الكوفة وُؤلى ثم وُولَى ثم أُولَى. وعليه قراءة قالون السابقة بالهمزة عند نقل حركة=

أما قراءة ابن كثير ومن معه فإنهم صرفوا «عاداً» إمّا لأنه اسم للحيّ أو الأب فليس فيه ما يمنعه، وإمَّا لأنه وإن كان مؤنثاً اسماً للقبيلة أو الأم إلا أنه مثل هنْد[١] ودَعْد، فيجوز فيه الصرف وعدمه فيكون كقوله:

٤٥٧٦ ـ لَمْ تَتَلَفَّعْ بِفَضْلِ مِئْزرِهَا دَعْدٌ ولَم تُسْقَ دَعْدُ فِي العُلَبِ[٢]

فصرفها أولاً ومنعها ثانياً.

ولم ينقلوا حركة الهمزة إلى لام التعريف فالتقى ساكنان فكسروا التنوينَ لالتقائهما على ما هو المعروف من اللّغتين. وحذفوا همزة الوصل من الأولى للاستغناء عنها بحركة التنوين وصلاً، فإذا ابتدأوا بها احتاجوا إلى همزة الوصل فأتوا بها، فقالوا «الاولى» كنظيرها من همزات الوصل، وهذه قراءة واضحة لا إشكال فيها ومن ثم اختارها الجَمُّ الْغَفيرُ.

وأما قراءة من أدغم التنوين في لام التعريف ـ وهما نافع وأبو عمرو ـ مع اختلافهما في أشياء كما تقدم فوجهه الاعتدادُ بحركة النقل، وذلك أن من العرب من إذا نقل حركة الهمزة إلى ساكن قبلها كَلاَم التعريف عَامَلَها مُعَامَلَتَها ساكنةً، ولا يعتدُّ بحركة النقل فيكسر الساكن الواقع قبلها، ولا يُدْغِم فيها التنوين ويأتي قبلها بهمزة الوصل فيقول: لَمْ يَذْهَب الْحَمَرُ، ورأيت زياداً الْعَجَمَ من غير إدغام التنوين، والحمر والعجم بهمزة الوصل؛ لأن اللام في حكم السكون، وهذه هي اللغة المشهورة. ومنهم من يعتدّ بها فلا يكسر الساكن الأول ولا يأتي بهمزة الوصل ويُدْغم التنوين في لام التعريف فيقول: لم يذهبْ لحمرُ ـ بسكون الباء ـ «ولحمر ولعجم» من غير همز، وزياد لَّعْجعم بتشديد اللام وعلى هذه اللغة جاءت هذه القراءةُ.

هذا من حيث الإجمال وأما من حيث التفصيل فأقول:

أما قالونُ فإنه نقل حركة الهمزة إلى لام التعريف وإن لم يكن من أصله النقل لأجل قصده التخفيف بالإدْغَام ولما نقل الحركة اعتدَّ بها؛ إذ لا يمكن الإدغام في ساكن ولا ما هو في حكمه.

= الهمزة ـ الهمزة الأولى ـ إلى لام التعريف. وردّ المازني على الخليل بأن الواو في مثله عارضة غير لازمة؛ إذ تخفيف الهمزة في مثله غير واجب. وأصل أولى عند البصرة «وُولى» ويجب قلب الأولى همزة لأن الثانية أصلية غير منقلبة عن شيء وسواء كانت الثانية تلك مدة أو غير مدة كالأوّل عندهم. وانظر شرح الشافية للعلامة الرضي ٣/ ٧٦ و٧٧.

(١) فهو مؤنث ثلاثي ساكن الوسط عربي الأصل.

(٢) وقد نسبه صاحب اللسان إلى جرير، كما نُسب إلى ابن قيس الرُّقيّاتِ، وروى ابن جني في الخصائص «تغذ» بدل «تسق». والشاهد في (دَعْد) حيث صرفها أولاً ومنعها ثانياً قال في الخصائص: كذا الرواية بصرف (دَعْدٍ) الأولى، ولو لم يصرفها لما كسر وزناً وأمن الضرورة أو ضعف إحدى اللغتين. وقد تقدم.

وأما همزة الواو ففيها وجهان منقولان:

أحدهما: أن يكون «أولى» أصلها عنده وُؤْلَى من وَأَلَ أي نَجَا كما هو قول الكوفيين، ثم أبدل الواو الأولى همزة، لأنها واو مضمومة وقد تقدم أنها لغة مُطَّرِدَة. فاجتمع همزتان ثانيهما ساكنة فوجب قلبها واواً نحو: أومِنُ، فلما حذفت الهمزة الأولى بسبب نقل حركتها رجعت الثانية إلى أصلها من الهمز؛ لأنها إنما قلبت واواً من أجل الأولى وقد زالت. وهذا تكلف لا دليل عليه.

والثاني: أنه لما نقل الحركة إلى اللام صارت الضّمة قبل الواو كأنها عليهما؛ لأن حركة الحرف بين يديه فأبدل الواو همزة كقوله:

٤٥٧٧ ـ أَحَبُّ المُؤقِدَيْنِ إلَيَّ مُؤْسَى[(١)]

وكقراءة «يُؤْقِنُونَ»[(٢)] وهمزة ﴿السُّؤْقِ﴾ [صَ: ٣٣] و ﴿سُؤْقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩] كما تقدم تحريره. وهذا بناء منه على الاعتداد بالحركة أيضاً. وليس في هذا الوجه دليلٌ على أصل «أولى» عنده ما هو فيحتمل الخلاف المذكور جميعه.

وأما ابتداؤه الكلمة من غير نَقْل[(٣)]، فإنه الأصل، ولأنه إنما ثقل في الوصل لقصده التخفيف بالإدغام ولا إدغام في الابتداء فلا حاجة إلى النقل، ولأنه إنما ثقل في الوصل وأما الابتداء[(٤)] بالنقل[(٥)] فلأنه محمول على الوصل ليجري اللفظ فيهما على سَنَنٍ واحد.

وعلة إثبات ألف الوصل مع النقل في أحدِ وَجْهَيْنِ:

ترك الاعتداد بحركة اللام على ما هي عليه القراءة في نظائره مما وجد فيه النقل؛ إذ الغرض إنما هو جَرْي اللفظ في الابتداء والوصل على سَنَنٍ واحد وذلك يحصل بمجرد النقل وإن اختلفا في تقدير الاعتداد بالحركة وتركه. وعلة ترك الإتيان بألف في الوجه الثاني حمل الابتداء على الوصل في النقل والاعتداد بالحركة جميعاً ويقوِّي هذا الوجه رسمُ (الأولى) في هذا الموضع بغير ألف. والكلام في همز الواو مع النقل في الابتداء كالكلام عليه في الوصل كما تقدم.

وأما ورش فإن أصله أن ينقل حركة الهمزة على اللام في الوصل فنقل على أصله إلا أنه اعتد بالحركة ليصح ما قصده من التخفيف بالإدغام وليس من أصله الاعتداد

---

(١) سبق هذا البيت أيضاً.

(٢) وهي قراءة أبي حية النمري كما ذكر ذلك صاحب الكشاف ١/ ١٣٨.

(٣) كابن كثير ومن معه.

(٤) أي قالون.

(٥) بهمزة الوصل وبدونها. أي الُؤلى، ولُؤلَى.

بالحركة في نحو ذلك، ألا ترى أنه يحذف الألف في (سِيرَتِهَا الأولَى)[(١)] [و] «وَيَتَجنبُهَا الأَشْقَى»[(٢)] ولو اعتد بالحركة لم يحْذِفْهَا.

وأما ما جاز عنه في بعض الروايات: «قالوا لآنَ جِئْتَ» [البقرة: ٧١]؛ فإنه وجه نادرٌ ومُعَلَّل باتِّباع الأثر والجمع بين اللغتين والابتداء له بالنقل على أصله في ذلك أيضاً والابتداء له بألف الوصل على ترك الاعتداد بالحركة إذْ لا حاجةَ إلى قصد ذلك في الابتداء وترك الإتيان له بالألف على الاعتداد له بالحركة حملاً للابتداء على الوصل وموافقة الرسم أيضاً ولا يبتدأ له بالأصل؛ إذ ليس من أصله ذلك، و «الأولى» في قراءته تحتمل الخلاف المذكور في أصلها.

وأما قراءة أبي عمرو فالعلة له في قوله في الوصل والابتداء كالعلة المتقدمة لقالونَ، إلا أنه يخالفه في همز الواو؛ لأنه لم يعطِها حكم ما جاورها، فليست عنده من «وَأَلَ» بل من غير هذا الوجه كما تقدم الخلاف في أول هذا الكتاب، ويجوز أن يكون أصلها عنده من «وَأَلَ» أيضاً، إلا أنه أبدل في حال النقل مبالغةً في التخفيف أو موافقة لحال ترك النقل.

وقد عاب هذه القراءة ـ أعني قراءةَ الإدْغَام ـ أبو عثمانَ وأبو العباس ذهاباً منهما إلى أن اللغة الفصيحة عدم الاعتداد بالعارض، ولَكن لا التفات إلى ردِّها لثُبُوت ذلك لغةً وقراءةً وإن كان غيرها أفصح منها وقد ثبت عن العرب أنهم يقولون الَحْمَرَ ولَحْمَر بهمزة الوصل وعدمها مع النقل والله أعلم[(٣)].

وقرأ أبيّ ـ وهِيَ في حَرْفِهِ ـ «عَادَ الأُولى» غير مصروف ذهاباً به إلى القبيلة أو الأم كما تقدم؛ ففيه العلمية والتأنيث[(٤)]، ويدل على التأنيث قوله «الأُولى» فوصفها بوصف المؤنث.

فصل[(٥)]

عاد الأولى هم قوم هود أهلكوا بريح صَرْصَر، وكان لهم عقب فكانوا عاداً الأخرى. قال القرطبي: سماها الأولى، لأنهم كانوا قبل ثمود. وقيل: إنّ ثمود من قبل عاد. وقال ابن زيد: قيل لها عاد الأولى لأنها أول أمة أهلكت بعد نوح ـ عليه الصلاة

---

(١) فتكتب عنده (سِيرَتهَا لُولَى) من الآية ٢١ من (طه) عليه السلام.

(٢) تكتب هكذا (يتجنبها لَشْقَى) وهي الآية ١١ من الأعلى.

(٣) وانظر في هذه التوجيهات مشكل الإعراب ٢/ ٣٣٤ والكشف «وكلاهما لمكي» ٢/ ٢٩٦ وباب المد وعلله له أيضاً. ويقصد المؤلف بأبي عثمان المازنيّ، وأبي العباس المبردَ. وانظر البحر أيضاً ٨/ ١٦٩. وانظر معاني القرآن وإعرابه للزجّاج ٥/ ٧٧.

(٤) لم أجدها إلا في البحر لأبي حيان فهي من الشواذ. وانظر المرجع السابق.

(٥) في ب قوله بدل فصل.

والسلام ـ. وقال ابن إسحاق[١]: هما عَادانِ، فالأولى أهلكت بالريح الصرصر، ثم كانت الآخرة وأهلكت بصيحة. وقيل: عاد الأولى هي عاد بن إرَم بن عوص بن سام بن نوح وعاد الثانية من ولد عاد الأولى، والمعنى متقارب. وقيل: إن عاداً الآخرة هم الجبَّارون. وهم قوم هود[٢].

قوله: «وَثَمُود فَمَا أبقَى» قد تقدم الخلاف في «ثَمُود» بالنسبة إلى الصرف وعدمه في سورة «هود»[٣]. وفي انتصابه هنا وجهان:

أحدهما: أنه معطوف على «عَاداً».

والثاني: أنه منصوب بالفعل المقدر أي «وَأَهْلَكَ». قاله أبو البقاء، وبه بدأ. ولا يجوز أن ينتصب بـ «أَبْقَى» لأن ما بعد «ما» الثانية لا يعمل فيها قَبْلَهَا[٤]، والظاهر أنّ متعلق «أبقى» عائد على من تقدم من عادٍ وثمود أي فما أبقى عليهم ـ أي على عادٍ وثمود ـ أو يكون التقدير: فما أبقى منهم أحداً، ولا عيناً تَطْرِفُ. ويؤيد هذا قوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨].

قوله: «وَقَوْمَ نُوحٍ» كالذي قبله و «مِنْ قَبْلُ» أي من قبل عادٍ وثمودَ.

وقوله: «إِنَّهُمْ» يحتمل أن يكون الضمير لقوم نوح خاصةً، وأن يكون لجميع من تقدم من الأمم الثلاثة.

قوله: «كانوا هم» يجوز في «هم» أن يكون تأكيداً[٥]، وأن يكون[٦] فصلاً. ويضعف أن يكون بدلاً. والمفضل عليه محذوف تقديره: من عادٍ وثمودَ على قولنا: إن الضمير لقوم نوح خاصةً، وعلى القول بأن الضمير للكل يكون التقدير: من غَيْرِهم من مُشْرِكِي العَرَب، وإن قلنا: إن الضمير لقوم نوح خاصة والمعنى أهلكَ قوم نوح من قبل عاد وثمود إنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وأطْغَى لطول دعوة نوح إياهم وعُتُوِّهِمْ على الله بالمعصية والتكذيب وهم الباقون بالظلم والمتقدمون فيه ومن سن سنة سيئة فعليه وِزْرها ووزرُ من عمل بها والبادىء أظلم وأما أطغى فلأنهم سمعوا المواعظ وطال عليهم الأمد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم ولا يدعو نبي على قومه إلا بَعْدَ الإصرار العظيم والظالم

---

(١) تقدم التعريف به. (٢) القرطبي ١٧/ ١٢٠.

(٣) من الآية ٦١ من سورة هود قوله: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾. وقد قرأ الجمهور بالصرف وقرأ عاصم والحسنُ وعصمةُ دون الصرف.

(٤) التبيان ١١٩١. (٥) للواو من كانوا.

(٦) مع أن جماعة ذكروا أن من فائدة ضمير الفصل التوكيد المعنوي وبنوا عليه أنه لا يجامع التوكيد فلا يقال زيد نفسه هو الفاضل وعلى ذلك سماه بعض الكوفيين دعامة، لأنه يدعم به الكلام أي يقوى ويؤكد فقوله أعلى: تأكيداً لعله يقصد التوكيد غير المعنوي وهذا بعيد. وانظر المغني ٤٩٦ بتصرف.

واضع الشيء في غير موضعه، والطَّاغِي المجاوز للْحَدِّ.

فإن قيل: المراد من الآية تخويف الظالم بالهلاك، فإذا قيل: إنهم كانوا في غايةِ الظلم والطُّغْيَان فأهلكوا (ويقول الظالم: هم كانوا أظلم فأهلكوا)[١] لمبالغتهم في الظلم ونحن ما بالغنا، فلا نهلك، فلو قال: أهلكوا لظلمهم لخاف كل ظالم فما الفائدة في قوله: أظلم؟

فالجواب: أن المقصود بيان (شِدَّتِهِمْ) وقوة أجسامهم، فإنهم لم يقدموا على الظلم والطُّغْيَان الشديد إلا بتماديهم وطول أعمارهم ومع ذلك ما نجا أحدٌ منهم فما حال من هو دونهم في العمر[٢]. رُوِيَ أن الرجل منهم كان يأخذ بيد ابنه ينطلق به إلى قوم نوحٍ ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: احذر هذا فإنه كذاب، وإن أبي قد مشى بي إلى هذا، وقال لي ما قلت لك فيموت الكبير على الكفر وينشأ الصغير على وصية أبيه[٣].

قوله: «وَالْمُؤْتَفِكَةَ» منصوب بـ «أَهْوَى»؛ وقدم لأجل الفواصل. والمراد بالمؤتفكة قرى قوم لوط «أَهْوَى» أسقط، أي أهواها جبريلُ ـ ﷺ ـ بعد ما رفعها إلى السماء.

قوله: «فَغَشَّاهَا» أي أَلْبَسَهَا الله «ما غشى» يعني الحجارة المصورة المسوَّمة[٤]. وقوله «مَا غَشَّى» كقوله «مَا أَوْحَى» في الإبهام[٥] وهو المفعول الثاني إن قلنا: إن التضعيف للتعدية، وإن قلنا: إنه للمبالغة والتكثير فتكون «ما» فاعله كقوله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] والمؤتفكة المنقلبة. وقرىء: والْمُؤْتَفِكَاتُ[٦].

فإن قيل: إذا كان معنى «المؤتفكة» المنقلبة ومعنى «أهوى» قلبها فيكون المعنى والمنقلبة قلبها وقلب المنقلبة تحصيل حاصل.

فالجواب: أن معناه المنقلبة ما انقلبت بنفسها بل الله قَلَبَها فانْقَلَبَتْ[٧].

قوله: «فبأي» متعلق بـ «تتمارَى» والباء ظرفية بمعنى «فِي» والآلاء النعم واحدها إلْي وإلى وأَلاً.

والمعنى فبأي نعم ربك تشك، وقرأ ابن مُحَيْصِن ويعقوب: «تَمارَى» بالحذف[٨] كقوله: «تَذَكَّرُونَ».

---

(١) سقط من ب.

(٢) وانظر تفسير الرازي ١٥/ ٢٤ و٢٥.

(٣) القرطبي ١٧/ ١٢٠.

(٤) القرطبي المرجع السابق.

(٥) والتفخيم. وهو غرض بلاغيّ من إقامة اسم الموصول مقام الظاهر.

(٦) ونسبها أبو حيان للحسن. انظر البحر ٨/ ١٧٠ والكشاف ٤/ ٣٤.

(٧) وهو رأي الإمام الفخر الرازي ١٥/ ٢٥.

(٨) الذي في القرطبي ١٧/ ١٢١ والبحر ٨/ ١٧٠: أنه بتاء واحدة مشددة.

فصل

قيل: هذا أيضاً مما في الصحف. وقيل: هو ابتداء لكلام، والخطاب عام، والمعنى فبأي آلاء أي نعم ربك أيها الإنسان تتمارى تشك وتجادل. وقال ابن عباس (رضي الله عنهما)[1]: تكذب. وقيل: هذا خطاب مع الكافر.

قال ابن الخطيب: ويحتمل أن يقال: خطاب مع النبي ـ ﷺ ـ ولا يقال: كيف يجوز أن يقول للنبي ـ ﷺ ـ تتمارى؟ لأنا نقول: هو من باب: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] يعني لم يبق فيه إمكان الشك حتى أنّ فارضاً لو فرض النبي ـ ﷺ ـ ممن يشك أو يجادل في بعض الأمور الخفية لما كان يمكنه المراءُ في نعم الله تعالى. والصحيح العموم كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾

قوله: «هَذَا نَذِيرٌ» إشارة إلى ما تقدم من الآي، وأخبار المهلكين. وقيل: أي القرآن. قال ابن الخطيب: وهذا بعيد لفظاً ومعنى؛ أما معنى فلأن القرآن ليس من جنس الصحف الأولى، لأنه معجزة، وتلك لم تكن معجزة، وأما لفظاً فلأن النذير إن كان كاملاً فما ذكره من حكاية المهلكين أولى لأنه أقرب ويكون هذا يبقى على حقيقة التبعيض[2]، أي هذا الذي ذكرناه بعض ما جرى أو يكون لابتداء الغاية أي هذا إنذار من المنذرين المتقدمين؛ يقال: هذا الكتاب وهذا الكلام مِنْ فُلاَن.

وقيل: إشارة إلى الرسول ـ ﷺ ـ أي هذا النذير من جنس النذر الأولى أي رسول من الرسل إليكم كما أرسلوا إلى أقوامهم[3].

وقوله: «نذير» يجوز أن يكون مصدراً، وأن يكون اسمَ فاعل وكلاهما لا ينقاس، بل القياس في مصدره إنذار[4]، وفي اسم فاعله مُنْذِر. والنُّذُر يجوز أن يكون جمعاً لنذير بمعنييه المذكورين، و «الأُوْلَى» صفة حملاً على معنى الجماعة كقوله: ﴿مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[5] [طه: ١٨].

---

(١) زيادة من أ.

(٢) لعله يقصد «من» وعبارة الرازي: ويكون على هذا «مِن» بقي على حقيقة التبعيض أي هذا الذي ذكرنا بعض ما جرى ونبذ مما وقع.

(٣) وانظر الرازي ١٥/ ٢٦ و٢٧ بالمعنى منه.

(٤) لأنه من الماضي الرباعي أنذر فيتحتم قياساً إنذاراً.

(٥) وانظر الرازي ١٥/ ٢٦ والبحر ٨/ ١٧٠. أقول: وقوله: بل القياس في مصدره إنذار فهو حينئذ على=

قوله: «أَزِفَت الآزِفَةُ» دَنَتِ الْقِيامَةُ، واقتربت، والتقدير: الساعة الآزفة، كقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] ويجوز أن تكون الآزفة على القيامة بالغَلَبَةِ.

قال ابن الخطيب: قوله «أَزِفَتِ الآزِفَةُ» كقوله تعالى: ﴿وَقَعَتِ الْوَاقعةُ﴾. ويقال: كانت الكائنةُ. وهَذَا الاستعمال على وجهين:

الأول: إذا كان الفاعل صار فاعلاً لمثل ذلك الفعل من قبل، ثم فعله مرةً أخرى، يقال: فعله الفاعل كقوله: حَاكَه الحَائِكُ أي من شغله ذلك من قبل فعله.

الثاني: أن يصير الفاعل فاعلاً بذلك الفعل، يقال: إذَا مَاتَ الْمَيِّتُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وإذا غصب العين غاصبٌ ضَمِنَهُ، فقوله: أَزِفَت الآزِفَةُ يحتمل أن يكون من الأول أي قربت الساعة التي كل يوم تزداد قرباً فهي كائنة قريبة وزادت في القرب، ويحتمل أن يكون من الثاني كقوله: «وَقَعَت الْوَاقِعَةُ» أي قرب وقوعها. وفاعل أزفت في الحقيقة القيامة أو الساعة فكأنه قال: أزفت القيامة الآزفة أو السَّاعة الآزفة(١).

قال أبو زيد(٢): قلت لأعرابيٍّ: مَا الْمُحْبَنْطِىءُ؟ قال: الْمُتَكَأْكِىءُ، قلت: ما المتكأكىءُ؟ قال: الْمُتَآزِفُ؟ قلت: ما المتآزف؟ قال: أَنْتَ أَحْمَقُ وتركَنِي وَمَرَّ(٣).

قوله: «لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ» يجوز أن يكون «كَاشِفَةٌ» وصفاً(٤) وأن يكون مصدراً(٥)، فإن كانت وصفاً احتمل أن يكون التأنيث لأجل أنه صفة لمؤنث محذوف فقيل: تقديره: نَفسٌ كَاشِفَةٌ أو حالٌ كَاشِفَةٌ.

فإن قيل: إذا قدرتها نفسٌ كاشفة، وقوله «مِنْ دُونِ اللَّهِ» استثناء على المشهور فيكون الله نفساً كاشفة؟(٦)

= (نذير) اسم مصدر نحو اغتسل غسلاً، وأنبت نباتاً وتوضأ وضوءاً فاسم المصدر على الحدث كالمصدر ولكن حروفه نقصت عن حروفه لفظاً وتقديراً دون تعويض وهذه التفرقة إنما هي في اصطلاح المتأخرين من النحاة أما المتقدمون منهم كسيبوَيه واللغويون فليس عندهم فرق بين مصدر واسم مصدر. انظر التبيان ٣٤.

(١) وقال بهذه الأشياء العقلية الإمام الفخر الرازي كعادته في تفسيره الكبير، وانظر تفسيره ١٥/ ٢٧.

(٢) سعيد بن أوس الأنصاري، كان عالماً بالنحو واللغة، أخذ عن أبي عمرو وأخذ عنه أبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو حاتم، وكان أعلم من الأصمعي وأبي عبيدة، له من الكتب النوادرُ في اللغة وغيرُها. مات سنة ٢١٥ هـ، وانظر نزهة الألباء ص ٨٧: ٩١.

(٣) نقله عنه البحر المحيط ٨/ ١٧٠، والدر المصون مخطوط بمكتبة الإسكندرية لوحة رقم ١١٩.

(٤) وهو رأي الزجاج فيما نقله عنه أبو حيان في البحر ٨/ ١٧٠.

(٥) وهو رأي الزمخشري في الكشاف ٤/ ٣٥ والرماني في البحر المرجع السابق على أن الرأي السابق هو رأي الزمخشري الأول، وللرازي رأيه كما سيأتي الآن.

(٦) في الرازي: نفساً لها كاشفة.

فالجواب من وجوه:

الأول: لا فساد في ذلك لقوله تعالى حكايةً عن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

الثاني: ليس صريحاً في الاستثناء فيجوز أن لا يكون نفساً.

الثالث: الاستثناء الكاشف المُبَالِغ[١] ويحتمل أن يكون التاء للمبالغة كَرَاوية، وعَلاَّمَة ونَسَّابَة أي ليس لها إنسان كاشفة أي كثير الكشف.

وإن كانت مصدراً، فهي كالخَائِنَة والعَافِيَة والْعَاقِبَة، والمعنى ليس لها من دون الله كشفٌ أي لا يكشف عنها، ولا يظهرها غيره، فيكون من كشف الشيء أي عرف حقيقته[٢]، كقوله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وإما من كشف الضر أي أزالهُ. والمعنى ليس لها من يزيلها ويردها إذا غَشِيَت الخَلْقَ أهْوالُها وشدائدُها لم يكشفها أحد عنهم غيره. وهذا قول عطاء وقتادة والضحاك[٣]. وتقدم الكلام على مادة «أَزِفَ» في غافر.

و «مِنْ» زائدة، تقديره ليس لها غيرُ الله كَاشفة، وهي تدخل على النفي فتؤكد معناه تقول: مَا جَاءَنِي أَحَدٌ، ومَا جَاءَنِي مِنْ أَحَدٍ، وعلى هذا يحتمل أن يكون فيه تقديم وتأخير أي ليس لها من كاشفة دونَ الله فيكون نفياً عاماً بالنسبة إلى الكواشف، ويحتمل أن تكون غير زائدة، والمعنى ليس لها في الوجود نفس تكشفها[٤] أي تخبر عنها كما هي من غير[٥] الله يعني من يكشفها فإنما يكشفها من الله لا من غير الله كقولك: كَشَفْتُ الأَمْرَ مِنْ زَيْدٍ. و «دون» يكون بمعنى غير كقوله تعالى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦] أي غير الله.

قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ (٦١) فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ (٦٢)﴾

قوله: «أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ» متعلق بـ «تَعْجَبُونَ» ولا يجيء فيه الإعمال، لأن من شرط الإعمال تأخير المعمول عن العوامل، وهنا هو متقدم، وفيه خلاف بعيد. وعليه تتخرج الآية الكريمة فإن كُلاً من قوله: «تَعْجَبُونَ» و «تَضْحَكُونَ» و «لاَ تَبْكُونَ» يطلب هذا الجار من حيث المعنى.

---

(١) اسما فاعل.

(٢) وهو رأى للرماني وجماعة كما أخبر بذلك صاحب البحر المحيط ٨/ ١٧٠.

(٣) البغوي والخازن في معالم التنزيل ولباب التأويل ٦/ ٢٧١.

(٤) في الرازي: تكتشفها.

(٥) وفيه: كما هي ومتى وقتها من غير الله.

والعامة على فتح التاء والجيم من «تَعْجَبُون» و «تَضْحَكُون». والحسن بضم التاء وكسر الجيم والحاء من غير واو عاطفة بين الفعلين(١). وهي أبلغ من حيث إنهم إذا أضحكوا غيرهم كان تجرؤهم أكثر.

وقرأ أُبَيٌّ وعبدُ الله كالجماعة، إلا أنهما بلا واوٍ(٢) عاطفة كالحَسَن، فيحتمل أن يكون يضحكون حالاً، وأن يكون استثناءً كالتي قبلها.

فصل

قال المفسرون: المراد بالحديث القرآن. قال ابن الخطيب: ويحتمل أن يكون إشارة إلى حديث أزفت الآزفة، فإنهم كانوا يتعجبون من حَشْر الأجساد، والعظام البالية. وقوله: (وَتَضْحَكُونَ) أي استهزاء من هذا الحديث كقوله تعالى في حق موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧].

ويحتمل أن يكون إنكاراً على مطلق الضحك مع سماع حديث القيامة أي أتضحكون وقد سمعتم أن القيامة قربت فكان حقاً أن لا تضحكوا حينئذ(٣).

وقوله: «وَلاَ تَبْكُونَ» مما تسمعون من الوعيد، روي أن النبي ـ ﷺ ـ ما رؤي بعد هذه الآية ضاحكاً إلا تبسماً. وقال أبو هريرة: لما نزل قوله «أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيث تَعَجَبُونَ» الآية قال أهل الصفة: «إنا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» ثم بكَوْا حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمع رسول الله ـ ﷺ ـ بكاءهم بكى معهم فبكينا لبكائه، فقال النبي ـ ﷺ ـ: لاَ يَلِجُ النَّار مَنْ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَلاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مُصرٌّ على مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بكم، وَأَتى بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فيَغْفِرُ لَهُمْ وَيَرْحَمُهُمْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٤).

قوله: «وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ» أي غافلون لاهون. وهذه الجملة يحتمل أن تكون مستأنفةً، أخبر الله عنهم بذلك، ويحتمل أن تكون حالاً أي انتفى عنكم البكاء في حال كونكم سامدين(٥). والسمود، قيل: الإعراض والغفلة عن الشيء، وقيل: اللهو، يقال: دَعْ عَنَّا سُمُودَكَ أي لهوَك. رواه الوالبيُّ والعَوْفِيُّ عن ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)(٦) ـ وقال الشاعر:

---

(١) وهي شاذة، وانظر البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ١٧١ فتكون تُعجِبُونَ تُضحِكُونَ والمفعول محذوف.

(٢) المرجع السابق.

(٣) تفسير الإمام الرازي ١٥/ ٢٨.

(٤) ذكره الإمام القرطبي في الجامع ١٧/ ١٢٢ و١٢٣.

(٥) في النسختين (سامدون) والتصحيح ما كتبت أعلى.

(٦) زيادة من أ.

٤٥٧٨ ـ أَلاَ أَيـهَـا الإِنْسَـانُ إِنَّـكَ سَـامِـدٌ كَـأَنَّـكَ لاَ تَـفْـنَـى وَلاَ أَنْـتَ هَـالِـكُ[١]

فهذا بمعنى لاه لاعب. وقيل: الخُمُودُ. وقيل: الاستنكار، قال (رحمه الله)[٢]:

٤٥٧٩ ـ رَمَى الْحِدْثَانُ نِسْوَةَ آلِ سَعْدٍ بِمِقْدَارٍ سَمَدْنَ لَـهُ سُمُودَا
فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ السُّودَ بِيضاً وَرَدَّ وُجُوهَهُنَّ الْبِيضَ سُودَا[٣]

فهذا بمعنى الخمود والخشوع، وقال عكرمة وأبو هريرة: السمود القيامة بلغة حِمْيَر، يقولون: يا جَارِيَةُ اسمُدِي لنا أي غنِّي، فكانوا إذا سمعوا القرآن تَغَنَّوْا وَلَعِبُوا[٤]. وقال الضحاك: أَشِرُونَ. وقال مجاهد غضاب يَتَبَرْطَعُونَ. وقال الراغب: السامد اللاهي الرافع رأسه من قولهم: بَعِيرٌ سَامِدٌ في سَيْرِهِ[٥]. وقيل: سمد رأسه وسبده أي استأصل شعره.

وذكر باسم الفاعل لأن الغفلة دائمة وأما الضحك والعجب فهما أمران يتجددان ويعدمَان. وقال الحسن سامدون أي واقفون للصلاة قبل وقوف الإمام، لما رُوِيَ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه خرج والناس ينتظرونه قياماً فقال: مَا لِي أَرَاكُمْ سَامِدِينَ. حكاه الماوردي. وروى المَهْدَوِيُّ عن علي أنه خرج إلى الصلاة فرأى الناس قياماً فقال: مَا لِي أَرَاكُمْ[٦] سَامِدِينَ. وروي عن علي أن معنى «سامدون» أن يجلسوا غير مصلين ولا منتظرين الصلاة. وتسميد الأرض أن يجعل فيها السماد وهو سِرْجِينٌ وَرَمَادٌ. واسْمَأَدَّ الرجال اسْمِئْدَاداً أي وَرِم غضباً.

قوله: «فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا» هذا الأمر يحتمل أن يكون عاماً، ويحتمل أن يكون التفاتاً أي اشتغلوا بالعبادة، ولم يقل: واعبدوا الله إما لكونه معلوماً من قوله: «فَاسْجُدُوا لِلَّهِ» وإما لأن العبادة في الحقيقة لا تكون إلاَّ لله.

وروى عكرمة عن (ابن[٧] عباس رضي الله عنهما) أن ـ النبي ـ ﷺ ـ سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجنّ والإنس. وروي عن عبد الله ـ (رَضِيَ الله[٨] عنه) ـ قال: أول سورة أنزلت فيها السجدة النَّجم، فسجد رسول الله ـ ﷺ ـ وسجد مَنْ

---

(١) من الطويل ولم أعثر على قائله. وانظر السراج المنير ٤/ ١٤١. وقد نقل القرطبي عن ابن عباس: أن سامدون معناها معرضون لاهون. انظر الجامع ١٧/ ١٢٣.
(٢) زيادة من أ.
(٣) بيتان من الوافر مجهول قائلهما. وهما في اللسان سمد ٢٠٨٩.
(٤) اللسان سَمَدَ السابق. (٥) المفردات سَمَدَ ٢٤٠.
(٦) في القرطبي: «ما لكم سامدون». وانظر القرطبي ١٧/ ١٢٣ واللِّسان سمد ٢٠٨٩ و٢٠٩٠.
(٧) ما بين القوسين سقط من ب بسبب انتقال النظر.
(٨) زيادة من أ.

خَلْفَهُ إلا رجلاً رأيته أخذ كَفًّا من تراب، فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافراً وهو أميةُ بْنُ خَلَفٍ.

وروى زيد بن ثابت ـ (رضي الله[١] عنه) ـ قال: قرأت على النبي ـ ﷺ ـ وَالنَّجْمِ فلم يسجُدْ فيها، وهذا يدل على أن سجود التلاوة غيرُ واجب، قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: إن[٢] الله لم يكتبها علينا إلا أن يشاءَ وهو قولُ الشَّافِعِيِّ وأحْمَد.

وذهب قومٌ إلى أنه واجبٌ على القارىء والمستمع جميعاً. وهو قول سفيانَ الثوريِّ وأصحابِ الرأي[٣].

وروى الثعلبي في تفسيره عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ مَنْ قَرَأَ سورة النجم أُعطي من الأجر (عشر حسنات)[٤] بعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بمُحَمَّد[٥] وكَذَّبَهُ (انتهى)[٦].

---

(١) سقط من ب كذلك.

(٢) في ب إنه لم....

(٣) وانظر في هذا كله تفسير البغوي والخازن ٦/ ٢٧٢ والقرطبي ١٧/ ١٢٤.

(٤) ما بين القوسين سقط من ب.

(٥) في الكشاف: بعدد من صدق بمحمد وجحد به بمكة. وقد رواه الزمخشري في الكشاف دون سند وانظر الكشاف ٤/ ٣٥.

(٦) ما بين القوسين زيادة من ب فقط.

سورة القمر

مكية في قول الجمهور. وقال مقاتل: مكية إلا ثلاث آيات: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٤ ـ ٤٦]. والصحيح الأول، وهي خمس وخمسون آيةً، وثلاثمائة واثنتان وأربعون كلمة وألف وأربعمائة وثلاثة وعشرون حرفاً[١].

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾

قوله تعالى: **﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾** أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها، وهو قوله تعالى: **﴿أَزِفَت الآزِفَةُ﴾**، فكأنه أعاد ذلك مستدلاً عليه بقوله تعالى: **﴿أَزِفَت الآزِفَةُ﴾**، وهو حقٌّ؛ إذ القمر انشق بقوله: «وَانْشَقَّ الْقَمَرُ» ماض على حقيقته، وهو قول عامة المسلمين إلا من لا يلتفت إلى قوله. وقد صح في الأخبار أن القمر انشق على عهده ـ عليه الصلاة والسلام ـ مرتين. روى أنس بن مالك ـ (رضي الله عنه) ـ أن أهل مكة سألوا رسول الله ـ ﷺ ـ أن يريهم آيةً، فأراهُمُ القمر شَقَّتَيْنِ حتى رأوا حِرَاءَ بينهما، وقال سنان عن قتادة: فأراهم انشقاق القمر مرتين. وعن ابن مسعود ـ (رضي الله عنه)[٢] ـ قال: انشق القمر على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فِرْقَتَيْن فرقةً فوق الجبل، وفرقةٌ دونه، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اشْهَدُوا». وقال أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله: لم ينشق بمكة. وقال مقاتل: انشق القمر، ثم الْتَأَمَ بعد ذلك.

وروى أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله قال: انشق القمر على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت قريش: سحركم ابن أبي كبشة فقدِموا السُّفَّار فسألوهم قالوا: نعم قد رأينا، فأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾**[٣]. وقيل: انشق بمعنى سينشق يوم

---

(١) وانظر القرطبي ١٧/ ١٢٥. (٢) ما بين الأقواس زيادة من (أ).

(٣) وانظر البغوي والخازن ٦/ ٢٧٣ والقرطبي ١٧/ ١٢٦.

القيامة، فأوقع الماضي موقع المستقبل لتحققه وهو خلاف الإجماع[١]. وقيل: انشق بمعنى انفلق عنه الظلام عند طلوعه كما يسمى الصبح فلقاً[٢] وأنشد للنابغة:

٤٥٨٠ ـ فَلَمَّا أَدْبَرُوا وَلَهُمْ دَوِيٌّ دَعَانَا عِنْدَ شَقِّ الصُّبْحِ دَاعِي[٣]

وإنما ذكرنا ذلك تنبيهاً على ضعفه.

قوله: «وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ»، أي ذاهب سوف يذهب ويبطل من قولهم: مَرَّ الشَّيْءُ واسْتَمَرَّ إذا ذهب مثل قولهم: قَرَّ واسْتَقَرَّ. قال مجاهد وقتادة: مَنّوا أنفسهم بذلك. وقيل: مستمر أي دائم؛ فإن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يأتي كل زمان ومكان بمعجزة فقالوا هذا سحر مستمر دائم، لا يختلف بالنسبة إلى شيء بخلاف سِحْر السَّحَرَة، فإن بعضهم يقدر على أمر وأمرين، وثلاثة، ويعجز عن غيرها وهو قادر على الكل. قاله الزمخشري[٤]. ومنه قول الشاعر:

٤٥٨١ ـ أَلاَ إِنَّمَا الدُّنْيَا لَيَالٍ وَأَعْصُرٌ وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ قَوِيمٍ بِمُسْتَمِرْ[٥]

أي بدائم باقٍ. وقيل: معناه شديد المرارة. قال الزمخشري: أي مستبشع عندنا مرّ على لهواتنا لا نقدر أن نَسِيغَه كما لا نَسيغُ[٦] المُرَّ. انتهى.

يقال: مَرَّ الشَّيْءُ بنفسه وَمرَّهُ غَيْرُهُ؛ فيكون متعدياً ولازماً، ويقال: أَمَرَّهُ أيضاً.

وقال أبو العالية والضحاك: مستمر أي قويّ شديد، من قولهم: مَرَّ الحَبْل إذا صلب واشتد، وأَمْرَرْتُهُ إذا أحكمت فَتْلَهُ، واسْتَمرَّ الشيء إذا قَوِيَ واسْتَحكَمَ، قال لقيط ـ (رحمةُ اللّهِ[٧] عليه ـ):

٤٥٨٢ ـ حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ صِدْقُ[٨] الْعَزِيمَةِ لاَ رَتًّا وَلاَ ضَرَعَا[٩]

---

(١) نقل القرطبي أنه رأي القشيري ـ رحمه الله ـ.

(٢) المرجع السابق دونما تحديد وتعيين لأحد.

(٣) من الوافر من تمامه وهو للنابغة. وأتى بهذا البيت دلالة على أن الشق بمعنى الفلق وهو خطأ، لِمَا تظاهرت الروايات على أن القمر انشق فرقتين بمكة. وانظر هذا البيت في تفسير القرطبي ١٧/ ١٢٦ والبحر المحيط ٨/ ١٧٣ ولم أجده بديوانه.

(٤) قال: مستمر دائم مطرد وكل شيء قد انقادت طريقته ودامت حاله قيل فيه: قد استمر؛ لما رأوا تتابع المعجزات وترادف الآيات قالوا هذا سحر مستمر. وقيل: مستمر: قوي محكم من قوله: استمر مريره وانظر الكشاف ٤/ ٣٦.

(٥) من الطويل لامرىء القيس. وأتى به شاهداً على أن المستمر بمعنى الدائم والباقي. وانظر القرطبي ١٧/ ١٢٧ والبحر ٨/ ١٧٤ وفتح القدير ٥/ ١٢٠ والديوان ١٠٩.

(٦) في الكشاف: كما لا يساغ المر الممقر. وانظر الكشاف ٤/ ٣٦.

(٧) زيادة من (أ) وانظر اللسان مرر ٤١٧٦. (٨) كذا في البحر وفي القرطبي: مر.

(٩) من البسيط وروي «قحماً» بدل رتًّا. والرّتة ردة قبيحة في اللسان من العيب، والقحم الشيخ الهَرِم يعتريه خرق وخرف والضرع اللين الذليل.

والمراد بقوله: «آيةً» هي اقتراب الساعة، فإن انشقاق القمر من آياته، وقد رأوه[١] وكذبوا فإن يروا غيرها أيضاً يعرضون، أو آية[٢] النبوة فإنه معجزة. أما كونه معجزةً ففي غاية الظهور، وأما كونه آية فلأن منكر خراب العالم ينكر انشقاق السماء، وانفطارها، وكل كوكب، فإذا انشق بعضها كان ذلك مخالفاً لقوله بجواز خراب العالم[٣] والمُرَاد بهؤلاء القائلين المعرضين هم الكفار. والتنكير في قوله (آية) للتعظيم أي آية قوية أو عظيمة يُعْرِضُوا.

قال أبو حيان: ومعنى مستمر أي يشبه بعضه بعضاً أي اشتهرت أفعاله على هذا الحال[٤]. وهذا راجع إلى الدوام المتقدم. وأتى بهذه الجملة الشرطية تنبيهاً على أن حالهم في المستقبل كحالهم في الماضي.

وقرىء: يُرَوْا مبنيًا للمفعول من أَرَى[٥].

قوله: «وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» أي كذبوا النبي ـ ﷺ ـ وما عاينوه من قدرة الله عزّ وجلّ، واتبعوا ما زين لهم الشيطان من الباطل وكذبوا بالآية وهي انشقاق القمر، «وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ» في أنه سحر القمر، وأنه خسوف في القمر، وظهور شيء في جانب آخر من الجو يشبه نصف القمر، وأنه سحر أعيننا والقمر لم يصبه شيء، فهذه أهواؤهم.

قوله: «وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرّ» العامة على كسر القاف، ورفع الراء اسم فاعل، ورفعه خبراً «لكل» الواقع مبتدأ. وقرأ شيبة بفتح القاف وتروى عن نافع[٦].

قال أبو حاتم: لا وجه لها، وقد وجهها غيره على حذف مضاف أي وكل أمر ذو استقرار، وزمان استقرار، أو مكان استقرار[٧]، فجاز أن يكون مصدراً[٨]، وأن يكون ظرفاً زمانياً أو مكانياً[٩] قال معناه الزمخشري[١٠]. وقرأ أبو جعفر وزيد بن علي بكسر[١١] القاف وجر الراء. وفيها أوجه:

= وجاء بالبيت ليبين أن المراد من المستمر القوة والاستحكام من المِره وهي القوة. وقد سبق هذا البيت أول النجم. وانظر القرطبي ١٧/ ٨٦، و ١٢٧ والبحر ٨/ ١٧٤ وفتح القدير ٥/ ١٢٠.

(١) في الرازي: وقد ردوا وكذبوا.
(٢) وفيه: آية الانشقاق.
(٣) انظر الرازي ١٥/ ٣٠.
(٤) في البحر: على هذا الوجه. وهو رأي نقله في كتابه فقد أقر بأن معنى مستمر دائم، وانظر البحر ٨/ ١٧٣ و ١٧٤.
(٥) لم تتعين في المرجع السابق.
(٦) المرجع السابق وهي شاذة ولم ترو عن نافع في المتواتر.
(٧) البحر المحيط المرجع السابق والكشاف ٤/ ٣٦.
(٨) أي ميميًا من غير الثلاثي.
(٩) أو اسم مكان أو زمان ويكونان من غير الثلاثي أيضاً.
(١٠) الكشاف ٤/ ٣٦.
(١١) وقد نقلها صاحب الإتحاف ٤٠٤ والبحر والكشاف المرجعان السابقان كما نقلها صاحب المحتسب ٢/ ٢٩٧.

أحدها ـ ولم يذكر الزمخشري غيره ـ: أن تكون صفة لأَمْر، ويرتفع «كُلّ» حينئذ بالعطف على «الساعة» فيكون فاعلاً أي اقتربت الساعة وكل أمر مستقر.

قال أبو حيان: وهذا بعيد لوجود الفصل بجمل ثلاث، وبعيد أن يوجد مثل هذا التركيب في كلام العرب، نحو: «أَكَلْتُ خُبْزاً، وضَرَبْتُ خَالِداً»[١] وأن يجيء: زيداً أكرمه ورحل إلى بني فلان ولحماً فيكون «ولحماً» معطوفاً على «خبزاً» بل لا يوجد مثله في كلام العرب. انتهى[٢].

قال شهاب الدين[٣]: وإذا دل دليل على المعنى فلا يبالى بالفواصل، وأين فصاحة القرآن من هذا التركيب الذي ركبه هو حتى يقيسه عليه في المنع؟

الثاني: أن تكون «مستقراً» خبراً «لِكُلّ أَمْر». وهو مرفوع، إلا أنه خُفِضَ على الجِوَارِ. قاله أبو الفضل الرازي[٤].

وهذا لا يجوز، لأن الجِوَارَ إنما جاء في النعت أو العطف على خلاف في إتيانه كما تقدم في سورة المائدة فكيف يقال به في خبر المبتدأ؟ هذا ما لا يجوز[٥].

الثالث: أن خبر المبتدأ قوله: «حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ» أخبر عن «كُلّ أَمْرٍ مُسْتَقِرّ» بأنه حكمة بالغة ويكون قوله: «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأنباء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ» جملة اعتراض بين المبتدأ أو خبره[٦].

الرابع: أن الخبر مقدر[٧]؛ فقدره أبو البقاء: معمول به أو أتى[٨] وقدره غيره: بالغوه[٩]؛ لأن قبله «وكذبوا واتبعوا أهواءهم» أي وكل أمر مستقر، أي لكل أمر حقيقة ما كان منه في الدنيا[١٠] فسيظهر وما كان منه في الآخرة فسيعرف. وقال قتادة: وكل أمر مستقر فالخير مستقر بأهل الخير، والشر بأهل الشر. وقيل: كل أمر من خير أو شر مستقر قراره، فالخير مستقر بأهله في الجنة والشر مستقر بأهله في النار. وقيل: مستقر قول المصدقين والمكذبين حتى يعْرفوا حقيقته بالثواب والعذاب، وقال مقاتل: لكل

---

(١) في البحر: وضربت زيداً.

(٢) وانظر البحر ٨/ ١٧٤ وقد وافق الزمخشريَّ ابنُ جني في المحتسب فقال: «رفعه عندي عطف على الساعة أي اقتربت الساعة وكل أمر أي اقترب استقرار الأمور في يوم القيامة...» ثم قال «هذا وجه رفعه والله أعلم» المحتسب ٢/ ٢٩٧.

(٣) الدر المصون مخطوط بمكتبة الإسكندرية لوحة رقم ١٢٠.

(٤) البحر المرجع السابق. (٥) السابق أيضاً.

(٦) نقله أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ١٧٤.

(٧) وهو اختيار أبي حيان السابق والقرطبي في الجامع ١٧/ ١٢٨، وأَوّلُ وجهي أبي البقاء في التبيان.

(٨) التبيان ١١٩٢. (٩) وهو تقدير أبي حيان السابق.

(١٠) وهذا رأي الكلبي.

حديث منتهى. وقيل: ما قدر كائن لا محالة(١) وقيل كل أمر مستقر على سنن الحق يثبت، والباطل يَزْهَقُ فيكون ذلك تهديداً لهم وتسلية للنبي - ﷺ - وهو كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٧].

وقيل: كل أمر مستقر في علم الله تعالى لا يخفى عليه شيء، فهم كذبوا واتبعوا أهواءهم، والأنبياء صدقوا وبلغوا، كقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: ١٦] وكقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢ - ٥٣].

وقيل: هو جواب لقوله: «سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ» أي بل كل أمره مستقر(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾﴾

قوله: «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ» يعني أهل مكة من أخبار الأمم المكذبة والقرآن «مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ» أي مَنَاهِي.

قوله: «مزدجر» يجوز أن يكون فاعلاً بـ «فيه»(٣) لأن «فيه» وقع صلة وأن يكون مبتدأ، و «فِيهِ» الْخبر. و «الدال» بدل من تاء الافتعال، وأصله مُزْتَجَرٌ، فقُلبت التاء دالاً.

وقد تقدم أن تاء الافتعال تقلب دالاً بعد الزاي، والدال، والذال؛ لأن الزاي حرف مجهور والتاء حرف مهموس، فأبدلوها إلى حرف مجهور قريب من التاء، وهو الدال. و «مزدجر» هنا اسم(٤) مصدر أي ازدجاراً، أو اسم مكان أي موضع ازدجار. ومعناه فيه نهي وعظة، يقال: زَجَرْتُهُ وازْدَجَرْتُهُ إذا نهيته عن السوء. وقرىء: مُزَّجَر بِقلب تاء الافتعال زاياً ثم أدغم(٥). وزيد بن علي: مُزْجِر(٦) اسم فاعل من أَزْجَرَ صار ذا زَجْرٍ، كَأَعْشَبَ أي صار ذا عُشْبٍ.

والأنباء هي الأخبار العظام التي لها وقع كقول الهدهد ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]، لأنه كان خبراً عظيماً له وقع وخبر، وقال تعالى: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: ٦] أي بأمر غريب. وإنما يجب التثبُّت فيما يتعلق به حكم ويترتب عليه أمر ذو بال، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩]. والمراد بالأنباء هنا أخبار المهلكين المكذّبين(٧).

---

(١) وانظر هذه الأقوال في القرطبي ١٧/ ١٢٨، والبغوي والخازن ٦/ ٢٧٣ و ٢٧٤.

(٢) وانظر الرازي ١٥/ ٣٢.

(٣) أي بمتعلق الجار والمجرور.

(٤) التعبير القريب: مصدر ميميّ.

(٥) الزايان في بعضهما، ولم يحدد أبو حيان ولا الزمخشري في البحر المحيط والكشاف من قرأ بتلك القراءة. وانظر البحر ٨/ ١٧٤ والكشاف ٤/ ٣٦.

(٦) ذكرها صاحب البحر المرجع السابق.

(٧) وانظر تفسير الإمام الفخر ١٥/ ٣٢.

وقيل: المراد القرآن[١].

قال ابن الخطيب: وفي (ما) وجهان:

الأول: أنها موصولة أي جاءكم الذي فيه مُزْدَجَرٌ.

الثاني: أنها نكرة موصوفة أي جاءكم من الأنباء شيء موصوف بأن فيه مزدجر[٢].

قوله: «حكمة» فيه وجهان:

أحدهما: أنه بدل من «مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ» كأنه قيل: ولقد جاءهم حكمة بالغة من الأنباء، وحينئذ يكون بدل كل من كل، أو بدل اشتمال.

الثاني: أن يكون خبر مبتدأ مضمر، أي هو حكمة بالغةٌ[٣]، أي ذلك الذي جاءهم من إرسال الرسل وإيضاح الدلائل، والإنذار لمن مضى، أو إشارة لما فيه الأنباء أنه حكمة، أو إشارة إلى الساعة المقتربة. وقد تقدم أنه يجوز على قراءة أبي جعفر وزيد أن يكون خبراً لـ «كُلّ أمرٍ مُسْتَقِرّ». وقرىء «حِكْمَةً» بالنصب حالاً من «ما»[٤].

قال الزمخشري: فإن قلت: إن كانت «ما» موصولة ساغ لك أن تنصب «حكمة» حالاً فكيف تعمل إن كانتْ موصوفة وهو الظاهر؟

قلت: تَخَصُّصها بالصفة فيحسن نصب الحال عنها. انتهى[٥].

وهو سؤال واضح؛ لأنه يصير التقدير: جاءهم من الأنْبَاء شيء فيه ازدجار فيكون منكراً، وتنكير ذِي[٦] الحال قبيحٌ.

قوله: «فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ» يجوز في «ما» أن تكون استفهامية، وتكون في محل نصب مفعولاً مقدماً أي أَيَّ شَيْء تُغْنِي النذر؟ وأن تكون نافية أي لم تغن النذر شيئاً[٧].

والنذر جمع نَذِير؛ والمراد به المصدر أو اسم الفاعل كما تقدم في آخر النجم[٨]. وكتب «تغن» إتباعاً للفظ الوصل، فإنها ساقطة لالتقاء الساكنين[٩].

قال بعض النحويين: وإنما حذفت الياء من «تغني» حملاً لها على «لَمْ» فجزمت

---

(١) وتقديره جاء فيه الأنباء.

(٢) قال: وهذا أظهر. وقد قال بالمصدرية والمكانية في «مزدجر»: الرازي أيضاً نقلاً عن الزمخشري وأبو حيان نقلاً عنهما معاً. وانظر الرازي والكشاف والبحر المراجعَ السابقة.

(٣) قال بهذين الوجهين الإعرابيين مكي في المشكل ٢/ ٣٣٥ والزمخشري في الكشاف ٤/ ٣٦ وأبو البقاء في التبيان ١١٩٢، وأبو حيان في البحر ١٧٤.

(٤) ونسبها أبو حيان لليماني. انظر المرجع السابق والكشاف أيضاً.

(٥) الكشاف المرجع السابق. (٦) أي صاحب الحال.

(٧) أخذه من الكشافِ للزمخشري السابق أيضاً.

(٨) في قوله: «هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولَى».

(٩) الياء وهمزة الوصل.

كما تجزم «لَمْ». قال مكي: وهذا خطأ، لأن «لم» تنفي الماضي وتردُّ المستقبل ماضياً، و «ما» تنفي الحال، فلا يجوز أن يقع إحداهما موقع الأخرى لاختلاف مَعْنَيَيْهِمَا(١).

فصل

المعنى أن القرآن حكمة بالغة تامة قد بلغت الغاية. وقوله: «فَمَا تُغْنِي النُّذُر» إن كانت «ما» نافية فالمعنى أن النذر لم يبعثوا ليغنوا ويلجئوا قومهم إلى الإيمان، وإنما أرسلوا مبلغين كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾(٢) [الشورى: ٤٨] ويؤيد هذا قوله: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ» وإن كانت استفهامية فالمعنى: وأي شيءٍ تغني النذر إذا خالفوهم وكذبوهم؟ كقوله: «وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ» أي إنك أتيت بما عليك من الدعوى فكذبوا بها وأنذرتهم بما جرى على المكذبين، فلم يفدهم فهذه حكمة بالغة وما الذي تغني النذر غير هذا فلم يبق عليك شيء آخر؟ فتول عنهم.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)﴾

قوله: «فتول عنهم» أي أعرض عنهم. قال أكثر المفسرين: نسختها آية السيف. قال ابن الخطيب إن قول المفسرين في قوله: «فَتَوَلَّ» منسوخ ليس كذلك، بل المراد منه لا تُنَاظِرْهُمْ بالكلام(٣).

قوله: «يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ» «يوم» منصوب إما بـ «اذكر» مضمرةً وهو أقربها. وإليه ذهب الرُّمَّانيُّ(٤)، والزمخشري(٥) وإما بـ «يَخْرُجُونَ» بعده. وإليه ذهب الزمخشري أيضاً(٦)، وإما بقوله: «فَمَا تُغْنِ» ويكون قوله: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ» اعتراضاً، وإما منصوباً بقوله: «يَقُولُ الْكَافِرُونَ». وفيه بعدٌ لبعده عنه(٧).

وقيل: تم الكلام عند قوله: «فَمَا تُغْنِ النُّذُر» ويبتدأ بقوله: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ» فيكون منصوباً بقوله: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ». وهو ضعيف جداً؛ لأن المعنى ليس أمره بالتولية عنهم في يوم النفخ في الصور، وإمَّا منصوب بحذف الخافض أي فتول عنهم إلى يوم. قاله الحسين(٨) وضعف من حيثُ اللَّفْظ ومن حيث المعنى أما اللفظ، فلأن إسقاط الخافض غير

---

(١) قاله في مشكل الإعراب له ٢/ ٣٣٦ و ٣٣٥.
(٢) وانظر هذا كله في تفسير الإمام الفخر الرازي ١٥/ ٣٣.
(٣) وانظر هذا كله في تفسير الإمام الفخر الرازي ١٥/ ٣٣ والآيات ٤٨ من الشورى و١٠١ من يونس.
(٤) نقله عن صاحب البحر ٨/ ١٧٥. (٥) الكشاف ٤/ ٣٦.
(٦) المرجع السابق.
(٧) قال بهذين الوجهين ناقلاً في كتابه صاحب البحر المرجع السابق.
(٨) كذا في (أ) وفي البحر و (ب) الحسن. وهو الأصح فهو الحسن البصري.

منقاس، وأما المعنى فليس تَوَلِّيهِ عنهم مُغَيًّا بذلك الزمان، وإما بانْتظرْ مضمراً، فهذه سبعة أوجه في ناصب «يوم»[١]. قال القرطبي: أو منصوب بـ «خُشَّعاً» أو على حذف حرف الفاء وما عملت فيه من جواب الأمر تقديره: فتول عنهم فإن لهم يوم يدع الدَّاع. وقيل: أي تول عنهم يا محمد فقد أقمت الحجة، وأبصرتهم يوم يدع الداع[٢]. وقيل: أعرض عنهم يوم القيامة ولا تسأل عنهم وعن أحوالهم فإنهم يدعون إلى شيء نكر وينالهم عذاب شديد كقولك: لا تَسَلْ ما جرى على فلان إذا أخبرته بأمر عظيم.

وقيل: أي وكل أمر مستقر يوم يدع الداعي. وحذفت الواو من «يَدْعُ» خطًّا اتباعاً للفظ كما تقدم في «تغن» و ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤] وشبهه[٣]. والياء[٤] من «الدَّاع» مبالغة في التخفيف إجراء «لأل» مُجْرَى ما عاقبها وهو التنوين، فكما تحذف الياء مع التنوين كذلك مع ما عاقبها[٥].

قوله: «الدَّاعِي» معرف كالمنادي في قوله: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ [قٓ: ٤١]؛ لأنه معلوم قد أخبر عنه فقيل: إن منادياً ينادي وداعياً يدعو[٦].

قيل: الداعي: إسرافيل ينفخ قائماً على صخرة بيت المقدس، قاله مقاتل.

وقيل: جبريل.

وقيل: ملك يوكَّل بذلك. والتعريف حينئذ لا يقطع حدّ العلمية ويكون كقولنا: جَاءَ رَجُلٌ فَقَال الرَّجُلُ. قاله ابن الخطيب[٧].

قوله: «إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ» العامة على ضم الكاف، وهو صفة على فُعُلٍ، وفُعُلٌ[٨] في الصِّفات عزيزٌ منه: أمرٌ نُكُرٌ، ورجل شُلُلٌ[٩] وناقة أُجُدٌ[١٠]، وَروضةٌ أُنُفٌ[١١] ومِشْيَةٌ سُجُحٌ[١٢].

---

(١) وقد ذكرها مجتمعة أبو حيان في مرجعه السابق، فضلاً عن وجود بعضها متناثرة في الكشاف والقرطبي وغيرهما.

(٢) في القرطبي: «يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِي» في العبارتين. وانظر هذه الأقوال الأخيرة في تفسير العلامة القرطبي الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٢٩.

(٣) لأن المصحف كتب بلفظ الإدراج ووصل الكلام ولم يكتب على حكم الوصل والوقف. وانظر المشكل ٢/ ٣٣٦.

(٤) أي وحذفت الياء فهو عطف على الواو.

(٥) قاله في البحر المرجع السابق.

(٦) قاله الرازي ١٥/ ٣٤.

(٧) تفسير الرازي ١٥/ ٣٤.

(٨) وهو من الأوزان المتفق عليها ضمن عشرة.

(٩) هو الخفيف السريع، يقال: رجل مِشَلّ، وشَلُول، وشُلُول، وشُلْشُل. وانظر اللسان شلل ٢٣١٧.

(١٠) قوية موثقة الخلق. واشتقاقه من الإجاد والإجاد كالطاق القصير. وانظر اللسان أجد ٣١.

(١١) التي لم يرعها أحد. وانظر اللسان أنف ١٥٣.

(١٢) أي سهلة. اللسان سجح ١٩٣٩.

وقرأ ابن كثير بسكون القاف، فيحتمل أن يكون أصلاً، وأن يكون مخففاً من قراءة الجماعة[١]. وقد تقدم ذلك محرراً في العُسْر واليُسْر في سورة المائدة.

وسمي الشديد نكراً، لأن النفوس تنكره، قال مالك بن عوف:

٤٥٨٣ ـ أَقْدِمْ نَجَاحُ إنَّه يَوْمٌ نُكُرْ مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ يَحْمِي وَيَكِرْ[٢]

وقرأ زيد بن علي والجحدري وأبو قِلاَبَة: نُكِرَ فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول، لأن «نكر» يتعدى؛ قال تعالى: ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾[٣] [هود: ٧٠].

فصل

المعنى إلى شيء منكر فظيع، لم ير مثله فينكرونه استعظاماً، قال ابن الخطيب: وهو يحتمل وجهين:

أحدهما: أن المعنى إلى شيء نكر في يومنا هذا، لأنهم أنكروه أي يوم يدع الداعي إلى الشيء الذي أنكروه يَخْرُجُونَ.

الثاني: أن المعنى منكر أي يقول القائل كان ينبغي أن لا يقع ولا يكون لأن المنكر من شأنه أن لا يوجد يقال: فلان ينهى عن المنكر، وعلى هذا فهو عندهم كان ينبغي أن لا يقع، لأنه يُرْدِيهم في الهاوية.

فإن قيل: ما ذلك الشيء النكر؟

فأجيب: بأنه الحساب، أو الجمع له، أو النشر للجمع.

فإن قيل: النشر لا يكون منكراً، فإنه إحياء، لأن الكافر من أين يعرف وقت النشر ما يجري عليه لينكره.

فالجواب: أنه يعلم ذلك لقوله تعالى عنهم: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾[٤] [يس: ٥٢].

قوله: «خَاشِعاً أَبْصَارُهُمْ» قرأ أبو عمرو والأخوان[٥] خاشعاً، وباقي السبعة خُشَّعاً، فالقراءة الأولى جارية على اللغة الفصحى من حيث إنَّ الفعلَ وما جرى مجراه إذا قدم على الفاعل وُحِّدَ تقول: تَخْشَعُ أَبْصَارُهُمْ، ولا تقول: يَخْشَعْنَ أَبْصَارُهُمْ، وأنشد (ـ رحمة الله عليه ـ)[٦]:

---

(١) وقد قال مكي: إنهما لغتان. وانظر تلك القراءة المتواترة في الكشف ٢/ ٢٩٧ والسبعة ٦١٧.

(٢) من البسيط لمالك بن عوف النضري وجاء به في كلمة «نكر» المنكرة للتفخيم والتهويل، فالنفوس تنكره دائماً وانظر البحر المحيط ٨/ ١٧٥.

(٣) وهذه القراءة شاذَّةٌ ذكرها أبو الفتح في المحتسب ٢/ ٢٩٨، وابن خالويه في المختصر ١٤٧.

(٤) وانظر تفسير الإمام الرازي ١٥/ ٣٤.

(٥) حمزة والكسائي. وانظر الكشف ٢/ ٢٩٧ والسبعة ٦١٧. وهي متواترة.

(٦) ما بين القوسين جملة مزيدة من (أ).

٤٥٨٤ ـ وَشَبَابٍ حَسَنٍ أَوْجُهُهُمْ مِنْ إِيَادِ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدْ[١]

وقال آخر:

٤٥٨٥ ـ تَلْقَى الفِجَاجَ بِهَا الرُّكْبَانُ مُعْتَرِضاً أَعْنَاقَ بُزَّلِهَا مُرْخَى لَهَا الْجُدُلُ[٢]

وأما الثانية فجاءت على لغة طَيِّىءٍ، يقولون: أَكَلُونِي الْبَرَاغِيثُ، وقد تقدم القول على ذلك في المائدة والأنبياء ومثله قوله:

٤٥٨٦ ـ بِمُطَّرِدٍ لَدْنٍ صِحَاحٍ كُعُوبُهُ وَذِي رَوْنَقٍ عَضْبٍ يَقُدُّ الْقَوَانِسَا[٣]

قيل: وجمع التكسير في اللغة في مثل هذا أكثر من الإفراد. وقرأ أبيّ وعبد الله: خَاشِعَةً على تَخْشَعُ هِيَ[٤].

وقال الزمخشري: و «خُشَّعاً» على يَخْشَعْنَ أَبْصَارُهُمْ[٥]. وهي لغة من يقول: أَكَلُونِي البراغيثُ وهي طيىء[٦].

قال أبو حيان: ولا يجري جمع التكسير مَجْرى جمع السلامة فيكون على تلك اللغة النادرة القليلة. وقد نص سيبويه على أن جمع التكسير أكثر في كلام العرب فكيف يكون أكثر ويكون على تلك اللغة القليلة؟[٧] وكذا قال الفراء حين ذكر الإفْراد مذكراً

---

(١) قائله الحرث بن روس الإيادي، ويروى: لأبي دُؤَاد الإيادي. وهو من بحر الرمل. وهذا البيت يظهر حَقيقةً وقاعدة هي: أنه إذا تقدم الفعل أو اسم الفاعل أو شبهه على الجماعة جاز تأنيثه، وتوحيده، وجمعه، والبيت جاء على التوحيد، وهو الأفصح كما أخبر أعلى، والشاهد على هذا. وانظر معاني القرآن للفراء ٣/ ١٠٥ والقرطبي ١٧/ ١٢٩ والبحر ٨/ ١٧٥ والطبري ٢٧/ ٥٣ وروح المعاني ٨٠/ ٢٧ وحجة ابن خالويه ٣٣٨ ومجمع البيان ٩/ ٢٨٠ وفتح القدير ٥/ ١٢١ وتفسير البغوي ٦/ ٢٧٤ ومعاني القرآن وإعرابه ٥/ ٨٦.

(٢) من البسيط ولم ينسبه الفَرّاء ولا أبو حيان في المعاني والبحر المحيط. والشاهد فيه كسابقه من توحيد المشتق اسم الفاعل واسم المفعول مقدمين على الجماعة قال الفراء: الجُدُل جمع الجَدِيل وهو الزّمام فلو قال: معترضات أو معترضة لكان صواباً (وكذلك) مرخاة ومرخيات. وقد روي: «يرمي» في المعَاني للفراء. وفي البحر: «ترمي» وفي (أ) أعلى تلقي، وفي (ب) رَمَى، وفي البحر: «بِهِ» بدل «بها». وانظر المعاني ٣/ ١٠٥ والبحر ٨/ ١٧٥ وجامع البيان للطبري ٢٧/ ٥٣.

(٣) من الطويل وهو مجهول قائله، والمطرد: المستقيم على جهته، ويقصد السيف، واللّدْنُ: اللّين من كل شيء، والعَضْب: السيف القاطع، والقَوَانِس: جمع قونس وهو أعلى بَيْضَة الحديد. والشاهد في: «صحاح كعوبه» حيث جمع الصِّحاح «كخُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ» وهو جائز كما قال الفراء، ولكن على لغة «أكلوني البراغيث» الطيئية فلم يقل: «صحيحة كعوبه» على الأفصح. وانظر البحر المحيط ٨/ ١٨٥، وروح المعاني للألوسي ٢٧/ ٨٠ وشرح المفصل لابن يعيش ٦/ ١٠٧.

(٤) شاذة ذكرها ابن خالويه في المختصر ١٤٧، والبحر المحيط ٨/ ١٧٥.

(٥) في الكشاف: على تخشع أبصارهم وخشعاً على «يخشعن». . . .

(٦) الكشاف ٤/ ٣٦.

(٧) في البحر ٨/ ١٧٥ و ١٧٦ وفيه: النادرة القليلة.

ومؤنثاً وجمع التكسير، قال: لأن الصِّفة متى تقدمت على الجماعة جاز فيها ذلك، والجمع موافق للفظها فكان أشْبَه[١].

قال أبو حيان: وإنما يخرج على تلك اللغة إذا كان الجمعُ جمعَ سلامة[٢] نحو: مَرَرْتُ بقَوْم كريمين آباؤهم والزمخشري قاس جمع التكسير على جمع السلامة وهو قياس فاسد يرده النقل عن العرب أن جمع التكسير أجود من الإفراد كما ذكره سيبويه[٣] ودل عليه كلام الفراء[٤].

قال شهاب الدين: وقد خرج الناس قول امرىء القيس:

٤٥٨٧ ـ وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَى مَطِيِّهِمْ يَقُولُون: لاَ تَهْلَكْ أَسَى وَتَجَمَّلِ[٥]

على أن صحبي فاعل بـ «وُقُوفاً» وهو جمع «واقف» في أحد القولين في «وُقُوفاً».

وفي انتصاب «خاشعاً وخشعاً وخاشعة» أوجهٌ:

أحدها: أنه مفعول به وناصبه (يَدْعُ الدَّاعِ)[٦]. وهو في الحقيقة (صفة) لموصوف محذوف تقديره فَرِيقاً خَاشِعاً أو فَوْجاً خَاشِعاً.

والثاني: أنه حال من فاعل (يَخْرُجُونَ) المتأخر عنه[٧]، ولما كان العامل متصرفاً جاز تقدم الحال عليه، وهو رد على الجَرْمي، حيث زعم أنه لا يجوز، ورد عليه أيضاً بقول العرب: (شَتَّى تَؤُوبُ الحَلْبَةُ) «فشتى» حال من الحَلْبة، وقال الشاعر:

٤٥٨٨ ـ سَرِيعاً يَهُونُ الصَّعْبُ عِنْدَ أُولِي النُّهَى إِذَا بِرَجَاءِ صَادِقٍ قَابَلُوا الْبَأْسَا[٨]

---

(١) وقد قال الفراء في المعاني ٣/ ١٠٥: «إذا تقدم الفعل قبل اسم مؤنث وهو له أو قبل جمع مؤنث مثل الأنصار، والأعمار وما أشبههما جاز تأنيث الفعل وتذكيره وجمعه. وقد أتى بذلك في هذا الحرف يقصد خاشعاً أبصارهم»، وانظر المعاني السابق.

(٢) في البحر: الجمع مجموعاً بالواو والنون.

(٣) قال: واعلم أن ما كان يجمع بغير الواو والنون نحو: حَسَنٍ وحِسَانٍ فإن الأجود فيه أن تقول: مَرَرْتُ برَجُل حِسَانٍ قومُه، وما كان يجمع بالواو والنون نحو منطلق ومنطلقين فإن الأجود فيه أن يجعل بمنزلة الفعل المتقدم فتقول: مررت برَجُل منطلقٍ قَوْمُهُ. وانظر الكتاب ٢/ ٤٣، ٤١.

(٤) البحر ٨/ ١٧٦.

(٥) من الطويل، ونسب إلى امرىء القيس وليس في ديوانه وإنما هو في ديوان طرفة ١٩ دار صادر، وروح المعاني ٢٧/ ٨٠، وفتح القدير ٥/ ١٢١، والشاهد: جمع الواقف جمعاً تكسيريًا ورفعهُ لما بعده فهو «خشعاً أبصارُهُمْ». وهو موافق لما ذهب إليه الزمخشري ومناقض لأبي حيان من أن جمع التكسير لا يَجْري مَجْرَى جمع السلامة.

(٦) وهو رأي الإمام الرازي في تفسيره ١٥/ ٣٤. وانظر البحر ٨/ ١٧٥.

(٧) مشكل القرآن ٢/ ٣٣٧ والتبيان ١١٩٣ والبحر السابق.

(٨) هو من الطويل ولم أقف على قائله. وشاهده: تقدم الحال «سريعاً» على عاملها «يهون» لأنه فعل متصرف وهو رد على مذهب الجرمي الذي لا يجيز ذلك وإنْ كان العامل متصرفاً. وانظر البحر ٨/ ١٧٥.

الثالث: أنه حال من الضمير في (عَنهُمْ). ولم يذكر مَكّيّ غيره[١].

الرابع: أنه حال من مفعول (يَدْعُو) المحذوف تقديره: يَوْمَ يَدْعُوهُمُ الدَّاعِي خُشَّعاً؛ فالعامل فيها (يدعو). قاله أبو البقاء. وارتفع أبصارهم على وجهين:

أظهرهما: الفاعلية بالصفة قبله.

الثاني: على البدل من الضمير المستتر في (خُشَّعاً)[٢]؛ لأن التقدير خُشَّعاً هُمْ، وهذا إنما يأتي على قراءة خشعاً فقط.

وقرىء خُشَّعٌ أَبْصَارُهُمْ على أن «خشعاً» خبر مقدم، و «أبصارهم» مبتدأ، والجملة في محل نصب على الحال[٣] وفيه الخلاف المذكور من قبل كقوله:

٤٥٨٩ ـ .... وَجَدْتُهُ حَاضِرَاه الجُودُ وَالْكَرَمُ[٤]

فصل

قال ابن الخطيب، لما حكى نصب «خاشعاً»، قال: إنه منصوب على أنه مفعول بقوله: «يَدْعُو» أي يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِي خُشَّعاً.

فإن قيل: هذا فاسد من وجوه:

أحدها: أن الشخص لا فائدة فيه؛ لأن الداعي يدعو كل أحدٍ.

ثانيها: قوله: «يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ» بعد الدعاء فيكونون خشعاً قبل الخروج وهو باطل.

ثالثهما: قراءة خاشعة[٥] تبطل هذا!

نقول: أما الجواب عن الأول فإن قوله: «إِلَى شَيْءٍ نكُرٍ» يدفع ذلك، لأن كل أحد لا يدعى إلى شيء نكر، وعن الثاني المراد من الشيء النكر الحساب العسير يوم يدع الداعي إلى الحساب العسير[٦] خشعاً ولا يكون العامل في (يوم) يدعو «يَخْرُجُونَ» بل «اذكروا» و «فَمَا تُغْنِ النُّذُر» كقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]

---

(١) مشكل الإعراب ٢/٣٣٦. (٢) التبيان ١١٩٣.

(٣) وانظر البحر ٨/١٧٦، والقرطبي ١٧/ ١٣٠.

(٤) عجز بيت من البسيط لجرير صدره:

إنَّ الَّذِي كُنْتُ أَرْجُو فَضْلَ نَائِلِهِ ....

وهو من قصيدته المشهورة في معرض العتاب. والشاهد: الجود والكرم فهذه جملة حالية في محل نصب على الحال من حاضراه كقوله الله: (خشعٌ أبْصارُهُمْ). وانظر القرطبي ١٧/ ١٣، والكشاف ٤/ ٣٦ وشرح شواهد الكشاف ٤/ ٥٤١.

(٥) في الرازي: خاشعاً. (٦) وفيه العُسْر.

ويكون: «يَخْرُجُونَ» ابتداء كلام، وعن الثالث[١] أنه لا منافاة بين القراءتين وخاشعاً نصب على الحال أو على أنه مفعول يدعو كأنه يقول: يدعو الداعي قوماً خاشعاً[٢] أبصارهم.

(والخشوع)[٣] السكون كما قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ﴾ [طه: ١٠٨]، وخشوع الأبصار سكونها على حال لا تتلفّت يمنة ولا يسرة كما قال تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾[٤] [إبراهيم: ٤٣]. وقيل: خاشعة أي ذليلة خاضعة عند رؤية العذاب.

قوله: (يَخْرُجُونَ) يجوز أن يكون حالاً من الضمير في: (أبصارهم) وأن يكون مستأنفاً. والأجداث القبور وقد تقدم في يس.

وقوله: (كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ) هذه الجملة يجوز أن تكون حالاً من فاعل «يخرجون» أو مستأنفة. ومثلهم بالجراد المنتشر في الكثرة والتَّمَوج. وقيل: معنى منتشر أي منبث حَيَارَى[٥].

ونظيره قوله تعالى: ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤]. والمعنى: أنهم يخرجون فزعين لا جهة لأحد منهم يقصدها كالجراد ولا جهة تكون مختلطةً بعضُها في بعض[٦]، وذكر المنتشر على لفظ الجراد[٧].

قال ابن الخطيب: ويحتمل أن يقال: المنتشر مطاوع نَشَرَهُ إذا أحياه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠] فكأنهم جراد متحرك من الأرض (و) يدب إشارة إلى كيفية خروجهم من الأجداث وضعفهم[٨].

وقال القرطبي: قوله (تعالى)[٩]: **﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي﴾** وقال في موضع آخر: «يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ» فهما صفتان في وقتين مختلفين أحدهما عند الخروج من القبور يخرجون فزعين لا يهتدون (إلى)[١٠] أين يتجهون فيدخل بعضهم في بعض فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضهم في بعض لا جهة له يقصدها فإذا سمعوا المنادي قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر، لأن الجراد المنتشر لها جهة يقصدها[١١].

قوله: «مُهْطِعِينَ» حال أيضاً من اسم كان، أو من فاعل «يَخْرُجُونَ» عند من يرى تَعَدُّدَ الحال. قال أبو البقاء: و «مهطعين» حال من الضمير في «مُنْتَشِرِ» عند قوم، وهو

(١) في (ب) الثاني.
(٢) في الرازي: خاشعة.
(٣) سقط من (أ).
(٤) وانظر هذا كله في الرازي ١٥/ ٣٥ و ٣٤.
(٥) وهو رأي البغوي ٦/ ٢٧٤.
(٦) البغوي السابق والقرطبي ١٧/ ١٣٠.
(٧) في الكثرة والتموج.
(٨) تفسير الرازي ١٥/ ٣٥.
(٩) زيادة من (أ).
(١٠) زيادة من النسختين عن القرطبي.
(١١) قاله في الجامع له ١٧/ ١٣٠ المرجع السابق.

بعيد؛ لأن الضمير في منتشر للجراد وإنما هو حال من فاعل «يخرجون» أو من الضمير المحذوف. انتهى[١].

وهو اعتراض حسن على هذا القول.

والإهطاع الإسراع وأنشد:

٤٥٩٠ ـ بِدِجْلَةَ دَارُهُمْ وَلَقَدْ أَرَاهُم بِدِجْلَةَ مُهْطِعِينَ إِلَى السَّمَاعِ[٢]

وقيل: الإسراع مع مد العنق. وقيل: النظر. قاله ابن عباس وأنشدوا (ـ رحمة الله على[٣] من قال ـ):

٤٥٩١ ـ تَعَبَّدَنِي نِمْرُ بْنُ سَعْدٍ وَقَدْ أَرَى وَنِمْرُ بْنُ سَعْدٍ لِي مُطِيعٌ وَمُهْطِعُ[٤]

وقد تقدم الكلام على هذه المادة في سورة إبراهيم[٥].

قال الضحاك: مضلين. وقال قتادة: عامدين. وقال عكرمة: فاتحين آذانهم إلى المصوت[٦].

قوله: «يَقُولُ الْكَافِرُونَ» قال أبو البقاء: حال من الضمير في «مُهْطِعِينَ»[٧].

وفيه نظر من حيث خُلُوُّ الجملة من رابط يربطها بذي الحال، وقد يجاب بأن الكافرين هم الضمير في المعنى فيكون من باب الربط بالاسم الظاهر عند من يرى ذلك[٨] كأنه قيل: يقولون هذا. وإنما أبرزهم تشنيعاً عليهم بهذه الصفة القبيحة.

وقولهم: «هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ» أي صعبٌ شديد.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ

---

(١) التبيان ١١٩٣.

(٢) من الوافر ولم أقف على قائله وفي اللسان: «أهلها» بدل «دارهم». واستشهد به على الإهطاع بمعنى الإسراع. وانظر القرطبي ١٧/ ١٣٠ والبحر ٨/ ١٧٦، واللسان «هطع» ٤٧٦٤.

(٣) زيادة من (أ).

(٤) من الطويل لتُبَّع. والشاهد: أن الإهْطَاعَ بمعنى الإسْرَاع مع مدِّ العُنُق وتصويب الرأس. وانظر اللّسان السابق «هطع» والبحر ٨/ ١٧٦، والقرطبي ١٧/ ١٣٠، والكشاف ٤/ ٣٧، وشرح شواهده ٤٥٤، والدر المنثور ٢٧/ ٢٦٤، وروح المعاني ٢٧/ ٨١.

(٥) عند قوله: «مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رِؤوسِهِمْ» ٤٣. ومعناه أقبل ببصره على الشيء فلم يرفعه عنه وهطع وأهطع أقبل مسرعاً خائفاً، ولا يكون إلا مع خوف. وانظر اللسان «هطع» ٤٦٧٤.

(٦) الجامع ١٧/ ١٣٠. (٧) التبيان: ١١٩٣.

(٨) رجعت إلى كتب النحو بما فيهم المغني فلم أجد رابطاً من روابط الجملة الخبرية أو الحالية اسماً ظاهراً وانظر المغني ٤٩٨: ٥٠٣ و٥٠٥.

(١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧)﴾

قوله: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ» مفعوله محذوف أي كذبت الرُسُلَ[١]؛ لأنهم لما كذبوا نوحاً فقد كذبوا جميع الرسل. ولا يجوز أن تكون المسألة من باب التنازع؛ إذ لو كانت منه لكان التقدير: كذبت قبلهم قومُ نوح عَبْدَنا فكذبوه ولو لفظ بهذا لكان تأكيداً؛ إذ لم يفد غير الأول، وشرط التنازع أن لا يكون الثاني تأكيداً، ولذلك منعوا أن يكون قوله:

٤٥٩٢ ـ .... أَتَاكِ أَتَاكِ اللاَّحِقُونَ احْبِسِ احْبِسِ[٢]

من ذلك.

وفي كلام الزمخشري ما يجوزه، فإنه أخرجه عن التأكيد، فقال: فإن قلت: ما معنى قوله «فَكَذَّبُوا» بعد قوله: «كَذَّبَتْ»؟

قلت: معناه كذبوا فكذبوا عبدنا أي كذبوا تكذيباً عقب[٣] تكذيب كلما مضى منهم قَرْنٌ مُكَذِّبٌ تبعه قرن مُكَذِّبٌ[٤]. هذا معنى حسن يسوغ معه التنازع[٥].

فصل

لما فرغ من حكاية كلام الكافر، ومن ذكر علامات الساعة أعاد ذكر بعض الأنبياء فقال: كذبت قبلهم قوم نوح أي قبل أهل مكة. واعلم أن إلحاق ضمير المؤنث بالفعل قبل ذكر الفاعل جائزٌ وحسنٌ بالاتفاق وإلحاق ضمير الجمع بالفعل قبيحٌ عند أكثرهم، فلا يجوزون: كَذَّبُوا قَوْمُ نوحٍ ويجوزون: كَذَّبَتْ فما الفرق؟

---

(١) قاله أبو حيان في البحر ٨/ ١٧٦.

(٢) عجز بيت من الطويل مجهول قائله، وصدره:

فَأَيْنَ إِلَى أَيْنَ النَّجَاءُ بِبَغْلَةٍ ....

والفاء للعطف، و «أين» للاستفهام متعلق بمحذوف، أي فأين تذهب والنَّجاء بالمد الإسراع وهو متبدأ وخبره: إِلَى أَيْنَ مقدماً. والشاهد في: أتاك أتاك اللاحقون فإنهما عاملان في اللفظ ولكن الثاني منهما لا يقتضي إلا التأكيد، إذ لو كان عاملاً لقيل: أتوْكِ أتاك، أو أتاكِ أتوك. وهذا البيت يشبه في عدم التنازع قوله:

.... كَفَانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ المَالِ

فإن الثاني لم يطلب «قليل»؛ إذ المراد كفاني قليل من المَال، وانظر حاشية الصبان على الأشموني ٢/ ٩٨ والتصريح ١/ ٣١٨ والهمع ٢/ ١١١ و ١٢٥ والدرر ٢/ ١٤٥ و ١٩٨ وشرح الشواهد على الأشموني ٢/ ٩٨ وأمالي الشجري ١/ ٢٤٣.

(٣) في الكشاف: على عقب.

(٤) قال: أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا أي لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً كذبوا نُوحاً، لأنه من جملة الرسل.

(٥) حيث قال: كذبوا فكذبوا عبدنا.

قال ابن الخطيب: لأن التأنيث قبل الجمع، لأن الأنوثة والذكورة للفاعل أمر لا يتبدل، ولم تحصل الأنُوثَةُ للفاعل بسبب فعله بخلاف الجمع، لأن الجمع للفاعلين بسبب فعلهم.

فإن قيل: ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ بعد قوله: «كَذَّبَتْ»؟

قال ابن الخطيب: الجواب عنه من وجوه:

الأول: أن قوله «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ» أي بآياته فكذب هؤلاء عبدنا بآية الانشقاق فَكذَّبُوكَ.

الثاني: كذبت قوم نوح المرسلين وقالوا لم يبعث الله رسولاً وكذبوهم في التوحيد فكذبوا عبدنا كما كذبوا غيره؛ وذلك لأن قومَ نوح كانوا مشركين يعبدون الأصنام ومن يعبد الأصنام يكذب كُلَّ رسول، وينكر الرسالة، لأنَّه يقول: لا تعلق لله بالعالم السُّفْلِيِّ، وإنما أمره إلى الكواكب فكان مذهبهم التكذيبَ فكذَّبُوك.

الثالث: أن قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ للتصديق والرد عليهم تقديره: كذبت قوم نوح فكان تكذيبهم تكذيب عبدنا أي لم يكن تكذيباً بحق.

فإن قيل: لو قال: فكذبوا رسولنا كان أدلَّ على قُبْحِ فعلهم فما الفائدة في اختيار لفظ العبد؟

فالجواب: أن قوله: عَبْدَنَا أدلّ في صدقه وقبح تكذيبهم من قوله: «رسولنا»؛ لأن العبد أخوف وأقلّ تحريفاً لكلام السيِّد من الرسول فيكون كقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾[١] [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

قوله: «وَقَالُوا مَجْنُونَ» مجنون خبر ابتداء مضمر أي هُو مجنون، وهذا إشارة إلى أنه أتى بالآيات الدالة على صدقه حيث رأوا ما عجزوا عنه، وقالوا مصاب الجن أو زيادة بيان لقُبْح صنيعهم حيث لم يَقْنَعُوا[٢] بتكذيبهم بل قالوا: مجنون أي تَقَوَّل ما لا يقبله عاقلٌ والكاذب العاقل يقول ما يظن به صدقهُ، فيكون قولهم: مَجْنُونٌ مبالغة في التَكْذِيبِ[٣].

قوله: «وَازْدُجِرَ» الدال في «ازدجر» بدل من تاء لِمَا تَقَدَّمَ.

وهل هو من مقولهم أي قالوا إنه ازدجر أي ازْدَجَرَتْهُ الجِنُّ وذهبت بُلبِّه ـ قاله مجاهد ـ أو هو من كلام الله تعالى أخبر عنه بأنه انتُهِرَ وزجر بالسبِّ وأنواع الأذى؟ وَقَالُوا «لِئَنْ لَمْ تَنْتَهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ المَرْجُومِينَ». قال ابن الخطيب: وهذا أصح؛ لأن المقصود تقوية قلب النبي ـ ﷺ ـ بذكر من تقدمه، وأيضاً ترتب عليه قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾، وهذا الترتب في غاية

(١) وانظر تفسير الإمام ١٥/ ٣٥ و ٣٦.
(٢) كذا في الرازي وفي (أ) وفي (ب) ينتفعوا.
(٣) الرازي المرجع السابق.

الحسن، لأنهم لَمَّا زَجَرُوهُ وانْزَجَرَ هو عن دعائهم دعا ربه أَنِّي مَغْلُوبٌ[١].

قوله: «أَنِّي مغلوب» العامة على فتح الهمزة؛ أي دعا بأَنِّي مغلوبٌ، وجاء بهذا على حكاية المعنى ولو جاء على حكاية اللفظ لقال: إنِّي مغلوب وهما جائزان.

وعن ابن أبي إسحاق والأعمشِ ـ ورُوِيَتْ عن عاصم[٢] ـ بالكسر إما على إضمار القول[٣]، أي فقال فسّر به الدعاء، وهو مذهب البَصْريّين، وإما إجراء للدعاء مُجْرَى القول. وهو مذهب الكوفيين[٤].

فصل

في معنى مغلوب وجوه:

أحدها: غلبني الكفار فانْتَصْر لي منهم.

ثانيها: غَلَبَتْنِي نَفْسِي وَحَمَلَتْنِي على الدعاء عليْهم، فانْتَصِرْ لي من نفسي. قاله ابن عطية. وهو ضعيف[٥].

ثالثها: أن يقال: إنَّ النبي لا يدعو على قومه ما دام في نفسه احْتِمَالٌ وحِلْمٌ، واحتمال نفسه يمتد ما دام الإيمان منهم محتملاً، ثم إنَّ يأسه يحصل والاحتمال والحلم يفر الناس[٦] مدة بدليل قوله لمحمد ـ ﷺ ـ ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣] ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨] وقال لنُوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧] و [المؤمنون: ٢٧] فقال نوح: يا إلهي إن نفسي غلبتني وقد أَمَرْتَنِي بالدُّعاء عليهم فأهلكتهم فيكون معناه مغلوب بحكم البشرية أي غُلبت وعِيلَ صَبْرِي فانْتَصِرْ لي منهم لا من نفسي.

قال ابن الخطيب: وهذا الوجه مُرَكَّبٌ من الوجهين. وهو أحسنهما.

وقوله: «فَانْتَصِرْ» أي فانتصر لِي أو لنفسك، فإنهم كفروا بك، أو انتصر للحَقِّ[٧].

قوله: (فَفَتَحْنَا) تقدم الخلاف في فتحنا في الأنعام[٨]. والمراد من الفتح والأبواب والسماء حقائقها وأن للسماء أبواب تُفْتَحُ وتُغْلَقُ.

---

(١) السابق أيضاً وانظر البغوي ٦/ ٢٧٤ والقرطبي ١٧/ ١٣١.

(٢) ولم تُرْوَ عنه في المتواتر، وهي قراءة شاذة ذكرها صاحب البحر ٨/ ١٧٦، وصاحب الكشاف ٤/ ٣٧.

(٣) قاله الزمخشري وأبو حيان في مرجعيهما السابقين.

(٤) وقال بهذه التوجيهات ناقلاً رأي البَصْرة والكُوفَة أبو حيان في بحره السابق.

(٥) لما فيه من الضعف والخور من نَبِيٍّ كنوح ـ عليه السلام ـ. وانظر رأي ابن عطيّة في الرازي ١٥/ ٣٧.

(٦) كذا في النسختين وفي الرازي: والاحتمال يفر بعد اليأسِ بمُدَّة.

(٧) وانظر كل هذا في تفسير الإمام الفخر الرازي ١٥/ ٣٧.

(٨) من الآية ٤٤ من الأنعام **﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾**. فقد قرأ ابن عامر وأبو جعفر والأعرج ويعقوب «فتّحنا» والجمهور مخففاً وعلى كلتا القراءتين فهما متواترتان.

قال علي ـ رضي الله عنه ـ: هي المَجَرَّة وهي شرع السماء ومنها فتحت بماء منهمر. وقيل: هذا على سبيل الاستعارة؛ فإن الظاهر أن الماء كان من السحاب فهو كقول القائل في المطر الوابل: «جَرَتْ مَيَازِيبُ السَّمَاء».

وفي قوله: «فَفَتَحْنَا» بيان بأن الله انْتَصَرَ منهم، وانتقم بماء لا بجُنْدٍ أنزله ومن العجب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين، فأهلكهم الله بمَطْلُوبِهِمْ[١].

قوله: (بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ) في الباء وجهان:

أظهرهما: أنها للتعدية، ويكون ذلك على المبالغة في أنه جعل الماء كالآلة المُفْتَتَحِ بها، كما تقول فَتَحْتُ بالمَفَاتِيحِ[٢].

والثاني: أنها للحال أي فتحناها ملتبسةً بهذا الماء[٣] والمُنْهَمِرُ: الغزير النازل بقوة. وأنشد امرؤ القيس:

٤٥٩٣ ـ رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثُمَّ انْتَحَى فِيهِ شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْهَمِرْ[٤]

واستعير ذلك في قولهم: هَمَرَ الرَّجُلُ في كلامه إذا أكثر الكلام وأسرع، وفلانٌ يُهَامِرُ الشيء أي يحرفه، وهَمَّرَ لَهُ من ماله أعطاه بكَثْرَة[٥].

والمنهمر الكثير قاله السُّدِّيُّ (رحمة الله عليه)[٦] قال الشاعر:

٤٥٩٤ ـ أَعَيْنَيَّ جُودَا بالدُّمُوعِ الهَوَامِرِ عَلَى خَيْرِ بَادٍ مِنْ مَعَدٍّ وَحَاضِرِ[٧]

قال المفسرون: معنى منهمر أي منصب انْصباباً شديداً. قال ابن عباس: منهمر من غير سحاب لم ينقطع أربعين يوماً. وقيل: ثمان.

قوله: «وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ» قرأ عبد الله وأبو حيوة وعَاصِم ـ في روايةٍ ـ وفَجَرْنا مخففاً[٨]. والباقون مثقلاً.

---

(١) الرازي ١٥/ ٣٧ و ٣٨.

(٢) فجعل المقصود وهو الماء مقدماً في الوجود على فتح الباب المغلق. وهذا رأي أبي حيان في البحرِ المُحِيطِ ٨/ ١٧٧.

(٣) المرجع السابق.

(٤) من الرمل ونسب لامرىء القيس ولم أجده بديوانه هكذا، وإنما ما به:

وللسَّوْطِ فِيهَا مَجَالٌ كَمَا تنزل ذو برد منهمز

وراح أي عاد في الرَّواح كأن المطر كان في أول النهار ثم عاد في آخره. و «تَمْرِيهِ» تَسْتَدِرهُ وأصله من مَرْي الضَّرع وهو مسحه فيدر، والشُّؤبُوبُ الدَّفعة من المطر. وانظر القرطبي ١٧/ ١٣٢، والبحر ٨/ ١٧٢، وفتح القدير ٥/ ١٢٢، والطبري ٢٧/ ٥٤، والديوان ١٦٦، ومجمع البيان ٩/ ٢٨٥.

(٥) وانظر اللسان «همر» ٤٦٩٧.

(٦) زيادة من (أ). وانظر القرطبي ١٧/ ١٣١.

(٧) من الطويل وهو مجهول قائله والهوامر الكثيرة وهو محل الشاهد. وانظر البحر ٨/ ١٧٧ والقرطبي ١٧/ ١٣١ وفتح القدير ٥/ ١٢٣ وروح المعاني ٢٧/ ٨١.

(٨) البحر المحيط ٨/ ١٧٧ وهي شاذة.

وقوله: «عُيُوناً» فيه أوجه:

أشهرها: أنه تمييز أي فَجَّرْنَا عُيُونَ الأَرْضِ، فنقله من المفعولية إلى التمييز كما نقل من[(١)] الفاعلية. ومنعه بعضهم على ما سيأتي.

وقوله: «وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً» أبلغ من فَجَّرْنَا عُيُونَ الأَرْضِ، لما ذكر في نظيره مراراً[(٢)].

الثاني: أنه منصوب على البدل من الأرض، ويُضْعِفُ هذا خلوّه من الضمير، فإنه بدل بعض من كل ويجاب عنه بأنه محذوف أي عيوناً منها كقوله: «الأُخْدُودِ النَّارِ»، فالنار بدل اشتمال ولا ضمير فهو مقدر.

الثالث: أنه مفعول ثان؛ لأنه ضمن فَجَّرْنَا معنى صَيَّرْنَاهَا بالتفجير عُيُوناً.

الرابع: أنها[(٣)] حال، وفيه تجوز حذف مضاف أي ذَات عُيُونٍ، وكونها حالاً مقدرةً[(٤)] لا مقارنةً[(٥)]. قال ابن الخطيب: قوله «وفجرنا الأرض عيوناً» فيه من البلاغة ما ليس في قول القائل: وَفجَّرْنا من الأرض عيوناً.

وقال: وفجرنا الأرض عيوناً، ولم يقل: فَفَتَحْنَا السَّمَاءَ أبواباً؛ لأن السماء أعظمُ من الأرض وهي للمبالغة، وقال: أبواب السماء ولم يقل: أنابيب ولا منافذ ولا مَجَاري. أما قوله تعالى: ﴿فَجَّرْنَا الأَرْض عُيُوناً﴾ فلا غنى عنه لأن قول القائل: فجرنا من الأرض عيوناً يكون حقيقة لا مبالغة فيه ويكون في صحة ذلك القول أن يحصل في الأرض عيونٌ ثلاثٌ ولا يصلح مع هذا في السَّمَاءِ ومِيَاهِهَا[(٦)].

فصل

قال ابن الخطيب: العُيُون جمع عَيْنٍ وهي حقيقة في العين التي هي آلة الإبصار ومجاز في غيرها أما في عيون الماء فلأنها تشبه العين الناظرة التي يخرج منها الدمع، لأن الماء الذي في العين كالدمع الذي في العين وهو مجاز مشهور صار غالباً حتى لا يفتقر

---

(١) كقول الله عز وجل في سورة مريم: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ من الآية ٤ منها.

(٢) لأنه يكون حقيقة لا مبالغة فيه، ويكفي في صحة ذلك القول أن يجعل في الأرض عيوناً ثلاثة، ولا يصح مع هذا في السماء إلا قول القائل: فأنزلنا من السماء ماء أو مياهاً. وانظر تفسير الإمام ١٥/ ٣٨.

(٣) وقال بهذه الأوجه الإعرابية ناقلاً إياها أبو حيَّان في البحر ٨/ ١٧٧ عدا وجه البدل.

(٤) والحال المقدرة هي المستقبلة كمَرَرْتُ برَجُلٍ مَعَهُ صَقْرٌ صَائِداً بِهِ غَداً أي مقدّراً ذلك. وهذا لا يصح مع الآية الكريمة.

(٥) أما المقارنة وهي الغالبة في أقسام الحال باعتبار الزمان كـ ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً﴾. والمحَلية؛ وهي الماضية كجَاءَ زَيْدٌ أَمْسِ رَاكِباً.

(٦) بالمعنى من تفسير الرازي ١٥/ ٣٨.

إلى قرينةٍ عند الاستعمال فكما لا يحمل اللفظ على العين الناظرة إلا بقرينة كذلك لا يحمل على الفَوَّارَةِ[(١)] إلا بقرينة، مثل شَرِبْتُ مِنَ العَيْنِ واغْتَسَلْتُ مِنْهَا ونحوه.

فإن قيل: من أين علمت أن العين حقيقة في الناظرة؟.

قلنا: لأن الأفعال أخذت منه، ولم تؤخذ من اليُنْبُوع، فيقال: عَانَهُ يَعِينُهُ إذا أصابه بالعين وعَايَنَهُ مُعَايَنَةً وعِيَاناً[(٢)].

قال عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: أوحى الله تعالى إلى الأرض أن تُخْرِجَ ماءها فتفجرت بالعيون وأي عين تأخرت غضب عليها فجعل ماءها مُرًّا إلى يوم القيامة.

قوله: «فَالتَقَى المَاءُ» لما كان المراد بالماء الجنس صَحَّ أن يقال: فَالْتَقَى الماءُ كأنه قال: فالتقى ماءُ السماء وماءُ الأرض. وهذه قراءة العامة. وقرأ الحسن والجَحْدَرِيُّ ومُحَمَّد بن كَعْب وتروى عن أمير المؤمنين أيضاً[(٣)]: «المَاءَانِ» تثنية والهمزة سالمة أي النوعان منه ماء السماء وماء الأرض؛ لأن الالتقاء إنما يكون بين اثنين. وقرأ الحسن أيضاً: «المَاوَانِ» بقلبها واواً، وهي لغةَ طيِّيءٍ[(٤)]. قال الزمخشري كقولهم: عِلْبَاوَانِ[(٥)]، يعني أنه شبه الهمزة المنقلبة عن هاء بهمزة الإلحاق.

وروي عنه أيضاً المَايَان[(٦)] بقلبها ياء، وهي أشدُّ مما قبلها[(٧)].

قوله: «قَدْ قُدِرَ» العامة على التخفيف. وقرأ ابن مِقْسِم وأبو حيوة بالتشديد. وهما لغتان قرىء بهما في قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣] ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [الفجر: ١٦] كما سيأتي.

فصل

قيل: معنى قد قدر أي حال قدرها الله كما شاء قضى عليهم في أُمّ الكتاب. وقال مقاتل: قدَّر الله أن يكون الماءانِ سواءً، فكانا على ما قَدَّره. وقيل: على مَقَادِير؛ وذلك لأن المفسّرين اختلفوا، فمنهم من قال كان ماء السماء أكثر، ومنهم من قال: ماء الأرض. ومنهم من قال: كانا متساوِيَيْن، فقال على مقدار كان وقال قتادة: قدر لهم إذا كفروا أن يغرقوا.

(١) أي التي تفور. (٢) بالمعنى من الرازي ١٥/ ٣٩.

(٣) لعله عليّ كرم الله وجهه. وانظر البحر ٨/ ١٧٧، والقرطبي ١٧/ ١٣٢ وابن خالويه ١٤٧، والكشاف ٤/ ٣٧ وهي قراءات شاذة غير متواترة.

(٤) الكشاف المرجع السابق. (٥) الكشاف المرجع السَّابق.

(٦) المراجع السابقة عدا القرطبي والكشاف.

(٧) فالمعروف أن الهمزة المنقلبة عن أصل في التثنية والجمع السالم تبقى أو تقلب واواً فقط كما يقال: بناءان وبناوان وعلباءان وعلباوان في همزة الإلحاق أيضاً.

قال ابن الخطيب: ويحتمل أن يقال: التقى الماء أي اجتمع على أمر هلاكهم وهو كأنه مقدور (مقدر)[١]. وفيه رد على المنجِّمين الذين يقولون: إن الطوفان كان بسبب اجتماع الكواكب السبعة في برج مائيّ والغرق لم يكن مقصوداً بالذات وإنما ذلك أمر لزم من الطوفان الواجب وقوعه، فرد الله عليهم بأنه لم يكن ذلك إلا لأمر قد قُدِرَ، ويدل عليه أن الله تعالى أوحى إلى نوح بأنهم مُغْرَقُونَ[٢].

قوله: «وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ» أي سفينة ذاتِ ألواح. قال الزمخشري: وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابَها وتؤدي مُؤَدَّاها بحيث لا يُفْصَلُ بينها وبينها[٣] ونحوه:

٤٥٩٥ ـ .... وَلَكِن قَمِيصِي مَسْرُودَة مِنْ حَدِيدِ[٤]

أراد ولكن قميصي درع، وكذلك:

٤٥٩٦ ـ .... وَلَوْ فِي عُيُونِ النَّازِيَاتِ بِأَكْرُعِ[٥]

أراد ولو في عيون الجرار، ألا ترى أنك لو جمعت بين الصفة وبين هذه الصفة، أو بين الجرار والدرع وهاتين الصفتين لم يصح. وهذا من فصيح الكلام وبَدِيعِهِ[٦].

والدُّسُر، قيل: المسامير جمع دِسَارٍ، نحو كُتُب في جمع كِتاب وقال الزمخشري: جمع دِسَارة، وهو المِسْمَارُ فعالة من دسره إذا دفعه، لأنه يدسر به منفذه[٧]. وقال الراغب: الواحد دَسْرٌ فيكون مثل سَقْف وسُقُف[٨] وقال البغوي: واحدها دِسَار ودَسِير[٩].

---

(١) زيادة من (أ). (٢) وانظر تفسير الفخر الرازي ١٥/ ٣٩.

(٣) أي بين الموصوفات وبين الصفات. وانظر كشافه ٤/ ٣٨.

(٤) هو عجز بيت من الخفيف صدره:

مفرشي صهوة الحصان ولكن

ولم أعرف قائله. والشاهد: حذف الموصوف وإنابة الصفة مَنابهُ وهي من الصفات الملازمة فتنوب من الموصوف وتؤدي مؤداه، بحيث لا يفصل بينه وبينها. وانظر الكشاف ٤/ ٣٨ وشرح شواهده ٤/ ٣٨٨ و ٣٨٩. وصهوة كل شيء: أعلاه والصَّهْوَة من الفرس موضع اللبد من ظهره. وقيل غير ذلك. انظر اللسان صها ٢٥١٨.

(٥) عجز بيت من الطويل مجهول القائل وشاهده كسابقه أيضاً، وصدره:

وَإِنِّي لأَسْتَوْفِي حُقُوقِي جَاهِداً

ومعناه في الوصول إلى الغرض والنزو والوثَبَانُ. والكراع من البقر والغنم بمنزلة الوظيف من الخيل والإِبِلِ والحمر وهو مُسْتَدَقّ الساق العاري من اللحم ويذكر ويؤنث والجمع أكرع ثم أكارع. وانظر البيت في الكشاف ٤/ ٣٨.

(٦) وانظر الكشاف المرجع السابق. (٧) السابق أيضاً.

(٨) مفردات الراغب «دسر». (٩) معالم التنزيل ٦/ ٢٧٥.

وأصل الدسر الدفع الشديد بقهر (و) دَسَرَهُ بالرمح. ومُدْسِر مثل مُطْعِن وروي: ليس في العنبر زكاة إنَّما هُوَ شَيءٌ دَسَرَهُ[(١)] البَحْرُ أي دفعَهُ.

وقيل: إنها الخيوط التي تشد بها السفن. وقيل: هي عراض السفينة وقيل: أضلاعها[(٢)]. وقال الحسن الدسر صدر السفينة، سميت بذلك لأنها تَدْسُرُ الماء بجؤجؤها أي تدفع. وقال الضحاك: الدسر أَلْوَاحُ جَانِبَيْهَا.

قوله: «تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا» أي بمَرْأى منَّا. وقال مقاتل: بأعيننا أي بحفظنا، لقولك: اجْعَل هذا نصب عينك. وقيل: بالأعين النابعة من الأرض. وقيل: بأعين أوليائنا من الملائكة. فقوله: بأعيننا أي ملتبسة بحفظنا[(٣)]، وهو في المعنى كقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

وقرأ زيد (بن)[(٤)] علي وأبو السَّمَّال بأَعْيُنَّا بالإدغام[(٥)]. وقال سفيان[(٦)]: معناه بأمرنا.

قوله: (جزاء) منصوب على المفعول له، نَاصِبُهُ (فَفَتَّحْنَا) وما بعده.

وقيل: منصوب على المصدر إما بفعل مقدر أي جَازَيْنَاهُم جَزَاءً، وإما على التجوز بأن معنى الأفعال المتقدمة جازيناهم بها جزاءً.

قوله: «لِمَنْ كَانَ كُفِرَ» العامة على كُفِرَ مبنيًا للمفعول، والمراد بمَنْ كُفِرَ: نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو الباري تعالى.

وقرأ مُسَيْلَمَةُ[(٧)] بْنُ مُحَارِبٍ كُفْرَ بإسكان الفاء، كقوله:

٤٥٩٧ ـ لَوْ عُصْرَ مِنْهُ المِسْكُ وَالبَانُ انْعَصَرْ[(٨)]

---

(١) في القرطبي: يدسره.

(٢) وانظر اللسان دسر ١٣٧٢.

(٣) وانظر تلك الأقوال في القرطبي ١٧/ ١٣٣. (٤) سقطت كلمة ابن من (أ).

(٥) قراءات شاذة ذكرها صاحب البحر المحيط ٨/ ١٧٨، وابن خالويه في المختصر ١٤٧ ورواها صاحب الاتحاف عن المطوّعي وانظر الإتحاف ٤٠٤.

(٦) بتوضيح لما في التبيان ١١٩٤. واختار الزمخشري المفعول لأجله كما في الكشاف ٤/ ٣٨.

(٧) كذا في النسختين وفي البحر: مسلمة وقد عُرِّفَ به.

(٨) بيت من مشطور الرجز لأبي النجم العجلي وقبله:

هَـيَّـجَـهَـا نَـضْـحٌ مِـنَ الـطَّـلِّ سَـحَـرْ
وَهَـزَّتِ الـرِّيـحُ الـنَّـدَى حِـيـنَ قَـطَـرْ

والشاهد في «عُصْرَ» فإنه أراد عُصِرَ. وانظر البحر ٨/ ١٧٨، والإنصاف ١٢٤ والمنصف ١/ ٢٤ و ٢/ ١٢٤ وشرح الشافية ١٥ والتصريح ١/ ٢٩٤، واللسان ٢٩٧١ «عصر».

وقرأ يزيد بن رومان[(١)] وعيسى وقتادة: كَفَرَ، مبنياً للفاعل[(٢)].

والمراد بـ «مَنْ» حينئذ قَومُ نوح. و «كَفَر» خبر كان. وفيه دليل على وقوع خبر كان ماضياً من غير قد[(٣)]. وبعضُهمْ[(٤)] يقول: لا بد من (قد) ظاهرةً أو مضمرة[(٥)].

ويجوز أن تكون كان مزيدة، وأما كفرهم ففيه وجهان:

أحدهما: أن يكون «كَفَرَ» مثل شَكَرَ تعدى بحرف وبغير حرف، يقال: شَكَرْتُهُ وشَكَرْتُ لَهُ، قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

الثاني: أن يكون من الكفر لا من الكُفْرَان أي جزاء لمن ستر أمره وأنكر شأنه، أو جزاء لمن كفر به[(٦)].

فصل

المعنى فعلنا به من إنجاء نوح وإغراق قومه ثواباً لمن كفر به وجُحِدَ أمره وهو نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ. وقيل: «مَنْ» بمعنى «ما» أي جزاء لما كان كفر من أيادي ونقمة عند الذين غرقهم، وجزاء لما صنع بنوحٍ وأصحابه[(٧)].

واللام في «لِمَنْ» لام المفعول له. والجزاء هنا بمعنى العقاب أي عقاباً لكفرهم.

قوله: «وَلَقَدْ تركْنَاهَا آيَةً» ضمير تركناها إمَّا للقصة أو للفِعْلَة التي فعلناها آية يعتبر بها، أو السفينة. وهو الظاهر. والمعنى تركناها أي أبقاها الله بباقِرْدى من أرض الجزيرة آيةً أي عبرة حتى نظرت إليها أوائلُ هذه الأمة، وكانت على الجُوديِّ. وقيل: بأرض الهِنْدِ، ومعنى تركناها أي جعلناها، لأنها بعد الفراغ منها صارت متروكة ومجعولة[(٨)].

---

(١) هو يزيد بن رومان أبو روح المدني مولى الزبير، ثقة، ثبت، فقيه، قارىء، محدث عرض على عبد الله بن عياش وروى القراءات عنه عرضاً نافع وأبو عمرو. مات سنة ١٢٠، انظر طبقات ابن الجزري ٢/ ٣٨١.

(٢) شاذه. وانظر المحتسب ٢/ ٢٩٨.

(٣) وهو مذهب البصريين والصحيح جوازه مطلقاً بكثرته في كلامهم نظماً ونثراً كثرة تُوجب القياس، قال تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ﴾ ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ﴾ ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم﴾ ﴿أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ﴾ وقال الشاعر:

.... وقَـدْ كَـانُـوا فـأَمْـسَـى الـحـيّ سَـارُوا

وحكى الكسائي: أصبحت نظرت إلى ذَات التَّنانِير.

(٤) وهم الكوفيون.

(٥) وحجتهم أن كان وأخواتها إنما دخلت على الجمل لتدل على الزمان، فإذا كان الخبر يعطي الزمان لم يُحْتَج إليها، ألا ترى أن المفهوم من: «زَيْدٌ قَامَ» ومن: «كَانَ زَيْدٌ قائِماً» شيء واحد، واشتراط «قد» لأنها تقرب الماضِيَ من الحال. وانظر الهمع ١/ ١١٣.

(٦) قاله الرازي في التفسير الكبير ١٥/ ١٤١. (٧) البغوي ٦/ ٢٧٥.

(٨) القرطبي ١٧/ ١٢٣ والمرجع السابق أيضاً.

قوله: «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» أصله «مُذْتَكِر» فأبدلت التاء دالاً مهملة، ثم أبدلت المعجمة[١] مهملة لمقارنتها وقد تقدم هذا في قوله: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]. وقد قرىء «مُذْتَكِرٍ» بهذا الأصل[٢].

وقرأ قتادة فيما نقل عنه أبو الفضل ـ مُدَكِّرٍ[٣] ـ بفتح الدال مخففة وبتشديد الكاف، من دَكَّر بالتشديد أي دَكَّر نَفْسَه أو غَيرَه بما بمضى من قَصَصِ الأولين.

ونقل عنه ابن عطية كالجماعة إلا أنه بالذَّال المعجمة، وهو شاذ لأن الأَوَّلَ يُقْلَبُ للثَّاني، لا الثاني للأول.

روى زُهَيْرٌ عن أبي إِسْحَاقَ أنه سمعَ رجُلاً يسأل الأسود: فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ أو مِنْ مذَّكِرٍ، قال: سمعت عبد الله يقرأها: فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ دالاً[٤].

فصل

وهذه الآية إشارة إلى أن الأمر من جانب الرسل قد تَمَّ، ولم يبق إلا جانب المُرْسَلِ إِليهم بإن يتفكروا ويهتدوا. وهذا الكلام يصلح أن يكون حثاً وأن يكون تخويفاً وزجراً، وقال ابن الخطيب: مُدَّكِرٌ مُفْتَعِلٌ من ذَكَرَ يَذْكُرُ وأصله مُذْتكرٌ. وقرأ بعضهم بهذا الأصل. ومنهم من يقلب التاء دالاً. وفي قوله: مدّكِر إشارة إلى قوله: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى» أي هل ممن يتذكر تلك الحالة؟ وإما إلى وضوح الأمر كأنه جعل[٥] للكل آيات الله فنَسُوها، فهل من متذكر[٦] يتذكر شيئاً منها؟.

قوله: «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ» كان الظاهر فيها أنها ناقصة (و) «فَكَيْفَ» خبر مقدم. وقيل: يجوز أن تكون تامة، فتكون «كَيْفَ» في محل نصب إما على الظرف[٧] وإِمَّا على الحال كما تقدم تحقيقه في البقرة[٨].

---

(١) وهي التاء.

(٢) كذا في النسختين نقلاً عن البحر المحيط ١٧٨/٨، ولم يحدد أبو حيان من قرأ بتلك القراءة وفي الكشاف: مدتكر على الأصل ومدكر دونما تحديد أيضاً لقارئهما.

(٣) كذا بالدال في النسختين وما في البحر نقلاً عن أبي الفضل الرازي بالذال. وهو الصحيح. وانظر البحر المرجع السابق ١٧٨/٨.

(٤) نقل هذا الإمامُ البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢٧٥ وابن منظور في اللسان «ذكر» ١٤٠٣.

(٥) في الرازي: حصل. (٦) وفيه «مدّكر».

(٧) الغالب في كيف أن تكون استفهاماً إما حقيقيًا أو غيره، وأن تكون شرطاً وتسميتها بالظرف عن سيبويه وعن الأخفش والسِّيرافي أنها اسم غير ظرف وبنوا على هذا الخلاف أموراً ذكرها ابن هشام في المغني. وانظر المغني ٢٠٥ و ٢٠٦.

(٨) عند الآية الشهيرة ٢٨٠: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾، ولعل المؤلف يقصد قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ من الآية ٩٧ من نفس السورة ففيه الشبه والتركيب اللذان في تلك الآية.

فصل

وحذفت ياء الإضافة من «نُذُر» كما حذفت ياء «يَسْر» في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفجر: ٤]؛ وذلك عند الوقف، ومثله كثير، كقوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦] ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣] ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦] ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقرىء بإثبات الياء في: «عَذَابِي ونُذُرِي»[١].

قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ هيأناهُ «لِلذِّكْرِ» من قولهم: «يَسَّرَ فَرَسَهُ» أي هَيَّأَهُ للركوب بإلجامه، قال:

٤٥٩٨ ـ فَقُمْتُ إِلَيْهِ بِاللِّجَامِ مُيَسِّراً هُنَالِكَ يَجْزِيني الَّذِي كُنْتُ أَصْنَعُ[٢]

وقيل: سهلنا القرآن ليتذكر ويعتبر به. وقال سعيد بن جبير: يسرناهُ للحفظ والقراءة، وليس شيء من كتب الله يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن.

وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ مُتَّعِظٍ بمواعظه.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ۝٢٠ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٢١ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝٢٢﴾

ذكر ههنا: «فكيف كان عذابي ونذر» مرتين، فالأول سؤال، كقول المعلم للمتعلم: كَيْفَ المَسْأَلَةُ الفُلانِيَّةُ؟ ثم بين فقال: «إِنَّا أَرْسَلْنَا»، والثاني بمعنى التعظيم والتهويل.

فإن قيل: قال في قوم نوح: كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ولم يقل في عاد: كَذَّبَتْ قَوْمُ هُودٍ؛ لأن التعريف كلما أمكن أن يؤتى به على وجه أبلغَ فالأولى أن يؤتى به والتعريف بالاسم العلم أقوى من التعريف بالإضافة؛ لأنك إذا قلت: «بَيْتُ اللَّهِ» لا يفيد ما يفيد قولك: الكَعْبَةُ، وكذلك إذا قلت: رَسُولُ اللَّهِ وقلت: محمد «فَعَادٌ» اسم علمٍ للقوم.

ولا يقال: قَوْم هُودٍ أعرف لوجهين:

أحدهما: أن الله تعالى وصف عاداً بقوم هود في قوله: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾ [هود: ٦٠] ولا يوصف الأظهر بالأخفى، والأخصُّ بالأعمِّ.

ثانيهما: أن قوم هو (واحد[٣] وعَادٌ قيل:) إنه لفظٌ يقع على أقوام، ولهذا قال

---

(١) ولم أعرف من قرأ بها ولا مرجعاً أتى بها. وهي بلا شكٍّ شاذة.

(٢) من الطويل مجهول قائله واستشهد به على أن التيسير بمعنى التَّهْيِيء كما أوضح أعلى. وانظر الكشاف ٤/ ٣٨ وشرح شواهده ٤٥٤ والبحر ٨/ ١٧٨ والقرطبي ١٧/ ١٣٤.

(٣) ما بين القوسين تكملة من الرازي مَرْجِع المؤلف والمُعْتَمَدِ عليه دوماً. ومن عجب أن يقول الناسخ في النسختين: بياضٌ في الأصلِ.

تعالى: ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥] لأنا نقول: أما قوله تعالى: ﴿لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ فليس ذلك صفة، وإنما هو بدل ويجوز في البدل أن يكون دون المُبْدَل (منه)[١] في المعرفة، ويجوز أن يبدل من المعرفة بالنكرة. وأما عاداً الأولى فهو لبيان تقدمهم أي[٢] عاداً الذين تقدموا، وليس ذلك للتمييز والتعريف كما تقول: مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ شَفِيعِي واللَّهُ الكَرِيمُ رَبِّي وَرَبُّ الكَعْبَة المُشَرَّفَة، لبيان الشرف، لا لبيانها وتعريفها بالشرف كقولك: دَخَلْتُ الدَّار المَعْمُورَة مِنَ الدَّارَيْنِ، وخَدَمْتُ[٣] الرَّجُلَ الزَّاهِدَ مِنَ الرَّجُلَيْنِ؛ فتبين المقصود[٤] بالوصف.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يقل: فكذبوا هوداً كما قال فكذبوا عَبْدَنَا؟.

فالجواب: إما لأن تكذيب قوم نوح أبلغُ لطول مقامه فيهم وكثرة عِنَادِهِمْ، وإما لأن قصة عادٍ ذكرت مُخْتَصَرَةً[٥].

قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحاً صَرْصَراً﴾ الصَّرْصَرُ الشَّديدة الصَّوْت من صَرْصَرَ البابُ أو القَلَمُ إِذَا صَوَّت.

وقيل: الشديدة البرد من الصَّرِّ وهو البرد وهو كله أصول عند الجمهور.

وقال مكي: أصله «صَرَّراً» من صَرَّ الشيءُ إذا صوت، لكن أبدلوا من الراء المشددة[٦] صاداً، وهذه أقوال الكُوفِيِّين. ومثله: كَبْكَبَ وكَفْكَفَ. وتقدم هذا في فُصِّلَتْ[٧] وغيرها.

وقال ابن الخطيب: الصرصر هو الدائمة الهبوب من أَصَرَّ عَلَى الشَّيْءِ إذا دَامَ وَثَبَت.

فصل

«يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ» شديد دائم الشُّؤم استمر عليهم بنُحُوسِهِ، ولم يُبْقِ منهم أحداً إلا أهلكه. قيل: ذلك يوم الأربعاء في آخر الشهر.

فإن قيل: إذا كان يوم الأربعاء يَوْمَ نَحْسٍ مستمر فكيف يستجاب فيه الدعاء؟! وقد جاء أن النبي ـ ﷺ ـ استجيب له فيه فيما بين الظهر والعصر.

---

(١) زيادة للإيضاح.

(٢) في النسخة (أ) الأصل أن وفي (ب) والرازي «أي».

(٣) في الرازي: وخدمت. وفي النسختين: وجدت والتصحيح من الرازي.

(٤) كذا في الرازي وما في النسختين: المفعول.

(٥) وانظر كل هذا معنًى في الرازي ١٥/ ٤٤ و ٤٥.

(٦) في مشكل الإعراب: «الثانية» بدل المشدَّدة.

(٧) عند قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾ من الآية ١٦. كما تقدم في الذاريات عند: ﴿فَأَقْبَلَت امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ من الآية ٢٩، وسيجيء في الحاقة عند قوله: ﴿فَأُهْلِكُوا بريحٍ صَرْصَرٍ﴾ من الآية ٦ وانظر اللسان (صرصر) ٢٤٢٩، وغريب القرآن ٤٣٢، ومجاز القرآن ٢/ ٢٤٠.

فالجواب: أن النبي ـ ﷺ ـ قال: أتاني جبريل فقال: «إنَّ اللَّهَ يأمرك أَنْ تَقْضِي مع الشاهد» وقال: يَوْمُ الأربعاء يَوْمُ نَحْسٍ مُسْتَمِرّ. ومعلوم أنه لم يرد أنه نحس على المصلحين بل على المفسدين، كما كانت الأيام النحسات على الكُفار، لا على نبيهم والمؤمنين.

واعلم أنه تعالى قال ههنا: إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً وقال في الذاريات: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] فعرَّف الريح هناك، ونكَّرها ههنا؛ لأن العقم في الريح أظهر من البَرْد الذي يضرّ النبات أو الشدة التي تَعْصِفُ الأشجار، لأن الريح العقيم هي التي لا تُنْشِيء سحاباً، ولا تُلَقِّح شجراً وهي كثيرة الوقوع، وأما الريح المهلكة الباردة فقلما تُوجَد فقال: الريح العقيم أي هذا الجنس المعروف[١].

ثم زاده بياناً بقوله: «مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ» فتميزت عن الريح العقيم، وأما الصرصر فقليلة الوقوع فلا تكون مشهورة فنكَّرها[٢].

قوله: «فِي يَوْم نَحْسٍ» العامة على إضافة يَوْم إلى نَحْسٍ ـ بسكون الحاء ـ وفيه وجهان:

أحدهما: أنه من إضافة الموصوف إلى صفته.

والثاني ـ وهو قول البصريين[٣] ـ أنه صفة لموصوف محذوف أي يوم عذاب نحس.

وقرأ الحسن ـ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)[٤] بتَنْوِينه ووصفه بنَحْسٍ[٥] ولم يقيِّده الزمخشري بكسر الحاء[٦]. وقيده أبو حيان[٧]. وقد قرىء قوله: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦] بسكون الحاء وكسرها، وتنوين «أيام» عند الجميع كما تقدم تقريره، و «مُسْتَمِرّ» صفة «ليوم» أو «نحس». ومعناه كما تقدم أي عليهم حتى أهلكهم، أو من المرارة. قال الضحاك: كان مراً عليهم وكذا حكى الكسائي أن قوماً قالوا هو من المرارة يقال: مَرَّ الشَّيْءُ، وأَمَرَّ أي كان كالشيء المر تكرهه النفوس، وقد قال: ﴿فَذُوقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٦] والذي يُذَاقُ قَدْ يكونُ مُرًّا[٨].

---

(١) وانظر الرازي ١٥/ ٤٥ و ٤٦.
(٢) السابق ٤٦ و ٤٧ جـ ١٥.
(٣) وسبق هذا الرأي رأيُ البَصْرة والكوفةِ في مثل هذا.
(٤) زيادة من (أ) الأصل.
(٥) قال القرطبي في الجامع: وقرأ هارون الأعور نَحِس بكسر الحاء. الجامع ١٧/ ١٣٥. ولم يبين ما إِذا كان صفةً أم لا. وقد نقل المؤلف قراءة الحسن من البحر لأبي حيان ٨/ ١٧٩.
(٦) الكشاف ٤/ ٣٩.
(٧) البحر المرجع السابق.
(٨) وانظر جامع القرطبي ١٧/ ١٣٥.

قوله: (تَنزِعُ النَّاسَ) في موضع نصب إما نعتاً لـ «رِيحاً» وإما حالاً منها لتخصصها بالصفة؛ ويجوز أن تكون مستأنفة[١]. وقال: «الناس» ليعم ذَكَرَهُمْ وأنثاهم، فأوقع الظاهر موقع المضمر لذلك فالأصل تَنزِعُهُمْ[٢].

فصل

قال تعالى هنا: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ وقال في السجدة[٣]: «فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ» وقال في الحاقة: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]. والمراد من اليوم هنا الوقت والزمان كما في قوله: ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣]. وقوله «مُسْتَمِرّ» يفيد ما يفيده الأيام؛ لأن الاستمرار ينبىء عن امتداد الزمان كما تنبىء عَنْهُ الأيام. والحكاية هنا مذكورة على سبيل الاختصار فذكر الزمان ولم يذكر مقداره على سبيل الإيجاز[٤].

قوله: «كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ» حال من الناس مقدرةً[٥]، و «مُنْقَعِرٍ» صفة للنَّخل باعتبار الجنس، ولو أنث لاعتبر معنى الجماعة كقوله: ﴿نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]. وقد مضى تحقيق[٦] اللغتين فيه.

وإنما ذكر هنا وأنث في الحاقة مراعاةً للفواصل في الموضعين. وقرأ أبو نُهَيْكٍ: «أَعْجُزُ» على وزن أفْعُلٍ نحو: ضَبُع وأَضْبُع[٧].

وقيل: الكاف في موضع نصب بفعل مقدر تقديره: تَتْرُكُهم كَأَنَّهم أَعْجَازٌ. قاله مَكِّي[٨].

ولو جعل مفعولاً ثانياً على التضمين أي تصيرهم بالنزع كأنهم لَكَان أقرب.

والأعجاز جمع عَجُز[٩] وهو مؤخر الشيء، ومنه العَجز، لأنه يؤدي إلى تأخر الأمور. والمُنْقَعِرُ: المنقلع من أصله (يقال) قَعَرْتُ النَّخْلَةَ قَلَعْتُهَا من أصلها فانْقَعَرَتْ.

---

(١) قاله أبو حيان في بحره ٨/ ١٧٩.

(٢) انظر السابق أيضاً، قال: «إذْ لَوْ عاد بضمير المذكورين لتوهم أنه خاصّ بهم».

(٣) أي في فُصِّلَتْ الآية سابقة الذكر.

(٤) الرازي ١٥/ ٤٧.

(٥) قاله أبو حيان في مرجعه السابق.

(٦) حيث قال في الأنعام من الآية ٩٩: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾. وقال في نفس السورة عند الآية ١٤١: ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ﴾. بالإضافة إلى الآيات الواردة في القرآن من سور الشعراء، والرحمن، والحاقة، و «ق» وهي شبيهة بتلك الآيات.

(٧) وهي شاذة. وانظر البحر المرجع السابق.

(٨) مشكل الإعراب ٢/ ٣٣٨.

(٩) قال في اللسان: عَجِزُ الشيء وعَجْزُه وعُجْزُه وعِجْزُه: آخره، ويذكَّر ويؤنَّث. وانظر اللسان «عجز» ٢٨١٧.

وقَعَرْتُ البئْرَ: وَصلتُ إِلى قَعْرِهَا وقَعَرْتُ الإناء شَرِبْتُ ما فيه حتى وصلت إلى قَعْرِهِ، وأَقْعَرْتُ البِئْرَ أي جَعَلْتُ له قَعْراً[١].

فصل

تنزع الناس تَقْلَعُهُمْ ثُمَّ تَرْمِي بهم على رؤوسهم فتدق رِقَابَهُمْ. وروي: أنها كانت تنزع الناس من قبورهم كأنهم أعجاز نخل. قال ابن عباس (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) أصولها. وقال الضحاك: أوراك نخل منقعر منقلع من مكانه ساقطٍ على الأرض[٢] وقال: أعجاز نخل وهي أصولها التي قلعت فروعها، لأن الكفّار تبين رؤوسهم من أجسادهم فتبقى أجسادهم بلا رؤوس. قال ابن الخطيب: تَنْزِعُهُمْ نزعاً بعُنُف كأنهم أعجاز نخل منقعر[٣] فينقعروا.

وهذا إشارة إلى قوتهم وثباتهم على الأرض، ويكون ذلك إشارةً إلى عظم أجسادهم أو إلى ثباتهم في الأرض فكأنهم كانوا يجعلون أرجُلهمْ في الأرض ويقصدون المنع به على الرِّيح[٤].

قال ابن إسحاق: لما هاجت الريح قام سبعة نَفَر من عاد من أقواهُم وأحْسَمِهِمْ منهم عمرو بنُ الحُلِيّ، والحارث بن شدّاد والهِلْقَامُ وابنا تِقْن وخَلْجَانُ بن سعد فألجأوا[٥] العِيَالَ في شِعْب بين جَبَلَيْن ثم اصطفّوا على جانبي الشِّعْب ليردُّوا الريح عمن في الشِّعْب من العِيال فجعلت الريح تَجْعفُهُمْ[٦] رجلاً بعد رجلٍ، فقالت امرأة عاد:

٤٥٩٩ ـ ذَهَبَ الدَّهْرُ بِعَمْرِو بْـ ... ـنِ حُلِيٍّ والهَنِيَّاتِ
ثُمَّ بالحَارِثِ والهِلْـ ... ـقَامِ طلاَّعِ الثَّنِيَّاتِ
والَّذِي سَدَّ مَهَبَّ الـرْ ... رِيحِ أَيَّامَ البَلِيَّاتِ[٧]

أو يكون إشارة إلى يُبْسِهِمْ وجفافهم بالريح، فهي كانت تقتلهم وتحرقهم ببردها المفرط فيقعون كأنهم أخشاب يابسة.

فصل

(قال) المفسرون: ذكر النخل هنا، وقال: «منقعر» وأنثه في الحاقّة، وقال: أعجاز

(١) السابق «قعر» ٣٦٩١. (٢) وانظر هذا في البغوي والخازن ٦/ ٢٧٥ و٢٧٦.
(٣) في كتابه: «التفسير الكبير» تقعرهم وكذا في ب.
(٤) السابق ١٥/ ٤٨. (٥) في القرطبي: فأولجوا.
(٦) تصرعهم وتضربهم في الأرض.
(٧) من مجزوء الرمل مُسَبّع الضرب. وانظر تلك القصة في القرطبي ١٧/ ١٣٦، وجامع البيان لابن جرير الطَّبَرِيِّ ١٧/ ٥٨.

نخل خاوية لأجل الفواصل كقوله: مُسْتَمِرّ، ومُنْهَمِر، ومُنْتَشِر.

وقيل: إن النَّخل لفظه لفظ واحد، ومعناه الجمع، فيقال: نَخْلٌ مُنقَعِرٌ، ومُنقَعِرَةٌ ومُنْقَعِرَاتٌ، ونَخْلٌ خاوٍ وخَاوِيةٌ وخَاوِيَاتٌ ونَخْلٌ بَاسِقٌ وبَاسِقَةٌ وبَاسِقَاتٌ.

فإذا قيل: «منقعر أو خاو أو باسق» فبالنظر إلى اللفظ، وإذا قيل: مُنقَعِرَاتٌ أو خاويات أو باسقاتٌ فلأجل المعنى[١].

قال أبو بكر بن الأنباري: سُئِلَ المُبَرِّدُ بحضرة القَاضي إسرفيل[٢] عن ألف مسألة هذه من جُمْلَتِهَا فقال: ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١] وقال: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] و «أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ»؟ فقال: كلّ ما ورد عليك من هذا القرآن، فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيراً أو إلى المعنى تأنيثاً[٣].

قال ابن الخطيب: ذكر الله لفظ النخل في مواضع ثلاثة ووصفها على الأوجه الثلاثة، قال: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ [ق: ١٠] وذلك حال عنها وهي كالوصف وقال: «نَخْلٍ خَاوِيَةٍ» و «نَخْلٍ مُنقَعرٍ» فحيث قال: «مُنقَعِرٍ» كان المختار ذلك، لأن المنقعر في حقيقة الأمر كالمَفْعُولِ؛ لأنه ورد عليه القَعْر، فهو مَقْعُورٌ، و «الخَاوِي والباسق» فاعل وإخلاء المفعول من علامة التأنيث أولى، تقول: امْرَأَةٌ قَتِيلٌ[٤]. وأما الباسقاتُ فهي فاعلاتٌ حقيقة، لأن البُسُوقَ اسم قام بها، وأما الخاويةُ فهو من باب «حَسَنِ الوَجْهِ»؛ لأن الخاوي موضعها فكأنه قال: نَخْلٍ خَاوِيَةِ المَوَاضع، وهذا غاية الإعجاز حيث أتى بلفظ مناسب للألفاظ السابقة واللاحقة من حيث اللفظ[٥].

قوله: «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ» قال أكثر المفسرين:

إن «النُّذُر» ههنا جمع «نَذِير» الذي هو مصدر بمعنى الإنذار فما الحكمة في توحيد العذاب حيث لم يقال: فكيف أنواعُ عَذَابِي وَقَالَ[٦]: إنذاري؟!.

قال ابن الخطيب: هذا إشارة إلى غَلَبَةِ الرحمة، لأن الإنذار إشفاقٌ ورحمةٌ فقال:

---

(١) الرازي ١٥/ ٤٨.

(٢) كذا في النسختين وفي تفسير القرطبي: إسماعيل القاضي. وهو الصحيح.

(٣) نقله الإمام القرطبي في جامعه ١٧/ ١٣٧.

(٤) في الرازي: امرأة كَفِيلٌ، وامرأة كَفِيلَةٌ، وامْرَأَةٌ كَبِيرٌ، وامْرَأَةٌ كَبِيرَةٌ.

(٥) قاله العلامة الفخر الرازي في تفسيره الكبير ١٥/ ٤٨ و٤٩ واختتم كلامه بقوله: «فكان الدليل يقتضي ذلك، بخلاف الشاعر الذي يختار اللفظ على المذهب الضعيف لأجل الوزن والقافية».

(٦) الصحيح كما عبارة الرازي: وَوَبَالِ إِنْذَارِي.

الإنذاراتُ التي هي نِعَمٌ ورحمة تَوَاتَرَتْ، فلما لم ينفع[١] وقع العذاب دفعة واحدة فكانت النعمُ كثيرةً والنقمةُ واحدةً.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله: «كَذَّبَتْ (ثَمُودُ بِالنُّذُرِ» اعلم أنَّه تعالى لم يقل في قوم نوح: كَذَّبْت قَوْمُ نُوحٍ)[٢] بالنذر» وكذلك في قصة عاد. لأن المراد بقوله: «كذبت قبلهم قوم نوح» أن عادتهم إنكار الرسل وتكذيبهم فكذبوا نوحاً على مذهبهم وعادتهم.

وإنما صرح ههنا، لأن كل قوم يأتون بعد قوم، فالمكذِّب المتأخر يكذب المرسلينَ جميعاً حقيقةً، والأولون يكذبون رسولاً واحداً حقيقة ويلزم منه تكذيب من بعده تبعاً، ولهذا المعنى قال في قوم نوح: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] وقال في عاد: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ [هود: ٥٩] فذكر بلفظ الجمع المُسْتغرق ثم إنه تعالى قال عن نوح: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ [الشعراء: ١١٧] ولم يقل: كَذَّبُوا رُسُلَكَ إشارةً إلى ما صدر منهم حقيقة لا إلى ما لزم منه، وقوله تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ**﴾ إن قلنا: إن النذر هم الرسل فهو كما تقدم، وإن قلنا: إن النذر هي الإنذارات فنقول[٣]: قوم نوح وعاد لم تستمر المعجزات التي ظهرت في زمانهم.

وأما ثمود فأُنْذِرُوا وأُخْرِجَ لهم ناقة من صخرةٍ وكانت تدور بينهم وكذبوا فكان تكذيبهم بإنذاراتٍ وآياتٍ ظاهرة فصرَّح بها[٤].

قوله: «أَبَشَراً» منصوب على الاشتغال وهو الراجح، لتقدم أداة[٥] هي بالفعل أولى. و «مِنَّا» نعت له. و «وَاحِداً» فيه وجهان:

أظهرهما: أنه نعت «لِبَشَراً» إلا أنه يشكل عليه تقديم الصفة المؤولة[٦] على

---

(١) في ب يقع.

(٢) ما بين القوسين سقط من أ الأصل؛ بسبب انتقال النظر.

(٣) في ب فيقولون.

(٤) قال بهذه الإعمالات العقلية الاجتهادية فخر الدين الرازي في مرجعه السابق.

(٥) وهي أداة الاستفهام. والتقدير: أَنتَّبِعُ بَشَراً نَتَّبِعهُ؟

(٦) وهي منَّا أي كائناً منَّا فإن الجار والمجرور والظرف لهما متعلَّقٌ دوماً.

الصريحة[١]. ويجاب: بأن «مِنَّا» حينئذ ليس وصفاً بل حال من «وَاحِداً» قُدِّمَ عليه.

والثاني: أنه نصب على الحال من هاء «نَتَّبِعُهُ»[٢]. وهو يَخْلُصُ من الإعراب المتقدم، إلا أنَّ المرجع لكونه صفة قراءتهما مرفوعين: «أَبَشَرٌ منّا وَاحِدٌ نَتَّبِعُهُ» على ما سيأتي، فهذا يرجّح كون «واحداً» نعتاً «لبَشَرٍ» لا حالاً.

وقرأ أبو السَّمَّال فيما نقل الهُذَلِيُّ[٣] والدَّانِيّ[٤] برفعهما[٥] على الابتداء، و «وَاحِدٌ» صفته و «نَتَّبِعُهُ» خبره[٦].

وقرأ أبو السَّمَّال أيضاً فيما نقل ابن خالويه[٧]، وأبو الفضل وابن عطية[٨]: برفع «بشر» ونصب «واحداً» وفيه أوجه:

أحدها: أن يكون «أَبَشَرٌ» مبتدأ وخبره مضمر تقديره: أَبَشَرٌ منا يُبْعَثُ إلينا أو يُرْسَل. وأما انتصاب «واحداً» ففيه وجهان:

أحدهما: أنه حال من الضمير المستتر في (مِنَّا) لأنه وقع نعتاً.

الثاني: أنه حال من هاء «نَتَّبِعُهُ»[٩]. وهذا كله تخريج أَبِي الفضل الرَّازيِّ[١٠].

والثاني: أنه مرفوع بالابتداء أيضاً، والخبر «نَتَّبِعُهُ» و «واحداً» حال على الوجهين المذكورين آنفاً.

الثالث: أنه مرفوع بفعل مضمر مبني للمفعول تقديره: أَيُنَبَّأُ بَشَرٌ. و (مِنَّا) نعت و (واحداً) حال أيضاً على الوجهين المذكورين آنفاً. وإليه ذهب ابن عطية[١١].

فصل

قال ابن الخطيب: والحكمة في تأخير الفعل في الظاهر أن البليغ يُقَدِّمُ في الكلام ما يكون تعلق غرضه به أكثر والقوم كانوا يريدون بيان كونهم محقّين في ترك الاتّباع، فلو

---

(١) ذكر كل هذا صاحبُ التبيان ١١٩٤، وقد ذكر القرطبي في الجامع ١٧/ ١٣٧ و١٣٨ إعرابَ «واحداً» و «بَشَراً» بالنسبة للاشتغال والحال فقط. ولم يذكر في «واحداً» جواز كونه نعتاً.

(٢) التبيان السابق.

(٣) صاحب القراءات الخمسين.

(٤) وهو أبو عمرو الداني وقد مرّ ترجمته.

(٥) وهي شاذة وانظر المحتسب ٢/ ٢٩٨ و٢٩٩ والبحر ٨/ ١٧٩.

(٦) البحر المحيط السابق.

(٧) قال في المختصر: «أَبَشَرٌ منا من غير تنوين أبو السَّمَّال». ١٤٧ و١٤٨ ولم يذكر غَيْرَ هذا.

(٨) البحر المرجع السابق أيضاً.

(٩) قال بوجهي النصب في «واحداً» أيضاً ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٩٨ و٢٩٩.

(١٠) البحر المحيط المرجع السابق.

(١١) البحر أيضاً السابق وهو اختيار أبي الفتح في محتسبه ٢/ ٢٩٩.

قالوا: أَنَتَّبِعُ بَشَراً أمكن أن يقال: نعم اتَّبِعُوهُ، وماذا يمنعكم من اتباعه؟ فإذا قدمنا حاله وقالوا: هو من نوعنا بشر من صِفَتِنَا[١] رجل ليس غريباً نعتقد فيه أنه يَعْلَمُ ما لا نَعْلَمُ أو يَقْدِرُ على ما لا نَقْدِرُ وهو واحد وليس له جندٌ ولا حَشَمٌ ولا خَدَمٌ ولا خيلٌ وهو وحيد ونحن جماعة فكيف نتبعه؟! فيكونون قد قدموا الموجب لجواز الامتناع عن اتباعه. وفي الآية إشاراتٌ إلى ذلك، منها تنكيره حيث قالوا: أَبَشَراً، ولم يقولوا: أَرَجُلاً، ومنها: قولهم: مِنَّا وهو يحتمل أمرين:

أحدهما: من صنفنا ليس غريباً.

والثاني: «مِنَّا» أي تَبَعنَا؛ لأن «مِنْ» للتبعيض والبعض يتبع الكل، لا الكل يتبع البعض.

ومنها قولهم: «واحداً»، وهو يحتمل أمرين أيضاً:

أحدهما: وحيداً إشارةً إلى ضعفه.

وثانيهما: واحداً أي هو من آحاد النَّاس أي هو ممَّنْ ليس بمشهور بحَسَبٍ ولا نَسَبٍ، إذا حَدَّث لا يُعْرَفُ ولا يمكن أن يقال عنه: قَال فلانٌ، بل يقال: قال واحدٌ، وذلك غاية الخُمول، أو لأن الأرذَلَ لا يَنْضَمُّ إليه أحد[٢].

قوله: «إِنَّا إِذَنْ لَفِي ضَلاَلٍ» خَطَأٍ، وذهاب عن الصواب «وَسُعُرٍ» (قال ابن عباس[٣]: عذاب. وقال الحسن: شدة العذاب. وقال قتادةُ: عَنَاء). «وسُعُر» يجوز أن يكون مفرداً أي جُنُون يقال: نَاقَةٌ مَسْعُورَةٌ أي كالمجنونة في سيرها، قال الشاعر (ـ رحمةُ اللَّهِ عَلَيْهِ ـ)[٤]:

٤٦٠٠ ـ كَأَنَّ بِهَا سُعْراً إِذَا السُّعْرُ هَزَّهَا   ذَمِيلٌ وَإِرْخَاءٌ مِنَ السَّيْرِ مُتْعِبُ[٥]

وأن يكون جمع «سَعِيرٍ» وهو النار. قاله سفيان بن عُيَيْنة. والاحتمالان منقولان عنه.

---

(١) في الرازي: من صِنْفِنَا.   (٢) بالمعنى من تفسير العلامة الرازي ١٥/ ٥٠.

(٣) زيادة من تفسير البغوي لتوضيح السياق ومقابلته.

(٤) زيادة من النسخة أ الأصل.

(٥) من الطويل. والبيت مختلف في روايته فرواية المؤلف أعلى قريبة من رواية البحر لأبي حيان ٨/ ١٨٠ غير أنه ذكر «العِيسُ» بدلاً من «السّعر» الثانية في رواية المؤلف وكذا رواية الكشاف ٤/ ٣٩ وشرح شواهده. ورواية القرطبي في الجامع ١٧/ ١٣٨:

تَخَالُ بِهَا سُعْراً إِذَا السَّفْرُ هَزَّهَا   ذَمِيلٌ وَإِيقَاعٌ مِنَ السَّيْرِ مُتْعِبُ

ولم أعرف قائل البيت، والذَّميلُ: ضرب من سير الإبل. والبيت ينبىء عن معنى التعب والجنون الذي يحل بتلك الناقة إذا ما سافرت.

وانظر البيت في الكشاف والبحر والقرطبي المراجع السابقة، وفتح القدير ٥/ ١٢٦، وروح المعاني ٢٧/ ٨٨.

والمعنى: إنَّا إذَنْ لَفِي عَنَاءٍ وعذاب مما يلزمنا مِنْ طاعته. وقال وَهْبٌ: معناه: بُعْدٌ عن الحَقِّ.

قوله: «أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا» معناه أأنزل عليه الذكر، وهُو الوحي[(١)] «مِنْ بَيْنِنَا» حال من هاء «عليه»، أي ألقي عليه منفرداً من بيننا أي خصص بالرسالة من بين آلِ ثمود وفيهم من هو أكثر مالاً وأحسن حالاً. وهو استفهام بمعنى الإنكار.

قوله: «بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ» الأشِرُ البَطِرُ، يقال: أَشِرَ يأشَرُ أَشَراً فَهُو أشِرٌ كَفِرحَ، وآشِرٌ كَضَارِبٍ وأَشْرَانُ كَسَكْرَانَ، وأُشَارَى كَأُسَارَى.

وقرأ أبو قِلاَبَةَ: «بل هو الكَذَّابُ الأَشَرُّ»، «مَنِ الكَذَّابُ الأَشَرُّ»؟ بفتح الشين وتشديد الراء، جَعَلَهُمَا أفعلَ تَفْضِيلٍ. وهو شاذ، لأنه (لم)[(٢)] يحذف الهمزة من لفظ الخَيْرِ والشَّرّ في «أفعل» التفضيل، تقول: زَيْدٌ خَيْرٌ مِنْ عَمْرو وشَرٌّ مِن بَكْرٍ[(٣)]، ولا تقول: أَخْيَرُ ولا أَشَرّ إلاَّ في نُدُورٍ كهذه القراءة[(٤)] وكقول رؤبة:

٤٦٠١ ـ بِلاَلُ خَيْرُ النَّاسِ وَابْنُ الأَخْيَرِ[(٥)]

وتثبت فيهما في التعجب نحو: ما أَخْيَرَهُ ومَا أَشَرَّهُ. ولا يحذف إلى في نُدَورٍ عكس أفعل التفضيل، قالوا: مَا خَيْرَ اللَّبَنَ للصّحيح، وَمَا شَرَّهُ لِلْمَبطُونِ. وهذا من محاسن الصِّناعة. وقرأ أبو قَيْس الأَوْدِيُّ ومجاهدٌ الحرف الثاني الأَشُرُ بثلاث ضمات، وتخريجها على أن فيه لغةً أُشُر بضم الشين كحُذُر وَحَذُر، ثم ضمت الهمزة إتباعاً لضمِّ الشين. ونقل الكسائي عن مجاهد ضم الشين وفتح الهمزة على أصل تِيكَ اللغة كَحَذُرِ[(٦)].

---

(١) القرطبي ١٧/ ١٣٨، والبغوي والخازن ٦/ ٢٧٦.

(٢) زيادة لاستقامة المعنى والكلام.

(٣) وقولهم في المؤنث: الخُورَى والشُّرَّى.

(٤) وقد ذكر هذه القراءة وتعليقها أبو الفتح بن جني في المحتسب ٢/ ٢٩٩ وأبو حيان في البحر ٨/ ١٨٠ والزمخشري في الكشاف ٤/ ٣٩، بينما سكت عنها ابن خالويه في المختصر عند هذا الموضع.

(٥) رجز مشطور نسب لرؤبة ولم أجده بديوانه بلفظه هذا. وما في الديوان بتصحيح وليم بن الورد مجموع أشعار العرب رؤبة بن العجاج:

يـا قـاسـم الـخـيـرات وابـن الأخـيـر

وانظر الديوان هذا ص ٦٢ والقرطبي ١٧/ ١٣٩ وروح المعاني ٢٧/ ٨٩ والبحر ٨/ ١٨٠ والأشموني ٣/ ٤٣ والتصريح ٢/ ١٠١ والهمع ٢/ ١٦٦، والمحتسب ٢/ ٢٩٩. وشاهده: وقوع الأخير من أفعل تفضيل دون حذف الهمزة وذلك نادر وقليل من الشذوذِ بمكان نستطيع أن نقول عنه: فصيح استعمالاً شاذٌ قياساً.

(٦) نقل القراءتين البحر المحيط ٨/ ١٨٠ بينما نقل القراءة الثانية ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٩٩.

فصل

(الأشر)[١] التحيّر والنشاط، يقال: فَرَسٌ أَشِرٌ إذا كان مَرِحاً نَشِطاً. قال امرؤ القيس يصف كلباً:

٤٦٠٢ ـ فَـيُـدْرِكُـنَـا فَـغِـمٌ دَاجِـنٌ سَـمِـيـعٌ بَـصِـيـرٌ طَـلُـوبٌ نَـكِـرْ
أَلَـصّ الـضُّـرُوسِ حَـنِـيُّ الـضُّـلُـوعِ تَـبُـوعٌ أَرِيـبٌ نَـشِـيـطٌ أَشِـرْ[٢]

(و) قيل: إنه المتعدي إلى منزلةٍ لا يستحقها. وقال ابن زيد وعبد الرحمن بن حماد: الأَشِرُ الذي لا يُبَالِي ما قال.

وفي قراءة أبي قلابة بفتح الشين وتشديد الراء فالمعنى أَشَرُّنَا وأَخْبَثُنَا.

فإن قيل: قولهم: بل هو كذاب يستدعي أمراً مضروباً عنه فما هو؟

فالجواب: قولهم: أألقي للإنكار فكأنهم قالوا: مَا ألقي، ثم إنَّ قولَهم: أألقي عليه الذكر لا يقتضي إلا أنه ليس بِنبِيٍّ، وقول القائل: ليس بِنبي لا يلزم منه أنه كاذب فكأنهم قالوا ليس بنبيٍ، ثم قالوا: بل هو ليس بصادقٍ[٣].

قوله: «فَسَيَعْلَمُونَ» قرأ ابنُ عامر وحمزةُ بالخطاب. وفيه وجهان:

أحدهما: أنه حكاية قول صالح لقومه.

والثاني: أنه خطاب الله على جهة الالتفات. والباقون بياء الغيبة جَرْياً على الغيب قبله في قوله: «فَقَالُوا أَبَشراً»، واختارها مَكِّيٌّ، قال: لأن عليها الأكثر[٤].

و «غداً» ليس المراد به الذي يلي يومك بل الزمان المستقبل، كقول الطِّرمَّاح (رحمةُ الله عليه ورضاه)[٥]:

٤٦٠٣ ـ أَلاَ عَـلِّلاَنِي قَبْـلَ نَـوْحِ الـنَّـوَائِـحِ وَقَـبْـلَ اضْـطِـرَابِ الـنَّـفْـسِ بَـيْـنَ الـجَـوَانِـحِ
وَقَـبْـلَ غَـدٍ يَـا لَـهْـفَ نَـفْـسِـي عَـلَـى غَـدٍ إِذَا رَاحَ أَصْـحَـابِـي وَلَـسْـتُ بِـرَائِـحِ[٦]

---

(١) سقط من أ.

(٢) من المتقارب له. والفَغِمُ المولَع بالصَّيْد الحريصُ عليه. والدّاجن: أَلوفٌ للصيد وَنكرٌ: منكر عالم وقيل: كريه الصورة، والألصّ: الذي التصقت أسنانه بعضها إلى بعض، والأريب الذكيّ. والتَّبوع: التابع الأثر. والبيتان بعدُ وَاضِحَانِ. وشاهده: في أنَّ الأَشر معناه النشيط. وانظر الديوان ١٦٠ والقرطبي ١٧/ ١٣٨.

(٣) قال بهذا السؤال والإجابة عليه الرازي معنًى من التفسير الكبير ١٥/ ٥٢.

(٤) وهذه قراءات سبعيَّة متواترة. وانظر السبعة ٦١٨، والكشف لمكي ٢/ ٢٩٧ و٢٩٨، وحجة ابن خالويه ٣٣٨ والإتحاف ٤٠٥.

(٥) زيادة من أ كالعادة.

(٦) من الطويل هذان البيتان للطِّرماح. والشاهد في «غدٍ» مكررة فإن المراد من الأيام التالية وليس اليوم=

والمعنى «سَيَعْلَمُون غَداً» حين يَنْزِلُ عليهم العذاب. قال الكلبي: يعني يوم القيامة. وذكر الغد للتقريبِ على عادة الناس يقولون: إنَّ مَعَ الْيَوْم غَداً[١].

فصل

الكذَّاب فعال صيغة مبالغة، لأن المنسوب إلى الشيء لا بدَّ له من أن يكثر من مزاولة الشيء، فإنَّ من خاط يوماً لا يقال له: خيَّاط فالمبالغة ههنا إما في الكثرة بأن يكون كثيرَ الكذب، وإمّا في الشدة أي شديد الكذب، يقول ما لا يقبله العقل. ويحتمل أن يكونوا وصفوه بذلك لاعتقادهم الأمرين جميعاً. وقولهم «أشِرٌ» إشارة إلى أنه كذب لا لضرورة وحاجة وإنما هو استغنى فبَطَرَ وطلب الرِّئَاسَةَ[٢].

قوله: «إنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةَ» أي مُخْرِجُوهَا من الهَضَبَة التي سألوا.

وأتى باسم الفاعل والإضافة مبالغة في حقيقته كأنه وقع «فِتْنَةً» مفعول به، أو مصدر من معنى الأول أو في موضع الحال.

روي أنهم تعنتوا على صالح فسألوه أن يخرج لهم من صخرة ناقةً حمراءَ عُشَرَاءَ، فقال الله: «إنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ» محنةً واختباراً؛ فقوله: «فتنة» مفعول له؛ لأن المعجزة فتنة؛ لأن بها يتميز المُثَابُ من المعذب، فالمعجزة تصديق، وحينئذ يفترق المصدِّق من المُكَذِّب.

أو يقال: إخراج الناقة من الصخرة معجزة، ودورانها بينهم، وقسمة الماء كان فتنةً، ولهذا قال: «إنَّا مُرْسِلُو» ولم يقل: مُخْرِجُو.

قوله: «فَارْتَقِبْهُمْ» أي انتظر ما يصنعون «وَاصْطَبِرْ» أي اصبر على أَذَاهُمْ وأصل الطاء في «اصْطَبِرْ» «تاء» فتحولت طاءً، لتكون موافقةً للصاد في الإطباق.

قوله: «وَنَبِّئْهُمْ» أي أخبرهم «أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ» أي بين آل ثمود وبين الناقة لها يوم ولهم يوم، كقوله تعالى: ﴿**لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ**﴾ فالضمير في (بينهم) لقوم صالح والناقة فغلّب العاقل[٣].

وقرأ العامة: قِسْمة بكسر القاف ـ ورُوِيَ عن أبي عمرو فَتْحُها[٤] ـ وهو قياس

= التالي ليومه مباشرة. وانظر القرطبي ١٧/ ١٣٩ والبحر ٨/ ١٨٠ وأمالي الشجري ١/ ٢٤٧ و٢٥٦ و٢٦٨، والمغني ٩٤ وشرح شواهده للسيوطي ٢٧٤ وفتح القدير ٥/ ١٢٦ وروح المعاني ٢٧/ ٨٨.

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢٧٦.

(٢) بالمعنى من تفسير الإمام ١٥/ ٥٢.

(٣) وانظر الرازي السابق وتفسير البغوي والخازن ٦/ ٢٧٦.

(٤) لم ترد عنه في المتواتر فقد قال أبو حيان في البحر ٨/ ١٨١: «ومعاذ عن أبي عمرو بفتحها».

المرة. والمعنى: أن الماءَ مقسومٌ بَيْنَهُمْ فوصف بالمصدر مبالغة، كقولك: فُلانٌ عَيْنُ الكرم.

قوله: «كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَر» أي يحضره من هُو له، فالناقة تحضر الماء يوم وُرُودِهَا وتغيب عنهم يوم وُرُودِهِمْ. قاله مقاتل. وقال مجاهد: إن ثمود يحضرون الماء يوم غَبِّها عنهم فيشربون، ويحضرون اللبن يوم ورودها فيحتلبون[١]. والشِّرْبُ ـ بالكسر ـ الحظ من الماء. وفي المثل: آخرها أقلُّها شِرْباً وأصله من سقي الإناء[٢]، لأن آخرها يرد وقد نَزِفَ الحَوْضُ[٣].

واعلم أن قسمة الماء إما لأن الناقة عظيمةُ الخَلْق ينفر منها حيواناتهم فكان يوم للناقة ويوم لهم، وإما لقلة الماء فلا يحملهم، وإما لأن الماء كان مقسوماً بينهم لكل فريق منهم فيوم وُرُودِ الناقة على هؤلاء يرجعون على الآخرين وكذلك الآخرون فيكون النُّقْصَان على الكل، ولا تختص الناقة بجميع الماء.

رُوِيَ أنهم كانوا يكتفون في يوم ورودها بلبنها، وليس في الآية إلا القسمة دون كيفيتها، وظاهر قوله تعالى: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَر﴾ يعضد الوجه الثالث، وحَضَر واحْتَضَرَ بمعنًى واحد.

قوله: «فَنَادَوْا صَاحِبَهُم» قبله محذوف أي فتمادوا على ذلك ثم عزموا على عقرها فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. و «تعاطى» مطاوع عَاطَى كأنهم كانوا يتدافعون ذلك حتى تولاه أشقاها. والمعنى فنادوا صاحبهم نداء المُسْتَغِيث وهو قُدار بنُ سَالف وكان أشجعهم. وقيل: كان رئيسهم. فتعاطى أي آلةَ العقر أو الناقةَ، أو هو عبارة عن الإقدام على الفعل العظيم. وتحقيقه أن الفعلَ العظيمَ يتبرأ منه كُلُّ أحد ويعطيه صاحبَه أو جَعَلُوا لَهُ جُعْلاً فَتعَاطَاهُ.

قال مُحَمَّدُ بن إسْحَاقَ: كمن لها في أصل شجرة على طريقها فرماها فانتظم به عضلة ساقها ثم شد عليها بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورَغَتْ رغاة واحدة، ثم نَحَرَها. قال ابن عباس: كان الذي عقرها أحمر أشقر أكشف أقعى يقال له: قُدار بن سالف. والعرب تسمي الجَزَّار قُداراً تشبيهاً بقُدار بْنِ سالف مشؤوم آل ثمود[٤]، قال مهلهل:

٤٦٠٤ ـ إنَّا لَنَضرِبُ بالسُّيُوف رُؤُوسَهُمْ   ضَـرْبَ الـقُـدَارِ نَـقِـيـعَـةَ الـقُـدَّامِ[٥]

---

(١) وانظر القرطبي ١٧/ ١٤١.
(٢) الصحيح: الإبل وليس الإناء.
(٣) وانظر اللسان «شرب» ٢٢٢٢.
(٤) القرطبي ١٧/ ١٤٠ و١٤١.
(٥) من الكامل لمهلهل ويروى صدره:

إنـا لـنَـضْـرِبُ بـالـصَّـوَارم هَـامَـهُـم

قوله: «إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً» يريد صيحة جبريل كما تقدم «فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ» العامة على كسر الظاء اسم فاعل وهو الذي يتخذ حظيرةً من حَطَب وغيره.

وقرأ أبو السَّمال وأبو حَيْوة وأبو رجاء وعمرُو بن عُبَيْد بفتحها. فقيل: هو مصدر[1] أي كَهَشِيم الاحْتِظَارِ.

وقيل: هو اسم مكان. وقيل: هو اسم مفعول وهو الهَشِيمُ نفسه، ويكون من باب إضافة الموصوف لصفته كمَسْجِدِ الجَامِعِ. والحَظْر المَنْع، وقد تقدم تحريره في «سُبْحَانَ»[2].

فصل

«كان» في قوله «فكانوا» قيل: بمعنى صاروا كقوله:

٤٦٠٥ ـ .... كَانَتْ فِرَاخاً بُيُوضُهَا[3]

أي صارت. والهشيم: المهشوم المكسور، ومنه سمي هاشِمٌ لهشمه الثَّرِيد في الجفان غير أن الهشيم يستعمل كثيراً في الحطب المتكسر اليابس.

قال المفسرون: كانوا كالخشب المُنْكَسِرِ الذي يخرج من الحظائر بدليل قوله: «هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ» وهو من باب إقامة الصّفة مقَام الموصوف.

وتشبيههم بالهشيم إما لكونهم يابسين كالموتى[4] الذين ماتوا من زمان، أو لانضمام بعضهم إلى بعض، كما ينضم الرفقاء عند الخوف يدخل بعضهم في بعض، فاجتمعوا بعضهم فوق بعض كما يجمع الحاطب الحَطَبَ يصف شيئاً فوق شيء منتظراً حضور من يشتري منه[5].

ويحتمل أن يكون ذلك لبيان كونهم في الجحيم أي كانوا كالحطب اليابس الذي للوَقِيد كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وقوله: ﴿فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥].

= والقُدَار: الجزار، والنقيعة ما ينحر للضّيافة، والقدام: القادمون من سفر جمع قَادم وقيل: القدّام الملك وجاء بالقدار دلالة على أنه هو الجزار. وانظر القرطبي ١٧/ ١٤١.

(١) ميميّ. وانظر هذه القراءة الشاذة في البحر ٨/ ١٨١ والكشاف ٤/ ٤٠. واختار الزمخشري المكان في تلك القراءة.

(٢) يقصد سورة الإسراء عند قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ من الآية ٢٠. وقد ذكر معنى الحَظْر وقال: وكثيراً ما يَرِدُ في القرآن ذكر المحظور ويُراد به الحَرَام. وانظر اللباب ميكروفيلم.

(٣) سبق هذا البيت وأتى به هنا دلالة على أن «كان» بمعنى «صار». والبيت لامرىء القيس وتكملته:

بِتَيْمَاءَ قَفْرٍ وَالْمَطِيُّ كَأَنَّهَا قَطَا الحَزْنِ قَدْ كَانَتْ فِرَاخاً بُيُوضُهَا

(٤) في الرازي: كالحشيش بين الموتى.

(٥) وقد قال بهذا الفصل الإمام الرازي.

فصل

ذكر في الآية مباحث:

منها: قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾. اعلم أن هذه الآية ذكرت في ثلاثة مواضع ذكرها في حكاية نوح بعد بيان العذاب، وذكرها هنا قبل بيان العذاب، وذكرها في حكاية عاد قبل بيانه وبعد بيانه، فحيث ذكر قبل بيان العذاب فَلِلْبَيَانِ كقول العارف بحكايته لغير العارف: هَلْ تَعْلَمُ كَيْفَ كَانَ أَمْرُ فُلان؟ وغرضه أن يقول: أخبرني عنه. وحيث ذكرها بعد بيان العذاب ذكرها للتعظيم كقول القائل: ضرب فُلاَنٌ أَيَّ ضَرْب وأيّما ضرب، وتقول: ضَرَبْتُهُ وكَيْفَ ضَرَبْتُهُ أي قويًا. وفي حكاية عاد ذكرها مرتين للبيان والاستفهام ومنها في حكاية نوح ذكر الذي للتعظيم، وفي حكاية ثمود ذكر الذي للبيان، لأن عذاب قوم نوح كان بأمر عظيم عام وهو الطوفان الذي عم العالم ولا كذلك عذاب قوم (هود) فإنه كان مختصاً بهم.

فصل

اعلم أن الله تعالى ذكر في هذه السورة خمس قصص، وجعل القصة المتوسطة مذكورة على أتمِّ وجه؛ لأن حال صالح كان أكثر مشابهةً بحال محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ لأنه أتى بأمر عجيب أَرْضِيٍّ، وكان أعجب مما جاء به للأنبياء، لأن عيسى عليه الصلاةُ والسَّلاَمُ، أحيا الميت لكن الميت كان محلاً للحياة فقامت الحياة بإذن الله في محل كان قابلاً لها وموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ انقلبت عصاه ثُعْبَاناً فأثبت الله له في الخشب الحياة بإذن الله؛ لكن الخشبة نبات كان له قوة في النمو فأشبه الحيوان في النمو، وصالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان الظاهر في يده خروج الناقة من الحجر، والحجر جماد، وليس محلاً للحياة، ولا محلاً للنمو والنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أتى بأعجبَ من الكُلِّ، وهو التصرف في الجرْم السَّماويِّ الذي يقول المشرك: لا وصول لأحد إلى السماء، وأما الأرضيات فقالوا: إنها أجسام مشتركة المواد يقبل كلُّ واحد منها صورة الأخرى، والسماوات لا تقبل ذلك فلما أتى بما اعترفوا بأنه لا يقدر على مثله آدَمِيٌّ كان أتم وأبلغ من معجزة صالح ـ عليه الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ ـ التي هي أتم من معجزة سَائر الأنبياء غير محمد ـ عليه الصَّلاة والسلام[١] ـ.

فصل

من قرأ الـمُحْتَظَر ـ بفتح الظاء ـ أراد الحظيرة، ومن قرأ بالكسر أراد صاحب الحظيرة. ونقل القرطبي عن صاحب الصِّحَاح، قال: من كسر جعله الفاعل، ومن فتح

---

(١) وانظر كل ذلك السابق في تفسير العلامة الرازي ١٥/ ٥٦ و٥٣.

جعله المفعول، ويقال للرجل القليل الخير: إِنَّهُ لَنَكِدُ الحَظِيرَةِ[١]. قال أبو عبيدة[٢]: أراه سمى أمواله حظيرة، لأنه حظرها عنده ومنعها، وهي فعيلة بمعنى مفعولة. وقال المَهْدَوِيُّ: من فتح الظاء من المُحْتَظَر فهو مصدر، والمعنى كهشيم الاحتظار. ويجوز أن يكون المحتظر هو الشجر المتخذ منه الحظيرة، قال ابن عباس (ـ رضي الله[٣] عنهما ـ): المحتظر هو الرجل يجعل لغنمه حظيرةً بالشجر والشوك فما سقط من ذلك وداسته الغَنَم فَهُوَ الهَشِيمُ[٤] قال:

٤٦٠٦ ـ أَثَـرْنَ عَـجَـاجَـةً كَـدُخَـانِ نَـارٍ   تَـشِـبُّ بِـغَـرْقَـدٍ بَـالٍ هَـشِـيـمِ[٥]

وعنه: الحشيش تأكله الغنم، وعنه أيضاً: كالعظام النَّخِرة المحترقة. وهو قول قتادة. وقال سعيد بن جبير: هو الترابُ المتناثر من الحِيطَان في يوم ريح. وقال سفيان الثوري: هو ما تناثر من الحظيرة إذا ضَرَبْتَهَا بالعصا، وهو فَعِيلٌ من مَفْعُولٍ. وقال ابن زيد: العرب تسمي كل شيء كان رطباً فيَبِسَ هشيماً[٦] والحَظْر المنع. والمُحتَظرُ المُفْتَعَلُ يقال منه: احْتَظَرَ على إبِلِهِ، وحظر أي جمع الشجر بعضَه على بعض ليمنع برد الريح والسِّباع عن إبله، قال الشاعر:

٤٦٠٧ ـ تَـرَى جِـيـفَ الـمَـطِـيِّ بِـجَـانِـبَـيْـهِ   كَـأَنَّ عِـظَـامَـهَـا خَـشَـبُ الْـهَـشِـيـمِ[٧]

وعن ابن عباس ـ (رضي الله عنهما ـ)[٨] أيضاً: أنهم كانوا مثل القمح الذي دِيسَ وهُشِمَ ـ. (والهشيم:)[٩] فُتَات السُّنْبُلَةِ والتِّبْن[١٠].

روى أَبُو الزُّبَيْرِ عن جابر قال: لما نزلنا الحِجْر في مَغْزَى رسول الله ـ ﷺ ـ تبوك، قال: أيها الناس لا تسألوني الآيَاتِ، هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث لهم ناقةً،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للأستاذ العلامة القرطبي ١٧/ ١٤٢. وانظر أيضاً صحاح الجوهري «حَظَرَ».

(٢) كذا في النسختين، والصحيح أبو عُبَيْدٍ؛ فقد رَجعْتُ إلى المجاز لأبي عبيدة ٢/ ٢٤١ فوجدته قد قال «صاحب الحظيرة»، والمحتظر هو الحظار والهشيم ما يَبِسَ من الشَّجَر أجْمَعَ.

(٣) زيادة من أ.   (٤) وانظر كل هذا في الجامع السابق.

(٥) من الوافر ولم أعرف قائله. والبيت في التشبيه. والعَجَاجَةُ الكثير من الإبل والغَرْقَدُ جمع غَرْقَدَةٍ: الشجر العظيم. وبَالٍ وهشيم صفتان لغرقد. وجاء بالبيت دلالة على أن الهشيم هو الشجر المداس من الغنم، وانظر القرطبي ١٧/ ١٤٢ وفتح القدير ٥/ ١٢٧.

(٦) القرطبي المرجع السابق.

(٧) هذا البيت شبيه بسابِقِهِ بحراً فهو من تمام الوافر، وجهلاً بقائله، حيث لم أعرف قائله. والضمير في (عِظَامِهَا) للمطيّ، فهو يشبه عظامها بعد الموت وبعد أن أصبحت جيفةً بالهشيم المُحْتَظَرِ المجتمع بعضه فوق بعض، وانظر البيت في القرطبي ١٧/ ١٤٢، وفتح القدير ٥/ ١٢٧.

(٨) زيادة من أ الأصل كالعادة.

(٩) ما بين القوسين زيادة للاستقامة في الكلام.

(١٠) وانظر القرطبي المرجع السابق واللسان (هـ شَ مَ).

فبعث الله عزّ وجلّ إليهم الناقةَ وكانت ترد من ذلك الفجّ فتشرب ماءهم يوم ورْدِها ويحلبون منها مثل الذي كانوا يشربون منها يوم غِبِّها(١).

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: **﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنُّذُر﴾** أخبر عن قوم لوط لما كذبوا لوطاً. ثم قال: «إنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً» والحاصب فاعل من حصب إذا رَمَى بالحَصَا وهي الحجارة. وقال النَّضْرُ(٢): الحَاصِبُ الحَصْبَاءُ في الرِّيح. وقال أبو عبيدة: الحاصب الحِجارة(٣). وفي الصِّحاح: الحَاصِبُ الريح الشديدة التي تثير الحَصْبَاء، وكذلك الحَصْبَةُ، قال لَبيدٌ:

٤٦٠٨ ـ جَرَّتْ عَلَيْهَا أَنْ خَوَتْ مِنْ أَهْلِهَا أَذْيَالَهَا كُلُّ عَصُوفٍ حَصِبَهْ(٤)

(يقال): عَصَفَتِ الرِّيحُ أي اشتدت فهي ريحٌ عَاصِفٌ وعَصُوفٌ. وقال الفرزدق:

٤٦٠٩ ـ مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّأْمِ تَضْرِبُنَا بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُورِ(٥)

قوله: «إلاَّ آلَ لُوطٍ» فيه وجهان:

---

(١) البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢٧٦، والقرطبي في الجامع ١٧/ ١٤٠ و١٤١. ويريد بأبي الزُّبَيْر محمد بن مسلم بن تَدْرُس المكّي، الحافظ المكثر، الصدوق مولى حكيم بن حزام القرشي الأسدي، حدث عن ابن عباس، وابن عمر، وجابر، وأبي الطفيل، وغيرهم، وعنه أيوب وشعبة وسفيان، كان كاملاً عقلاً مات سنة ١٢٨ هـ، وانظر تذكرة الحُفاظ ١/ ١٢٦ و١٢٧ للإمام الذهَبِيّ.

(٢) هو: النضر بن شُمَيْل، أخذ عن الخليل بن أحمد، وعن فصحاء العرب كأبي خِيرة الأعرابيِّ وأبي الدُّقَيْش. مات سنة ثلاث أو أربع ومائتين في خلافة المأمون. وانظر نزهة الألباء من ٥٨ إلى ٦١.

(٣) قاله في المجاز ٢/ ٢٤١ قال: «والحاصب أيضاً يكون من الجليد».

(٤) من الرجز وهو له كما في ديوانه ٣٩ دار صادر. وخوت: أقْفَرَتْ، والعَصُوفُ: الريح العاصفةُ والحَصِبَةُ التي تجرف الحَصْبَاء معها. وروي «عليه» بدل «عليها». و «كل» فاعل مؤخر و «أذيالها» مفعول مقدم. وقد جاء بالبيت ليُبيِّن أن الحاصب والحصبة هي الريح الشديدة المثيرة. وانظر اللسان «حصب» ٨٩٣ والقرطبي ١٧/ ١٤٣ والصِّحاح «حصب» أيضاً.

(٥) من البسيط له. و «نَدِيفُ القطن» الذي يباع في السوق مندوفاً فالنَّدْفُ هو الطرق. وشاهده كسابقه من أن الحاصب هو الريح الشديدة. وانظر البيت في المجاز ٢/ ٢٤١ وفتح القدير ٥/ ١٢٧ وروح المعاني ٢٧/ ٩٠ والقرطبي ١٧/ ١٤٣، ومجمع البيان ٩/ ٢٩١ والديوان ١/ ٢١٣.

أحدهما: أنه متصل ويكون المعنى: أنه أرسل الحاصب على الجميع إلا أهله، فإنه لم يرسلْ عليهم.

والثاني: أنه منقطع[١]. قال شهاب الدين: ولا أدري ما وَجْهُهُ؛ فإن الانقطاع وعدمه عبارة عن عدم دخول المستثنى في المستثنى منه، وهذا داخلٌ ليس إلا[٢].

وقال أبو البقاء: هو استثناء منقطع. وقيل: متصل؛ لأن الجميع أرسل عليهم الحاصب فهَلَكُوا إلا آلَ لوط. وعلى الوجه الأول يكون الحاصب لم يرسل على آل لوط[٣]. انتهى. وهو كلام مُشْكِلٌ[٤].

فصل

قال ابن الخطيب: الحاصب رامي الحَصْبَاء، وهي الحجارة؛ كقوله: «﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤] وقول الملائكة: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] مع أنَّ المرسلَ عليهم ليس بحاصب فيحتمل أن يكون المعنى: لنرسل عليهم ريحاً حاصباً بالحجارة[٥]. ويجوز تذكير الرِّيح؛ لأن تأنيثها غير حقيقي. ويحتمل أن يكون المراد عذاب حاصب لأن (أَرْسَلْنَا) يدل على مُرسلٍ وهو مرسل الحجارة وحاصبها، وأفرد للجنس. وقوله: «إِنَّا أَرْسَلْنَا» كأنه جواب من قال: كَيْفَ كَانَ أَمْرُهُمْ؟ والاستثناء في قوله: «إِلاَّ آلَ لُوطٍ» من الضمير في «عَلَيْهِمْ» وهو يعود على قوم لوط فيقتضي أنَّ آلَهُ كَذَّبُوا، لكن قد يكون أهله قليلاً فعمهم ظاهر اللفظ فبين بالاستثناء خروجهم لأن المقصودَ بيانُ هلاكهم ومن نجا أو يكون الاستثناء من كلام مدلول عليه أي فما أنجينا من الحاصب إلا آل لوط، ويكون الإرسال عليهم والإهلاك عامًّا، فكأن الحاصب أهلك من كان الإرسال عليه مقصوداً وغيرهم، كالأطفال والدَّوَابِّ[٦].

والمراد بآل لوط: من تبعه على دينه ولم يكن إلا بِنْتَاهُ.

قوله: «نَجَّيْنَاهُمْ» تفسير وجواب لقائل يقول: فَمَا كان من شأن آلِ لوط؟ كقوله تعالى: ﴿أَبَىٰ﴾ [البقرة: ٣٤] بعد قوله: «إِلاَّ إِبْلِيسَ». وقد تقدم في البقرة[٧].

قوله: «بِسَحَرٍ» الباء حالية أو ظرفية، وانصرف «سَحَرٌ» لأنه نكرة، ولو قصد به

---

(١) نقل الوجهين العكبري في التبيان ١١٩٤ واختار الثاني.

(٢) الدر المصون مخطوط بمكتبة الإسكندرية لوحة رقم ١٢٢.

(٣) التبيان المرجع السابق.

(٤) حيث إنَّ آل لوط مَعَ من عُذّبوا حينما عَارَضوا فكيف لم يُرْسَل الحَاصِبُ على آل لوط؟

(٥) التفسير الكبير له ١٥/٥٨ و٥٧.

(٦) بالمعنى من المرجع السابق.

(٧) وراجع اللباب الجزء الأول ص ٧٧ نُسْخَة ب.

وقتٌ بعينه لمنع (مِنَ) الصَّرف للتعريف والعدل عن أل هذا هو المشهور.

وزعم صَدْرُ الأَفَاضِلِ[١] أنه مبني على الفتح كَأَمْسِ مبنياً على الكسر[٢].

و «نِعْمَةً» إما مفعولٌ له، وإما مصدرٌ[٣] بفِعلٍ من لفظهما أو من معنى «نَجَّيْنَاهُمْ»؛ لأن تنجيتهم إنعامٌ، فالتأويل إما في العامل وإما في المصدر. و «مِنْ عِنْدِنَا» إما متعلق بنعْمةٍ، وإما بمحذوفٍ صفةً لها.

والكاف في «كَذَلِكَ» نعت مصدر محذوف أي مِثْلُ ذَلِكَ الْجَزَاءِ نَجْزِي.

فصل

قال الأخفش: إنّما جُرَّ سَحَر، لأنه نكرة، ولو أراد يوماً بعينه لم يَجُرَّه[٤]. وكذا قال الزجاج: سحرٌ إذا كان نكرة يراد به سحر من الأسحار يصرف، تقول: سَحرُنَا هذا، وأتيته بسَحَرٍ، والسَّحَرُ هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر، وهو في كلام العرب اختلاط سواد الليل بِبَيَاضِ النهار؛ لأن في هذا الوقت تكون مخاييل الليل ومخاييل[٥] النهار.

«نِعمةً مِنْ عِنْدِنَا» إنعاماً على لوط وابْنَتَيْهِ.

«كَذَلِكَ نَجزي مَنْ شَكَرَ»، أي كما جازينا لوطاً وأهله بالإنجاء، فكذلك نجزي من شكر أي آمن بالله وأطاعه.

قال المفسرون: هو وعد لأمة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأنه يصونهم عن الهلاك العام.

قال ابن الخطيب: ويمكن أن يقال: هو وعد لهؤلاء بالثواب يوم القيامة، كما أنجاكم في الدنيا من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[٦] [آل عمران: ١٤٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ هي العذاب الذي أصابهم، أو هي عذاب الآخرة، لقوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[٧] [الدخان: ١٦]، وقوله: «فَتَمَارَوا بِالنُّذُرِ»

---

(١) هو أبو الفتح ناصر صدر الأفاضل، ابن أبي المكارم عبد السيد الخُوَارِزميّ المُطَرِّزِيّ كان يدعو للاعتزال قرأ على أبيه وغيره فنبغ في العربية، وسار ذكره وبَعُدَ صيته. من مؤلفاته النَّحْوية: المِصْبَاحُ. تُوفِّي بخوارزم سنة ٦١٠ هـ، وانظر نشأة النحو ١٧٨ و١٧٩.

(٢) وقد خالف المطرزي العامة من النحاة في هذا الرأي كما نقل ذلك السيوطي في الهمع ١/١٩٦ وانظر المشكل في إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ٢/٣٣٩.

(٣) التبيان ١١٩٤ واختار مكي في مرجعه السابق المفعول لأجله فقط.

(٤) لم أجده في معاني القرآن له وإنما نقله عنه القرطبي في الجامع ١٧/١٤٣.

(٥) وانظر معاني القرآن وإعرابه له ٥/٩.

(٦) وانظر التفسير الكبير للرازي بالمعنى ١٥/٦٠.

(٧) وانظر المرجع السابق.

أي فشكُّوا فيما أنذرهم به الرسول ولم يصدقوه، وهو تَفَاعَلُوا من المِرْيَة. وهذه الآية تدل على أن المراد بالنذر الإنذارات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ المراودة من الرَّوْدِ، يقال: رَاوَدْتُهُ عَلَى كَذَا مُرَاوَدَةً، ورَواداً أيْ أَرَدْتُهُ. وَرادَ الكَلأَ يَرُودُهُ رَوْداً وَرِياداً، وارْتَادَهُ أيضاً أي طَلَبَهُ. وفي الحديث: «إذَا بَالَ أَحَدكُمْ فَلْيَرْتَدْ لِبَوْلِهِ» أي يطلب مكاناً ليناً أو منْحدراً[١]. قال ابن الخطيب: ومنه الإرادة وهي المطالبة[٢] غَيْرَ أن المطالبة تستعمل في العين، يقال: طَالَبَ زَيْدٌ عَمْراً بالدَّرَاهِمِ، والمراودة لا تستعمل إلا في العمل، فيقال: رَاوَدَهُ عَنِ الْمُسَاعَدَةِ، ولهذا تعدى المراودة إلى مفعول ثانٍ[٣] والمطالبة بالباء وذلك لأن الشغل منوطٌ باختيار الفاعل، والعين قد توجد من غير اختيار منه فلهذا يفترق الحال بين قولك: أَخْبِرْنِي عَنْ أَمْرِ زَيْدٍ وأَخْبِرْنِي بِأَمْر زَيْدٍ، وكذا قوله: «أَخْبَرَنِي زَيْدٌ عَنْ مَجِيءِ فُلاَنٍ» وقوله: «أَخْبَرَنِي بمجيئه»؛ فإن من قال عن مجيئه ربما يكون الإخبار عن كيفية المجيء لا عن نفسه، وأخبرني بمجيئه، لا يكون إلا عن نفس المجيء[٤].

والضيف يقع على الواحد والجماعة، والمعنى أرادوا منه تمكينهم ممن أتاه من الملائكة.

قوله: «فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ» قرأ العامّة فَطَمسنَا مخففاً. وابن مِقْسِم مشدَّداً على التكثير، لأجل المتعلق أو لشدة الفعل في نفسه[٥].

والضمير في: «رَاوَدُوهُ» عائد على قوم لوط. وأسند إليهم لأن جميعهم راضٍ بذلك، والمراد الذين دخلوا عليه. روي أن جِبْرِيلَ ـ عليه الصلاة والسلام ـ ضربهم بجناحه فَعَمُوا. وقيل: صارت أعينهم كسائر الوجه لا يرى لها شِقّ، كما تطمس الريح الأثر والأعلام بما تَسْفِي عليها من التراب، وقال الضحاك: بل أعماهم الله تعالى فلم يَرَوا الرسل. وقالوا: لقد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا فرجعوا ولم يروهم. وهذا قول ابن عباس[٦].

فإن قيل: قال ههنا: فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ، وقال في يس: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦] فما الفرق؟

فالجواب: هذا يؤيد قول ابن عباس: بأن المراد من الطمس الحَجْبُ عن الإدراك، ولم يجعل على بصرهم شيء. وفي «يس» أراد أنه لو شاء لجعل على بصرهم غشاوة أو أَلْزَقَ[٧] أحد الجَفْنَيْن بالآخَرِ فتكون العينُ جلدة[٨].

(١) وانظر اللسان رَوَدَ ١٧٧٢ و١٧٧١.
(٢) في الرازي: قريبة من المطالبة.
(٣) في الرازي: «بعن».
(٤) وانظر تفسير الرازي ١٥/ ٦١ بالمعنى.
(٥) وانظر البحر ٨/ ١٨٢. وهي قراءة شاذة.
(٦) وانظر القرطبي ١٧/ ١٤٤.
(٧) في الرازي: أي أَلْزَقَ.
(٨) وفيه: فيكون على العين جلدة.

وروي أنهم صارت أعينهم مع وجوههم كالصفحة الواحدة.

قوله: «فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ» الخطاب لهم، أي قلنا على لسان الملائكة فذوقوا، وهو خطاب مع كل مكذب، أي إنْ كُنْتُمْ تُكَذِّبونَ فَذُوقُوا.

قال القرطبي: والمراد من هذا الأمر الخبر أي: فَأَذَقْتُهُمْ عَذَابي الذي أنذرَهُمْ به لوطٌ[١].

فإن قيل: إذا كان المراد بقوله: «عذابي» هو العذاب العاجل، وبقوله: «ونُذُر» هو العذاب الآجل فهما لم يكونا في زَمَانٍ واحد فكيف قال: ذوقوا؟

فالجواب: أن العذاب الآجل أوله متصل بآخر العذاب العاجل فهما كالواقع في زمان واحد وهو كقوله تعالى: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾[٢] [نوح: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ انصرف «بكرةً»؛ لأنه نكرة ولو قصد به وقت بعينه امتنع الصرف للتأنيث والتعريف. وهذا كما تقدم في «غَدْوَةٍ»[٣].

ومنعها زيدُ بن عليٍّ الصرف[٤]، ذهب بها إلى وقتٍ بعينه[٥].

قال صاحب المختصر[٦]: انتصب بُكْرَة على الظرف أي بكرة من البكر كقوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]. قال الزمخشري: والتنكير يدل على أنه كان في بعض الليل وتمسك بقراءة من قرأ: مِنَ اللَّيْلِ[٧]. قال ابن الخطيب: وهو غير ظاهر، والأظهر أن يقال: بأن الوقت المبهم يذكر لبيان أن تَعْيِينَ الوقت ليس بمقصود للمتكلم، كقوله: خَرَجْنَا فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ مَعَ أن الخروج لا بدّ وأن يكون في بعضِ الأوقات، وكذلك قوله: «صَبّحَهُمْ بُكْرَةً» أي بكرة من البكر، و «أسْرَى بعَبْدِهِ ليلاً» أي ليلاً من الليالي[٨].

ومعنى صبحهم قال لهم: عِمُوا صباحاً، كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]. والمراد بقوله: بكرة أول أزمنة الصبح. أو انتصب «بُكْرَةً» على المصدر كقولك: ضَرَبْتُهُ سَوْطاً؛ لأن الضرب يكون بالسَّوْطِ وغيره، وكذلك الصبح يكون بكرةً وبَعْدَها.

---

(١) وانظر القرطبي ١٧/ ١٤٤. (٢) وانظر الرازي ١٥/ ٦٢.

(٣) وكما تقدم أيضاً منذ قليل في (سَحَر). وانظر المشكل لمكي ٢/ ٣٣٩.

(٤) وانظر البحر المحيط ٨/ ١٨٢. (٥) المرجع السابق. وهي شاذّة.

(٦) لعله المختصر في النحو لأبي جعفر بن سَعْدَان الضرير البغداديّ، وقد ترجم لابن سَعْدَان هذا قَبْلُ.

(٧) قال الزمخشري «. . . وذلك أن التنكير فيه قد دل على معنى البعضية، ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة: من الليل» وانظر الكشاف ٢/ ٤٣٦.

(٨) من كلام للرازي في تفسيره ١٥/ ٦٣.

ومعنى «مستقر» أي ثابت عليهم لا يدفعه أحد عنهم، أو دائم لأنهم انتقلوا منه إلى عذاب الجحيم، وهو دائم، أو بمعنى قدر الله عليهم وقوعه ولم يصبهم بطريق الاتفاق وذلك العذاب قلب قريتهم عليهم، وجعل أعلاها أسْفَلَهَا(١).

وقوله: «فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ» أي العذاب الذي نزل بهم من طَمْسِ الأَعْيُن غير العذاب الذي أهلكوا به، فلذلك حسن التكرير(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾** المراد بآله خواصُه، والنُّذُر مُوسَى وهَارُونُ. ولقد يطلق لفظ الجمع على الاثنين. وقيل: المراد بآل فرعون القِبط.

فإن قيل: ما الفائدة في قوله: «آلَ فِرْعَوْنَ» بدل «قَوْمِ فِرعَوْنَ»؟

فالجواب: أن القوم أعم من الآل فالقوم كل من يقوم الرئيس بأمرهم، أو يقومون هم بأمره وقوم فرعون: كانوا تحت قهره بحيث لا يخالفونه في قليل ولا كثير، فأرسل إليه الرسول وحده غير أنه كان عنده جماعة من المقربين مثل قَارُون. مقدم(٣) عنده لمالِهِ العَظِيم، وهَامَان لِدَهَائِهِ، فاعتبرهم الله في الإرسال، حيث قال في مواضع: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ [الزخرف: ٤٦] وقال: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾ [غافر: ٢٤] وقال في العنكبوت: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾ [العنكبوت: ٣٩] لأنهم إن آمنوا آمن الكل، بخلاف الأقوام الذين كانوا قبلهم وبعدهم، فقال: «وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُر» وقال: «أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ».

فإن قيل: كيف قال: «ولقد جاءهم» ولم يقل في غيره(٤): جاء؟

فالجواب: لأن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما جاءهم كان غائباً عن القوم فقدم عليهم، كما قال: «﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر: ٦١]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] حقيقة أيضاً، لأنه جاءهم من الله من السموات بعد المعراج، كما جاء موسى قومه من الطور حقيقة.

والنذر: الرسل وقد جاءهم يوسف وبنوه إلى أن جاءهم موسى. وقيل: النذر الإنذارات.

---

(١) للرازي السابق.
(٢) قاله القرطبي في الجامع ١٧/ ١٤٤.
(٣) في ب والرازي: تقدم عنده.
(٤) كذا في النسختين وفي الرازي: غيرهم.

قوله: «كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» فيه وجهان:

أحدهما: أن الكلام تمّ عند قوله: «وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ» وقوله: «كَذَّبُوا» كلام مستأنف، والضمير عائد إلى كل مَنْ تقدم ذكرهم من قوم نوح إلى آل فرعون.

والثاني: أن الحكاية مسوقةٌ على سياق ما تقدم فكأنه قيل: فَكَيْفَ كَانَ؟ فقال: كذبوا بآياتنا كلها فَأَخَذْنَاهُمْ[١].

فعلى الوجه الأولى آياتنا كلها ظاهر، وعلى الثاني المراد بالآيات التي كانت مع موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ كالعصا، واليد، والسِّنِينَ، والطمسِ، والجرادِ، والطوفانِ، والجرادِ، والقُمَّلِ، والضفادعِ والدَّم[٢].

قوله: «فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ» هذا مصدر مضاف لِفاعله، والمعنى أَخَذْنَاهُمْ بالعذاب أَخْذَ عَزِيزٍ غالب في انتقامه (مُقْتَدِرٍ) قادرٍ على إهلاكهم، لا يُعْجِزُه مَا أَرَادَ.

ثم خوف أهل مكة فقال: «أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ» أي أشد وأقوى من الذين أحللت بهم نِقْمَتي من قوم نوح وعاد، وثمود، وقم لوط. وهذا استفهام بمعنى الإنكار، أي ليسوا بأقوى منهم، فمعناه نفي أي ليس كفاركم خيراً من كفار من تقدم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم.

وقوله: «خَيْرٌ» مع أنه لا خير فيهم إما أن يكون كقول حسان:

٤٦١٠ ـ .... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ[٣]

أهو بحسب زعمهم، واعتقادهم، أو المراد بالخير شدة القوة، أو لأن كل مُمْكِن فلا بدّ وأن يكون فيه صفات محمودة، والمراد تلك الصفات.

«أَمْ لَكُمْ براءةٌ فِي الزُّبُر» أي في الكتب المنزلة على الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بالسلامة من العقوبة. وقال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما ـ)[٤] أم لكم في اللوح المحفوظ براءة من العذاب.

قوله: «أَمْ يَقُولُونَ» العامة على الغيبة، وأبو حيوة وأبو البَرَهسم وموسى الأسْوَارِيّ بالخطاب[٥]، جرياً على ما تقدم من قوله: «كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ»... إلى آخره. والمعنى نحن جماعة لا نُطَاقُ لكثرة عددهمْ وقوتهم، ولم يقل: منتصرين اتباعاً لرؤوس الآي[٦].

---

(١) وانظر في هذا كله تفسير العلامة الرازي ١٥/ ٦٤ و٦٥.
(٢) المرجع السابق.
(٣) سبق ذكره وجيء به هنا ليدل على أن المراد من خير غير التفضيل كما هي في قول حسان وانظر الرازي ١٥/٦٦.
(٤) زيادة من أ.
(٥) قراءة شاذة ذكرها صاحب البحر المحيط ٨/ ١٨٣.
(٦) ذكرَهُ القرطبي في الجامع ١٧/ ١٤٥.

وقال ابن الخطيب: قولهم: «جميعٌ» يحتمل الكثرة، والاتّفاق[١]، ويحتمل أن يكون معناه نحن جميع الناس إشارة إلى أن من آمن لا عبرة به عندهم كقول قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] فيكون التنوين فيه عوضاً من الإضافة[٢]. وأفرد منتصر مراعاةً للفظ «جميع» أو يكون مرادهم كل واحد منتصر كقولك: كُلُّهُمْ عَالِمٌ أي كل واحد فيكون المعنى أن كل واحد منا غالب؛ فردّ الله تعالى عليهم بأنهم يهزمون جَمِيعُهُمْ[٣].

قوله: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ» العامة على سَيُهْزَمُ مبنياً للمفعول و «الجَمْعُ» مرفوعٌ به. وقرىء: سَتَهْزِمُ بتاء الخطاب[٤]، خطاباً للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ «الْجَمْعَ» مفعول به. وأبو حيوة في رواية يعقوب: سَنَهْزِمُ بنون[٥] العظمة، و «الْجَمْعَ» منصوب أيضاً. وابْنُ أَبِي عَبْلَةَ: سَيَهْزِمُ بياء الغيبة[٦] مبنياً للفاعل (الجَمْعَ) منصوب أي سيَهْزِمُ اللَّهُ.

و«يُوَلُّونَ» العامة على الغيبة. وأبو حيوة وأبو عمرو ـ في رواية[٧] ـ وتُوَلُّونَ بتاء الخطاب، وهي واضحة والدُّبُر هنا اسم جنس، وحسن هنا لوقوعه فاصلةً بخلاف: ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [الحشر: ١٢].

وقال الزمخشري: أي الأدبار، كما قال:

٤٦١١ ـ **كُلُوا فِي بَعْضِ بطْنِكُمْ تَصِحُّوا** ....[٨]

وقرىء الأدبار[٩].

قال أبو حيان: وليس مثل بعضِ بَطْنِكُمْ؛ لأن الإفراد هنا له محسّن، ولا محسن لإفراد بَطْنِكُمْ[١٠].

---

(١) كأنه قال: نحن كثير متفقون فلنا الانتصار، ولا يقوم غير هذه اللفظة مقامها من الألفاظ المفردة.
(٢) وأسماه الرازي بقطع الإضافة قال «وعلى هذا جميع يكون التنوين فيه لقطع الإضافة كأنهم قالوا نحن جمع الناس». وانظر الرازي ١٥/ ٦٨.
(٣) بالمعنى من الرازي المرجع السابق.
(٤) في النسختين: بنون العظمة والصحيح ما كتبت أعلى، وهذه قراءة شاذة ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ١٨٣.
(٥) شاذة أيضاً ذكرها أبو حيان في مرجعه السابق وابن خالويه في المختصر ١٤٨.
(٦) البحر المحيط السابق أيضاً.
(٧) ولم ترو عنه في المتواتر. وانظر البحر المحيط السابق والقرطبي ١٧/ ١٤٥ ونسبها القرطبي لرويس عن يعقوب.
(٨) سبق أنه صدر بيت لجرير وعجزه:

فَإِنَّ زَمَانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيصُ

واستشهد به على أن المراد من المفرد ـ وهو البطن ـ الجمع أي البطون.
(٩) ولم يحدد الزمخشري من قرأ بها. وانظر الكشاف ٤/ ٤١٢.
(١٠) البحر ٨/ ١٨٣.

قال ابن الخطيب: وأفردَ «الدُّبُرُ» هنا وجُمع في غيره؛ لأن الجمع هو الأصل، لأن الضمير ينوب مناب تَكْرار العاطف فكأنه قيل: تولى هذا وهذا. وأفرد لمناسبة المقاطع. وفيه إشارة إلى أن جميعهم يكونون في الانهزام كشخص واحد، وأما قوله: «فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ» فجمع لأن كل واحد برأسه منهيّ عن رأسه، وأما قوله: «وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ» أي كل واحد قال: أنا أثبت ولا أوَلِّي دُبُرِي[1].

فصل

قال مقاتل: ضرب أبو جهل فرسه يوم بدر فتقدم من الصف وقال: نحن نَقْتَصُّ اليومَ من مُحَمَّد وأصحابِهِ فأنزل الله تعالى: ﴿**نَحْن جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ**﴾.

وقال سعيد بن المسيب: سمعت عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)[2] يقول: لما نزل: سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّون الدُّبُرَ كنت لا أدريْ أي جمع يهزم فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يثب في درعه ويقول: «سَيُهْزَم الجَمْع وَيُوَلُّون الدُّبرَ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ» أعظم نائبةً وأشدّ مرارةً من الأسر والقتل يوم بدر[3]، وفي رواية[4] أن النبي ـ ﷺ ـ كان يَثِبُ في دِرْعِهِ ويقول: «اللَّهُمَّ إنَّ قُرَيْشاً حَادَّتْكَ وتُحَادّ رَسُولَكَ بفَخْرِهَا بخَيْلِهَا[5] فَأَحْنِهِمُ[6] العَدَاوَةَ»، ثم قال: «سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ». وقال عمر[7] ـ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ـ: فَعَرَفْتُ تَأْوِيلَهَا. وهذا من معجزات رسول الله ـ ﷺ ـ لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبعُ سِنينَ، فالآية على هذا مكية. وفي البخاري عن عائشةَ أمِّ المؤمنين ـ (رضي الله عنهما) ـ قالت: لقد أُنزِلَ على مُحَمَّد ـ ﷺ ـ بمكة، وإني لجارية ألعبُ: «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وأَمَرُّ». وعن ابن عباس (ـ رضي الله عنهما ـ) أن النبي ﷺ ـ قال وهو في قُبَّةٍ له يوم بدر: «أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ ووَعْدَكَ، اللَّهمَّ إنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ اليَوْم أبداً». فأخذ أبو بكر بيده وقال: حَسْبُكَ يا رسول الله قد أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّك وهو في الدِّرع فخرج وهو يقول: سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيولُّونَ الدُّبُرَ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ.

---

(١) بالمعنى من تفسير العلامة الرازي في تفسيره الكبير ١٥/ ٦٨ و٦٩. والآيات المذكورة في تلك الفقرة من الآية ١٥ من الأنفال ومن الآية ١٥ من الأحزاب.

(٢) زيادة من أ.

(٣) وانظر البغوي ٦/ ٢٧٨.

(٤) رواها سعد بن أبي وقاص عن سعيد بن جبير وانظر القرطبي ١٧/ ١٤٦.

(٥) في نسخة ابن هشام في سيرته: بفخرها وخُيَلاَئِهَا.

(٦) أي أهلكهم وأتِ عليهم.

(٧) في القرطبي أنه سعدُ بْنُ أبي وقَّاصٍ.

«بل الساعة موعدهم» يريد يوم القيامة «والساعة أدهى وأمر» مما لَحِقَهُمْ[١].

فصل

«أدهَى» من الداهية وهي الأمر العظيم يقال: أَدْهَاهُ[٢] أَمْرُ كَذَا أي أصابه دَهْواً ودَهْياً. وقال ابن السِّكِّيت[٣]: دَهَتْهُ دَاهِيَةٌ دَهْوَاءُ ودَهْيَاءُ[٤]، وهي توكيد لها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله: «إِنَّ المُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ» قيل: في ضلال بعد عن الحق. قال الضحاك: وسعر أي نار تسعّر عليهم. وقيل: ضلال ذهب عن طريق الجنة في الآخرة. وسُعُر جمع سَعِير: نار مستعرة. وقال الحسين بن الفضل: إن المجرمين في ضلال في الدنيا ونارٍ في الآخرة. قال قتادة: في عناء وعذاب.

ثم بين عذابهم فقال: «يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وِجُوهِهِمْ» ويقال لهم: «ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ»[٥].

فصل

أكثر المفسرين على أن هذه الآية في القَدَرِيَّة. وفي الحديث: أَنها نزلت في القَدَرِيَّة. وعن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ القَدَرِيَّةُ فَهُمُ المُجْرِمُونَ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى في قوله: ﴿**إِنَّ المُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وسُعُرٍ**﴾».

واعلم أن الجَبْرِيَّ من يقول: القدريُّ من يقول الطاعة والمعصية بفعلِي فهم ينكرون القَدَر. والفريقان متّفقان على أن السُّنِّيَّ القائلَ بأن الأفعال خلق الله وبسببٍ من العبد ليس بقَدَرٍ. قال ابن الخطيب: والحقُّ أن القَدَرِيَّ هو الذي يُنْكِرُ القَدَرَ، ويَنْسِبُ الحوادث لاتصال الكواكب لما رُوِيَ أَنَّ قريشاً خَاصَمُوا في القَدَر ومذهبهم أن الله مكَّن العبد مِن الطاعة والمعصية، وهو قادر على خلق ذلك في العبد، وقادر على أن يُطْعِمَ الفَقِيرَ، ولهذا قالوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧] منكرين لقدرته تعالى على

---

(١) وانظر هذا كُلَّه في تفسير العلامة القرطبي ١٧/١٤٦ وانظر بعضه في معالم التنزيل للعلامة البغوي ٦/٢٧٨.

(٢) الصحيح كما في كتب اللغة دَهَاهُ ثُلاثِيًا.

(٣) يعقوب أبو يوسف بن السكيت، كان من أكابر أهل اللغة والسّكّيت لقب أبيه إسحاق. أخذ عن أبي عمرو الشيباني والفراء وابن الأعرابي، وأخذ عنه أبو سعيد السكري وأبو عكرمة الضبّي، وكان من أصحاب الكسائي حَسَن المعرفة بالعربية. مات سنة ٢٤٤. وقيل غير ذلك. وانظر نزهة الألباء ص ١٢٣.

(٤) القرطبي السابق واللسان دها ١٤٤٨. (٥) البغوي ٦/٢٧٨.

الإطعام. وأما قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «القَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأمة». فإن أريد بالأمة المرسل إليهم مطلقاً كالقَوْم، فالقدرية في زمانه هم المشركون المنكرون قدرته على الحوادث، فلا يدخل فيهم المعتزلة. وإن كان المراد بالأمة من آمن به ـ عليه الصلاة والسلام ـ فمعناه أن نسبة القدرية إليهم كنسبة المَجُوس إلى الأمة المتقدمة، فإن المجوس أضعفُ الكَفَرَة المتقدمين شبهةً وأشدّهم مخالفةً للعقل، وكذا القدرية في هذه الأمة وكونهم كذلك لا يقتضي الجَزْم بكونهم في النار. فالحق أن القدريَّ هو الذي يُنْكِر قدرةَ الله تَعَالَى[١].

فصل

روى مُسْلِمٌ عن أبي هريرة، قال: جاءَ مشركو قريش يخاصمون رسول الله ـ ﷺ ـ في القدر، فنزلت هذه الآية: ﴿**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ**﴾ إلى قوله: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾. وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلاَئِقِ كُلَّهَا مِنْ قَبْلِ أن يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بخَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ قال: ﴿وَعَرْشُهُ عَلَى الماء. وعن طاوس اليماني قال: أدركت ما شاء الله من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يقولون: كُلّ شيء بقدر الله. وسمعت من عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «كُلُّ شَيْءٍ بقَدَرٍ حَتَى العَجْزُ والكَيْسُ أو الكَيْسُ والعَجْزُ»[٢].

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله: لا يؤمن بالله عبدٌ حتى يؤمن بأربع: يشهدُ أن لا إلهَ إلا اللَّه، وأَنِّي رسولُ الله بَعَثَنِي بالحقِّ ويؤمن بالبعث بعد الموت ويؤمن بالقَدَر. وزاد عُبَيْدُ الله: خَيْرِهِ وشَرِّهِ[٣]. وهذه الأدلة تبطل مذاهب القدرية.

قوله: «ذُوقُوا» فيه إضمار القول. وقرأ أبو عمرو ـ في[٤] رواية محبوب عنه ـ مَسَّقَرَ.

وخطَّأَهُ ابنُ مجاهد[٥]، وهو معذُورٌ؛ لأن السِّين الأخيرة من «مَسَّ» مدغم فيها فلا تدغم في غيرها لأنه متى أدغم فيها لزم تحريكها ومتى أدغمت هي لزم سكونها فتَنَافَى الجمعُ بينهما.

---

(١) وانظر تفسير الإمام ١٥/ ٧١.

(٢) وانظر في هذا تفسير القرطبي ١٧/ ١٤٧ والرازي السابق والبغوي ٦/ ٢٧٩ و٢٨٠.

(٣) البغوي المرجع السابق.

(٤) نسب أبو حيان هذه القراءة لمَحْبوب.

(٥) رَجَعْتُ إلى السبعة له فلم أجده تكلم عند هذه النقطة فقد نقل عنه أبو حيان ذلك، ولعل له كلاماً في كتاب آخر لم يصل إلينا.

قال أبو حيان: والظَّنُّ بأبي عمرو أنه لم يُدْغِمْ حتى حذفَ أحد الحرفين لاجتماع الأمثال ثم أدغم(١).

قال شهاب الدين: كلام ابن مجاهد إنما هو فيما قالوه أنه أدغم أما إِذا حَذَف وأدغم فلا إِشكال(٢).

و (سَقَرُ) علم لجهنّم أعَاذَنَا الله منها، مشتقة من سَقَرَتْهُ الشَّمْسُ والنارُ أي لَوَّحَتْهُ. ويقال: صَقَرَ بالصاد، وهي مبدلة من السين لأجل القاف. قال ذو الرمة:

٤٦١٢ ـ إِذَا ذَابَت الشَّمْسُ اتَّقَى صَقراتِهَا بِأَفْنَانِ مَرْبُوع الصَّرِيمَةِ مُعْبِلِ(٣)

و «سَقَرُ» متحتِّم المنع من الصرف؛ لأن حركة الوسط تنزلت منزلة الحرف الرابع، كعَقْرَبَ وزَيْنَبَ.

قال القرطبي: و «سقر» اسم من أسماء جهنم مؤنث لا ينصرف، لأنه اسم مؤنث معرفة وكذلك «لظى وجهنم». وقال عطاء: «سقر» الطابق السادس من النار. وقال قطرب: ويَوْمٌ مُسْمَقِرٌّ ومُصْمَقِرٌّ: شديد الحر(٤).

ومسها ما يوجد من الألم عند الوقوع فيها.

فصل

العامل في (يَوْمَ يُسْحَبُونَ) يحتمل أن يكون منصوباً بعامل مفهوم غير مذكور. وهذا العالم يحتمل أن يكون سابقاً وهو قوله: «إِنَّ المُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ». والعامل في الحقيقة على هذا الوجه أيضاً مفهوم من (فِي) كأنه فيه بمعنى كائن غير أن ذلك صار نَسْياً مَنْسيًا. ويحتمل أن يكون متأخراً وهو قوله: «ذُوقُوا» تقديره: «ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ يَوْمَ يُسْحَبُ المُجْرِمُونَ». والخطاب حينئذ مع من خوطب بقوله: «أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُوَلئِكُمْ أَمْ لَكُمْ». ويحتمل أن يكون منصوباً بالقول المقدر أي يُقَالُ لهم يَوْمَ يُسْحَبُونَ ذُوقوا. وهو المشهور.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٨٣ وفي مختصر ابن خالويه: مستقرٌّ. وأعتقد أنه لحن من الناسخ والمحقق معاً؛ فلم يَفْطنا إلى مقصود أبي عمرو. وانظر مختصر ابن خالويه ١٤٨.

(٢) نقله في الدر المصون له لوحة رقم ١٢٣.

(٣) من الطويل له وجاء به ليبين أنه من الإمكان أن نقول في سَقَرَ بالسين: (صَقَرَ) بالصاد كما يدل على ذلك «صقراتها» والصقر شدة وقع الشمس وحدّة حرِّها. ومربوع أصابه مَطَرُ الرَّبيع. ومُعْبِل إذا طلع وَرَقهُ. فالوحش يتقي حر الشمس بأفنان الأرطاة التي طلع ورقها وذلك حين يكنس في حمراء القيظ، وإنما يسقط ورقها إذ برد الزمان ولا يكنِس الوحش حينئذ ولا في حر الشمس. وانظر اللسان «عبل» ٢٧٨٩ و «صقر» ٢٤٧٠ و «ذوب» ١٥٢٤ و «ربع» ١٥٦٩ وأمالي القالي ١/ ١٤٤ والمنصف ٣/ ٩٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للعلامة القرطبي ١٧/ ١٤٧ وانظر اللسان «سقر وصقر».

والذوق استعارة للمبالغة لقوة الإدراك في الذَّوْقِ؛ فإن الإنسان يشارك غيره في اللَّمْس، ويُخْتَصُّ بإدراك المطعوم فيحصل الألم العظيم، والمعنى ذوقوا أيها المُكَذِّبُونَ بمحمد ﷺ ـ مَسَّ سَقَر يَوْم يُسحب المجرمون المتقدمون في النار[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّا كُل شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ﴾ العامة على نصب «كل» على الاشتغال. وأبو السَّمَّالِ بالرفع[٢] وقد رجح الناس ـ بل بعضُهُمْ أَوْجَبَ ـ النَّصب، قال: لأن الرفع يوهم ما لا يجوز على قواعد أهل السنة، وذلك أنه إذا رفع: «كل شيء» كان مبتدأ، و «خلقناه» صفة لـ «كُلّ» أو «شَيْء» و «بِقَدَرٍ» خبره[٣].

وحينئذ يكون له مفهومٌ لا يخفى على مُتَأَمِّلِهِ، فيلزم أن يكون الشيء الذي ليس مخلوقاً لله تعالى لا بقدر كذا قدره بعضهم. وقال أبو البقاء: وإنما كان النصب أولى لدلالته على عموم الخلق، والرفع لا يدل على عمومية بل يفيد أن كل شيء مخلوق فهو بقدر[٤].

وقال مكي بن أبي طالب: كان الاختيار على أصول البصريين رفع «كُلّ» كما أن الاختيار عندهم في قولك[٥]: «زَيْدٌ ضَرَبْتُهُ» الرفع والاختيار عند الكوفيين النصب فيه بخلاف[٦] قولنا: زَيْد أَكْرَمْتُهُ، لأنه قد تقدم في الآية شيء عمل[٧] فيما بعده وهو «إنَّ». والاختيار[٨] عندهم النصب فيه. وقد أجمع القراء على النصب في (كُلَّ) على الاختيار فيه عند الكوفيين ليدل[٩] ذلك على عموم الأشياء المخلوقات أنها لله تعالى[١٠] بخلاف ما قاله أهلُ الزَّيْغِ من أن ثَمَّ مخلوقاتٍ لغير الله تعالى. وإنما دل النصب في «كل» على

---

(١) قال بهذه التأويلات والاحتمالات فخر الدين الرَّازِيّ فقد نقل عنه المؤلف معنى من هذا التفسير وانظر التفسير الكبير ١٥/ ٧٢.

(٢) وهذه قراءة شاذة ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٠٠ والبحر المحيط ٨/ ١٨٣ وابن عطية فيما نقل عنه صاحب البحر المرجع السابق وابن خالويه في المختصر ١٤٨، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٤١، والقرطبي في الجامع ١٧/ ١٤٧. وغير ذلك.

(٣) قاله صاحب التبيان ١١٩٦.

(٤) التبيان المرجع السابق.

(٥) في مشكل الإعراب: قولهم.

(٦) وفيه: قوله.

(٧) وفيه: قد عمل فيما بَعْدَهُ.

(٨) في المشكل أيضاً: فالاختيار بالفاء.

(٩) وفيه: وليدل.

(١٠) وفيه: لله عزّ وجلّ.

العموم، لأن التقدير: إنّا خَلَقْنَا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَر «فخلقناه» تأكيد وتفسير «لِخَلَقْنَا» المضمر الناصب لـ «كُلَّ شَيْءٍ»[١] فهذا لفظ عام يَعُمُّ جميع المخلوقات.

ولا يجوز أن يكون «خَلَقْنَاهُ» صفة لـ «شَيْءٍ»؛ لأن الصفة والصلة لا يعملان قبل فيما قبل الموصوف ولا الموصول، ولا يكونان تفسيراً لما يعمل فيما قبلهما، فإذا لم يبق «خَلَقْنَاهُ» صفة لم يبق إلا أنّه تأكيدٌ وتفسيرٌ للمضمر الناصب وذلك يدل على العموم.

وأيضاً فإن النصب هو الاختيار[٢]؛ (لأن[٣] «إنَّا» عندهم تطلب الفعل، فهُو[٤] أولى به فالنصب عندهم في «كل» هو الاختيار) فإذا انضاف إليه معنى العموم والخروج[٥] عن الشبه كان النصب أولى[٦] من الرفع[٧].

وقال ابن عطيه وقومٌ من أهل السنة: بالرفع[٨]. قال أبو الفتح: هو الوجهُ في العربية[٩] وقراءتنا بالنصب مع الجماعة[١٠].

وقال الزمخشري: كل شيء منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر.

وقرىء: كُلُّ شَيْءٍ بالرفع. والقَدَرُ والقَدْرُ: التقديرُ[١١]. وقرىء بهما أي خَلَقْنَا كل شيء مقدَّراً محكماً مرتباً على حَسْب ما اقتضته الحكمة أو مقدراً مكتوباً في اللوح المحفوظ معلوماً قبل كونه قد علمنا حاله وزمانه انتهى.

وهو هنا يتعصب للمعتزلة لضعف وجه الرفع.

وقال قومٌ: إذا كان الفعل يتوهم فيه الوصف، وأن ما بعده يَصْلُحُ للخبر وكان المعنى على أن يكون الفعل هو الخبر اختار النصب في الاسم الأول حتى يتضح أن الفعل ليس بوصف. ومنه هذا الموضع، لأن قراءة الرفع تخيل أن النصب[١٢] وصف وأن الخبر: «بِقَدَرٍ»[١٣].

---

(١) في المشكل: «فإذا حَذَفْتَهُ وأظْهَرْتَ الأول صار التقدير: إنَّا خلقنا كُلَّ شيء (خلقناه) بقدر».

(٢) في المشكل: الاختيار عند الكوفيين.

(٣) ما بين القوسين سقط من نسخة ب بسبب انتقال النظرِ.

(٤) في المشكل: فهي أولى. أي إنَّا. وما بين القوسين كله سقط من ب.

(٥) وفيه: «من» بدلاً من «عن». (٦) وفيه: أقوى بدل من أولى.

(٧) وانظر في هذا الكلام كله نص مكي في مشكل الإعراب ٢/ ٣٤٠ و٣٤١. وانظر أيضاً البيان ٢/ ٤٠٦ والعكبري ١١٩٦، والقرطبي ١٧/ ١٤٧ والمحتسب ٢/ ٣٠٠.

(٨) نقله صاحب البحر المحيط ٨/ ١٨٣ والرازي.

(٩) قد تقدم كلامه قبل قليل. (١٠) المرجع السابق له.

(١١) نقله في كشافه ٤/ ٤١ وفي الكشاف: والتقدير بواو زائدة.

(١٢) الصحيح كما في ب والبحر والمنطق: الفعل.

(١٣) ولم يحدد أبو حيان من قال بهذا القول في البحر ٨/ ١٨٣.

وقد تنازع أهل السنة والقدرية في الاستدلال بهذه الآية، فأهل السنة يقولون: كُلّ شيء مخلوق لله تعالى، ودليلهم قراءة النصب؛ لأنه لا يفسر في هذا التركيب إلا ما يَصِحُّ أن يكون خبراً لو رفع الأول على الابتداء.

وقال القَدَريَّة: القراءة برفع «كل» و «خَلَقْنَاهُ» في موضع الصفة لـ «كُلّ» أي أمْرُنَا أو شَأْنُنَا كُلُّ شيء خَلَقْنَاه فهو بقدر أو بمقدار. وعلى حد ما في[1] هيئَتِهِ وزمنِهِ (وَغيْرِ ذَلِكَ)[2].

وقال بعض العلماء في القدر هنا وجوه:

أحدها: أنه المقدار في ذاته وفي صفاته.

الثاني: (أنه) التقدير لقوله: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣] وقال الشاعر:

٤٦١٤[3] ـ .... وَقَـدْ قَـدَرَ الـرَّحْـمَـنُ مَـا هُـوَ قَـادِرُ[4]

أي ما هو مقدِّر.

الثالث: القدر الذي يقال مع القضاء، كقولك: كَان بِقَضَاءِ اللَّهِ وقَدَرِهِ، فقوله: (بقَدَرٍ) على قراءة الناصب متعلق بالفعل الناصب[5]، وفي قراءة الرفع في محلّ رفع، لأنه خبرٌ لـ «كُلّ» و «كُلّ» وخبرها في محل رفع خبر «لإنَّ». وسيأتي قريباً أنه عكس هذه؛ أعني في اختيار الرفع وهي[6] قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾[7] [القمر: ٥٢]، فإنه يختلف في رفعه، قالوا: لأن نَصْبَه يؤدي إلى فساد المعنى لأن الواقع خلافه، وذلك أنك لو نصبته لكان التقدير: فَعلُوا كُلَّ شَيْءٍ فِي الزُّبُرِ. وهو خلافُ الواقع، إذ في الزبر أشياء كثيرة جداً لم يَفْعَلُوهَا. وأما قراءة الرفع فتؤدي إلى أن كل شيء فعلوه هو ثابتٌ في الزُّبُرِ. وهو المقصود فلذلك اتفق على رَفْعِهِ.

وهذان الموضعان من نُكَت المسائل الغَريبة التي اتُّفِقَ مجيئُها في سورة واحدةٍ ومَكَانَيْن مُتَقَارِبَيْن، ومما يدل على جلالة علم الإعراب وإفهامِهِ المعانيَ الغَامِضَة.

---

(١) في ب ماهيته وفي البحر: على حد ما في هيئته وزمنه وانظر البحر ٨/ ١٨٣.

(٢) زيادة لتجميل السياق وتوضيحه.

(٣) سقط سهواً عند الترقيم الرقم ٤٦١٣.

(٤) عجز بيت من الطويل نسبه صاحب اللسان إلى إياس بن مالك بن عبد الله المعنيّ صدره:

.... كِـلاَ ثَـقَـلَـيـنـا طَـامِـعٌ بِـغَـنِـيـمَـةٍ

وجاء بالبيت ليبين أن القدر بمعنى التقدير. وانظر الرازي ١٥/ ٧٤، والبحر المحيط ٨/ ١٨٣ واللسان «قدر» ٣٥٤٨.

(٥) وهو «خَلَقْنَاهُ».

(٦) في ب هو.

(٧) وانظر معنى القدر في الرازي ١٥/ ٧٤ والبحر ٨/ ١٨٣.

فصل

قال أهل السنة: إن الله تعالى قدر الأشياء أَيْ أي علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها ثم أوجد منها ما سبق في علمه فلا محدث في العالم العلويّ والسفليّ إلا وهو صادرٌ عن علمِهِ تعالى وقدرتِهِ وإرادته دون خلقه، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوعُ اكتساب ومحاولةٍ ونسبةٍ وإضافةٍ، وأن ذلك كله إنما جُعِلَ لهم بتيسير الله وبقدرة الله وإلهامه سبحانه وتعالى لا إله إلا هو ولا خالقَ غيره كما نص عليه القرآن والسنة. لا كما قال القَدَريَّة وغيرهمُ من أن الأعمال إلينا، والآجال بيد غيرِنا.

قال أبو ذرٍّ: قَدِمَ وَفْد نَجْرَانَ على رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا: الأعمال إلينا والآجال بيد غيرِنا، فنزلت هذه الآيات إلى قوله: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» فقالوا يا محمد: يكتب علينا الذنب ويعذبنا؟ فقال: أنتم خصماء الله يَوْمَ القيامة.

فصل

روى أبو الزُّبَيْر عن جابرِ بنِ عبد الله قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: إنَّ مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ المُكَذِّبُونَ لِقَدَرِ اللَّهِ[١]، إنْ مَرِضُوا فَلاَ تَعُودُوهُم وإنْ مَاتُوا فَلاَ تَشْهَدُوهُم وإنْ لَقِيتُمُوهم فَلاَ تُسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ. أخرجه ابن ماجه في سننه. وخرج أيضاً عن ابن عباس وجابر قالا: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَيْسَ لهم في الإِسْلاَمِ نَصِيبٌ أَهْلُ الإِرْجَاء والقَدَر».

قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ﴾ أي إلا كلمة واحدة وهو قوله «كُنْ». «كَلَمْحٍ بِالبَصَرِ» أي قضائي في خلقي أسرع من لمح البصر. واللمح: النظر بالعَجَلة يقال: لَمَحَ البَرْق بَبَصَره؛ وفي الصحاح: لَمَحَهُ وأَلْمَحَهُ إذا أبصره بنظرٍ خفيف، والاسم اللَّمْحَة، ولَمَحَ البَرْقُ والنَّجْمُ لَمحاً، أي لَمَعَ[٢].

قال البغوي: قوله «وَاحِدَةٌ» يرجع إلى المعنى دون اللفظ أي وما أمرنا إلا واحدة.

وقيل: معناه وأما أمرنا للشيء إذا أردنا تكوينه إلا كلمة واحدة[٣] كما تقدم، وهي رواية عَطَاءٍ عن ابْن عبَّاس، وروى الكلبي عنه: وما أمرنَا بمجيء الساعة في السرعة إلاَّ كَطَرْف البَصَر[٤].

فصل

قال ابن الخطيب: إنَّ الله تعالى إذا أراد شيئاً قال له: كُنْ فهناك شيئان الإرادة والقَوْل، فالإرادة قَدَر، والقول قضاء، وقوله: «وَاحِدَةٌ» يحتمل أمرين:

---

(١) في القرطبي: بأقدار اللهِ.

(٢) وانظر في هذا كله القرطبي ١٧/١٤٨ واللغة فيه وفي الصحاح لمح.

(٣) وهي: «كن فيكون». (٤) وانظر البغوي ٦/ ٢٨٠.

أحدهما: بيان أنه لا حاجة إلى تكرير القول إشارة إلى نَفَاذِ القَوْل[١].

ثانيهما: بيان عدم اختلاف الحال فأمره عند خلق العرش العظيم كأمره عند خلق النَّمْلَة الصغيرة فأمره عند الكل واحد. وقوله: «كَلَمْحٍ بالبَصَرِ» تشبيه للكون لا تشبيه الأَمْر، فكأنه قال: أمرنا واحدة، فإذا المأمور كائنٌ كلمح بالبصر، لأنه لو كان راجعاً إلى الأمر لا يكون ذلك صفة مدح يليق به، فإن كلمة «كُنْ» شيء أيضاً يوجد كلمح بالبصر[٢]. ومعنى «كَلَمْحٍ بالبَصَرِ» أي كنَظَر العَيْن. والباء للاستعانة مثل: كَتَبْتُ بالقَلَم، دخلت على الآلة ومثل بها؛ لأنها أسرع حركة في الإنسان؛ لأن العين وجد فيها قرب المحرَّك منها، ولا يفضل عليه بخلاف العِظام، واستدارة شكلها، فإن دَحْرَجَةَ الكُرَة أسرع من دحرجة المُثَلَّثِ والمربَّع، ولأنها في رُطُوبةٍ مخلوقة في العضو الذي هو موضعها، وهو الحكمة في كثرة المرئيَّات بخلاف المأكولات والمسموعات والمفاصل التي تُفْصَل بالأرجل والمذُوقات فلَوْلاَ سرعة حركة الآلة التي بها إدراك المبْصرات لما وصل إلى الكل إلا بعد طول بَيَان.

وقيل: معنى: «كلمح بالبصر» البرق يمر به سريعاً، فالباء تكون للإلصاق، نحو: مَرَرْتُ بِهِ، وفي قوله: «كَلَمْحٍ بِالبَصَرِ» ولم يقل: كلمح البرق فائدةٌ، وهي أن لَمْحَ البرق له مبدأً ونهاية فالذي يمر بالبصر منه يكون أدل من جملته مبالغة في القلة، ونهاية السرعة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم السابقة.

وقيل: أتباعكم وأعوانكم.

«فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ»، أي يتذكر ويعلم أن ذلك حق فيخاف ويعتبر.

(قوله) «وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُر» أي جميع مَا فَعَلَتْهُ الأمم قبلهم من خير وشر فإنه مكتوب عليهم أي في كتب الحفظة. وقيل: في اللوح المحفوظ[٤].

وقيل: في أم الكتاب. قال القرطبي: وهذا بيان لقوله: «إِنَّا كُلَّ شيءٍ خَلَقناهُ بِقَدَرٍ» أي «في الزُّبُرِ» أي في اللوح المحفوظ[١].

قوله: «وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطرٌ» أي كل صغير وكبير مكتوب على عامله قبل أن يفعلوه.

وقرأ العامة مُسْتَطَرٌ بتخفيف الراء من السَّطْر وهو الكَتْب أي مُكْتَتَبٌ يقال: سَطَرْتُ واسْتَطَرْتُ وكَتَبْتُ وَاكْتَتَبْتُ وقرأ الأعمش وعِمْرَانُ بنُ حُدَيْر ـ وتروى عن عاصمٍ ـ بتشديدها[٥]، وفيه وجهان:

---

(١) في الرازي: نافذ الأمر. (٢) الرازي ١٥/ ٧٥.
(٣) بالمعنى من المرجع السابق أيضاً ١٥/ ٧٨. (٤) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٤٩.
(٥) قراءة شاذة ذكرها صاحب البحر المحيط ٨/ ١٨٥ وصاحب المختصر ١٤٨.

أحدهما: أنه مشتق من طَرّ الشاربُ والنباتُ أي ظَهَرَ وثَبَتَ بمعنى أن كل شيء قَلّ أو كَثُر ظاهرٌ في اللّوح غير خفي، فوزنه مُسْتَفْعَلٌ كمُسْتَخْرجٍ.

والثاني: أنه من الاسْتِطَار كقراءة العامة، وإنما شددت الراء من أجل الوقوف كقولهم: هذا جَعْفَرّ ونفعلّ، ثم أجري الوصل مجرى[(١)] الوقف فوزنه مُفْتَعَلٌ كقراءة الجمهور.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ**﴾ العامة بالإفراد، وهو اسم جنس بدليل مقارنته للجمع والهاء مفتوحة كما هو الفصيح.

وسكّنها مجاهدٌ والأعرج وأبو السَّمَّال «والفَيَّاض»[(٢)]. وهي لغة تقدم الكلام عليها أول البقرة.

قال ابن جُرَيْجٍ: معنى (نهر) أنهار الماء والخَمْر والعَسَل. ووُحِّدَ؛ لأنه رأس آية. ثم الواحد قد ينبىء عن الجمع[(٣)]. وقال الضحاك ليس المراد هنا نهر الماء، وإنما المراد سَعَةُ الأرزاق[(٤)]؛ لأن المادة تدل على ذلك كقول قَيْس بن الخَطِيم:

٤٦١٥ ـ مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا   يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا[(٥)]

أي وسعته. ومنه: أَنْهَرْتُ الجُرْحَ. ومنه: النَّهَار، لضيائه.

وقرأ أبو نهيك وأبو مجْلَز والأعمش وزهير الفُرْقُبيّ ـ ونقله القرطبي أيضاً عن طَلْحَة بن مُصَرِّف والأعرج وقتادة ـ: «ونُهُر» بضم النون والهاء[(٦)] وهي تحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون نهر بالتحريك وهو الأولى نحو: أُسُد في أَسَدٍ.

---

(١) نقل هذين الوجهين صاحب البحر المحيط عن صاحب اللوامح ٨/ ١٨٥، وعِمْرانُ بن حُدَيْر: السدوسي البصري، ثقة، روى الحروف عن لاحقِ بْن حُمَيْد، وعِكْرمةَ روى عنه الحروفَ عبّاسُ بن الفضل. مات في سنة ١٤٩ هـ. وانظر الغاية ١/ ٦٠٤.

(٢) هو الفيّاضُ بن غَزوان كما ذكره صاحب البحر. وهذه قراءة شاذة. انظر البحر المحيط ٨/ ١٨٤ وابن خالويه في المختصر ١٤٨. وفياض بن غزوان الضَّبي الكوفي مقرىء موثق، أخذ القراءة عرضاً عن طلحة بن مصرف. وسمع من زبيد اليامي، روى الحروف عنه طلحة بن سليمان، وانظر الغاية ٢/ ١٣.

(٣) القرطبي ١٧/ ١٤٩.

(٤) نقله صاحب البحر المرجع السابق.

(٥) من الطويل له وهو في الديوان ص ٣ بلفظ: تَرى قَائِماً من خلفها. ونسبه صاحب الدر المنثور للبيد.

والشاهد في: انْهَرْتُ أي وَسَّعْتُ. ومعنى: ملكت: شددت وقويت. وهو يصف طعنة. وانظر البحر ٨/ ١٨٤. والقرطبي ١٧/ ١٤٩ وروح المعاني ٢٧/ ٩٥ والدر المنثور ٧/ ٦٨٧، وتأويل المشكل ١٧٤ واللسان «نهر» ٤٥٥٦.

(٦) الجامع لأحكام القرآن له ١٧/ ١٤٩ و١٥٠. وهي شاذة وانظر المختصر ١٤٨.

والثاني: أن يكون جمع الساكن نحو: سُقُف في سَقْفٍ، ورُهُن في رَهْن. والجمع مناسب للجمع قبله في جَنَّات[١]. وقراءة العامة بإفراده أبلغ، وقد تقدم كلام ابن عباس في قوله تعالى آخر البقرة ﴿وَمَلائكته وكتابه﴾ [البقرة: ٢٨٥] بالإفراد أنه أكثر من الكُتُب، وتقدم أيضاً تقرير الزمخشري لذلك[٢]. قال القرطبي (رحمةُ الله عليه)[٣] كأنه جمع نهار لا ليل لهم كسَحَاب وسُحُب[٤]. قال الفراء: أنشدني بعض العرب:

٤٦١٦ ـ إِنْ تَكُ لَيْلِيًّا فَإِنِّي نَهِرُ ... مَتَى أَرَى الصُّبْحَ فَلاَ أَنْتَظِرُ[٥]

أي صاحب النهار. وقال آخر:

٤٦١٧ ـ لَوْلاَ الثَّرِيدُ إِنْ هَلَكْنَا بِالضُّمُرْ ... ثَرِيدُ لَيْلٍ وَثَرِيدٌ بِالنُّهُرْ[٦]

فصل

لما وصف الكفار وصف المؤمنين أيضاً، فقال: «إِنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ» الجنات: اسم للأشجار أي هم خلالها وكذلك الأنهر، والمعنى: جنات وعند عيون كقوله:

٤٦١٨ ـ عَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بَارِداً ... .[٧]

وجمعت الجنات إشارة إلى سَعَتِها وتنوعها، وأفرد النَّهَر؛ لأن المعنى في خلاله، فاستغني عن جمعه، وجمع في قوله: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ» لئلا يتوهم أنه ليس في الجنة إلاّ نهر فيه. والتنكير فيه للتعظيم.

---

(١) نقله أبو حيان في البحر ٨/ ١٨٤.

(٢) قال الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٠٧: «وقرأ ابنُ عباس وكِتَابِهِ يريد القرآن أو الجنس وعنه الكتاب أكثر من الكتب. فإن قلتَ: كيف يكون الواحد أكثر من الجمع؟ قلتُ: لأنه إذا أريد بالواحد الجنس والجنسية قائمة في وحدان الجنس كلها لم يخرج منه شيء فأما الجمع فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من الجموع».

(٣) زيادة من أ. (٤) الجامع ١٧/ ١٥٠.

(٥) من الرجز وفي الطبري: «متى أتى» بدل «متى أرى». والبيت مجهول قائله. والشاهد في: نهر أي صاحب النهار فهو في مقابلة «لَيْلِيًّا». وانظر البيت في القرطبي ١٧/ ١٥٠ واللسان «نهر» ٤٥٥٧ والطبري ٢٧/ ٦٧ دار المعرفة ومعاني الفراء ٣/ ١١١.

(٦) كسابقه في البحر والجهل بقائله. وشاهده في كلمة: بالنُّهُر فإنه بمعنى النَّهار، أو جمع نهار كسَحَابٍ وسُحُب، وانظر اللسان «نهر» ٤٥٥٧ والقرطبي ١٧/ ١٥٠. وروى البيت صاحب التهذيب والصحاح كما يلي:

لَوْلاَ الثَّرِيدُ إِنْ لَمِتْنَا بِالضُّمُرْ

انظر التهذيب والصحاح «نهر».

(٧) صدر بيت من الرجز عجزه:

حَتَّى شَتَتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا

والشاهد: إضمار الفعل للتناسب أي عَلَفْتُهَا تِبْناً وسَقَيْتُهَا ماءاً. وقد تقدم.

قوله: «فِي مَقْعَدِ» يجوز أن يكون خبراً ثانياً وهو الظاهر، وأن يكون حالاً من الضمير في الجار لوقوعه خبراً، وجوّز أبو البقاء[1]: أن يكون بدلاً من قوله: «فِي جَنَّاتٍ». وحينئذ يجوز أن يكون بدلَ بعض، لأن المقعد بعضها، وأن يكون اشتمالاً، لأنها مشتملة، والأول أظهر. والعامة على إفراد مَقْعَدِ مراداً به الجنس كما تقدم في: «نَهَر». وقرأ عُثْمَانُ[2] البَتِّيُّ: مَقَاعِدَ[3]. وهو مناسب للجمع قبله.

و «مَقْعَدُ صِدْقٍ» من باب رَجُلُ صِدْقٍ في أنه يجوز أن يكون من إضافة الموصوف لصفته والصدق يجوز أن يراد به ضد الكذب أي صدقوا في الإخبار عنه. وأن يراد به الجَوْدَة والخَيْرِيَّة. وَمَلِيكٍ مثال مُبالغة، وهو مناسب هنا ولا يتوهم أن أصله «ملك»؛ لأنه هو الوارد في غير موضع وأن الكسرة أُشْبِعَتْ فتولد منها ياء؛ لأن الإشباع لم يرد إلا ضرورةً أو قليلاً وإن كان قد وقع في قراءة هشام: ﴿أفئدة﴾ [إبراهيم: ٤٣] في آخر إبراهيم. فَلْيُلْتفَتْ إليه.

فصل

قال: في مقعد صدق ولم يقل: في مجلس صدق؛ لأن القعود جلوس فيه مكثٌ ومنه: «قَوَاعِدَ البَيْتِ» [و] ﴿وَٱلْقَوَاعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٦٠]، ولا يقال جوالس فأشار إلى دَوَامِهِ وثَبَاتِهِ، ولأن حروف «ق ع د» كيف دارتْ تدل على ذلك والاستعمال في القعود يدل على ذلك ومنه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥]، وقوله ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إشارة إلى الثبات وكذا قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، فذكر المقعد لدوامه أو لطوله وقال في المجلس: ﴿تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ [المجادلة: ١١] إشارة إلى الحركة، وقال ﴿ٱنشُزُواْ﴾ [المجادلة: ١١] إشارة إلى ترك الجلوس أي هو مجلس فلا يجب ملازمته بخلاف المقعد[4].

فصل

قال المفسِّرون: في مقعد صدق أي حق لا لغو فيه ولا تأثيم «عندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ» أي مالك قادر لا يعجزه شيء و«عِنْدَ» ههنا عندية القُرْبَة والزُّلْفَةِ والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة. قال (جَعفرُ) الصادق: مَدَحَ الله المكانَ بالصِّدق فلا يقع فيه إلا أهل الصدق[5].

---

(١) التبيان ١١٩٦. (٢) لم أقف عليه.

(٣) وهي شاذة وانظر البحر ٨/ ١٨٤، والقرطبي ١٧/ ١٥٠.

(٤) بالمعنى من الرازي ١٥/ ٨٢.

(٥) وانظر القرطبي ١٧/ ١٥٠ والبغوي والخازن ٦/ ٢٨١.

وروى الثعلبي في تفسيره عن أبيّ بن كعب (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ اقْتَرَبَت السَّاعَةُ فِي كُلّ غِبٍّ بُعِثَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَوَجْهُهُ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ[1]. وَمَنْ قَرَأَهَا كُلَّ لَيْلَةٍ كَانَ أَفْضَلَ وَجَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَوَجْهُهُ مُسفرٌ عَلَى وُجُوهِ الخَلاَئِقِ».

(اللّهُمّ ارحمْنا، وارزقْنَا واسْتُرْنَا)[2]. (واللَّهُ أَعْلَمُ)[3].

---

(١) رواه الزمخشري في الكشاف ٤/ ٤٢ ومن هنا إلى الآخر لم يَرِدْ في الكشاف.

(٢) ما بين القوسين الكبيرين زيادة من أ.

(٣) زيادة من ب فقط.

سورة «الرحمٰن»

مكية كلها في قول الحسن، وعروة بن الزبير، وعكرمة، وعطاء، وجابر.

وقال ابن عباس: إلا آية منها[1]، وهي قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٢٩] الآية.

وقال ابن مسعود ومقاتل: هي مدنية كلها[2].

والأول أصح، لما روى عروة بن الزبير، قال: أول من جهر بالقرآن بـ «مكة» بعد النبي ﷺ ابن مسعود[3]، وذلك أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قالت: ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قطّ، فمن رجل يسمعموه، فقال ابن مسعود: أنا، فقالوا: نخشى عليك، وإنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه، فأبى ثم قام عند المقام، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم. «الرحمن، علَّم القرآن» ثم تمادى بها رافعاً صوته، وقريش في أنديتها، فتأملوا، وقالوا: ما يقول ابن أم عبد؟ قالوا: هو يقول: الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه، ثم ضربوه حتى أثروا في وجهه.

وصح أن النبي ﷺ قام يصلي الصبح بـ «نخلة»، فقرأ سورة «الرحمن»، ومر النفير من الجن فآمنوا به[4].

---

(١) وقد ورد أيضاً أنها مكية عن عائشة وعبد الله بن الزبير ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٨٩) وعزاه إلى ابن مردويه في «تفسيره» وينظر تفسير «النكت والعيون» للماوردي (٥/ ٤٢٢).

(٢) وروي أيضاً عن ابن عباس ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٨٩) وعزاه إلى ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في «دلائل النبوة» وينظر تفسير الماوردي (٥/ ٤٢٢).

(٣) ذكره ابن إسحاق في السيرة كما في «الإصابة» (٤/ ١٢٩) عن عروة بن الزبير وله طريق آخر أخرجه الطبراني كما في «المجمع» (٥/ ٢٧٤) عن القاسم بن عبد الرحمن بلفظ: أول من أفشى القرآن بعد رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود وقال الهيثمي: رواه الطبراني وإسناده منقطع.

(٤) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٥٦) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٦) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وابن منيع وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي كليهما في «الدلائل» من حديث عبد الله بن مسعود.

وهي ثمان وسبعون آية، وثلاثمائة وإحدى وخمسون كلمة، وألف وستمائة وستة وثلاثون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾

قال تعالى: «الرَّحْمن» فيه ثلاثة أوجه(١):

أحدها: أنه خبر مبتدأ مضمر، أي: «الله الرحمن».

الثاني: أنه مبتدأ وخبره مضمر، أي: «الرحمن ربنا» وهذان الوجهان عند من يرى أن «الرحمن» آية مع هذا المضمر معه، فإنهم عدُّوا الرحمن «آية».

ولا يتصور ذلك إلا بانضمام خبر أو مخبر عنه إليه؛ إذ الآية لا بد أن تكون مفيدة، وسيأتي ذلك في قوله: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الآية: ٦٤].

الثالث: أنه ليس بآية، وأنه مع ما بعده كلام واحد، وهو مبتدأ، خبره «عَلَّم القُرْآنَ».

فصل في بيان مناسبة السورة

افتتح السورة التي قبلها بذكر معجزة تدل على القهر [والغلبة](٢) والجبروت، وهو انشقاق القمر، فمن قدر عليه قدر على قطع الجبال وإهلاك الأمم، وافتتح هذه السورة بذكر معجزة تدلّ على الرحمة، وهي القرآن، وأيضاً فأولها مناسب لآخر ما قبلها؛ لأن آخر تلك أنه﴿مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] وأول هذه أنه رحمن.

قال بعضهم(٣): إن «الرحمن» اسم علم، واحتج بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وأجاز أن يقال: «يالرحمن» باللام، كما يقال: «يا الله» وهذا ضعيف، وهو مختص بالله تعالى، فلا يقال لغيره(٤).

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/٢٣٥، والرازي ٢٩/٧٥.

(٢) سقط في ب.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/٧٣.

(٤) أما قوله الله مع الألف واللام اسم علم ففيه بعض الضعف وذلك لأنه لو كان كذلك لكانت الهمزة فيه أصلية، فلا يجوز أن تجعل وصلية، وكان يجب أن يقال خلق الله كما يقال علم أحمد وفهم إسماعيل، بل الحق فيه أحد القولين إما أن نقول إله أو لاه اسم لموجد الممكنات اسم علم، ثم=

قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبي: «الرحمن» فاتحة ثلاثة سور إذا جمعن كن اسماً من أسماء الله تعالى: «الر» و «حم» و «نون»، فيكون مجموع هذه «الرحمن»(١).

ولله ـ تعالى ـ رحمتان:

رحمة سابقة بها خلق الخلق، ورحمة لاحقة بها أعطاهم الرزق والمنافع، فهو رحمن باعتبار السَّابقة، رحيم باعتبار اللاحقة، ولما اختص بالإيجاد لم يقل لغيره: رحمن، ولما تخلق بعض خلقه الصالحين ببعض أخلاقه بحسب الطَّاقة البشرية، فأطعم ونفع، جاز أن يقال له: رحيم.

قوله: «عَلَّم القُرآن». فيه وجهان(٢):

أظهرهما: أنه «علم» المتعدية إلى اثنين أي عرف من التعليم، فعلى هذا المفعول الأول محذوف.

قيل: تقديره: علم جبريل القرآن.

وقيل: علم محمداً.

وقيل: علم الانسان، وهذا أولى لعمومه، ولأن قوله: «خَلَقَ الإنْسان» دال عليه.

والثاني: أنها من العلامة، والمعنى: جعله علامة، وآية يعتبر بها(٣)، أي: هو

= استعمل مع الألف واللام كما في الفضل والعباس والحسن والخليل، وعلى هذا فمن سمى غيره إلهاً فهو كمن يستعمل في مولود له فيقول لابنه محمد وأحمد وإن كانا علمين لغيره قبله في أنه جائز من سمى ابنه لم يكن له من الأمر المطاع ما يمنع الغير عن التسمية به ولم يكن له الاحتجار وأخذ الاسم لنفسه أو لولده. بخلاف الملك المطاع إذا استأثر لنفسه اسماً لا يستجرىء أحد ممن تحت ولايته ما دام له الملك أن يسمي ولده أو نفسه بذلك الاسم خصوصاً من يكون مملوكاً لا يمكنه أن يسمي نفسه باسم الملك ولا أن يسمي ولده به، والله تعالى ملك مطاع وكل من عداه تحت أمره فإذا استأثر لنفسه اسماً لا يجوز للعبيد أن يتسموا بذلك الاسم، فمن يسمي فقد تعدى فالمشركون في التسمية متعدون، وفي المعنى ضالون وإما أن نقول إله أو لاه اسم لمن يعبد والألف والام للتعريف، ولما امتنع المعنى عن غير الله امتنع الاسم، فإن قيل فلو سمى أحد ابنه به كان ينبغي أن يجوز؟ قلنا لا يجوز لأنه يوهم أنه اسم موضوع لذلك الابن لمعنى لا لكونه علماً، فإن قيل تسمية الواحد بالكريم والودود جائزة قلنا كل ما يكون حمله على العلم وعلى اسم لمعنى ملحوظ في اللفظ الذكري لا يفضي إلى خلل يجوز ذلك فيه فيجوز تسمية الواحد بالكريم والودود ولا يجوز تسميته بالخالق والقديم، لأن على تقدير حمله على أنه علم غير ملحوظ فيه المعنى يجوز، وعلى تقدير حمله على أنه اسم لمعنى هو قائم به كالقدرة التي بها بقاء الخلق أو العدم فلا يجوز، لكن اسم المعبود من هذا القبيل فلا يجوز التسمية به، فأحد هذين القولين حق وقولهم مع الألف واللام علم ليس بحق. إذا عرفت البحث في الله فما يترتب عليه، وهو أن الرحمن اسم على أضعف منه، وتجويز يا الرحمن أضعف من الكل. ينظر الرازي ٢٩/ ٧٣ ـ ٧٤.

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ٤٢٣). (٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٣٥.

(٣) ضعّف هذا الرأي العلامة أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ١٨٧ فقال: وأبعد من ذهب إلى أن معنى «علم القرآن» جعله علامة وآية يعتبر بها.

علامة النبوة ومعجزة، وهذا مناسب لقوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]. على ما تقدم أنه ذكر في أول تلك السورة معجزة من باب الهيبة، وذكر في هذه السورة معجزة من باب الرحمة، وهو أنه يسر من العلوم ما لا يسره غيره، وهو ما في القرآن، أو يكون بمعنى أنه جعله بحيث يعلم كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]، فالتعليم على هذا الوجه مجاز كما يقال لمن أنفق على متعلم وأعطى أجرة معلمه: علمته.

فإن قيل: لم ترك المفعول الثاني؟.

فالجواب: أن ذلك إشارة إلى أن النعمة في التعليم لا تعليم شخص دون شخص؛ فإن قيل: كيف يجمع بين هذه الآية، وبين قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]؟ فالجواب: إن قلنا بعطف الرَّاسخين على «الله» فظاهر.

وإن قلنا بالوقف على الجلالة، ويبتدأ بقوله: «والرَّاسِخُون» فلأن من علم كتاباً عظيماً فيه مواضع مشكلة قليلة، وتأملها بقدر الإمكان، فإنه يقال: فلان يعلم الكتاب الفلاني، وإن كان لم يعلم مراد صاحب الكتاب بيقين في تلك المواضع القليلة، وكذا القول في تعليم القرآن، أو يقال: المراد لا يعلمه من تلقاء نفسه، بخلاف الكتب التي تستخرج بقوّة الذكاء.

فصل في نزول هذه الآية

قال المفسرون: نزلت هذه الآية حين قالوا: وما الرحمن؟.

وقيل: نزلت جواباً لأهل «مكة» حين قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وهو رحمن «اليمامة»، يعنون: مسيلمة الكتاب فأنزل الله ـ تعالى ـ «الرحمن، علَّم القُرآن» أي: سهله لأن يذكر ويُقرأ.

كما قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ٢٢].

قوله تعالى[١]: «خلق الإنسان».

قال ابن عباس وقتادة، والحسن: يعني آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قوله: «علَّمهُ البَيانَ» علمه أسماء كل شيء.

وقيل: علمه اللغات كلها، وكان آدم يتكلم بسبعمائة ألف لغة أفضلها العربية. وعن ابن عباس أيضاً، وابن كيسان: المراد بالإنسان هنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام[٢] ـ والمراد من البيان بيان الحلال من الحرام، والهدى من الضلالة.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٢) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٠) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وذكره أيضاً عن ابن جريج وعزاه إلى ابن المنذر.

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٦٧).

وقيل: ما كان وما يكون؛ لأنه ينبىء عن الأولين، والآخرين، ويوم الدين.

وقال الضحاك: «البيان»: الخير والشر وقال الربيع بن أنس: هو ما ينفعه مما يضره.

وقيل: المراد بـ «الإنسان» جميع الناس، فهو اسم للجنس، والبيان على هذا الكلام: الفهم وهو مما فضل به الإنسان على سائر الحيوان.

قال السدي: علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به(١).

وقال يمان: الكتابة والخط بالقلم نظيره ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤، ٥].

فصل في كيفية النظم

إنه علم الملائكة أولاً، ثم خلق الإنسان، وعلمه البيان، فيكون ابتدأ بالعلوي، وقابله بالسفلي، وقدم العلويات على السفليات، فقال: «علم القرآن» إشارة إلى تعليم العلويين.

ثم قال: «خَلَقَ الإنسانَ، علَّمهُ البيانَ» إشارة إلى تعليم السفليين، وقال: «الشمس والقمر بحسبان» [في العلويات](٢) «والنجم والشجر يسجدان» [في السفليات](٣).

ثم قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧]، وفي مقابلتها ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ [الرحمن: ١٠].

فصل في وصل هذه الجمل

هذه الجمل من قوله: «عَلَّمَ القُرآنَ، خلق الإنسَانَ، علَّمه البيان» جيء بها من غير عاطف؛ لأنها سيقت لتعديد نعمه، كقولك: «فلان أحسن إلى فلان، أشاد بذكره، رفع من قدره» فلشدة الوصل ترك العاطف، والظاهر أنها أخبار(٤).

وقال أبو البقاء(٥): و «خَلَقَ الإنسَانَ» مستأنف، وكذلك «عَلَّمَهُ»، ويجوز أن يكون حالاً من الإنسان مقدرة، وقدَّر معها مرادة انتهى.

وهذا ليس بظاهر، بل الظاهر ما تقدم، ولم يذكر الزمخشري غيره(٦).

فإن قيل: لم قدم تعليم القرآن للإنسان على خلقه، وهو متأخر عنه في الوجود؟.

---

(١) ينظر تفسير البغوي (٤/ ٢٦٧).

(٢) سقط من ب. (٣) سقط في ب.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٨٧، الدر المصون ٦/ ٢٣٥.

(٥) ينظر الإملاء ٢/ ١١٩٧، الدر المصون ٦/ ٢٣٥.

(٦) ينظر الكشاف ٤/ ٤٤٣، والدر المصون ٦/ ٢٣٥، والبحر المحيط ٨/ ١٨٧.

فالجواب: لأن التعليم هو السبب في إيجاده وخلقه.

فإن قيل: كيف صرح بذكر المفعولين في «علَّمهُ البَيانَ»، ولم يصرح بهما في «علَّم القُرآن»؟.

فالجواب: أن المراد من قوله «علَّمه البَيَانَ» تعديد النِّعم على الإنسان، واستدعاء للشكر منه، ولم يذكر الملائكة؛ لأن المقصود ذكر ما يرجع إلى الإنسان.

فإن قيل: بأنه علم الإنسان القرآن.

فيقال: بأن ذكر نعمة التعليم وعظمها على سبيل الإجمال، ثم بين كيفية تعليمه القرآن، فقال: «خَلق الإنسان علَّمهُ البيَانَ».

واستدلّ بعضهم بهذه الآية على أن الألفاظ توقيفية[(١)].

قوله: «الشمس والقمر بحسبان» فيه ثلاثة أوجه[(٢)]:

أحدها: أن الشمس مبتدأ، و «بِحُسْبَان» خبره على حذف مضاف، تقديره: جري الشمس والقمر بحسبان، أي كائن، أو مستقر، أو استقر بحُسْبَان.

الثاني: أن الخبر محذوف يتعلق به هذا الجار، تقديره: يجريان بحُسْبَان.

وعلى هذين القولين، فيجوز في الحسبان وجهان:

أحدهما: أنه مصدر مفرد بمعنى «الحُسْبان»، فيكون كـ «الشُّكْران» و «الكُفْران».

والثاني: أنه جمع حساب، كـ «شهاب» و «شُهْبَان».

والثالث: أن «بحسبان» خبره، و «الباء» ظرفية بمعنى «في» أي: كائنان في حسبان. وحسبان على هذا اسم مفرد، اسم للفلك المستدير، مشبهة بحسبان الرَّحَى الذي باستدارته تدور الرّحى.

---

(١) قال الرازي ٢٩/٧٦ ويحتمل أن يتمسك بهذه الآية على أن اللغات توقيفية حصل العلم بها بتعليم الله.
ينظر: البرهان لإمام الحرمين ١/١٦٩، البحر المحيط للزركشي ٢/٥، الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ١/٧٠، سلاسل الذهب للزركشي ص ١٦٣، التمهيد للإسنوي ص١٣٥، نهاية السول له ٢/١١، زوائد الأصول له ص ٢١١، منهاج العقول للبدخشي ١/٢٢٠، غاية الوصول للشيخ زكريا الأنصاري ص ٤١، التحصيل من المحصول للأرموي ١/١٩٣، والمحول للغزالي ص ٧٠، المستصفى له ١/٣١٨، حاشية البناني ١/٢٦٩، الإبهاج لابن السبكي ١/١٩٤، الآيات البينات لابن قاسم العبادي ٢/٦٠، حاشية العطار على جمع الجوامع ١/٣٥٢، الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ١/٤٢، التحرير لابن الهمام ص ١٦، تيسير التحرير لأمير بادشاه ١/٤٩، حاشية التفتازاني والشريف على مختصر المنتهى ١/١١٥، تقريب الوصول لابن جزي ص ٧١، نشر البنود للشنقيطي ١/١٠٤، فواتح الرحموت لابن نظام الدين الأنصاري ١/١٧٧، شرح الكوكب الصغير للفتوحي ص ٢٨.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/٢٣٦، البحر المحيط ٨/١٨٧.

فصل

لما ذكر خلق الإنسان وإنعامه عليه لتعليمه البيان، ذكر نعمتين عظيمتين، وهما: الشمس والقمر، وأنهما على قانون واحد وحسابٍ[١] لا يتغيران، وبذلك تتم منفعتهما للزراعات وغيرها، ولولا الشمس لما زالت الظلمة، ولولا القمر لفات كثير من المنافع الظاهرة، بخلاف غيرهما من الكواكب، فإن نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ظهور نعمتهما، وأنهما بحساب لا يتغير أبداً، ولو كان مسيرهما غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزِّراعات في أوقاتها، ومعرفة فصول السَّنة.

ثم لما ذكر النعم السماوية وذكر في مقابلتها أيضاً نعمتين ظاهرتين من الأرض، وهما: النبات الذي لا ساق له، وما له ساق؛ لأن النبات أصل الرزق من الحبوب والثمار، والحشيش للحيوان.

وقيل: إنما ذكر هاتين النعمتين بعد تعليم القرآن إشارة إلى أن من الناس من لا تكون نفسه زكيّة، فيكتفي بأدلة القرآن، فذكر له آيات الآفاق، وخص الشمس والقمر؛ لأن حركتهما بحسبان تدلّ على الفاعل المختار.

ولو اجتمع العالم ليبيّنوا سبب حركتهما على هذا التقدير المعين لعجزوا، وقالوا: إن الله حركهما بالإرادة كما أراد.

وقيل: لما ذكر معجزة القرآن بإنزاله أنكروا نزول الجرم من السماء وصعوده إليها، فأشار تعالى بحركتهما إلى أنها ليست بالطبيعة.

وهم يقولون بأن الحركة الدّورية من أنواع الحركات لا يكون إلا اختيارياً، فقال تعالى: من حرّكهما على الاستدارة أنزل الملائكة على الاستقامة، والثقيل على مذهبكم لا يصعد، وصعود النَّجم والشجر إنما هو بقدرة الله تعالى، فحركة الملك كحركة الفلك جائزة.

فصل في جريان الشمس والقمر

قال المفسرون: [المعنى][٢] يجريان بحسبان معلوم فأضمر الخبر.

قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك: يجريان بحساب في منازل لا تعدوها ولا يحيدان[٣] عنها.

---

(١) في أ: بحسبان.
(٢) سقط من ب.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٣) عن ابن عباس وقتادة وأبي مالك وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٤) عن ابن عباس وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٠) عن ابن عباس وزاد نسبته إلى الفريابي، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وذكره أيضاً عن أبي مالك وعزاه إلى ابن المنذر وعبد بن حميد.

وقال ابن زيد وابن كيسان: بهما تحسب الأوقات والأعمار، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدرك أحد كيف يجد شيئاً إذا كان الدهر كله ليلاً أو نهاراً[١].

وقال السدي: «بحسبان» تقدير آجالهما[٢]، أي: يجريان بآجال كآجال الناس، فإذا جاء أجلهما هلكا، نظيره: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

وقال الضحاك: بقدر[٣].

وقال مجاهد: «بحسبان»[٤] كحُسْبَان الرَّحى يعني: قطعها، يدوران في مثل القُطْب.

والحُسْبَان: قد يكون مصدر «حسبته أحسبُه بالضم حَسْباً وحِسَاباً وحُسْبَاناً» مثل الغُفْرَان والكُفْران والرُّجحان.

وحسبته أيضاً: أي عددته.

وقال الأخفش: ويكون جماعة الحساب، مثل «شِهَاب، وشُهْبَان»[٥].

والحُسْبَان ـ بالضم ـ أيضاً: العذاب والسِّهام القصار، الواحدة: حُسْبَانة[٦].

والحُسْبانة أيضاً: الوِسادَة الصغيرة تقول منه: «حَسَّبْتُهُ» إذا وسدته[٧]. قال: [مجزوء الكامل]

٤٦١٩ ـ .... لَـثَـوَيْـتَ غَـيْـرَ مُـحَـسَّـبِ[٨]

أي غير مُوسَّد، يعني: غير مكرم ولا مكفن.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

قال ابن عباس وغيره[٩]: النَّجم: ما لا ساق له، والشَّجر: ما له ساق.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٤) عن ابن زيد وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٦٧) وكذا الماوردي (٥/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤).

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ٤٢٣).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٤) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩١) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٤) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩١) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) ينظر لسان العرب ٢/ ٨٦٦. (٦) ينظر لسان العرب ٢/ ٨٦٦.

(٧) ينظر: لسان العرب ٢/ ٨٦٧.

(٨) البيت لنهيك الفزاري يخاطب عامر بن الطفيل وتمام البيت:

لَتَقِيتَ بالوجعاء طعنة مرهف مرّان أوْ لثويت غير محسَّب

ينظر القرطبي ١٧/ ١٠٠، واللسان (حسب)، وتاج العروس (حسب).

(٩) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩١) وعزاه إلى ابن الأنباري في «الوقف والابتداء» وله طريق=

وأنشد ابن عباس قول صفوان التيمي: [الطويل]

٤٦٢٠ ـ لَقَدْ أنجمَ القَاعُ الكَبيرُ عِضَاهَهُ وتَـمَّ بِـهِ حَـيَّـا تَـمـيـمِ ووَائِـلِ[1]

وقال زهير بن أبي سُلْمَى: [البسيط]

٤٦٢١ ـ مُكَلَّلٌ بأصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ رِيحُ الجَنُوبِ لِضَاحِي مَائِهِ حُبُكُ[2]

واشتقاق النجم من «نَجَمَ الشيء يَنْجُمُ» ـ بالضم ـ نُجُوماً: ظهر وطلع.

ومنه: نَجَمَ نابُ البعير، أي: طلع. وسجودهما: سجود ظلالهما؛ قاله الضحاك. وقال الفرّاء: سجودهما أنهما يستقبلان إذا طلعت، ثم يميلان معهما حتى ينكسر الفيء[3].

وقال الزجاج[4]: سجودهما: دوران الظِّل معهما، كما قال: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ [النحل: ٤٨].

وقال الحسن ومجاهد: النجم نجم السماء، وسجوده في قول مجاهد: دوران ظله»[5] وهو[6] اختيار الطبري[7]، حكاه المهدوي.

وقيل: سجود النجم: أفوله، وسجود الشجر: إمكان الاجتناء لثمارها، حكاه الماوردي[8].

والأول أظهر.

وقيل: إن جميع ذلك مسخر لله تعالى، فلا تعبدوا النجم كما عبد قوم من الصَّابئين النجوم، وعبد كثير من العجم الشجر.

= آخر عن ابن عباس دون ذكر الشعر.
أخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٤) والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٥).
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩١) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وأبي الشيخ في «العظمة».

(١) ينظر القرطبي (١٧/ ١٠١) واللسان (عضه) وتاج العروس (عضه).

(٢) يروى «ريح خريق» مكان ريح الجنوب.
ينظر: شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١٧٦، لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب والكشاف ٤/ ١٤، وشرح شواهده ص ٤٧١، والقرطبي ١٧/ ١٠١، واللسان (نجم)، والتاج (نجم).

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ١١٢.

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩٦.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٥) عن مجاهد وقتادة والحسن وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩١) وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

(٦) في ب: وهذا.

(٧) ينظر: تفسير الطبري ١١/ ٥٧٥، ٥٧٦.

(٨) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٠١.

والسجود: الخضوع، والمعني به آثار الحدوث، حكاه القشيري.

وقال النحاس: أصل السجود في اللغة: الاستسلام والانقياد لله ـ عز وجل ـ فهو من السموات كلها استسلامها لأمر الله ـ عز وجل ـ وانقيادها له.

ومن الحيوان كذا، ويكون من سجود الصلاة.

وأنشد محمد بن يزيد في النجم بمعنى النجوم؛ قال: [الطويل]

٤٦٢٢ ـ فَبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ في مُسْتَجِيرِهِ سَرِيعٍ بأيْدِي الآكِلِينَ جُمُودُهَا[١]

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾.

العامة[٢]: على النصب على الاشتغال مراعاة لعجز الجملة التي يسميها النحاة ذات وجهين، وفيها دليل لسيبويه الذي يجوز النصب، وإن لم يكن في جملة الاشتغال ضمير عائد على المبتدأ الذي تضمنته الجملة ذات الوجهين.

والأخفش[٣] يقول: لا بد من ضمير، مثاله: «هند قامت وعمراً أكرمته لأجلها».

قال: «لأنك راعيْتَ الخبر وعطفت عليه، والمعطوف على الخبر خبر، فيشترط فيه ما يشترط فيه».

ولم يشترط الجمهور ذلك، وهذا دليلهم.

فإن القراء كلهم نصبوا مع عدم الرابط إلا من شذ منهم وقد تقدم تحرير هذا في سورة «يس» عند قوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩].

وقرأ أبو[٤] **السمال**: برفع السماء على الابتداء، والعطف على الجملة الابتدائية التي هي قوله «والشمس والقمر».

قال القرطبي[٥]: «فجعل المعطوف مركباً من ابتداء وخبر كالمعطوف عليه».

قوله: «ووَضَع المِيزانَ».

العامة[٦] على «وَضَع» فعلاً ماضياً، و «الميزان» نصب على المفعول به.

وقرأ إبراهيم[٧]: «ووضْع الميزانِ» ـ بسكون الضاد ـ وخفض «الميزان» وتخريجها:

---

(١) البيت للراعي النميري. ينظر شعر الراعي النميري ص ١٩٤، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢/ ٢٢٤، ومجاز القرآن ٢/ ٢٣٥، والكشاف ٤/ ٢٧، وشرح شواهده ص ٣٨٨، والمعاني الكبير ٣٧٥، والقرطبي ١٧/ ١٠١، واللسان (نجم)، والتاج (نجم).

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٣٦. (٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٣٦.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٤، والبحر المحيط ٨/ ١٨٨، والقرطبي ١٧/ ١٠١.

(٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٠١. (٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٣٦.

(٧) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٨٨، والدر المصون ٦/ ٢٣٦.

على أنه معطوف على مفعول «رفعها» أي: «ورفع ووضع الميزان» أي جعل له مكانة ورفعة لأخذ الحُقُوق به، وهو من بديع اللفظ حيث يصير التقدير: «ورفع ووضع الميزان».

قال الزمخشري[١]: «فإن قيل: كيف أخلّ بالعاطف في الجمل الأول وجيء به بعده؟.

قلت: بَكَّتَ بالجمل: الأول، وأورده على سننِ التعديد للذين أنكروا الرحمن وآلاءه كما تبكت منكر أيادي المنعم من الناس بتعدّدها عليه في المثال الذي قدمته، ثم رد الكلام إلى منهاجه بعد التَّبكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف.

فإن قلت: أي تناسب بين هاتين الجملتين حتى وسط بينهما العاطف؟.

قلت: إن الشمس والقمر سماويَّان، والنجم والشجر أرضيَّان فبينهما تناسب من حيث التقابل، وإن السماء والأرض لا يزالان يذكران قرينتين، وإن جري الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله، فهو مناسب لسجود النجم والشجر»[٢].

فصل في المراد بوضع الميزان

قال مجاهد وقتادة: وضع الميزان عبارة عن العدل[٣].

قال السدي: «ووضع الميزان» وضع في الأرض العدل الذي أمر به[٤]، يقال: وضع الله الشريعة، ووضع فلان كذا أي ألقاه.

وقيل: على هذا الميزان القرآن، لأن فيه بيان ما يحتاج إليه.

وهو من قول الحسين بن الفضل.

وقال الحسن وقتادة[٥] ـ أيضاً ـ والضحاك: هو الميزان الذي يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض[٦]، وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٩].

والقسْط هو العَدْل، وقيل: هو الحكم.

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٤٣، والدر المصون ٦/ ٢٣٦.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٤٤.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٦) عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩١) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وينظر تفسير الماوردي (٥/ ٤٢٤).

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ٤٢٤).

(٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٠١.

(٦) ينظر المصدر السابق وتفسير البغوي (٤/ ٢٦٧).

وقيل: المراد وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال. وأصل «ميزان» «يوزان». وقد مضى القول فيه في «الأعراف».

قال ابن الخطيب[١]: قوله: «ووَضَعَ المِيزانَ» إشارة إلى العدل، كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] أي: ليعلموا بالكتاب، ويعملوا بالميزان، فكذا هنا «عَلَّمَ القُرآن» ووضع الميزانَ، فالمراد بـ «الميزان»: العدل بوضعه شرعة، كأنه قيل: شرع العدل لئلا تطغوا في الميزان الذي هو آلة العَدْل، هذا هو المنقول، قال: والأولى العكس كالأول وهو الآلة، والثاني: بمعنى الوزن، أو بمعنى العدل.

قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾، في «أنْ» هذه وجهان[٢]:

أحدهما: أنها الناصبة، و «لا» بعدها نافية، و «تطغوا» منصوب بـ «أن»، و «أن» قبلها لام العلة مقدّرة تتعلق بقوله: «ووضَعَ المِيزانَ»، التقدير: «لئلاَّ تَطغَوا»، كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦].

وأجاز الزمخشري[٣] وابن عطية[٤]: أن تكون المفسرة، وعلى هذا تكون «لا» ناهية، والفعل مجزوم بها.

قال القرطبي: فلا يكون لـ «أنْ» موضع من الإعراب، فتكون بمعنى «أي»، و «تطغوا» مجزوم بها كقوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ﴾ [ص: ٧]، أي: «امْشُوا».

إلا أن أبا حيان رد هذا القول بأن شرط التفسيرية تقدم جملة متضمنة لمعنى القول، وليست موجودة[٥].

قال شهاب الدين[٦]: «وإلى كونها مفسرة[٧] ذهب مكي، وأبو البقاء[٨]، إلا أن أبا البقاء كأنه تنبه للاعتراض، فقال: «وأن ـ بمعنى أي ـ والقول مقدر».

فجعل الشيء المفسر بـ «أن» مقدراً لا ملفوظاً به، إلا أنه قد يقال إن قوله «والقول مقدر» ليس بجيّد؛ لأنها لا تفسر القول الصريح، فكيف يقدر ما لا يصحّ تفسيره، فإصلاحه أن يقول: وما هو بمعنى القول مقدر».

فصل في الطغيان في الميزان

والطغيان مجاوزة الحد، فمن قال: الميزان العدل، قال: الطغيان الجور ومن قال:

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ٢٩/ ٨٠.
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٣٧.
(٣) الكشاف ٤/ ٤٤٤.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٥، والبحر المحيط ٨/ ١٨٨، والدر المصون ٦/ ٢٣٧.
(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٨٨.
(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٣٧.
(٧) ينظر: المشكل ٢/ ٧٠٤.
(٨) ينظر التبيان ١١٧٩.

إنه الميزان الذي يوزن به، قال: طغيانه النجس[١].

قال ابن عباس: لا تخونوا من وزنتم له[٢].

وعنه أيضاً أنه قال: يا معشر الموالي وليتم أمرين بهما هلك الناس: المكيال والميزان.

ومن قال: إنه طغيان[٣] الحكم، قال: طغيانه التحريف.

وقيل: فيه إضمار، أي: وضع الميزان وأمركم ألا تطغوا فيه.

فإن قيل[٤]: العلم لا شك في كونه نعمة، وأما الميزان فأي نعمة عظيمة فيه حتى يعد بسببها في الآلاء؟.

فالجواب: أن النفوس تأبى الغَبْنَ، ولا يرضى أحد بأن يغلبه غيره، ولو في الشيء اليسير، ويرى أن ذلك استهانة به، فلا يترك خَصْمه يغلبه، ثم إن عند عدم المعيار الذي به تُؤخذ الحقوق، كل أحد يذهب إلى أن خصمه يغلبه، فوضع الله ـ تعالى ـ معياراً بين به التَّساوي، ولا يقع به البغضاء بين الناس، وهو الميزان، فهو نعمة كاملة، ولا ينظر إلى عدم ظهور نعمته وكثرته، وسهولة الوصول إليه كالهواء والماء الذي لا يبين فضلهما إلاَّ عند فقدهما.

قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾.

أي: افعلوه مستقيماً بالعدل.

وقال أبو الدرداء: أقيموا لسان الميزان بالقسط والعدل[٥].

وقال ابن عيينة: الإقامة باليد، والقسط بالقلب.

وقال مجاهد: القسط: العدل بالرومية[٦].

وقيل: هو كقولك: أقام الصلاة، أي: أتى بها في وقتها، وأقام الناس أسواقهم، أي: أتوا بها لوقتها، أي: لا تدعوا التعامل بالوزن والعدل.

قوله: «ولا تُخْسِرُوا».

العامة[٧] على ضم التاء وكسر السين، من «أَخْسَرَ» أي: نقص، كقوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٣].

وقرأ زيد[٨] بن علي، وبلال بن أبي بردة: بفتح التاء وكسر السين، فيكون «فَعِل،

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٠١.

(٢) ذكره الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٥٧).

(٣) في ب: طغيانه.

(٤) ينظر: الرازي ٢٩/ ٨٠.

(٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٠١، ١٠٢.

(٦) ذكره الماوردي (٥/ ٤٢٥) عن مجاهد.

(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٣٧، والبحر المحيط ٨/ ١٨٨.

(٨) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٤٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٥، والبحر المحيط ٨/ ١٨٨، والدر المصون ٦/ ٢٣٧.

وأفْعَل» بمعنى، يقال: خَسِر الميزان، وأخْسَره «بمعنى واحد، نحو: جَبر وأجْبر».

ونقل أبو الفتح[١] وأبو الفضل عن بلال: فتح التاء والسين، ونقلها أيضاً القرطبي[٢] عن أبان بن عثمان، قال: وهما لغتان، يقال: أخسرت الميزان، وخسرته، كـ «أجبرته» و «جبرته».

قال شهاب الدين[٣]: وفيها وجهان:

أحدهما: أنه على حذف حرف الجر، تقديره: «ولا تخسروا في الميزان»، ذكره الزمخشري[٤] وأبو البقاء[٥]، إلا أن أبا حيان[٦] قال: لا حاجة إلى ذلك؛ لأن «خَسِر» جاء متعدياً، قال تعالى: ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٢] و ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

قال شهاب الدين[٧]: «وهذا أليق من ذاك، ألا ترى أن «خسروا أنفسهم» و «خسر الدنيا والآخرة» معناه: أن الخسران واقع بهما، وأنهما معدومان، وهذا المعنى ليس مراداً في الآية قطعاً، وإنما المراد: لا تخسروا الموزُون في الميزان».

وقرىء[٨]: «تَخْسُروا» بفتح التاء وضم السين.

قال الزمخشري[٩]: «وقرىء: «ولا تَخْسروا» بفتح التاء وضم السين وكسرها وفتحها، يقال: خَسِر الميزان يَخْسُره ويَخْسِره، وأما الفتح فعلى أن الأصل: «في الميزان» فحذف الجار، وأوصل الفعل إليه».

وكرر لفظ «الميزان»[١٠] ولم يضمره في الجملتين بعده تقوية لشأنه.

وهذا كقول الآخر: [الخفيف]

٤٦٢٣ ـ لا أرَى المَوْتَ يَسْبِقُ المَوْتَ شَيْءٌ نَغَّصَ المَوْتُ ذَا الغِنَى والفَقِيرَا[١١]

فصل في معنى الآية

المعنى: ولا تنقصوا ولا تبخسوا الوزن والكيل، كقوله: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤].

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٣٧.
(٢) ينظر: تفسير القرطبي ١٧/ ١٠٢.
(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٣٧.
(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٤٤.
(٥) ينظر: الإملاء ٢/ ١١٩٧.
(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٨٨.
(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٣٧.
(٨) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٤٤، والبحر المحيط ٨/ ١٨٨، والدر المصون ٦/ ٢٣٧.
(٩) الكشاف ٤/ ٤٤٤.
(١٠) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٣٧.
(١١) تقدم.

وقيل: لا تخسروا ميزان حسناتكم يوم القيامة، فيكون ذلك حسرة عليكم، وكرَّر الميزان لحال رُءُوس الآي.

وقيل: التكرير للأمر بإيفاء الوزن، ورعاية العدل فيه[١].

وقال ابن الخطيب[٢]: «ولا تخسروا الميزان» أي: لا تنقصوا الموزون.

وذكر «الميزان» ثلاث مرات، **فالأول**: بمعنى الآلة، وهو قوله «وَضَعَ المِيزانَ».

والثاني: بمعنى المصدر أي: لا تطغوا في الوزن.

والثالث: للمفعول، أي: لا تخسروا الموزون.

وبين القرآن و «الميزان» مناسبة، فإن القرآن فيه العلم الذي لا يوجدُ في غيره من الكتب، والميزان به يقام العدل الذي لا يقام بغيره من الآلات.

قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾، كقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾.

قرأ أبو السمال[٣]: بالرفع مبتدأ، و «الأنام» علّة للوضع.

«الأنام». قيل: كل الحيوان.

وقيل: بنو آدم خاصة، وهو مروي عن ابن عبَّاس نقل النووي[٤] في «التهذيب» عن الزبيدي: «الأنام»: الخَلْق، قال: ويجوز الأنيم.

وقال الواحدي[٥]: قال الليث: «الأنامُ» ما على ظهر الأرض من جميع الخلق[٦].

وقيل: هم الإنس والجن. قاله الحسن، والأول قاله الضَّحاك.

ووزنه: «فَعَال» كـ «قَذَال» فيجمع في القلة على «أنِمّة» بزنة: «امرأة أنمّة»، وفي الكثرة على «أنم» كـ «قَذَال وأقذلة وقُذْل».

قوله: «فيها فاكهة» يجوز أن تكون هذه الجملة حالاً من «الأرض» إلا أنها حال مقدرة، والأحسن أن يكون الجار والمجرور هو الحال.

و «فاكهةٌ» رفع بالفاعلية، ونكرت لأن الانتفاع بها دون الانتفاع بما ذكر بعدها، وهو من باب الترقّي من الأدنى إلى الأعلى.

قال ابن الخطيب[٧]: الأرض موضوعة لكل ما عليها، وإنما خصّ الإنسان بالذِّكر؛

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٠٢. (٢) ينظر: تفسير الفخر الرازي ٢٩/ ٨١.
(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٨٨، والدر المصون ٦/ ٢٣٧.
(٤) ينظر: تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٤. (٥) ينظر: تفسير الرازي ٢٩/ ٨٢.
(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٧) عن ابن عباس مثله ومثله أيضاً عن الضحاك ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٢) وعزاه إلى ابن المنذر.
(٧) ينظر: تفسير الرازي ٢٩/ ٨٢.

لأن الانتفاع بها أكثر، فإنه ينتفع بها، وبما فيها، وبما عليها، فقال: «للأنام» لكثرة انتفاع الأنام بها.

وقوله: «فِيهَا فَاكِهَةٌ».

أي: ما يتفكّه به الإنسان من ألوان الثمار[١].

قوله: ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ إشارة إلى الأشجار.

و «الأكمام» جمع «كِمّ» ـ بالكسر ـ وهو وعاء الثمر.

قال الجوهري[٢]: و «الكِمُّ ـ بالكسر ـ و «الكِمَامة»: وعاء الطلع، وغطاء النَّوْر، والجمع: «كِمَام» و «أكِمَّة»، و «الأكاميم» أيضاً، و «كم» الغسيل إذا أشفق عليه، فسُتر حتى يقوى، قال العجاج: [الرجز]

٤٦٢٤ ـ بَلْ لَوْ شَهِدتَ النَّاسَ إذْ تُكُمُّوا غُمَّةٍ لَوْ لَمْ تُفَرَّجْ غُمُّوا[٣]

و«تكمّوا»: أي أعمى عليهم وغطّوا.

وأكممتُ وكَمَمْت أي: أخرجت كمامها، والكِمَامُ ـ بالكسر ـ والكمامة أيضاً: ما يكمّ به فَمُ البعير لئلا يعضّ، تقول منه بعير مكموم أي محجوم، وكممت الشيء: غطّيته، ومنه كُمُّ القميص ـ بالضم ـ والجمع: «أكْمَام وكِمَمَة» مثل: جُبّ وجببة.

و «الكُمَّةُ»: القَلَنْسُوَة [المدورة][٤]؛ لأنها تغطي الرأس.

قال رحمه الله: [الطويل]

٤٦٢٥ ـ فَقُلْتُ لَهُمْ: كِيلُوا بِكُمَّةِ بَعْضِكُمْ دَرَاهِمَكُمْ، إنِّي كَذلِكَ أكْتَيِلُ[٥]

قال الحسن: «ذات الأكمام» أي: ذات اللّيف[٦]، فإن النخلة قد تكمم بالليف وأكمامها: ليفها الذي في أعناقها.

وقال ابن زيد: ذات الطلع قبل أن يتفتّق[٧].

وقال عكرمة: ذات الأحْمَال[٨].

وقال الضَّحاك: «ذات الأكمام»: ذات الغلف[٩].

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٠٢.

(٢) ينظر: الصحاح ٥/ ٢٠٢٤، والقرطبي ١٧/ ١٠٢.

(٣) ينظر ديوانه ٦٣ ومجاز القرآن ١/ ٢٧٩، والقرطبي (١٧/ ١٠٢)، واللسان (كمم)، والصحاح (كمم).

(٤) زيادة من الصحاح.

(٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٠٢.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٨) وذكره البغوي (٤/ ٢٦٧).

(٧) ينظر المصدر السابق.

(٨) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٦٧).

(٩) ينظر المصدر السابق.

والأكمام: الأوعية التي يكون فيها الثمر؛ لأن ثمر النخل يكون في غلاف ما لم يتشقق، والمراد بالفاكهة: الفواكهة.

قال ابن كيسان: ما يتفكّهون به من النعم التي لا تُحْصَى، ونكّر الفاكهة للتكثير والتعظيم.

قوله: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾.

قرأ[١] **ابن عامر**: بنصب الثلاثة. وفيه ثلاثة أوجه:

النصب على الاختصاص، أي «وأخص الحبَّ» قاله الزمخشري[٢].

وفيه نظر[٣]، لأنه لم يدخل في مسمى الفاكهة والنخل حتى يخصّه من بينها، وإنما أراد إضمار فعل، وهو «أخص» فليس هو الاختصاص الصّناعي.

الثاني: أنه معطوف على «الأرض».

قال مكي[٤]: «لأن قوله «والأرض وضعها» أي: خلقها، فعطف «الحب» على ذلك».

الثالث: أنه منصوب بـ «خلق» مضمراً، أي «وخلق الحب».

وقال مكي: «أو وخلق الحب»، وقراءته موافقة لرسم مصاحف بلدهِ، فإن مصاحف «الشام» «ذا» بالألف[٥].

وجوزوا في «الرَّيْحَان» أن يكون على حذف مضاف، أي «وذا الريحان» فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه[٦]، كـ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

وقرأ[٧] **الأخوان** برفع الأولين وجرّ «الرَّيْحَان» عطفاً على «العَصْف» وهي تؤيد قول من حذف المضاف في قراءة ابن عامر.

والباقون: برفع الثلاثة عطفاً على «فاكهة» أي: وفيها أيضاً هذه الأشياء.

ذكر **أولاً** ما يتلذّذون به من الفواكهة.

وثانياً: الشيء الجامع بين التلذّذ والتغذّي، وهو ثمر النخل.

وثالثاً: ما يتغذى به فقط، وهو أعظمها؛ لأنه قوت غالب الناس.

---

(١) ينظر: السبعة ٦١٩، والحجة ٦/ ٢٤٤، وحجة القراءات ٦٩٠، وإعراب القراءات ٢/ ٣٣٣، وشرح شعلة ٥٩٣، وشرح الطيبة ٦/ ٢٩، والعنوان ١٨٤ وإتحاف ٢/ ٥٠٩.

(٢) الكشاف ٤/ ٤٤٥.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٣٧.

(٤) ينظر: المشكل ٢/ ٧٠٤.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٣٨.

(٦) ينظر: الرازي ٢٩/ ٨٤.

(٧) ينظر: السبعة ٦١٩، والحجة ٦/ ٢٤٥، وإعراب القراءات ٥/ ٣٣٣، وحجة القراءات ٦٩٠، وشرح الطيبة ٦/ ٢٩، وشرح شعلة ٥٩٣، والعنوان ١٨٤، وإتحاف ٢/ ٥٠٩.

ويجوز في «الرَّيْحَان» على هذه القراءة أن يكون معطوفاً على ما قبله، أي: «وفيها الريحان» أيضاً، وأن يكون مجروراً بالإضافة في الأصل، أي: «وذو الريحان» ففعل به ما تقدم[١].

و «العَصْفُ» قال مجاهد رضي الله عنه: ورق الشَّجر والزرع[٢].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تِبْن الزرع وورقه الذي تَعْصِفُه الرياح[٣].

قال الراغب[٤]: «أصله: من «العَصْفِ والعَصِيفَة»، وهو ما يُعصف، أي: يقطع من الزرع».

وقال سعيد بن جبير: بقل الزرع أي ما ينبت منه[٥]، وهو قول الفراء.

والعرب تقول: خرجنا نعصف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يدرك، وكذا في «الصِّحاح»[٦] وكذا نقله القرطبي[٧].

وعصفت الزرع، أي: جَزَرته قبل أن يدرك.

وعن ابن عباس أيضاً: العصف: ورق الزرع الأخضر إذا وقع رءوسه ويبس نظيره[٨]: ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٨].

قال الجوهري[٩]: «وقَدْ أعْصَفَ الزَّرْعُ، ومكانٌ مُعْصفٌ، أي: كثير الزرع».

قال أبو قيس بنُ الأسلت الأنصاريُّ: [السريع]

٤٦٢٦ ـ إذا جُمَادَى مَنَعَتْ قَطْرَهَا ... زَانَ جَنَابِي عَطَنٌ مُعْصِفُ[١٠]

وقيل: «العَصْفُ»: حُطام النبات، والعَصْفُ أيضاً: الكسب.

قال الراجز: [الرجز]

٤٦٢٧ ـ بِغَيْرِ مَا عَصْفٍ ولا اكْتِسَابِ[١١]

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٣٨.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٩) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٢) وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٩) وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٦٨).

(٤) ينظر المفردات ٥٠٣.

(٥) ينظر الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٩).

(٦) ينظر: الصحاح ٤/ ١٤٠٤.

(٧) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٠٢.

(٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٩).

(٩) ينظر الصحاح ٤/ ١٤٠٤.

(١٠) وينسب البيت أيضاً لأحيحة بن الجلاح. ويروى (مغضف) بالغين والضاد المعجمتين.
ينظر: ديوان أبي قيس بن الأسلت ص ٨٢، والصحاح للجوهري ٤/ ١٤٠٤ (عصف) واللسان (عصف)، و (غضف). والتاج ٦/ ١٩٩ (عصف)، والمذكر والمؤنث لابن الأنباري ص ٢٧١، وسر صناعة الإعراب لابن جني ٢/ ٦٩٣، والقرطبي ١٧/ ١٠٢.

(١١) عجز بيت للعجاج وصدره:

قد يكسب المال الهدان الجافي =

وكذلك «الاعتصاف والعصيفة»: الورق المجتمع الذي يكون فيه السّنبل.

وحكى الثعلبي: وقال ابن السكيت[١]: «تقول العرب لورق الزرع: العَصْف والعَصِيفة، والجِلُّ بكسر الجيم».

قال علقمة بن عبدة: [البسيط]

٤٦٢٨ ـ تَسْقِي مَذانِبَ قَدْ مَالتْ عَصِيفتُهَا حُـدُورُهَـا مِـنْ أتِـيِّ الـمَـاءِ مَـطْـمُـوم[٢]

في «الصحاح»[٣]: «والجِلّ ـ بالكسر ـ قصب الزرع إذا حصد».

والرَّيحان في الأصل مصدر، ثم أطلق على الرزق.

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: هو الرزق بلغة «حِمْير»[٤]، كقولهم: «سبحان الله وريحانه» أي: استرزاقه.

وعن ابن عباس أيضاً والضحاك وقتادة: أنه الريحان الذي يشمّ[٥] وهو قول ابن زيد أيضاً.

وعن ابن عباس أيضاً: أنه خُضْرة الزرع[٦].

وقال سعيد بن جبير: هو ما قام على ساق[٧].

وقال الفراء: «العصفُ» المأكول من الزرع.

و «الريحان» ما لا يؤكل.

وقال الكلبي[٨] العَصْف: الورق الذي لا يؤكل.

و «الريحان»: هو الحب المأكول.

= ويروى العجز: ولا اصطراف مكان ولا اكتساب.
وينظر شواهد الإنصاف في مسائل الخلاف ٢/٥٨، والخصائص ٢/٢٨٣، والمحتسب ١/١١٦، واللسان (عصف)، والتاج ٦/١٩٩ (عصف)، القرطبي ١٧/١٠٣ معاني القرآن للفراء ١/١٧٦، ديوان العجاج ١٢٢.

(١) ينظر القرطبي ١٧/١٠٣.

(٢) يورى «قد زالت» مكان «قد مالت».
ينظر مجاز القرآن ٢/٢٤٢، ديوان علقمة ص ٦١، والمفضليات ص ٣٩٨، ومجمع البيان للطبرسي ٩/٢٩٧، والقرطبي ١٧/١٠٣، ومختار الشعر الجاهلي ١/٤٢٦، واللسان (عصف)، والتاج (عصف).

(٣) ينظر: الصحاح ٤/١٦٥٨.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٨٠) عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وينظر تفسير البغوي (٤/ ٢٦٨) و «الدر المنثور» (٦/ ١٩٢).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٨٠) عن ابن عباس والضحاك والحسن وابن زيد.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٨١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٢) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٨١) عن سعيد بن جبير.

(٨) القرطبي ١٧/١٠٣.

وقيل: كل فلّة طيبة الريح سميت ريحاناً؛ لأن الإنسان يراح لها رائحة طيبة أي: يشم. وفي «الريحان» قولان:

أحدهما: أنه على «فَعْلان» وهو من ذوات «الواو»، والأصل «رَوْحَان» من الرائحة.

قال أبو علي[١]: فأبدلت «الواو» ياء كما أبدلت الياء واواً في «أشاوى» وإنما قلبت الواو ياء للفرق بينه وبين «الرَّوْحَان» وهو كل شيء له روح.

قال القرطبي[٢]: **والثاني**: أن يكون أصله «رَيْوَحَان» على وزن «فَيْعَلان» فأبدلت الواو ياء، وأدغمت فيها الياء، ثم خفف بحذف عين الكلمة، كما قالوا: كَيْنُونة وبَيْنُونَة والأصل تشديد الياء، فخفف كما خفف «هَيْن ولَيْن».

قال مكي[٣]: ولزم تخفيفه لطوله بلُحُوق الزيادتين، وهما الألف والنون.

ثم ردّ قول الفارسي بأنه: لا موجب لقلبها ياء.

ثم قال: «وقال بعض الناس» وذكر ما تقدم عن أبي علي.

قال القرطبي: «والأصل فيما يتركب من الراء والواو والحاء: الاهتزاز والحركة».

وفي الصحاح[٤]: «والريحان نبت معروف، والرَّيْحَان: الرزق، تقول: خرجت أبتغي ريحان الله».

وفي الحديث: «الولدُ مِنْ رَيْحانِ اللَّهِ»[٥].

وقولهم: «سُبْحَانَ اللَّهِ ورَيْحَانه» نصبوهما على المصدر، يريدون: تنزيهاً له واسترزاقاً.

قوله: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ فالعَصْفُ: ساق الزرع، والرَّيْحَان: ورقه قاله الفراء[٦].

قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]، «فبأي» متعلق بـ «تكذبان».

والعامة على إضافة «أي» إلى «الآلاء».

وقرىء في[٧] جميع السورة بتنوين «أيّ».

وتخريجها: على أنه قطع «أيًا» عن الإضافة إلى شيء مقدر، ثم أبدل منه «آلاء ربكما» بدل معرفة من نكرة، وتقدم الكلام في «الآلاء» ومفردها في «الأعراف».

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة ٦/ ٢٤٦. (٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٠٣.
(٣) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٠٣. (٤) ينظر: الصحاح ١/ ٣٧١.
(٥) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (١٦/ ٢٧٣) رقم (٤٤٤٢٢) وعزاه إلى الحكيم الترمذي عن خوله بنت حكيم بلفظ: الولد من ريحان الجنة.
(٦) القرطبي ١٧/ ١٠٣.
(٧) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٨٩، والدر المصون ٦/ ٢٣٨.

والخطاب في «ربكما» قيل: للثقلين من الإنس والجن؛ لأن الأنام تضمنهما، وهو قول الجمهور، ويدل عليه حديث جابر.

وفيه: «للْجِنُّ أَحْسَنُ مِنْكُم رَدًّا»(١).

وقيل: لما قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ، وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥]. دل ذلك على ما تقدم وما تأخر لهما.

وكذا قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] خطاب للإنس والجن.

وقال أيضاً: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الرحمن: ٣٣].

وقال الجرجاني(٢): خاطب الجن مع الإنس، وإن لم يتقدم للجن ذكر. كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].

فقد سبق ذكر الجن فيما سبق نزوله من القرآن، والقرآن كالسورة الواحدة، فإذا ثبت أنهم مكلَّفُون كالإنس، خوطب الجنسان بهذه الآيات.

وقيل: الخطاب للذكر والأنثى.

وقيل: هو مثنّى مراد به الواحد، كقوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤].

وكقول الحجاج بن يوسف: «يا حرسي اضربا عنقه»، وكقول امرىء القيس: [الطويل]

٤٦٢٩ ـ قِـفَـا نَـبْـكِ.... ....(٣)

و [الطويل]

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٧٣) رقم (٣٢٩١) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٣٢) من طريق الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد عن محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه.
وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد.
وسمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: أهل الشام يروون عن زهير بن محمد مناكير. قلت: والوليد بن مسلم شامي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٨٩) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وأبي الشيخ في «العظمة» وابن مردويه.
وللحديث شاهد عن ابن عمر. أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٨٢) والبزار (٢٢٦٩ ـ كشف) والخطيب في «تاريخه» (٤/ ٣٠١) من حديث ابن عمر.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٢٠) وقال: رواه البزار عن شيخه عمرو بن مالك الراسبي وثقه ابن حبان وضعفه غيره.
وذكره أيضاً السيوطي في «الدر المنثور» وصحح سنده وزاد نسبته إلى ابن المنذر والدارقطني في «الأفراد» وابن مردويه.

(٢) ينظر: القرطبي ٦/ ٢٣٩.

(٣) تقدم.

٤٦٣٠ ـ خَـلِـيــلَــيَّ مُـرَّا بِـي..... ....[١]

وقيل: التثنية للتأكيد.

وقيل: التكذيب يكون بالقلب، أو باللسان، أو بهما، فالمراد هما.

فصل في آلاء الله تعالى[٢]

قال ابن زيد: المراد بالآلاء: القدرة[٣]، والمعنى: فبأي قدرة ربكما تكذبان، وهو قول الكلبي.

واختار محمد بن علي الترمذي، وقال: هذه السورة من بين السور علم القرآن، والعلم: إمام الجند، والجند تتبعه، وإنما صارت علماً؛ لأنها سورة صفة الملك والقدرة، فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ فافتتح السورة باسم الرحمن من بين الأسماء ليعلم العباد أن جميع ما يصفه بعد هذا من أفعاله ومن ملكه وقدرته خرج إليهم من الرحمة، فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

ثم ذكر الإنسان فقال: «خَلَقَ الإنسان» ثم ذكر ما صنع به، وما من عليه به، ثم ذكر حُسْبَان الشمس والقمر، وسجود الأشياء من نجم وشجر، وذكر رفع السماء، ووضع الميزان وهو العدل، ووضع الأرض للأنام، فخاطب هذين الثقلين: الإنس والجن، حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحمانيته التي رحمهم بها من غير منفعة، ولا حاجة إلى ذلك، فأشركوا به الأوثان، وكل معبود اتخذوه من دونه، وجحدوا الرحمة التي خرجت هذه الأشياء بها إليهم.

فقال سائلاً لهم: «فبأي آلاء ربكما تكذبان» أي: بأي قدرة ربكما تكذبان، وإنما كان تكذيبهم أنهم جعلوا له في هذه الأشياء التي خرجت من قدرته وملكه شريكاً يملك معه، ويقدر معه، فذلك تكذيبهم، ثم ذكر خلق الإنسان من صلصال، وذكر خلق الجانّ من مارجٍ من نارٍ، ثم سألهم فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: بأي قدرة ربكما تكذبان، فإن له في كل خلق قدرة بعد قدرة، فالتكرير في هذه الآيات للتأكيد، والمبالغة في التقرير، واتخاذ الحجة عليهم بما وقفهم على خلقٍ بعد خلق.

---

(١) البيت بتمامه:

خَـلِـيــلَــيَّ مُـرَّا بِـي عَـلَـى أُمِّ جُـنْـدَبِ ... نُـقَـضِّ لُـبَـانَـاتِ الـفُـؤَادِ الـمُـعَـذَّبِ

ينظر ديوانه ص ٤١، وشواهد التصريح ١/ ٢٠٢، ومعاهد التنصيص للعباسي ١/ ١٧٦، والقرطبي ١٧/ ١٠٤.

(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٠٤.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٨٢) عن ابن زيد.

وقال القتبي: إن الله ـ تعالى ـ عدد في هذه السورة نعماءه، وذكر خلقه آلاءه، ثم أتبع كل خلّة وصفها ونعمة وضعها في هذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ليبينهم على النعم، ويقررهم بها، كما يقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره: ألم تكن فقيراً فأغنيتك، أفتنكر هذا؟ ألم تكن خاملاً فعززتك، أفتنكر هذا؟ ألم تكن راجلاً فحملتك، أفتنكر هذا؟ والتكرير حسن في مثل هذا.

قال الشاعر: [مشطور الرجز]

٤٦٣١ ـ كَمْ نِعْمَةٍ كَانَتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وكَمْ[١]

وقال الشاعر رحمه الله: [البسيط]

٤٦٣٢ ـ لا تَقْتُلِي مُسْلِماً إن كُنْتِ مُسْلِمَةً ... إيَّاكِ مِنْ دمِهِ إيَّاكِ إيَّاكِ[٢]

وقال آخر: [المنسرح]

٤٦٣٣ ـ لا تَقْطَعَنَّ الصَّدِيقَ ما طَرَفَتْ ... عَيْنَاكَ مِنْ قَوْلِ كَاشِحٍ أشِرِ
ولا تَمَلَّنَّ مِنْ زِيَارَتِهِ ... زُرْهُ وَزُرْهُ وَزُرْ وَزُرْ وَزُرِ[٣]

وقال الحسين بن الفضل: التكرير طرد للغفلة، وتأكيد للحجَّة.

قال شهاب الدين[٤]: والتكرير ـ هاهنا ـ كما تقدم في قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]، وكقوله فيما سيأتي: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٥].

وذهب جماعة منهم ابن قتيبة: إلى أن التكرير لاختلاف النِّعم، فلذلك كرر للتوقيف مع كل واحدة.

قال ابن الخطيب[٥]: وذكره بلفظ الخطاب على سبيل الالتفات، والمراد به التقريع والزَّجْر، وذكر لفظ الرب؛ لأنه يشعر بالرحمة.

قال: «وكررت هذه اللفظة في هذه السورة نيفاً وثلاثين مرة إما للتأكيد، ولا يعقل بخصوص العدد معنى.

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ١/ ١٧٧، وتأويل مشكل القرآن ص ٢٣٦، وأمالي المرتضى ١/ ٨٤، والصاحبي لابن فارس ص ٣٤٢، والسراج المنير ٤/ ١٦١، ومجمع البيان للطبرسي ١٠/ ٨٤ والصناعتين ص ١٩٣، وزاد المسير ٨/ ١١١، والقرطبي ١٧/ ١٠٥.
(٢) ينظر القرطبي ١٧/ ١٠٥، السراج المنير ٤/ ١٦١، فتح القدير ٥/ ١٣٣.
(٣) ينظر القرطبي ١٧/ ١٠٥، والسراج المنير ٤/ ١٦١.
(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٣٩.
وعبارة السمين هي: «وقوله: «فبأيّ» إلى آخرها توكيد وكّد به كما تقدم...».
(٥) ينظر: تفسير الرازي ٢٩/ ٨٥.

وقيل: الخطاب مع الإنس والجن، والنعمة منحصرة في دفع المكروه، وتحصيل المقصود، وأعظم المكروهات عذاب جهنم، و ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر: ٤٤]، وأعظم المقاصد: نعيم الجنة، ولها ثمانية أبواب، فالمجموع خمسة عشر، وذلك بالنسبة للجن والإنس ثلاثون، والزائد لبيان التأكيد»[١].

روى جابر بن عبد الله، قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة «الرحمن» حتى ختمها، ثم قال: «مَا لِي أراكُمْ سُكُوتاً؟ للجِنُّ كانُوا أحسنَ مِنكُم رَدًّا؛ ما قرأتُ عليهم هذهِ الآيَةَ مرَّة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ولا بِشيءٍ من رحْمَتِكَ ربَّنا نكذِّبُ، فلكَ الحمد»[٢].

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ (٢٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)﴾

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾. لما ذكر الله ـ تعالى ـ خلق العالم الكبير من السماء والأرض، وما فيها من الدلالات على وحدانيته وقدرته، ذكر خلق العالم الصَّغير[٣]، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾.

قال المفسرون: يعني: آدم من صلصال وهو الطين اليابس الذي يسمع له صلصلة، وشبهه بالفخّار الذي طبخ.

وقيل: هو طين خلط برملٍ.

وقيل: هو الطين المُنتنُ، من صلَّ اللحم وأصلَّ: إذا أنْتنَ.

وقال هنا: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾.

وقال في «الحجر»: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

وقال: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وكله متفق المعنى، وذلك أنه أخذ من تراب الأرض، فعجنه فصار طيناً، ثم انتقل فصار كالحَمأ المسنون، ثم يبس فصار صلصالاً كالفخار.

---

(١) ينظر السابق.

(٢) تقدم تخريج هذا الحديث من حديث جابر وخرجنا له شاهداً من حديث ابن عمر.

(٣) ينظر القرطبي ١٧/١٠٥.

فقوله: «كالفخَّار» نعت لـ «صَلْصَالٍ». وتقدم تفسيره.

قوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾.

قيل هو اسم جنس كالإنسان.

وقيل: هو أبو الجن «إبليس».

وقيل: هو أبوهم، وليس بـ «إبليس»[(١)].

قوله: ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ «من» الأولى لابتداء الغاية.

وفي الثانية وجهان[(٢)]:

أحدهما: أنها للبيان.

والثاني: أنها للتبعيض.

و «المَارِجُ»: قيل: ما اختلط من أحمر وأصفر وأخضر، وهذا مشاهد في النار ترى الألوان الثلاثة مختلطاً بعضها ببعض.

وقيل: الخالص.

وقيل: الأحمر وقيل: الحمرة في طرف النَّار.

وقيل المختلط بسواد.

وقيل: اللهب المضطرب.

وقال الليث: «المارج»: الشعلة الساطعة[(٣)] ذات اللهب الشديد، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه اللهب الذي يعلو النَّار، فيختلط بعضه ببعض أحمر وأخضر وأصفر[(٤)]، ونحوه عن مجاهد.

وقيل: «المَارِجُ» المرسل غير ممنوع[(٥)(٦)].

قال المبرد[(٧)]: «المارج»: النار المرسلة التي لا تمنع.

وقال أبو عبيدة والحسن: «المارج»: المختلط النار، وأصله من مرج إذا اضطرب، واختلط[(٨)].

قال القرطبي[(٩)]: يروى أن الله ـ تعالى ـ خلق نارين، فمرج إحداهما بالأخرى، فأكلت إحداهما الأخرى، وهي نار السَّمُوم، فخلق منها «إبليس».

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ٢٩/ ٨٧، والبحر المحيط ٨/ ١٨٩، والدر المصون ٦/ ٢٣٩.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٨٩، والدر المصون ٦/ ٢٣٩.

(٣) في ب: الساقطة.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٨٤) عن ابن عباس ومجاهد بنحوه وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٣) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد.

(٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٠٥.

(٦) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ٤٢٨).

(٧) ينظر القرطبي ١٧/ ١٠٥.

(٨) ينظر الماوردي في «تفسيره» (٥/ ٤٢٨).

(٩) ينظر تفسير القرطبي ١٧/ ١٠٥.

قال القشيري: «والمارج» في اللغة: المرسل أو المختلط، وهو فاعل بمعنى مفعول كقوله: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] و ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، والمعنى: «ذو مرج».

﴿مِّن نَّارٍ﴾ نعت لـ ﴿مَّارِجٍ﴾.

وتقدم الكلام على قوله: «فبأي آلاء» إلى آخرها.

قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾.

العامة على رفعه.

وفيه ثلاثة أوجه[١]:

أحدهما: أنه مبتدأ، خبره ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، وما بينهما اعتراض.

الثاني: أنه خبر مبتدأ مضمر، أي: «هُو ربُّ» أي: ذلك الذي فعل هذه الأشياء.

الثالث: أنه بدل من الضمير في «خلق».

وابن أبي عبلة[٢]: «ربّ» بالجر، بدلاً أو بياناً لـ «ربّكما».

قال مكي[٣]: ويجوز في الكلام الخفض على البدل من «ربكما»، كأنه لم يطلع على أنها قراءة منقولة.

و «المشرقان»: قيل: مشرقا الشتاء والصيف ومغرباهما.

وقيل: مشرقا الشمس والقمر ومغرباهما[٤]، وذكر غاية ارتفاعهما، وغاية انحطاطهما إشارة إلى أن الطرفين يتناول ما بينهما كقولك في وصف ملك عظيم: (له المشرق والمغرب) فيفهم منه أن له ما بينهما[٥].

ويؤيده قوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: خلَّى وأرسل وأهمل، يقال: مرج الناس السلطان، أي: أهملهم، وأصل المَرْج الإهمال كما تمرج الدَّابة في المَرْعى ويقال: مرج خلط.

وقال الأخفش: ويقول قوم: أمرج البحرين مثل «مرج» فيكون «فَعَلَ وأفْعَلَ» بمعنى[٦].

و «البَحْرين»: قال ابن عباس رضي الله عنهما: بحر السماء، وبحر الأرض[٧].

---

(١) ينظر الدر المصون ٦/ ٢٣٩.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٤٥، والبحر المحيط ٨/ ١٨٩ وزاد أبو حيان نسبتها إلى أبي حيوة وينظر الدر المصون ٦/ ٢٣٩.

(٣) الدر المصون ٦/ ٢٣٩.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٣٩.

(٥) ينظر: الرازي ٢٩/ ٨٨.

(٦) ينظر القرطبي ١٧/ ١٠٦.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٨٦) عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٤) وعزاه للطبري.

قال سعيد بن جبير: يلتقيان في كل عام[١].

وقيل: يلتقي طرفاهما.

وقال الحسن وقتادة: بحر «فارس» و «الروم»[٢].

وقال ابن جريج: البحر المالح، والأنهار العذبة.

وقيل: بحر المشرق، وبحر المغرب يلتقي طرفاهما.

وقيل: بحر اللؤلؤ والمرجان.

«بينهما برزخ» حاجز.

قوله: «يلتقيان» حال من «البَحريْنِ» وهي قريبة من الحال المقدرة، ويجوز بتجوّز أن تكون مقارنة.

و «بَينهُمَا بَرزخٌ» يجوز أن تكون جملة مستأنفة، وأن تكون حالاً، وأن يكون الظَّرف وحده هو الحال، و «البَرْزَخُ» فاعل به، وهو أحسن لقربه من المفرد.

وفي صاحب الحال وجهان:

أحدهما: هو البحرين.

والثاني: هو فاعل «يَلْتقيان».

و «لا يَبْغِيَان» حال أخرى كالتي قبلها، أي: مرجهُمَا غير باغيين أو يلتقيان غير باغِيين، أو بينهما برزخٌ في حال عدم بغيهما، وهذه الحال في قوة التعليل، إذ المعنى: «لئلاً يَبْغيانِ».

وقد تمحّل بعضهم، وقال: أصل ذلك لئلا يبغيا ثم حذف حرف العلة، وهو مطّرد مع «أن» و «إن»، ثم حذفت «أن» أيضاً، وهو حذف مطرد، كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ﴾ [الروم: ٢٤]، فلما حذفت «أن» ارتفع الفعل، وهذا غير ممنوع، إلا أنه تكرر فيه الحذف.

وله أن يقول: قد جاء الحذف أكثر من ذلك فيما هو أخفى من هذا، كما سيأتي في قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٢].

فصل في مناسبة هذه الآية لما قبلها

لما ذكر الشمس والقمر، وهما يجريان في الفلك كما يجري الفلك في البحر،

---

(١) جاء عن ابن عباس أيضاً وانظر التعليق السابق.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٨٦) عن الحسن وقتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٤) عن الحسن وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.
وذكره أيضاً عن قتادة وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

كقوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، فذكر البحرين عقيب المشرقين والمغربين، أو لأن المشرقين والمغربين يكونان في البر والبحر، فذكر البحر بعد ذكر البر؛ لانحصار البر والبحر بين المشرق والغرب.

قوله: «بينهما بَرْزَخ» أي: حاجز[1]، «لا يبْغِيَان»، فعلى القول الأول بأنهما بحر السماء، وبحر الأرض، فالحاجز الذي بينهما هو ما بين السماء والأرض. قاله الضحاك.

وعلى الأقوال الباقية: الحاجز: هو الأرض التي بينهما. قاله الحسن وقتادة.

وقال بعضهم: الحاجز: هو القدرة الإلهية.

وقوله: «لا يَبْغِيَان». قال قتادة: لا يبغيان على النَّاس فيغرقانهم، جعل بينهم وبين الناس اليبس.

وقال مجاهد وقتادة أيضاً: لا يبغي أحدهما على صاحبه فيغلبه.

وقال ابن زيد: «لا يبغيان» أي يلتقيان[2]، تقديره: مرج البحرين يلتقيان لولا البرزخ الذي بينهما لا يبغيان أن يلتقيا.

وقيل: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة، أي: بينهما مدة قدرها الله تعالى، وهي مدة الدنيا فهما لا يبغيان، فإذا أذنَ الله بانقضاء الدنيا صار البحران شيئاً واحداً، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣].

وقال سهل بن عبد الله: البحران: طريق الخير والشر، والبرزخ الذي بينهما التوفيق والعصمة.

فصل في إحاطة البحار بالأرض

قال ابن الخطيب[3]: إن الله ـ تعالى ـ خلق في الأرض بحاراً تحيط بها الأرض، وخلق بحراً محيطاً بالأرض أحاط به الهواء، كما قال به أهل الهيئةِ، وهذه البحار التي في الأرض لها اتصال بالبحر المحيط، ثم إنهما لا يبغيان على الأرض، ولا يغطيانها بفضل الله لتكون الأرض بارزة يتخذها الإنسان مكاناً، وعند النظر إلى أمر الأرض يحار الطبيعي ويتلجلج في الكلام، فإن عندهم أن طبع الأرض يكون في المركز مغموراً بالماء، ويكون الماء محيطاً بجميع جوانبه، فإذا سئلوا عن ظهور الأرض من الماء قالوا: جذب في الأرض.

فإذا قيل لهم: لماذا تجذب؟ وما سبب الجذب؟.

(١) ينظر: القرطبي ١٧/١٠٦.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/٥٨٨).

(٣) ينظر تفسير الرازي ٢٩/٨٩.

فالذي عنده قليل من الحق أسند ذلك إلى إرادة الله تعالى ومشيئته، والآخر يقول: ذلك بحسب اتصالات الكواكب وأوضاعها.

فإن قيل له: لماذا اختلفت أوضاع الكواكب على الوجه الذي أوجب البرد في بعض الأرض دون بعض؟ بهت كما بهت الذي كفر، ويرجع إلى الحق إن هداه الله تعالى.

وقال ابن الخطيب(١): ومعنى الآية أن الله ـ تعالى ـ أرسل بعض البحرين إلى بعض، ومن شأنهما الاختلاط فحجزهما ببرزخ من قدرته، فهما لا يبغيان، أي: لا يجاوز كل واحدٍ منهما ما حد له.

و «البَغْي»: مجاوزة الحد، أو من الابتغاء وهو الطَّلب، أي: لا يطلبان غير ما قدر لهما(٢).

قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ **قرأ نافع**، وأبو عمرو: «يُخْرَجُ» مبنيًّا للمفعول، والباقون: مبنيًّا للفاعل على المجاز.

قالوا(٣): ثم مضاف محذوف، أي «من أحدهما»؛ لأن ذلك لم يؤخذ من البحر العذب حتى عابُوا قول الشاعر: [الطويل]

٤٦٣٤ ـ فَجَاءَ بِهَا ما شِئْتَ مِنْ لَطَمِيَّةٍ عَلى وجْهِهَا مَاءُ الفُراتِ يَمُوجُ(٤)

قال مكي(٥): «كما قال: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ [الزخرف: ٣١]، أي: من إحدى القريتين، فحذف المضاف كثير شائع».

وقيل: هو كقوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١] وإنما الناسي فتاه، ويعزى هذا لأبي عبيدة.

قال البغوي(٦): وهذا جائز في كلام العرب أن يذكر شيئين، ثم يخص أحدهما بفعل، كقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، ثم كانت الرسل من الإنس.

وقيل: يخرج من أحدهما اللؤلؤ، ومن الآخر المرجان.

وقيل: بل يخرجان منهما جميعاً.

ثم ذكروا أقاويل.

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ٢٩/ ٨٩.

(٢) ينظر: الحجة للقراء السبعة ٦/ ٢٤٦، وإعراب القراءات ٢/ ٣٣٤، ٣٣٥، وحجة القراءات ٦٩١، والعنوان ١٨٤، وشرح شعلة ٥٩٣، وشرح الطيبة ٦/ ٣٠، وإتحاف ٢/ ٥١٠.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٤٠.

(٤) البيت لأبي ذؤيب الهذلي. ينظر ديوان الهذليين ١/ ٢٥٧ واللسان (دوم)، والبحر.

(٥) الدر المصون ٦/ ٢٤٠.

(٦) ينظر معالم التنزيل ٤/ ٢٦٩.

منها: أنهما يخرجان من المِلْح في المواضع الذي يقع فيه العذب، وهذا مشاهد عند الغواصين، وهو قول الجمهور، فناسب ذلك إسناده إليهما.

ومنها: قول ابن عباس رضي الله عنهما: تكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر، والصدف تفتح أفواهها للمطر، وقد شاهده الناس، فيكون تولده من بحر السماء، وبحر الأرض[١]. وهذا قول الطبري[٢].

ومنها: أن العذب في الملح كاللقاح[٣]، كما يقال: الولد يخرج من الذَّكر والأنثى.

ومنها: أنه قيل: منهما من حيثُ هما نوع واحد، فخروج هذه الأشياء إنما هي منهما، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦] وإنما هو في واحدةٍ منهن.

وقال الزمخشري[٤]: «فإن قلت: لم قال: «منهما»، وإنما يخرجان من الملح؟

قلت: لما التقيا، وصارا كالشيء الواحد، جاز أن يقال: يخرجان منهما كما يقال: يخرجان من البحر، ولا يخرجان من جميع البحر، وإنما يخرجان من بعضه، وتقول: خرجت من البلد، وإنما خرجت من محلَّةٍ واحدة من محاله، بل من دارٍ واحدة من دُورِهِ، وقيل: لا يخرجان إلاَّ من ملتقى الملح والعذب». انتهى.

وقال بعضهم: كلام الله أولى بالاعتبار من كلام بعض النَّاسِ، فمن الجائز أن يسوقها من البحر العذب إلى الملح، واتفقُوا أنهم لم يخرجوها إلا من الملح، وإذا كان في البر أشياء تخفى على التُّجَّار المترددين القاطعين المفاوز، فكيف بما هو في قَعْرِ البحر؟.

فالجواب عن هذا: أن الله لا يخاطب الناس، ولا يمنن عليهم إلا بما يألفون، ويشاهدون[٥].

و «اللؤلؤ»: قيل: كِبارُ الجوهر، والمرجان: صغاره. قاله علي، وابن عباس، والضحاك رضي الله عنهم[٦].

وقيل بالعكس، وأنشدوا قول الأعشى رحمه الله: [البسيط]

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩٠) عن ابن عباس بمعناه.

(٢) ينظر: جامع البيان ١١/ ٥٩٠. (٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٤٠.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٤٥، ٤٤٦، والبحر المحيط ٨/ ١٩٠، والدر المصون ٦/ ٢٤٠.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٤٠، والبحر المحيط ٨/ ١٩٠.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٨٨) عن ابن عباس وقتادة والضحاك وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٥) وزاد نسبته إلى الفريابي وهناد بن السري وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس.
وذكره أيضاً عن قتاد وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد.

٤٦٣٥ ـ مِنْ كُلِّ مَرْجَانَةٍ فِي البَحْرِ أَحْرَزَهَا تَيَّارُهَا ووقَاهَا طِينَهَا الصَّدَفُ[(١)]

أراد اللؤلؤة الكبيرة. قاله علي، وابن عباس أيضاً.

وقيل: «المرجان»: حجر أحمر.

وقيل: حجر شديد البياض، والمرجان أعجمي.

قال ابن دريد[(٢)]: لم أسمع فيه كلاماً منصرفاً.

و «اللؤلؤ»، بناء غريب لم يرد على هذه الصيغة إلا خمسة ألفاظ: اللؤلؤ، و «الجُؤجؤ» وهو الصَّدر، و «الدُّردؤ»، و «اليُؤيُؤ» ـ لطائر ـ و «البُؤبؤ» ـ بالموحدتين ـ وهو الأصل، و «اللُّؤلُؤ» ـ بضمتين ـ والهمز هو المشهور.

وإبدال الهمزة واواً شائع فصيح وقد تقدم ذلك.

وقرأ طلحة[(٣)]: «اللُّؤلِىء» ـ بكسر اللام الثالثة ـ وهي لغة محفوظة، ونقل عنه أبو الفضل: «اللُّولِي» بقلب الهمزة الأخيرة ياء ساكنة، كأنه لما كسر ما قبل الهمزة قلبها ياء استثقالاً.

وقرأ أبو عمرو[(٤)] **في رواية**: «يُخْرِجُ» أي: الله تعالى، **وروي عنه**[(٥)]، **وعن ابن مقسم**: «نُخْرِج» بنون العظمةِ.

و «اللؤلؤ والمرجان» على هاتين القراءتين منصوبان[(٦)].

فصل في مناسبة نعمة اللؤلؤ والمرجان للنعم السابقة

قال ابن الخطيب[(٧)]: فإن قيل: أي نعمة عظيمة في «اللُّولؤ والمرجان» حتى ذكرهما مع نعمة تعليم القرآن وخلق الإنسان؟.

وأجاب بأن النعم منها خلق الضَّروريات كالأرض التي له مكاناً، وكذا الرزق الذي به بقاؤه.

ومنها ما يحتاج إليه، وإن لم يكن ضروريًّا كالحيوان، وإجراء الشمس والقمر.

ومنها المنافع وإن لم يكن محتاجاً إليها كالفاكهة، وخلق البحار، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

---

(١) ينظر ديوانه ص ١١٢؛ والبحر ٨/ ١٩٠.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٩٠، والدر المصون ٦/ ٢٤١.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٩١، والدر المصون ٦/ ٢٤١.

(٤) ينظر: الحجة ٦/ ٢٤٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٢٨، والبحر المحيط ٨/ ١٩٠، والدر المصون ٦/ ٢٤١.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٨، والبحر المحيط ٨/ ١٩٠، والدر المصون ٦/ ٢٤١.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٩٠، والدر المصون ٦/ ٢٤١.

(٧) ينظر: تفسير الرازي ٢٩/ ٩٠.

ومنها الزينة وإن لم يكن نافعاً كاللؤلؤ والمرجان، كقوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤]، فالله تعالى ذكر أنواع النعم الأربعة، وصدرها بالنعمة العظيمة التي هي الروح وهو العلم بقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، أو يقال: بأن المقصود منه عجائب الله لا بيان النعم؛ لأن النعم سبق ذكرها فذكر خلق الإنسان من صلصال، وخلق الجان من مارج من نارٍ، وهذان من العجائب الدَّالة على القدرة، لا من النعم.

واعلم أن الأركان أربعة: التراب والماء والهواء والنار، فالله تعالى بيّن بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ﴾، أن التراب أصل لمخلوق عجيب، وبين بقوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾، أن النار أيضاً أصل لمخلوق عجيب، وبين بقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أن الماء أصل لمخلوق آخر كالحيوان عجيب، بقي الهواء لكنه غير محسوس، فلم يذكر أنه أصل مخلوق، لكن بين كونه منشئاً للجواري التي في البحر كالأعلام.

فقال: «ولهُ الجوارِ».

العامة على كسر «الراء»؛ لأنه منقوص على «مفاعِل»[١] والياء محذوفة لفظاً لالتقاء الساكنين[٢].

وقرأ عبد الله والحسن[٣]، ويروى عن أبي عمرو: «برفع الراء تناسياً للمحذوف».

ومنه: [الرجز]

٤٦٣٦ ـ لَهَا بَنَاتٌ أرْبَعٌ حِسَانُ وأرْبَعٌ فَثَغْرُهَا ثَمَانُ[٤]

وهذا كما قالوا: هذا شاكٍ وقد تقدم تقرير هذا في الأعراف عند قوله: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾.

قوله: «المُنشآتُ».

قرأ حمزة[٥]، **وأبو بكر** بخلاف عنه بكسر الشِّين، بمعنى أنها تنشىء الموج بجريها، أو تنشىء السير إقْبَالاً وإدباراً، أو التي رفعت شراعها، والشِّراع: القلاع.

وعن مجاهد: كل ما رفعت قلعها فهي من المنشآت، وإلا فليست منها ونسبة الرَّفع

---

(١) كذا هي في الأصل كما في الدر المصون ٦/ ٢٤١ والصواب «فواعل».

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٤١.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٤٦، والبحر المحيط ٨/ ١٩١، والدر المصون ٦/ ٢٤١، وإتحاف فضلاء البشر ٢/ ٥١٠، وإعراب القراءات ٢/ ٣٣٧.

(٤) يروى البيت «ثنايا» مكان «بنات».

ينظر الخزانة ٧/ ٣٦٥، وشرح الكافية ٢/ ١٥٢، والأشموني ٣/ ٥٢٧، وشرح التصريح ٢/ ٢٧٤، والمقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني ٢/ ١٠٣٠، واللسان (ثغر)، والكشاف (٤/ ٤٦).

(٥) ينظر: السبعة ٦٢٠، والحجة ٦/ ٢٤٨، وإعراب القراءات ٢/ ٣٣٧، والعنوان ١٨٤، وحجة القراءات ٦٩١، وشرح الطيبة ٦/ ٣٠، وشرح شعلة ٥٩٣، وإتحاف ٢/ ٥١٠.

إليها مجاز[١]، كما يقال: أنشأت السَّحابة المطر.

والباقون: بالفتح، وهو اسم مفعول، أي أنشأها الله، أو الناس، أو رفعوا شراعها[٢].

وقرأ ابن أبي عبلة[٣]: «المُنَشَّآت» بتشديد الشين مبالغة.

والحسن: «المُنشَّأة» بالإفراد وإبدال الهمزة ألفاً وتاء محذوفة خطاً، فأفرد الصفة ثقة بإفهام الموصوف الجمعية، كقوله: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٥].

وأما إبداله الهمزة ألفاً وإن كان قياسها بين بين، فمبالغة في التخفيف.

كقوله: [البسيط]

٤٦٣٧ ـ إنَّ السِّبَاعَ لَتَهْدَا فِي مَرَابِضِهَا ....[٤]

أي: «لتهدأ» وأما كتابتها بإلقاء المحذوفة، فاتباعاً للفظها في الوصل.

و «في البَحْر» متعلق بـ «المنشآت» أو «المنشأة»، ورسمه بالتاء بعد الشين في مصاحف «العراق» يقوي قرءاة الكسر، ورسمه بدونها يقوي قراءة الفتح، وحذفوا الألف كما تحذف في سائر جمع المؤنث السالم.

و «كالأعلام» حال، إما من الضمير المستكنّ في «المنشآت»، وإما من «الجواري» وكلاهما بمعنى واحد[٥].

فصل في المراد بالجواري[٦]

«الجَوَارِي» جمع جارية. وهي اسم أو صفة للسفينة، وخصها بالذكر؛ لأن جريها في البحر لا صنع للبشر فيه، وهم معترفون بذلك، فيقولون: «لك الفُلْك، ولك المُلْك».

وإذا خافوا الغرقَ دعوا الله خاصة، وسميت السفينة جارية؛ لأن شأنها ذلك وإن كانت واقفةً في السَّاحل كما سماها في موضع آخر بـ «الجارية»، فقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٦) وزاد نسبته إلى الفرياني وعبد بن حميد.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٩١، والدر المصون ٦/ ٢٤١.

(٣) ينظر: السابق.

(٤) صدر بيت لإبراهيم بن هرمة وعجزه:

.... **والناس ليس بهادٍ شرهم أبدا**

ينظر الخصائص ٣/ ١٥٢، والضرائر لابن عصفور ٢٢٩، واللسان هدأ. وديوان ابن هرمة ص ٩٦. والدر المصون ٦/ ٢٤١.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٤١.

(٦) ينظر: تفسير الرازي ٢٩/ ٩١.

وسماها بالفلك قبل أن تكون كذلك، فقال لنوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧] ثم بعد ما عملها سمَّاها سفينة، فقال: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥].

واعلم أن المرأة المملوكة تسمى أيضاً جارية؛ لأن شأنها الجري والسعي في حوائج سيدها، بخلاف الزَّوجة، فهو من الصفات الغالبة.

و «السفينة»: «فعيلة» بمعنى «فاعلة» عند ابن دريد، أي: تسفن الماء و «فَعِيلَة» بمعنى «مفعولة» عند غيره بمعنى منحوتة، قال ابن الخطيب[1]: فالفُلك أولاً، ثم السفينة، ثم الجارية.

والأعلام: الجبال، والعلم: الطويل، قال: [الرجز]

٤٦٣٨ ـ إذَا قَطَعْنَ عَلَماً بَدَا عَلَمْ[2]

وقالت الخنساء في صخر: [البسيط]

٤٦٣٩ ـ وإنَّ صَخْراً لتَأتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ كَأنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأسِهِ نَارُ[3]

أي «جبل»، فالسفن في البحر كالجبال في البر.

وجمع «الجواري» ووحد «البحر»، وجمع «الأعلام» إشارة إلى عظمةِ البحر.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ (٢٦) وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ (٢٩) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٣٠) سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ
إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ (٣٣) فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨)
فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ (٣٩) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعۡرَفُ
ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي

---

(١) ينظر السابق.

(٢) صدر بيت لجرير بن عطية وعجزه:

.... فَهُنَّ بَحْثاً كَمُضِلَّاتِ الخَدَمْ

ينظر مجاز القرآن ٢/ ٢٤٤، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ١٠١، وشرح ديوان جرير ص ٦٢٢، والطبراني ٢٧/ ٧٨، والقرطبي ١٧/ ١٠٧، واللسان (علم).

(٣) تقدم.

يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ غلب من يعقل على غيره، وجميعهم مراد.

والضمير في «عليها» للأرض.

قال بعضهم: وإن لم يجر لها ذكر، كقوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٦].

ورد هذا بأنه قد تقدم ذكرها في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾.

وقيل: الضمير عائد إلى الجارية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة: هلك أهل الأرض. فنزلت ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] فأيقنت الملائكة بالهلاك(١). وقاله مقاتل.

ووجه النعمة في فناء الخلق: التسوية بينهم في الموت.

وقيل: وجه النِّعمة أن الموت سبب النَّقل إلى دار الجزاء والثواب.

قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي ويبقى الله، فالوجه عبارة عن وجود ذاته سبحانه وتعالى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الوجه عبارة عنه، كما قال ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

ويقال: هذا وجه الأمر، ووجه الصواب، وعين الصواب، ومعنى «ذو الجلال والإكرام» أي: هو أهل لأن يكرم، وهذا خطاب مع كل سامع.

وقيل: خطاب للنبي ﷺ(٢).

فإن قيل: كيف خاطب الاثنين بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾.

وخاطب هاهنا الواحد فقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾، ولم يقل: «وجه ربِّكُمَا»؟.

فالجواب(٣): أن الإشارة هاهنا وقعت إلى فناء كل أحد، فقال: «ويبقى وجه ربك» أيها السامع ليعلم كل أحد أن غيره فانٍ، فلو قال: ويبقى وجه ربكما، لكان كل أحد يخرج نفسه، ورفيقه المخاطب عن الفناء.

فإن قيل: فلو قال: «ويبقى وجه الرّب» من غير خطاب، كان أدلَّ على فناء الكل؟.

فالجواب: إن كان الخطاب في الرب إشارة إلي اللطف، والإبقاء إشارة إلى القهر، والموضع موضع بيان اللطف، وتعديد النعم، فلهذا قال: بلفظ الرب وكاف الخطاب(٤).

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٦٧) وعزاه إلى ابن أبي حاتم في «تفسيره» عن مقاتل.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٩١. (٣) ينظر: تفسير الرازي ٢٩/ ٩٤.
(٤) ينظر: الرازي ٢٩/ ٩٥.

قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

العامة على «ذو» بالواو صفة للوجه، **وأبي**[1]، **وعبد الله**: «ذي» بالياء صفة لـ «ربّك». وسيأتي خلاف القراء في آخر السورة إن شاء الله تعالى.

و «الجلال»: العظمة والكبرياء.

و «الإكرام»: يكرم أنبياء وأولياءه بلُطفه مع جلاله وعظمته.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيه وجهان[2]:

أحدهما: أنه مستأنف.

والثاني: أنه حال من «وجه»، والعامل فيه «يبقى» أي يبقى مسئولاً من أهل السموات والأرض.

وفيه إشكال؛ لأنه لما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ كان إشارة إلى بقائه بعد فناء من على الأرض، فكيف يكون في ذلك الوقت مسئولاً لمن في الأرض؟.

قال ابن الخطيب[3]: والجواب من وجوه.

الأول: أنهم يفنون بالنظر إليه، لكنهم يبقون بإبقاءِ الله، فيصح أن يكون الله مسئولاً.

الثاني: أن يكون مسئولاً معنًى لا حقيقة؛ لأنهم إذا فنوا فهم يسألونه بلسان الحالِ.

الثالث: أن قوله: «ويبقى» للاستمرار فهو يبقى ويعيد من كان في الأرض، ويكون مسئولاً.

الرابع: أنَّ السَّائلين هم الملائكة الذين هم في الأرض فإنهم فيها، وليسوا عليها، ولا يضرّهم زلزلتها، فعندما يفنى من عليها يبقى الله تعالى، ولا يفنى في تلك الحال الملائكة، فيسألونه ماذا نفعل؟ فيأمرهم بما يريد.

فصل في تحرير السؤال المقصود

وهذا السُّؤال إما استعطاف، وإما استعطاء، فيسأله كل أحد ما يحتاج إليه[4].

قال ابن عباس وأبو صالح: أهل السموات يسألونه المغفرة، ولا يسألونه الرزق[5]، وأهل الأرض يسألونهما جميعاً.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٢٩، والبحر المحيط ٨/ ١٩١، والدر المصون ٦/ ٢٤٢

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٤٢. (٣) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٩٥.

(٤) ينظر: السابق ٢٩/ ٩٦.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩٢) عن ابن عباس.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٦) عن أبي صالح وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

قال ابن جريج: تسأله الملائكة الرزق لأهل الأرض، فكانت المسألتان جميعاً من أهل السماء، وأهل الأرض لأهل الأرض[١].

قال القرطبي[٢]: «وفي الحديث: إنَّ مِنَ الملائكةِ ملكاً لهُ أربعةُ أوجهٍ، وجهٌ كوجْهِ الإنسانِ وهو يَسْألُ اللَّه الرِّزْقَ لِبَنِي آدَمَ، ووجهٌ كوجْهِ الأسَدِ وهو يسألُ الله الرِّزْقَ للسِّباع، ووجْه كوجه الثَّوْر وهو يسألُ الله الرِّزْق للبهَائِمِ، ووجْه كوجْهِ النَّسْر وهو يَسْألُ الله الرِّزْق للطَّيْرِ»[٣].

وقال ابن عطاء: إنهم يسألونه القوة على العباد.

قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ منصوب بالاستقرار الذي تضمنه الخبر، وهو قوله: «فِي شأن».

والشأن: الأمر.

فصل في تفسير هذه الآية

روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ قال: «كُلَّ يوم هُوَ في شأنٍ» قال: «مِنْ شَأنِه أن يَغْفِرَ ذَنْباً، ويُفَرِّجَ كُرْبَةً، ويرفعَ أقواماً، ويضع آخرين»[٤].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال: يَغْفِرُ ذَنْباً، ويكْشِفُ كَرْباً ويُجِيْبُ داعياً[٥].

وقيل: من شأنه أنه يُحْيي ويميت، ويعزّ ويذلّ، ويرزق ويمنع.

وقال ابن بحر: الدّهر كله يومان:

أحدهما: مدة أيام الدنيا.

والآخر: يوم القيامة، فشأنه ـ سبحانه وتعالى ـ في أيام الدنيا الابتلاء والاختبار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع، وشأنه يوم القيامة: الجزاء والحساب والثواب والعقاب.

والظَّاهر أن المراد بذلك الإخبار عن شأنه في كل يوم من أيام الدنيا.

---

(١) ذكره السيوطي «الدر المنثور» (٦/ ١٩٦) وعزاه إلى ابن المنذر.

(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٠٩.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٠٩).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩٢) وابن حبان (١٧٦٣ ـ موارد) وابن ماجه (٢٠٢) والبزار (٣/ ٧٣) رقم (٢٢٦٧) من حديث أبي الدرداء وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٧) وزاد نسبته إلى الحسن بن سفيان في «مسنده» والطبراني وأبي الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان وابن عساكر.

وعلقه البخاري (٨/ ٤٩٠) عنه موقوفاً في «صحيحه».

(٥) أخرجه البزار (٣/ ٧٤) رقم (٢٢٦٨ ـ كشف) من حديث ابن عمر.

وقال عمرو بن ميمون: في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ من شأنه أن يميت حيًّا، ويحيي ميّتًا ويقرّ في الأرحام، ويعز ذليلاً، ويذلّ عزيزاً.

وقيل: من شأنه أن يولج الليل في النهار، ويولج النّهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويشفي سقيماً، ويسقم سليماً، ويبتلي معافى ويعافي مُبْتلى، ويعز ذليلاً، ويذل عزيزاً، ويفقر غنيًّا، ويغني فقيراً.

وقال الكلبي: هو سوق المقادير المواقيت(١).

وعن عبد الله بن طاهر أنه دعا الحسين بن الفضل، وقال له: أشكلت عليّ ثلاث آيات، دعوتك لتكشفها لي قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١] وقد صح أن الندم توبة.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وصح أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] فما بال الإضعاف؟.

فقال الحسين: يجوز ألا يكون الندم توبة في تلك الأمة، ويكون توبة في هذه الأمة؛ لأن الله خصّ هذه الأمة بخصائص لم تشاركهم فيها الأمم.

وقيل: إن ندم «قابيل» لم يكن على قتل هابيل، ولكن على حمله.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، فمعناه: ليس له إلاّ ما سعى عدلاً، ولي أن أجزيه بواحدة ألفاً.

وأما قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فإنها شُئُون يبديها ولا يبتديها، فقام عبد الله بن طاهر وقبَّلَ رأسه، وسوغ خراجه(٢).

قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ﴾.

قرأ(٣): «سيفرغ» ـ بالياء ـ الأخوان، أي سيفرغ الله تعالى. والباقون من السبعة: بنون العظمة، والرّاء مضمومة في القراءتين، وهي اللغة الفصحى لغة «الحجاز».

وقرأها مفتوحة الراء مع النون الأعرج(٤)، ويحتمل وجهين(٥):

أحدهما: أن يكون من «فَرَغَ» بفتح الراء في الماضي، وفتحت في المضارع لأجل حرف الحَلْق.

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٠). (٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٠٩.

(٣) ينظر: السبعة ٦٢٠، والحجة ٦/ ٢٤٨، وإعراب القراءات ٢/ ٣٣٥، والعنوان ١٨٤، وحجة القراءات ٦٩٢، وشرح الطيبة ٦/ ٣١، وشرح شعلة ٥٩٣، وإتحاف ٢/ ٥١١.

(٤) وقرأ بها قتادة، ورويت عن عاصم كما في المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٠، والبحر المحيط ٨/ ١٩٢، والدر المصون ٦/ ٢٤٢.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٤٢.

والثاني: أنه سمع فيه «فَرِغَ» ـ بكسر العين ـ فيكون هذا مضارعه، وهذه لغة «تميم» **وقرأ عيسى**[١] **بن عمر وأبو السمال**: «سَنِفْرَغُ» ـ بكسر حرف المضارعة وفتح الراء. وتوجيهها واضح مما تقدم في «الفاتحة».

قال أبو حاتم: هذه لغة سفلى «مضر».

والأعمش وأبو حيوة وإبراهيم: «سَيُفْرَغُ» ـ بضم الياء ـ من تحت مبنيًّا للمفعول.

وعيسى ـ أيضاً ـ بفتح نون العظمة، وكسر الراء.

والأعرج ـ أيضاً ـ بفتح الياء، ويروى عن أبي عمرو.

فصل في الكلام على فرغ

قال القرطبي[٢]: «يقال: فرغتُ من الشغل أفرغُ فُرُوغاً وفَرَاغاً، وتفرَّغْتُ لكذا، واستفرغتُ مجهودي في كذا، أي: بذلته، وليس لله ـ تعالى ـ شغل يفرغ منه، وإنما المعنى: سنقصد لمجازاتكم أو محاسبتكم، فهو وعيد لهم وتهديد قاله ابن عباس والضحاك[٣]، كقول القائل لمن يريد تهديده: إذن أتفرغ لك، أي: أقصد قصدك».

وأنشد ابن الأنباري لجرير: [الوافر]

٤٦٤٠ ـ ألانَ وقَدْ فَرَغْتُ إلى نُمَيْرٍ فَهَذَا حِينَ كُنْتُ لَهُمْ عَذَابَا[٤]

وأنشد الزجاج والنحاس: [الطويل]

٤٦٤١ ـ فَرَغْتُ إلى العَبْدِ المُقَيَّدِ في الحِجْلِ[٥]

ويدل[٦] **عليه قراءة أُبيِّ رضي الله عنه**: «سَنفْرُغُ إلَيْكُمْ» أي سنقصد إليكم.

---

(١) الذي نقله ابن عطية (٥/ ٢٣٠) عن عيسى بن عمر أنه قرأ بفتح النون وكسر الراء، والثابت هنا هو ما ذكره أبو حيان ٨/ ١٩٢، والسمين الحلبي ٦/ ٢٤٢، فيكون هناك روايتان عن عيسى أثبتهما أبو حيان والسمين الحلبي، في حين أهمل بن عطية إحداهما، وهي التي معنا.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١١٠.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٨) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(٤) تقدم.

(٥) عجز بيت لجرير بن عطية وصدره:

ولما اتقى القين العراقي باسته ....

ورواية الديوان: إلى العين مكان إلى العبد.

ينظر: شرح ديوان جرير ص ٥٥، والكامل للمبرد ١/ ٢٤، والاقتضاب ص ٣٠١، واللسان (فرغ)، والقرطبي ١٧/ ١١٠، والدر المصون ٦/ ٢٤٢.

(٦) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٤٨، والدر المصون ٦/ ٢٤٢، والقرطبي ١٧/ ١١٠.

وفي حديث النبي ﷺ أنه لما بايع الأنصار ليلة «العقبةِ»، صاح الشيطان: يا أهل الجباجب هذا مُذمَّمٌ يبايع بني «قيلة» على حربكم، فقال النبي ﷺ: «هذا أزَبُّ العقبة، أما والله لأتفرَّغن لك»[1]. أي: أقصد إلى إبطال أمرك.

وهذا اختيار القتبي والكسائي وغيرهما.

قال ابن الأثير: الأزَبُّ في اللغة: الكثير الشعر، وهو هاهنا شيطان اسمه «أزب العقبة» وهو الحيّة.

وقيل: إن الله ـ تعالى ـ وعد على التقوى، وأوعد على الفُجُور، ثم قال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أي: مما وعدناكم، ونوصل كلاً إلى ما وعدناه، أقسم ذلك وأتفرغ منه. قاله الحسن، ومقاتل، وابن زيد.

قوله تعالى: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾. تقدم الكلام في قراءة «أيُّهَا» في «النور» [النور: ٣١] وهو منادى، والحكمة في نداء المُبْهَم هي تنبيه كل سامع، ثم يخصص المقصود بعد ذلك، فيكون فيه اهتمام بالمنادى.

وأيضاً يجعل المبهم وصلة لنداء المعرف باللام، وزيد معه هاء التي للتَّنبيه عوضاً عن الإضافة؛ لأن المبهم يضاف.

و «الثَّقلان» الجنّ والإنس، سُمِّيَا بذلك لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف.

وقيل: سمّوا بذلك؛ لأنهما ثقلا الأرض أحياء وأمواتاً.

قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢].

ومنه قولهم: أعطهِ ثقله أي وزنه.

وقال بعض أهل المعاني: كل شيء له قَدْر ووزن ينافس فيه فهو ثقل، ومنه قيل لبيض النعام: ثقل، لأن واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به.

وقال جعفر الصادق: سميا ثقلين؛ لأنهما مثقلان بالذنوب.

وقيل: الثَّقَل الإنس لشرفهم، وسمّي الجن بذلك مجازاً للمجاورة والتغليب كالعَمريْن والقَمريْن والثَّقَل: العظيم الشريف.

قال عليه الصلاة والسلام: «إنِّي تاركٌ فيكم ثقلينِ: كتاب اللَّهِ وعترتِي»[2].

---

(١) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٤٤٨). وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٤٨) وقال: رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع.

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٧٤) عن زيد بن أرقم وأخرجه الحاكم (٣/ ١٤٨) من حديثه أيضاً وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وأخرجه أحمد (٣/ ١٧) والطبراني في=

فصل في سبب التثنية بعد الجمع

جمع في قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ ثم قال: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾؛ لأنهما فريقان، وكل فريق جمع، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، ولم يقل «إن استطعتما»؛ لأنهما فريقان في حال الجمع، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]، ولو قال: سنفرغ لكما، أو قال: استطعتما، لجاز.

وقرأ[(١)] أهل «الشّام»: «أيُّهُ الثَّقلانِ» بضم الهاء، والباقون: بفتحها.

فصل في أن الجن مكلفون

هذه الآيات التي في «الأحقاف»[(٢)]، و ﴿قُلْ أُوحِىَ﴾ [الجن: ١] دليل على أن الجن مخاطبون مكلفون مأمورون منهيّون مثابون معاقبون كالإنس سواء، مؤمنهم كمؤمنهم، وكافرهم ككافرهم.

قوله تعالى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمن: ٣٣] الآية. لما بين أن الله تعالى لا يشغله شأن عن شأن، كأن قائلاً قال: فلم أخر عذابهم؟.

فأجيب[(٣)]: بأن الجميع في قبضته، وأن الذي يستعجل إنما يخاف الفوت، والجميع في قبضة الله ـ تعالى ـ فلا يفوتونه.

و «المعشر»: الجماعة العظيمة؛ لأن المعشر هو العدد الكامل الكثير الذي لا عدد بعده إلاّ بابتداء فيه حيث يعيد الآحاد، تقول: أحد عشر، واثنا عشر وعشرون، وثلاثون، أي ثلاث عشرات، فالمعشر كأنه في محل العشر الذي هو الكثرة الكاملة.

فإن قيل: ما الحكمة في تقديم الجنّ على الإنس هاهنا، وتقديم الإنس على الجن في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٨٨]؟.

فالجواب[(٤)]: أن النفوذ من أقطار السموات والأرض بالجن أليق إن أمكن، والإتيان

= «الصغير» (١/ ١٣١) وفي «الكبير» (٥/ ١٩٠، ٢٠٥) والعقيلي (٢/ ٢٥٠) من طريق عطية العوفي عن أبي سعيد.

(١) ينظر: الحجة ٦/ ٢٤٩، والعنوان ١٣٨، ١٨٤، وإعراب القراءات ٢/ ٣٣٧، وإتحاف ٢/ ٥١١، والقرطبي ١٧/ ١١١.

(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١١١.

(٣) ينظر: الرازي ٢٩/ ٩٩.

(٤) ينظر: السابق ٢٩/ ١٠٠.

بمثل هذا القرآن بالإنس أليق إن أمكن الإتيان، فقدم في كل موضع ما يليق به.

فصل في المراد بالآية

معنى الآية: إن استطعتم أن تنفذوا: تجوزوا وتخرجوا بسرعة.

والنفوذ: الخروج وقد تقدم في أول «البقرة» أن ما فاؤه نون وعينه فاء يدل على الخروج كنفق ونفر، قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ فاهربوا واخرجوا منها، وهذا أمر تعجيز، والمعنى: حيث ما كنتم أدرككم الموت، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨] وهو قول الضحاك.

وروى جويبر عن الضحاك أيضاً قال: يقال لهم هذا يوم القيامة، يعني: إن استطعتم أن تجوزوا أقطار السموات والأرض، فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم[١]، فجوزوا يعني لا مهرب لكم ولا خروج لكم عن ملك الله سبحانه وتعالى، وأينما تولوا فثمَّ ملك الله.

وقال ابن عباس إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات وما في الأرض فاعلموه ولن تعلموه إلا بسلطان أي يبينه من الله عز وجل[٢] وعنه أيضاً لا تنفذون إلا بسلطان لا تخرجون من سلطاني وقدرتي عليكم[٣] وقال قتادة: لا تنفذون إلا بملك وليس لكم ملك[٤] وقيل: الباء بمعنى إلى أي إلا إلى سلطان كقوله تعالى وقد أحسن بي أي إليّ.

وقيل معناه: لا تنفذوا إلا ومعكم سلطان الله وقيل معناه: لا تتخلصون من عذاب الله إلا بسلطان يجيركم وإلا فلا مجير لكم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾. حال أو متعلق بالفعل قبله.

والسلطان: القوة التي يتسلّط بها على الأمر والملك والقدرة والحجة كلها سلطان، يريد: حيث ما توجهتم كنتم في ملكي.

قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾.

قرأ ابن كثير[٥]: بكسر الشين والباقون: بضمها، وهما لغتان بمعنى واحد مثل: «صِوَار» من البقر، و «صُوَار» وهو القطيع من البقر.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩٤) عن الضحاك بمعناه.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩٤) وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٧١).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩٤) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٨) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩٥) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٨) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.

(٥) ينظر: السبعة ٦٢٠، والحجة ٦/ ٢٤٩، وإعراب القراءات ٢/ ٣٣٧، وحجة القراءات ٦٩٣، والعنوان ١٨٤، وشرح الطيبة ٦/ ٣٢، وشرح شعلة ٥٩٣، وإتحاف ٢/ ٥١١.

و «الشُّواظ»: قيل: اللَّهب معه دخان.

وقال ابن عباس وغيره: هو اللهب الخالص الذي لا دُخان له[١].

وقيل: اللَّهب الأحمر.

وقيل: هو الدخان الخارج من اللهب.

وقال رؤبة رحمه الله: [الرجز]

٤٦٤٢ ـ .... **ونَارَ حَرْبٍ تُسْعِرُ الشُّوَاظَا**[٢]

وقال حسَّان رضي الله عنه: [الوافر]

٤٦٤٣ ـ **هَجَوْتُكَ فاختضَعْتَ لَهَا بِذُلٍّ ... بِقَافِيَةٍ تأجَّجُ كالشُّوَاظِ**[٣]

وقال مجاهد: «الشُّواظ»: اللَّهب الأخضر المنقطع من النَّار[٤].

وقال الضحاك: هو الدخان الذي يخرج من دخان اللَّهب ليس بدخان الحطب[٥][٦]. وقاله سعيد بن جبير.

وقيل: «الشُّواظ»: النَّار والدخان جميعاً. قاله ابن عمر، وحكاه الأخفش عن بعض العرب.

و «يُرْسَل» مبني للمفعول وهي قراءة العامة، **وزيد بن علي** «نرسل» بالنون شُواظاً ونحاساً بالنصب، و «من نار» صفة لـ «شواظ» أو متعلق بـ «يرسل».

قوله: «ونُحَاس».

قرأ ابن[٧] **كثير وأبو عمرو**: بجره عطفاً على «نار».

والباقون: برفعه عطفاً على «شُواظ».

و «النُّحَاس»: قيل: هو الصفر المعروف يذيبه الله ـ تعالى ـ ويعذبهم به.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩٦) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٨) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) قبله: إن لهم من وقعنا أقياظا.
ينظر: مجاز القرآن ٢/ ٢٤٤، والطبري ٢٧/ ٨١، ومجمع البيان ٩/ ٣٠٩، واللسان (شوظ)، والقرطبي ١٧/ ١١٢ والدر المصون ٦/ ٢٤٣.

(٣) رواية الديوان هي:
مجللة تعممه شناراً ... مضرمة تأجّج كالشواظ
ينظر ديوانه ١٤٨، والقرطبي ١٧/ ١١٢، والدر المصون ٦/ ٢٤٣.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩٦) عن مجاهد.

(٥) ينظر المصدر السابق.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٩٣، والدر المصون ٦/ ٢٤٣.

(٧) ينظر: السبعة ٦٢١، والحجة ٦/ ٢٥٠، وإعراب القراءات ٢/ ٣٣٩، وحجة القراءات ٦٩٣، والعنوان ١٨٤، وشرح شعلة ٥٩٤، وشرح الطيبة ٦/ ٣٢، وإتحاف ٢/ ٥١١.

وقيل: الدخان الذي لا لهب معه.

قال الخليل: وهو معروف في كلام العرب.

وأنشد للأعشى: [المتقارب]

٤٦٤٤ ـ يُضِيءُ كَضَوْءِ السِّرَاجِ السَّلِيـ ـطِ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ نُحَاسَا[(١)]

قال المهدوي: من قال: إن الشواظ النار والدخان جميعاً، فالجر في «نُحَاس» على هذا بين.

فأما الجر على قول من قال: إن الشواظ اللّهب الذي لا دخان فيه فبعيد لا يسوغ إلا على تقدير حذف موصوف كأنه قال: «يرسل عليكما شواظ من نار، وشيء من نحاس» فـ «شيء» معطوف على شواظ، و «من نحاس» جملة هي صفة لشيء، وحذف «شيء» وحذفت «من» لتقدم ذكرها في «من نار» كما حذفت «على» من قولهم: على من تنزل أنزل أي: وعليه، فيكون «نُحَاس» على هذا مجروراً بـ «من» المحذوفة، وتضم نونه وتكسر، **وبالكسر قرأ مجاهد**[(٢)]، **وطلحة والكلبي**، ونقله القرطبي عن حميد أيضاً، وعكرمة، وأبي العالية[(٣)].

وقرأ[(٤)] **ابن جندب**: «ونَحْسٌ»، كقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ [القمر: ١٩] **وابن أبي**[(٥)] **بكرة**، وابن أبي إسحاق: «ونَحُسُّ» بضم الحاء والسين مشددة من قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ [آل عمران: ١٥٢] أي: ونقتل بالعذاب، **وقرأ ابن أبي**[(٦)] **إسحاق أيضاً**: «ونَحس» بضم الحاء وفتحها وكسرها وجر السين، **والحسن والقاضي**[(٧)]: «ونُحُسٍ» بضمتين وجر السين.

وتقدمت قرأة زيد: «ونُحَاساً»[(٨)] بالنَّصْب لعطفه على «شُواظاً» في قراءته.

و «النِّحاس» أيضاً بالكسر: الطبيعة والأصل.

يقال: فلان كريم النحاس و «النُّحاس» أيضاً بالضم، أي: كريم النِّجار[(٩)].

---

(١) البيت ليس في ديوان الأعشى، وإنما هو للنابغة الجعدي. ينظر ديوانه (٨١)، وغريب القرآن لابن قتيبة (٤٣٨)، ومعاني الفراء ٣/ ١٣٧، ومجاز القرآن ٢/ ٢٤٥، والاقتضاب ص ٤٠٧، واللسان (سلط)، والتاج (سلط) ومجمع البيان ٩/ ٣٠٨، والكشاف ٤/ ٤٧، وشرح شواهده ص ٤٠٧، والقرطبي ١٧/ ١١٢، والدر المصون ٦/ ٢٤٣.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٣١، والبحر المحيط ٨/ ١٩٣، والدر المصون ٦/ ٢٤٣.

(٣) ينظر: القرطبي ١٧/ ١١٢.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٣١، والبحر الميحط ٨/ ١٩٣، والدر المصون ٦/ ٢٤٣.

(٥) ينظر السابق.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٩٣، والدر المصون ٦/ ٢٤٣.

(٧) السابق.

(٨) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٤٤.

(٩) ينظر: القرطبي ١٧/ ١١٢.

قال ابن مسعود: النحاس: المهل[١] وقال الضحاك: هو دُرْديّ الزَّيت المغلي[٢].

وقال الكسائي: هو النار التي لها ريح شديدة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي: لا ينصر بعضكم بعضاً، يعني الجن والإنس.

وثنّى الضمير في «عَلَيْكُمَا»؛ لأن المراد النوعان، وجمع في قوله: «إن اسْتَطعْتُمْ»؛ لأنه خطاب للمعشر، وكذا قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ خطاب للحاضرين، وهم نوعان.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ جوابه مقدر، أي: رأيت هولاً عظيماً، أو كان ما كان.

وقوله: «فَكَانَت وَرْدَةً» أي: مثل وردة.

فقيل: هي الزهرة المعروفة التي تشمّ شبهها بها في الحمرة.

وأنشد قول الشاعر: [الطويل]

٤٦٤٥ ـ فَلَوْ كُنْتُ وَرْداً لونُهُ لَعشِقْتَنِي ولَكِنَّ ربِّي شَانَنِي بِسَوَادِيَا[٣]

وقيل: هي من لون الفَرَس الورد يكون في الربيع إلى الصُّفرة، وفي الشتاء إلى الحُمْرة، وفي شدة البرد إلى الغبرة، فشبه تلوّن السماء بتلون الوردة من الخَيل[٤].

وقرأ عمرو بن عبيد[٥]: «وَرْدَةٌ» بالرفع.

قال الزمخشري[٦]: فحصلت سماء وردة، وهو من الكلام الذي يسمى التَّجريد؛ كقوله: [الكامل]

٤٦٤٦ ـ فَلَئِنْ بَقِيتُ لأرحلَنَّ بِغَزْوَةٍ تَحْوِي الغَنَائِمَ أو يَمُوتَ كَرِيمُ[٧]

قوله: «كالدِّهان» يجوز أن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون نعتاً لـ «وَرْدَة»، وأن يكون حالاً من اسم «كانت».

وفي «الدِّهَان» قولان:

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٢). (٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) قائل البيت هو سُحَيم عبد بني الحسحاس، وقيل: نصيب ينظر: سر صناعة الإعراب ١/ ٢٠٣، والممتع لابن عصفور ص ٤١٠، واللسان (عشق)، والتاج ٧/ ١٢ (عشق)، وديوان سحيم ص ٢٦ والبحر ٨/ ١٩٣ والدر المصون ٦/ ٢٤٤.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٩٣، ١٩٤، والدر المصون ٦/ ٢٤٤ والقرطبي ١٧/ ١١٣.

(٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٥٠، والبحر المحيط ٨/ ١٩٤، والدر المصون ٦/ ٢٤٤.

(٦) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٥٠.

(٧) البيت لقتادة بن مسلمة الحنفي.

ينظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/ ٢٢، ومعاهد التنصيص ١/ ٢٥٣، والكشاف ٤/ ٤٨، وشرح شواهده ص ٥٤٢، والبحر المحيط ٨/ ١٩٤ والدر المصون ٦/ ٢٤٤.

أنه جمع «دُهْن» نحو: قُرْط وقِرَاط، ورُمْح ورِمَاح، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨] وهو: دردي الزيت.

والثاني: أنه اسم مفرد.

فقال الزمخشري: «اسم ما يدهن به كالحزام والإدام»؛ وأنشد: [الطويل]

٤٦٤٧ ـ كأنَّهُمَا مَزادَتَا مُتَعَجِّلٍ ... فريَّانِ لمَّا تُدهَنَا بدِهَانِ(١)

وقال غيره: هو الأديم الأحمر؛ وأنشد للأعشى: [الوافر]

٤٦٤٨ ـ وأجْرَدَ مِنْ كِرامِ النَّخْلِ طَرْفٍ ... كأنَّ على شَواكِلِه دِهَانَا(٢)

أي: أديماً أحمر، وهذا يحتمل أن يكون جمعاً، ويؤيده ما أنشده منذر بن سعيد: [الطويل]

٤٦٤٩ ـ تَبِعْنَ الدِّهَانَ الحُمْرَ كُلَّ عَشِيَّةٍ ... بِمَوْسِمِ بَدْرٍ أو بِسُوقِ عُكَاظِ(٣)

فقوله: «الحمر» يحتمل أن يكون جمعاً، وقد يقال: هو كقولهم: أهلك الناس الدينار الحمر"والدرهم البيض، إلاَّ أنه خلاف الأصل.

وقيل: شبهت بالدهان وهو الزيت لذوبها ودورانها.

وقيل: لبريقها.

فصل في معنى الآية

قال المفسرون: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ انصدعت يوم القيامة، ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾.

قال مجاهد والضحاك، وغيرهما: «الدهان»: الدهن(٤)، والمعنى: صارت في صفاء الدّهن، والدهان على هذا جمع دهن.

---

(١) البيت لامرىء القيس ينظر ديوانه (١٦٧) واللسان (عجل)، والتاج ٨/ ٧ (عجل)، والكشاف ٤/ ٤٨ وشرح شواهده ص ٥٥٩، والبحر المحيط ٨/ ١٩٤ والدر المصون ٦/ ٢٤٤.

(٢) رواية الديوان:

وأجرد من فحول الخيل طرف ... .

ينظر ديوانه (١٩٧)، وسمط اللآلي ٢/ ٨٧٥، واللسان (دهن)، والتاج ٩/ ٢٠٦ (دهن). والبحر ٨/ ١٩٤ والدر المصون ٦/ ٢٤٤.

(٣) ينظر البحر ٨/ ١٨٤، والدر المصون ٦/ ٢٤٤.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩٩) عن مجاهد والضحاك وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٩) عن مجاهد وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

وذكره أيضاً عن الضحاك وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

وقال سعيد بن جبير وقتادة: المعنى تصير في حُمْرة الورد، وجريان الدهن[١]، أي: تذوب مع جريان الدهن حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم، وتصير مثل الدهن لرقّتها وذوبانها.

وقيل: الدهان: الجلد الأحمر الصرف. ذكره أبو عبيدة والفراء. أي: تصير السماء كالأديم لشدّة حر نار جهنم.

وعن ابن عباس: المعنى: فكانت كالفرس الورد في الربيع كميت أصفر، وفي الشتاء كميت أحمر، فإذا اشتد الشتاء كان كميتاً أغْبر.

وقال الفراء: أراد الفرس الوردة، تكون في الربيع وردة إلى الصُّفرة، فإذا اشتد البرد كانت وردة؛ فإذا كان بعد ذلك كانت وردةً إلى الغبرة، فشبه تلوّن السماء بتلوّن الورد من الخيل.

وقال الحسن: «كالدِّهان» أي: كصبّ الدهن، فإنك إذا صببته ترى فيه ألواناً.

وقال زيد بن أسلم: المعنى: أنها تصير كعكر الزيت.

وقيل: المعنى أنها تمر وتجيء.

قال الزجاج: أصل الواو والراء والدال للمجيء والإتيان.

وهذا قريب مما تقدم من أن الفرس الوردة تتغير ألوانها، والورد أيضاً: يطلق على الأسد.

وقال قتادة: إنها اليوم خضراء، وسيكون لها لون أحمر[٢]. حكاه الثعلبي.

قال الماوردي: وزعم المتقدمون أن أصل لون السَّماء الحمرة، وأنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة يرى لونها أزرق، وشبهوا ذلك بعروق البدن، وهي حمراء حمرة الدم، وترى بالحائل زرقاء، فإن كان هذا صحيحاً، فإنَّ السماء لقربها من النَّواظر يوم القيامة، وارتفاع الحواجز ترى حمراء؛ لأنها أصل لونها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ التنوين عوض من الجملة، أي: فيومئذ انشقَّت السَّماء، والفاء في «فيومئذٍ» جواب الشرط.

وقيل: هو محذوف، أي: فإذا انشقت السَّماء رأيت أمراً مهولاً ونحو ذلك.

والهاء في «ذنبه» تعود على أحد المذكورين، وضمير الآخر مقدر، أي: ولا يسأل عن ذنبه جانّ أيضاً؛ وناصب الظرف «لا يسأل» و «لا» غير مانعة.

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٩) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وابن المنذر وعبد بن حميد.

وقد تقدم الخلاف فيها في الفاتحة وتقدمت قراءة «جأنٌّ» بالهمزة فيها أيضاً.

فصل في الكلام على هذه الآية

قال المفسرون: هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وأن القيامة مواطن لطول ذلك اليوم، فيسأل في بعض، ولا يسأل في بعض. وهذا قول عكرمة.

وقيل: المعنى لا يسألون إذا استقرُّوا في النَّار. وقال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم؛ لأن الله ـ تعالى ـ حفظها عليهم، وكتبتها الملائكة(١). رواه العوفي عن ابن عباس.

وعن الحسن ومجاهد أيضاً: لا تسأل الملائكة عنهم؛ لأنهم يعرفونهم بسيماهم(٢). دليله قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾، رواه مجاهد عنه أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]، وهو قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾.

قال: لا يسألهم ليعرف ذلك منهم، ولكنهم يسألهم لم عملتموها؟ سؤال توبيخ.

وقال أبو العالية: لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم.

وقال قتادة: يسألون قبل الختم على أفواههم، ثم يختم على أفواههم، وتتكلم جوارحهم شاهدة عليهم(٣).

قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾.

قرأ حماد بن(٤) أبي سليمان: «بِسِيمائِهِمْ» بالمد.

قوله تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى﴾ الآية.

«يُؤخذ» متعدّ، ومع ذلك تعدى بالباء؛ لأنه ضمن معنى «يسحب». قاله أبو حيان(٥).

و «يسحب» إنما يتعدى بـ «على»، قال تعالى: ﴿يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] فكان ينبغي أن يقول: ضمن معنى يتعدى «يدعون أو يدفعون».

وقال مكّي: «إنما يقال: أخذت الناصية، وأخذت بالناصية، ولو قلت: أخذت الدَّابة بالناصية، لم يجز.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩٩) عن ابن عباس وقتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٠) عن ابن عباس وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩٩) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٠) عن مجاهد وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩٩).

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٩٤، والدر المصون ٦/ ٢٤٥.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٩٤.

وحكي عن العرب: أخذت الخِطَام، وأخذت بالخِطَام. بمعنى.

وقد قيل: إن تقديره: فيؤخذ كل واحد بالنَّواصي، وليس بصواب؛ لأنه لا يتعدى إلى مفعولين أحدهما: بالباء، لما ذكرنا، وقد يجوز أن يتعدى إلى مفعولين: أحدهما بحرف جر غير الباء، نحو: أخذت ثوباً من زيد، فهذا المعنى غير الأول، فلا يحسن مع الباء مفعول آخر إلاَّ أن تجعلها بمعنى «من أجل»، فيجوز أن تقول: «أخذت زيداً ثوباً بعمرو» أي: من أجله وبذنبه». انتهى.

وفيما قاله نظر، لأنك تقول: «أخذت الثوب بدرهم» فقد تعدّى بغير «من» أيضاً بغير المعنى الذي ذكره.

وقال ابن الخطيب[1]: فإن قيل: كيف عدي الأخذ بالباء وهو متعد بنفسه قال تعالى: ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ [الحديد: ١٥] وقال: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه: ٢١]؟.

فالجواب أن الأخذ تعدى بنفسه كما تقدم، وبالباء كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ [طه: ٩٤] لكن التدقيق فيه أن المأخوذ إن كان مقصوداً فكأنه ليس هو المأخوذ، فكأن الفعل لم يتعد إليه بنفسه، فيذكر الخوف ويدل على هذا استعمال القرآن، فقال تعالى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه: ٢١]، وقال تعالى ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢] وأخذ الألواح إلى غير ذلك مما هو المقصود بالأخذ غيره، وأسند الأخذ إلى النواصي دون ضمير المجرمين إشارة إلى استيلاء الآخذين على المأخوذين وكثرتهم وكيفية الأخذ.

و «أل» في «النَّواصي والأقْدَام» ليست عوضاً من ضمير عند البصريين، فالتقدير: بالنواصي منهم، وهي عند الكوفيين عوض.

والنَّاصية: مقدم الرأس، وقد تقدم هذا مستوفى في «هود»[2] وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «مَا لَكُم لا تَنُصُّونَ مَيِّتَكُمْ» أي: لا تمدُّون ناصيته.

و «النَّصِيّ»: مرعى طيب، فقولهم: فلان ناصية القوم، يحتمل أن يكون من هذا، يعنون أنه طيب منتفع، أو مثل قولهم: هو رأسُ القَوْمِ انتهى.

فصل في سيما المجرمين

قال الحسن: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي بسواد الأوجه، وزرقة الأعين[3][4] قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

---

(١) ينظر الدر المصون ٦/ ٢٤٥. (٢) آية ٥٦.

(٣) ينظر الرازي ٢٩/ ١٠٥.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٠) عن الحسن وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٠) عن الضحاك وعزاه إلى هناد وعبد بن حميد.

فقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أي: يأخذ الملائكة بنواصيهم، أي: بشعور مقدم رءوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في النار.

و «النَّواصي»: جمع ناصية.

وقال الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره حتى يندقّ ظهره، ثم يلقى في النّار.

وقيل: يفعل به ذلك ليكون أشد لعذابه، وأكثر لتشويهه.

وقيل: تسحبهم الملائكة إلى النّار، تارةً تأخذ بناصيته، وتجرّه على وجهه، وتارةً تأخذ بقدميه وتسحبه على وجهه.

فإن قيل: ما وجه إفراد «يُؤخَذ» مع أن المجرمين جمع، وهم المأخوذون؟.

فالجواب من وجهين[١]: **الأول**: أن قوله: «يُؤخَذُ» متعلق «بالنواصي»، كقولك: ذهب يزيد.

والثاني: أن يتعلق بما يدلّ عليه «يؤخذ»، فكأنه قال: يؤخذ المأخوذون بالنواصي.

قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي يقال لهم: هذه جهنّم.

قال ابن الخطيب[٢]: ويحتمل أن يقال: معناه هذه صفة جهنم، فأقيم المضاف إليه مقام المضاف، وقد يكون المشار إليه هو ما تقدم.

قال: والأقوى أن يقال: الكلام تم عند قوله تعالى: ﴿بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾، وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ﴾ لقربها، كما يقال: هذا زيد قد وصل إذا قرب مكانه، فكأنه قال: جهنم التي يكذب بها المجرمون هذه قريبة غير بعيدة عنهم، ويؤيده قوله: «يُكَذِّبُ»؛ لأن الكلام لو كان بإضمار يقال، لقال تعالى لهم: (هذه جهنم التي كذب بها المجرمون)؛ لأن في ذلك اليوم لا يبقى تكذيب.

قوله تعالى: «يَطُوفُونَ».

قراءة العامة: «يَطُوفون» من «طاف»، **وعلي بن أبي طالب**[٣] ـ رضي الله عنه ـ وأبو عبد الرحمن: «يُطَافُونَ» مبنيًا للمفعول، من أطافهم غيرهم.

والأعمش[٤] **وطلحة وابن مقسم**: «يُطَوِّفُون» بضم الياء وفتح الطاء وكسر الواو مشددة، أي يطوفون أنفسهم.

وقرأت فرقة: «يَطَّوَّفُونَ» بتشديد الطّاء والواو، والأصل: «يتطوّفون».

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ٢٩/ ١٠٥. (٢) ينظر: الرازي ٢٩/ ١٠٧.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٢، والبحر المحيط ٨/ ١٩٤، والدر المصون ٦/ ٢٤٥.

(٤) السابق.

قوله تعالى: ﴿حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ أي: حَارّ متناهٍ في الحرارة، وهو منقوص كـ «قاض» يقال: «أتَى يَأتِي فهو آتٍ» كـ «قَضَى يَقْضِي فهو قَاضٍ». وقد تقدم في «الأحزاب».

قال قتادة: يطوفون مرة بين الحميم، ومرة بين الحميم والجحيم[١].

و «الحميم»: الشّراب. وفي قوله تعالى: «آنٍ» ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه الذي انتهى حرّه وحميمه. قاله ابن عبَّاس، وسعيد بن جبير، والسدي[٢]، ومنه قول النابغة الذبياني: [الوافر]

٤٦٥٠ ـ وتُخْضَبُ لِحْيَةٌ غَدَرَتْ وخَانَتْ بِأحْمَرَ مِنْ نَجِيعِ الجَوْفِ آنِ[٣]

وقال قتادة: «آن» طبخ منذ خلق الله السموات والأرض[٤]، يقول: إذا استغاثوا من النار جعل غيائهم ذلك.

وعن كعب: أنه الحاضر، وعنه أيضاً: «آن» اسم واد من أودية جهنّم.

وقال مجاهد: إنه الذي قد آنَ شربه، وبلغ غايته.

ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

فإن قيل: هذه الأمور ليست نعمة، فكيف قال: بأي آلاء؟.

فالجواب من وجهين[٥]:

أحدهما: أن ما وصف من هَوْلِ القيامة، وعقاب المجرمين فيه زَجْر عن المعاصي، وترغيب في الطَّاعات وهذا من أعظم النعم.

روي أن النبي ﷺ أتى على شاب في الليل يقرأ: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ فوقف الشَّاب، وخنقته العبرة، وجعل يقول: ويحي من يوم تنشقُّ فيه السماء وَيْحِي، فقال النبي ﷺ: «ويحك يا فتى، يأتيني مثلها، فوالذي نَفْسِي بيدهِ لقَدْ بَكَتْ ملائكةُ السَّماءِ مِنْ بُكائِكَ»[٦].

الثاني: أن المعنى كذبتم بالنعم المتقدمة ما استحقيتم هذه العقوبات، وهي دالة على الإيمان بالغيب، وهو من أعظم النعم.

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٠٠ ـ ٦٠١) عن ابن عباس والضحاك وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠١) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر ديوانه ص ١١٣، ومجاز القرآن ٢/ ٢٤٥، ومعاني القرآن للأخفش ص ٦٥، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١٣، والمحتسب ١/ ٣٦٧، والطبري ٢٧/ ٨٤، والقرطبي ١٧/ ١١٤.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٠١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠١) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.

(٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١١٤.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٠) وعزاه إلى محمد بن نصر في «كتاب الصلاة» عن لقمان بن عامر الحنفي.

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ
﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ
فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ
دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ
جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.

يجوز أن يكون «مَقَام» مصدراً، وأن يكون مكاناً.

فإن كان مصدراً، فيحتمل أن يكون مضافاً لفاعله، أي: قيام ربه عليه، وحفظه لأعماله من قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ﴾ [الرعد: ٣٣]. ويروى عن مجاهد، قال مجاهد وإبراهيم النَّخعي: هو الرجل يهمّ بالمعصية، فيذكر الله فيدعها من خوفه[(١)].

وأن يكون مضافاً لمفعوله، والمعنى: القيام بحقوق الله فلا يضيعها.

وإن كان مكاناً، فالإضافة بأدنى ملابسة لما كان النَّاس يقومون بين يدي الله للحساب في عرصات القيامة[(٢)].

قيل: فيه مقام الله، والمعنى: خاف مقامه بين يدي ربه للحساب، فنزلت المعصية، فـ «مقام»: مصدر بمعنى القيام.

فصل فيمن علق طلاق زوجته على دخوله الجنة

قال القرطبي[(٣)]: هذه الآية دليل على أن من قال لزوجته: إن لم أكُن من أهل الجنة فأنت طالق، أنه لا يحنث إن كان هم بالمعصية وتركها خوفاً من الله وحياء منه. وقاله سفيان الثوري وأفتى به.

فصل في المراد بالجنتين

الظاهر أن الجنتين لخائف واحد.

قال محمد بن علي الترمذي: جنّة لخوفه من ربه، وجنّة لتركه شهوته.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٠٢) عن مجاهد وإبراهيم النخعي وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٢) عن مجاهد وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في «التوبة» وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٤٦. (٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١١٥.

قال ابن عباس: من خاف مقام ربه بعد أداء الفرائض.

قال القرطبي[١]: ويجوز أن يكون المقام للعبد، ثم يضاف إلى الله، وهو كالأجل في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٤] وقوله في موضع آخر: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ أي: كل خائف له جنتان على حدة.

وقيل: جنتان لجميع الخائفين. والأول أظهر.

وقيل: جنة لخائف الإنس، وأخرى لخائف الجن، فيكون من باب التوزيع. وقيل: «مقام» هنا مُقحم، والتقدير: «ولمن خاف ربه»؛ وأنشد: [الوافر]

٤٦٥١ ـ .... ونَفَيْتُ عَنْهُ مَقَامَ الذِّئْبِ كالرَّجُلِ اللَّعِينِ[٢]

أي: نفيت الذئب وليس بجيد، لأنَّ زيادة الاسم ليست بالسهلة.

وقيل: المراد بـ «الجنتين»: جنّة للجزاء، وأخرى زيادة على الجزاء.

وقيل: إن الجنتين: جنته التي خلقت له، وجنة ورثها.

وقيل: إحدى الجنتين منزله، والأخرى منزل أزواجه كما يفعله رؤساء الدنيا.

وقيل: إحدى الجنتين مسكنه، والأخرى بستانه.

وقيل: إن إحدى الجنتين أسافل القصور، والأخرى أعاليها.

وقال مقاتل: هما جنة عدن وجنة النعيم.

وقال الفرَّاء[٣]: إنها جنة واحدة، وإنما ثنّى مراعاة لرءوس الآي.

وقيل: جنة واحدة، وإنما ثنّى تأكيداً كقوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤].

وأنكر القتبي هذا، وقال: لا يجوز أن يقال: خزنة النار عشرون، وإنما ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] مراعاة لرءوس الآي.

وأيضاً قال: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾.

وقال عطاء وابن شوذب: نزلت هذه الآية في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ حين ذكر ذات يوم الجنّة حين أزلفت، والنّار حين برزت[٤].

وقال الضحاك: بل شرب ذات يوم لبناً على ظمأ، فأعجبه فسأل عنه، فأخبر أنه من غير حلٍّ فاستقاءه ورسول الله ﷺ ينظر إليه، فقال: «رحمكَ اللَّهُ لقَدْ أنْزِلَتْ فِيْكَ آيَةٌ»، وتلا عليه هذه الآية[٥].

---

(١) السابق. (٢) تقدم.

(٣) القرطبي ١٧/ ١١٥.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠١) وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن ابن شوذب.

(٥) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ٤٣٧) عن الضحاك.

قوله تعالى: «ذَوَاتَا». صفة لـ «جَنَّتَان»، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: «هما ذواتا».

وفي تثنية «ذات» لغتان:

الرد إلى الأصل، فإن أصلها «ذوية»، فالعين واو، واللام ياء؛ لأنها مؤنثة «ذو».

الثانية: التثنية على اللفظ. فيقال: «ذواتا».

و «الأفنان»: فيه وجهان.

أحدهما: أنه جمع «فَنَن» كـ «طلل»، وهو الغصن.

قال النابغة الذبياني: [الوافر]

٤٦٥٢ ـ بُكَاءُ حَمَامَةٍ تَدْعُو هَدِيلاً ... مُفَجَّعَةٍ على فَنَنٍ تُغَنِّي(١)

وقال آخر: [الرمل]

٤٦٥٣ ـ رُبَّ وَرْقَاءَ هَتُوفٍ بالضُّحَى ... ذَاتِ شَجْوٍ صَدَحَتْ في فَنَنِ(٢)

وقال آخر: [الطويل]

٤٦٥٤ ـ .... عَلَى كُلِّ أفْنَانِ العِضَاهِ تَرُوقُ(٣)

و «الفَنَن»: جمعه أفنان ثم الأفانين.

قال الشاعر يصف رحى: [الرجز]

٤٦٥٥ ـ لَهَا زِمَامٌ مِنْ أفَانِينِ الشَّجَرْ(٤)

وشجرة فناء: أي ذات أفنان، وفنواء أيضاً على غير قياس.

وفي الحديث: «أنَّ أهْلَ الجنَّةِ مُردٌ مُكَحَّلُون أولُو أفَانِيْن»(٥).

وهو جمع أفنان، وأفنان: جمع «فَنَن» من الشعر، شبه بالغصن. ذكره الهروي.

وقيل: «ذواتا أفنان» أي: ذواتا سعة وفضل على ما سواهما. قاله قتادة(٦).

---

(١) ينظر ديوانه (١٣٦)، والقرطبي ١٧/ ١١٦، والبحر ٨/ ١٨٥ والدر المصون ٦/ ٢٤٦.

(٢) ينظر الدر المصون ٦/ ٢٤٦. (٣) تقدم.

(٤) ينظر: اللسان (فتن)، والتاج (فتن)، والقرطبي ١٧/ ١١٦.

(٥) يشهد له حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين بني ثلاث وثلاثين». أخرجه الترمذي رقم (٢٥٤٥) وفي سنده شهر بن حوشب وفيه ضعف. وله شاهد أيضاً من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً بيضاً جعاداً مكحلين».

أخرجه الترمذي (٢٥٤٠). وذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢٧٤.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٠٤) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٤) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد.

وعن مجاهد أيضاً وعكرمة: أن الأفنان ظل الأغصان على الحِيْطان[١].

وقال مجاهد: الفنن: هو الغصن المستقيم طولاً.

الوجه الثاني: أنه جمع «فنّ» كـ «دنّ»، وإليه أشار ابن عبَّاس.

والمعنى: ذواتا أنواع وأشكال؛ وأنشدوا: [الطويل]

٤٦٥٦ ـ ومِنْ كُلِّ أفْنَانِ اللَّذَاذَةِ والصِّبَا لَـهَـوْتُ بِـهِ والـعَـيْـشُ أخْـضـرُ نَـاضِـرُ[٢]

قال سعيد بن جبير والضحاك: ألوان من الفاكهة[٣]، واحدها: «فنّ»، من قولهم: «افتنّ فلان في حديثه» إذا أخذ في فنون منه وضروب، إلا أن الكثير في «فنّ» أن يجمع على «فنون»، وجمع عطاء بين القولين فقال: في كل غصن فنون من الفاكهة.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي: في كل واحدة منهما عينٌ جارية، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية: ١٢] تجريان ماء بالزيادة، والكرامة من الله ـ تعالى ـ على أهل الجنَّة.

وعن ابن عباس أيضاً والحسن: تجريان بالماء الزلال[٤]، إحدى العينين: التسنيم؛ والأخرى السلسبيل.

وقال ابن عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذّة للشَّاربين.

وقيل: تجريان من جبل من مسك.

وقال أبو بكر الوراق: فيهما عينانِ تجريانِ، لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، أي: صنفان ونوعان.

قيل: معناه: أن فيهما من كل ما يتفكه به ضربين رطباً ويابساً.

وقال ابن عبَّاس: ما في الدنيا ثمرة حُلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحَنْظل إلاّ أنه حلو[٥].

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٤) عن عكرمة وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وأبي بكر بن حبان في «الفنون» وابن الأنباري في «الوقف والابتداء».

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٩، وشرح شواهده ص ٤٢٣، والبحر ٨/ ١٨٥.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٠٤) عن الضحاك وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٠٣).

(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٤) عن الحسن.

(٥) ينظر المصدر السابق. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٤) عن عكرمة مثله وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾، و ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾، و ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾. أوصاف للجنتين المذكورتين، فهو كالكلام الواحد، تقديره: «جنتان ذواتا أفنان، وفيهما عَيْنَان تجريان، وفيهما من كل فاكهة زوجان» فما الفائدة في فصل بعضها عن بعض بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ مع أنه لم يفصل حين ذكر العذاب بين الصفات، بل قال: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ مع أن إرسال النُّحاس غير إرسال الشُّواظ. وقوله: «يَطُوفُون» كلام آخر؟.

فالجواب: أنه جمع العذاب جملة، وفصل آيات الثواب ترجيحاً لجانب الرحمة على جانب العذاب، وتطييباً للقلب، وتهييجاً للسَّامع؛ فإن إعادة ذكر المحبوب محبوب، وتطويل الكلام في اللذات مستحسن.

فإن قيل: ما وجه توسيط آية العينين بين ذكر الأفنان، وآية الفاكهة والفاكهة إنما تكون على الأغصان، فالمناسبة ألاّ يفصل بين آية الأغصان والفاكهة؟.

فالجواب: أنه على عادة المتنعمين إذا خرجوا يتفرجون في البستان، فأول قصدهم الفرجة بالخضرة والماء، ثم يكون الأكل تبعاً.

قوله: «متّكِئين» يجوز أن يكون حالاً من «منْ» في قوله ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ وإنما جمع حملاً على معنى «مَنْ» بعد الإفراد حملاً على لفظها.

وقيل: حال عاملها محذوف، أي: يتنعمون متكئين.

وقيل: منصوب على الاختصاص.

والعامة على: «فُرُش» بضمتين، **وأبو حيوة**[١]: بضمة وسكون، وهي تخفيف منها.

قوله تعالى: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ هذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة والظاهر أنها صفة لـ «فُرش». وتقدم الكلام في «الاستبرق» في سورة الكهف[٢].

وقال أبو البقاء: أصل الكلمة فعل على «اسْتَفْعَلَ»، فلما سمي به قطعت همزته[٣].

وقيل: هو أعجمي، **وقرىء**[٤] **بحذف** الهمزة، وكسر النون، وهو سهو؛ لأن ذلك لا يكون في الأسماء، بل في المصادر والأفعال. انتهى. أما قوله: وهو سهو؛ لأن ذلك لا يكون إلا في الأسماء. . . الخ.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٣، والبحر المحيط ٨/ ١٩٥، والدر المصون ٦/ ٢٤٦.
(٢) آية رقم (٣١)، وينظر: الدر المصون ٦/ ٢٤٦.
(٣) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢٠٠، الدر المصون ٦/ ٢٤٦، ٢٤٧.
(٤) ينظر: السابق.

يعني أن حذف الهمزة في الدَّرج لا يكون إلا في الأفعال والمصادر.

وأما الأسماء فلا تحذف همزاتها؛ لأنها همزات قطع.

قال شهاب الدين[١]: «وهذا الكلام أحق بأن يكون سهواً؛ لأنا أولاً لا نسلم أن هذه القراءة من حذف همزة القطع إجراءً لها مجرى همزة الوصل، وإنما ذلك من باب نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها، وحركة الهمزة كانت كسرة، فحركة النون حركة نقل لا حركة التقاء الساكنين».

ثم قوله: «إلا في الأفعال والمصادر» ليس هذا الحَصْر بصحيح اتفاقاً لوجود ذلك في أسماء عشرة ليست بمصادر تقدم ذكرها في أول الكتاب.

قال ابن الخطيب[٢]: قوله: «عَلَى فُرُشٍ» متعلق بما في «مُتَّكِئِينَ»، كأنه يقول: يتَّكئون على فرش، كما يقال: فلان اتكَّأ على عصاه، أو على فخذيه، وهذا لأن الفراش لا يتكأ عليه، وإن كان متعلقاً بغيره فما هو؟.

فنقول: تقديره: يتفكّه الكائنون على فرش متكئين، من غير بيان ما يتكئون عليه.

فصل في تحرير معنى الاستبرق

«الإِسْتَبْرَقُ»: ما غلظ من الدِّيباج.

قال ابن مسعود، وأبو هريرة: إذا كانت البطانة التي تلي الأرض هكذا فما ظنك بالظهارة[٣]؟.

وقيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر؟.

قال: هذا مما قال الله: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ﴾[٤] [السجدة: ١٧].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما وصف لكم بطائنها لتهتدي إليه قلوبكم، فأما الظواهر فلا يعلمها إلا الله[٥].

قال القرطبي: وفي الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «ظَواهِرُهَا نُورٌ يتلألأُ» وعن الحسن: البطائن هي الظَّواهر[٦]، وهو قول الفراء.

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٤٧. (٢) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ١١١.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٠٥) والحاكم (٢/ ٤٧٥) عن ابن مسعود.
وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٤) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «البعث».

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٠٥). (٥) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٤).

(٦) ذكره القرطبي في تفسيره ١٧/ ١١٧.

روي عن قتادة: والعرب تقول للبطن: ظهراً[١]، فيقولون: هذا بطن السماء، وظهر الأرض.

وقال الفرّاء: قد تكون البطانة: الظهارة، والظهارة: البطانة؛ لأنَّ كل واحد منهما يكون وجهاً، والعرب تقول: هذا ظهر السماء، وهذا بطن السماء لظاهرها الذي تراه.

وأنكر ابن قتيبة وغيره هذا، وقالوا: لا يكون هذا إلاَّ في الوجهين المتساويين إذا ولي كل واحد منهما قوماً كالحائط بينك وبين قوم، وعلى ذلك أمر السماء.

وقال ابن عباس: وصف البطائن وترك الظواهر؛ لأنه ليس في الأرض أحد يعرف ما الظَّواهر[٢].

فصل في أن الإستبرق معرب

قال ابن الخطيب[٣]: الإستبرق معرب، وهو الدِّيْبَاج الثخين، وكما أن الديباج معرب بسبب أن العرب لم يكن عندهم ذلك إلا من العجم تصرفوا فيه، وهو أن أصله بالفارسية «ستبرك» بمعنى: ثخين، فزادوا في أوله همزة، وبدلوا الكاف قافاً، أما الهمزة فلأن حركات أوائل الكلم في لسان العجم غير مبنية في كثير من المواضع، فصارت كالسكون، فأثبتوا فيه همزة كما يجلبون همزة الوصل عند سكون أول الكلمة، ثم إنَّ البعض جعلوها همزة وصل، وقالوا: «مِن اسْتَبْرَقٍ». والأكثرون جعلوها همزة قطع؛ لأن أول الكلمة في الأصل متحرك، لكن بحركة فاسدة، فأتوا بهمزة تسقط عنهم الحركة الفاسدة، وتمكنهم من تسكين الأول؛ لأن عند تساوي الحركة العود إلى السُّكون أقرب، وأواخر الكلمات عند الوقف تسكن، ولا تبدل حركة بحركة.

وأما القافُ فلأنهم أرادوا إظهار كونها فارسية أو أعجمية، فأسقطوا منها الكاف التي هي حرف تشبيه، وعلى لسان العرب في أواخر الكلم للخطاب لو تركت الكاف لاشتبه «ستبرك» بـ «مسجدك»، إذا لحقت كاف الخطاب بهما، فلو تركت الكاف قافاً أولاً، ثم ألحقت الهمزة بأولها، وهذا ومثله لا يخرج القرآن عن كونه عربيًّا؛ لأن العربي ما نطقت به العرب وضعاً واستعمالاً من لغة غيرها، وذلك كله سهلٌ عليهم، وبه يحصل الإعجاز، بخلاف ما لم يستعملوه من كلام العجم لصعوبته عليهم، وذكر الاتكاء؛ لأنه حال الصَّحيح الفارغ القلب المتنعم، بخلاف المريض والمهموم.

قوله تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ مبتدأ وخبر، وأصله: «دان» مثل «غاز» فأعل كإعلاله.

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ٤٣٩). (٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٤).

(٣) ينظر تفسير الفخر الرازي ٢٩/ ١١١.

وقرأ عيسى[١] **بن عمر**: «وجَنِي» بكسر النون.

وتوجيهها: أن يكون أمال الفتحة لأجل الألف، ثم حذف لالتقاء الساكنين، وأبقى إمالة النون نحو الكسرة **وقرئ**[٢]: «وجِنَى» بكسر الجيم، وهي لغة.

والجنى: ما يقطف من الثِّمار، وهو «فَعْلٌ» بمعنى «مفعول» كالقَبْضِ والقنص.

فصل في المراد بالجنى

قال القرطبي: «الجنى»: ما يُجتنى من الشجر، تقول: أتانا الشجرِ بجناة طيبة لكل ما يجتنى، وثمرة جنيٌّ على «فَعِيل» حين جُني.

قوله: «دانٍ» أي: قريب.

قال ابن عبَّاس: تدنو الشجرة حين يجتنيها ولي الله إن شاء قائماً، وإن شاء قاعداً، وإن شاء مضطجعاً[٣].

وقال قتادة: لا يرد يده بعد، ولا شوك[٤].

قال ابن الخطيب[٥]: جنة الآخرة مخالفة لجنّة الدنيا من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الثمرة على رءوس الشجر في الدنيا بعيدة على الإنسان المتّكىء، وفي الجنة هو متكىء، والثمرة تتدلى إليه.

ثانيها: أن الإنسان في الدنيا يسعى إلى الثمرة، ويتحرك إليها، وفي الآخرة هي تدنُو إليهم، وتدور عليهم.

وثالثها: أنَّ الإنسان في الدنيا إذا قرب من ثمر شجرة بعد عن غيرها، وثمار الجنة كلها تدنو إليهم في وقت واحد، ومكان واحد.

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾.

اختلف في هذا الضمير.

فقيل: يعود على الجنات.

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٩٦، والدر المصون ٦/ ٢٤٧.

(٢) ينظر السابق، والكشاف ٤/ ٤٥٢.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٠٥) عن ابن عباس بمعناه وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٤) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «البعث».
وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٤).

(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٤).

(٥) التفسير الكبير ٢٩/ ١١١، ١١٢.

فإن قيل: كيف تقدّم تثنيته في قوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ﴾، و ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ ثم أتى بضمير جمع؟.

فالجواب[١]: أن أقلّ الجمع اثنان على قول، وله شواهد تقدم أكثرها، أو يقال: عائد إلى الجنّات المدلول عليها بالجنتين.

أو يقول: كل فرد فرد له جنتان فصح أنها جنان كثيرة، وإما أن الجنة تشتمل على مجالس وقصور ومنازل، فأطلق على كل واحد منها جنة.

وقيل: يعود على الفرش.

قال الزمخشري[٢]: «فِيهِنَّ» أي: في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين، والفاكهة والفرش والجنى.

قال أبو حيان[٣]: «وفيه بُعْد» وكأنه قد استحسن الوجه الأول وفيه نظر؛ لأن الاستعمال أن يقال: على الفراش كذا، ولا يقال: في الفراش كذا إلا بتكلّف.

فلذلك جمع الزمخشري مع الفرش غيرها حتى صح له أن يقول: «فيهن» بحرف الظرفية؛ ولأن الحقيقة أن يكون الإنسان على الفرش لأنه مستعمل عليها.

وأما كونها فيها فلا يقال إلا مجازاً.

وقال الفراء: كل موضع في الجنة، فلذلك صح أن يقال: «فيهن».

والقاصرات: الحابسات الطَّرف: أي يحبسن أعينهن عن غير أزواجهن.

ومعناه: قصرن ألحاظهن على أزواجهن.

قال امرؤ القيس: [الطويل]

٤٦٥٧ ـ مِنَ القَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مِحْوَلٌ   مِنَ الذَّرِّ فوقَ الإتبِ مِنها لأثَّرا[٤]

و «قاصرات الطّرف» من إضافة اسم الفاعل لمنصوبه تخفيفاً، إذ يقال: قصر طرفه على كذا، وحذف متعلق القصر للعلم به، أي: على أزواجهن.

وقيل: معناه: قاصرات طرف غيرهن عليهن إذا رآهن أحد لم يتجاوز طرفه إلى غيرهن[٥].

ووحد الطرف مع الإضافة إلى الجمع؛ لأنه في معنى المصدر[٦]، من طرفت عيناه

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/١٩٦، والدر المصون ٦/٢٤٧.
(٢) الكشاف ٤/٤٥٣.
(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/١٩٦، والدر المصون ٦/٢٤٧.
(٤) تقدم.
(٥) ينظر: الدر المصون ٦/٢٤٧، ٢٤٨.
(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/١٩٦.

تطرف طرفاً، يقال: ما فيها عين تطرف، ثم سميت العين بذلك، فأدى عن الواحد والجمع، كقولهم: «قَومٌ عَدْل، وصَوْم». قاله القرطبي(١).

واعلم أن هذا الترتيب في غاية الحسن(٢)؛ لأنه بيَّن أولاً المَسْكن وهو الجنة، ثم بين ما يتنزّه به وهو البستان، والأعين الجارية، ثم ذكر المأكول، فقال: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوۡجَانِ﴾، ثم ذكر موضع الرَّاحة بعد الأكل وهو الفرش، ثم ذكر ما يكون في الفراش معه.

قال ابن الخطيب(٣): وقوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾.

أي: نساء أو أزواج، فحذف الموصوف لنكتة وهو أنه ـ تعالى ـ لم يذكرهُنّ باسم الجنس، وهو النساء بل بالصفات، فقال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢]، ﴿وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا﴾ [النبأ: ٣٣] ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾، ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ﴾ [الرحمن: ٧٢] ولم يقل: نساء عُرباً، ولا نساء قاصرات، لوجهين:

إما على عادة العظماء كبنات الملوك إنما يذكر بأوصافهنّ، وإما لأنهن لما كملن كأنهن خرجن من جنسهن.

وقوله تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ يدل على عفّتهن، وعلى حسن المؤمنين في أعينهن، فيحببن أزواجهن حبًّا يشغلهنَّ عن النَّظر إلى غيرهم، ويدل أيضاً على الحياء؛ لأن الطرف حركة الجفن، والحييَّةُ لا تحرك جفنها، ولا ترفع رأسها.

قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ﴾.

هذه الجملة يجوز أن تكون نعتاً لـ «قاصرات»، لأن إضافتها لفظية، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

وقوله: [البسيط]

٤٦٥٨ ـ يَا رُبَّ غَابِطِنَا لَوْ كَانَ يَطْلُبُكُمْ ....(٤)

وأن يكون حالاً لتخصيص النكرة بالإضافة.

واختلف في هذا الحرف والذي بعده عن الكسائي، فنقل عنه أنه يجيء في ضم أيهما شاء.

ونقل عنه الدوري ضم الأول فقط.

ونقل عنه أبو الحارث: ضم الثاني فقط، وهما لغتان.

يقال: طَمَثَها يَطْمِثها ويَطْمُثها إذا جامعها(٥)، لما روى أبو إسحاق السبيعي قال:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١١٧.

(٢) ينظر: الرازي ٢٩/ ١١٢.

(٣) السابق ٢٩/ ١١٣.

(٤) تقدم.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٤٨.

كنت أصلي خلف أصحاب عليٍّ فأسمعهم يقولون: «لم أطْمِثْهُنّ» بالرفع، وكنت أصلي خلف أصحاب عبد الله فأسمعهم يقولون: بكسر الميم، وكان الكسائي يضم إحداهما، ويكسر الأخرى لئلاّ يخرج عن هذين الأثرين[١].

وأصل «الطَّمْث»: الجماع المؤدّي إلى خروج دم البكر، ثم أطلق على كل جماع طمث، وإن لم يكن معه دم.

وقيل: «الطّمث»: دم الحيض ودم الجماع، فيكون أصله من الدم.

ومنه قيل للحائض: طامث، كأنه قيل: لم يدمهن بالجماع إنس قبلهم ولا جانّ.

وقيل الطمث: المسّ الخالص[٢].

وقال الجحدري، وطلحة بن مصرف[٣]: «يطمثهن» بفتح الميم في الحرفين، وهو شاذ، إذ ليست عينه ولا لامه حرف حلق.

والضمير في «قبلهم» عائد على الأزواج الدال عليهم قوله: ﴿قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾، أو الدَّال عليه «متكئين»[٤].

فصل في تحرير معنى الطمث

قال القرطبي[٥]: «لم يطمثهن» أي: لم يصبهن بالجماع قبل أزواجهن أحد.

قال الفراء: والطَّمْث: الافتضاض والنكاح بالتدمية، طَمَثَها يَطْمِثُها طَمْثاً إذا افتضها.

ومنه قيل: امرأة طامث أي: حائض.

وغير الفراء يخالفه في هذا ويقول: طمثها بمعنى وطىء على أيّ الوجوه كان، إلا أن الفراء أعرف وأشهر.

قال الفرزدق: [الوافر]

٤٦٥٩ ـ وقَعْنَ إليَّ لَمْ يُطْمَثْنَ قَبْلِي وهُنَّ أصحُّ مِنْ بَيْضِ النَّعَامِ[٦]

وقال أبو عمرو: الطَّمث والمس، وذلك في كل شيء يمسّ، ويقال للمرتع: ما طمث ذلك المرتع قبله أحد، وما طمث هذه النَّاقة حبل، أي ما مسها عقال وقال المبرد: لم يذللهن إنس ولا جان، والطمث: التذليل.

---

(١) ينظر: السبعة ٦٢١، والحجة ٦/ ٢٥٢، ٢٥٣، وإعراب القراءات ٢/ ٣٣٩، وحجة القراءات ٦٩٤، والعنوان ١٨٤، وشرح شعلة ٥٩٤، وشرح الطيبة ٦/ ٣٤، وإتحاف ٢/ ٥١٢.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٤٨.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٩٦، والدر المصون ٦/ ٢٤٨.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٤٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١١٨.

(٦) ينظر اللسان (طمث)، والتابع ١/ ٦٣٢ (طمث)، ومجمع البيان ٩/ ٣١٣، والقرطبي ١٧/ ١٨٢.

وقرأ **الحسن**[١]: «جأن» بالهمزة.

فصل في أن الجن يجامعون ويدخلون الجنة كالإنس[٢]

دلّت هذه الآية على أن الجن تغشى كالإنس، وتدخل الجنة، ويكون لهم فيها جنّيات.

قال ضَمْرَة: للمؤمنين منهم أزواج من الحُور، فالإنسيَّات للإنس، والجنّيات للجن.

وقيل: معناه: لم يطمث ما وهب الله للمؤمنين من الجنّ في الجنَّة من الحور العين من الإنسيّات إنس، وذلك لأن الجن لا تطأ بنات آدم في الدنيا. ذكره القشيري.

قال القرطبي[٣]: قد مضى القول في سورة «النمل» وفي «سبحان» وأنه جائز أن تطأ بنات بني آدم.

وقد قال مجاهد: إنه إذا جامع الرجل، ولم يسم انطوى الجانّ على إحليله فجامع معه، فذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ يعلمك أن نساء الدنيا لم يطمثهن الجان. والحور العين قد برئن من ذلك العيب.

قال مقاتل قوله: «لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان»؛ لأنهن خلقن في الجنة، فعلى قوله يكونون من حور الجنة.

وقال الشعبي: من نساء الدنيا لم يَمْسَسْهن منذ أنشئن خلقٌ، وهو قول الكلبي، أي لم يجامعهن في الخلق الذي فيه إنس ولا جان[٤].

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾.

هذه الجملة يجوز أن تكون نعتاً لـ «قَاصِرَات»، وأن تكون حالاً منها. ولم يذكر مكي غيره[٥].

و «اليَاقُوت»: جوهر نفيس، يقال: إن النار لم تؤثر فيه.

ولذلك قال الحريري: [البسيط]

٤٦٦٠ ـ وطَالَمَا أصلي اليَاقوتُ جَمْر غَضَى ... ثُمَّ انطفَى الجَمْرُ والياقوتُ يَاقوتُ[٦]

---

(١) وقرأ بها عمرو بن عبيد كما في المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٤، وينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١١٨.

(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١١٨. (٣) ينظر السابق.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٥) وعزاه إلى سعيد بن منصور وابن المنذر.

(٥) ينظر: المشكل ٢/ ٧٠٨، والدر المصون ٦/ ٢٤٨.

(٦) ينظر: البحر ٨/ ١٨٥.

أي حاله لم يؤثر بها، وجه التشبيه كما قال الحسن في صفاء الياقوت، وبياض المرجان، وهذا على القول بأنه أبيض.

وقيل: الوجه في الصفة بهما لنفاستهما لا للونهما، ولذلك سموا بمرجانة ودُرَّة وشبه ذلك.

قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.

قرأ ابن أبي[(١)] **إسحاق**: «إلا الحسان» أي: الحور الحسان.

قال القرطبي[(٢)]: هَلْ في الكلام على أربعة أوجه: تكون بمعنى «قد»، كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: ١]، ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ [طه: ٩]، وبمعنى الاستفهام كقوله: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤].

وبمعنى الأمر كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

وبمعنى «ما» في الجَحْد كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، و ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.

قال ابن الخطيب[(٣)]: في هذه الآية وجوهٌ كثيرة حتى قيل: إنَّ في القرآن ثلاث آيات في كل واحدة منها مائة قول:

أحدها: قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

ثانيها: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨].

ثالثها: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ والمشهور منها أقوال:

أحدها: قال عكرمة: أي: هل جزاء من قال: لا إله إلاَّ الله، وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة[(٤)].

وقيل: هل جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة. قاله ابن زيد.

وروى أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قرأ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ ثم قال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قال: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة.

وروى ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية، فقال: «يقول الله تعالى: هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي إلاّ أنْ أُسكنه جنَّتي وحظيرة قدسي برحمتي»[(٥)].

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٩٦، والدر المصون ٦/ ٢٤٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١١٩. (٣) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/ ١١٥.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٧) عن عكرمة وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٥) أخرجه البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٦) من طريق الثعلبي. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٧) وزاد نسبته إلى الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» والديلمي في «مسند الفردوس» وابن النجار في «تاريخه». وله شاهد من حديث ابن عباس ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٧) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

وقال الصادق: هل جزاء من أحسنت إليه في الأزل إلا حفظ الإحسان إليه في الأبد.

قال ابن الخطيب: والأقرب أنه عام، فجزاء كل من أحسن إلى غيره أن يحسن هو أيضاً(١).

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَآمَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٧٨)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾.

أي: من دون تلك الجنتين المتقدمتين جنَّتان في المنزلة وحسن المنظر، وهذا على الظاهر من أن الأوليين أفضل من الأخريين، وقيل: بالعكس، ورجحه الزمخشري(٢).

وقال: قوله: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ مع قوله في الأوليين: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ يدل على أن مرتبة هاتين دونهما، وكذلك قوله في الأوليين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ مع قوله في هاتين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾؛ لأن النضخ دون الجري، وقوله في الأوليين: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ مع قوله في هاتين: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾، وقوله في الأوليين: ﴿فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ حيث ترك ذكر الظهائر لعلوها ورفعتها، وعدم إدراك العقول إياها، مع قوله في هاتين: «رفرفٍ خُضرٍ» دليل عليه.

وقال القرطبي(٣): لما وصف الجنتين أشار إلى الفرق بينهما، فقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ وفي الأخريين: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ ولم يقل: من كل فاكهة.

وقال في الأوليين: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو الدِّيباج.

وفي الأخريين: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: ٧٦] و «العَبْقَرِي»: الوشْي، والديباج أعلى من الوشي.

والرفرف: كسرُ الخباء، والفرش المعدة للاتِّكاء عليها أفضل من كسر الخباء.

---

(١) ينظر السابق.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٥٤، والبحر المحيط ٨/ ١٩٦، ١٩٧، والدر المصون ٦/ ٢٤٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١١٩، ١٢٠.

وقال في الأوليين في صفة الحور: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾.

وفي الأخريين: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾، وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان.

وقال في الأوليين: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾.

وفي الأخريين: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي: خضراوان كأنهما من شدة خضرتهما سوداوان، وفي هذا كله بيان لتفاوت ما بينهما.

قال ابن الخطيب[١]: ويمكن أن يجاب الزمخشري بأن الجنتين اللتين من دونهما لذريتهم التي ألحقهم الله ـ تعالى ـ بهم ولأتباعهم لا لهم، وإنما جعلها لهم إنعاماً عليهم، أي: هاتان الأخريان لكم، أسكنوا فيهما من تريدون.

وقيل: إن المراد بقوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي: دونهما في المكان، كأنهم في جنتين، ويطلعون من فوق على جنتين أخريين، بدليل قوله تعال: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠].

وقال ابن عباس: ومن دونهما في الدّرج[٢].

وقال ابن زيد: ومن دونهما في الفضل[٣].

وقال ابن عباس: والجنات لمن خاف مقام ربه، فيكون في الأوليين: النخل والشجر، وفي الأخريين: الزرع والنبات[٤].

وقيل: المراد من قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ لأتباعه لقصور منزلتهم عن منزلة أحدهما للحور العين، والأخرى للولدان المخلدون ليتميز بها الذكور من الإناث.

وقال ابن جريج: هي أربع جناتٍ منها للسابقين المقربين فيها من كل فاكهة زوجان، وعينان تجريان، وجنات لأصحاب اليمين فيها فاكهة ونخل ورمان.

وقال أبو موسى الأشعري: جنتان منها للسَّابقين، وجنتان من فضَّة للتابعين.

وقال عليه الصلاة والسلام: «جَنَّتَانِ من فضَّةٍ، آنيتُهمَا وما فيهمَا، وجنَّتَانِ مِنْ ذهبٍ آنيتُهُمَا وما فِيهمَا، وما بَيْنَ القَوْمِ وبيْنَ أن يَنْظرُوا إلى ربِّهِمْ إلاَّ رِدَاءُ الكِبرياءِ على وجْهِهِ في جنَّة عدْنٍ»[٥].

وقال الكسائي: «ومِنْ دُونهمَا جنتان» أي: أمامهما وقبلهما.

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/١١٧.
(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦١٠).
(٣) ينظر المصدر السابق.
(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٦).
(٥) أخرجه البخاري (١٣/ ٤٣٣) كتاب التوحيد، باب: وجوه يومئذ ناضرة (٧٤٤٤) ومسلم (١/ ١٦٣) كتاب الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم حديث (٢٦٦/ ١٨٠) من حديث أبي موسى.

قال البغوي[١]: «يدلّ عليه قول الضحاك: الجَنَّتان الأوليان من ذهب وفضّة، والأخريان من ياقُوت وزمرّد، وهما أفضل من الأوليين».

وإلى هذا القول ذهب أبو عبد الله الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول»، وقال: «ومعنى «ومن دونهما جنتان» أي: دون هذا إلى العرش، أي: أقرب وأدنى إلى العرش».

وقال مقاتل: الجنَّتان الأوليان: جنة عدن وجنة النعيم، والأخريان: جنة الفردوس، وجنة المأوى.

قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي: خضراوان. قاله ابن عبَّاس وغيره.

وقال مجاهد: مسودتان.

والإدْهَام في اللغة: السواد وشدة الخضرة، جُعلتا مدهامتان لشدة ريِّهما، وهذا مشاهد بالنظر، ولذلك قالوا: سواد «العراق» لكثرة شجره وزرعه[٢].

ويقال: فرس أدهم وبعير أدهم، وناقة دهماء، أي اشتدت زرقته حتى ذهب البياض الذي فيه، فإن زاد على ذلك واشتد السواد فهو جَوْن، وادهمَّ الفرس ادهماماً أي صار أدهم.

وادْهَامَّ الشيء ادهيماماً: أي: اسوداداً، والأرض إذا اخضرت غاية الخضرة تضرب إلى السواد، ويقال للأرض المعمورة: سواد يقال: سواد البلد.

وقال عليه الصلاة والسلام: «عَلَيْكُمْ بالسَّوادِ الأعظَمِ، ومن كَثَّرَ سوادَ قَوْمٍ فهُو مِنْهُمْ»[٣].

قال ابن الخطيب: والتحقيق فيه أن ابتداء الألوان هو البياض وانتهاؤها هو السَّواد، فإنَّ الأبيض يقبل كل لون، والأسود لا يقبل شيئاً من الألوان.

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾.

قال ابن عباس: فوَّارتان بالماء والنَّضْخ ـ بالخاء المعجمة ـ أكثر من النَّضْحِ ـ بالحاء المهملة ـ لأن النَّضْح بالمهملة: الرَّشُّ والرشحُ، وبالمعجمة: فورانُ الماء.

وقال ابن عباس والحسن ومجاهد: المعنى نضَّاختان بالخير والبركة[٤].

وعن ابن مسعود وابن عباس أيضاً وأنس: تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنة كما ينضخ رشّ المطر[٥].

---

(١) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٢٧٦. (٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٢٠.

(٣) لأوله شاهد من حديث ابن عمر بلفظ: عليكم بالسواد الأعظم أخرجه الحاكم (١/ ١١٥ ـ ١١٦) وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٣٩)، ولآخره شاهد عن عبد الله بن مسعود عند أبي يعلى كما في المطالب برقم (١٦٠٥).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦١٣).

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٩) عن أنس وعزاه إلى ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم.

وقال سعيد بن جبير: بأنواع الفواكه والماء(١).

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾.

قال بعض العلماء: ليس الرمان والنخل من الفاكهة؛ لأن الشيء لا يعطف على نفسه إنما يعطف على غيره؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، وهذا ظاهر الكلام، فلو حلف لا يأكل فاكهة لم يحنث بأكلهما.

وقال الجمهور: هما من الفاكهة، وإنما أعاد ذكر النَّخل والرمان لفضلهما على الفاكهة، فهو من باب ذكر الخاص بعد العام تفضيلاً له كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨].

وقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

قال شهاب الدين(٢): وهذا يجوز؛ لأن «فاكهة» عامًّا؛ لأنه نكرة في سياق الإثبات، وإنما هو مطلق، ولكن لما كان صادقاً على النخل والرمان قيل فيه ذلك.

وقال القرطبي(٣): إنما كررهما؛ لأن النخل والرمان كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البُرِّ عندنا؛ لأن النخل عامةُ قوتهم، والرُّمان كالتمرات، فكان يكثر غرسها عندهم لحاجتهم إليه، وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثِّمار التي يعجبون بها، فإنما ذكر الفاكهة، ثم ذكر النخل والرمان لعمومهما، وكثرتهما عندهم في «المدينة» إلى «مكّة» إلى ما والاها من أرض «اليمن»، فأخرجهما في الذكر من الفواكه، وأفرد الفواكه على حدتها.

وقيل: أفردا بالذكر؛ لأن النخل ثمرة: فاكهة وطعام.

والرُّمان: فاكهة ودواء، فلم يخلصا للتفكّه.

ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله: من حلف ألا يأكل فاكهة فأكل رماناً، أو رطباً لم يحنث(٤).

فصل في مناسبة هذه الآية لما قبلها

قال ابن الخطيب(٥): قوله: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾؛ لأن الفاكهة أرضية وشجرية، والأرضية كالبطِّيخ وغيره من الأرضيات المزروعة، والشجرية كالنَّخْل والرمان وغيرهما من الشجريات، فقال: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ بأنواع

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦١٢) عن سعيد بن جبير وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٩) وزاد نسبته إلى ابن المبارك في الزهد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي نعيم في «الحلية».

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٤٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٢١.

(٤) ينظر الهداية ٢/ ٨٠.

(٥) التفسير الكبير ٢٩/ ١١٧.

الخضر التي منها الفواكه الأرضية والفواكه الشجرية، وذكر منها نوعين[١] وهما الرمان والرطب؛ لأنهما متقابلان.

أحدهما: حلو، والآخر: حامض.

وأحدهما: حار، والآخر: بارد.

وأحدهما: فاكهة وغذاء، والآخر: فاكهة ودواء.

وأحدهما: من فواكه البلاد الباردة، والآخر: من فواكه البلاد الحارة.

وأحدهما: أشجار في غاية الطول والكبر، والآخر: أشجاره بالضّد.

وأحدهما: ما يؤكل منه بارز، وما لا يؤكل كامن، فهما كالضدين، والإشارة إلى الطرفين تتناول الإشارة إلى ما بينهما كقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧].

فصل في الكلام على نخل ورمان الجنة

قال ابن عباس: الرمانة في الجنة ملء جلد البعير المُقتَّب[٢].

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: نخل الجَنة: جذوعها زمرد أخضر، وكرمُها ذهب أحمر، وسعفُها كسوة لأهل الجنة، فيها (مقطعاتهم)[٣] وحللهم، وثمرها أمثال القلال والدِّلاء، أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزُّبد، ليس له عجم[٤].

وفي رواية: كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى، وإن ماءها ليجري في غير أخدود، والعنقود: اثنا عشر ذراعاً.

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾.

في «خيرات» وجهان:

أحدهما: أنه جمع «خَيْرة» من الخير، بزنة «فعْلة» ـ بسكون العين ـ يقال: «امرأة خَيْرة وأخرى شَرّة».

---

(١) في ب: أمرين.

(٢) روي مثله مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري. ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٢٠) وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٣) في ب: مقطاعتهم.

(٤) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٦) عن ابن عباس وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٩) وزاد نسبته إلى ابن المبارك وابن أبي شيبة وهناد بن السري وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في «العظمة» والبيهقي في «البعث والنشور».

والثاني: أنه جمع «خيرة» المخفف من «خَيِّرة»، ويدل على ذلك قراءة ابن مقسم والنهدي، وبكر بن حبيب[١]: «خيّرات» بتشديد الياء.

قال القرطبي[٢]: «وهي قراءة قتادة، وابن السميفع، وأبي رجاء العطاردي».

وقرأ أبو عمرو[٣]: «خَيَرَات» بفتح الياء، جمع «خَيَرة»، وهي شاذة؛ لأن العين معلة، إلا أن بني «هُذَيل» تعامله معاملة الصحيح، فيقولون: «حورات وبيضات»[٤].

وأنشد: [الطويل]

٤٦٦١ ـ أخُو بَيَضَاتٍ رَائِحٌ مُتَأوِّبٌ رَفِيقٌ بِمَسْحِ المَنْكِبَيْنِ سَبُوحُ[٥]

فصل في تفسير الآية

قال المفسرون: «الخيرات الحسان» يعني النِّساء، الواحدة «خيرة» على معنى «ذوات خير».

وقيل: «خيرات» بمعنى «خيِّرات»، فخفف كـ «هَيِّن ولَيِّن».

روى الحسن عن أمّه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت لرسول الله ﷺ: أخبرني عن قوله: «خَيْرَاتٌ حِسَان» قال: «خَيراتُ الأخلاقِ حِسانُ الوُجوهِ»[٦].

وقال أبو صالح: لأنَّهُنَّ عَذَارى أبْكَارٌ.

وقال الحكيم الترمذي: فـ «الخيرات»، ما اختارهنّ الله فأبدع خلقهنّ باختياره، فاختيار الله لا يشبه اختيار الآدميين، ثم قال: «حِسَانٌ» فوصفهن بالحسن؛ فإذا وصف الله خالق الحسن شباباً بالحسن، فانظر ما هناك.

وقال ابن الخطيب[٧]: «في باطنهن الخير، وفي ظاهرهنّ الحسن».

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾.

معنى «مقصورات»: أي: محبوسات ومنه القصر؛ لأنه يحبس من فيه.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٥، والبحر المحيط ٨/ ١٩٧، والدر المصون ٦/ ٢٤٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٢٢.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٥، والبحر المحيط ٨/ ١٩٧، والدر المصون ٦/ ٢٤٩.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٤٩.

(٥) تقدم.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦١٤) والطبراني في «الكبير» كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٢٢).
وقال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه سليمان بن أبي كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٥٠)، وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

(٧) ينظر: تفسير الفجر الرازي ٢٩/ ١١٨.

ومنه قول النحاة: «المقصور»، لأنه حبس عن المد، وحبس عن الإعراب أو حبس الإعراب فيه، والنساء تمدح بملازمتهن البيوت(١)، كما قال قيس بن الأسلت: [الطويل]

٤٦٦٢ ـ وتَكْسَلُ عَنْ جِيرَانِهَا فَيَزُرنهَا وتغْفُلُ عَنْ أبْيَاتِهِنَّ فتُعْذَرُ(٢)

ويقال: امرأة مقصورة وقصيرة، وقصورة بمعنى واحد.

قال كثير عزة فيه: [الطويل]

٤٦٦٣ ـ وأنْتِ الَّتِي حبَّبْتِ كُلَّ قصيرةٍ إلَيَّ، ولَمْ تَعْلَمْ بذاكَ القَصَائِرُ

عَنَيْتُ قِصاراتِ الحِجَالِ ولَمْ أرِدْ قِصَارَ الخُطَا، شرُّ النِّساءِ البَحاتِرُ(٣)

و «الخيام»: جمع «خَيْمة»، وهي تكون من ثُمام وسائر الحشيش، فإن كانت من شعر، فلا يقال لها: خيمة، بل بيت.

قال جرير: [الوافر]

٤٦٦٤ ـ مَتَى كَانَ الخِيَامُ بِذِي طُلُوحٍ سُقِيتِ الغَيْثَ أيَّتُهَا الخِيَامُ(٤)

فصل في أن جمال الحور يفوق الآدميات

اختلفوا أيهما أكثر حسناً وأتم جمالاً الحور أو الآدميات.

فقيل: الحور لما ذكر من صفتهن في القرآن والسُّنة، ولقوله ﷺ في دعائه في صلاة الجنائز: «وأبْدِلْ لَهُ دَاراً خَيْراً مِنْ داره، وأبْدِلْ لَهُ زَوْجاً خَيْراً من زَوْجِه»(٥).

وقيل: الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف، روي ذلك مرفوعاً.

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٤٩.

(٢) في الديوان: ويكر منها جاراتها مكان وتكسل من جيرانها.
ينظر ديوانه ص ٧٢، والبحر ٨/ ١٩٧، والدر المصون ٦/ ٢٤٩.

(٣) ينظر ديوانه ص ٣٦٩، والأشباه والنظائر ٥/ ١٨٠، وإصلاح المنطق ص ١٨٤، وجمهرة اللغة ص ٧٤٣، والدرر ١/ ٢٨٢، وابن يعيش ٦/ ٣٧، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ١٢٠، وأسرار العربية ص ٤١، وهمع الهوامع ١/ ٨٦؛ والمعاني الكبير ص ٥٠٥، واللسان (فقر)، والقرطبي ١٧/ ١٢٣، والبحر ٨/ ١٨٥، والدر المصون ٦/ ٢٤٩.

(٤) ينظر ديوانه ص ٢٧٨، والأغاني ٢/ ١٧٩، وجمهرة اللغة ص ٥٥٠، والجنى الداني ص ١٧٤، وخزانة الأدب ٩/ ١٢١، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٣٤٩، وشرح شواهد المغني ١/ ٣١١، ٢/ ٧٨٥، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٦١٧، وشرح المفصل ٩/ ٧٨، والكتاب ٤/ ٢٠٦، ومعجم ما استعجم ص ٨٩٣، والمقاصد النحوية ٢/ ٤٦٩، وجواهر الأدب ١٦٤، وسر صناعة الإعراب ١/ ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١ وشرح الأشموني ٣/ ٧٦٢، ولسان العرب (روى) و (قوا)، ومغني اللبيب ٢/ ٣٦٨، والمنصف ١/ ٢٢٤، والدر المصون ٦/ ٢٤٩، والبحر ٨/ ١٨٥.

(٥) تقدم.

وقيل: إن الحور العين المذكورات في القرآن هن المؤمنات من أزواج النَّبيِّين والمؤمنين يخلقن في الآخرة على أحسن صورة. قاله الحسن البصري.

والمشهور أن الحور العين لسن من نساء أهل الدنيا، إنما هن مخلوقات في الجنة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات.

فصل في جمال الحور العين

«الحور»: جمع حوراء وهي الشديدة بياض العين مع سوادها.

و «المقصورات»: المحبوسات المستورات في الخيام، وهي الحجال، لسن بالطَّوافات في الطرق، قاله ابن عباس.

وقال عمر رضي الله عنه: «الخيمة»: درّة مجوفة[١]. وقاله ابن عباس.

وقال: وهي فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب[٢].

قال أبو عبد الله الحكيم الترمذي في قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾: بلغنا في الرواية أن سحابة أمطرت من العرش، فخلقن من قطرات الرحمة، ثم ضرب على كل واحدة خيمة على شاطىء الأنهار سعتها أربعون ميلاً وليس لها باب، حتى إذا دخل وليّ الله الجنة انصدعت الخيمة عن باب ليعلم ولي الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها، فهي مقصُورة قد قصر بها عن أبصار المخلوقين.

وقال مجاهد: قصرن أطرافهن وأنفسهن على أزواجهن فلا يبتغين بدلاً[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «لوْ أنَّ امْرأةً مِنْ نساءِ أهْلِ الجنَّة اطَّلعَتْ على أهْلِ الأرْضِ لأضاءَتْ ما بينَهُما، ولمَلأتْ ما بَيْنهُمَا ريحاً»[٤].

وتقدَّم الكلام على قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾.

«الرفرف»: جمع رفرفة فهو اسم جنس.

وقيل: بل هو اسم جمع. نقله مكي[٥]، وهو ما تدلى من الأسرة من عالي الثياب وقال الجوهري[٦]: «والرفرف»: ثياب خضر تتخذ منها المحابس، الواحدة: رَفرفة.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦١٦).

(٢) ينظر المصدر السابق. (٣) تقدم.

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ١٩) كتاب الجهاد والسير، باب: الحور العين وصفتهن حديث (٢٧٩٦) والترمذي (١٦٠٥) من حديث أنس.

(٥) ينظر الدر المصون ٦/ ٢٤٩. (٦) ينظر: الصحاح ٤/ ١٣٦٦.

واشتقاقه: من رف الطائر إذا ارتفع في الهواء، ورفرف بجناحيه إذا نشرهما للطَّيران، ورفرف السحاب هبوبه.

ويدلّ على كونه جمعاً وصفه بالجمع.

وقال الراغب[1]: رفيف الشجر: انتشار أغصانه، ورفيف الطائر نشر جناحيه، رَفَّ يَرِفُّ ـ بالكسر ـ ورفَّ فرخه يرُفُّه ـ بالضم ـ يفقده، ثم استعير للفقدِ، ومنه: «ما له حاف ولا رافّ»، أي: من يحفه ويتفقده، والرفرف: المنتشر من الأوراق.

وقوله: ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ ضرب من الثياب مشبه بالرياض.

وقيل: الرفرف طرف الفُسْطاط والخباء الواقع على الأرض دون الأطناب والأوتاد.

وذكر الحسن: أنه البُسُط.

وقال ابن جبير، وابن عباس أيضاً: رياض الجنة من رفّ النبت إذا نعم وحسن[2].

وقال ابن عيينة: هي الزَّرابي.

وقال ابن كيسان: هي المرافق.

وقال أبو عبيدة: هي حاشية الثوب.

وقيل: الفرش المرتفعة.

وقيل: كل ثوب عريض عند العرب، فهو رفرف.

قال القرطبي[3]: «وفي الخبر في وفاة النبي ﷺ: فرُفِعَ الرَّفْرَفُ فَرأيْنَا وَجْهَهُ كأنَّهُ ورقَةُ تُخَشْخِشُ».

أي: رفع طرف الفسطاط.

وقيل: أصل الرفرف من رف النبت يرف إذا صار غضًّا نضيراً.

قال القتبي: يقال للشيء إذا كثر ماؤه من النعمة والغضاضة حتى يكاد يهتز: رفّ يرفّ رفيفاً. حكاه الهروي. وقد قيل: إن الرَّفرف شيء إذا استوى عليه صاحبه رفرف به، وأهوى به كالمرجاح يميناً وشمالاً ورفعاً وخفضاً يتلذّذ به مع أنيسه، قاله الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول».

قال: فالرفرف أعظم خطراً من الفرش، فذكر في الأوليين ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾.

وقال هنا: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾.

فالرفرف هو مستقر الولي على شيء إذا استوى عليه الوليّ رفرف به، أي طار به حيثما يريد كالمرجاح.

---

(١) ينظر: المفردات ٢٨٩.

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (١١/ ٢٧٨).

(٣) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٢٤.

ويروى في حديث المعراج أن رسول الله ﷺ لما بلغ سدرة المنتهى، جاء الرفرف فتناوله من جبريل، وطار به إلى سند العرش، فذكر أنه طار بي يخفضني ويرفعني حتى وقف بي على ربّي، ثم لما كان الانصراف تناوله، فطار به خفضاً ورفعاً يهوي به حتى آواه إلى جبريل ـ عليه السلام[1] ـ.

فـ «الرفرف»: خادم من الخدم بين يدي الله ـ تعالى ـ له خواصّ الأمور في محل الدنو والقرب كما أن البراق دابة تركبها الأنبياء مخصوصة بذلك في أرضه، فهذا الرفرف الذي سخره لأهل الجنتين الدَّانيتين هو مُتَّكأهما وفرشهما، يرفرف بالولي على حافات تلك الأنهار وشطوطها حيث شاء إلى خيام أزواجه[2].

فصل في الكلام على قوله: خضر

قوله تعالى: «خُضْرٍ». نعت هنا بـ «خضر»؛ لأن اسم الجنس ينعت بالجمع كقوله: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠] وحسن جمعه هنا جمع «حِسَان»[3].

وقرأ العامة: «رفرف» **وقرأ عثمان**[4] **بن عفان** ونصر بن عاصم والجحدري والفرقبي[5] وغيرهم: «رفَارِفَ خُضْرٍ» بالجمع وسكون الضاد.

وعنهم أيضاً «خُضُر» بضم الضاد، وهي إتباع للخاء.

وقيل: هي لغة في جمع «أفْعَل» الصفة.

قال القرطبي[6]: وروى أبو بكر أن رسول الله ﷺ قرأ: «متَّكئين على رفارف خضر وعباقر حسان». ذكره الثعلبي، وضم الضاد من «خُضُر» قليل.

وأنشد لـ «طرفة»: [الرمل]

٤٦٦٥ ـ أيُّهَا الفِتْيانُ في مَجْلِسنَا   جَرِّدُوا مِنْهَا وِرَاداً وشُقُرْ[7]

وقال آخر: [البسيط]

٤٦٦٦ ـ ومَا انتميْتُ إلى خُورٍ ولا كُشُفٍ   ولا لِئَامٍ غَداةَ الرَّوْعِ أوْزاعِ[8]

---

(١) تقدم.

(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٢٤.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٥٠.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٦، والبحر المحيط ٨/ ١٩٧، ١٩٨، والدر المصون ٦/ ٢٥٠.

(٥) في أ: العوفي.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٢٥.

(٧) ينظر ديوانه (٤٤)، شرح المفصل ٥/ ٦٠، والمحتسب ١/ ١٦٢، والخزانة ٩/ ٣٧٩، والخصائص ٢/ ٣٣٥، وشرح شواهد الإيضاح ص ٥٨١، واللسان (غلف)، والضرائر لابن عصفور ١٩، ومجمع البيان ٣/ ٣١٧، والبحر ٨/ ١٩٨، وروح المعاني ٢٧/ ١٢٥.

(٨) البيت لضرار بن خطاب.

=

وقرءوا[١]: «وعَباقِرِيَّ» ـ بكسر القاف وتشديد الياء ـ مفتوحة على منع الصرف، وهي مشكلة.

إذ لا مانع من تنوين ياء النَّسب، وكأن هذا القارىء توهم كونها في «مفاعل» تمنع من الصرف[٢].

وقد روى عن النبي ﷺ «عباقريّ»[٣] منوناً ابن خالويه.

وروي عن عاصم: «رَفَارِف» بالصَّرف[٤].

وقد يقال في من منع «عَبَاقِري»: إنه لما جاور «رَفارِف» الممتنع امتنع مشاكلة.

وفي من صرف «رَفارف»: إنه لما جاور «عباقِريًّا» المنصرف صرفه للتناسب، كقوله: ﴿سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا﴾ [الإنسان: ٤]. كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وقرأ أبو محمد[٥] **المروزي** وكان نحويًا: «خُضَّار» كـ «ضُرَّاب» بالتشديد، و «أفْعَل، وفُعَّال» لا يعرب[٦].

قوله: «وعَبْقريّ حِسَان».

الجمهور على أن «عبقري» منسوب إلى عبقر، تزعم العرب أنها بلد الجن.

قال ابن الأنباري: الأصل فيه أن «عَبْقَرَ» قرية تسكنها الجن ينسب إليها كل فائق جليل.

وقال الخليل: كل منافس فاضل فاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقري.

ومنه قول النبي ﷺ في عمر ـ رضي الله عنه ـ: «فَلَمْ أرَ عَبْقريًّا من النَّاسِ يَفْرِي فرْيَه»[٧].

وقال أبو عمرو بن العلاء، وقد سئل عن قوله ﷺ: «فَلَمْ أرَ عَبْقريًّا من النَّاسِ يَفْرِي فرْيَه»؛ فقال: رئيس قوم وجليلهم.

= ينظر الدرر ٦/ ١٣٤، والمقاصد النحوية ٤/ ١٥٧، والهمع ٢/ ١٣٦، والعيني ٤/ ١٥٧، وسيرة ابن هشام ص ٦٢٢، والبحر ٨/ ١٩٨، وروح المعاني ٢٧/ ١٢٥، والدر المصون ٦/ ٢٥٠.

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٥٤، والبحر المحيط ٨/ ١٩٨، والدر المصون ٦/ ٢٥٠.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٥٠.

(٣) ينظر: إعراب القراءات السبع لابن خالويه ٢/ ٣٤١، وجزء قراءات النبي ـ ﷺ ـ للدوري ١٥٧.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٦، والدر المصون ٦/ ٢٥٠.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٩٨، والدر المصون ٦/ ٢٥٠.

(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٥٠.

(٧) أخرجه البخاري (٧/ ٢٦) كتاب فضائل الصحابة، باب: قول النبي ﷺ «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٦٧٦) ومسلم (٤/ ١٨٦٠) كتاب فضائل الصحابة، باب: فضل عمر حديث (١٧/ ٢٣٩٢) من حديث أبي هريرة.

وقال زهير: [الطويل]

٤٦٦٧ ـ **بِخَيلٍ عليهَا جِنَّةٌ عبقريَّةٌ جَدِيرُونَ يوماً أن ينَالُوا فَيستعْلُوا**[١]

وقال الجوهري: «العَبْقَري» موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن؛ قال لبيد: [الطويل]

٤٦٦٨ ـ **.............................. كُهُولٌ وشُبَّانٌ كَجِنَّةِ عَبْقَرِ**[٢]

ثم نسبوا إليها كل شيء تعجبوا من حذقه وجودة صنعته وقوته، فقالوا: «عبقري» وهو واحد وجمع.

وفي الحديث: «أنَّهُ كَانَ يَسْجُدُ على عَبْقَرِيّ»[٣] وهو البُسُط التي فيها الأصباغ، والنقوش، والمراد به في الآية: قيل: البسط التي فيها الصّور والتماثيل وقيل: الزَّرابي.

وقيل: الطَّنافس.

وقيل: الدِّيباج الثَّخين.

و «عَبْقَرِي» جمع عبقرية، فيكون اسم جنس كما تقدم في «رفرف».

وقيل: هو واحد دالّ على الجمع، ولذلك وصف بـ «حِسَان»[٤].

قال القرطبي[٥]: وقرأ بعضهم: «عَباقِريٍّ حِسَان» وهو خطأ؛ لأن المنسوب لا يجمع على نسبته.

وقال قطرب: ليس بمنسوب، وهو مثل: «كُرسيٍّ وكَراسِيّ، وبُختيٍّ وبخاتِي».

قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

قرأ ابن[٦] **عامر**: «ذُو الجلالِ» بالواو، جعله تابعاً للاسم، وكذا هي مرسومة في مصاحف الشَّاميين.

قال القرطبي[٧]: «وذلك يقوي كون الاسم هو المسمّى».

---

(١) ينظر شرح ديوان زهير ١٠٣، ومجاز القرآن ٢/ ٢٤٦، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ١٠٥، والمحتسب ٢/ ٣٠٦، ومجمع البيان ٩/ ٣١٧، ومعجم ما استعجم ١/ ٥٤٦، واللسان (عبقر)، والقرطبي ١٧/ ١٢٥ والبحر ٨/ ١٨٦.

(٢) عجز بيت صدره:

ومن فاد من إخوانهم وبنيهم ....

ينظر ديوانه ص ٧٠، واللسان (عبقر)، والصحاح ٢/ ٧٣٤ (عبقر) والقرطبي ١٧/ ١٢٥.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٢٥).

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٥٠.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٢٥.

(٦) ينظر: السبعة ٦٢١، والحجة ٦/ ٢٥٣، وإعراب القراءات ٢/ ٣٤١، وحجة القراءات ٦٩٤، والعنوان ١٨٤، وشرح شعلة ٥٩٥، وشرح الطيبة ٦/ ٣٤، وإتحاف ٢/ ٥١٣.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٢٥.

والباقون: بالياء، صفة للربّ، فإنه هو الموصوف بذلك، وأجمعوا على أن الواو في الأولى إلا من استثنى فيما تقدم.

فصل في تحرير معنى تبارك

«تبارك» تفاعل من «البركة».

قال ابن الخطيب(١): وأصل التَّبارك من التَّبرك، وهو الدوام والثبات، ومنه برك البعير وبركة الماء، فإن الماء يكون فيها دائماً.

والمعنى: دام اسمه وثبت، أو دام الخير عنده؛ لأن البركة وإن كانت من الثبات، لكنها تستعمل في الخير، أو يكون معناه: علا وارتفع شأنه.

فصل في مناسبة هذه الآية لما قبلها

قال القرطبي(٢): كأنه يريد به الاسم الذي افتتح به السُّورة، فقال: «الرحمن» فافتتح بهذا الاسم، فوصف خلق الإنسان والجن، وخلق السموات والأرض وصنعه، وأنه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ووصف تدبيره فيهم، ثم وصف يوم القيامة وأهوالها وصفة النار، ثم ختمها بصفة الجنان، ثم قال في آخر السورة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: هذا الاسم الذي افتتح به هذه السورة، كأنه يعلمهم أن هذا كله فرج لكم من رحمتي، فمن رحمتي خلقتكم، وخلقت لكم السماء والأرض، والخليقة، والخلق، والجنة والنَّار، فهذا كله لكم من اسم الرحمن، فمدح اسمه فقال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾، ثم قال: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: جليل في ذاته كريم في أفعاله.

روى الثعلبي عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لِكُلِّ شَيءٍ عروسٌ، وعرُوسُ القرآنِ سُورةُ الرَّحمنِ، جل ذكرهُ»(٣).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورة الرَّحْمَنِ رحِمَ الله ضعفهُ، وأدَّى شُكْرَ مَا أنْعَمَ اللَّهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ عليه»(٤).

والله ـ سبحانه وتعالى ـ الموفق الهادي إلى الخيرات، اللهم ارحمنا برحمتك.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ١٢٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٢٥.

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٩٠) رقم (٢٤٩٤) وذكره السيوطي في «الجامع الصغير» رقم (٧٣١٩) وعزاه إلى البيهقي في «شعب الإيمان» ورمز له بالضعف.

قال المناوي في «فيض القدير» (٥/ ٢٨٦): وفيه أحمد بن دبيس عده الذهبي في الضعفاء والمتروكين وقال الدارقطني: ليس بثقة.

(٤) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٤/ ٤٥٤): أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بإسنادهم إلى أبي بن كعب.

سورة الواقعة

مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء. قال ابن عباس وقتادة: إلا آية منها نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[١] [الواقعة: ٨٢].

وقال الكلبي: مكية إلا أربع آيات، منها آيتان: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨١، ٨٢] نزلتا في سفر، وقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٩، ٤٠] نزلتا في سفره إلى «المدينة»[٢].

وهي سبع وتسعون آية، وثلاث مائة وثمان وسبعون كلمة، وألف [وتسعمائة][٣] وثلاثة أحرف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾.

في «إذا» أوجه[٤]:

أحدها: أنها ظرف محض ليس فيها معنى الشَّرط، والعامل فيها «ليس».

الثاني: أن العامل فيها «اذْكر» مقدراً.

قال الزمخشري[٥]: فإن قلت: «بم انتصب «إذا»؟.

قلت: بـ «ليس»، كقولك: يوم الجمعة ليس لي شغل.

ثم قال: أو بإضمار «اذكر».

قال أبو حيان[٦]: «ولا يقول هذا نحوي».

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ٤٤٥).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٢٦) عن الكلبي.

(٣) في ب: سبعمائة.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٥١.

(٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٥٥.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٠٣.

قال: لأن «ليس» مثل «ما» النافية فلا حدث فيها، فكيف تعمل في الظرف من غير حدث، وتسميتها فعلاً مجازاً، فإن حدَّ الفعل غير منطبق عليها.

ثم قال: وأمَّا المثال الذي نظر به، فالظرف ليس معمولاً لـ «ليس» بل للخبر، وتقدم معمول خبرها عليها، وهي مسألة خلاف. انتهى.

قال شهاب الدين[(١)]: الظروف تعمل فيها روائح الأفعال، ومعنى كلام الزمخشري أن النفي المفهوم من «ليس» هو العامل في «إذا» كأنه قيل: ينتفي كذب وقوعها إذا وقعت، ويدل على هذا قول أبي البقاء رحمه الله.

والثاني: ظرف لما دل عليه ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، أي: إذا وقعت لم تكذب، فإن قيل: فليجر ذلك في «ما» النافية؟.

فالجواب: أن الفعل أقرب إلى الدلالة على الحدث من الحرف.

الثالث: أنها شرطية، وجوابها مقدر، أي: «إذا وقعت كان كيت وكيت»، وهو العامل فيها.

الرابع: أنها شرطية، والعامل فيها الفعل الذي بعدها ويليها، وهو اختيار أبي حيان[(٢)]، وتبع في ذلك مكيًّا.

قال مكي[(٣)]: «والعامل فيه «وقعت»؛ لأنها قد يجازى بها، فعمل فيها الفعل الذي بعدها كما يعمل في «مَا»، و «مَنْ» اللتين للشرط في قولك: ما تَفْعَلْ أفْعَلْ، ومن تُكْرِمْ أكْرِمْ»، ثم ذكر كلاماً كثيراً.

الخامس: أنها مبتدأ، و «إذَا رُجَّتْ» خبرها، وهذا على قولنا: «إنها تتصرف» وقد مضى تحريره إلا أن هذا الوجه إنما جوزه ابن مالك، وابن جني، وأبو الفضل الرازي على قراءة من نصب «خافِضَةً رافِعَةً» على الحال، وحكاه بعضهم عن الأخفش.

قال شهاب الدين: «ولا أدري اختصاص ذلك بوجه النَّصب»[(٤)].

السادس: أنه ظرف لـ «خافضة»، أو «رافعة». قاله أبو البقاء. أي إذا وقعت خفضت ورفعت[(٥)].

السابع: أن تكون ظرفاً لـ «رُجَّتْ»، و «إذَا» الثانية على هذا إما بدل من الأولى، أو تكرير لها.

الثامن: أن العامل فيه ما دلّ عليه قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي: إذا وقعت بانت أحوال الناس فيها.

---

(١) الدر المصون: ٦/ ٢٥١.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٠٣.
(٣) الدر المصون ٦/ ٢٥١.
(٤) الدر المصون ٦/ ٢٥٢.
(٥) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢٠٢، والدر المصون ٦/ ٢٥١.

التاسع: أن جواب الشرط، قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ إلى آخره، و «لِوقعَتِهَا» خبر مقدم، و «كاذبة» اسم مؤخر.

و« كاذبة» يجوز أن تكون اسم فاعل، وهو الظَّاهر، وهو صفة لمحذوف، فقدر الزمخشري[١]: «نفس كاذبة».

أي: أن ذلك اليوم لا يكذب على الله أحد، ولا يكذِّب بيوم القيامة أحد.

ثم قال: «و «اللام» مثلها في قوله: ﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]، أو ليس نفس تكذبها، وتقول لها: لم تكوني كما لها اليوم نفوس كثيرة يكذبنها اليوم، يقلن لها: لن تكوني، أو هي من قولهم: كَذَبَتْ فُلاناً نفسُه في الخَطْبِ العظيم إذا شجعته على مباشرته، وقالت له: إنك تطيقه وما فوقه، فتعرض له ولا تبال به، على معنى أنها وقعة لا تُطاق شدة وفظاعة، وأن لا نفس حينئذ تحت صاحبها بما تحدثه به عند عظائم الأمور وتزين له احتمالها وإطاقتها؛ لأنهم يومئذ أضعف من ذلك وأذلّ، ألا ترى إلى قوله: ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾، والفراش مثل في الضعف»[٢].

وقدره ابن عطية: «حال كاذبة».

قال[٣]: ويحتمل الكلام على هذا معنيين:

أحدهما: كاذبة أي: مكذوبة فيما أخبر به عنها، فسماها كاذبة لهذا، كما تقول: هذه قصّة كاذبة، أي: مكذوب فيها.

والثاني: حال كاذبة أي: لا يمضي وقوعها، كقولك: فلان إذا حمل لم يكذب.

والثالث: «كاذبة» مصدر بمعنى التّكذيب. نحو ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩].

قال الزمخشري[٤]: وقيل: «كاذبة» مصدر كـ «العاقبة» بمعنى التكذيب من قولك: حمل فلان على قرنه فما كذب، أي فما جبن ولا تثبَّط، وحقيقته فما كذب نفسه فيما حدثته به من إطاقته له وإقدامه عليه وأنشد لـ «زهير»: [البسيط]

٤٦٦٩ـ .... إذَا مَا اللَّيثُ كَذَّبَ عَنْ أقْرانِهِ صَدَقَا[٥]

أي: إذا وقعت لم يكن لها رجعة ولا ارتداد انتهى.

---

(١) الكشاف ٤/ ٤٥٥. (٢) السابق.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٨. (٤) الكشاف ٤/ ٤٥٥.

(٥) البيت بتمامه:

لَيثٌ بِعَثَّرَ يَصطادُ الرِّجالَ ....

ينظر شرح ديوان زهير ص ٥٤، وشرح المفصل ١/ ٦١، والكشاف ٤/ ٥١، وشرح شواهده ص ٤٦٩، والتاج ٦/ ٤٠٤ (صدق). والدر المصون ٦/ ٢٥٢.

وهو كلام حسن جدًا.

ثم لك في هذه الجملة وجهان:

أحدهما: أنها لا محلّ لها من الإعراب، إما لأنها ابتدائية، ولا سيما على رأي الزمخشري، حيث جعل الظرف متعلقاً بها.

وإما لأنها اعتراضية بين الشرط وجوابه المحذوف.

الثاني: أن محلّها النصب على الحال. قاله ابن عطية.

ولم يبين صاحب الحال، ماذا؟.

وهو واضح إذ لم يكن هنا إلاَّ الواقعة، وقد صرَّح أبو الفضل بذلك.

وقرأ العامة: برفع «خَافِضَةٌ ورافِعَةٌ» على أنها خبر ابتداء مضمر، أي: هي خافضة قوماً إلى النَّار، ورافعة آخرين إلى الجنة، فالمفعول محذوف لفهم المعنى.

أو يكون المعنى أنها ذات خفض ورفع، كقوله: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقرأ زيد بن علي وعيسى(١) **والحسن، وأبو حيوة، وابن مقسم واليزيدي**: بنصبهما على الحال.

ويروى عن الكسائي أنه قال(٢): «لولا أن اليزيدي سبقني إليه لقرأت به» انتهى.

قال شهاب الدين(٣): «ولا أظن مثل هذا يصح عن مثل هذا».

واختلف في ذي الحال:

فقال أبو البقاء(٤): من الضمير في «كاذبة»، أو في «وقعت».

وإصلاحه أن نقول: أو فاعل «وقعت»؛ إذ لا ضمير في «وقعتْ».

وقال ابن عطية(٥) وأبو الفضل: من «الواقعة».

ثم قرّرا مجيء الحال متعددة من ذي حال واحدة، كما تجيء الأخبار متعددة. وقد تقدم بيانه.

وقال أبو الفضل: «وإذا جعلت هذه كلها أحوالاً، كان العامل في «إذا وقعت» محذوفاً يدل عليه الفحوى، أي: إذا وقعت يحاسبون».

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٢٣٩، والبحر المحيط ٨/٢٠٣، والدر المصون ٦/٢٥٣.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/٢٠٣، والدر المصون ٦/٢٥٣.

(٣) الدر المصون ٦/٢٥٣.

(٤) ينظر: الإملاء ٢/١٢٠٢، والدر المصون ٦/٢٥٣.

(٥) المحرر الوجيز ٥/٢٣٩.

فصل في معنى الآية

قال المفسرون[١]: «إذا وقعت الواقعة» أي: إذا قامت القيامة، والمراد: النَّفخة الأخيرة، وسميت الواقعة لأنها تقعُ عن قرب.

وقيل: لكثرة ما يقع فيها من الشَّدائد.

قال الجرجاني[٢]: «إذا» صلة، أي: وقعت الواقعة، كقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] وهو كما يقال: جاء الصوم، أي: دنا واقترب.

وقال القرطبي[٣]: فيه إضمار، أي: اذكر إذا وقعت، وعلى هذا «إذا» للتَّوقيت، والجواب قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾.

وقال ابن الخطيب[٤]: أو يكون التقدير: إذا وقعت الزلزلة الواقعة يعترف بها كل أحد، ولا يتمكّن أحد من إنكارها.

و ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾.

«الكاذبة»: مصدر بمعنى الكذب، والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر[٥] كقوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١] أي: لغو، والمعنى: ليس لها كذب.

قاله الكسائي.

ومنه قول العامة: عائذاً بالله، أي: معاذ الله، وقُمْ قائماً، أي: قم قياماً.

وقيل: الكاذبة: صفة، والموصوف محذوف، أي: ليس لوقعتها حال كاذبة أو نفس كاذبة، أي كل من يخبر عن وقعتها صادق.

وقال الزجاج[٦]: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: لا يردها شيء. ونحوه قول الحسن وقتادة.

وقال الثوري: ليس لوقعتها أحد يكذب بها.

وقيل: إن قيامها جدّ لا هزل فيه[٧].

وقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾.

قال عكرمة ومقاتل والسدي: خفضت الصوت فأسمعت من دنا، ورفعت من نأى[٨]، يعنى أسمعت القريب والبعيد.

وعن السّدي: خفضت المتكبرين ورفعت المستضعفين[٩].

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٢٦.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ١٢٢.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٢٧.

(٦) ينظر: معاني القرآن ٥/ ١٠٧.

(٧) ينظر القرطبي ١٧/ ١٢٧.

(٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٢٣) عن عكرمة والضحاك.

(٩) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٦) وعزاه إلى أبي الشيخ.

وقال قتادة: خفضت أقواماً في عذاب الله، ورفعت أقواماً إلى طاعة الله(١).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خفضت أعداء الله في النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة(٢).

وقال ابن عطاء: خفضت أقواماً بالعدل، ورفعت أقواماً بالفضل(٣).

والرفع والخفض يستعملان عند العرب في المكان والمكانة والعزّ والمهانة، ونسب سبحانه وتعالى الرفع والخفض إلى القيامة توسعاً ومجازاً على عادة العرب في إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما مما لم يمكن منه الفعل، يقولون: ليلٌ قائم، ونهار صائم.

وفي التنزيل: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣].

والرافع والخافض في الحقيقة هو الله تعالى.

و «اللام» في قوله «لوقعتها» إما للتعليل، أي لا تكذب نفس في ذلك اليوم لشدة وقعتها.

وإما للتعدية، كقولك: «ليسَ لزيد ضارب» فيكون التقدير: إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها امرؤ يوجد لها كاذب يكذب إذا أخبر عنه.

قال ابن الخطيب(٤): وعلى هذا لا يكون «ليس» عاملاً في «إذا» وهو بمعنى «ليس» لها كاذب.

قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾

قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٢٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٦) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٢٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٦) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٢٧). (٤) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/ ١٢٣.

يجوز أن يكون بدلاً من «إذا» الأولى، أو تأكيداً لها، أو خبراً لها على أنها مبتدأ، كما تقدم تحريره.

وأن يكون شرطاً، والعامل فيه إما مقدر، وإما فعلها الذي يليها، كما تقدّم في نظيرتها.

وقال الزمخشري(١): «ويجوز أن ينتصب بـ «خافضة رافعة» أي تخفض وترفع وقت رجّ الأرض وبس الجبال؛ لأنه عند ذلك يخفض ما هو مرتفع، ويرفع ما هو منخفض».

قال أبو حيّان(٢): «ولا يجوز أن ينتصب بهما معاً، بل بأحدهما، لأنه لا يجوز أن يجتمع مؤثران على أثر واحد».

قال شهاب الدِّين(٣): معنى كلامه أن كلاً منهما متسلّط عليه من جهة المعنى، وتكون المسألة من باب التنازع، وحينئذ تكون العبارةُ صحيحة، إذ يصدق أن كلاً منهما عامل فيه، وإن كان على التّعاقُب.

والرَّج: التحريك الشديد بمعنى زلزلت.

قال مجاهد وغيره: يقال: رجَّه يرُجُّه رجًّا، أي: حرّكه وزلزله(٤).

وناقة رجاء: أي عظيمة السّنام.

والرَّجْرجَة: الاضطراب.

وارتجّ البحر وغيره: اضطرب.

وفي الحديث: «مَنْ ركِبَ البَحْرَ حينَ يَرتجُّ فلا ذمَّة لهُ»(٥).

يعني: إذا اضطربت أمواجه.

قال الكلبي: وذلك أن الله ـ تعالى ـ إذا أوحى إليها اضطربت فرقاً من الله تعالى(٦).

قال المفسرون: ترتج كما يرتجّ الصبي في المهد حتى ينهدم ما عليها، وينكسر كل شيء عليها من الجبال وغيرها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الرَّجَّة: الحركة الشديدة يسمع لها صوت(٧).

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٥٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٤، والدر المصون ٦/ ٢٥٣.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٠٤. (٣) الدر المصون ٦/ ٢٥٣.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٢٣).

(٥) ذكره بهذا اللفظ المتقي الهندي في «كنز العمال» (١٥/ ٣٦٠) رقم (٤١٣٧١) وعزاه إلى الباوردي عن زهير بن أبي جبل.
وللحديث شاهد من حديث بعض أصحاب النبي ﷺ أخرجه أحمد (٥/ ٧٩).
وذكره الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٠٢) وقال: رواه أحمد عن شيخه إبراهيم بن القاسم ولم أعرفه.

(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٩) عن الكلبي.

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٢٧) عن ابن عباس.

قوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾.

أي: سيرت، من قولهم: بسّ الغنم، أي: ساقها.
وأبْسَسْتُ الإبل أبُسُّهَا بَسّاً، وأبْسَسْتُ وبَسِسْتُ لغتان إذا زجرتها وقلت: بَسْ بَسْ. قاله أبو زيد.

أو بمعنى «فُتّت»، كقوله: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥]، ويدل عليه: «فكانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا».

قال ابن عباس ومجاهد: كما يبسّ الدقيق، أي: يُلتّ[1].

والبَسِيْسَةُ: السَّويقُ أو الدقيق يُلَتُّ بالسَّمن أو الزيت، ثم يؤكل ولا يطبخ، وقد يتخذ زاداً.

قال الراجز: [الرجز]

٤٦٧٠ ـ لا تَـخْـبِـزَا خُـبْـزاً وبُـسَّـا بَـسَّـا ولا تُـطِـيـلا بِـمُـنَـاخٍ حَـبْـسَـا[2]

وقال الحسن: «وبسّت» قلعتْ من أصلها فذهبت[3]، ونظيرها: يَنْسِفُهَا ربِّي نسفاً وقال عطية: بُسِطَتْ كالرَّمل والتراب[4].

وقال مجاهد: سالت سيلاً[5].

وقال عكرمة: هدّت[6].

وقرأ زيد[7] **بن علي**: «رجَّت»، و «بَسَّت» مبنيين للفاعل.
على أن «رَجَّ» و «بَسَّ» يكونان لازمين ومتعديين، أي: ارتجت وذهبت.
قوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾.

قرأ النَّخعي[8] **ومسروق** وأبو حيوة: «منبتًّا» بنقطتين من فوق، أي: منقطعاً من البَتِّ.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٢٤) عن مجاهد. وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٩).

(٢) جاء في القرطبي: وذكر أبو عبيدة أن قائل هذين البيتين: لص من غطفان أراد أن يخبز فخاف أن يعجل عن ذلك فأكله عجيناً.
ويروى البيت الثاني هكذا:
مَـلْـسَـا بـذودِ الـحِـلْـسِ مَـلْـسَـا
ينظر مجاز القرآن ٢/ ٢٤٨، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ١٢١، والطبري ٢٧/ ٩٧، واللسان (بسس)، والقرطبي ١٧/ ١٢٨.

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٩). (٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٢٨).

(٥) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ٤٤٦). (٦) ينظر المصدر السابق.

(٧) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٥٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٤، والدر المصون ٦/ ٢٥٣.

(٨) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٣٩، والدر المصون ٦/ ٢٥٣.

ومعنى الآية لا ينبو عنه.

قال علي رضي الله عنه: الهباء المُنْبَثّ: الرَّهجُ الذي يسطع من حوافر الخيل ثم يذهب، فجعل الله تعالى أعمالهم كذلك[(١)].

وقال مجاهد: «الهَبَاء»: الشعاع الذي يكون في الكُوة كهيئة الغُبَار، وروي نحوه عن ابن عباس[(٢)].

وعنه أيضاً: أنه ما تطاير من النَّار إذا اضطربت يطير منها شرر فإذا وقع لم يكن شيئاً[(٣)].

وقال عطية: «المنبث»: المتفرق، قال تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤] أي: فرق ونشر.

قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾.

أي: أصنافاً ثلاثة، كل صنف يشاكل كل ما هو منه كما يشاكل الزوج الزوجة، ثم بين من هم[(٤)]، فقال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾، ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾، ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾.

قوله: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾.

«أصحاب» الأول مبتدأ، و «ما» استفهامية ـ فيه تعظيم ـ مبتدأ ثاني، و «أصحاب» الثاني خبره، والجملة خبر الأول، وتكرار المبتدأ الأول هنا بلفظه مغنٍ عن الضمير، ومثله: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١، ٢]، ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١، ٢] ولا يكون ذلك إلا في مواضع التَّعظيم[(٥)].

فإن قيل: إن «ما» نكرة وما بعدها معرفة، فكان ينبغي أن يقال: «ما» خبر مقدم، و «أصحاب» الثاني وشبهه مبتدأ؛ لأن المعرفة أحق بالابتداء من النكرة؟ وهذا السؤال واردٌ على سيبويه[(٦)] في مثل هذا.

وفي قولك: «كَمْ مالك، ومرَرْتُ بِرَجُلٍ خَيْرٍ منهُ أبُوه» فإنه يعرب «ما» الاستفهامية، و «كم» و «أفعل» مبتدأ وما بعدها خبرها.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٢٥) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٦) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وعبد بن حميد.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٢٥) عن مجاهد وسعيد بن جبير وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٧) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وذكره أيضاً عن ابن عباس وعزاه إلى ابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٢٥) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٦) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.

(٤) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٥٣.

(٦) ينظر: «الكتاب» ١/ ٢٩١.

والجواب: أنه كثر وقوع النكرة خبراً عن هذه الأشياء كثرة متزايدة، فاطَّرد الباب، ليجري على سنن واحدة، هكذا أجابوا.

وهذا لا ينهض مانعاً من جواز أن يكون «ما» و «كَمْ» و «أفْعَل» خبراً مقدماً ولو قيل به لم يكن خطأ، بل أقرب إلى الصَّواب(١).

و «الميمنة» «مَفْعَلَة» من لفظ اليمين، وكذلك «المشأمة» من اليد الشؤمى وهي الشمال لتشاؤم العرب بها، أو من الشُّؤم(٢).

فصل في تحرير معنى الآية(٣)

قال السدي: «أصحاب الميمنةِ» هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، و «أصحاب المَشْأمة» هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النَّار(٤).

و «المَشْأمة»: الميسرة، وكذلك الشَّأمة، يقال: قعد فلان شأمة.

ويقال: شائم بأصحابك أي: خذ بهم شأمة أي: ذات الشمال والعرب تقول لليد الشمال: الشؤمى، وللجانب الشمال: الأشأم.

وكذلك يقال لما جاء عن اليمين: اليمن، ولما جاء عن الشمال: الشُّؤم.

قال البغوي(٥): «ومنه سمي «الشَّام واليمن»؛ لأن «اليمن» عن يمين الكعبة، و «الشام» عن شمالها».

قال ابن عباس والسدي: «أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ» هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذُّرية من صلبه، فقال الله لهم: هؤلاء في الجنة ولا أبالي»(٦).

وقال زيد بن أسلم: هم الذين أخذوا من شق آدم الأيمن يومئذ، وأصحاب المشأمة الذين أخذوا من شق آدم الأيسر(٧).

وقال عطاء ومحمد بن كعب: «أَصْحَابُ الميمنةِ من أوتي كتابه بيمينه، وأصحاب المشأمة من أوتي كتابه بشماله»(٨).

وقال ابن جريج: «أصحاب الميمنة» هم أصحاب الحسنات، وأصحاب المشأمة؛ هم أهل السيئات.

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٥٣، ٢٥٤.
(٢) السابق.
(٣) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٢٩.
(٤) ينظر القرطبي ١٧/ ١٢٩.
(٥) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٢٨٠.
(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٧٩).
(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٢٩) عن زيد بن أسلم.
(٨) ينظر المصدر السابق.

وقال الحسن والربيع: «أصحاب الميمنة» الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة، وأصحاب المشأمة: المشائيم على أنفسهم بالأعمال السيئة.

وفي صحيح مسلم من حديث «الإسراء» عن أبي ذرٍّ عن النبي ﷺ قال: «فلمَّا عَلوْنَا السَّماء الدُّنيا، فإذَا رجلٌ عن يَمينهِ أسْودةٌ، وعنْ يَسارهِ أسودةٌ، قال فإذَا نظر قبل يَمينِه ضَحِكَ، وإذَا نَظَرَ قبلَ شمالِهِ بكَى، قال: فقال: مَرْحَباً بالنبيِّ الصَّالحِ والابْنِ الصَّالح، قال: فقُلْتُ: يا جِبْريلُ منْ هذَا؟.

قال: هذا آدمُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهذه الأسودةُ عن يمينه وعن شمالهِ بَنُوه فأهْلُ اليَمِينِ أهْلُ الجنَّةِ، والأسودةُ الَّتي عن شمالِهِ أهْلُ النَّارِ» وذكر الحديث[(١)].

وقال المبردُ: «أصحاب الميمنة» أصحاب التقدم، وأصحاب المشأمة أصحاب التأخُّر والعرب تقول: اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك أي: اجعلني من المتقدمين ولا تجعلني من المتأخرين[(٢)].

ثم عجب نبيه ﷺ فقال: «مَا أصْحَابُ المَيْمنَةِ» وهذا كما يقال: «زَيْدٌ مَا زَيْدٌ»، يريد «زيد شديد» فالتكرير في «مَا أصْحَابُ المَيْمنَةِ»، و «مَا أصحَابُ المَشْأمةِ» للتَّفخيم والتعجُّب، كقوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾، و ﴿ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ كما يقال: «زَيْدٌ ما زيدٌ».

وفي حديث أم زرع رضي الله عنها: «مالك، وما مالك؟»[(٣)].

والمقصود: تكثير ما لأصحاب الميمنة من الثواب، وأصحاب المشأمة من العقاب.

والفاء في قوله: «فأصْحَاب» تدل على التقسيم، وبيان ما ورد عليه التقسيم، كأنه قال: أزواجاً ثلاثة: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون، وبين حال كل قسم فقال: «ما أصْحَابُ الميمنَةِ» وترك التقسيم أولاً، واكتفى بما يدل عليه بأن تُذكر الأقسام الثلاثة مع أحوالها.

فإن قيل: ما الحكمة في اختيار لفظ «المشأمة» في مقابلة «الميمنة» مع أنه قال في بيان أحوالهم «وأصحَابُ الشِّمال ما أصحابُ الشِّمال»؟.

فالجواب: أنَّ اليمين وضع للجانب المعروف، واستعملوا منها ألفاظاً في مواضع فقالوا: «هذا ميمون» تيمناً به، ووضعوا مقابلة اليمين اليسار من الشيء اليسير إشارة إلى ضعفه، ولفظ الشمال في مقابلته، واستعملوا منه ألفاظاً تشاؤماً به، فذكر «المشأمة»

---

(١) تقدم.

(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٢٩.

(٣) أخرجه البخاري (٩/ ١٦٣) كتاب النكاح، باب: حسن المعاشرة مع الأهل رقم (٥١٨٩) ومسلم (٤/ ١٨٩٦) كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر حديث أم زرع حديث (٩٢/ ٢٤٤٨) من حديث عائشة.

[في][١] مقابلة [«الميمنة»][٢] [وذكر الشمال في مقابلة اليمين][٣] فاستعمل كل لفظ مع ما يقابله.

قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾. فيه أوجه[٤]:

أحدها: أنها مبتدأ وخبر، وفي ذلك تأويلان:

أحدهما: أنه بمعنى: السابقون هم الذين اشتهرت حالتهم بذلك.

كقولهم: «أنت أنت، والناس الناس».

وقوله: [الرجز]

٤٦٧١ ـ أنَا أبُو النَّجْمِ وشِعْرِي شِعْرِي[٥]

وهذا يقال في تعظيم الأمر وتفخيمه، وهو مذهب سيبويه[٦].

التأويل الثاني: أن متعلق السابقين مختلف؛ إذ التقدير: والسَّابقون إلى الإيمان السابقون إلى الجنة، أو السابقون إلى طاعة الله السَّابقون إلى رحمته، أو السابقون إلى الخير السابقون إلى الجنَّة.

الوجه الثاني: أن يكون السَّابقون الثاني تأكيداً للأول تأكيداً لفظيًّا، و «أولئك المُقرَّبُون» جملة ابتدائية في موضع خبر الأول، والرابط: اسم الإشارة، كقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، في قراءة من قرأ برفع «لِبَاس» في أحد الأوجه.

الثالث: أن يكون «السابقون» الثاني نعتاً للأول، والخبر الجملة المذكورة.

وهذا ينبغي ألا يعرج عليه، كيف يوصف الشيء بلفظه، وأي فائدة في ذلك؟.

قال شهاب الدين[٧]: والأقرب عندي إن وردت هذه العبارة ممن يعتبر أن يكون سمى التَّأكيد صفة، وقد فعل سيبويه قريباً من هذا[٨].

الرابع: أن يكون الوقف [على قوله][٩] «والسَّابقون»، ويكون قوله «السَّابقون، أولئك المقربون» ابتداء وخبراً.

وهذا يقتضي أن يعطف «والسَّابقون» على ما قبله، لكن لا يليق عطفه على ما قبله،

---

(١) في ب: إلى.
(٢) في ب: اليمين.
(٣) سقط من ب.
(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٥٤.
(٥) تقدم.
(٦) ينظر: الكتاب ١/ ٣٨١، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٤، والدر المصون ٦/ ٢٥٤.
(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٥٤.
(٨) ينظر: الكتاب ١/ ٢٧٧.
(٩) سقط من ب.

وإنما يليق عطفه على أصحاب الميمنة، كأنه قيل: وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة والسابقون، أي: وما السابقون؟ تعظيماً لهم، فيكونون شركاء أصحاب الميمنة في التعظيم، ويكون قوله على هذا: «وأصحاب المَشْأمة ما أصحاب المشأمة» اعتراضاً بين المتعاطفين، وفي هذا الوجه تكلف كثير جداً[(١)].

فصل في المراد بالسابقين[(٢)]

قال عليه الصلاة والسلام: «السَّابِقُون الَّذينَ إذَا أعْطُوا الحقَّ قبلوهُ، وإذا سُئِلُوه بذلُوهُ، وحَكَمُوا للنَّاسِ كحُكْمِهِمْ لأنفُسِهِمْ»[(٣)].

ذكره المهدوي.

وقال محمد بن كعب القرظي: هم الأنبياء[(٤)].

وقال الحسن وقتادة: هم السابقون إلى الإيمان من كل أمة[(٥)].

وقال محمد بن سيرين: هم الذين صلّوا إلى القبلتين[(٦)]، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال مجاهد والضحاك: هم السَّابقون إلى الجهاد، وأول الناس رواحاً إلى صلاة الفرائض في الجماعة[(٧)] وقال علي رضي الله عنه: هم السابقون إلى الصَّلوات الخمس[(٨)].

وقال سعيد بن جبير: إلى التوبة، وأعمال البر، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ثم أثنى عليهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

وقيل: إنهم أربعة: منهم سابق أمة موسى، وهو حزقيل مؤمن آل فرعون، وسابق أمة عيسى، وهو حبيب النَّجّار صاحب «أنْطَاكية»، وسابقان في أمّة محمد ﷺ، وهما أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ قاله ابن عباس.

حكاه الماوردي.

وقال شميط بن العجلان: النَّاس ثلاثة: فرجل ابتكر للخير في حداثة سنه، ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا، فهذا هو السَّابق المقرب ثم طول الغفلة ثم رجع بتوبته حتى

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٥٤.
(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٢٩.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٢٩).
(٤) ينظر المصدر السابق.
(٥) ينظر المصدر السابق.
(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٠).
(٧) ينظر المصدر السابق.
(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٢٩).

ختم له بها، فهذا من أصحاب اليمين، ورجل ابتكر عمره بالذنوب، ثم لم يزل عليها حتى ختم له بها، فهذا من أصحاب الشمال.

وروي عن كعب قال: هم أهل القرآن المتوجون يوم القيامة(١).

وقيل: هم أول الناس رواحاً إلى المسجد، وأولهم خروجاً في سبيل الله «أولئك المقربون في جنات النعيم».

قوله: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

يجوز أن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون حالاً من الضمير في «المُقَرَّبُون»، وأن يكون متعلقاً به، أي: قربوا إلى رحمة الله في جنات النعيم.

ويبعد أن تكون «في» بمعنى «إلى».

وقرأ طلحة(٢): «في جنَّةٍ» بالإفراد.

وإضافة الجنة إلى النعيم من إضافة المكان إلى ما يكون فيه، كما يقال: «دار الضِّيافة، ودار الدَّعوة، ودار العدل».

وذكر النعيم هنا معرفاً، وفي آخر السورة منكراً؛ لأن السَّابقين معلومون، فعرفهم باللام المستغرقة لجنسهم، وأما هنا فإنهم غير معروفين لقوله: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ فجعل موضعه غير معروف، أو يقال: إن المذكور هنا جميع السَّابقين، ومنزلتهم أعلى المنازل، فهي معروفة، لأنها لا حدّ فوقها.

وأما باقي المقربين فلكل واحد مرتبة ودرجة، فمنازلهم متفاوتة، فهم في جنات متباينة في المنزلة، لا يجمعها صفة، فلم يعرفها.

قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

«ثلّة» خبر مبتدأ مضمر، أي «هم».

ويجوز أن يكون مبتدأ خبره مضمر، أي منهم ثلّة.

أي: من السابقين، يعني أن التقسيم وقع [بينهم](٣).

وأن يكون مبتدأ خبره «في جنَّات النَّعيم».

أو قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾.

فهذه أربعة أوجه.

و «الثُّلّة»: الجماعة من الناس، وقيدها الزمخشري بالكثيرة(٤).

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٠) عن كعب.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٥، والدر المصون ٦/ ٢٥٤.

(٣) في ب: في السابقين.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/٤٥٨، والدر المصون ٦/ ٢٥٥.

وأنشد: [الطويل]

٤٦٧٢ ـ وجَاءَتْ إليْهِمْ ثُلَّةٌ خِندفيَّةٌ بِجَيْشٍ كتيَّارٍ من البَحْرِ مُزبِدِ[١]

ولم يقيدها غيره، بل صرح بأنها الجماعة قلّت أو كثرت.

وقال الرّاغب[٢]: الثلّة: قطعة مجتمعة من الصُّوف؛ ولذلك قيل للمقيم: «ثَلَّة» يعني بفتح الثَّاء.

ومنه قوله: [الرجز]

٤٦٧٣ ـ أمْرَعَتِ الأرْضُ لَوْ أنّ مالا لَوْ أنَّ نُوقاً لَكَ أو جِمَالا
أوْ ثُلَّةً مِنْ غَنَمٍ إمَّا لا[٣]

انتهى.

ثم قال: «ولاعتبار الاجتماع، قيل: «ثلّة من الأولين، وثلّة من الآخرين» أي جماعة، وثللت كذا: تناولت ثلّة منه، وثلَّ عرشُه: أسقط ثلّة منه والثّلل: قصر الأسنان لسقوط ثلَّة منها، وأثل فمُه: سقطت، وتَثَلَّلَتِ الرُّكبَة: تَهَدَّمت» انتهى.

فقد أطلق أنها الجماعة من غير قيد بقلّة ولا بكثرة. والكثرة التي فهمها الزمخشري قد تكون من السياق.

وقال الزجاج[٤]: الثلّة: الفرقة.

و «مِنَ الأوَّلِينَ» صفة لـ «ثُلَّة»، وكذلك «من الآخرين» صفة لـ «قَلِيل».

فصل في المراد بقوله: ثلّة من الأوّلين

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. أي جماعة من الأمم الماضية.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: ممن آمن بمحمد ﷺ قال الحسن: «ثُلَّةٌ» ممن قد مضى قبل هذه الأمة، «وقليلٌ» من أصحاب محمد ﷺ[٥] اللهم اجعلنا منهم بكرمك.

وسموا قليلاً بالإضافة إلى من كان قبلهم؛ لأن الأنبياء المتقدمين كثروا، فكثر السابقون إلى الإيمان بهم، فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا.

---

(١) يروى لهم مكان إليهم، ومن السيل مكان (من البحر) ينظر الكشاف ٤/ ٥٣، وشرح شواهده ص ٣٨٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٠١ وروح المعاني ٢٧/ ١٣٧، والدر المصون ٦/ ٢٥٥.

(٢) ينظر المفردات ١٠٩.

(٣) ينظر تخليص الشواهد ص ٣٨١، والدرر ٢/ ٩٤، وشرح الأشموني ١/ ١٢٠، وهمع الهوامع ١/ ١٢٢، واللسان (مرع) والدر المصون ٢/ ٢٥٥.

(٤) ينظر: معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٠٩. (٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٣٠).

(قيل: لما نزلت هذه الآية شقَّ على أصحاب النبي ﷺ)[١] فنزلت ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ فقال النبي ﷺ: «إنِّي لأرجُو أن تكُونُوا رُبْعَ أهْلِ الجنَّةِ، بَلْ نِصْف أهلِ الجنَّة، وتُقاسِمُونهُم في النِّصْفِ الثانِي». رواه أبو هريرة ذكره الماوردي وغيره، ومعناه ثابت في «صحيح مسلم»، من حديث عبد الله بن مسعود[٢]، وكأنه أراد أنها منسوخة.

قال ابن الخطيب[٣]: وهذا في غاية الضعف من وجوه:

أحدها: أن عدد أمة محمد ﷺ كان في ذلك الزمان، بل إلى آخر الزمان بالنسبة إلى ما مضى في غاية القلة، فالمراد بالأولين: الأنبياء وكبار أصحابهم، وهم إذا جمعوا أكثر من السَّابقين من هذه الأمة.

الثاني: أن هذا خبر، والخبر لا ينسخ.

الثالث: أن هذه الآية في السَّابقين، والتي بعدها في أصحاب اليمين.

الرابع: أنه إذا جعل قليل منهم مع الأنبياء والرسل المتقدمين كانوا في درجة واحدة، وذلك يوجب الفرح؛ لأنه إنعام عظيم، ولعلّ الإشارة إليه بقوله عليه الصلاة والسلام: «عُلَمَاءُ أمَّتِي كأنْبِيَاءِ بَنِي إسْرائِيْلَ»[٤].

قال القرطبي: «والأشبه أنها محكمة؛ لأنها خبر، والخبر لا ينسخ؛ لأن ذلك في جماعتين مختلفتين».

قال الحسن: سابقو من مضى أكثر من سابقينا[٥]، فلذلك قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، وقال في أصحاب اليمين، وهم سوى السابقين: «ثلّة من الأولين وثلّة من الآخرين».

ولذلك [قال عليه الصلاة والسلام: «إنِّي لأرجُو أن تكُونَ أمَّتِي شطْرَ أهْلِ الجنَّةِ»، ثم تلا: «ثلة من الأولين، وثلة من الآخرين»[٦]][٧].

---

(١) سقط من ب.

(٢) تقدم.

(٣) ينظر تفسير الفخر الرازي ٢٩/ ١٣٠.

(٤) ذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة ص (٢٨٦) رقم (٧٠٢) وقال: حديث: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل.

قال شيخنا ومن قبله الدميري والزركشي: إنه لا أصل له، زاد بعضهم ولا يعرف في كتاب معتبر، وقد مضى في: أكرموا حملة القرآن كاد حملة القرآن أن يكونوا أنبياء، إلا أنهم لا يوحى إليهم، ولأبي نعيم في فضل العالم العفيف بسند ضعيف عن ابن عباس رفعه: أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٢٦) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٧) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٦) تقدم.

(٧) سقط من ب.

وقال أبو بكر رضي الله عنه: كلا الثُّلتين من أمة محمد ﷺ فمنهم من هو في أول أمته، ومنهم من هو في آخرها[١].

وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقيل: المراد ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، فإن أكثرهم لهم الدَّرجة العليا، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ﴾ [الحديد: ١٠].

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ لحقوهم، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «خَيْرُكُمْ قرني ثم الذينَ يَلُونَهُم»[٢] ثم سوى في أصحاب اليمين بين الأولين والآخرين.

قال ابن الخطيب[٣]: وعلى هذا فقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ يكون خطاباً مع الموجودين وقت التنزيل، ولا يكون فيه بيان الأولين الذين كانوا قبل نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهذا ظاهر؛ لأن الخطاب لا يتعلق إلاَّ بالموجودين من حيث اللفظ، ويدخل فيه غيره بالدليل.

ووجه آخر: أن المراد بالأولين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبالآخرين، أي: ذرياتهم الملحقون بهم في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

وقال الزَّجَّاج[٤]: الذين عاينوا جميع النبيين من لدُن آدم وصدقوهم أكثر مما عاين النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾.

أي: السَّابقون في الجنة على سرر، أي: مجالسهم على سُرر، جمع سرير[٥].

وقرأ زيد[٦] **بن علي، وأبو السمال**: «سُرَر» بفتح الراء الأولى وقد تقدم أنها لغة لبعض بني «كلب» و «تميم».

و «المَوضُونَة»: قال ابن عباس: منسوجة بالذهب[٧].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٣٠). (٢) تقدم.
(٣) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ١٣٠. (٤) ينظر: معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٠٩.
(٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٣١.
(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٤١، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٥، والدر المصون ٦/ ٢٥٥.
(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٢٨، ٦٢٩) عن ابن عباس بمعناه وعن ابن زيد.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦١٩) وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «البعث».

وقال عكرمة: مشبكة بالدُّر والياقوت[١].

وعن ابن عباس أيضاً: «مَوضُونةٌ» أي: مصفوفة، لقوله تعالى في موضع: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾[٢] [الطور: ٢٠].

وعنه، وعن مجاهد أيضاً: مرمُولة بالذهب.

وقيل: «مَوضُونة»: منسوجة بقضبان الذهب مُشَبَّكةٌ بالدّر والياقوت.

و «الموضونة»: المنسوجة، وأصله من وضَنْتُ الشَّيء، أي ركبته بعضه على بعض.

ومنه قيل للدِّرع: «موضونة»؛ لتراكب حلقها.

قال الأعشى: [المتقارب]

٤٦٧٤ ـ ومِنْ نَسْجِ دَاوُدَ موضُونَةً تَسِيرُ مَعَ الحَيِّ عِيراً فَعِيرَا[٣]

وعنه أيضاً: وضِينُ الناقة، وهو حِزامُهَا لتراكُب طاقاته؛ قال: [الرجز]

٤٦٧٥ ـ إلَيْكَ تَغْدُو قَلِقاً وضِينُهَا مُعْتَرِضاً فِي بَطْنِهَا جَنِينُهَا
مُخَالِفاً دِينَ النَّصَارَى دِينُهَا[٤]

وقال الرَّاغب[٥]: «الوَضْن: نسْج الدِّرع، ويستعار لكلّ نسج محكم».

فجعله أصلاً في نسيج الدروع.

وقال الآخر: [الوافر]

٤٦٧٦ ـ أقُولُ وقَدْ دَرَأْتُ لَهَا وَضِينِي أهَذَا دِينُهُ أبداً وَدِينِي؟[٦]

أي حزامي.

و «الوضينُ»: هو الحَبْل العريض الذي يكون منه الحَزْم لقوّة سداه ولُحْمته، والسرير الموضون الذي سطحه بمنزلة المنسوج.

قال القرطبي «ومنه الوضين بطانٌ من سُيُور ينسج، فيدخل بعضه في بعض».

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٣١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٢٩) وذكره السيوطي في «الدر المنشور» (٦/ ٢١٨) وزاد نسبته إلى ابن المنذر والبيهقي في «البعث والنشور».

(٣) ينظر ديوانه (٧١)، ومجاز القرآن ٢/ ٢٤٨، والطبري ٢٧/ ٩٩، والكشاف ٤/ ٥٣، والبحر ٨/ ٢٠١ والدر المصون ٦/ ٢٥٥.

(٤) تنظر الأبيات في مجاز القرآن ٢/ ٢٤٩، والقرطبي ١٧/ ١٣١ والبحر ٨/ ٢٠١ والدر المصون ٦/ ٢٥٥.

(٥) ينظر: المفردات ٧٢٥.

(٦) تقدم.

قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾.

حالان من الضمير في «عَلَى سُرُرٍ».

ويجوز أن تكون حالاً متداخلة، فيكون «متقابلين» حالاً من ضمير «مُتَّكئِينَ».

فصل في معنى الآية

«مُتَّكِئينَ» على السّرر، «مُتَقَابلينَ» لا يرى بعضهم قفا بعض، بل تدور بهم الأسرَّة.

والمعنى: أنهم كائنون على سُرر متكئين على غيرها كحال من يكون على كرسي، فيوضع تحته شيء آخر للاتّكاء عليه.

قال مجاهد وغيره: هذا في المؤمن وزوجته وأهله، أي: يتكئون متقابلين(١).

قال الكلبي: طول كل سرير ثلاثمائة ذراع، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت، فإذا جلس عليها ارتفعت(٢).

قوله: ﴿يَطُوفُ﴾.

يجوز أن يكون حالاً، وأن يكون استئنافاً.

﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: غلمان لا يموتون. قاله مجاهد.

والمعنى: لا موت لهم ولا فناء، أو بمعنى لا يتغير حالهم، ويبقون صغاراً دائماً.

وقال الحسن والكلبي: لا يهرمُون ولا يتغيرون(٣).

ومنه قول امرىء القيس: [الطويل]

٤٦٧٧ ـ وهَلْ يَنْعَمَنْ إلاَّ سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ قَلِيلُ الهُمُومِ ما يَبِيتُ بأوْجَالِ(٤)

وقال سعيد بن جبير: «مخلّدون» مُقَرَّطُون(٥).

يقال للقُرْط: الخَلَدة، ولجماعة الحُلِيّ: الخِلدة.

وقيل: مسوَّرون، ونحوه عن الفراء.

قال الشاعر: [الكامل]

٤٦٧٨ ـ ومُخَلَّداتٍ باللُّجَيْنِ كأنَّمَا أعْجَازُهُنَّ أقَاوِزُ الكُثْبَانِ(٦)

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٣١). (٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨١) وينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر ديوانه ص (٢٧)، المحتسب ٢/ ١٣٠، والسراج المنير ٤/ ١٨٣، واللسان (وجل)، والقرطبي ١٧/ ١٣١.

(٥) ذكره الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٢٩) والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨١).

(٦) ينظر اللسان (خلد)، والتاج ٢/ ٣٤٥ (خلد)، والقرطبي ١٧/ ١٣١.

وقيل: مقرطون، يعني: مُمَنْطَقُون من المناطق.

وقال عكرمة: «مخلّدون» منعمون[١].

وقيل: على سنٍّ واحدة، أنشأهم الله لأهل الجنة يطوفون عليهم، كما شاء من غير ولادة؛ لأن الجنة لا ولادة فيها.

وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ والحسن البصري: «الوِلْدَان» هاهنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغاراً، ولا حسنة لهم ولا سيّئة[٢].

وقال سلمان الفارسي: أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة[٣].

قال الحسن: لم يكن لهم حسنات يجازون بها، ولا سيئات يعاقبون عليها، فوضعوا هذا الموضع، والمقصود أن أهل الجنة على أتم السرور والنعمة[٤].

قوله: «بِأكْوَابٍ» متعلق بـ «يَطُوفُ».

و «الأكواب»: جمع كوب، وهي الآنيةُ التي لا عُرَى لها ولا خراطيم، وقد مضت في «الزخرف» و «الأباريق»: جمع إبريق، وهي التي لها عُرَى وخراطيم، واحدها: إبريق، وهو من آنِيَة الخَمْر، سُمِّيَ بذلك لبريق لونه من صفائه.

قال الشاعر: [البسيط]

٤٦٧٩ ـ أفْنَى تِلادِي ومَا جَمَّعْتُ مِنْ نَشَبِ ... قَرْعُ القَوارِيرِ أفْواهُ الأبَارِيقِ[٥]

وقال عديُّ بن زيد: [الخفيف]

٤٦٨٠ ـ وتَدَاعَوْا إلى الصَّبُوح فَقَامَتْ ... قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إبْرِيقُ[٦]

وقال آخر: [البسيط]

٤٦٨١ ـ كَأنَّ إبْرِيقَهُمْ ظَبْيٌ على شَرَفٍ ... مُقَدَّمٌ بِسَبَا الكتَّانِ مَلْثُومُ[٧]

ووزنه «إفْعِيل» لاشتقاقه من البريق.

قوله: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ تقدم في «الصافات».

و «المعين»: الجاري من ماء أو خمر، غير أن المراد هنا الخمر الجارية من العيون.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٣٢).

(٢) ينظر المصدر السابق. (٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٩) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٥) تقدم.

(٦) ينظر اللسان (برق) والبحر المحيط ٨/ ٢٠٢ والدر المصون ٦/ ٢٥٦.

(٧) ينظر المخصص لابن سيده ١٥/ ١٦٧، وسمط اللآلي ١/ ١٣ واللسان (برق)، والبحر ٨/ ٢٠٢ والدر المصون ٦/ ٢٥٦.

وقيل: الظاهرة، فيكون «مَعِين» مفعول من المعاينة.

وقيل: هو «فَعِيل» من المَعْنِ، وهو الكثرة.

قال ابن الخطيب[١]: هو مأخوذ من مَعن الماء إذا جرى.

وقيل: بمعنى «مَفْعُول»، فيكون من «عانه» إذا شخصه بعينه وميزه.

قال: والأول أظهر؛ لأن المعيون يوهم بأنه معيوب.

يقال: ضربني بعينه أي: أصابني بعينه؛ ولأن الوصف [بالمفعول][٢] لا فائدة فيه.

وأما الجريان في المشروب فإن كان في الماء فهو صفة مدح، وإن كان في غيره، فهو أمر عجيب لا يوجد في الدنيا، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥] وبين أنها ليست كخمر الدُّنيا يستخرج بتكلف ومعالجة.

فإن قيل: كيف جمع الأكواب والأباريق، وأفرد الكأس؟.

فالجواب: أن ذلك على عادة أهل الشرب فإنهم يعدون الخمر في أوان كبيرة، ويشربون بكأس واحدةٍ، وفيها مباهاتهم لأهل الدنيا من حيث إنهم يطوفون بالأكواب والأباريق، ولا ينتقل عليهم، بخلاف الدنيا، أو يقال: إنما أفردت الكأس لأنها إنما تُسَمَّى كأساً إذا كانت مملوءة، فالمراد اتخاذ المشروب الذي فيها، وأخر الكأس مناسبة لاتصاله بالشُّرب.

قوله: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾.

يجوز أن تكون مستأنفة، أخبر عنهم بذلك.

وأن تكون حالاً من الضمير في «عليهم».

ومعنى ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: بسببها.

قال الزمخشري[٣]: وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها.

والصُّدَاع؛ هو الداء المعروف الذي يلحق الإنسان في رأسه، والخمر تؤثر فيه.

قال علقمةُ بن عبدة في وصف الخمر: [البسيط]

٤٦٨٢ ـ تَشْفِي الصُّداعَ ولا يُؤذِيكَ حَالبُهَا ولا يُخالِطُهَا في الرَّأسِ تدويمُ[٤]

قال أبو حيان[٥]: هذه صفة خمر أهل الجنة، كذا قال الشيخ أبو جعفر بن الزبير لما قرأت هذا الدِّيوان عليه.

---

(١) ينظر: تفسير الفخر الرازي ٢٩/ ١٣٢.

(٢) في ب: بالذي.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٦٠.

(٤) تقدم.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٠٥.

والمعنى لا يتصدع رءوسهم من شربها، أي: أنها لذة بلا أذى، بخلاف شراب الدنيا.

وقيل: «لا يُصدَّعون» لا يتفرَّقُون كما يتفرق الشرب من الشراب للعوارض الدنيوية، ومن مجيء «تصدع» بمعنى: تفرق، قوله: فتصدع السحاب عن المدينة، أي: تفرق.

ويرجحه قراءة مجاهد[1]: «لا يَصَّدعون» بفتح الياء وتشديد الصاد.

والأصل: «لا يتصدعون» أي: لا يتفرقون، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣].

وحكى الزمخشري[2] قراءة، وهي: «لا يُصدِّعُون» بضم الياء، وتخفيف الصَّاد، وكسر الدَّال مشددة.

قال: «أي لا يصدع بعضهم بعضاً، لا يفرقونهم».

قوله: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾.

تقدم الخلاف بين السبعة في «يُنْزِفُون»، وتفسيره في «والصّافات».

وقرأ ابن[3] إسحاق: بفتح الياء وكسر الزاي من نزف البئر، إذا استقى ما فيها.

والمعنى لا ينفدُ خمرهم.

ومنه قول الشاعر: [الطويل]

٤٦٨٣ ـ لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفْتُمُ أو صَحَوْتُمُ لَبِئْسَ النَّدامَى كُنْتُم آلَ أَبْجَرَا[4]

وقال أبو حيان[5]: «وابن أبي إسحاق وعبد الله والجحدري والأعمش وطلحة وعيسى: بضم الياء وكسر الزاي، أي: لا يقيء شرابهم».

قال شهاب الدين[6]: وهذا عجيب منه فإنه قد تقدم في «الصَّافات» أنَّ الكوفيين يقرءون في «الواقعة» بكسر الزاي، وقد نقل هو هذه القراءة في قصيدته.

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: في الخمر أربع خصال: السُّكر، والصُّداع، والقَيء، والبَوْل، وقد نزّه الله ـ تعالى ـ خمر الجنة عن هذه الخصال[7].

قوله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ﴾.

---

(١) ينظر الكشاف ٤/ ٤٦٠، والبحر الميحط ٨/ ٢٠٥، والدر المصون ٦/ ٢٥٦.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٦٠.
(٣) ينظر المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٥، والدر المصون ٦/ ٢٥٦.
(٤) تقدم.
(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٠٥، ٢٠٦.
(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٥٦.
(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٣٢) من طريق الضحاك عن ابن عباس.

العامة على جر «فَاكِهَةٍ ولحْمٍ» عطفاً على «أكْوابٍ».

أي: يطوفون عليهم بهذه الأشياء المأكول والمشروب والمتفكه به، وهذا كقوله: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١].

فإن قيل: الفاكهة لا يطوف بها الولدان، والعطف يقتضي ذلك؟.

فالجواب: أن الفاكهة واللحم في الدنيا يطلبان في حال الشرب فجاز أن يطوف بهما الولدان [هنا] فيناولونهم الفواكه الغريبة، واللحوم العجيبة لا للأكل، بل للإكرام، كما يصنع المكرم للضيف أنواع الفواكه بيده، أو يكون معطوفاً على المعنى في قوله: ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: مقربون في جنَّات، وفاكهة، ولحم، وحور، أي: في هذه النِّعم يتقلَّبون [عليهم بهذه الأشياء: المأكول، والمشروب، والمتفكه](١).

وقرأ زيد بن علي(٢)**، وأبو عبد الرحمن ـ رضي الله عنهم ـ**، برفعهما على الابتداء، والخبر مقدر، أي: ولهم كذا.

والمعنى يتخيّرون ما شاءوا من الفواكه لكثرتها.

وقيل: المعنى: وفاكهة متخيرة مرضية، والتخير: الاختيار.

وقوله: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾.

قال ابن عبَّاس: يخطر على قلبه لحم الطَّير، فيصير ممتثلاً بين يديه على ما اشتهى، ثم يطير فيذهب(٣).

قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾.

قرأ الأخوان(٤): بجرّ «حُورٍ عينٍ».

والباقون: برفعهما.

والنخعي(٥): «وحيرٍ عينٍ» بقلب الواو ياء وجرهما.

وأبيّ وعبد(٦) الله قال القرطبي والأشهب العقيلي وعيسى بن عمر الثقفي، وهو كذلك في مصحف أبيّ: «وحُوراً عيناً» بنصبهما.

---

(١) سقط من ب.

(٢) ينظر البحر المحيط ٨/ ٢٠٥، والدر المصون ٦/ ٢٥٧.

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨١).

(٤) ينظر: السبعة ٦٢٢، والحجة ٦/ ٢٥٥، وإعراب القراءات ٢/ ٣٤٢، وحجة القراءات ٦٩٥، والعنوان ١٨٥، وشرح شعلة ٥٩٦، وشرح الطيبة ٦/ ٣٥، وإتحاف ٢/ ٥١٥.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٠٦، والدر المصون ٦/ ٢٥٧.

(٦) ينظر: معاني القرآن للفراء ٣/ ١٢٤، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٤، والمحتسب ٢/ ٣٠٩، وإعراب القراءات ٢/ ٣٤٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٤٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٦، والدر المصون ٦/ ٢٥٧.

فأما الجر فمن أوجه[١]:

أحدها: أنه عطف على «جنَّات النَّعيم» كأنه قيل: هم في جنات وفاكهة ولحم وحور؛ قاله الزمخشري[٢].

قال أبو حيان[٣]: «وهذا فيه بعد وتفكيك كلام مرتبط بعضه ببعض، وهو فهم[٤] أعجمي».

قال شهاب الدين[٥]: «والذي ذهب إليه الزمخشري معنى حسن جدًّا، وهو على حذف مضاف أي: وفي مقارنة حور، وهو الذي عناه الزمخشري، وقد صرح غيره بتقدير هذا المضاف».

وقال الفرَّاء[٦]: الجر على الإتباع في اللفظ، وإن اختلفا في المعنى؛ لأن الحور لا يُطاف بهنّ.

قال الشاعر: [الوافر]

٤٦٨٤ ـ إذَا مَا الغَانِيَاتُ بَرَزْنَ يَوماً وزَجَّجْنَ الحَواجِبَ والعُيُونَا[٧]

والعين لا تُزَجَّجُ، وإنَّما تُكَحَّل.

وقال آخر: [مجزوء الكامل]

٤٦٨٥ ـ ورَأيْتُ زَوْجَكِ في الوَغَى مُتَقَلِّداً سَيْفاً ورُمْحَا[٨]

الثاني: أنه معطوف على «بِأكْوَابٍ»، وذلك بتجوّز في قوله: «يَطُوفُ»؛ إذ معناه ينعمون فيها بأكواب، وبكذا، وبحور. قاله الزمخشري.

الثالث: أنه معطوف عليه حقيقة، وأن الولدان يطوفون عليهم بالحور أيضاً فإن فيه لذة لهم إذا طافوا عليهم بالمأكول؛ والمشروب، والمتفكه به، والمنكوح، وإلى هذا ذهب أبو عمرو بن العلاء وقطرب.

ولا التفات إلى قول أبي البقاء: عطفاً على «أكْوَاب» في اللَّفظ دون المعنى؛ لأن الحور لا يُطافُ بها.

وأما الرَّفْع فمن أوجه:

أحدها: عطفاً على «ولْدَان».

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٥٧.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٦٠.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٠٦.
(٤) في أ: كلام.
(٥) الدر المصون ٦/ ٢٥٧.
(٦) ينظر: معاني القرآن ٥/ ١١١.
(٧) تقدم.
(٨) تقدم.

أي: أن الحور يطفن عليهم بذلك كالولائد في الدُّنيا.

وقال أبو البقاء[١]: «أي يَطُفْن عليهم للتَّنعيم لا للخِدْمَة».

قال شهاب الدين[٢]: «وهو للخدمة أبلغ؛ لأنهم إذا خدمهم مثل أولئك، فما الظَّن بالمَوطُوءَات».

الثاني: أن يعطف على الضمير المستكنّ في «متكئين»، وسوغ ذلك الفصل بما بينهما.

الثالث: أن يعطف على مبتدأ وخبر حذفا معاً، تقديره: «لهم هذا كله وحور عين» قاله أبو حيَّان[٣].

وفيه نظر؛ لأنه إنما يعطف على المبتدأ وحده، وذلك الخبر له، ولما عطف هو عليه.

الرابع: أن يكون مبتدأ خبره مضمر، تقديره: ولهم، أو فيها، أو ثمَّ حور[٤].

وقال الزمخشري[٥]: «عطف على وفيها حور عين، كبيت الكتاب».

يريد: كتاب سيبويه، والمرادُ بالبيت قولهُ: [الكامل]

٤٦٨٦ ـ بَادَتْ وغَيَّرَ آيَهُنَّ مَعَ البِلَى إلاَّ رَواكِدَ جَمْرُهُنَّ هَبَاء
ومُشَجَّجٌ أمَّا سواءُ قَذالِهِ فَبَدا وغَيَّرَ سارهُ المَعْزاءُ[٦]

عطف «مشجج» وهو مرفوع على «رواكد»، وهو منصوب.

الخامس: أن يكون خبراً لمبتدأ مضمر، أي: نساؤهم حور. قاله أبو البقاء[٧].

قال الكسائي: ومن قال: «وحُورٌ عينٌ» بالرَّفع، وعلل بأنه لا يطاف بهن يلزمه ذلك في «فَاكِهَةٍ ولحْمٍ»؛ لأن ذلك لا يطاف به، وليس يطاف إلاَّ بالخمر وحدها.

وأما النصب ففيه وجهان:

---

(١) الإملاء ١٢٠٤.
(٢) الدر المصون ٦/ ٢٥٧.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٠٦.
(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٥٧.
(٥) الكشاف ٤/ ٤٦٠.
(٦) نسب البيتان لذي الرمة، وللشماخ.
ينظر ملحق ديوان ذي الرمة ص ١٨٤٠، ١٨٤١، وملحقات ديوان الشماخ ص ٤٢٧، ٤٢٨، والكتاب ١/ ٢٧٣، ١٧٤، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٣٩٦، والإيضاح الشعري لأبي علي الفارسي ص ٥٧٨، وأساس البلاغة ص ٢٢٩ (شجج)، وص ٤٣٣ (معز) واللسان (شجج)، وتاج العروس ٦/ ٥٦ (شجج) وخزانة الأدب ٥/ ١٤٧، والكشاف ٤/ ٥٤، والدر المصون ٦/ ٢٥٧.
(٧) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢٠٤.

أحدهما: أنه منصوب بإضمار فعل، أي: يعطون، أو يؤتون حوراً.

والثاني: أن يكون محمولاً على معنى «يطُوفُ عَلَيْهِمْ»؛ لأن معناه: يعطون كذا وكذا، فعطف هذا عليه.

وقال مكي(١): «ويجوز النَّصب على أن يحمل أيضاً على المعنى؛ لأن معنى «يطوف عليهم ولدان» بكذا وكذا، أي: يعطون كذا وكذا، ثم عطف «حوراً» على معناه»، فكأنه لم يطلع [على أنها](٢) قراءة.

وأمَّا قراءة: «وحِيرٍ» فلمُجاورتها «عِين»، ولأن الياء أخف من الواو، ونظيره في التَّعبير للمجاورة قولهم: «أخذه ما قدُم وما حدُث» ـ بضم دال ـ «حدُث» لأجل «قدُم»، وإذا أفرد منه فتحت داله فقط.

وقوله عليه الصلاة والسلام: ورَبَّ السَّمواتِ وما أظْلَلْنَ، وربَّ الشَّياطين ومنْ أضْلَلْن»(٣).

[وقوله: «أيَّتُكنَّ صاحبةُ الجملِ الأدْبَبِ، يَنْبَحُها كلاب الحوْأب»(٤)، فكَّ الأدبب لأجل الحَوأبِ](٥).

وقرأ قتادة(٦): «وحورُ عِينٍ» بالرفع والإضافة لـ «عين».

وابن مقسم(٧): بالنَّصب والإضافة.

وقد تقدم توجيه الرفع والنَّصْب.

وأما بالإضافة: فمن إضافة الموصوف لصفته مؤولاً(٨).

وقرأ عكرمة(٩): [«وحَوْرَاء عَيْنَاء» بإفرادهما على إرادة الجنس](١٠).

---

(١) ينظر: المشكل ٢/ ٧١٢.
(٢) في ب: عليها.
(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٥٠٣) كتاب الدعوات، باب: (٩١) حديث (٣٥٢٣) من حديث بريدة.
وقال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بالقوي ويروى هذا الحديث عن النبي ﷺ مرسلاً من غير هذا الوجه.
(٤) أخرجه البزار (٣٢٧٣ ـ كشف) من حديث ابن عباس والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٣٧) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات، وينظر: النهاية في غريب الحديث ١/ ٤٥٦، وغريب الحديث لابن الجوزي ١/ ٢٥٠.
(٥) سقط من ب.
(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٠٦، والدر المصون ٦/ ٢٥٨.
(٧) السابق.
(٨) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٥٨.
(٩) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٠٦، والدر المصون ٦/ ٢٥٨.
(١٠) سقط من ب.

وهذه القراءة تحتمل وجهين[١]:

أحدهما: أن يكون نصباً كقراءة عبد الله وأبيّ.

وأن يكون جرًّا كقراءة الأخوين؛ لأن هذين الاسمين لا يتصرَّفان، فهما محتملان للوجهين.

وتقدم الكلام في اشتقاق العين.

«كأمْثَال»: صفة، أو حال.

و «جزاءً»: مفعول من أجله، أو مصدر، أي: يحزون جزاء.

فصل في تفسير الآية

قال المفسرون: «حورٌ» بيض، «عينٌ» ضخام الأعين، ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ أي المخزون في الصدف لم تمسّه الأيدي، ولم يقع عليه الغبار، فهو أشدّ ما يكون صفاء.

وقوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قالت المعتزلة: هذا يدلُّ على أن يقال: الثواب واجب على الله ـ تعالى ـ لأن الجزاء لا يجوز الإخلال به.

وأجيبوا بأنه لو صح ما ذكروا لما كان في الوعد بهذه الأشياء فائدة؛ لأن العقل إذا حكم بأن ترك الجزاء قبيح، وعلم بالعقل أن القبيح من الله تعالى لا يوجد، علم أن الله تعالى يعطي هذه الأشياء، لأنها أجزية، وإيصال الثّواب واجب، وأيضاً فكان لا يصح التمدّح به.

قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾.

قال ابن عبَّاس: باطلاً وكذباً[٢].

و «اللَّغو»: ما يلغى من الكلام.

و «التأثيم»: مصدر أثمته، أي: قلت له: أثمت.

قال محمد بن كعب: «ولا تأثيماً»، أي: لا يؤثم بعضهم بعضاً[٣].

وقال مجاهد: «لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً»: شتماً ولا مأثماً[٤].

قوله: «إلاَّ قيلاً»، فيه قولان:

---

(١) الدر المصون ٦/ ٢٥٨.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢١) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٣٤). (٤) ينظر المصدر السابق.

أحدهما: أنه استثناء منقطع، وهذا واضح؛ لأنه لم يندرج تحت اللغو والتأثيم.

والثاني: أنه متصل.

وفيه بعد، وكأن هذا رأى أن الأصل: لا يسمعون فيها كلاماً، فاندرج عنده فيه.

وقال مكّي[1]: وقيل: منصوب بـ «يَسْمَعُون». وكأنه أراد هذا القول.

قوله: ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾. فيه أوجه:

أحدها: أنه بدل من «قيلاً» أي: لا يسمعون فيها إلا سلاماً سلاماً.

الثاني: أنه نعت لـ «قيلاً».

الثالث: أنه منصوب بنفس «قيلاً»، أي: إلاَّ أن يقولوا: سلاماً سلاماً، وهو قول الزَّجَّاج[2].

الرابع: أن يكون منصوباً بفعل مقدّر، ذلك الفعل محكيّ بـ «قيلاً» تقديره: إلا قيلاً سلموا سلاماً.

وقرىء[3]: «سلامٌ» بالرفع.

قال الزمخشري[4]: «على الحِكايَةِ».

قال مكي[5]: «ويجوز أن يكون في الكلام الرفع على معنى «سلام عليكم» ابتداء وخبر» وكأنه لم يعرفها قراءة[6].

فصل في معنى الآية

معنى «قيلاً سلاماً» أي: قولاً سلاماً.

وقال عطاء: يُحَيِّي بعضهم بعضاً بالسَّلام.

قال القرطبي[7]: «والسَّلام الثاني بدل من الأول، والمعنى: إلا قيلاً يسلم فيه من اللغو، وقيل: تحييهم الملائكة، أو يحييهم ربهم عزَّ وجلَّ».

وكرَّر السَّلام إشارة إلى كثرة السلام عليهم، ولهذا لم يكرر قوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

و «القيل» مصدر كالقول.

---

(١) ينظر: المشكل ٢/ ٧١٢.

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٢.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٦٠، والدر المصون ٦/ ٢٥٩.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٦٠.

(٥) ينظر: المشكل ٢/ ٧١٢.

(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٥٩.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٣٤.

قال ابن الخطيب[١]: فيكون «قيلاً» مصدراً، لكن لا نظير له في «باب» فعل يفعل من الأجوف.

وقيل: إنه اسم، والقول مصدر.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾.

رجع إلى ذكر أصحاب الميمنة، والتكرير لتعظيم شأن النَّعيم[٢].

فإن قيل[٣]: ما الحكمة في ذكرهم بلفظ «أصحاب الميمنة» عند تقسيم الأزواج الثلاثة؟ فلفظ أصحاب الميمنة» «مَفْعَلَة» إمَّا بمعنى موضع اليمين [كالحكمة موضع الحكم، أي: الأرض التي فيها «اليمن»، وإمَّا بمعنى موضع اليمين][٤] كالمنارة موضع النار، والمِجْمَرة موضع الجمرة، وكيفما كان، فالميمنة فيها دلالة على الموضع، لكن الأزواج الثلاثة في أول الأمر يتميزون بعضهم عن بعض ويتفرَّقون، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] فيتفرقون بالمكان، فأشار إليهم في الأول بلفظ يدلّ على المكان، ثم عند الثواب وقع تفرقهم بأمر منهم لا بأمر هم فيه وهو المكان، فقال: «وأصْحَابُ اليَمِينِ» أي الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم.

وقيل: أصحاب القوة.

وقيل: أصحاب النور.

قوله: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾.

قال ابن عبَّاس وغيره: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ أي: في نَبْق قد خُضِدَ شَوْكُه[٥].

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا صفوان عن سليم بن عامر عن أبي أمامة، قال: كان أصحاب النبي ﷺ يقولون: إنه لينفعنا الأعراب ومسائلهم، قال: أقبل أعرابي يوماً، فقال: يا رسول الله: لقد ذكر الله شجرة في القرآن مُؤذية، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟.

---

(١) التفسير الكبير ١٧/ ١٤٠.

(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٣٤.

(٣) الفخر الرازي ٢٩/ ١٤٢.

(٤) سقط من ب.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٣٤).

فقال رسول الله ﷺ: ومَا هِيَ؟.

قال: السِّدْر، فإن له شوكاً مؤذياً، فقال رسول الله ﷺ: «أو لَيْسَ يقولُ: «سِدْرٌ مخْضُودٌ» خضد الله شوكه، فجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها تنبت ثمراً، يفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام، ما فيه لون يشبه الآخر»[١].

وقال أبو العالية والضحاك: نظر المسلمون إلى «وجٍّ» ـ وهو واد بـ «الطائف» مخصب ـ فأعجبهم سدره، فقالوا: يا ليت لنا مثل هذه، فنزلت.

قال أمية بن أبي الصَّلت رضي الله عنه يصف الجنَّة: [الكامل]

٤٦٨٧ ـ إنَّ الحَدَائِقَ في الجِنَانِ ظَلِيلَةٌ فِيهَا الكَواعِبُ سِدْرُهَا مَخْضُودُ[٢]

وقال الضحاك ومجاهد ومقاتل بن حيان: «في سدر مخضود» هو الموقر حملا[٣].

وقال سعيد بن جبير: ثمرها أعظم من القلال[٤].

قوله: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾.

و «الطَّلْحُ»: جمع الطَّلحة. قال علي وابن عباس وأكثر المفسرين: الطَّلْح: شجر الموز، واحده طلحة[٥].

وقال الحسن: ليس موزاً، ولكنه شجر له ظل بارد رطب[٦].

وقال الفرَّاء وأبو عبيدة: شجر عظام له شوك.

قال الجعديُّ: [الرجز]

٤٦٨٨ ـ بَشَّرهَا دليلُها وقَالاَ غَداً تَرَيْنَ الطَّلْحَ والحِبَالاَ[٧]

فـ «الطَّلْح»: كل شجر عظيم كثير الشوك.

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٦) من حديث أبي أمامة وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢٢) وزاد نسبته إلى البيهقي في «البعث».

(٢) ينظر اللسان (سدر)، و(خضد)، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٢ وفتح القدير ٥/ ١٥٢، والسراج المنير ٤/ ١٨٥.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٣٥) عن مجاهد والضحاك.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٣٥) عن سعيد بن جبير.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٣٦) عن أبي سعيد وعلي بن أبي طالب وابن عباس.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢٢) عن أبي سعيد وزاد نسبته إلى الفريابي وهناد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.
وذكره أيضاً عن علي وزاد نسبته إلى عبد الرزاق والفريابي وهناد وعبد بن حميد وابن مردويه.

(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٢).

(٧) يروى: الأحبالا مكان الحبالا.
ينظر مجاز القرآن ٢/ ٢٥٠، والطبري ٢٧/ ١٠٤، والقرطبي ١٧/ ١٣٥.

وقال الزجاج[١]: هو شجر أم غيلان.

وقال مجاهد: ولكن ثمرها أحلى من العسل[٢].

وقال الزجاج: لها نور طيب جدًّا فخوطبوا ووعدوا بما يحبون مثله إلاَّ أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا.

وقال السُّدي: طلح الجنة يشبه طلح الدنيا، لكن له ثمر أحلى من العسل[٣].

وقوله: «مَنْضُودٍ». أي متراكب.

قال المفسرون: موقور من الحمل حتى لا يبين ساقه من كثرة ثمره، وتثني أغصانه.

وقرأ علي ـ رضي الله عنه ـ وعبد الله، وجعفر بن محمد: «وطَلْعٍ» بالعين، لقوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨].

ولما قرأ عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ قال: «وما شأن الطَّلْح» واستدل بقوله ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠]، فقيل: أنحولها؟ فقال: لا ينبغي أن يُهَاج القرآن اليوم ولا يحوَّل[٤].

فقد اختار هذه القراءة، ويروى عن ابن عباس مثله.

قال القرطبي[٥]: «فلم ير إثباتها في المصحف لمخالفة ما رسمه مجمع عليه، قاله القشيري وأسنده أبو بكر بن الأنباري بسنده إلى عليٍّ رضي الله عنه».

فصل في المراد بالآية

قال ابن الخطيب[٦]: المخضود: المأخوذ الشوك.

وقيل: المتعطف إلى أسفل، فإن رءوس أغصان السِّدر في الدنيا تميل إلى فوق لعدم ما يثقله بخلاف أشجار الجنة فإن رءوسها تتدلَّى.

والظاهر: أن الطَّلح شجر الموز، وذكر طرفين ليندرج ما بينهما، فإن ورق السِّدْر صغير، وورق الطلح وهو الموز كبير، وبينهما أنواع من الأوراق متوسطة كما ذكر في النخل والرمان، كقولهم: فلان يرضي الصغير والكبير، فيدخل ما بينهما.

و «المَنْضُود»: المتراكب الذي قد نضد أوله وآخره بالحمل، ليست له سوقٌ بارزة، بل هو مرصوص.

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١٢. (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٣٥).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٣٦) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) وزاد نسبته إلى ابن الأنباري في «المصاحف».

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٣٥. (٦) ينظر تفسير الفخر الرازي ٢٩/ ١٤٢.

و «النّضد»: هو الرَّص، و «المنضود»: المرصوص.

قال مسروق: أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها نضيدة، ثمر[١] كله كلما أكلت ثمرة عاد مكانها أحسن منها.

قوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾.

أي: دائم باقٍ لا يزول، ولا تنسخه الشمس[٢]، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥].

وذلك بالغداةِ، وهي ما بين الإسفار إلى طلوع الشمس، والجنة كلها ظل لا شمس معه.

قال ابن الخطيب[٣]: إنَّ الشمس إذا كانت تحت الأرض يقع ظلها في الجو، فيتراكم الظل فيسودّ وجه الأرض، وإذا كانت الشمس في أحد جانبي الأرض من الأفق، فينبسط الظل على وجه الأرض، فيضيء الجو ولا يسود وجه الأرض، فيكون في غاية الطيبة، فقوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي: كالظل بالليل، وعلى هذا فالظل ليس ظل الأشجار، بل ظل يخلقه الله تعالى.

وقال الربيع بن أنس: يعني ظل العرش[٤].

وقال عمرو بن ميمون: مسيرة سبعين ألف سنة[٥].

وقال أبو عبيدة: تقول العرب للدهر الطويل [والعمر الطويل][٦] والشيء الذي لا ينقطع: ممدود.

قال الشاعر: [الكامل]

٤٦٨٩ ـ غَلَبَ العَزاءُ وكُنْتُ غَيرَ مُغلَّبِ   دَهْـرٌ طَـويـلٌ دائـمٌ مَـمْـدُودُ[٧]

وفي «صحيح الترمذي» وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: في الجَنَّة شَجَرةٌ يسيرُ الرَّاكِبُ في ظلِّها مائة عامٍ، لا يَقْطَعُهَا، اقرءوا إن شِئْتُم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[٨].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٣٥) عن مسروق.

(٢) ينظر: القرطبي (١٧/ ١٣٥).

(٣) ينظر تفسير الفخر الرازي ٢٩/ ١٤٣.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٣٥) عن مسروق.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٣٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢٣) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر. ووقع في «تفسير الطبري» خمسمائة ألف سنة.

(٦) سقط من ب.

(٧) البيت «للبيد بن ربيعة» ويروى «غلب البقاء» مكان «غلب العزاء» ينظر ديوانه ص ٤٧، ومجاز القرآن ٢/ ٢٥٠، والطبري ٢٧/ ١٠٤، والقرطبي ١٧/ ١٣٥ وفتح القدير ٥/ ١٥٢.

(٨) أخرجه البخاري (٦/ ٣٦٧) كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة حديث (٣٢٥١) ومسلم (٤/ ٢١٧٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب: إن في الجنة شجرة (٨/ ٢٨٢٧) والترمذي (٤/ ٥٧٩)=

وهذا الحديث يرد قول ابن الخطيب من أنه ليس ظل الأشجار.

قوله: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾.

أي: مصبوب بكثرة.

وقيل: جارٍ لا ينقطع[١].

وأصل السَّكْب: الصَّب، يقال: سَكَبَهُ سَكْباً، والسكوب: انصبابه، يقال: سَكَبَ سُكُوباً.

وانصب انسكب انسكاباً.

ومعنى الآية: وماء مصبوب يجري في غير أخدود لا ينقطع عنهم[٢].

قال ابن الخطيب[٣]: معناه: مسكوب من فوق؛ لأن أكثر ماء العرب من الآبار والبرك فلا ينسكب.

وقيل: جارٍ في غير أخدود [بأبحر][٤] الهواء.

وكانت العرب أصحاب بادية، [وبلادها][٥] حارة، وكانت الأنهار في بلادهم عزيزة لا يصلون إلى الماء إلا بالدَّلو والرِّشاء، فوعدوا في الجنة خلاف ذلك.

قوله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾.

قرىء[٦]: برفع «فاكِهَةٌ».

أي: وهناك، أو ولهم، أو وفيها، أو وثَمَّ فاكهة.

قال ابن الخطيب[٧]: لما ذكر الأشجار التي يطلب منها ورقها، وذكر بعدها الأشجار التي يقصد بها ثمرها، ذكر الفاكهة بعد ذكر الأشجار انتقالاً من نعمة إلى نعمة، ووصفت بالكثرة دون الطيب واللذة؛ لأن الفاكهة تدل عليها.

قوله: «لا مقطوعةٍ». فيه وجهان[٨]:

أظهرهما: أنه نعت لـ «فاكهة»، و «لا» للنَّفي، كقولك: «مررت برجل لا طويل ولا قصير» ولذلك لزم تكرارها.

= كتاب صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة شجر الجنة (٢٥٢٣) وابن ماجه (٤٣٣٥) وأحمد (٢/ ٤١٨، ٤٣٨، ٤٦٢، ٤٦٩)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٣٨).
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢٣) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وعبد الرزاق وهناد بن السري وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٣٦.
(٢) السابق.
(٣) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ١٤٣.
(٤) في ب: بل يجري في.
(٥) في ب: وبلاد.
(٦) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٦١، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٦، والدر المصون ٦/ ٢٥٩.
(٧) ينظر: تفسير الفخر الرازي ٢٩/ ١٤٤.
(٨) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٥٩.

والثاني: هو معطوف على «فاكهة»، و «لا» عاطفة. قاله أبو البقاء[١].

وحينئذ لا بد من حذف موصوف، أي: لا فاكهة مقطوعة، لئلاً تعطف الصفة على موصوفها.

والمعنى[٢]: ليست كفواكه الدُّنيا تنقطع في أوقات كثيرة، وفي كثير من المواضع، «ولا ممنوعة» أي: لا تمنع من الناس لغلوّ أثمانها.

وقيل: لا يحظر عليها كثمار الدنيا.

وقيل: لا تمنع من أرادها بشوك، ولا بُعد ولا حائط، بل إذا اشتهاها العبد دنت منه حتى يأخذها، قال تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾.

قوله: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾.

العامة: على ضم الراء، جمع: «فِرَاش».

وأبو حيوة[٣]: بسكونها، وهي مخففة من المشهورة.

و «الفُرُش»: قيل: هي الفراش المعهُودة، مرفوعة على الأسرة.

وقيل: هي كناية عن النساء كما كنى عنهن باللِّباس، أي: ونساء مرتفعات الأقدار في حسنهن وكمالهن، والعرب تسمي المرأة فراشاً ولباساً وإزاراً، قاله أبو عبيدة وغيره.

قالوا: ولذلك أعاد الضمير عليهن [في قوله][٤]: «إنَّا أنْشَأناهُنّ».

وأجاب غيرهم بأنه عائد على النساء الدَّال عليهن الفراش.

وقيل: يعود على الحور المتقدمة[٥].

وعن الأخفش: «هُنّ» ضمير لمن لم يجر له ذكر، بل يدل عليه السياق.

وقيل: مرفوعة القدر، يقال: ثوب رفيع أي: [عزيز][٦] مرتفع القدر والثمن، بدليل قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ فكيف ظهائرها؟ وقيل: مرفوعة بعضها فوق بعض[٧].

وروى التِّرمذي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ قال: «ارْتفَاعُهَا كما بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ مَسِيرةَ خَمْسمائة عامِ» قال: حديث غريب[٨].

---

(١) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢٠٤.
(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٣٦.
(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٦١، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٤٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٦، والدر المصون ٦/ ٢٥٩.
(٤) في ب: لذلك قال.
(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٥٩.
(٦) في ب: رفيع.
(٧) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/ ١٤٥.
(٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٠) وابن حبان (٢٦٢٨ ـ موارد) والترمذي (٢٥٤٣) وأحمد (٣/ ٧٥) والبيهقي في «البعث» رقم (٣١١) وأبو نعيم في «صفة الجنة» رقم (٣٥٧) من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعاً.
=

قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ﴾.

قيل: الضَّمير يعود (على)[1] الحُور العين، أي: خلقناهن من غير ولادة.

وقيل: المراد نساء بني آدم خلقناهنَّ خلقاً جديداً، وهو الإعادة، أي أعدناهنّ إلى حال الشَّباب، وكمال الجمال، ويرجحه قوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾ لأن المخلوقة ابتداء معلوم أنها بكر.

والمعنى أنشأنا العجوز والصَّبية إنشاء، وأخرن، ولم يتقدم ذكرهنّ؛ لأنَّهن قد دخلن في أصحاب اليمين، ولأن الفُرش كناية عن النساء كما تقدم[2].

وروي عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ قال: «مِنهُنَّ البِكرُ والثَّيِّبُ»[3].

وروى النحاس بإسناده عن أم سلمة سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾، فقال: «يا أمَّ سلمة، هُنَّ اللَّواتِي قُبِضْنَ في الدُّنيا عَجَائِزَ، شُمْطاً، عُمْشاً، رُمْصاً، جعلهُنَّ اللَّهُ بعد الكبر أتْرَاباً على ميلادٍ واحدٍ في الاستواءِ»[4].

وروى أنس بن مالك، يرفعه في قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ قال: «هُنَّ العجائزُ العُمْشُ، الرُّمص، كُنَّ في الدُّنيا عُمْشاً رُمْصاً»[5].

وعن المسيب بن شريك: قال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾، قال: «هُنَّ عجائزُ الدُّنيا، أنشَأهُنَّ الله تعالى خلقاً جديداً، كُلَّما أتَاهُنَّ أزواجهُنَّ وجدُوهُنَّ أبْكاراً» فلما سمعت عائشة بذلك قالت: واوجعاه، فقال النبي ﷺ: «لَيْسَ هُناكَ وجعٌ»[6].

= وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢٤) وزاد نسبته إلى ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» وابن أبي حاتم والروياني وأبي الشيخ في «العظمة».

(١) في ب: إلى.

(٢) ينظر؛ القرطبي ١٧/ ١٣٦.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٠) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢٤) وزاد نسبته إلى الطيالسي وابن أبي الدنيا والطبراني وابن مردويه وابن قانع والبيهقي في «البعث» من حديث سلمة بن يزيد الجعفي.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤١).

(٥) أخرجه الترمذي (٣٢٩٦) والطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٠) من طريق موسى بن عبيدة عن يزيد بن أبان عن أنس مرفوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث موسى بن عبيدة وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان الرقاشي يضعفان في الحديث.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢٤) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وهناد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «البعث».

(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٣) عن المسيب بن شريك.

وعن الحسن قال: أتت عجوز النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ادعُ الله أن يدخلني الجنة، فقال: «يَا أم فُلانٍ، الجنَّةُ لا يدخُلهَا عَجُوزٌ»، قال: فولَّت تبكي، فقال: أخْبرُوهَا أنَّهَا لا تدخُلها وهيَ عجُوزٌ، إنَّ الله تعالى يقُولُ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَآءً فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾[1].

قوله: «عُرُباً».

جمع «عَرُوب» كـ «صَبُور، وصُبُر»، والعَرُوب: المحببة إلى بعلها، واشتقاقه من «أعرب» إذا بين.

فالعروب: تبين محبتها لزوجها بشكل وغُنج وحسن كلام. قاله عكرمة وقتادة[2].

وقيل: الحسناء.

وقيل: المحسِّنة لكلامها[3].

وقرأ حمزة[4]**، وأبو بكر**: بسكون الراء. وهذا كـ «رُسُل ورُسْل، وفُرُش وفُرْش».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هنّ العواشق[5].

وأنشد للبيد: [البسيط]

٤٦٩٠ ـ وفِي الخُدُورِ عرُوبٌ غَيْرُ فَاحِشَةٍ ... رَيَّا الرَّوادفِ يَغْشَى دُونهَا البَصَرُ[6]

ويروى: [البسيط]

---

(١) أخرجه الترمذي في «الشمائل» رقم (٢٤١) والبيهقي في «البعث» (٢٤١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢٤) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن مرسلاً. وللحديث شاهد من حديث عائشة، أخرجه الطبري (١١/ ٦٤٢) والبيهقي في «البعث» رقم (٣٧٩) من طريق ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن عائشة.

وله طريق آخر عنها ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٤١٩) وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه مسعدة بن اليسع وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٢) عن عكرمة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢٥) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٧.

(٤) ينظر: السبعة ٦٢٢، والحجة للقراء السبعة ٦/ ٢٥٧، ٢٥٧، وإعراب القراءات ٢/ ٣٤٣، ٣٤٤، وحجة القراءات ٦٩٦، والعنوان ١٨٥، وشرح شعلة ٥٩٦، وإتحاف ٢/ ٥١٥.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٢) عن ابن عباس والحسن ومجاهد.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢٥): عن ابن عباس وعزاه إلى ابن المنذر والبيهقي من طريق علي بن أبي طلحة عنه.

وله طريق آخر عن الضحاك عن ابن عباس ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢٥) وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٦) ينظر ديوانه ص ٥٦، ومجاز القرآن ٢/ ٢٥١، والطبري ٢٧/ ١٠٧، والقرطبي ١٧/ ١٣٧، والدر المصون ٦/ ٢٦٠.

٤٦٩١ ـ وفِي الجِنَانِ عَرُوبٌ غَيْرُ فَاحِشَةٍ رِيَّا الرَّوادفِ يَغْشَى ضَوؤهَا البَصَرَا[١]

وعن ابن عباس ومجاهد وغيرهما: العُرُب، العواشق لأزواجهن[٢].

وعن عكرمة: العَرُوبة: الغَنِجَة[٣].

قال ابن زيدٍ: بلغة أهل «المدينة»، وأنشد بيت لبيد، وهي الشَّكِلة بلغة أهل «مكّة»[٤].

وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه، قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: «عُرُباً» قال: «كلامُهنَّ عَربيٌّ»[٥].

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «العَرُوب» الملقة[٦].

قوله: «أتْرَاباً» جمع «تِرْب»، وهو المساوي لك في سنّك لأنه يمسّ جلدها التراب في وقتٍ واحد، وهو آكد في الائتلاف، وهو من الأسماء التي لا تتعرف بالإضافة؛ لأنه في معنى الصفة؛ إذ معناه «مساويك»، ومثله: «خِدنُك» لأنه في معنى صاحبك[٧].

قال القرطبي[٨]: «سنّ واحد، وهو ثلاث وثلاثون سنة، يقال في النساء: أتْرَاب، وفي الرجال: أقْرَان، وكانت العرب تميل إلى من جاوزت حدّ الصِّبا من النساء، وانحطَّت عن الكبر».

وقال مجاهد: الأتْراب: الأمثال والأشكال.

وقال السُّدي: أتراب في الأخلاق لا تباغض بينهن ولا تحاسُد[٩].

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «يَدْخلُ أهْلُ الجنَّةِ الجنَّة جُرْداً مُرْداً، جعَاداً، مكحَّلينَ، أبْناءَ ثلاثِينَ على خَلْقِ آدَمَ طُولهُ سِتُّونَ ذِرَاعاً في سبعةِ أذْرُعٍ»[١٠].

---

(١) تقدم. (٢) تقدم.

(٣) تقدم.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢٦) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢٦) وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٣) من طريق عكرمة عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢٥) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.

(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٠. (٨) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٣٧.

(٩) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٣٧).

(١٠) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٨٩) رقم (٢٥٤٥) من طريق قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ مرفوعاً.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وبعض أصحاب قتادة رووا هذا عن قتادة مرسلاً ولم يسندوه. =

وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ من صغيرٍ وكبيرٍ دُون بَنِي ثلاثِيْن سنةً في الجنَّةِ، لا يزيدُون عليْهَا أبداً، وكذلكَ أَهْلُ النَّارِ»[١].

قوله: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾.

في هذه «اللام» وجهان:

أحدهما: أنها متعلقة بـ «أنْشَأنَاهُنَّ» أي لأجل أصحاب اليمين.

والثاني: أنها متعلقة بـ «أتْرَاباً» كقولك: هذا تربٌ لهذا، أي: مُسَاو له.

وقيل: الحور العين: للسَّابقين، والأتْرَاب العُرُب: لأصحاب اليمين.

قوله: «ثلة من الأولين، وثلة من الآخرين».

رجع الكلام إلى قوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي هم ثلة من الأولين، وثلة من الآخرين، وقد مضى الكلام في معناه.

وقال أبو العالية، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح والضحاك: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ يعني: من سابقي هذه الأمة، ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ من هذه الأمة من آخرها[٢].

بدليل ما روي عن ابن عباس في هذه الآية: «ثلة من الأولين، وثلة من الآخرين»، فقال النبي ﷺ: «جَمِيعاً مِنْ أمَّتِي»[٣].

وقال الواحدي: «أصحاب الجنة نصفان: نصف من الأمم الماضية، ونصف من هذه الأمة». ويرد هذا ما روى ابن ماجه في «سننه» والترمذي في «جامعه» عن بريدة بن الحصيب قال: قال رسول الله ﷺ: «أهْلُ الجنَّةِ عِشْرُونَ ومائة صنف، ثمانُون منْهَا من هذهِ الأمَّةِ، وأربعُونَ من سَائِرِ الأمَمِ»[٤].

قال الترمذي: هذا حديث حسن.

و «ثُلَّةٌ» رفع على الابتداء، أو على حذف خبر حرف الصفة، ومجازه: لأصحاب اليمين ثلَّتان: ثلّة من هؤلاء، وثلّة من هؤلاء.

= وأخرجه أحمد (٢/ ٢٩٥) من حديث أبي هريرة. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٤٨) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في صفة الجنة والطبراني في الكبير.

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢/ ١٢٨) ومن طريقه البغوي في «تفسيره» (٤١/ ٢٨٤) من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد. وذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٣٩٣٤٤) وعزاه إلى الترمذي.

(٢) ينظر تفسير القرطبي (١٧/ ١٣٧).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٦) وابن عدي في «الكامل» (١/ ٣٧١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢٧) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس بسند ضعيف.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥٤٦) وابن ماجه (٤٢٨٩) وأحمد (٥/ ٣٤٧) والدارمي (٢/ ٣٣٧) والحاكم (١/ ٨٢) وابن المبارك في الزهد (٥٨٤) من حديث بريدة بن الحصيب.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

فالأوَّلون: الأمم الماضية، والآخرون: هذه الأمة على قول الواحدي.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾

قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾.

لما ذكر منازل أهل الجنة وسمَّاهم أصحاب اليمين، ذكر منازل أهل النَّار، وسمَّاهم أصحاب الشمال؛ لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم، ثم عظم ذكرهم في البلاء والعذاب، فقال: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ، فِى سَمُومٍ﴾ وهي الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن، والمراد بها حر النار ولهيبها.

وقيل: ريح حارة تهب فتمرض أو تقتل، وأصله من السم كسمّ الحية والعقرب وغيرهما.

قال ابن الخطيب[(١)]: «ويحتمل أن يكون هو السّم، والسّم يقال في خرم الإبرة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]؛ لأن سم الأفعى ينفذ في مسام البدن».

وقيل: السموم يختص بما يهبّ ليلاً، وعلى هذا فقوله: «سَمُومٍ» إشارة إلى ظلمة ما هم فيه.

و «الحَمِيم»: هو الماء الحارّ الذي قد انتهى حره، فهو «فَعِيل» بمعنى «فاعل» من حَمِمَ الماء، أو بمعنى «مفعول» من حم الماء إذا سخنه.

وقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾.

«اليَحْمُوم» وزنه «يَفْعُول».

قال أبو البقاء[(٢)]: «من الحمم، أو الحميم».

قال القرطبي[(٣)]: «هو» يَفْعُول، من الحم، وهو الشحم المسود باحتراق النار، وقيل: مأخوذ من الحُمَم وهو الفحم.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ١٤٧.
(٢) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢٠٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٣٨.

و «اليَحْمُوم»: قيل: هو الدُّخان الأسود البهيم.

وقيل: هو وادٍ في جهنم.

وقيل: اسم من أسمائها. والأول أظهر.

وقيل: إنه الظُّلمة، وأصله من الحمم، وهو الفَحْم، فكأنه لسواده فحم، فسمي باسم مشتق منه، وزيادة الحرف فيه لزيادة ذلك المعنى فيه، وربما تكون الزيادة فيه جامعة بين الزيادة في سواده، والزيادة في حرارته.

قال ابن الخطيب[(١)]: وفي الأمور الثلاثة إشارة إلى كونهم في العذاب دائماً؛ لأنهم إن تعرَّضوا لمهبّ الهواء أصابهم السَّمُوم، وإن استكنُّوا كما يفعله الذي يدفع عن نفسه السموم بالاستكنان في الكِنّ يكون في ظل من يحموم، وإن أراد التبرُّد بالماء من حرّ السموم يكون الماء من حميم، فلا انفكاك له من العذاب، أو يقال: إنَّ السموم يعذبه فيعطش، وتلتهب نار السَّموم في أحشائه، فيشرب الماء، فيقطع أمعاءهُ، فيريد الاستظلال بظلّ، فيكون ذلك الظلّ ظل اليَحْمُوم.

وذكر السموم دون الحميم دون النَّار تنبيهاً بالأدنى على الأعلى، كأنه قيل: أبرد الأشياء في الدنيا حارّ عندهم فكيف أحرها.

قال الضَّحاك: النار سوداء، وأهلها سُود، وكل ما فيها أسود[(٢)].

قوله: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ صفتان للظلّ، كقوله: «مِنْ يَحْمُومٍ».

وفيه أنه قدم غير الصريحة على الصريحة، فالأولى أن تجعل صفة لـ «يحموم»، وإن كان السياق يرشد إلى الأول.

وقرأ ابن أبي[(٣)] عبلة: «لا بَارِدٌ ولا كريمٌ» برفعهما، أي: «هُوَ لا بَارِدٌ».

كقوله: [الكامل]

٤٦٩٢ ـ .... فَأبِيتُ لا حَرِجٌ ولا مَحْرُومُ[(٤)]

قال الضَّحاك: «لا بَارِدٍ» بل حار؛ لأنه من دخان سعير جهنم، «ولا كَرِيم» عذب.

وقال سعيد بن المسيّب: ولا حسن منظره، وكل ما لا خير فيه، فليس بكريم[(٥)].

وقيل: «وظلٍّ مِنْ يَحْمُوم» أي: من النَّار يعذبون بها كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

---

(١) الفخر الرازي ٢٩/ ١٤٧.
(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٦).
(٣) ينظر الكشاف ٤/ ٤٦٣، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٩، والدر المصون ٦/ ٢٦٠.
(٤) تقدم.
(٥) ذكر البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٦).

قال الزمخشري[١]: «كرم الظل نفع الملهوف، ودفع أذى الحرّ عنه».

قال ابن الخطيب[٢]: ولو كان كذلك لكان البارد والكريم بمعنى واحد، والأقوى أن يقال: فائدة الظل أمران:

أحدهما: دفع الحر.

والآخر: كون الإنسان فيه مكرماً؛ لأن الإنسان في البرد يقصد الشمس ليدفأ بحرّها إذا كان قليل الثّياب، وفي الحرّ يطلب الظّل لبرده، فإذا كان من المكرمين يكون أبداً في مكان يدفع الحر والبرد عن نفسه، فيحتمل أن يكون المراد هذا.

ويحتمل أن يقال: الظل يطلب لأمر حسّي، وهو برده، ولأمر عقلي وهو التّكرمة، وهذا معنى ما نقله الواحدي عن الفرّاء بنفي كل شيء مستحسن، فيقولون: «الدار لا واسعة ولا كريمة».

قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾.

أي: إنما استحسنوا هذه العقوبة؛ لأنهم كانوا في الدنيا متنعّمين بالحرام.

و «المُتْرَف»: المنعم[٣].

قاله ابن عباس وغيره.

وقال السُّدي: «مُتْرَفينَ» أي: مشركين[٤].

قوله: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

الحِنْثُ في أصل كلامهم: العدل الثقيل، وسمي به الذنب والإثم لثقلهما، قاله الخطابي[٥].

وفلان حَنِثَ في يمينه، أي لم يَفِ به؛ لأنه يأثم غالباً، ويعبر بالحِنْثِ عن البُلُوغ، ومنه قوله: «لَمْ يَبلغوا الحِنْثَ»[٦].

وإنما قيل ذلك؛ لأن الإنسان عند بلوغه إيَّاه يؤاخذ بالحنث، أي: بالذنب، وتَحَنَّثَ فلان، أي جانب الحِنْث.

وفي الحديث: «كَانَ يَتَحَنَّثُ بِغَارِ حِرَاءَ»[٧]، أي: يتعبّد لمُجانبته الإثم، نحو: «تَحَرَّجَ» فتفعّل في هذه كلّها للسَّلْب[٨].

---

(١) ينظر بتصرف الكشاف ٤/ ٤٦٣.
(٢) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ١٤٧، ١٤٨.
(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٤٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢٨) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٣٨) عن السدي.
(٥) ينظر الدر المصون ٦/ ٢٦٠.
(٦) تقدم.
(٧) تقدم.
(٨) ينظر الدر المصون ٦/ ٢٦٠.

فصل في تفسير الآية[١]

قال الحسن، والضحاك، وابن زيد: «يُصِرُّونَ على الحِنْثِ العَظِيمِ» أي: يقيمون على الشرك[٢].

وقال قتادة ومجاهد: الذَّنْب العظيم الذي لا يتوبون منه[٣].

وقال الشَّعبي: هو اليمين الغَمُوس، وهي من الكبائر، يقال: حنث في يمينه، أي: لم يبرّها ورجع فيها، وكانوا يقسمون أن لا بعث، وأن الأصنام أنْداد الله فذلك حنثهم.

فصل في الحكمة من ذكر عذاب هذه الطائفة

قال ابن الخطيب[٤]: والحكمة في ذكره سبب عذابهم، ولم يذكر في أصحاب اليمين سبب ثوابهم، فلم يقل: إنهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين، وذلك تنبيه على أن ذلك الثواب منه فضل، والعقاب منه عدل، والفضل سواء ذكر سببه، أو لم يذكره لا يتوهّم بالمتفضل نقص وظلم.

وأمَّا العدل إن لم يعلم سبب العقاب، يظن أن هناك ظلماً، ويدلّ على أنه تعالى لم يقل في أصحاب اليمين: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ كما قاله في السَّابقين؛ لأن أصحاب اليمين نجوا بالفضل العظيم لا بالعمل، بخلاف من كثرت حسناته يحسن إطلاق الجزاء في حقه.

واعلم أن المترف هو المنعم، وذلك لا يوجب ذمًّا، وإنما حصل لهم الذم بقوله: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾، فإن صدور المعاصي ممن كثرت النِّعم عليه [من] أقبح القبائح، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾، ولم يشكروا نعم الله، بل أصروا على الذنب العظيم.

وفي الآية مبالغة[٥]؛ لأن قوله: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ﴾ يقتضي أن ذلك عادتهم، والإصرار على مُدَاومةِ المعصية والحنث أبلغ من الذنب؛ لأن الذنب يطلق على الصغيرة، ويدل على ذلك قولهم: «بَلَغَ الحِنْثَ» أي: بلغ مبلغاً تلحقه فيه الكبيرة.

وأما الصغيرة فتلحقُ الصغير، فإن وليَّهُ يعاقبه على إسَاءَة الأدب، وترك الصلاة، ولأن وصفه بالعظيم مبالغة. قاله ابن الخطيب[٦].

قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا﴾ الآية.

---

(١) ينظر القرطبي ١٧/١٣٨.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/٦٤٨) عن الضحاك وابن زيد.
(٣) ينظر المصدر السابق.
(٤) ينظر: تفسير الفخر الرازي ٢٩/١٤٨.
(٥) الفخر الرازي ٢٩/١٤٩.
(٦) السابق ٢٩/ ١٥٠.

هذا استبعاد منهم للبعث وتكذيب له، وقد تقدّم الكلام على ذلك في «والصَّافات»، وتقدم الكلام على الاستفهامين في سورة «الرَّعْد».

فإن قيل: كيف أتى بـ «اللام» المؤكدة في قوله تعالى: ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾، مع أن المراد هو النفي، وفي النفي لا تدخل «اللام» في خبر «إنَّ»، تقول: «إنَّ زيداً ليجيء، وإنَّ زيداً لا يجيء» فلا تذكر «اللام»، ومرادهم بالاستفهام: الإنكار، بمعنى إنا لا نبعث؟.

فالجواب من وجهين:

أحدهما: عند التصريح بالنفي وصيغته، يجب التصريح بالنفي وصيغته.

والثاني: أنهم أرادوا تكذيب من يخبر عن البعث، فذكروا أن المخبر عنه يبالغ في الإخبار، ونحن ننكر مبالغته وتأكيده، فحكوا[1] كلام المخبر على طريقة الاستفهام والإنكار، ثم إنهم أشاروا في الإنكار إلى أمور اعتقدوها مقررة لصحة إنكارهم، فقالوا: «أئِذَا مِتْنَا» ثم لم يقتصروا عليه، بل قالوا بعده: ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ أي: وطال عهدنا بعد كوننا أمواتاً حتى صارت اللحوم تراباً، والعظامُ رفاتاً ثم زادوا وقالوا: مع هذا يقال لنا: إنكم لمبعوثون بطريق التأكيد من ثلاثة أوجه:

أحدها: استعمال «إنَّ».

ثانيها: إثبات «اللام» في خبرها.

ثالثها: ترك صيغة الاستقبال، والإتيان بالمفعول كأنه كائن، ثم زادوا وقالوا: ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فقال الله تعالى لهم: «قُلْ» يا محمد ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من آبائكم، و ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ منكم ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ يعني: يوم القيامة.

ومعنى الكلام: القسم ودخول «اللام» في قوله تعالى: ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ هو دليل القسم في المعنى، أي: إنكم لمجمُوعون قسماً حقًّا، بخلاف قسمكم الباطل[2].

قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن الهدى ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ بالبعث ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾، وهو شجر كريه المَنْظَر كريه الطعم، وهو المذكور في سورة «والصَّافَّات».

وهذا الخطاب عامّ، وقيل: لأهل «مكة»، وهو من تمام كلام النبي ﷺ وقدم هنا الضَّالين على المكذبين في آخر السورة، قال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، فقدم المكذبين على الضَّالين؛ لأنهم هنا أصرُّوا على الحنث العظيم فضلوا عن السبيل، ثم كذبوا الرسول، وقالوا: «أئذا مِتْنَا».

وفي آخر السورة قدم المكذبين بالحشر على الضالين عن طريق الخلاص، أو

---

(١) في أ: فحملوا.

(٢) ينظر: الرازي ٢٩/ ١٥٠، والقرطبي ١٧/ ١٣٨.

يقال: إنَّ الكلام هنا مع الكُفَّار وهم ضلوا أولاً، وكذبوا ثانياً، وفي آخر السورة الكلام مع النبي ﷺ فقدم التكذيب به إظهاراً للعناية به ﷺ(١).

قوله: ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾. فيه أوجه(٢):

أحدها: أن تكون «من» الأولى لابتداء الغاية، والثانية للبيان، أي: مبتدئون الأكل من شجر هو زقوم.

الثاني: أن تكون «من» الثَّانية صفة لـ «شجر» فيتعلق بمحذوف أي: مستقر.

الثالث: أن تكون الأولى مزيدة، أي: لآكلون شجراً، و «من» الثانية على ما تقدم من الوجهين.

الرابع: عكس هذا، وهو أن تكون الثانية مزيدة، أي: لآكلون زقُّوماً، و «من» الأولى للابتداء في محل نصب على الحال من «زقّوم» أي: كائناً من شجر، ولو تأخَّر لكان صفة.

الخامس: أن «من شجر» صفة لمفعول محذوف، أي: لآكلون شيئاً من شجر، و «مِنْ زقُّومٍ» على هذا نعت لـ «شجر» أو لشيءٍ محذوف.

السادس: أن الأولى للتبعيض، والثانية بدل منها.

قوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾.

الضمير في «منها» عائد على الشجر، وفي «عليه» للشجر أيضاً.

وأنه يجوز تذكير اسم الجنس وتأنيثه، وأنهما لغتان.

وقيل: الضمير في «عليه» عائد على «الزَّقُّوم».

وقال أبو البقاء: للمأكول.

وقال ابن عطية: «للمأكول أو الأكل» انتهى(٣).

وفي قوله: «الأكْل» بُعْد.

وقال الزمخشري(٤): «وأنّث ضمير الشجر على المعنى، وذكره على اللفظ في «منها» و «عليه»، **ومن قرأ**(٥): ﴿مِن شَجَرَةٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ فقد جعل الضميرين للشجرة، وإنما ذكر الثاني على تأويل الزقوم؛ لأنه تفسيرها».

فصل في تحرير معنى الزقوم

قال ابن الخطيب(٦): «اختلفت أقوال الناس في «الزقوم»، وحاصل الأقوال يرجع

---

(١) ينظر: الرازي ٢٩/١٥١، ١٥٢. (٢) ينظر: الدر المصون ٦/٢٦١.
(٣) السابق، والمحرر الوجيز ٥/٢٤٧. (٤) ينظر: الكشاف ٤/٤٦٣.
(٥) وهي قراءة عبد الله كما في البحر المحيط ٨/٢٠٩، والمحرر الوجيز ٥/٢٤٧.
(٦) التفسير الكبير ٢٩/١٥٢.

إلى كون ذلك في الطَّعم مرًّا، وفي اللمس حارًّا، وفي الرائحة منتناً، وفي المنظر أسود لا يكاد آكله يَسيغهُ.

والتحقيق اللغوي فيه أن الزَّقوم لغة عربية، ودلنا تركيبه على قبحه؛ لأن «ز ق م» لم يجتمع إلا في مهمل، أو في مكروه.

يقال منه: مَزَقَ يَمْزقُ، ومنه: زَمَقَ شعره إذا نتفه، ومنه «القَزْمُ» للدَّناءة واللؤم.

وأقوى من هذا أن «القاف» مع كل حرف من الحرفين الباقيين يدل في أكثر الأمر على مكروه، فالقاف مع «الميم» كـ «القمامة والتَّقَمْقُم والقُمْقُمة»، وبالعكس «المقامق» لتغليظ الصوت، و «المَقْمَقَة» هو الشق.

وأما القاف مع الزاي فـ «الزق» رمي الطائر بذرقه، والزَّقْزقة: للخفة، وبالعكس ـ القزنوب ـ فينفر الطَّبع من تركيب الكلمة من حروف اجتماعها دليل الكراهة والقُبْح، ثم قرن بالأكل، فدلَّ على أنه طعام ذو غُصَّة.

وأما ما يقال: بأن العرب تقول: «زَقَمْتَنِي» بمعنى: أطعمتني الزّبد والعسل واللَّبن، فذلك للمجانة، كما يقال: ارشقني بثوب حسن، وارجمني بكيس من ذهب».

وقد تقدم الكلام على الزَّقُوم في «والصَّافات».

وقوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾.

بيان لزيادة العذاب، أي: لا يكتفى منكم بنفس الأكل، كما يكتفى ممن يأكل الشَّيء لتحلّة القسم، بل يلزمون منها بأن يملئوا منها البطون.

وقوله: «البُطُون» إما مقابلة الجمع بالجمع، أي: يملأ كل واحد منكم بطنه.

وإما أن يكون لكل واحد بطون، ويكون المراد منه ما في بطن الإنسان، وهم سبعة أمعاء فيملئون بطون الأمعاء، والأول أظهر، والثاني أدخل في التعذيب(١).

قوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الأكل، أو على الزَّقوم لأجل مرارته وحرارته يحتاجون إلى شرب الماء فيشربون من الماء الحار.

قوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾.

وهذا أيضاً بيان لزيادة العذاب، أي: لا يكون شربكم كمن شرب ماء حارًّا مُنْتِناً، فيمسك عنه، بل يلزمون أن يشربوا منه مثل ما يشرب الأهْيم، وهو الجمل العطشان، فيشرب ولا يروى(٢).

وقرأ نافع وعاصم وحمزة: بضم الشين من «شُرْب».

---

(١) ينظر السابق.

(٢) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/ ١٥٢.

وباقي[(١)] السبعة بفتحها.

ومجاهد وأبو عثمان[(٢)] النهدي: بكسرها.

فقيل: الثلاث لغات في مصدر «شرِبَ»، والمقيس منها إنما هو المفتوح، والمضموم والمكسور اسمان لما يشرب كـ «الرِّعْي» و «الطِّحْن».

قال القرطبي[(٣)]: «تقول العرب: «شَرِبْتُ شُرْباً وشَرْباً وشِرْباً وشُرُباً» بضمتين».

قال أبو زيد: سمعت العرب تقول: بضم الشِّين وفتحها وكسرها.

والفتح هو المصدر الصحيح؛ لأن كل مصدر من ذوات الثلاثة فأصله «فَعْل»؛ ألا ترى أنك تردّه إلى المرة الواحدة، فتقول: «فَعْلَة» نحو «شَرْبة».

وقال الكسائي يقال: «شربت شُرْباً وشَرْباً».

ويروى قول جعفر: «أيَّامُ مِنى أيَّام أكْلٍ وشَرْب».

ويقال: بفتح الشين، والشرب في غير هذا اسم للجماعة الشَّاربين[(٤)].

قال: [البسيط]

٤٦٩٣ ـ كَأنَّهُ خَارِجاً مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عِنْدَ مُفْتَأدِ[(٥)]

و «الهِيْم» فيه أوجه[(٦)]:

أحدها: أنه جمع «أهْيَم أوْ هَيْمَاء»، وهو الجمل والنَّاقة التي أصابها الهيام، وهو داء معطش تشرب الإبل منه إلى أن تموت، أو تسقم سقماً شديداً. والأصل: «هُيْم» ـ بضم «الهاء» ـ كـ «أحْمر وحُمْر، وحَمرَاء وحُمْر» فقلبت الضمة كسرة لتصح «الياء»، وذلك نحو «بِيض» في «أبْيَض».

وأنشد لذي الرّمة: [الطويل]

٤٦٩٤ ـ فأصْبَحْتُ كالهَيْمَاءِ، لا المَاءُ مُبْرِدٌ صَداهَا، ولا يَقْضِي علَيْهَا هُيَامُهَا[(٧)]

---

(١) ينظر: السبعة ٦٢٣، والحجة ٦/ ٢٦٠، وإعراب القراءات ٢/ ٣٤٥، وحجة القراءات ٦٩٦، والعنوان ١٨٥، وشرح شعلة ٥٩٦، وشرح الطيبة ٦/ ٣٦، وإتحاف ٢/ ٥١٦.

(٢) وحكاها الكسائي لغة. ينظر: إكمال الإعلام لابن مالك ٢/ ٣٣٠، وإعراب القراءات ٢/ ٣٤٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٤٧، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٩، والدر المصون ٦/ ٢٦١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٣٩.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦١.

(٥) البيت للنابغة الذبياني ينظر ديوانه ص ١٩، والأشباه والنظائر ٦/ ٢٤٣، وخزانة الأدب ٣/ ١٨٥، والخصائص ٢/ ٢٧٥، ورصف المباني ص ٢١١، ٢٩٥ واللسان (فأد) وابن الشجري ١/ ١٥٦، وشرح الكافية ١/ ٢٠٠، والدر المصون ٦/ ٢٦١.

(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦١.

(٧) ينظر ديوانه ٧١٤، والكشاف ٤/ ٥٦، وشرح شواهده ص ٥٤٢، والدر المصون ٦/ ٢٦١.

الثاني: أنَّه جمع «هَائِم وهَائمة» من «الهيام» أيضاً، إلا أن جمع «فَاعِل وفاعِلَة» على «فُعل» قليل، نحو: «نَازِل ونُزُل، وعائذ وعُوذ».

ومنه: [الطويل]

٤٦٩٥ ـ .... عُـــوذِ مَـــطَـــافِــلِ[١]

وقوله: «العوذ المطافيل».

وقيل: هو من «الهيَام» وهو الذهاب؛ لأن الجمل إذا أصابه ذلك هَامَ على وجهه.

الثالث: أنه جمع «هَيَام» بفتح الهاء، وهو الرمل غير المتماسك الذي لا يروى من الماء أصلاً، فيكون مثل «سَحَاب وسُحُب» ـ بضمتين ـ ثم خفف بإسكان عينه ثم[٢] كسرت فاؤه لتصحّ «الياء» كما فُعِلَ بالذي قبله.

[**الرابع**: أنه جمع «هُيَام» ـ بضم الهاء ـ وهو الرمل المتماسك، مبالغة في «الهيام» بالفتح. حكاها ثعلب.

إلا أن المشهور الفتح، ثم جمع على «فُعُل» نحو: «قَرَاد وقُرُد»، ثم خفف وكسرت فاؤه][٣] [لتصح «الياء»][٤].

وفي «الصحاح»[٥]: «والهُيَام ـ بالضَّم ـ أشدّ العطش، و «الهيام» كالجنون من العشق، و «الهَيْمَاء» أيضاً: المفازة لا ماء بها، و «الهِيَام» ـ بالكسر ـ العطاش».

والمعنى: أنَّهم يصيبهم من الجُوع ما يلجئهم إلى أكل الزَّقُّوم، ومن العطش ما يضطرهم إلى شُرْب الهيم.

وقال الزمخشري[٦]: «فإن قلت: كيف صح عطف الشاربين على الشاربين، وهما لذوات واحدة، وصفتان متفقتان، فكان عطفاً للشيء على نفسه؟.

قلت: ليستا متفقتين من حيث إن كونهم شاربين على ما هو عليه من تناهِي الحرارة وقطع الأمعاء أمر عجيب، وشربهم له على ذلك كما تشرب الماء أمر عجيب أيضاً، فكانتا صفتين مختلفتين». انتهى.

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وتمامه:

وإن حديثاً منك لو تعلمينه ... جنى النحل في لبان عوذ مطافل

ينظر الدرر ٥/ ٧، وشرح أشعار الهذليين ١/ ١٤١، وشرح شواهد الإيضاح ص ٥٨٧، وشرح شواهد الشافية ص ١٤٤، وشافية ابن الحاجب ٢/ ١٨٢، وهمع الهوامع ٢/ ٤٦، واللسان (بكر)، و(طفل)، والخصائص ٣/ ١٢٣.

(٢) زاد في ب: ثم خفف و.

(٣) سقط من ب.

(٤) سقط من ب.

(٥) الصحاح ٥/ ٢٠٦٣.

(٦) الكشاف ٤/ ٤٦٤.

يعني قوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ، فَشَٰرِبُونَ﴾.

وهو سؤال حسن، وجوابه مثله.

وأجاب بعضهم عنه بجواب آخر، وهو أن قوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ تفسير للشرب قبله.

ألا ترى أنَّ ما قبله يصلح أن يكون [مثل][1] شرب الهيم، ومثل شرب غيرها، ففسره بأنه مثل شرب هؤلاء البهائم أو الرمال، وفي ذلك فائدتان[2]:

إحداهما: التنبيه على كثرة شربهم منه.

والثانية: عدم جَدْوى الشرب، وأن المشروب لا ينجع فيهم كما لا ينجع في الهِيْمِ على التفسيرين.

وقال أبو حيَّان[3]: ««والفاء» تقتضي التعقيب في الشربين، وأنهم أولاً لما عطشوا شربُوا من الحميم ظنًّا منهم أنه ليسكن عطشهم، فازدادوا عطشاً بحرارة الحميم، فشربوا بعده شرباً لا يقع بعده ريٌّ أبداً، وهو مثل شرب الهيم، فهما شربان من الحميم لا شرب واحد اختلفت صفتاه فعطف، والمقصود: الصفة، والمشروب منه في ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ محذوف لفهم المعنى، تقديره: فشاربون منه» انتهى.

قال شهاب الدين[4]: «والظَّاهر أنه شرب واحد، بل الذي يعتقد هذا فقط، وكيف يناسب أن يكون زيادتهم العطش بشربة مقتضية لشربهم منه ثانياً».

قوله: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾.

قرأ العامة: «نُزُلُهُمْ» بضمتين.

وروي عن أبي عمرو من طرق.

وعن نافع وابن[5] محيصن: بضمة وسكون، وهو تخفيف.

و «النُّزُل»: ما يعدّ للضيف.

وقيل: هو أول ما يأكله، فسمي به هذا تهكّماً بمن أعد له.

وهو في المعنى كقول أبي الشعر الضَّبي: [الطويل]

٤٦٩٦ ـ وكُنَّا إذا الجَبَّارُ أنْزَلَ جَيْشَهُ جعلنَا القَنَا والمُرهفاتِ لَهُ نُزْلا[6]

---

(١) سقط من ب.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٢.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢١٠.

(٤) الدر المصون ٦/ ٢٦٢.

(٥) ينظر: السبعة ٦٢٣، والحجة ٦/ ٢٦٣، وإعراب القراءات ٢/ ٢٤٧، وينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٧، والبحر المحيط ٨/ ٢١٠، والدر المصون ٦/ ٢٦٢.

(٦) تقدم.

ومعنى الآية: هذا أول ما يلقونه من العذاب يوم القيامة كالنُّزل الذي يعد للأضياف تكرمة لهم، [وفيه][1] تهكم[2]، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٩].

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾

قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾.

تحضيض، أي: فهلا تصدقون بالبعث؛ لأن الإعادة كالابتداء. وقيل: المعنى نحن خلقنا رزقكم، فهلا تصدقون أن هذا طعامكم إن لم تؤمنوا، أو متعلق التصديق محذوف، تقديره: فلولا تصدقون بخلقنا[3].

قوله: «أفرأيتم».

[هي][4] بمعنى: «أخبروني» ومفعولها الأول «ما تمنون».

والثاني الجملة الاستفهامية. وقد تقدم تقريره[5].

والمعنى: ما تصبُّونه من المنيّ في أرْحَام النِّساء[6].

وقرأ العامَّة: «تُمْنُونَ» بضم التَّاء، من «أمْنى يمني».

وابن عبَّاس وأبو السِّمال[7]: بفتحها من «مَنَى يَمْنِي».

قال الزمخشري[8]: يقال: أمْنى النُّطفة ومناها، قال الله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٦].

فظاهر هذا أنه استشهاد للثلاثي، وليس فيه دليل له، إذ يقال من الرباعي أيضاً: تمني، كقولك: «أنت تكرم» وهو من «أكرم»[9].

وقال القرطبي[10]: ويحتمل أن يختلف معناهما عندي، فيكون «أمْنَى» إذا أنزل عند جماع، و «مَنَى» إذا أنزل عند احتلام، وفي تسمية المنيِّ منيًّا وجهان:

أحدهما: لإمنائه، وهو إراقته.

---

(١) في ب: وهذا.
(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٣٩.
(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٣.
(٤) سقط من ب.
(٥) سورة الكهف آية ٦٣.
(٦) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٤٠.
(٧) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٢٤٨، والبحر المحيط ٨/ ٢١٠، والدر المصون ٦/ ٢٦٣.
(٨) الكشاف ٤/ ٤٦٥.
(٩) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٣.
(١٠) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٤٠، وقد نقلها القرطبي عن الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٥٨.

الثاني: لتقديره، وهو المَنّ الذي يوزن به؛ لأنه مقدار لذلك، فكذلك المَنِيّ مقدار صحيح لتصوير الخِلْقَة.

قوله: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥ﴾. يجوز فيه وجهان[1]:

أحدهما: أنه فاعل فعل مقدر، أي: «أتَخْلُقُونهُ» فلما حذف الفعل لدلالة ما بعده عليه انفصل الضَّمير، وهذا من باب الاشتغال.

والثاني: أن «أنْتُم» مبتدأ، والجملة بعده خبر.

والأول أرجح لأجل أداةِ الاستفهام.

وقوله: «أمْ» يجوز فيها وجهان[2]:

أحدهما: أنها منقطعة؛ لأنَّ ما بعدها جملة، وهي إنما تعطف المفردات.

والثاني: أنها متَّصلة.

وأجابوا عن وُقوع الجملة بعدها بأن مجيء الخبر بعد «نحن» أتي به على سبيل التَّوكيد؛ إذ لو قال: «أمْ نَحْنُ» لاكتفي به دون الخبر، ونظير ذلك جواب من قال: «مَنْ في الدَّار»؟ زيد في الدار، «أو زيد فيها»، ولو اقتصر على «زيد» لكان كافياً.

ويؤيد كونها متصلة أن الكلام يقتضي تأويله، أي: الأمرين واقع، وإذا صلح كانت متصلة، إذ الجملة بتأويل المفرد.

ومفعول «الخَالِقُون» محذوف لفهم المعنى أي: «الخالقوه».

فصل في تحرير معنى الآية

والمعنى: أنتم تصورون منه الإنسان «أم نحن الخالقون» المقدّرون المصورون، وهذا احتجاج عليهم، وبيان للآية الأولى، أي: إذا أقررتم بأنا خالقوه لا غير، فاعترفوا بالبعث.

قال مقاتل: نحن خلقناكم ولم تكونوا شيئاً، وأنتم تعلمون ذلك، فهلاً تصدقون بالبعث[3].

قوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾.

قرأ ابن كثير[4]: «قَدَرْنَا» بتخفيف الدال.

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٣. (٢) السابق.

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٧).

(٤) ينظر: السبعة ٦٢٣، والحجة ٦/ ٢٦١، وإعراب القراءات ٢/ ٣٤٧، وحجة القراءات ٦٩٦، والعنوان ١٨٥، وشرح الطيبة ٦/ ٣٨، وشرح شعلة ٥٩٦، وإتحاف ٢/ ٥١٦.

والباقون: بتشديدها.

وهما لغتان بمعنى واحد في التقدير الذي هو القضاء، وهذا أيضاً احتجاج، أي: الذي يقدر على الإماتة يقدر على الخَلْق وإذا قدر على الخَلْق قدر على البعث[١].

قال الضحاك: معناه أي: سوَّينا بين أهل السماء وأهل الأرض.

وقيل: قضينا.

وقيل: كتبنا.

قال مقاتل: فمنكم من يبلغ الهَرَم، ومنكم من يموت صبيًّا وشابًّا[٢].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: مغلوبين عاجزين.

قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾.

يجوز أن يتعلق ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾، وهو الظّاهر، أي: لم يسبقنا أحد على تبديلنا أمثالكم، أي: يعجزنا، يقال: سبقه إلى كذا، أي: أعجزه عنه، وغلبه عليه.

الثاني: أنه متعلق بقوله: «قَدَّرنا» أي: قدرنا بينكم الموت، «على أن نُبدِّل» أي: تموت طائفة، وتخلفها طائفة أخرى. قال معناه الطبري[٣].

وعلى هذا يكون قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ معترضاً، وهو اعتراض حسن.

ويجوز في «أمْثَالكُمْ» وجهان[٤]:

أحدهما: أنه جمع «مِثْل» ـ بكسر الميم وسكون الثاء ـ أي: نحن قادرون على أن نعدمكم، ونخلق قوماً آخرين أمثالكم، ويؤيده: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣].

والثاني: أنه جمع «مَثَل» ـ بفتحتين ـ وهو الصفة، أي: نغير صفاتكم التي أنتم عليها خَلْقاً وخُلُقاً، و «ننشئكم» في صفات غيرها.

وتقدم قراءتا النَّشأة في «العنكبوت»[٥].

فصل في تفسير معنى الآية

قال الطبري[٦]: معنى الآية: نحن قدّرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم، «وما نحن بمسبوقين» في آجالكم، أي: لا يتقدم متأخر، ولا يتأخّر متقدم، «وننشئكم فيما لا تعلمون» من الصُّور والهيئاتِ.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٤٠.

(٢) ينظر البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٧).

(٣) جامع البيان ١١/ ٦٥١.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٣.

(٥) سورة العنكبوت آية (٢٠).

(٦) ينظر: جامع البيان ١١/ ٦٥١، والقرطبي ١٧/ ١٤٠.

قال الحسن: أي: نجعلكم قِردةً وخنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم[١].

وقيل: المعنى ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا، فيجمّل المؤمن ببياض وجهه، ويقبح الكافر بسواد وجهه.

وقال سعيد بن المسيب: قوله: ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني في حواصل طير سُودٍ تكون ببرهوت كأنها الخَطَاطِيْف، و «برهوت»: وادٍ في «اليمن»[٢].

وقال مجاهد: «فيما لا تعلمون» أي: في أي خلق شئنا[٣].

وقيل: ننشئكم في عالم فيما لا تعلمون، وفي مكان لا تعلمون.

قال ها هنا: ﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾.

وقال في سورة «الملك»: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢] بلفظ الخلق؛ لأن المراد هناك بيان كون الموت والحياة مخلوقين، وهاهنا ذكر حياتهم ومماتهم[٤].

قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾.

أي: إذ خلقتم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ولم تكونوا شيئاً[٥]. قاله مجاهد وغيره.

وهذا تقرير للنشأة الثَّانية[٦].

وقال قتادة والضحاك: يعني خلق آدم عليه الصلاة والسلام[٧].

﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾. أي: فهلا تذكرون.

قرأ طلحة[٨]: «تَذْكُرون» بسكون «الذال»، وضم «الكاف».

وفي الخبر: «عَجَباً كُل العَجبِ للمُكذِّبِ بالنَّشأة الآخرةِ، وهُو يَرَى النَّشْأة الأولى، وعَجَباً للمُصدِّقِ بالنَّشأةِ الآخرةِ، وهُوَ يَسْعَى لدارِ الغرُورِ».

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ وما بعده تقدم نظيره، وهذه حجة أخرى، أي: أخبروني عما

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٧). (٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥١). (٤) ينظر: تفسير الفخر الرازي ٢٩/ ١٥٥.

(٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٤٠. (٦) ينظر تفسير القرطبي (١٧/ ١٤٠).

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥٢) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٠) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٨) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٢٤٨، والبحر المحيط ٨/ ٢١١، والدر المصون ٦/ ٢٦٤.

تحرثون من أرضكم، فتطرحون فيها البَذْر، أأنتُم تُنشئُونه، وتجعلونه زرعاً، فيكون فيه السُّنبل والحب، أم نحن نفعل ذلك وإنما منكم البِذْر وشقُّ الأرض؟ فإذا أقررتم بأن إخراج السُّنبلة من الحبَّة ليس إليكم، فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وإعادتهم؟.

وأضاف الحَرْث إليهم، والزَّرع إليه تعالى؛ لأنَّ الحرث فعلهم، ويجري على اختيارهم، والزرع من فعل الله ـ تعالى ـ وينبت على اختياره لا على اختيارهم[١].

وكذلك ما روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَقُولنَّ أحدُكمْ: زَرعتُ، وليقُلْ حرثتُ، فإنَّ الزَّارعَ هُوَ اللَّهُ».

قال أبو هريرة: ألم تسمعوا قول الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[٢].

قال القرطبي[٣]: «والمستحبّ لكل من زرع أن يقرأ بعد الاستعاذة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ الآية، ثم تقول: بل الله هو الزارع، والمنبت والمبلغ، اللهم صل على محمد، وارزقنا ثمره، وجَنِّبْنا ضرره، واجعلنا لأنعمك من الشَّاكرين، ويقال: إنَّ هذا القول أمان لذلك الزَّرع من جميع الآفات: الدُّود والجراد وغير ذلك، سمعناه من ثقة وجرَّبناه فوجدناه كذلك».

فإن قيل: إذا كان الزَّارع هو الله، فكيف قال تعالى: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقال عليه الصلاة والسلام: «الزَّرْعُ للزُّراع»؟[٤].

فالجواب[٥]: أن الحرث أوائل الزَّرع، والزرع أواخر الحرث، فيجوز إطلاق أحدهما على الآخر لاتِّصاله به.

ومعنى: «أأنتُمْ تزرَعُونَهُ»، تجعلونه، وقد يقال: فلان زَرَّاع كما يقال: حرَّاث أي: يفعل ما يؤول إلى أن يصير زَرْعاً، وقد يطلق لفظ الزَّرْع على بَذْر الأرض وتكريبها تجوزاً.

قال القرطبي[٦]: «وهذا نهي إرشاد وأدب، لا حظر وإيجاب».

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٤١.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥٢) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٣١١ ـ ٣١٢) رقم (٥٢١٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٣٠) وزاد نسبته إلى البزار وابن مردويه وأبي نعيم من حديث أبي هريرة.

(٣) ينظر: القرطبي ٢٧/ ١٤١.

(٤) ذكره الصنعاني في «سبل السلام» (٣/ ٦٠) وقال: لم يخرجه أحد وكذلك الشوكاني في «نيل الأوطار» (٥/ ٢٧٢) وقال ولم أقف عليه.

(٥) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/ ١٥٧. (٦) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٤١.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يَقُولنَّ أحدُكم: عَبْدِي وأَمَتِي، وليقُلْ: غُلامِي وجَارِيَتِي وفَتَايَ وفَتَاتِي»[١].

قوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا﴾.

أتى هنا بجواب «لو» مقروناً بـ «اللام»، وهو الأكثر؛ لأنه مثبت، وحذف في قوله: ﴿جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]؛ لأن المنّة بالمأكول أعظم منها بالمشروب. قاله الزمخشري[٢].

وهذا منقوض[٣] بقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا﴾ [يس: ٦٦] و ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَـٰهُمْ﴾ [يس: ٦٧]، وذلك أن أمر الطّمس أهون من أمر المسخ، وأدخل فيهما «اللام».

وأجاب الزمخشري[٤] بجواب آخر فقال: «ولو نشاء لجعلناه حطاماً» كان أقرب الذكر، فاستغنى باللام فيه عن ذكرها ثانياً.

قال ابن الخطيب[٥]: وهذا ضعيف؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦] مع قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَـٰهُمْ﴾ [يس: ٦٧] أقرب من قوله: ﴿لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا﴾، و ﴿جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا﴾ اللَّهُم إلاَّ أن تقول هناك: أحدهما قريب من الآخر ذكراً لا معنى؛ لأن الطَّمْس لا يلزمه المَسْخ ولا بالعكس، وأما المأكول يكون معه المشرُوب في الدهر فالأمران متقاربان لفظاً ومعنى.

فصل في الكلام على هذه الآية

قال الماوردي[٦]: هذه الآية تتضمن أمرين:

أحدهما: الامتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم.

الثاني: البرهان الموجب للاعتبار؛ لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذره، وانتقاله إلى استواء حاله من العفنِ والتَّتريب حتى صار زرعاً أخضر، ثم قوي مشتدًّا أضعاف ما كان عليه، فهو بإعادة من أمات أحق عليه وأقدر، وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفطر السَّليمة، ثم قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا﴾ أي: متكسِّراً، يعني: الزَّرع والحُطَام الهشيم الهالك الذي لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء، فنبَّه بذلك على أمرين:

---

(١) أخرجه مسلم ٤/ ١٧٦٤ في كتاب الألفاظ من الأدب، باب: إطلاق لفظة العبد (١٣ ـ ١٤/ ٢٢٤٩).

(٢) ينظر الكشاف ٤/ ٤٦٦.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ١٥٨.

(٤) الكشاف ٤/ ٤٦٦.

(٥) التفسير الكبير ٢٩/ ١٥٨.

(٦) ينظر: النكت والعيون ٥/ ٤٦٠.

أحدهما: ما أولاهم به من النعم في زرعهم إذ لم يجعله حطاماً ليشكروه.

الثاني: ليعتبروا بذلك في أنفسهم كما أنه يجعل الزَّرع حُطاماً إذا شاء، وكذلك يهلكهم إذا شاء ليتَّعظوا فينزجروا[١].

قوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾.

قرأ العامة: بفتح الظَّاء، بلام واحدة وقد تقدم الكلام عليها مستوفى في «طه»[٢].

وأبو حيوة وأبو بكر[٣] **في رواية**: بكسر الظاء.

وعبد الله الجحدري[٤]: «فظَلِلتُمْ» على الأصل بلامين، أولاهما مكسورة.

وروي عن الجحدري: فتحها، وهي لغة أيضاً.

والعامة: «تَفَكَّهُونَ» بالهاء.

ومعناه: تَنْدَمُون، وحقيقته: تلقون الفكاهة من أنفسكم، (ولا تلقى)[٥] الفكاهة إلاَّ من الحزن، فهو من باب «تحَرَّج وتأثَّم وتحوب»[٦].

وقيل: «تفكّهون». تتعجبون بذهابها ما نزل بكم في زرعكم. قاله عطاء والكلبي ومقاتل.

وقيل: تتندمون مما حلّ بكم. قاله الحسن وقتادة وغيرهما.

وقيل: تلاومُون.

وقيل: تتفجَّعون، وهذا تفسير باللازم.

وقرأ أبو حزام[٧] **العكلي**: «تَفَكَّنُونَ» بالنون، أي: تندَّمون.

قال ابن خالويه: «تَفَكَّه» تعجَّب، و «تَفَكَّن» تندَّم.

وفي الحديث: «مثلُ العالم كمثلِ الحمَّة، يأتيها البُعدَاءُ ويترُكُهَا القُربَاءُ، فَبَيْنَا هُم إذ غَارَ ماؤهَا فانتفع به قومٌ، وبَقِي قومٌ يتفكَّنُون»، أي: يتندَّمُون[٨].

قال الفرَّاء[٩]: والنون، لغة عكل.

وفي الصحاح[١٠]: «التَّفَكُّن» التندُّم على ما فات.

وقيل: التفكُّه: التكلُّم فيما لا يعنيك.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٤٢.
(٢) آية ٩٧.
(٣) وقرأ بها عبد الله كما في المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٩، والبحر المحيط ٨/ ٢١١، والدر المصون ٦/ ٢٦٤.
(٤) السابق.
(٥) سقط من ب.
(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٤.
(٧) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢١١، والدر المصون ٦/ ٢٦٤.
(٨) ينظر الكشاف ٤/ ٤٦٦، والدر المصون ٦/ ٢٦٤.
(٩) ذكر القرطبي ١٧/ ٢١٩.
(١٠) ينظر المعجم الوسيط ٢/ ٦٩٩.

ومنه قيل للمزاح: فُكاهة بالضَّم.

فأما الفَكَاهة ـ بالفتح ـ فمصدر «فَكِهَ الرَّجل» بالكسر، فهو فَكِهٌ إذا كان طيّب النفس مزَّاحاً[١].

قوله: «إنا لمغرمون».

قرأ أبو بكر[٢]: «أئِنَّا» بالاستفهام، وهو على أصله في تحقيق الهمزتين، وعدم إدخال ألف بينهما.

والباقون: بهمزة واحدة على الخبر.

وقيل: هذه الجملة قول مقدر على كلتا القراءتين، وذلك في محل نصب على الحال، تقديره: فظلتم تفكهون قائلين، أو تقولون: إنا لمغرمون؛ أي: لَمُلزمُون غرامة ما أنفقنا، أو مُهلكُونَ لهلاك رزقنا من الغرام وهو الهلاك[٣]. قاله الزمخشري[٤].

ومن مجيء الغرام بمعنى الهلاك قوله: [الخفيف]

٤٦٩٧ ـ إنْ يُعَذِّبْ يَكُنْ غَرَاماً وإن يُعْـ ـطِ جَزِيلاً فإنَّهُ لا يُبَالِي[٥]

قال ابن عبَّاس وقتادة: الغرام: العذاب[٦].

ومنه قول ابن المُحلَّم: [الطويل]

٤٦٩٨ ـ وثِقْتُ بأنَّ الحِلْمَ منِّي سَجِيَّةٌ وأنَّ فُؤادِي مُبْتَلٌ بك مُغْرمُ[٧]

وقال مجاهد وعكرمة: لمولع بنا[٨].

يقال: أغرم فلان بفلانة أي أولع بها، ومنه الغرام، وهو الشر اللازم.

وقال مجاهد أيضاً: لملقون شرًّا[٩].

وقال النحاس: «لَمُغْرمُون» مأخوذون من الغرام، وهو الهلاك.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٤٢.

(٢) وقرأ بها الأعمش كما في المحرر الوجيز ٥/ ٢٤٩، والمفضل وزر بن حبيش كما في القرطبي ١٧/ ١٤٢، وينظر: البحر المحيط ٨/ ٢١١، والدر المصون ٦/ ٢٦٤، والسبعة ٦٢٤، والحجة ٦/ ٢٦٢، وإتحاف ٢/ ٥١٧.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٤.

(٤) الكشاف ٤/ ٤٦٦.

(٥) تقدم.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥٤) عن قتادة.

(٧) يروى الحفظ مكان الحلم.
ينظر السراج المنير ٤/ ١٩٣، والقرطبي ١٧/ ١٤٢.

(٨) ينظر المصدر السابق.

(٩) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥٤) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٠) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر.

وقال الضحاك وابن كيسان: هو من الغرم[١].

و «المُغْرَم»: الذي ذهب ماله بغير عوضٍ، أي: غرمنا الحبَّ الذي بذرناه.

وقال مرة الهمداني: مُحَاسَبُون.

قوله: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

أي: حرمنا ما طلبنا من الريع، والمحروم المحدود الممنوع من الرِّزق، والمحروم ضد المرزوق. قاله قتادة[٢].

وعن أنس أنَّ النبي ﷺ مرَّ بأرض الأنصار، فقال: «ما يمنَعُكمُ الحَرْث»؟ قالوا: الجُدوبة، فقال: «لا تَفعَلُوا، فإنَّ الله ـ تعالى ـ يقولُ: أنَا الزَّارعُ، إن شِئْتُ زرعْتُ بالماءِ، وإن شِئْتُ زرعْتُ بالرِّيحِ، وإن شِئْتُ زرعتُ بالبَذْرِ»، ثم تلا: «أفرأيْتُمْ ما تَحْرثُونَ، أأنْتُمْ تَزرعُونهُ أمْ نحْنُ الزَّارِعُونَ»[٣].

قال القرطبي[٤]: «وفي هذا الحديث والذي قبله ما يصحح قول من أدخل الزَّارع في أسماء الله ـ تعالى ـ» وأباه جمهور العلماء.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾.

لتحيوا به أنفسكم، وتسكنوا به عطشكم[٥].

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾.

أي: السحاب، وهو اسم جنس، واحدهُ: مزنة.

قال: [المتقارب]

٤٦٩٩ ـ فَـلاَ مُـزْنَـةٌ ودَقَـتْ ودقَـهَـا ... ولا أرْضَ أبْـقَـلَ إبْـقَـالَـهَـا[٦]

وعن ابن عباس ومجاهد وغيرهما أيضاً والثوري: المُزْن: السَّماء والسَّحاب[٧].

وقال أبو زيد: المُزنة: السحابة البيضاء، والجمع مزن.

والمُزْنة: المطرة.

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٨).

(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٤٢.

(٣) ينظر تفسير القرطبي (١٧/ ١٤٢.

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٤٣.

(٦) تقدم.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥٥).

قال: [الطويل]

٤٧٠٠ ـ أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الـلَّـهَ أَنْـزَلَ مُـزْنَـةً وعُـفْـرُ الـظِّـبـاءِ فـي الـكـنـاسِ تَـقَـمَّـعُ[١]

وقوله: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾.

أي: إذا عرفتم بأني أنزلته فلم لا تشكروني بإخلاص العبادة لي، ولم تنكروا قُدرتي على الإعادة[٢]؟.

وقوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾.

وقد تقدم عدم دخول «اللام» في جواب «لو» هذه.

وقال الزمخشري[٣]: «فإن قلت: لم دخلت «اللام» في جواب «لو» في قوله: «لجعلناه حطاماً»، ونزعت منه هاهنا؟.

قلت: إن «لو» لما كانت داخلة على جملتين معلقة ثانيتهما بالأولى تعلق الجزاء بالشَّرط، ولم تكن مخلصة للشرط كـ «إن» و «لا» عاملة مثلها، وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقاً من حيث إفادتها في مضمون جملتين أن الثَّاني امتنع لامتناع الأول افتقرت في جوابها إلى ما ينصب علماً على هذا التعلق فزيدت هذه «اللام» لتكون علماً على ذلك، فإذا حذفت بعد ما صارت علماً مشهوراً مكانه، فلأن الشيء إذا علم وشهر موقعه، وصار مألوفاً ومأنوساً به لم يبال بإسقاطه عن اللفظ استغناء بمعرفة السَّامع.

ألا ترى ما يحكى عن رؤبة، أنَّه كان يقول: خيرٍ، لمن قال له: كيف أصبحت؟

فحذف الجار لعلم كل أحد بمكانه، وتساوي حال إثباته وحذفه لشهرة أمره، وناهيك بقول أوس: [السريع]

٤٧٠١ ـ حَـتَّـى إذا الـكَـلاَّبُ قـال لَـهَـا كـالـيَـوْمِ مَـطْـلُـوبـاً ولا طَـلَـبَـا[٤]

وحذفه: «لَمْ أرَ» فإذاً حذفها اختصار لفظي، وهي ثابتة في المعنى، فاستوى الموضعان بلا فرق بينهما، على أن تقدم ذكرها والمسافة قصيرة، مُغْنٍ عن ذكرها ثانياً، ويجوز أن يقال: إن هذه «اللام» مفيدة معنى التَّوكيد لا محالة، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب للدلالة على أنّ أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب، وأنَّ الوعيد بفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمَطْعُوم.

---

(١) البيت «لأوس بن حجر».

ينظر ديوانه ص (٥٧)، وإصلاح المنطق ص ٤٩، واللسان (مزن) والقرطبي ١٧/ ١٤٣.

(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٤٣.

(٣) الكشاف ٤/ ٤٦٦، والبحر المحيط ٨/ ٢١١، والدر المصون ٦/ ٢٦٤.

(٤) تقدم.

ألا ترى أنك إنما تسقي ضيفك بعدما تطعمه، ولو عكست قعدت تحت قول أبي العلاء: [الوافر]

٤٧٠٢ ـ إذا سُقِيَتْ ضُيُوفُ النَّاسِ مَحْضاً سَقَوْا أضْيافَهُمْ شَبَماً زلالا[١]

وسقي بعض العرب فقال: أنا لا أشرب إلا على ثميلة، ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب». انتهى.

وقد تقدم جواب ابن الخطيب له عن ذلك.

فصل في تفسير الآية[٢]

قال ابن عبَّاس: «الأجاج»: المالح الشديد الملوحة.

وقال الحسن: مُرًّا لا تنتفعون به في شرب ولا زرع ولا غيرهما[٣].

«فلولا» أي: فهلا «تشكرون» الذي صنع ذلك بكم.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾.

أي: أخبروني عن النَّارِ التي تظهرونها بالقَدْحِ من الشجر الرطب[٤].

و «تُورُون»: من أوريت الزند، أي: قدحته فاستخرجت ناره، ووري الزند يري أي: خرجت ناره، وأصل «تُورُون» توريون.

والشَّجرة التي يكون منها الزناد هي المَرْخُ والعفار.

ومنه قولهم: «فِي كُلِّ شجرٍ نارٌ، واستَمْجدَ المَرْخُ والعَفَارُ».

أي: استكثروا منها، كأنهما أخذا من النَّار ما حسبهما.

وقيل: إنهما يسرعان الوَرْي.

قوله تعالى: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾.

أي: المخترعون الخالقون، أي: فإذا عرفتم قُدرتي، فاشكروني ولا تنكروا قدرتي على البعث[٥].

قوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾.

---

(١) ينظر الكشاف ٤/ ٥٧ وشرح شواهده ٥٠٤، والقرطبي ١٧/ ١٤٣ والدر المصون ٦/ ٢٦٥.

(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٤٣.

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٨) عن الحسن.

(٤) ينظر القرطبي ١٧/ ١٤٣.

(٥) السابق.

يعني: نار الدنيا موعظة للنار الكبرى. قاله قتادة[١].

وقال مجاهد: تبصرة للناس من الظَّلام[٢].

قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ نَارَكُمْ هذه الَّتي توقدونها يا بني آدَمَ جزءٌ من سَبْعينَ جُزْءاً من نَارِ جهنَّم»، فقالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية، قال: «فإنَّهَا فُضِّلتْ عليْها بِتسْعَةٍ وسِتينَ جُزْءاً، كُلُّهن مثلُ حرِّها»[٣].

قوله: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾.

يقال: أقوى الرَّجل إذا حلَّ في الأرض القواء، وهي القفر، كـ «أصحر»: دخل في الصحراء، وأقوت الدَّار: خلت من ذلك؛ لأنها تصير قَفْراً[٤].

قال النابغة: [البسيط]

٤٧٠٣ ـ يَا دَارَ مَيَّةَ بِالعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ أقْوَتْ، فَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الأمَدِ

قال الضحاك: «متاعاً للمقوين» أي منفعة للمسافرين، سموا بذلك لنزولهم القوى، وهي القفر التي لا شيء فيها[٥]، وكذلك القوى والقواء ـ بالمد والقصر ـ.

ومنزل قواء: لا أنيس به، يقال: أقوت الدار، وقويت أيضاً، أي خلت من سكانها. قال: [الكامل]

٤٧٠٤ ـ حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تقَادمَ عَهْدُهُ أقْوَىٰ وأقْفَرَ بَعْدَ أمِّ الهَيْثَمِ[٦]

وقال مجاهد: «للمقوين» أي المنتفعين بها من الناس أجمعين في الطبخ والخبز والاصطلاء والاستضاءة، ويتذكر بها نار جهنم فيستجار بالله منها[٧].

وقال ابن زيد: للجائعين في إصلاح طعامهم[٨].

---

(١) أخرجه الطبري(١١/ ٦٥٦) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٠) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٣٨٠ ـ ٣٨١) كتاب بدء الخلق، باب: صفة النار وأنها مخلوقة حديث (٣٢٦٥) ومسلم (٤/ ٢١٨٤) كتاب الجنة، باب: في شدة حر نار جهنم حديث (٣٠/ ٢٨٤٣) من حديث أبي هريرة.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٥، ٢٦٦. (٥) ذكره البغوي في تفسيره (٤/ ٢٨٨).

(٦) البيت لعنترة بن شداد.
ينظر شرح ديوانه ص ١١٩، وإعراب القرآن ٤/ ٣٤٣، واللسان (طلل)، والقرطبي ١٧/ ١٤٤.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥٦) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٠) بمعناه عن مجاهد وزاد نسبته إلى هناد وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥٧).

يقال: أقويت منذ كذا وكذا، أي ما أكلت شيئاً، وبات فلان القواء وبات القَفْرَ، إذا بات جائعاً على غير طعم.

قال الشاعر: [الطويل]

٤٧٠٥ ـ وإنِّي لأخْتَارُ القَوَى، طاويَ الحَشَا مُـحـافَـظَـةً مِـنْ أن يُـقَـالَ: لَـئِـيـمُ[(١)]

وقال قطرب: المقوي من الأضداد، يكون بمعنى الفقير، ويكون بمعنى الغني.

يقال: أقوى الرجل إذا لم يكن معه زادٌ، ويقال للفقير: مُقْوٍ إذا لم [يكن] معه مالٌ.

وتقول العربُ: أقويت منذ كذا، أي: ما أكلت شيئاً، وأقوى: إذا قويت دوابه، وكثر ماله ليقويه على ما يريد.

وقال المهدوي: والآية تصلح للجميع؛ لأن النَّار يحتاج إليها المسافر والمقيم والغني والفقير.

وقال القشيري: وخصّ المسافر بالانتفاع بها؛ لأنَّ انتفاعه أكثر من انتفاع المقيم؛ لأنَّ أهل البادية لا بُدَّ لهم من النَّار يوقدونها ليلاً لتهرب منهم السِّباع، وفي كثير من حوائجهم.

قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

أي: فنزه الله عما أضافه إليه المشركون من الأنداد والعجز عن البعث[(٢)].

قال ابن الخطيب[(٣)]: والمشهور أن الاسم مقحم، والأحسن أنه من باب الأولى، وأنَّ تعظيم المسمى آكد، وقد تقدم أن تعلُّق الفعل إن كان ظاهراً استغنى عن الحرف كـ «ضرب»، وإن كان خفيًّا قوي بالحرف كـ «ذهب»، وإن كان بينهما جاز الوجهان كـ «شَكَر ونَصَحَ».

و «سَبِّحْ» متعد بنفسه إلاَّ أنه لما دخل على الاسم ـ والمراد الذَّات ـ خفي التعليق من هذا الوجه، فأتي بالحرف.

وأما قوله ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [من سورة الأعلى]. فيحتمل أن ذلك لأنهم كانوا

---

(١) البيت لحاتم الطائي.

ورواية الشطر الأول في الديوان:

لقد كنت أطوي البطن والزاد أشتهي ....

ينظر ديوانه ص ٨٦، والاقتضاب ص ٣٤٧، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢/ ٣٣٣، واللسان (قوا)، والقرطبي ١٧/ ١٤٤.

(٢) ينظر القرطبي ١٧/ ١٤٤.

(٣) التفسير الكبير ٢٩/ ١٦١.

يعترفون بالله، ويقولون: «نحن لا نشرك» في المعنى، وإنما سمي الأصنام آلهة باللفظ، فقيل لهم: نزّهوا الاسم كما نزهتم الحقيقة، وعلى هذا فالخطاب ليس للنبي ﷺ بل هو كقول الواعظ: يا مسكين، أفنيت عمرك وما أصلحت عملك، ويريد السَّامع.

والمعنى مع الباء: فسبّح مبتدئاً باسم ربك، فلا تكون «الباء» زائدة.

ومعنى العظيم: القريب من الكل، فإن الصَّغير إذا قرب من شيء بعد عن غيره.

قوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾.

قرأ العامة: «فَلاَ» لام ألف.

وفيه أوجه[١]:

أحدها: أنها حرف نفي، وأنَّ النفي بها محذوف، وهو كلام الكافر الجاحد، تقديره: فلا حجة لما يقول الكُفَّار، ثم ذكر ابتداء قسماً بما ذكر.

وإليه ذهب كثير من المفسِّرين والنحويين.

قال الفرَّاء[٢]: «هي نفي، والمعنى: ليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف [القسم][٣]، كما تقول: «لا والله ما كان كذا» ولا يريد به نفي اليمين، بل يريد به نفي كلام تقدم، أي: ليس الأمر كما ذكر، بل هو كذا».

وضعِّف هذا بأن فيه حذف اسم «لا» وخبرها.

قال أبو حيَّان[٤]: «ولا يجوز ولا ينبغي، فإنَّ القائل بذلك مثل سعيد بن جبير تلميذ خبر القرآن وبحره عبد الله بن عباس.

ويبعد أن يقوله سعيد إلا بتوقيفٍ».

الثاني: أنَّها زائدة للتأكيد. والمعنى: فأقسم، بدليل قوله: وإنه لقسم، ومثله في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ﴾ [الحديد: ٢٩]، والتقدير: ليعلم.

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٦. (٢) القرطبي ١٧/ ١٤٤، ١٤٥.

(٣) سقط من ب.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٢١٢، وقد عقب عليه السمين الحلبي بقوله: ولا ينبغي.. الخ، والدليل على أن بقية المنقول عن أبي حيان أنه من قول السمين، ما رأيناه في كلام أبي حيان حيث قال: ثم ابتدأ «أقسم». قاله سعيد بن جبير وبعض النحاة، ولا يجوز.. فنقل المصنف هنا كلام السمين، وظنه بقية كلام أبي حيان.

وكقوله: [الطويل]

٤٧٠٦ ـ فَلاَ وأَبِي أعْدائِهَا لا أخُونُهَا[١]

الثالث: أنها لام الابتداء، والأصل: فلأقسم، فأشبعت الفتحة، فتولّد منها ألف.

كقوله: [الرجز]

٤٧٠٧ ـ أعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ العَقْرَابِ[٢]

قاله أبو حيَّان[٣].

واستشهد بقراءة هشام: «أفئيدة»[٤].

قال شهاب الدين[٥]: «وهذا ضعيف جدًّا».

واستند أيضاً لقراءة[٦] الحسن وعيسى: «فلأقسم» بلام واحدة.

وفي هذه القراءة تخريجان[٧]:

أحدهما: أن «اللام» لام الابتداء، وبعدها مبتدأ محذوف، والفعل خبره، فلما حذف المبتدأ اتصلت «اللام» بخبره، وتقديره: «فلأنا أقسم» نحو: «لزيد منطلق».

قاله الزمخشري[٨] وابن جني[٩].

والثاني: أنها لام القسم دخلت على الفعل الحالي، ويجوز أن يكون القسم جواباً للقسم، كقوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ﴾ [التوبة: ١٠٧]، وهو جواب لقسم مقدر ويجوز أن يكون القسم كذلك وهذا هو قول الكوفيين، يجيزون أن يقسم على فعل الحال. والبصريون يأبونه، ويخرجون ما يوهم ذلك على إضمار مبتدأ، فيعود القسم على جملة اسمية.

ومنع الزمخشري أن تكون لام القسم.

قال[١٠]: لأمرين:

أحدهما: أن حقها أن تقرن بالنون المؤكدة، والإخلال بها ضعيف قبيحٌ.

والثاني: أن «لأفعلن» في جواب القسم للاستقبال، وفعل القسم يجب أن يكون للحال.

يعني أن فعل القسم إنشاء، والإنشاء حال.

---

(١) عجز بيت لأحمد بن أبي فنن وصدره:

فإن تك ليلى استودعتني أمانة ....

ينظر سمط اللالىء للبكري ١/ ٢٤٥، والبحر المحيط ٨/ ٢١٢ والدر المصون ٦/ ٢٦٦.

(٢) تقدم.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢١٢.

(٤) سورة إبراهيم. آية (٣٧).

(٥) الدر المصون ٦/ ٢٦٦.

(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٠، والبحر المحيط ٨/ ٢١٢، والكشاف ٤/ ٤٦٨.

(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٦.

(٨) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٦٨.

(٩) ينظر: المحتسب ٢/ ٣٠٩.

(١٠) الكشاف ٤/ ٤٦٨.

وأمَّا قوله[1]: «إنَّ حقَّها أن تقرن بها النون»، هذا مذهب البصريين أيضاً. وأمَّا الكوفيون فيجيزون التَّعاقب بين اللام والنون، نحو: «والله لأضرب زيداً» كقوله: [الطويل]

٤٧٠٨ ـ لَئِنْ تَكُ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيكُم بُيُوتكُمْ ... لَـيَـعْـلَـمُ ربِّـي أنَّ بَـيْـتِـيَ واسِـعُ[2]

و «الله اضربن زيداً».

كقوله: [الكامل]

٤٧٠٩ ـ وقَـتِـيـلِ مُـرَّة أثـأَرَنَّ... ....[3]

وقد تقدم قريب من هذه الآية في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ [النساء: ٦٥]، ولكن هناك ما لا يمكن القول به هنا، كما أن هنا ما لا يمكن القول به هناك، وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ قريب منه في «القيامة» في قراءة ابن كثير: ﴿لأُقْسِمُ بِيَومِ القِيامَةِ﴾ [القيامة: ١].

قال القرطبي[4]: «وقيل: «لا» بمعنى «ألاَ» للتنبيه، كقوله: [الطويل]

٤٧١٠ ـ ألا عِمْ صَبَاحاً أيُّهَا الطَّلَلُ البَالِي ... .[5]

ونبَّه بهذا على فضيلة القرآن ليتدبروه، فإنه ليس بشعر، ولا سحر، ولا كهانة كما زعموا.

وقرأ العامة: «بمواقع» جمعاً.

والأخوان[6]: «بموقع» مفرداً بمعنى الجمع؛ لأنه مصدر فوحَّد.

ومواقعها: مساقطها ومغاربها. قاله قتادة وغيره[7].

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٦. (٢) تقدم.

(٣) البيت لعامر بن الطفيل وتمامه:

.... فـــإنــــه ... فـــرغ وإن أخـــاكـــم لـــم يـــثـــأر

ويروى لم يقعد مكانه لم يثأر.

(٤) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٤٥.

(٥) ينظر ديوانه ص ٥٦، وخزانه الأدب ١/ ٦٠، ٦٥، والدرر ٤/ ٢٢٦، وشرح شواهد المغني ٢/ ٥٥٧١، ومغني اللبيب ٢/ ٦٤٥، ورصف المباني ص ٢٤٠، والهمع ٢/ ٤٢، والمفضليات ٣٦٤، والأصمعيات ٢٥٢، وابن الشجري ١/ ٢٦٩، ٢/ ٢٢١، والضرائر لابن عصفور ص ١٥٧، والإيضاح الشعري للفارسي ص ٦٥، وهو صدر بيت لامرىء القيس وعجزه

.... وهل يعمن من كان في العصر الخالي

(٦) ينظر: السبعة ٦٢٤، والحجة ٦/ ٢٦٢، وإعراب القراءات ٢/ ٣٤٧، وحجة القراءات ٦٩٧، والعنوان ١٨٥، وشرح الطيبة ٦/ ٣٧، وشرح شعلة ٥٩٧، وإتحاف ٢/ ٥١٧.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥٨) عن مجاهد وقتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣١) عن قتادة وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.

وقال الحسن: انكدارها وانتثارها يوم القيامة(١).

وقيل: المراد نجوم القرآن. قاله ابن عباس والسدي، ويؤيده: «وإنه لقسم» و «إنَّه لقُرآن كريم».

وقال عطاء بن أبي رباح: منازلها(٢).

وقال الضحاك: هي الأنواء التي كانت أهل الجاهلية، تقول إذا مطروا: مطرنا بنوء كذا(٣).

وقال الماوردي: ويكون قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ مستعملاً على الحقيقة من نفي القسم.

وقال القشيري: هو قسم، ولله أن يقسم بما يريد، وليس لنا أن نقسم بغير الله ـ تعالى ـ وصفاته القديمة.

قال القرطبي(٤): «ويدلُّ على هذا قراءة الحسن: فلأقسم».

قوله: «وإنه قسم ـ لو تعلمون ـ عظيم».

الضمير عائد على القسم الذي تضمنه قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾؛ لأن «أقسم» يتضمن ذكر المصدر، ولهذا توصف المصادر التي لم تظهر بعد الفعل فيقال: «ضربته قويًّا».

فإن قيل: جواب «لو تعلَمُونَ» ماذا؟.

قال ابن الخطيب(٥): ربما يقول بعض من لا يعلم بأن جوابه ما تقدم، وهو فاسد في جميع المواضع؛ لأن جواب الشرط لا يتقدم؛ لأن عمل الحروف في معمولاتها لا يكون قبل وجودها، فلا يقال: زيداً إن قام.

فالجواب يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يقال: الجواب محذوف بالكلية بحيث لا يقصد لذلك جواب، وإنما يراد نفي ما دخلت «لو» فكأنه قال: وإنه لقسمٌ عظيم لو تعلمون.

وتحقيقه: أن «لو» تذكر لامتناع الشيء لامتناع غيره، فلا بُدَّ فيه من انتفاء الأول،

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥٨) وزاد نسبته السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣١) إلى عبد بن حميد.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥٨) عن قتادة مثله وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣١) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق.
وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٩) عن عطاء.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٤٥). (٤) ١٧/ ١٤٥، وقد تقدمت القراءة.

(٥) التفسير الكبير ٢٩/ ١٦٤.

فإدخال «لو» على «تعلمون» أفاد أن علمهم منتفٍ، سواء علمنا الجزاء أم لم نعلم.

وهذا كقولهم في الفعل المتعدِّي: فلان يعطي ويمنع، حيث لا يقصد منه مفعولاً، وإنما يراد إثبات القدرة.

الثاني: أنَّ جوابه مقدر، تقديره: لو تعلمون لعظَّمتموه، لكنكم ما عظَّمتموه، فعلم أنكم لا تعلمون، إذ لو تعلمون لعظم في أعينكم، ولا تعظيم فلا تعلمون.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾.

هذا هو القسم عليه، وعلى هذا فيكون في هذا الكلام اعتراضان[١]:

أحدهما: الاعتراض بقوله: «وإنه لقسم» بين القسم والمقسم عليه.

والثاني: الاعتراض بقوله: «لو تعلمون» بين الصفة والموصوف.

ومنع ابن عطية[٢] أن يجعل قوله: «وإنه لقسمٌ» اعتراضاً.

فقال: «وإنه لقسم» تأكيد للأمر، وتنبيه من المقسم به، وليس هذا باعتراض بين الكلامين، بل هذا معنى قصد التهكُّم به، وإنما الاعتراض قوله: ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

قال شهاب الدين[٣]: «وكونه تأكيداً ومنبّهاً على تعظيم المقسم به لا ينافي الاعتراض، بل هذا معنى الاعتراض وفائدته».

«والهاء» في «إنه لقرآن» تعود على القرآن، أي: إن القرآن لقسم عظيم.

قاله ابن عبَّاس وغيره[٤].

وقيل[٥]: أي ما أقسم الله به عظيم «إنه لقرآن كريم» ذكر المقسم عليه، أي: أقسم بمواقع النجوم أن هذا القرآن قرآن ليس بسحرٍ ولا كهانة ولا بمفترى، بل هو قرآن كريم، محمود جعله الله معجزة نبيه، وهو كريم على المؤمنين؛ لأنَّه كلام ربهم وشفاء صدورهم، كريم على أهل السماء والأرض؛ لأنه تنزيل ربهم ووحيه.

وقيل: «كريم» أي: غير مخلوق.

وقيل: «كريم» لما فيه من كرم الأخلاق، ومعالي الأمور.

وقيل: لأنه يكرم حافظه، ويعظم قدره.

فصل في تحرير معنى الآية

قال ابن الخطيب[٦]: «كريم» أي: لا يهون بكثرة التلاوة؛ لأن الكلام متى أعيد

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٧.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥١.
(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٧.
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٤٥).
(٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٤٥.
(٦) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/ ١٦٦.

وكرر استهين به، والقرآن يكون إلى آخر الدهر، ولا يزداد إلاً عزاً. والقرآن إما كـ «الغُفْرَان»، والمراد به المفعول، وهو المقروء، كقوله: [هَذَا خلقُ اللَّه][1] وإما اسم لما يقرأ كـ «القُرْبَان» لما يتقرب به، والحُلْوان لما يحلى به فم الكاهن، وعلى هذا يظهر فساد قول من رد على الفقهاء قولهم في باب الزَّكاة: يعطي شيئاً أعلى مما وجب ويأخذ الجبران أو شيئاً دونه، ويعطي الجبران لأن الجبران مصدر لا يؤخذ ولا يعطى، فيقال له: هو كالقرآن بمعنى المقرُوء.

فمعنى «كريم» أي: مقروء، قرىء: ويقرأ بالفتح، فإن معنى «كريم» أي: لا يهون بكثرة التلاوة، ويبقى أبد الدَّهر كالكلام الغضِّ، والحديث الطَّري.

وهو هنا يقع في وصف القرآن بالحديث، مع أنه قديم يستمد من هذا مدداً، فهو قديم يسمعه السَّامعون كأنه كلام [الساعة][2].

فصل

قوله: ﴿فِي كِتَـٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾. مصون عند الله.

وقيل: «مَكْنُون» محفوظ عن الباطل، والكتاب هنا: كتاب في السَّماء[3].

قاله ابن عبَّاس[4].

وقال جابر بن زيد وابن عباس أيضاً: هو اللوح المحفوظ[5].

وقال عكرمة: التوراة والإنجيل فيهما ذكر القرآن[6].

وقال السدي: الزَّبُور[7].

وقال قتادة ومجاهد: هو المصحف الذي في أيدينا[8].

فصل في تفسير معنى الآية

قال ابن الخطيب[9]: قوله تعالى: ﴿فِي كِتَـٰبٍ﴾ يستدعي شيئاً مظروفاً للكتاب وفيه وجهان:

أحدهما: أنه القرآن، أي: هو قرآن في كتاب، كقولك: «فلان رجلٌ كريم في

---

(١) سقط من ب.

(٢) في ب: الجماعة.

(٣) ينظر: القرطبي ١٧/١٤٦.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥٩).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٤٦).

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥٩) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٢) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٤٦).

(٨) ينظر المصدر السابق.

(٩) ينظر: تفسير الفخر الرازي ٢٩/ ١٦٧.

نفسه» لا يشك السامع بأن المراد منه أن في الدَّار قاعد، وأنه لا يريد به أنه رجل إذا كان في الدَّار غير رجل إذا كان خارجاً، ولا يشك أيضاً أنه لا يريد أنه كريم وهو في البيت، فكذلك هاهنا معناه: أنه كريم في كتاب.

فإذا قيل: «فلان رجل كريم في نفسه» يعلم كل أحد أن القائل لم يجعله رجلاً مظروفاً، وأن القائل لم يرد أنه رجل في نفسه قاعد أو قائم، وإنما أراد أن كرمه في نفسه، وكذا قوله: «قرآن كريم، في لوح» أي: أنه لم يكن كريماً عند الكُفَّار.

الثاني: أن المظروف هو مجموع قوله تعالى: ﴿لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ أي: هو كذا في كتاب كقوله تعالى ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين: ١٩]، كتاب أي: في كتاب الله تعالى.

والمعنى: أن في اللوح المحفوظ مكتوب: إنه قرآن كريم.

فصل في معنى الكتاب

قال ابن الخطيب[1]: فإن قيل: كيف سمي الكتاب كتاباً، والكتاب «فِعَال» وهو إما مصدر كالحِساب والقِيام ونحوهما، أو لما يكتب كاللِّباس ونحوه، وكيفما كان، فالقرآن لا يكون في القِرطَاس؛ لأنه بمعنى المصدر، ولا يكون في مكتوب، وإنما يكون مكتوباً في لوح، أو ورق، فالمكتوب لا يكون في الكتاب، وإنما يكون في القرطاس؟.

وأجاب بأن اللوح لما لم يكن إلاَّ لأن يكتب فيه صح تسميته كتاباً.

وقوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ إما خبر بعد خبر، وإما صفة لـ «كريم»، وإما معمول لـ «كريم».

والأصح أنَّ الكتاب المكنون هو اللوحُ المحفوظ، لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾.

في «لا» هذه وجهان[2]:

أحدهما: أنها نافية، فالضمة في «لا يمسُّه» ضمة إعراب.

وعلى هذا القول ففي الجملة وجهان:

أحدهما: أن محلها الجر صفة لـ «كتاب»، والمراد به: إما اللوح المحفوظ، و «المُطَهَّرون» حينئذ: الملائكة، أو المراد به المصاحف، والمراد بـ «المطهرين»: المكلفون كلهم.

والثاني: أن محلها الرفع صفة لـ «قرآن». والمراد بـ «المطهرين»: الملائكة فقط،

---

(١) ينظر: تفسير الفخر الرازي ٢٩/ ١٦٧. (٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٧.

أي: لا يطلع عليه، أو لا يمسّ لوحه، لا بد من هذين التجوزين؛ لأن نسبة المسّ إلى المعاني حقيقة متعذّر.

ويؤيد كون هذه نفياً[1] **قراءة عبد الله**: «ما يمسّه» بـ «ما» النافية.

الوجه الثاني: أنها ناهية، والفعل بعدها مجزوم؛ لأنه لو فكّ عن الإدغام لظهر ذلك فيه، كقوله تعالى: ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤] ولكنه أدغم، ولما أدغم حرك آخره بالضم لأجل هاء ضمير المذكر الغائب.

ولم يحفظ سيبويه في نحو هذا إلا الضم[2].

وفي الحديث: «إنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عليك إلاَّ أنَّنَا حرمٌ»[3].

وإن كان القياس يقتضي جواز فتحه تخفيفاً، وبهذا يظهر فساد من ردّ بأن هذا لو كان نهياً لكان يقال: «لا يمسّه» بالفتح؛ لأنه خفي عليه جواز ضم ما قبل «الهاء» في هذا النحو، لا سيما على رأي سيبويه، فإنه لا يجيز غيره.

وقد ضعف ابن عطيّة[4] كونها نهياً بأنه إذا كان خبراً فهو في موضع الصفة، وقوله بعد ذلك: «تَنزِيل» صفة، فإذا جعلناه نهياً كان أجنبيًّا معترضاً بين الصِّفات، وذلك لا يحسن في وصف الكلام فتدبره، وفي حرف ابن مسعود: «ما يمسه». انتهى.

وليس فيما ذكره ما يقتضي تضعيف هذا القول؛ لأنا لا نسلّم أن «تنزيل» صفة، بل هو خبر مبتدأ محذوف، أي: «هو تنزيل» فلا يلزم ما ذكره من الاعتراض.

ولئن سلّمنا أنه صفة فـ «لا يمسّه» صفة أيضاً، فإن اعترض علينا بأنه طلب فيجاب بأنه على إضمار القول، أي: نقول فيه: «لا يمسّه» كما قالوا ذلك في قوله: ﴿فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ﴾ [الأنفال: ٢٥] على أن «لا تُصِيبن» نهي.

وهو كقوله[5]: [مشطور الرجز]

٤٧١١ ـ جَاءُوا بِمَذْقٍ هَلْ رأيت الذِّئْبَ قَط[6]؟

وقد تقدم تحقيقه في «الأنفال».

وهذه الآية يتعلق بها خلاف العلماء في مس المُحْدث المصحف، وهو مبني على هذا.

وقرأ العامة: «المُطَهَّرُونَ» بتخفيف الطَّاء، وتشديد الهاء مفتوحة اسم مفعول.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٢، والبحر المحيط ٨/ ٢١٣، والدر المصون ٦/ ٢٦٧.
(٢) ينظر: الكتاب ٢/ ١٥٩.
(٣) تقدم.
(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٢.
(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٨.
(٦) تقدم.

وعن سلمان الفارسي[١] كذلك إلا أنه يكسر الهاء، اسم فاعل، أي: المطهرون أنفسهم، فحذف مفعوله.

ونافع وأبو عمرو في رواية[٢] **عنهما**، وعيسى بسكون الطاء، وفتح الهاء خفيفة اسم مفعول من «أَطْهَر زيد».

والحسن وعبد الله بن عوف وسلمان أيضاً[٣]: «المطَّهِّرون» بتشديد الطَّاء والهاء المكسورة، وأصله: «المُتطهرون» فأدغم.

وقد قرىء بهذا على الأصل أيضاً.

فصل في تحرير المسّ المذكور في الآية[٤]

اختلفوا في المسّ المذكور في الآية، هل هو حقيقة في المس بالجارحة أو معنى؟ وكذلك اختلفوا في المطهرون مَنْ هم؟.

فقال أنس وسعيد بن جبير: لا يمسّ ذلك إلاَّ المطهرون من الذنوب وهم الملائكة[٥].

وقال أبو العالية وابن زيد: هم الذين طهروا من الذنوب كالرّسل من الملائكة، والرسل من بني آدم[٦].

وقال الكلبي: هم السَّفرة، الكِرَام البررة[٧]، وهذا كله قول واحد، وهو اختيار مالك.

وقال الحسن: هم الملائكة الموصوفون في[٨] سورة «عبس» في قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣ ـ ١٦].

وقيل: معنى «لا يمسّه» لا ينزل به إلا المطهرون، يعني: الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء، ولا يمس اللوح المحفوظ الذي هو الكتاب المكنون إلاَّ الملائكة المطهرون.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٢، والبحر المحيط ٨/ ٢١٤، والدر المصون ٦/ ٢٦٨.
(٢) ينظر السابق. (٣) السابق.
(٤) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٤٦.
(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥٩ ـ ٦٦) عن سعيد بن جبير.
(٦) ينظر المصدر السابق وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٢) عن الربيع بن أنس مثله وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.
(٧) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٩) والقرطبي (١٧/ ١٤٦).
(٨) ذكره القرطبي (١٧/ ١٤٦).

ولو كان المراد طهر الحدث لقال: المتطهرون أو المطهرون بتشديد «الطاء».

والصحيح أن المراد بالكتاب: المصحف الذي بأيدينا؛ لما روى مالك وغيره: أن في كتاب عمرو بن حزم: «لا يمسّ القرآنَ إلاَّ طاهرٌ».

وقال ابن عمر: قال النبي ﷺ: «لا تمسَّ القُرآنَ إلاَّ وأنْتَ طاهرٌ»[١].

وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه، وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة: «لا يمسُّهُ إلاَّ المُطَهَّرُونَ» فقام واغتسل، وأسلم.

وعلى هذا قال قتادة وغيره: معناه: لا يمسه إلا المطهّرون من الأحداث والأنجاس.

وقال الكلبي: من الشِّرْك[٢].

وقال الربيع بن أنس: من الذنوب والخطايا[٣].

وقال محمد بن فضيل وعبدة: لا يقرؤه إلا المطهرون، أي: إلاَّ الموحدون.

قال عكرمة: وكان ابن عباس ينهى أن يمكن اليهود والنصارى من قراءته[٤].

وقال الفراء[٥]: لا يجد نفعه وطعمه وبركته إلا المطهرون، أي: المؤمنون بالقرآن، وقال الحسين بن الفضل: معناه: لا يعرف تفسيره وتأويله إلاَّ من طهَّره الله من الشِّرْك والنفاق.

وقال أبو بكر الورَّاقُ: لا يوفق للعمل به إلا السُّعداء.

وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أن المعنى: لا يمسّ ثوابه إلا المؤمنون[٦].

فصل في مس المصحف لغير المتوضىء

اختلف العلماء في مسِّ المصحف على غير وضوء[٧].

فالجمهور على المَنْع من مسِّه على غير طهارة لحديث عمرو بن حزم، وهو مذهب علي، وابن مسعود، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعطاء، والزهري، والنخعي والحكم وحماد، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشَّافعي.

واختلفت الرواية عن أبي حنيفة.

فروي عنه أنه يمسّه المحدث، وهذا مروي عن ابن عباس والشعبي وغيرهما، وروي عنه أنه يمس ظاهره وحواشيه، وما ليس بمكتوب.

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) ذكره القرطبي (١٧/ ١٤٦) عن الكلبي.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٢) وعزاه إلى ابن المنذر وعبد بن حميد.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٤٦). (٥) ينظر: معاني القرآن للفراء ٣/ ١٣٠.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٤٦). (٧) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٤٧.

وأمّا [الكتاب][(١)] فلا يمسّه إلاَّ طاهر.

قال ابن العربي[(٢)]: وهذا يقوي الحجة عليه؛ لأن جِرْمَ الممنوع ممنوع، وكتاب عمرو بن حزم أقوى دليل عليه.

وقال مالك: لا يحمله غير طاهر بعلامة، ولا على وسادة.

وقال أبو حنيفة: لا بأس بذلك.

وروي عن الحكم وحماد وداود بن علي: أنه لا بأس بحمله ومسّه للمسلم والكافر طاهراً أو محدثاً، إلاَّ أن داود قال: لا يجوز للمشرك حمله، واحتجوا في إباحة ذلك بكتاب النبي ﷺ إلى «قيصر»، ولا حجة فيه لأنه موضع ضرورة.

والمراد بالقرآن: المصحف، سمي قرآناً لقرب الجوار على الاتِّساع، ولأن النبي ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو. أراد به المصحف.

قوله: ﴿تَنزِيلٌ﴾.

قرأ العامة: بالرفع.

وقرأ بعضهم[(٣)]: «تنزيلاً» بالنصب، على أنه حال من النكرة، وجاز ذلك لتخصصها بالصفة.

وأن يكون مصدراً لعامل مقدر، أي: نزل تنزيلاً.

وغلب التنزيل على القرآن.

وقوله: «من ربّ» يجوز أن يتعلق به على الأول لا الثاني؛ لأن المؤكد لا يعمل، فيتعلق بمحذوف؛ لأنه صفة له.

وأما على قراءة «تَنزيلٌ» بالرفع، فيجوز الوجهان[(٤)].

قال القرطبي[(٥)]: «تنزيل» أي: منزل، كقولهم: «ضَرْب الأمير، ونَسْج اليمن».

وقيل: «تنزيل» صفة لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾.

وقيل: خبر مبتدأ محذوف، أي: هو «تنزيل».

قال ابن الخطيب[(٦)]: قوله «تنزيل» مصدر، والقرآن الذي في كتاب ليس بتنزيل، إنما هو منزل لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، فنقول: ذكر المصدر،

---

(١) في ب: كتابه. (٢) ينظر: أحكام القرآن ص ١٧٣٩.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٦٩، والبحر المحيط ٨/ ٢١٤، والدر المصون ٦/ ٢٦٨.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٨. (٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٤٧.

(٦) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/ ١٧٠.

وإرادة المفعول كثير، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١١] وأوثر المصدر؛ لأن تعلق المصدر بالفاعل أكثر.

قوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ متعلق بالخبر، وجاز تقديمه على المبتدأ؛ لأن عامله يجوز فيه ذلك، والأصل: أفأنتم مدهنون بهذا الحديث، وهو القرآن.

ومعنى «مُدْهِنُون» أي: متهاونون كمن يدهن في الأمر، أي: يلين جانبه، ولا يتصلب فيه تهاوناً به، يقال: أدهن فلان، أي: لاين وهاود فيما لا يجمل عنه المدهن(١).

قال أبو قيس بن الأسلت: [السريع]

٤٧١٢ ـ الحَزْمُ والقُوَّةُ خَيرٌ من الـ إدْهَانِ والفَهَّةِ والهَاعِ(٢)

وقال الراغب(٣): والإدهان في الأصل مثل التدهين، لكن جعل عبارة عن المداراة والملاينة وترك الجدّ، كما جعل التَّقريد وهو نزع القراد عبارة عن ذلك.

قال القرطبي(٤): «وأدهن وداهن واحد، وقال قوم: داهنت بمعنى واريت، وأدهنت بمعنى غششت».

قال ابن عبَّاس: «مُدْهِنُون» أي: مكذبون. وهو قول عطاء وغيره(٥).

والمدهن: الذي ظاهره خلاف باطنه، كأنه شبّه بالدهن في سهولة ظاهره.

وقال مقاتل بن سليمان وقتادة: «مدهنون» كافرون، نظيره: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾(٦) [القلم: ٩].

وقال المؤرِّج: المدهن: المنافق الذي يلين جانبه ليُخفي كفره.

والإدْهَان والمُداهنَة: التكذيب والكفر والنِّفاق.

وقال الضحاك: «مُدْهنون» معرضون(٧).

وقال مجاهد: مُمَالِئُون الكُفَّار على الكفر به(٨).

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٨.

(٢) ينظر ديوانه ص ٧٩، وسمط اللالىء ص ٨٣٧، والأمالي للقالي ٢/ ٢١٥، والمخصص لابن سيده ٣/ ٦٥، والمفردات في غريب القرآن ص ٧٤، والتاج ٩/ ٢٠٥ (رهن)، والقرطبي ١٧/ ١٤٧، والدر المصون ٦/ ٢٦٨.

(٣) ينظر: المفردات.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٤٧.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٦١) عن ابن عباس والضحاك وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٣) عن ابن عباس وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٤٧).

(٧) ينظر تفسير القرطبي (١٧/ ١٤٧).

(٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٦١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٣) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

وقال ابن كيسان: المدهن: الذي لا يعقل ما حق الله عليه، ويدفعه بالعللِ.

وقال بعض اللغويين: «مُدْهنون»: تاركُون للجزمِ في قبول القرآن.

قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾.

فيه أوجه:

أحدها: أنه على التهكم بهم، لأنهم وضعوا الشيء غير موضعه، كقولك: شتمني حيث أحسنت إليه، أي: عكس قضية الإحسان.

ومنه: [الرجز]

٤٧١٣ ـ كَأنَّ شُكْرَ القَوْمِ عندَ المِنَنِ كيُّ الصَّحِيحاتِ، وفَقْءُ الأعيُنِ(١)

أي: شكر رزقكم تكذيبكم.

الثاني: أن ثمَّ مضافين محذوفين، أي: بدل شكر رزقكم، ليصح المعنى.

قاله ابن مالك.

وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم: ٩] أكثر من هذا.

الثالث: أنَّ الرزق هو الشكر في لغة «أزد شنوءة» يقولون: ما رزق فلان فلاناً، أي: ما شكره، فعلى هذا لا حذف ألبتة.

ويؤيده قراءة علي بن أبي طالب(٢) ـ رضي الله عنه ـ وتلميذه عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «وتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ» مكان رزقكم.

قال القرطبي(٣): «وإنما صلح أن يوضع اسم الرزق مكان الشُّكر لأنَّ شكر الرِّزق يقتضي الزيادة فيه، فيكون الشكر رزقاً لهذا المعنى».

قوله: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

قرأ العامة: «تُكذِّبُونَ» من التكذيب.

وعلي ـ رضي الله عنه ـ وعاصم في رواية المفضل عنه: «تكْذبُونَ»(٤) مخففاً من الكذب.

---

(١) ينظر البحر ٨/ ٢١٤ وروح المعاني ٢٧/ ١٥٦، والدر المصون ٦/ ٢٦٩.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٦٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥٢، والبحر المحيط ٨/ ٢١٤، والدر المصون ٦/ ٢٦٩.

(٣) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٤٨.

(٤) ينظر: الحجة ٦/ ٢٦٤، والمحتسب ٢/ ٣١٠، ونسبها إلى النبي ﷺ، وينظر: إعراب القراءات ٢/ ٣٤٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥٢، والبحر المحيط ٨/ ٢١٤، والدر المصون ٦/ ٢٦٩.

ومعنى الآية: أنكم مكذبون بالرِّزق، أي؛ تضعون الكذب مكان الشُّكر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ١٥]، أي: لم يكونوا يصلون، ولكنهم كانوا يصفرون ويصفقون مكان الصَّلاة.

قال القرطبي[١]: وفيه بيان أن ما أصاب العباد من خير، فلا ينبغي أن يروه من قبل الوسائط التي جرت العادة بأن تكون أسباباً، بل ينبغي أن يروه من قبل الله ـ تعالى ـ ثم يقابلونه بشكر إن كان نعمة، أو صبر إن كان مكروهاً تعبداً له وتذلُّلاً.

وروى علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قرأ: «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون» خفيفة[٢].

وعن ابن عباس أيضاً: أن المراد به الاستسقاء بالأنواء، وهو قول العرب: مُطِرْنَا بنوءِ كذا، رواه علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ.

وفي «صحيح مسلم» عن ابن عبَّاس قال: مطر النَّاس على عهد رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «أصْبَحَ من النَّاسِ شَاكِرٌ ومنهُمْ كَافِرٌ».

فقال بعضهم: هذه رحمة الله؛ وقال بعضهم: لقد صدق نَوْء كذا وكذا، قال: فنزلتْ هذه الآية: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[٣].

وعنه أيضاً: أن النبي ﷺ خرج في سفر فعطشوا، فقال النبي ﷺ: «أرأيْتُمْ إن دعوْتُ اللَّهَ لكُم فسُقيْتُمْ لعلَّكُمْ تقولون: هذا المطرُ بنَوْءِ كذا»، فقالوا: يا رسول الله ما هذا بحين الأنواء. فصلّى ركعتين، ودعا ربه، فهاجتْ ريح، ثم هاجت سحابة فمطروا، فمر النبي ﷺ ومعه عصابةٌ من أصحابه برجل يغترف بقدحٍ له، وهو يقول: سقينا بنوء كذا، ولم يقل هذا من رزق الله، فنزلت: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[٤].

أي: شكركم لله على رزقه إياكم أنكم تكذبون بالنعمة، وتقولون: سقينا بنوء كذا، كقولك: جعلت إحساني إليك إساءة منك إليّ، وجعلت إنعامي إليك أن اتَّخذتني عدُوًّا.

قال الشَّافعي: لا أحب لأحدٍ أن يقول: مُطِرنَا بنوء كذا، وإن كان النَّوْءُ عندنا الوقت المخلوق لا يضر، ولا ينفع، ولا يمطر، ولا يحبس شيئاً من المطر، والذي أحبّ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧/١٤٨. (٢) انظر: القراءة السابقة.

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٨٤) كتاب الإيمان، باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء حديث (١٢٧/ ٧٣) من حديث ابن عباس.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٣) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن مردويه.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٤) وعزاه إلى ابن مردويه.

أن يقول: مطرنا وقت كذا، كما تقول: مطرنا شهر كذا، ومن قال: مطرنا بنوءِ كذا، وهو يريد أن النَّوء أنزل الماء كما يقول بعض أهل الشِّرك فهو كافر، حلال دمه إن لم يَتُبْ.

وقيل[١]: معنى قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي: معاشكم وتكسبكم تكذيب محمد، كما يقال: فلان جعل قطع الطريق معاشه، فعلى هذا التَّكذيب عام، وعلى الأول التكذيب خاص والرزق في الأصل مصدر سمي به ما يرزق، كما يقال للمأكول: رِزْق، وللمقدور: قُدْرة وللمخلوق: خَلْق.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾.

ترتيب الآية الكريمة: فلولا ترجعونها ـ أي النَّفس ـ إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين.

و «لولا» الثانية مكررة للتوكيد[٢] قاله الزمخشري[٣].

قال شهاب الدين[٤]: فيكون التقدير: فلولا فلولا ترجعونها من باب التوكيد اللفظي، ويكون «إذا بلغت» ظرفاً لـ «تَرْجِعُونها» مقدماً عليه؛ إذ لا مانع منه، أي فلولا ترجعون النَّفس في وقت بلوغها الحُلْقُوم.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾.

جملة حالية من فاعل «بلغت».

والتنوين في «حينئذٍ» عوض من الجملة المضاف إليها أي: إذا بلغت الحلقوم، خلافاً للأخفش، حيث زعم أن التنوين للصَّرف، والكسر للإعراب[٥]. وقد مضى تحقيقه.

وقرأ العامة: بفتح نون «حينئذ» لأنه منصوب على الظرف، ناصبه «تنظرون» **وعيسى**[٦]: بكسرها.

---

(١) ينظر الرازي ١٧/ ١٧٢.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٩.

(٣) الكشاف ٤/ ٤٧٠.

(٤) الدر المصون ٦/ ٢٦٩.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٩.

(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٣، والبحر المحيط ٨/ ٢١٤، والدر المصون ٦/ ٢٦٩.

وهي مشكلة لا تبعد عن الغلط عليه، وخرجت على الإتباع لحركة الهمزة.

ولا عرف في ذلك، فليس بأبعد من قرأ: «الحَمْدِ لله» بكسر الدال لتلازم المتضايفين، ولكثرة دورهما على الخصوص[(١)].

فصل في تحرير معنى الآية

قال المفسرون[(٢)]: معنى الآية فهلا إذا بلغت النفس، أو الروح الحلقوم، ولم يتقدم لها ذكر؛ لأن ذلك معروف.

قال حاتم: [الطويل]

٤٧١٤ ـ أمَاوِيُّ ما يُغْنِي الثَّرَاءُ عن الفَتَى ... إذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ[(٣)]

وفي الحديث: «إنَّ مَلَكَ المَوْتِ لهُ أعْوانٌ يَقْطعُونَ العُرُوق، ويَجْمَعُونَ الرُّوح شَيْئاً فَشَيْئاً حتَّى ينتهي بها إلى الحُلْقُومِ، فيتوفَّاها ملكُ الموتِ»[(٤)].

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ أمري وسلطاني.

وقيل: تنظرون إلى الميت لا تقدرون له على شيء.

قال ابن عباس: يريد من حضر من أهل الميِّت ينتظرون متى تخرج نفسه[(٥)].

ثم قيل: هو رد عليهم في قولهم لإخوانهم: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٦]، فهلاً ردوا روح الواحد منهم إذا بلغت الحُلْقُوم.

وقيل: المعنى فهلاً إذا بلغت نفس أحدكم الحُلْقُوم عند النَّزْع، وأنتم حضور أمسكتم روحه في جسده مع حرصكم على امتداد عمره، وحبكم لبقائه، وهذا رد لقولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾.

يجوز أن يكون حالاً، أي: تنظرون في هذه الحال التي تخفى عنكم.

وأن تكون مستأنفة، فيكون اعتراضاً، والاستدراك ظاهر[(٦)].

والبصر يجوز أن يكون من البَصِيْرَة، والمعنى[(٧)]: ونحنُ أقرب إليه منكم بالقدرة والعلم والرُّؤية.

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٩.

(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٤٩.

(٣) تقدم.

(٤) له شاهد من حديث تميم الداري ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٨) وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في «ذكر الموت» وأبي يعلى.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٤٩).

(٦) الدر المصون ٦/ ٢٦٩.

(٧) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٤٩.

قال عامر بن عبد قيس: ما نظرت إلى شيء إلاَّ رأيت الله ـ تعالى ـ أقرب إليَّ منه.

وأن يكون من البصر، أي لا تنظرون أعوان ملك الموت، والمعنى: أن رسلنا الذين يتولون قبض روحه أقرب إليه منكم لكن لا ترونهم.

قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾.

«إن كنتم» شرط، جوابه محذوف عند البصريين لدلالة «فلولا» عليه، أو مقدم عند من يرى ذلك كما تقدم تقريره[1].

والمعنى[2]: فهلا كنتم غير محاسبين، ولا مجزيين بأعمالكم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣]، أي: مجزيّون أو محاسبون. وقد تقدم.

وقيل: غير مملوكين، ولا مقهورين.

قال الفراء وغيره: دِنْتُه، ملكته.

قال الحطيئة: [الوافر]

٤٧١٥ ـ لَقَدْ دُيِّنْتِ أَمْرَ بَنِيكِ حَتَّى تَرَكْتِهِمُ أَدَقَّ مِنَ الطَّحِينِ[3]

يعني: مُلِّكْتِ.

ودانه: أي أذله واستعبده، يقال: دنْتُه فدان.

ومنه دانت له البلاد والعباد، وقد تقدم في «الفاتحة» عند قوله «يوم الدِّين».

قوله: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾.

قال أبو البقاء[4]: «تَرْجعُونهَا» جواب «لولا» الأولى، وأغنى ذلك عن جواب الثانية.

وقيل: بعكس ذلك.

وقال الزمخشري: «إنّ «لولا» الثانية تكرير». انتهى.

قال شهاب الدين[5]: وتسمية مثل هذا جواباً ليس بصحيح ألبتة؛ لأن هذه تحضيضية لا جواب لها، إنما الجواب للامتناعية لوجود، نحو: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النور: ٢١].

وقال ابن عطية[6]: وقوله: «ترجعونها» سدّ مسدّ الأجوبة والبيانات التي تقتضيها التحضيضيات، وإذا في قوله «فَلَوْلاَ إِذَا»، وإن المتكررة، وحمل بعض القول بعضاً إيجازاً واختصاراً. انتهى.

---

(١) تفسير سورة البقرة آية (٢٣)، وانظر: الدر المصون ٦/ ٢٦٩.

(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٥٠.

(٣) ينظر ديوانه ص ٢٦، واللسان (دين)، والقرطبي ١٧/ ١٥٠. ويروى: «لقد سُوِّسْتِ» وعليها فلا شاهد.

(٤) ينظر الإملاء ٢/ ١٢٠٦.

(٥) الدر المصون ٦/ ٢٦٩.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٣.

فجعل «إذا» شرطية، وقوله بالأجوبة يعني لـ «إذا»، ولـ «إن» في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

والبيانات: يعني الأفعال التي حضض عليها، وهي عبارة قلقة[١].

قال أبو حيان[٢]: «و «إذا» ليست شرطاً، بل ظرفاً يعمل فيها «ترجعونها» المحذوف بعد «فلولا» لدلالة «ترجعونها» في التحضيض الثاني عليه، فجاء التحضيض الأول مقيداً بوقت بلوغ الحلقوم، وجاء التَّحضيض الثاني معلقاً على انتفاء مربوبيتهم، وهم لا يقدرون على رجوعها، إذ مربوبيتهم موجودة فهم مقهُورون، لا قدرة لهم». انتهى.

فجعل «ترجعونها» المذكور لـ «لولا» الثانية، وهو دال على محذوف بعد الأولى، وهو أحد الأقوال التي نقلها أبو البقاء فيما تقدم[٣].

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

شرط آخر، وليس هذا من اعتراض الشرط على الشرط نحو: «إن ركبت إن لبست فأنت طالق» حتى يجيء فيه ما تقدم في هذه المسألة؛ لأن المراد هنا: إن وجد الشرطان كيف كانا فهل رجعتم بنفس الميت[٤]؟.

[وقال القرطبي[٥]: «ترجعونها إن كنتم صادقين» يرجع الروح إلى الجسد إن كنتم صادقين، أي: ولن ترجعونها فبطل][٦] زعمكم أنكم غير مملوكين، ولا محاسبين، و «تَرْجِعُونها» جواب لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾، ولقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ وأجيبا بجواب واحد. قاله الفرَّاء[٧]، وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، أجيبا بجواب واحد، وهما شرطان.

والمعنى: إن كان الأمر كما تقولون: إنه لا بعث، ولا حساب، ولا إله يجازي، فهلاً تردون نفس من يعزّ عليكم إذا بلغت الحلقوم؟ وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله عز وجل. قاله البغوي[٨].

وقيل: حذف أحدهما لدلالة الآخر عليه.

وقيل: فيها تقديم وتأخير، مجازها: «فلولا وهلا إن كنتم غير مدينين ترجعونها تردّون نفس الميت إلى جسده إذا بلغت الحلقوم»[٩].

---

(١) الدر المصون ٦/ ٢٧٠.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢١٥.
(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٠.
(٤) ينظر السابق.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٥٠.
(٦) سقط من ب.
(٧) ينظر: معاني القرآن له (٣/ ١٣٠).
(٨) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٢٩١.
(٩) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٥٠.

ثم ذكر طبقات الخلق عند الموت وبين درجاتهم، فقال: «فأمَّا إنْ كَانَ».

قد تقدَّم الكلام في «أمَّا» أول الكتاب.

وهنا أمر زائد، وهو وقوع شرط آخر بعدها.

واختلف النحاة في الجواب المذكور بعدها، هل هو لـ «أما» أو لـ «إن» وجواب الأخرى محذوف لدلالة المنطوق عليه والجواب لهما معاً؟ ثلاثة أقوال[١]:

الأول: لسيبويه[٢].

والثاني: للفارسي في أحد قوليه، وله قول آخر لسيبويه.

والثالث: للأخفش.

وهذا كما تقدم في الجواب بعد الشرطين المتواردين.

وقال مكي[٣]: «ومعنى «أما» عند أبي إسحاق الخروج من شيء إلى شيء، أي: دع ما كُنَّا فيه، وخذ في غيره».

وعلى هذا فيكون الجواب لـ «إن» فقط، لأن «أما» ليست شرطاً، ورجح بعضهم أن الجواب لـ «أمَّا» لأن «إن» كثر حذف جوابها منفردة فادعاء ذلك مع شرط آخر أولى.

قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾.

الضمير في «كان» و «كان» و «كان» للمتوفى، لدلالة «فلَوْلاَ ترجعونها»، والمراد بالمقربين: السابقين لقوله تعالى ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

قوله: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾.

قرأ العامة: «فَرَوْحٌ» بفتح الراء.

وقرأ ابن عباس، وعائشة، والحسن، وقتادة، ونصر بن عاصم[٤]، والجحدري ورويس وزيد عن يعقوب وجماعة: بضم الراء.

وتروى عن النبي ﷺ[٥].

فمن قرأ بالفتح، فمعناه: فله روح، وهو الرَّاحة. وهو قول مجاهد.

وقال سعيد بن جبير: فرج[٦].

وقال الضحاك: مغفرة ورحمة «وريحان»: استراحة[٧].

وقال مجاهد وسعيد بن جبير: رزق[٨].

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٠.
(٢) ينظر: الكتاب ١/ ٤٤٢.
(٣) ينظر: المشكل ٢/ ٧١٤.
(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٤، والبحر المحيط ٨/ ٢١٥، والدر المصون ٦/ ٢٧٠، وإتحاف ٢/ ٥١٧.
(٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٥٠.
(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٦٦).
(٧) ينظر المصدر السابق.
(٨) ينظر المصدر السابق.

قال مقاتل: [هو الرزق بلغة][(١)] «حِمْير». يقال: خرجنا نطلب ريحان الله، أي: رِزْقَه.

وقيل: هو الريحان الذي يشم.

قال أبو العالية: لا يفارق أحد من المقربين الدنيا حتى يُؤتى بغُصْنٍ من ريحان الجنة[(٢)] فيشمه ثم تقبض روحه.

وقال أبو بكر الورَّاق: الرَّوح: النَّجاة من النار والرَّيحان: دخول دار القرار.

وقد تقدَّم الكلام على «رَيْحَان» وكيفية تعريفه في السورة قبلها.

وقوله: «فَرَوْحٌ» مبتدأ، خبره مقدر قبله، أي: فله روح، ويجوز أن يقدر بعده لاعتماده على فاء الجزاء.

قوله: «وأما إن كان من أصحاب اليمين، فسلامٌ لك من أصحاب اليمين».

«فسلام لك» مبتدأ وخبر[(٣)].

و «من أَصحاب». قال الزمخشري[(٤)]: «فسلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين، أي: يسلمون عليك».

وقال ابن جرير[(٥)]: «فسلام لك أنت من أصحاب اليمين».

وهذا يحتمل أن يكون كقول الزمخشري، ويكون «أنت» تأكيداً للكاف في لك، ويحتمل أن يكون أراد أن «أنت» مبتدأ، و «من أصحاب» خبره، ويؤيد هذا ما حكاه قوم من أن المعنى فيقال لهم: سلام عليكم لك إنك من أصحاب اليمين.

وأول هذه الأقوال هو الواضح البين؛ ولذلك لم يعرج أبو القاسم على غيره[(٦)].

فصل في المقصود بهذا السلام

قال القرطبي[(٧)]: «فسلامٌ لَك مِنْ أصْحابِ اليمينِ» أي: لست ترى منهم إلاَّ ما تحب من السلامة فلا تهتمّ، فإنهم يسلمون من عذاب الله.

وقيل: المعنى: سلام لك منهم، أي: أنت سالم من الاهتمام لهم، والمعنى واحد.

وقيل: إن أصحاب اليمين يدعون لك يا محمد بأن يصلي الله عليك ويسلم.

---

(١) في ب: هو بلسان.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٥١).
(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٠.
(٤) الكشاف ٤/ ٤٧٠.
(٥) ينظر: جامع البيان ١١/ ٦٦٧.
(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧١.
(٧) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٥١.

وقيل: معناه: سلمت أيها العبدُ ممَّا تكره، فإنك من أصحاب اليمين فحذف إنك.

وقيل: إنه يُحَيَّا بالسلام إكراماً.

فعلى هذا في محل السلام ثلاثة أقاويل:

أحدها: عند قبض روحه في الدنيا يسلم عليه ملك الموت. قاله الضحاك.

قال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن، قال: ربك يقرئك السلام.

الثاني: عند مساءلته في القبر يسلّم عليه منكر ونكير.

الثالث: عند بعثه في القيامة يسلم عليه الملك قبل وصوله إليها.

قال القرطبي[١]: «ويحتمل أن يسلم عليه في المواطن الثلاثة، ويكون ذلك إكراماً بعد إكرام».

قوله: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث «الضَّالين» عن الهدى، وطريق الحق ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ كما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: ٦٧].

قوله: ﴿وَتَصْلِيَةُ﴾.

قرأ أبو عمرو في[٢] **رواية** اللؤلؤي عنه، وأحمد بن موسى، والمنقري: بجر التاء عطفاً على «حميم»، أي: ونزل من تصلية جحيم.

والمعنى: إدخال في النَّار.

وقيل: إقامة في الجحيم، ومقاساة لأنواع عذابها.

يقال: أصلاه النَّار وصلاه، أي: جعله يصلاها.

والمصدر هنا أضيف إلى المفعول، كما يقال: لفلان إعطاء مال، أي: يعطي المال.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾.

أي: هذا الذي قصصناه محضُ اليقين وخالصه[٣].

وجاز إضافة الحق إلى اليقين، وهما واحد لاختلاف لفظهما، وذلك من باب إضافة المترادفين على سبيل المبالغةِ.

قال المبرد: هو كقولك: عين اليقين وحق اليقين.

---

(١) السابق.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٧٠، والبحر المحيط ٨/ ٢١٥، والدر المصون ٦/ ٢٧١.

(٣) ينظر: القرطبي ١٧/ ٢٦١.

فهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه عند الكوفيين، وإن كانوا فعلوا ذلك في اللفظ الواحد، فقالوا: صواب الصواب، ونفس النفس مبالغة، فلأن يفعلوا عند اختلاف اللفظ أولى[١].

وعند البصريين بمعنى: حق الأمر اليقين، أو الخبر اليقين.

وقيل: هو توكيد، كقولك: حق الحق، وصواب الصواب. قاله ابن عطية.

وقيل: أصل اليقين أن يكون نعتاً للحق فأضيف المنعوت إلى النَّعت على الاتِّساع والمجاز، كقوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [النحل: ٣٠].

قال ابن الخطيب[٢]: «هذه الإضافة كقولك: ثوب كتان، وباب ساجٍ بمعنى ثوب من كتان، وباب من ساجٍ، أي: لهو الحق من اليقين».

ويحتمل أن يكون المعنى: أنه الحق الذي يستحقه اليقين، كقوله عليه الصلاة والسلام: «أمِرْتُ أن أقَاتِلَ النَّاس حتَّى يقُولُوا: لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ، فإذا قالُوهَا عَصَمُوا منِّي دمَاءَهُمْ وأمْوالهُمْ إلاَّ بحقِّهَا»[٣].

فالضمير يرجع إلى الكلمة، أي: إلا بحق الكلمة، ومن حق الكلمة أداء الزكاة والصلاة، فكذلك حق اليقين، بالاعتراف، أي: بحق اليقين.

والمعنى: أنه يعترف بما قال الله ـ تعالى ـ في سورة «الواقعة»، وفي حق الأزواج الثلاثة، وعلى هذا المعنى إن اليقين لا يحق إلاَّ إذا صدق بما قاله، فالتصديق حق اليقين الذي يستحقه.

قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

أي: نزّه الله ـ تعالى ـ عن السُّوء[٤].

و «الباء» يجوز أن تكون للحال، أي: فسبِّح ملتبساً باسم ربِّك على سبيل التبرك كقوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وأن تكون للتعدية على أن «سبح» يتعدى بنفسه تارةً، كقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [من سورة الأعلى: ١] وبحرف الجر تارة كهذه الآية[٥].

وقال القرطبي[٦]: «والباء زائدة، أي: سبح اسم ربك».

وادعاء زيادتها خلاف الأصل.

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧١، والقرطبي ١٧/ ١٥١، ١٥٢.

(٢) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/ ١٧٧.

(٣) تقدم.

(٤) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٥٢.

(٥) ينظر: الدرالمصون ٦/ ٢٧١.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٥٢.

و «العظيم» يجوز أن يكون صفة للاسم، وأن يكون صفة لـ «ربك»؛ لأن كلاً منهما مجرور، وقد وصف كل منهما في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] و «ذي الجَلالِ».

ولتقارب المتضايفين ظهر الفرق في الوصف(١).

فصل في تحرير معنى الآية(٢)

قيل: معنى «فسبح» أي فصل بذكر ربك وبأمره.

وقيل: فاذكر اسم ربك العظيم وسبحه.

وعن عقبة بن عامر قال: لمَّا نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال النبي عليه الصلاة والسلام: «اجْعَلُوها في رُكُوعِكُمْ». ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال النبي ﷺ: «اجْعَلُوها في سُجُودِكُمْ».

أخرجه أبو داود(٣).

وروى أبو طيبة عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ [يقول]: «مَنْ قَرَأ سُورَةَ الواقِعَة في كل ليلة لم تُصِبْهُ فاقةٌ أبَداً» وكان أبو هريرة لا يدعُها أبداً(٤).

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧١.

(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٥٢.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٥٥) وأبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧) والدارمي (١/ ٢٩٩) والطيالسي (١/ ٩٨) رقم (٤٣١) والحاكم (٢/ ٤٧٧) وابن خزيمة (٦٠٠، ٦٠١، ٦٧٠) وأبو يعلى (٣/ ٢٧٩) وابن حبان (٥٠٦ ـ موارد) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢٣٥) والبيهقي (٢/ ٨٦) والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٠٢) وابن حزم في «المحلى» (٣/ ٢٥٩) من طرق عن إياس بن عامر عن عقبة بن عامر به.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٦٧٤) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٩٢) وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ١١٣) والحارث بن أبي أسامة كما في «المطالب» (٣/ ٣٨٣) رقم (٣٧٦٥) من طريق أبي شجاع عن أبي ظبية عن ابن مسعود مرفوعاً.

وقال ابن الجوزي: قال أحمد: هذا حديث منكر.

والحديث ذكره ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف» (٤/ ٤٧١) وقال: أخرجه ابن وهب في جامعه حدثني السري بن يحيى أن شجاعاً حدثه عن أبي ظبية عن عبد الله بن مسعود تابعه يزيد بن أبي حكيم وعباس بن الفضل البصري كلاهما عن السري. أخرجه البيهقي في الشعب من طريقهما وكذا رواه أبو يعلى من رواية محمد بن حبيب عن السري ورواه البيهقي في الشعب من رواية حجاج بن منهال عن السري فقال: عن شجاع عن أبي فاطمة عن ابن مسعود. وكذا رواه أبو عبيد في فضائل القرآن من رواية السري فقال: عن أبي ظبية، فاختلف أصحاب السري، هل شيخه شجاع أو أبو شجاع. وكذا اختلفوا في شيخ شجاع هل هو أبو فاطمة أو أبو ظبية. ثم اختلفوا في ضبط أبي=

وعن مسروق قال: «منْ أرَاد أن يتعلم نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ الدنيا، ونبأ الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة»(١).

والله تعالى أعلم.

= ظبية فعند الدارقطني بالطاء المهملة بعدها تحتانية ثم موحدة وأنه عيسى بن سليمان الجرجاني، وأن روايته عن ابن مسعود منقطعة. ويؤيده أن الثعلبي أخرجه من طريق أبي بكر العطاردي عن السري عن شجاع عن أبي ظبية الجرجاني وعند البيهقي أنه بالمعجمة بعدها موحدة، ثم تحتانية، وأنه مجهول وقال أحمد بن حنبل: هذا حديث منكر، وشجاع لا أعرفه.

(١) ذكره القرطبي في تفسيره ١٧/١٢٦.

سورة الحديد

[مدنية][1]، وهي تسع وعشرون آية.

عن العرياض بن سارية أن النبي ﷺ كان يقرأ بـ «المسبحات» قبل أن يرقد، ويقول: «إنَّ فِيهنَّ آيَةً أفضلُ مِنْ ألْفِ آيةٍ»[2].

يعني بـ «المُسَبحات»: الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) في ب: مكية.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٧٣٤) كتاب الأدب، باب: كيف يتوجه عند النوم حديث (٥٠٥٧) والترمذي (٥/ ١٦٦) كتاب فضائل القرآن، باب: (٢١) حديث (٢٩٢١) والنسائي في «الكبرى» (٦/ ١٧٦) وأحمد (٤/ ١٢٨) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٩٣) من طريق خالد بن معدان عن ابن أبي بلال عن العرباض بن سارية به.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٤٥) وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

أي: مجّد الله ونزّهه عن السوء[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: صلى لله ما في السموات من خلق من الملائكة والأرض من شيء فيه روح، أو لا روح[٢] فيه.

وقيل: هو تسبيح الدلالة.

وأنكر الزجّاج هذا وقال: لو كان هذا تسبيح الدلالة، وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة، فلم قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وإنما التسبيح مقال، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، ولو كان هذا التسبيح تسبيح دلالة، فأي تخصيص لداود[٣]؟.

وقال القرطبي[٤]: هذا هو الصحيح.

فصل في الكلام على الفعل سبح[٥]

هذا الفعل عدي باللام تارة كهذه السورة، وأخرى بنفسه كقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وأصله التعدي بنفسه، لأن معنى «سبحته»: بعدته عن السوء، فاللام إما أن تكون مزيدة كهي في نصحت لزيد، ونصحته، وشكرته، وشكرت له؛ إذ يقال: سبحت الله تعالى، قال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. وإما أن تكون للتعليل، أي: أحدث التسبيح لأجل الله تعالى[٦].

وجاء في بعض الفواتح «سبّح» بلفظ الماضي، وفي [بعضها][٧] بلفظ المضارع، وذلك إشارة إلى أن هذه الأشياء مسبحة في كل الأوقات، لا يختص بوقت دون وقت، بل هي مسبحة أبداً في الماضي، وستكون مسبحة أبداً في المستقبل[٨].

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

«العزيز»: الغالب القادر الذي لا ينازعه شيء، وذلك إشارة إلى كمال القدرة.

«الحكيم»: الذي يفعل أفعاله على وفق الحكمة والصواب[٩].

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب[١٠].

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٥٣.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٥٣).
(٣) ينظر: معاني القرآن له ٥/ ١٢١.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٥٣.
(٥) ينظر: الرازي ٢٩/ ١٨٠.
(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٢.
(٧) في أ: هذا.
(٨) الفخر الرازي ٢٩/ ١٧٩، ١٨٠.
(٩) السابق ٢٩/ ١٨١.
(١٠) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٢.

وحقيقة «المُلْك» عبارة عن نفوذ الأمر، فهو سبحانه وتعالى المالك القادر القاهر.

وقيل: أراد خزائن المطر والنبات والرِّزق[(١)].

قوله: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

يجوز في هذه الجملة ثلاثة أوجه[(٢)]:

أحدها: أنها لا محل [لها] كالتي قبلها.

والثاني: أنها خبر مبتدأ مضمر، أي: هو له ملك.

الثالث: أنه الحال من الضمير في «له» فالعامل فيها الاستقرار.

ولم يذكر مفعول الإحياء والإماتة؛ إذ الغرض ذكر الفعلين [فقط، والمعنى ليميت][(٣)] الأحياء في الدنيا، ويحيي الأموات للبعث.

وقيل: هو يحيي النُّطف، وهي أموات، ويميت الأحياء[(٤)].

قال ابن الخطيب[(٥)]: «وعندي فيه وجه ثالث، وهو أنه ليس المراد منه تخصيص الإحياء والإماتة بزمان معين، وبأشخاص معينين، بل معناه: أنَّه القادر على خلق الحياة والموت، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢]، [والمقصود منه][(٦)] كونه ـ تعالى ـ هو المنفرد بإيجاد هاتين الماهيتين على الإطلاق لا يمنعه عنهما مانع.

قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء[(٧)].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ الآية.

قال الزمخشري[(٨)]: فإن قلت: [فما معنى «الواو»؟].

قلت: «الواو» الأولى معناها الدلالة على [أنه الجامع بين الصفتين الأولية]، والآخرية.

والثالثة على الجامع بين الظُّهور والخفاء.

وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين، ومجموع الصفتين الأخريين.

فصل في تفسير الآية

قال القرطبي رحمه الله[(٩)]: اختلف في معاني هذه الأسماء وقد شرحها رسول الله ﷺ شرحاً يغني عن قول كل قائل.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٥٣.
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٢.
(٣) في أ: وهو الله تعالى القادر.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٥٣.
(٥) التفسير الكبير ٢٩/ ١٨٢.
(٦) سقط من أ.
(٧) القرطبي ١٧/ ١٥٤.
(٨) الكشاف ٤/ ٤٧٢.
(٩) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٥٤.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ أنْتَ الأوَّلُ فليسَ قَبلكَ شيءٌ، وأنْتَ الآخرُ فليْسَ بعدكَ شيءٌ، وأنْتَ الظَّاهرُ فليس فوقكَ شيءٌ، وأنْتَ الباطنُ فليْسَ دُونَك شيءٌ، اقْضِ عنَّا الدَّينَ، وأغْنِنَا من الفَقْرِ»[١]، عنى بالظاهر الغالب، وبالباطن العالم، والله أعلم.

قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

مما كان أو يكون لا يخفى عليه شيء، وهذا معنى قول ابن عباس.

قال ابن الخطيب[٢]: الظَّاهر بحسب الدلائل، والباطن بحسب الحواس.

والقول بأن الباطن هو العالم ضعيف؛ لأنه يلزم منه التكرار في قوله: «وهو بكل شيء عليم بما كان أو يكون».

فصل في إثبات وحدانية الله

قال ابن الخطيب: احتج كثير من العلماء في إثبات أنَّ الإله واحد بقوله: «هو الأول»، قالوا: الأول هو الفرد السَّابق، ولهذا لو قال: أول مملوك اشتريته فهو حر، ثم اشترى عبدين لم يعتقا؛ لأن شرط كونه أولاً حصول الفردية، وهنا لم تحصل، فلو اشترى بعد ذلك عبداً واحداً لم يعتق؛ لأن شرط الأولية كونه سابقاً، وهاهنا لم يحصل، فثبت أن الشَّرط في كونه أولاً أن يكون فرداً، فكانت الآية دالة على أنَّ صانع العالم فرد[٣].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

تقدم [في «الأعراف»][٤]، والمقصود منه دلائل القدرة[٥].

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يدخل فيها من مطر وغيره.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نباتٍ وغيره.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من رزق ومطر وملك.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يصعد فيها من الملائكة، وأعمال العباد ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يعني: بقدرته وسلطانه وعلمه.

﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ينظر أعمالكم ويراها، ولا يخفى عليه شيء منها[٦].

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٨٤) كتاب الذكر والدعاء، باب: ما يقول عند النوم حديث (٦١/ ٢٧١٣) وأحمد (٢/ ٥٣٦) من حديث أبي هريرة.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ١٨٦.

(٣) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/ ١٨٦.

(٤) في أ: إعرابه.

(٥) الرازي ٢٩/ ١٨٧.

(٦) القرطبي ١٧/ ١٥٤.

فصل في الكلام على الآية

قال القرطبي[١]: وقد جمع في هذه الآية بين «استوى على العرش» وبين «وهُوَ معكُم»، والأخذ بالظَّاهر تناقض فدل على أنه لا بد من التأويل، والإعراض عن التأويل اعتراف بالتناقض.

وقد قال أبو المعالي: إن محمداً ﷺ ليلة الإسراء لم يكن بأقرب إلى الله ـ عز وجل ـ من يونس بن متَّى حين كان في بطن الحوت. وقد تقدم.

فصل في تفسير المعية

ذكر ابن الخطيب[٢] عن المتكلمين أنهم قالوا: هذه المعية إما بالعلم، وإما بالحفظ والحراسة، وعلى التقديرين فالإجماع منعقد على أنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ ليس معنا بالمكانِ والحيز والجهةِ، فإذن قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ لا بد فيه من التأويل، فإذا جوَّزنا التأويل في موضع وجب تأويله في سَائرِ المواضع.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

هذا التكرير للتأكيد، أي: هو المعبود على الحقيقة.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: أمور الخلائق في الآخرة[٣].

وقد تقدم في البقرة»[٤]: أن الأخوين وابن عامر يقرءون: «تَرْجِعُ» بفتح التاء وكسر الجيم مبنيًا للفاعل، والباقون: مبنيًا للمفعول في جميع القرآن.

وقال أبو حيان هنا[٥]: **وقرأ الجمهور: «تُرْجَعُ» مبنيًا للمفعول، والحسن وابن أبي إسحاق والأعرج مبنيًا للفاعل.**

وهذا عجيب منه وقد وقع له مثل ذلك كما تقدم[٦].

قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾.

أي: ما ينتقص من النهار فيزيد في الليل، وما ينتقص من الليل فيزيد في النهار.

﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. أي: لا تخفى عليه الضمائر، ومن كان بهذه الصفة، فلا يجوز أن يعبد سواه[٧].

قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

---

(١) السابق.
(٢) التفسير الكبير ٢٩/ ١٨٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٥٤.
(٤) آية (٢١٠).
(٥) البحر المحيط ٨/ ٢١٧، والدر المصون ٦/ ٢٧٣، وينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٨.
(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٣.
(٧) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٥٤.

أي: صدقوا أن الله واحد، وأن محمداً عبده ورسوله.

«وأنفِقُوا»: تصدقوا وقيل: أنفقوا في سبيل الله.

وقيل: المراد: الزكاة المفروضة.

وقيل: غيرها من وجوه الطاعات، وما يتقرب به.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ دليل على أن أصل الملك لله سبحانه وتعالى، وأن العبد ليس له فيه إلاَّ التصرف الذي يرضي الله تعالى، فيثيبه على ذلك بالجنة، فمن أنفق منها في حقوق الله، وهان عليه الإنفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره، إذا أذن له فيه، كان له الثواب الجزيل[١].

وقال الحسن: «مُستخْلفِين فيه» بوراثتكم إياه عمن كان قبلكم، وهذا يدل على أنها ليست بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النُّواب والوكلاء، فاغتنموا الفوز، فإنها بإقامة الحق قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم.

«فالذين آمنوا وعملوا الصاحات منكم، وأنفقوا في سبيل الله لهم أجر كبير» وهو الجنة.

فصل في الكلام على الآية

قال القاضي: هذه الآية تدل على أن هذا الأجر لا يحصل بالمال وحده حتى يضاف إليه هذا الإنفاق، فمن أخل بالواجب من زكاة وغيرها فلا أجر له[٢].

قال ابن الخطيب[٣]: وهذا استدلال ضعيف؛ لأنه لا يلزم من نفي الأجر الكبير نفي أصل الأجر، فلم قلتم: إنها [تدل على أنه][٤] لا أجر له أصلاً؟.

فإن قيل[٥]: قوله «آمنوا بالله» خطاب مع من عرف الله أو مع من لم يعرف الله، فإن كان الأول كان ذلك أمراً بأن يعرف من عرفه، وذلك أمر بتحصيل الحاصل، وهو محال.

وإن كان الثاني كذلك كان ذلك الخطاب متوجِّهاً على من لم يكن عارفاً به، ومن لم يكن عارفاً يستحيل أن يكون عارفاً بأمره، فيكون الأمر متوجِّهاً على من يستحيل أن يعرف كونه مأموراً بذلك الأمر، وهو تكليف ما لا يُطاق.

قال ابن الخطيب[٦]: والجواب من النَّاس من قال: معرفة وجود الصَّانع حاصلة للكل، وإنما المقصود من هذا الأمر معرفة الصفات.

---

(١) السابق.
(٢) التفسير الكبير ٢٩/ ١٨٩.
(٣) السابق.
(٤) سقط من أ.
(٥) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ١٨٨.
(٦) السابق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾.

مبتدأ وخبر وحال، أي: أي شيء استقر لكم غير مؤمنين[١].

قال القرطبي[٢]: «هذا استفهام يراد به التوبيخ، أي: أي عذر لكم في ألا تؤمنوا وقد أزيحت العلل». ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾.

فقوله: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ جملة حالية من ضمير «تؤمنون»[٣].

قال الزمخشري[٤]: «فهما حالان متداخلان».

و «لتؤمنوا» متعلق بـ «يدعو» أي: يدعوكم للإيمان، كقولك: «دعوته لكذا».

ويجوز أن تكون «اللام» للعلة، أي: يدعوكم إلى الجنة وغفران الله لأجل الإيمان.

وفيه بعد.

وهذه الآية تدل على أنه لا حكم قبل ورود الشرع.

قوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ﴾. حال أيضاً[٥].

وقرأ العامة: «أخَذ» مبنيًا للفاعل، وهو الله ـ تعالى ـ لتقدّم ذكره.

وقرأ أبو عمرو[٦] «أُخِذَ» مبنيًا للمفعول، حذف الفاعل للعلم به.

و «ميثاقكم» منصوب في قراءة العامة، ومرفوع في قراءة أبي عمرو.

و «إن كنتم» جوابه محذوف، تقديره: فما يمنعكم من الإيمان.

وقيل: تقديره: إن كنتم مؤمنين لموجب ما رتبه، فهذا هو الموجب[٧].

وقدره ابن عطية[٨]: إن كنتم مؤمنين فأنتم في رتبة شريفة.

فصل في المراد بهذا الميثاق[٩]

قال مجاهد: المراد بالميثاق هو المأخوذ عليهم حين أخرجهم من ظهر آدم، وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

قال ابن الخطيب[١٠]: وهذا ضعيف؛ لأنه ـ تعالى ـ إنما ذكر أخذ الميثاق ليكون

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٥٥.

(٣) الدر المصون ٦/ ٢٧٣.

(٤) الكشاف ٤/ ٤٧٣.

(٥) الدر المصون ٦/ ٢٧٣.

(٦) ينظر: السبعة ٦٢٥، والحجة ٦/ ٢٦٦، وإعراب القراءات ٢/ ٢٤٩، وحجة القراءات ٦٩٧، والعنوان ١٨٦، وشرح شعلة ٥٩٧، وشرح الطيبة ٦/ ٣٨، واتحاف ٢/ ٥١٩.

(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٣.

(٨) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٨.

(٩) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٥٥.

(١٠) التفسير الكبير ٢٩/ ١٨٩.

ذلك سبباً في أنه لم يبق لهم عُذر في ترك الإيمان بعد ذلك، وأخذ الميثاق وقت إخراجهم من ظهر آدم غير معلوم للقوم إلاَّ بقول الرسول.

فقبل معرفة تصديق الرسول لا يكون ذلك سبباً في وجوب تصديق الرسول بل المراد بأخذ الميثاق نصب الدلائل والبينات، بأن ركب فيهم العقول، وأقام عليهم الحُجج والدلائل التي تدعو إلى متابعة الرَّسُول، وهذا معلوم لكل أحد، فيكون سبباً لوجوب الإيمان بالرسول.

فصل في حصول الإيمان بالعبد

قال القاضي[(١)]: قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾ يدل على قدرتهم على الإيمان، إذ لا يجوز أن يقال ذلك لمن لا يتمكن من الفعل كما لا يقال: ما لك لا تطول ولا تبيض، فيدل هذا على أن الاستطاعة قبل الفعل، وعلى أن القدرة صالحة للضدين، وعلى أن الإيمان حصل بالعبد لا بخلق الله.

قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إذْ كنتم مؤمنين.

وقيل: إن كنتم مؤمنين بالحجج والدليل.

وقيل: إن كنتم مؤمنين بحق يوماً من الأيام، فالآن فقد صحت براهينه.

وقيل: إن كنتم مؤمنين بأن الله خلقكم كانوا يعترفون بهذا.

وقيل: هذا خطاب لقوم آمنوا، وأخذ النبي ﷺ ميثاقهم فارتدوا[(٢)].

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: كنتم تقرُّون بشرائط الإيمان.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾.

تقدمت قراءتا «يُنْزِلُ» تخفيفاً وتشديداً في «البقرة»[(٣)].

وزيد بن علي[(٤)]: «أنْزَلَ» ماضياً.

---

(١) السابق. (٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٥٥.

(٣) آية (٩٠).

(٤) وهي قراءة الأعمش كما في المحرر الوجيز ٥/ ٢٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٢١٨، وينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٣، والتخريجات النحوية والصرفية لقراءة الأعمش ٢٦٥.

وقوله: ﴿ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني القرآن.

وقيل[١]: المعجزات، أي: لزمكم الإيمان بمحمد ﷺ لما معه من المعجزات والقرآن أكبرها وأعظمها.

﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ أي: بالقرآن.

وقيل: بالرسول.

وقيل: بالدعوة، ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، وهو الشرك والكفر.

﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وهو الإيمان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

فصل في إرادة الله للإيمان

قال القاضي[٢]: هذه الآية تدل على إرادته للإيمان، أكد ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

فإن قيل: أليس يدل ظاهرها على أنه يخرج من الظلمات إلى النور، فيجب أن يكون الإيمان من فعله؟.

قلنا: إذا كان الإيمان بخلقه لا يبقى لقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم﴾ [الحديد: ٩] معنى؛ لأن ما يخلقه لا يتغير، بل المراد أنه يلطف بهم.

قال ابن الخطيب[٣]: وهذا على حسنه معارض بالعلم؛ لأنه علم أن إيمانهم لا يوجد فقد كلفهم بما لا يوجد، فكيف يعقل مع هذا أنه أراد منهم الخير والإحسان، وحمل بعضهم قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ على بعثة محمد ﷺ ولا وجه لهذا التخصيص.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟﴾.

الكلام فيه كالكلام في قوله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، فالأصل: «في ألا تنفقوا».

فلما حذف حرف الجر جرى الخلاف المشهور، وأبو الحسن يرى زيادتها[٤] كما تقدم تقريره في البقرة.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ﴾ جملة حالية من فاعل الاستقرار أو مفعوله، أي: وأي شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، والحال أن ميراث السموات والأرض له، فهذه حال منافية.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٥٥.

(٢) ينظر: الرازي ٢٩/ ١٩٠.

(٣) السابق.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٣.

فصل في الكلام على الإنفاق[١]

لما أمر أولاً بالإيمان وبالإنفاق، ثم أكَّده في الآية المتقدمة بإيجاب الإيمان بالله أتبعه في هذه الآية بتأكيد إيجاد الإنفاق، والمعنى: أنكم ستموتون فتورثون، فهلا قدّمتموه في الإنفاق على طاعة الله؟.

وتحقيقه: أن المال لا بد وأن يخرج من اليد، إما بالموت وإما بالإنفاق في سبيل الله، فإن خرج بالموت كان أثره اللَّعنُ والمقتُ والطرد والعقاب، وإن خرج بالإنفاق في سبيل الله كان أثره المدح والثواب وإذا كان لا بد من خروجه من اليد، فكل عاقل يعلم أن خروجه عن اليد بحيث يستعقب المدح والثواب أولى منه مما يستعقب اللعن والعقاب، ثم لما بين تعالى أن الإنفاق في سبيل الله فضيلة بيَّن أن المسابقة في الإنفاق تمام الفضيلة، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ﴾.

قوله: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ ﴾.

في فاعل «يستوي» وجهان[٢]:

أظهرهما: أنه «مَنْ أنفق» وعلى هذا فلا بد من حذف معطوف يتم به الكلام، فقدره الزمخشري[٣]: لا يستوي منكم من أنفق قبل فتح «مكة» وقوة الإسلام، ومن أنفق من بعد الفتح، [فحذف لوضوح الدلالة][٤].

[وقدره أبو البقاء[٥]: «ومن لم ينفق».

قال: ودلّ على المحذوف قوله: ﴿مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ ﴾][٦].

والأول أحسن؛ لأن السِّياق إنما جيء بالآية ليفرق بين النَّفقتين في زمانين.

والثاني: أن فاعله ضمير يعود على الإنفاق، أي: لا يستوي جنس الإنفاق إذ منه ما وقع قبل الفتح، ومنه ما وقع بعده.

فهذان النَّوعان متفاوتان، وعلى هذا فيكون «من» مبتدأ، و «أولئك» مبتدأ ثاني، و «أعظم» خبره، والجملة خبر «من». وهذا ينبغي ألاَّ يجوز ألبتة.

وكأن هذا المعرب غفل عن قوله: «منكم»، فلو أعرب هذا القائل «منكم» خبراً مقدماً، و «من» مبتدأ مؤخراً، والتقدير: منكم من أنفق من قبل الفتح، ومنكم من لم ينفق قبله ولم يقاتل، وحذف هذا لدلالة الكلام عليه لكان سديداً، ولكنه سَهَا عن لفظة «منكم»[٧].

---

(١) التفسير الكبير ١٩/ ١٩٠.
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٣.
(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٧٤.
(٤) سقط من أ.
(٥) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢٠٧.
(٦) سقط من أ.
(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٤.

فصل في المراد بالفتح

أكثر المفسرين[١] على أن المراد بالفتح فتح «مكة».

وقال الشعبي والزهري: فتح «الحديبية»[٢].

قال قتادة: كان قتالان، أحدهما أفضل من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى؛ لأن القتال والنفقة قبل فتح «مكة» أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك، وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم، لأن حاجة النَّاس كانت أكثر لضعف الإسلام، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشق، والأجر على قدر النَّصب[٣].

قال مالك رضي الله عنه: ينبغي أن يقدم أهل الفضل والعزم لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾.

قال الكلبي: نزلت في أبي بكر وفيها دليل واضح على تفضيل أبي بكر وتقديمه؛ لأنه أوَّل من أسلم، وأول من أنفق في سبيل الله[٤].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أوَّل من أظهر الإسلام بسيفه النبي ﷺ وأبو بكر.

وعن ابن عمر قال: «كنت عند النبي ﷺ وعنده أبو بكر، وعليه عباءة قد خلَّلها في صدره بخلالٍ، فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال: يا نبي الله، ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها في صدره بخلال؟ قال: «أنْفَقَ مالهُ عليَّ قَبْلَ الفَتحِ»، قال: فإن الله تعالى يقول لك: اقرأ على أبي بكر السلام، وقل له: أنت راضٍ في فقرك أم ساخط؟ فقال أبو بكر: إني عن ربي لَراضٍ، قال: فإن الله ـ تعالى ـ يقولُ لك: قد رضيت عنك كما أنت عني راضٍ، فبكى أبو بكر، فقال جبريل: والذي بعثك يا محمد بالحق لقد تخلَّلت حملةُ العرش بالعبى منذ تخلَّل صاحبك هذا بالعباءة»[٥].

ولهذا قدمه الصحابة على أنفسهم وأقرُّوا له بالتقدم والسبق.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: سبق النبي ﷺ وثنى أبو بكر وثلث عمر، فلا أوتى برجل فضلني على أبي بكر إلا جلدته حد [المفتري] ثمانين جلدة وطرح الشهادة[٦].

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٥٦.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٧٤) عن الشعبي وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٩٤).

(٣) ذكره القرطبي (١٧/ ١٥٦) عن قتادة.

(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥) والقرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٥٦) والرازي (٢٩/ ١٩١).

(٥) ينظر: المصدر السابق.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٥٦).

فصل في التقدم والتأخر في أحكام الدين

فإن قلت: التقدم والتأخر قد يكون في أحكام الدنيا، فأما في أحكام الدين فقالت عائشة رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل النَّاس منازلهم. وأعظم المنازل مرتبة الصلاة[(١)].

وقد قال ﷺ في مرضه: «مُرُوا أبَا بَكْر فليُصَلِّ بالنَّاسِ».

وقال: «يَؤم القَوْمَ أقرؤهُم لكِتابِ اللَّه»[(٢)].

وقال: «وليؤمكما أكبركما».

وفهم منه العلماء أنه أراد كبر المنزلة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «الوَلاَءُ للْكِبَرِ». ولم يَعْنِ كبر السن.

وقد قال مالك وغيره: إن للسن حقًّا، وراعاهُ الشَّافعي وأبو حنيفة، وهو أحق بالمراعاة.

وأما أحكام الدنيا فهي مرتبة على أحكام الدين، فمن قدم في الدين قدم في الدنيا.

وفي الحديث: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوقِّر كبِيْرنَا ويرْحَمْ صَغِيْرَنَا ويَعرفْ لِعَالِمنَا حقَّهُ».

وفي الحديث أيضاً: «مَا أكْرَمَ شابٌّ شَيْخاً لسنِّهِ إلاَّ قيَّضَ اللَّهُ لهُ عِندَ سنِّهِ مَنْ يُكرمهُ»[(٣)].

قوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

قراءة العامة: بالنَّصب على أنَّه مفعول مقدم، وهي مرسومة في مصاحفهم «وكلاًّ» بألف[(٤)].

وابن عامر[(٥)]: برفعه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٦٧٧) كتاب الأدب، باب: في تنزيل الناس منازلهم حديث (٤٨٤٢) من طريق ميمون بن أبي شبيب عن عائشة.

(٢) أخرجه مسلم ١/ ٤٦٥ كتاب المساجد، باب: من أحق بالإمامة (٢٩٠/ ٦٧٣) وأبو داود ١/ ١٥٩، كتاب الصلاة، باب: من أحق بالإمامة (٥٨٢)، والترمذي ١/ ٤٥٨ أبواب الصلاة، باب: ما جاء من أحق بالإمامة (٩٨٠)، والنسائي ٢/ ٧٦ في الإمامة، باب: من أحق بالإمامة.

(٣) أخرجه الترمذي ٤/ ٣٧٢ كتاب البر، باب: ما جاء في إجلال الكبير (٢٠٢٢) واللفظ له وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث هذا الشيخ يزيد بن بيان وأبي الرِّجال الأنصاري».
وأخرجه ابن عديّ في الكامل ٣/ ٨٩٨، ضمن ترجمة خالد بن محمد أبي الرِّجال الأنصاري.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٤.

(٥) ينظر: السبعة ٦٢٥، والحجة ٦/ ٢٦٦ وإعراب القراءات ٢/ ٣٤٩، وحجة القراءات ٦٩٨، والعنوان ١٨٦، وشرح شعلة ٥٩٧، وشرح الطيبة ٦/ ٣٨، وإتحاف فضلاء البشر ٢/ ٥٢٠.

وفيه وجهان(١):

أظهرهما: أنه ارتفع على الابتداء، والجملة بعده خبره، والعائد محذوف أي: وعده الله.

ومثله: [الرجز]

٤٧١٦ - قَدْ أصْبَحَتْ أمُّ الخِيَارِ تَدَّعِي عَلَيَّ ذَنْباً كُلُّهُ لَمْ أصْنَعِ(٢)

برفع «كلُّه» أي: لم أصنعه.

والبصريون [رحمة الله عليهم](٣) لا يجيزون هذا إلاَّ في شعر، كقوله: [السريع]

٤٧١٧ - وخَالِدٌ يَحْمَدُ سَادَاتِنَا بالحَقِّ لا يَحْمَدُ بالبَاطِلِ(٤)

ونقل ابن مالك الإجماع من البصريين والكوفيين على جواز ذلك إن كان المبتدأ «كُلاًّ» وما أشبهها في الافتقار والعموم.

قال شهاب الدين لم أره لغيره وقد تقدم نحو من ذلك في سورة «المائدة»، عند قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ﴾ [المائدة: ٥٠] ولم يرو قوله: «كله لم أصنع» إلا بالرفع مع إمكان أن تنصبه، فتقول: «كله لم أصنع» مفعولاً مقدماً.

قال أهل البيان(٥): لأنه قصد عموم السَّلب لا سلب العموم، فإن الأول أبلغ، وجعلوا من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام «كُلُّ ذلِكَ لَمْ يَكُنْ».

ولو قال: لم يكن كل ذلك، لكان سلباً للعموم، والمقصود عموم السَّلب.

قال الشيخ عبد القاهر(٦): المعنى يتفاوت بالرفع والنصب، فمع الرفع يفيد أنه لم يفعل شيئاً من الأشياء، ومع النَّصْب يفيد أنه يفعل المجموع، ولا يلزم أنه لم يفعل البعض، بل إن قلنا بدليل الخطاب دل على أنه فعل البعض.

والثاني(٧): أن يكون «كلّ» خبر مبتدأ محذوف، و «وعد الله الحسنى» صفة لما قبله، والعائد محذوف، أي: «وأولئك كل وعد الله الحسنى».

فإن قيل: الحذف موجود أيضاً فقد عدتم لما فررتم منه؟.

فالجواب: أن حذف العائد من الصفة كثير بخلاف حذفه من الخبر.

ومن حذفه من الصفة قوله: [الوافر]

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٤.

(٢) تقدم.

(٣) سقط من أ.

(٤) تقدم.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٤.

(٦) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ١٩٢.

(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٤.

٤٧١٨ ـ ومَا أدرِي أغَيَّرَهُمْ تَنَاءٍ وطُولُ العَهْدِ أمْ مَالٌ أصَابُوا[١]

أي: أصابوه، ومثله كثير، وهي في مصاحف «الشام» مرسومة: «وكلّ» دون ألف فقد وافق كل مصحفه، و «الحسنى» مفعول ثان، والأول محذوف على قراءة الرفع.

وأمَّا النصب فالأول مقدّم على عامله.

ومعنى الآية[٢]: أن المتقدمين[٣] السَّابقين والمتأخرين اللاَّحقين وعدهم الله جميعاً الجنة مع تفاوت الدرجات.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: أنه لما وعد السَّابقين والمحسنين بالثواب فلا بد وأن يكون عالماً بالخيرات، وبجميع المعلُومات حتى يمكنه إيصال الثَّواب إلى المستحقين، إذ لو لم يكن عالماً بهم، وبأفعالهم على سبيل التفصيل لما أمكن الخروج من عهدة الوعد بالتَّمام، فلهذا السَّبب أتبع هذا الوعد بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[٤].

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ (١١) يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (١٢) يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ (١٣)﴾

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾. وقد تقدم في «البقرة».

ندب إلى الإنفاق في سبيل الله.

وقال ابن عطية[٥]: هنا بالرَّفع على العطف، أو القطع والاستئناف.

وقرأ عاصم[٦]: «فيُضَاعفه» بالنصب بالفاء على جواب الاستفهام، وفي ذلك قلقٌ.

قال أبو علي[٧]: لأن السؤال لم يقع على القرضِ، وإنما وقع عن فاعل القَرْض، وإنما تنصب الفاء فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى، كأن قوله: «مَنْ ذَا الذي يُقْرِضُ» بمنزلة قوله: «أيقرض الله أحدٌ». انتهى.

---

(١) تقدم.

(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٥٧.

(٣) في أ: الفئتين.

(٤) ينظر: الرازي ٢٩/ ١٩٢.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٠.

(٦) ينظر: الحجة ٦/ ٢٦٧، وإعراب القراءات ٢/ ٣٥٠، وحجة القراءات ٦٩٩، والعنوان ٧٤، وشرح شعلة ٢٩٣، وإتحاف ٢/ ٥٢٠.

(٧) الحجة للقراء السبعة ٦/ ٢٦٨.

وهذا الذي قاله أبو علي ممنوع[١]، ألا ترى أنه ينصب بعد «الفاء» في جواب الاستفهام بالأسماء، وإن لم يتقدم فعل نحو: أين بيتك فأزورك ومثل ذلك: من يدعوني فأستجيب له، ومتى تسير فأرافقك، وكيف تكون فأصحبك، فالاستفهام إنما وقع عن ذات الدَّاعي، وعن ظرف الزَّمان، وعن الحال لا عن الفعل.

وقد حكى ابن كيسان عن العرب: «أين ذهب زيدٌ فنتبعه، ومن أبوك فنكرمه».

فصل في المقصود بالقرض[٢]

ندب الله تعالى إلى الإنفاق في سبيل الله، والعرب تقول لكل من فعل فعلاً حسناً: «قد أقرض».

كما قال بعضهم رحمة الله عليه: [الرمل]

٤٧١٩ ـ وإذَا جُوزِيتَ قَرْضاً فاجزه   إنَّما يَجزي الفَتَىٰ لَيسَ الجَمَلْ[٣]

وسماه قرضاً؛ لأن القرض أخرج لاسترداد البدل، أي: من ذا الذي ينفق في سبيل الله حتى يبدله الله بالأضعاف الكثيرة.

قال الكلبي: «قرضاً» أي: صدقة.

«حسناً» أي: محتسباً من قلبه بلا منٍّ ولا أذى[٤].

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾: ما بين سبع إلى سبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف.

وقيل القَرْض الحسن هو أن يقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وقال زيد بن أسلم: هو النَّفقة على الأهل.

وقال الحسن: التطوُّع بالعبادات[٥].

وقيل: عمل الخير.

وقال القشيري: لا يكون حسناً حتى يجمع أوصافاً عشرة:

الأول: أن يكون من الحلال، لقوله ﷺ: «لا يَقْبَلُ اللَّهُ صلاةً بِغَيْرِ طهُورٍ، ولا صَدَقةً مِنْ غُلُولٍ»[٦].

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٥.   (٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٥٧.

(٣) قائل البيت هو لبيد بن ربيعة، ويروى «أقرضت» مكان «جوزيت». ينظر ديوانه ص ١٧٩، والأزهية ص ١٨٢، ١٩٦، وخزانة الأدب ٩/ ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠٠، ١١/ ١٩٠، ١٩١، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٤٠، وشرح التصريح ٢/ ١٣٥، والكتاب ٢/ ٣٢٣، ومجالس ثعلب ص ١٦٩، ٥١٥، والمقاصد النحوية ٤/ ٨٧٦، وأوضح المسالك ٣/ ٣٥٤، والمقتضب ٤/ ٤١٠، ومعاني القرآن وإعرابه ٥/ ١٢٣، والقرطبي ١٧/ ١٥٧.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٥٧) عن الكلبي.

(٥) ينظر: المصدر السابق.

(٦) أخرجه مسلم ١/ ٢٠٤، كتاب الطهارة، باب: وجوب الطهارة للصلاة (١/ ٢٢٤)، والترمذي ١/ ٥=

الثاني: أن يكون من أكرم ما يمكنه؛ ولا يخرج الرديء كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

الثالث: أن يتصدق به وهو يحبّه، ويحتاج إليه لقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال عليه الصلاة والسلام «أَفْضَلُ الصَّدقةِ أنْ تُعْطيَهُ وأنْتَ صَحيحٌ شَحِيحٌ تأمُلُ العَيْشَ ولا تمهلُ حتَّى إذا بلغتِ التَّراقي قُلْتَ: لفُلانٍ كذا، ولفُلانٍ كَذَا»[١].

الرابع: أن تصرف صدقته إلى الأحوج فالأحوج، ولذلك خص تعالى أقواماً بأخذها، وهم أهل المبهمات.

الخامس: أن تخفي الصَّدقة لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

السادس: ألاَّ يتبعها منًّا ولا أذى، لقوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

السابع: أن يقصد بها وجه الله تعالى، ولا يُرائِي لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ٢٠].

الثامن: أن يستحقر ما يعطي وإن كثر؛ لأن الدُّنيا كلها قليلة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦] في أحد التأويلات.

التاسع: أن يكون من أحبّ الأموال إليه، وأن يكون كثيراً لقوله عليه الصلاة والسلام «أفْضَلُ الرِّقابِ أغْلاهَا وأنفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا»[٢].

العاشر: ألا يرى عزَّ نفسه، وذُلَّ الفقير، بل يكون الأمر بالعكس.

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فيه أوجه[٣]:

أحدها: أنه معمول للاستقرار العامل في «له أجر» أي: استقر له أجر في ذلك اليوم.

= أبواب الطهارة، باب: لا تقبل صلاة بغير طهور (١)، وابن ماجه ١/ ١٠٠، كتاب الطهارة، باب: لا يقبل صلاة بغير طهور (٢٧١) وأبو داود ١/ ١٦، كتاب الطهارة، باب: فرض الوضوء (٥٩).

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٥.

الثاني: أنه مضمر، أي: اذكر، فيكون مفعولاً به.

الثالث: أنهم يُؤجَرُون «يوم ترى» فهو ظرف على أصله.

الرابع: أن العامل فيه «يسعى» أي: يسعى نور المؤمنين والمؤمنات يوم تراهم هذا أصله.

الخامس: أن العامل فيه «فيُضَاعفه». قالهما أبو البقاء.

قوله: «يَسْعَى» حال؛ لأن الرُّؤية بصرية، وهذا إذا لم تجعله عاملاً في «يوم»، و «بين أيديهم» ظرف للسعي، ويجوز أن يكون حالاً من «نورهم».

قوله: «وبأيمانهم»، أي: وفي جهة أيمانهم.

وهذه قراءة العامة[١]، أعني بفتح الهمزة جمع يمين.

وقيل: الباء بمعنى «عن» أي: عن جميع جهاتهم، وإنما خص الأيمان لأنها أشرف الجهات.

وقرأ[٢] أبو حيوة وسهل بن شعيب: بكسرها.

وهذا المصدر معطوف على الظرف قبله، والباء سببية، أي: يسعى كائناً وثابتاً بسبب أيمانهم.

وقال أبو البقاء[٣]: تقديره: وبأيمانهم استحقُّوه، أو بأيمانهم يقال لهم: بُشْرَاكُم.

فصل في المراد بهذا اليوم

المراد من هذا اليوم يوم المُحاسبة.

واختلفوا في هذا النور.

فقال الحسن: هو الضياء الذي يمرون فيه[٤] «بين أيديهم» أي: قدَّامهم.

«وبأيمانهم»، قال الفرَّاء: «الباء» بمعنى «في» أي: في أيمانهم، أو بمعنى: «عن أيمانهم».

وقال الضحاك: النور هُداهم، وبأيمانهم كتبهم، واختاره الطبري[٥].

أي: يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم، وفي أيمانهم كتب أعمالهم، فـ «الباء» على هذا بمعنى «في»، ويجوز على هذا أن يوقف على «بين أيديهم» ولا يوقف إذا كانت بمعنى «عن».

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٥.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٦١، والبحر المحيط ٨/ ٢٠٠، والدر المصون ٦/ ٢٧٥.

(٣) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢٠٧، ١٢٠٨.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٥٨).

(٥) ينظر: جامع البيان ١١/ ٦٧٦.

وعلى قراءة سهل بن شعيب وأبي حيوة: «وبإيمانهم» بكسر الألف، أراد الإيمان الذي هو ضد الكُفر، وعطف ما ليس بظرف على الظَّرف لأن معنى الظرف الحال، وهو متعلق بمحذوف.

والمعنى: يسعى كائناً بين أيديهم، وكائناً بأيمانهم.

وقيل: أراد بالنور: القرآن.

وعن ابن مسعود: «يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يؤتى نوره كالنَّخلة ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره على إبهام رجله، فيطفأ مرة ويوقد أخرى»[١].

قال الحسن: لِيَسْتَضيئُوا به على الصِّراط[٢].

وقال مقاتل: ليكون لهم دليلاً إلى الجنَّة[٣].

قوله: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾.

«بُشْرَاكم» مبتدأ، و «اليوم» ظرف، و «جنَّات» خبره على حذف مضاف أي: دخول جنَّات وهذه الجملة في محل نصب بقول مُقدَّر، وهو العامل في الظرف، يقال لهم: بُشراكم اليوم دخول جنَّات[٤].

قال القرطبي[٥]: «ولا بُدَّ من تقدير حذف المضاف؛ لأن البُشْرَى حدث، والجنة عين، فلا تكون هي هي».

وقال مكي[٦]: وأجاز الفراء نصب «جنَّات» على الحال، ويكون «اليوم» خبر «بشراكم» قال: «وكون «جنَّات» حالاً لا معنى له؛ إذ ليس فيها معنى فعل، وأجاز أن يكون «بُشْرَاكم» في موضع نصب على «يبشرونهم بالبُشْرَى»، وينصب «جنات» بالبشرى وكله بعيد، لأنه يفصل بين الصلة والموصول باليوم». انتهى.

وعجيب من الفرَّاء كيف يصدر عنه ما لا يتعقّل، ولا يجوز صناعة، كيف تكون جنات حالاً، وماذا صاحب الحال؟[٧].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٧٦) والحاكم (٢/ ٤٧٨) عن عبد الله بن مسعود موقوفاً.
وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
وقال الذهبي: على شرط البخاري.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٠) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٠) وعزاه إلى ابن شيبة وابن المنذر.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٥٨) عن مقاتل.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٥. (٥) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٥٨.

(٦) ينظر: المشكل ٢/ ٧١٧، والدر المصون ٦/ ٢٧٥.

(٧) الدر المصون ٦/ ٢٧٥.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ حال من الدخول المحذوف، التقدير: بشراكم اليوم دخول الجنة جنات تجري من تحتها الأنهار مقدرين الخلود فيها.

قال القرطبي[١]: «ولا تكون الحال من «بشراكم» لأن فيه فصلاً بين الصلة والموصول، ويجوز أن تكون مما دلّ عليه البشرى كأنه قال: يبشرون خالدين فيها، ويجوز أن يكون الظَّرف الذي هو «اليوم» خبراً عن «بشراكم»، و «جنات» بدلاً من البشرى على تقدير حذف المضاف كما تقدم، و «خالدين» حال حسب ما تقدم».

فصل في العامل في قوله: «خالدين»

قال شهاب الدِّين[٢]: «خالدين» نصب على الحال، والعامل فيها المضاف محذوف، إذ التقدير: بُشْرَاكم دخولكم جنات خالدين فيها، فحذف الفاعل وهو ضمير المخاطب، [وأضيف المصدر لمفعوله، فصار دخول جنات][٣]، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف فيه مقامه في الإعراب، ولا يجوز أن يكون «بشراكم» هو العامل فيها؛ لأنه مصدر، وقد أخبر عنه قبل ذكر متعلقاته، فيلزم الفصل بأجنبي، وظاهر كلام مكي أنه عامل في الحال، فإنه قال: «خالدين» نصب على الحال من الكاف والميم، والعامل في الحال هو العامل في صاحبها فيلزم أن يكون «بشراكم» هو العامل، وفيه ما تقدم من الفصل بين المصدر ومعموله.

فصل في كون الفاسق مؤمناً أم لا

قال ابن الخطيب: تقدم في الكلام البشارة عند قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥]. وهذه الآية تدل على أن المؤمنين لا ينالهم أهوال يوم القيامة؛ لأنه تعالى بين أن هذه صفتهم يوم القيامة من غير تخصيص[٤].

قال الكعبي: هذه الآية تدلّ على أن الفاسق ليس بمؤمن؛ لأنه لو كان مؤمناً لدخل تحت هذه البشارة، ولو كان كذلك لقطع بأنه من أهل الجنَّة؛ [ولما لم يكن كذلك ثبت أنه ليس بمؤمن][٥].

أجاب ابن الخطيب[٦]: [بأنا نقطع بأن الفاسق من أهل الجنة][٧]، لأنه إما أن يدخل النار، أو أنه ممن دخلها، لكنه سيخرج منها، وسيدخل الجنة، ويبقى فيها أبد الآباد، فإذن يقطع بأنه من أهل الجنة، فسقط الاستدلال.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٥٨.
(٢) الدر المصون ٦/ ٢٧٥.
(٣) سقط من ب.
(٤) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/ ١٩٥.
(٥) سقط من أ.
(٦) التفسير الكبير ٢٩/ ١٩٥.
(٧) سقط من أ.

قوله: «ذلك الفوز» هذه الإشارة عائدة إلى جميع ما تقدم من النور والبشرى بالجنَّات المخلدة.

قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾.

العامل في «يوم» «ذلك الفوز العظيم».

وقيل: «هو بدل من اليوم الأول».

وقال ابن الخطيب[١] منصوب بـ «اذْكر» مقدَّرا.

واعلم أنه لما شرح حال المؤمنين في موقف القيامة أتبع ذلك بشرح حال المنافقين، فقال: يوم يقول.

قوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾. «اللام» للتبليغ.

و «انظرونا نقتبس من نوركم» قراءة العامة: «انْظُرونَا أمر من النَّظر».

وحمزة: «أنْظِرُونا»[٢] بقطع الهمزة، وكسر الظَّاء من الإنظار بمعنى الانتظار.

وبها قرأ الأعمش، ويحيى بن وثَّاب[٣]، أي: انتظرونا لنلحق بكم، فنستضيء بنوركم.

والقراءة الأولى يجوز أن تكون بمعنى هذه، إذ يقال[٤]: نظره بمعنى انتظره، وذلك أنَّه يسرع بالخواص على نُجُب إلى الجنة، فيقول المنافقون: انتظرونا لأنَّا مُشَاة لا نستطيع لحوقكم، ويجوز أن يكون من النظر وهو الإبصار؛ لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم، فيضيء لهم المكان، وهذا أليق بقوله: «نقتبس من نوركم». قال معناه الزمخشري[٥].

إلاَّ أن أبا حيان قال[٦]: إن النَّظر بمعنى الإبصار لا يتعدى بنفسه إلا في الشِّعر، إنما يتعدى بـ «إلى».

قوله: ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: نستضيء من نوركم.

و «القَبَس»: الشعلة من النار أو السِّراج.

قال ابن عبَّاس وأبو أمامة: يغشى الناس يوم القيامة ظلمة[٧].

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/ ١٩٥.

(٢) ينظر: السبعة ٦٢٦، والحجة ٦/ ٢٦٩، وإعراب القراءات ٢/ ٣٥٠، وحجة القراءات ٦٩٩، والعنوان ١٨٦، وشرح شعلة ٥٩٨، وشرح الطيبة ٦/ ٣٩، وإتحاف ٢/ ٥٢١.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٠، والقرطبي ١٧/ ١٥٩.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٦. (٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٧٥.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٢٠.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٧٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥١) وزاد نسبته إلى ابن مردويه والبيهقي في «البعث» عن ابن عباس.

قال الماوردي[١]: أظنّها بعد فصل القضاء، ثم يعطون نوراً يمشون فيه.

قال المفسّرون[٢]: يعطي الله كل أحد يوم القيامة نوراً على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويعطي المنافقين [نوراً خديعة لهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقيل: إنما يعطون النور؛ لأن جميعهم أهل دعوة][٣] دون الكافر، ثم يسلب المنافق نوره لنفاقه. قاله ابن عباس.

وقال أبو أمامة: يعطى المؤمن النور، ويترك الكافر والمنافق بلا نور.

وقال الكلبي: بل يستضيء المنافق بنور المؤمنين، [فبينما هم يمشون إذ بعث الله ريحاً وظلمة فأطفأ بذلك نور المنافقين، فذلك قول المؤمنين][٤]: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨] خشية أن يسلبوه كما سلبه المنافقون، فإذا بقي المنافقون في الظلمة، فإنهم لا يبصرون مواضع أقدامهم، قالوا للمؤمنين: «انظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ». قيل: ارجعُوا «وراءكم»، أي: إلى المواضع التي أخذنا منها النور، فاطلبوا هناك نوراً لأنفسكم، فإنكم لا تقتبسون من نورنا، فلما رجعوا وانعزلوا في طلبِ النور «ضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ»[٥].

وقيل: معناه هلاّ طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا؟[٦].

قوله: «وراءكم» فيه وجهان[٧]:

أظهرهما: أنه منصوب بـ «ارجعوا» على معنى ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور، فالتمسوا هناك ممن يقتبس، أو ارجعوا إلى الدُّنيا فالتمسوا نوراً بتحصيل سببه، وهو الإيمان، أو يكون معناه: فارجعوا خائبين وتنحّوا عنّا فالتمسوا نوراً آخر، فلا سبيل لكم إلى هذا النور.

والثاني: أن «وَرَاءكُم» اسم للفعل فيه ضمير فاعل، أي: ارجعوا «رجوعاً» قاله أبو البقاء[٨].

ومنع أن يكون ظرفاً لـ «ارجعوا».

قال: لقلّة فائدته؛ لأن الرُّجوع لا يكون إلاّ إلى وراء.

قال شهاب الدين[٩]: «وهذا فاسد؛ لأن الفائدة جليلة كما تقدم شرحها».

---

(١) ينظر: النكت والعيون ٥/ ٤٧٤.
(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٥٩.
(٣) سقط من أ.
(٤) سقط من أ.
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٥٩) عن الكلبي.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٥٩.
(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٦.
(٨) ينظر التبيان في إعراب القرآن ص ١٢٠٨.
(٩) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٦.

قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾.

العامة على بنائه للمفعول، والقائم مقام الفاعل يجوز أن يكون «بِسُورٍ» وهو الظاهر، وأن يكون الظرف.

وقال مكي[١]: «الباء» مزيدة، أي: ضرب سور. ثم قال: «والباء متعلقة بالمصدر أي: ضرباً بسور».

وهذا متناقض[٢]، إلاَّ أن يكون قد غلط عليه من النساخ، والأصل: والباء متعلقة بالمصدر، والقائم مقام الفاعل الظرف، وعلى الجملة هو ضعيف، والسور: البناء المحيط وتقدم اشتقاقه في أول البقرة[٣].

قوله: «لَهُ بابٌ». مبتدأ وخبر في موضع جرّ صفة لـ «سُور».

وقوله: ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ هذه الجملة يجوز أن تكون في موضع جر صفة ثانية لـ «سور»، ويجوز أن تكون في موضع رفع صفة لـ «باب»، وهو أولى لقربه، والضمير إنما يعود إلى الأقرب إلا بقرينة[٤].

وقرأ زيد بن علي[٥]، **وعمرو بن عبيد**: «فضرب» مبنيًّا للفاعل، وهو الله أو الملك.

فصل في المراد بالسور

«السور»: حاجز بين الجنة والنار.

قال القرطبي[٦]: «روي أن ذلك السُّور بـ «بيت المقدس» عند موضع يعرف بـ «وادي جهنم» فيه الرَّحْمَة يعني: ما يَلِي منه المؤمنين، وظاهره من قبله العذاب يعني: ما يلي المنافقين».

قال كعب الأحبار رضي الله عنه: هو الباب الذي بـ «بيت المقدس» المعروف بـ «باب الرحمة».

وقال عبد الله بن عمرو: إنه سور بـ «بيت المقدس» الشرقي، باطنه فيه المسجد، وظاهره من قبله العذاب، يعني: جهنم ونحوه عن ابن عباس[٧].

---

(١) ينظر: المشكل ٢/ ٧١٨.
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٦.
(٣) آية رقم (٢٣).
(٤) ينظر: السابق.
(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٢١، والدر المصون ٦/ ٢٧٦.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٦٠.
(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٧٨) والحاكم (٤/ ٦٠١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. =

وقال زياد بن أبي سوادة: قام عبادة بن الصَّامت على سُور بـ «بيت المقدس» الشرقي فبكى، وقال: من هاهنا أخبرنا رسول الله ﷺ أنه رأى جهنم[١].

وقال قتادة: هو حائط بين الجنَّة والنار، «باطنه فيه الرحمة» يعني: الجنة، «وظاهره من قبله العذاب» يعني: جهنم[٢].

وقال مجاهد: إنَّه حجاب. كما في «الأعراف» وقد مضى القول فيه.

وقد قيل: إن الرحمة التي في باطنه نور المؤمنين، والعذاب الذي هو في ظاهره ظلمة المنافقين.

وقيل: السُّور عبارة عن منع المنافقين عن طلبِ المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله: ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ يجوز أن يكون حالاً من الضمير في «بينهم». قاله أبو البقاء[٣].

وهو ضعيف[٤] لمجيء الحال من المضاف إليه في غير المواضع المستثناة.

= وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٢) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر.

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٢) وعزاه لعبد بن حميد عن عبادة بن الصامت وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٩) من طريق محمد بن ميمون عن بلال بن عبد الله عن عبادة.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
ورده الذهبي فقال: بل منكر وآخره باطل لأنه ما اجتمع عبادة برسول الله ﷺ هناك ثم من هو ابن ميمون وشيخه وفي نسخة أبي مسعر، عن سعيد عن زياد بن أبي سوادة قال: رئي عبادة بن الصامت ببيت المقدس يبكي وقال: من ها هنا أخبرنا رسول الله ﷺ رأى جهنم فهذا المرسل أجود.
والطريق المرسل هو الذي ذكره المؤلف.
قلت: وفي سماع زياد من عبادة كلام وقد توقف أبو حاتم في سماعه منه.
انظر جامع التحصيل ص (١٧٨).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٧٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٢) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢٠٨. (٤) الدر المصون ٦/ ٢٧٧.

وأن تكون مستأنفة، وهو الظاهر.

وقوله: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يجوز أن يكون تفسيراً للنداء، وأن يكون منصوباً بقول مقدّر.

فصل في معنى الآية(١)

والمعنى: ينادي المنافقون المؤمنين «ألم نَكُنْ معكم» يعني: في الدنيا نصلّي مثل ما تصلّون، ونغزو مثل ما تَغْزُون، ونفعل مثل ما تفعلون؟.

«قالوا: بَلَى»، أي: يقول المؤمنون: بلى، قد كُنتم معنا في الظَّاهر، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: استعملتموها في الفتنة.

وقال مجاهد: أهلَكْتمُوهَا بالنِّفاق(٢).

وقيل: بالمعاصي. قاله أبو سنان. وقال أبو نمير الهمداني: بالشهوات واللّذَّات.

وقوله: «وتربّصتم» أي: بالنبي ﷺ الموت، وبالمؤمنين الدَّوائر.

وقيل: تربَّصتم بالتوبة.

«وارْتَبْتُمْ» أي: شككتم في التوحيد، أو النبوة، أو البعث.

«وغرَّتكم الأماني» أي: الأباطيل.

وقيل: طول الأمل، وهو ما كانوا يتمنّونه من ضعف المؤمنين، ونزول الدَّوائر بهم.

وقال قتادة: الأماني هنا خدعُ الشيطان(٣).

وقيل: الدنيا، قاله عبد الله بن عباس(٤).

وقال أبو سنان: هو قولهم: «سيغفر لنا».

وقال بلال بن سَعْدٍ: ذكرك حسناتك، [ونسيانك](٥) سيئاتك غِرَّةً «حتَّى جاء أمر الله» يعني: الموت.

وقيل: نُصْرة نبيه ﷺ(٦).

وقال قتادة: إلقاؤهم في النَّار(٧).

قوله: ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٦٠.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٦٠) عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٨٠) عن قتادة ومجاهد وابن زيد.
وذكره القرطبي (١٧/ ١٦٠) عن قتادة.

(٤) ينظر: تفسير القرطبي (١٧/ ١٦٠).

(٥) سقط من أ.

(٦) ينظر: المصدر السابق.

(٧) ينظر: المصدر السابق.

قرأ العامة: «الغَرُور» بفتح الغين، وهو صفة على «فعول»، والمراد به: الشَّيْطان، أي: خدعكم بالله الشيطان.

وقرأ أبو حيوة، ومحمد[١] **بن السميفع، وسماك بن حَرْب**: «الغُرُور» بالضم، وهو مصدر، والمراد به الأباطيل.

عن ابن عباس أن النبي ﷺ خطَّ لنا خُطُوطاً، وخط منها خطًّا ناحية، فقال: «أتَدْرُونَ مَا هَذَا؟ هَذَا مِثْلُ ابْنِ آدَمَ ومِثْلُ التمنِّي، وتِلْكَ الخُطُوطُ الآمَالُ، بَيْنَمَا يتمنَّى إذْ جَاءَهُ المَوْتُ»[٢].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ لنا رسول ﷺ خطًّا مربَّعاً وخط في وسطه خطًّا، وجعله خارجاً منه، وخط عن يمينه ويساره خطوطاً صغاراً، فقال: «هَذَا ابْنُ آدَمَ وهَذَا أجَلُهُ يُحيطُ بِهِ، وهذا أمَلُهُ قَدْ جَاوَزَ أجَلَهُ، وهذه الخُطُوطُ الصِّغَارُ الأعْرَاضُ، فإنْ أخْطَأهُ هذا نَهَشَهُ هذا»[٣].

قوله: «فَاليَوْمَ» منصوب بـ «يؤخذ»، ولا يبالى بـ «لا» النافية، وهو قول الجمهور[٤] وقد تقدم آخر «الفاتحة» ثلاثة أقوال. وقرأ ابن عامر[٥]: «تؤخذ» بالتأنيث للفظ الفدية.

والباقُون: بالياء من تحت؛ لأن التأنيث مجازي.

فصل في المراد بالفدية

قوله: «فاليوم لا يؤخذ منكم فدية» أيها المنافقون، «ولا من الذين كفروا» أي: أيأسهم من النَّجاة. والمراد بالفدية قيل: لا يقبل منكم إيمان، ولا توبة؛ لأن التكليف قد زال وحصل الإلحاد.

وقيل: لا يقبل منكم فدية تدفعون بها العذاب عن أنفسكم كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، والفدية: ما يفتدى به، فهو يتناول الإيمان والتوبة والمال.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٣، والبحر المحيط ٨/ ٢٢١، والدر المصون ٦/ ٢٧٧.
(٢) أخرجه البخاري ١١/ ٢٣٩ كتاب الرقاق، باب: في «الأمل» وطوله حديث رقم (٦٤١٨) من حديث أنس.
(٣) أخرجه البخاري ١١/ ٢٣٩ كتاب الرقاق، باب: في الأمل وطوله (٦٤١٧) والترمذي ٤/ ٥٤٨ كتاب صفة القيامة، باب: (٢٢) (٢٤٥٤) وابن ماجه في المصدر السابق (٤٢٣١) والدارمي ٢/ ٣٠٤.
(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٧.
(٥) ينظر: إعراب القراءات السبع ٢/ ٣٥٢، وحجة القراءات ٧٠٠، والعنوان ١٨٦، وشرح شعلة ٥٩٨، وشرح الطيبة ٦/ ٤٠، وإتحاف ٢/ ٥٢١.

قال ابن الخطيب[١]: وهذا يدلُّ على أن قبُول التَّوبة غير واجب عقلاً على ما يقوله المعتزلة؛ لأنه ـ تعالى ـ بين أنه لا يقبل الفدية أصلاً، والتوبة فدية، فتكون الآية دالة على أنَّ التوبة غير مقبولة أصلاً، وإذا كان كذلك لم تكن التوبة واجبة القبول عقلاً.

قوله: ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوأْ﴾.

عطف الكافر على المنافق، والعطف يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، فيقتضي أن يكون المنافق كافراً؟.

وأجيب بأن المراد منه الذين أظهروا الكفر، وإلاَّ فالمنافق كافر.

قوله: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: هي مصيركم.

وقوله: ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ يجوز أن يكون مصدراً أي: ولايتكم، أي: ذات ولايتكم.

قال القرطبي[٢]: «تملك أمرهم، بمعنى أن الله ـ تعالى ـ يركب فيها الحياة والعقل، فهي تتميز غيظاً على الكُفَّار، ولهذا خوطبت في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

ويجوز أن يكون مكاناً، أي: مكان ولايتكم، وأن يكون بمعنى أولى بكم، كقوله تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ قاله الكلبي، وهو قول الزجاج والفراء وأبي عبيدة».

قال ابن الخطيب[٣]: وهذا الذي قالوه معنى، وليس تفسيراً للفظ، لأنه لو كان «مولى وأولى» بمعنى واحد في اللغة لصحّ استعمال كل واحد منهما مكان الآخر، وكان يجب أن يصحّ أن يقال: هذا أولى فلان، كما يقال: مولى فلان، ولما بطل ذلك علمنا أن الذي قالوه معنًى، وليس بتفسير، وإنما نبّهنا على هذه الدقيقة؛ لأن الشريف المرتضى لما تمسك في إمامة علي ـ رضي الله عنه ـ بقوله ﷺ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فعليٌّ مَولاهُ»[٤] قال: أحد معاني «مولى» أنه أولى. واحتج في ذلك بأقوال أئمة اللغة في تفسير هذه الآية، بأن «مولى» معناه «أولى» إذا ثبت أن اللفظ محتمل له وجب حمله عليه؛ لأن ما

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/١٩٨. (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧/١٦١.

(٣) التفسير الكبير ٢٩/١٩٨.

(٤) أخرجه النسائي في خصائص عليّ (ص ١٥) وأحمد (٣/١٠٩) والحاكم (٣/١٠٩) وابن حبان (٢٢٠٥ ـ موارد) وابن أبي عاصم في السنة (١٣٦٥) والطبراني (٤٩٦٩، ٤٩٧٠) من طرق عن زيد بن أرقم.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وصححه ابن حبان.

وفي الباب عن جماعة من الصحابة تنظر أحاديثهم في مجمع الزوائد (٩/١٠٧) وسلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/٣٣٠).

وقد خرجنا جميع أحاديث هؤلاء في تعليقنا على كتاب الكامل لابن عدي.

عداه إمَّا بَيِّنُ الثبوت ككونه ابن العم والنَّاصر، أو بَيِّنُ الانتفاء كالمعتِق، والمعتَق، فيكون على التقدير الأول عبثاً، وعلى الثاني كذباً.

قال ابن الخطيب[1] رحمه الله: وأما نحن فقد بيَّنا بالدليل أن قول هؤلاء في هذا الموضع معنى لا تفسير، وحينئذ يسقط الاستدلال به.

وفي الآية وجه آخر، وهو أن معنى قوله: «هي مولاكم» أي: لا مولى لكم؛ لأن من كانت النار مولاه، فلا مولى له، كما يقال: ناصره الخذلان ومعينه البكاء، أي: لا ناصر له ولا معين، وهذا متأكد بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، ومنه قوله تعالى: ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: هي، ومعناه[2]: ساءت مرجعاً ومصيراً.

قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾.

قرأ العامة: «ألم». **وقرأ الحسن[3] وأبو السمال**: «ألمَّا».

وأصلها «ألم» زيدت عليها «ما»، فهي نفي كقول القائل: قد كان كذا، و «لم» نفي، كقوله: قد كان كذا.

وقوله: ﴿أَن تَخْشَعَ﴾. فاعل «يأن»، أي: ألم يقرب خشوع قلوبهم ويحينُ[4]؛ قال الشاعر: [الطويل]

٤٧٢٠ ـ أَلَمْ يَأْنِ لِي يا قَلْبُ أنْ أتْرُكَ الجَهْلاَ ... وأنْ يُحْدِثَ الشَّيْبُ المُبِينُ لنَا عَقْلا[5]

وماضيه «أنى» بالقصر «يأني».

ويقال: «آن لك ـ بالمد ـ أن تفعل كذا، يَئِينُ أيْناً» أي: مثل «أنى لَكَ» وهو مقلوب منه.

وأنشد ابن السِّكِّيت: [الطويل]

٤٧٢١ ـ ألَمَّا يَئِنْ لِي أنْ تُجَلَّى عَمايَتِي ... وأقْصُرُ عَنْ لَيلَى بَلَى قَدْ أنَى لِيَا[6]

فجمع بين اللغتين.

وقرأ العامة: «يأن» مضارع «أنى» أي: حان وقرب، مثل رمى يرمي.

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/ ١٩٩.

(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٦١.

(٣) وروي عن الحسن أنه قرأ «ألم يين»، ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٢، والدر المصون ٦/ ٢٧٧، والقرطبي ١٧/ ١٦١، وإتحاف ٢/ ٥٢٢.

(٤) ينظر: القرطبي (السابق).

(٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٦١.

(٦) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٦١.

والحسن[١]: «يئن» مضارع «آن» بمعنى «حان» أيضاً، مثل: «باع يبيع».

و «اللام» للتبيين. قاله أبو البقاء، فعلى هذا يتعلق بمحذوف، أي: أعني للذين.

فصل في نزول هذه الآية

في «صحيح مسلم»، عن ابن مسعُود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلا أربع سنين.

قال الخليل[٢]: العِتَاب مخاطبة الإذلال، ومذاكرة الموجدة. تقول: عاتبت معاتبة.

«أن تخْشعَ»، أي: تذل وتلين ﴿قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

وروي أن المزاح والضحك كثر في أصحاب رسول الله ﷺ لما ترفهوا بـ «المدينة» فنزلت الآية، ولما نزلت هذه الآية قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله يَسْتَبْطِئكُمُ بالخُشُوعِ» فقالوا عند ذلك: خشعنا[٣].

وقال ابنِ عباس رضي الله عنهما: إنَّ الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن[٤].

وقيل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة، وذلك لما سألوا سلمان أن يحدثهم بعجائب التوراة، فنزلت: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ١، ٢، ٣] فأخبرهم أن القصص أحسن من غيره، وأنفع لهم، فكفُّوا عن سلمان، ثم سألوه مثل الأول، فنزلت: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الآية، فعلى هذا التأويل يكون ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في العلانية باللسان][٥].

وقال السُّدي وغيره: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالظَّاهر وأسرُّوا الكفر ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

وقيل: نزلت في المؤمنين.

قال سعد: قيل: يا رسول الله، لو قصصت علينا؟ فنزل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ فقالوا بعد زمان: لو حدثتنا، فنزل قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر:

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٤، والكشاف ٤/ ٤٧٧، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٢، والدر المصون ٦/ ٢٧٧.

(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ٢٤٨.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٤) وعزاه إلى ابن أبي شيبة في «المصنف» عن عبد العزيز بن أبي رواد أن أصحاب النبي ﷺ.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٤) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٥) سقط من أ.

٢٣] فقالوا بعد مدة: لو ذكرتنا، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

وقيل(١): هذا خطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لأنه قال عقيبه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ أي: ألم يأن للذين آمنوا بالتوراة والإنجيل أن تلين قلوبهم للقرآن، وألاً يكونوا كمتقدمي قوم موسى وقوم عيسى؛ إذ طال عليهم الأمد بينهم وبين نبيهم، فقَسَتْ قلوبهم.

قوله: ﴿وَمَا نَزَلَ﴾.

قرأ نافع وحفص: «نَزَل» مخففاً مبنيًّا للفاعل.

وباقي السبعة كذلك إلا(٢) أنها مشددة.

والجحدري وأبو جعفر والأعمش وأبو عمرو في رواية(٣): «ما نزّل» مشدداً مبنيًّا للمفعول.

وعبد الله(٤): «أنْزَل» مبنيًّا للفاعل، وهو الله تعالى.

و «ما» في قراءة «ما نزل» مخففاً، يتعين أن تكون اسمية، ولا يجوز أن تكون مصدرية لئلا يخلو الفعل من الفاعل، وما عداها يجوز أن تكون مصدرية، وأن تكون بمعنى «الذي».

فإن قلت(٥): فقراءة الجحدري ومن معه ينبغي أن تكون فيها اسمية لئلاً يخلو الفعل من مرفوع؟ فالجواب: أن الجار وهو قوله: «من الحقّ» يقوم مقام الفاعل.

فصل في معنى الآية

قال ابن الخطيب(٦): يحتمل أن يكون المراد بذكر الله، وما نزل من الحق هو القرآن؛ لأنه جامع للوصفين الذِّكر والموعظة، وأنه حق نازل من السماء، ويحتمل أن يكون المراد هو ذكر الله مطلقاً، و «ما نزل من الحقّ» هو القرآن، وإنما قدم الخشوع بالذكر على الخشوع بما نزل من القرآن؛ لأن الخشوع والخوف والخشية لا تحصل إلا عند ذكر الله تعالى، فأما حصولها عند سماع القرآن، فذلك لأجل اشتمال القرآن على ذكر الله.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٦٢.

(٢) ينظر: السبعة ٦٢٦، والحجة ٦/ ٢٧٣، ٢٧٤، وإعراب القراءات ٢/ ٣٥١، وحجة القراءات ٧٠٠، والعنوان ١٨٦، وشرح شعلة ٥٩٨، وشرح الطيبة ٦/ ٤٠، وإتحاف ٢/ ٥٢٢.

(٣) ينظر السابق، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٢، والدر المصون ٦/ ٢٧٧، والتخريجات النحوية ٢٧٧.

(٤) السابق.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٧.

(٦) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٠٠.

قوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾.

قرأ العامة: بالغيبة جرياً على ما تقدم.

وأبو حيوة، وابن أبي[١] **عبلة**: بـ «التاء» من فوق على سبيل الالتفات.

قال القرطبي[٢]: وهي رواية رويس عن يعقوب، وهي قراءة عيسى، وابن إسحاق.

ثم هذا يحتمل أن يكون منصوباً عطفاً على «يخشع» كما في قراءة الغيبة، وأن يكون نهياً، فتكون «لا» ناهية والفعل مجزوم بها.

ويجوز أن يكون نهياً في قراءة الغيبة أيضاً، ويكون ذلك انتقالاً إلى نهي أولئك المؤمنين عن كونهم مشبهين لمن تقدمهم نحو «لا يَقُمْ زيد»[٣].

قوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾.

قرأ العامة: بتخفيف الدال بمعنى الغاية، كقولك: أمد فلان، أي: غايته.

وقرأ ابن كثير في[٤] **رواية** بتشديدها؛ وهو الزمن الطَّويل.

فصل في معنى الآية[٥]

معنى الآية لا تسلكوا سبيل اليهود والنصارى أعطوا التوراة والإنجيل، فطالت الأزمان لهم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمدُ قست قلوبهم، فاخترعوا كتاباً من عند أنفسهم استحلته أنفسهم، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم حتَّى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، كأنهم لا يعلمون، ثم اصطلحوا على أن يرسلوه إلى عالم من علمائهم، وقالوا: إن هو تابعنا لم يخالفنا أحد، فإن أبى قتلناه، فلا يختلف علينا بعده أحد، فأرسلوا إليه، فكتب كتاب الله في ورقةٍ، وجعلها في عنقه، ثم لبس عليه ثياباً وأتاهم، فعرضوا عليه كتابهم، وقالوا: أتؤمن بهذا؟ فضرب بيده على صدره وقال: آمنت بهذا ـ يعني المعلق على صدره ـ فافترقت بنو إسرائيل على بضع وسبعين [ملة]، وخير مللهم أصحاب ذي القرن[٦]؛ قال عبد الله: ومن يَعِشْ منكم

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٤، وقال ابن عطية: «وقرأ حمزة فيما روى عنه سليم ولا تكونوا بالتاء على مخاطبة الحضور».
وينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٢٢، والدر المصون ٦/ ٢٢٧، وإتحاف فضلاء البشر ٢/ ٥٢٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٦٢. (٣) الدر المصون ٦/ ٢٧٧.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٢٢، والدر المصون ٦/ ٢٧٧.

(٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٦٢.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٥) وعزاه إلى سعيد بن منصور والبيهقي في «شعب الإيمان».

فسيرى منكراً، ويجب على أحدكم إذا رأى المنكر لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كارهٌ.

وقال مقاتل: يعني مؤمني أهل الكتاب طال عليهم الأمدُ، واستبطئوا بعث النبي ﷺ «فَقَسَتْ قُلوبهُمْ، وكثيرٌ منهُم فاسِقُونَ» يعني: الذين ابتدعوا الرَّهبانية أصحاب الصوامع[1].

وقيل: من لا يعلم ما يتديّن به من الفقه، ويخالف من يعلم.

[وقيل: هم من لا يؤمن في علم الله تعالى، وقال ابن عباس: مالوا إلى الدنيا، وأعرضوا عن مواعظ الله[2].

وقيل:][3] طالت أعمارهم في الغفلة، فحصلت القَسْوة في قلوبهم بذلك السبب.

[وقيل غير ذلك.

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين،][4] وكأنه أشار إلى أن عدم الخشوع في أول الأمر يفضي إلى الفِسْقِ في آخر الأمر.

قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

أي: يحييها بالمطر.

وقال صالح المري: يلين القلوب بعد قسوتها.

وقال جعفر بن محمد: يحييها بالعدلِ بعد الجورِ.

وقيل: المعنى[5]: وكذلك يحيي الكافر بالهدى إلى الإيمان بعد الكفر والضلالة.

وقيل: كذلك يحيي الموتى من الأمم، ويميز بين الخاشع قلبه، وبين الفاسق قلبه.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: إحياء الله الأرض بعد موتها دليل على قدرة الله، وأنه يحيي الموتى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٦٢). (٢) ينظر: المصدر السابق.

(٣) سقط من أ. (٤) سقط من أ.

(٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٦٣.

أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾.

خفف الصاد[١] **منهما ابن كثير**، وثقلها باقي السَّبعة.

فقراءة ابن كثير من التصديق، أي: صدقوا رسول الله ﷺ فيما جاء به، كقوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٣]، وقراءة الباقين من الصدقة وهو مناسب لقوله: «وأقرضوا» والأصل: المتصدّقين والمتصدّقات، فأدغم، وبها قرأ أبي[٢].

وقد يرجح الأول بأن الإقْرَاض مُغنٍ عن ذكر الصدقة.

قوله: «وأقْرَضُوا» فيه ثلاثة أوجه[٣]:

[أحدها][٤]: أنه معطوف على اسم الفاعل في «المصدّقين»؛ لأنه لما وقع صلة لـ «ال» حل محل الفعل، كأنه قيل: إن الذين صدقوا وأقرضوا، وعليه جمهور المعربين، وإليه ذهب الفارسي[٥]، والزمخشري[٦]، وأبو البقاء[٧].

وهو فاسد؛ لأنه يلزم الفصل بين أبعاض الصِّلة بأجنبي، ألا ترى أنَّ «المصدقات» عطف على «المصدقين» قبل تمام الصِّلة، ولا يجوز أن يكون عطفاً على «المصدقات» لتغايُر الضمائر تذكيراً وتأنيثاً.

الثاني: أنه معترض بين اسم «إن» وخبرها، وهو «يضاعف».

قال أبو البقاء[٨]: «وإنما قيل ذلك لئلاً يعطف الماضي على اسم الفاعل».

قال شهاب الدين[٩]: «ولا أدري ما هذا المانع؛ لأن اسم الفاعل متى وقع صلة لـ «ال» صلح للأزمنة الثلاثة، ولو منع بما ذكرته من الفصل بأجنبي لأصاب، ولكن خفي عليه كما خفي على الفارسي والزمخشري».

---

(١) ينظر: السبعة ٦٢٦، والحجة ٦/ ٢٧٤، وإعراب القراءات ٢/ ٣٥١، وحجة القراءات ٧٠١، والعنوان ١٨٦، وشرح شعلة ٥٩٨، وشرح الطيبة ٦/ ٤١، وإتحاف ٢/ ٥٢٢.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٥، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٢، والدر المصون ٦/ ٢٧٨.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٨.

(٤) سقط من أ.

(٥) الحجة ٦/ ٢٧٥.

(٦) الكشاف ٤/ ٤٧٨.

(٧) الإملاء ٢/ ١٢٠٩.

(٨) السابق ٢/ ١٢٠٩.

(٩) الدر المصون ٦/ ٢٧٨.

الثالث: أنه صلةٌ لموصول محذوف لدلالة الأول عليه، كأنه قيل: «الذين أقرضوا»؛ كقوله: [الوافر]

٤٧٢٢ ـ **أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ ... وَيَنْصُرُهُ وَيَمْدَحُهُ سَوَاءُ؟**[١]

أي: ومن ينصره، واختاره أبو حيان[٢].

قال ابن الخطيب[٣]: وفي الآية إشكال، وهو أن عطفه الفعل على الاسم قبيحٌ، فما فائدة التزامه هنا؟.

وأجاب بأن الزمخشري قال: «وأقرضوا» معطوف على معنى الفعل في التصديق؛ لأن «اللام» بمعنى «الذين»، واسم الفاعل بمعنى «صدقوا وأقرضوا».

قال: وهذا لا يزيل الإشكال، فإنه ليس فيه بيان أنه لم عدل عن ذلك اللفظ [إلى هذا اللفظ][٤].

والذي عندي فيه أن الألف واللام في «المصدّقين والمصدّقات» للمعهود، فكأنه ذكر جماعة معينين بهذ الموصف، ثم قبل ذكر الخبر أخبر عنهم بأنهم أتوا بأحسن أنواع الصدقة، وهو القرضُ، ثم ذكر الخبر بعد ذلك فقال: «يُضَاعَفُ لَهُمْ».

فقوله: «وأقرضوا»؛ كقوله: [السريع]

٤٧٢٣ ـ **إِنَّ الثَّمَانِينَ وبُلِّغْتَهَا** ....[٥]

قوله: ﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمۡ﴾ في القائم مقام الفاعل وجهان[٦]:

أظهرهما: أنه الجار بعده.

والثاني: أنه ضمير التصديق، ولا بد من حذف مضاف، أي: ثواب التصديق.

وقرأ الأعمش[٧]: «يُضَاعِفُهُ» بكسر العين، وزيادة هاء.

وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب[٨]: «يُضَعَّفُ» بتشديد العين وفتحها.

﴿وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ يعني: الجنة.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مبتدأ، و «أولئك» مبتدأ ثانٍ، و «هم» يجوز أن يكون مبتدأ ثالثاً، و «الصديقون» خبره، وهو مع خبره خبر الثاني، والثاني وخبره خبر الأول، ويجوز أن يكون «هم» فصلاً، و «أولئك» وخبره خبر الأول[٩].

---

(١) تقدم.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٢٢.

(٣) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٠١.

(٤) سقط من ب.

(٥) تقدم.

(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٨.

(٧) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٦٤.

(٨) ينظر: العنوان ١٨٦، وإتحاف ٢/ ٥٢٢، والقرطبي ١٧/ ١٦٤.

(٩) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٨٧.

«والصِّديق»: هو الكثير الصِّدق.

وقال مجاهد: من آمن بالله ورسوله فهو صديق، وتلا هذه الآية(١).

وقال الضحاك: هم ثمانية نفر من هذه الأمة سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام: أبو بكر، وعلي، وزيد، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وحمزة، وتاسعهم عمر بن الخطاب، ألحقه الله بهم لما عرف من صدق نيته(٢).

قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾. يجوز فيه وجهان:

أحدهما: أنه معطوف على ما قبله، ويكون الوقف على «الشهداء» تامًّا، أخبر عن «الذين آمنوا» أنهم صديقون شهداء.

فإن قيل: الشهداء مخصوصون بأوصاف أخر زائدة على ذلك كالتسعة المذكورين.

أجيب: بأن تخصيصهم بالذكر لشرفهم على غيرهم لا للحصر.

والثاني: أنه مبتدأ، وفي خبره وجهان:

أحدهما: أنه الظرف بعده.

والثاني: أنه قوله «ولهم أجرهم»، إما الجملة، وإما الجار وحده، والمرفوع فاعل به، والوقف لا يخفى على ما ذكرناه من الإعراب.

والصِّدِّيق: مثال مبالغة، ولا يجيء إلا من ثلاثي غالباً.

قال بعضهم: وقد جاء «مِسِّيك» من «أمسك»، وهو غلط؛ لأنه يقال: «مسك» ثلاثياً، فـ «مسّيك» منه.

فصل في المراد بالصديقين والشهداء(٣)

قال مجاهد وزيد بن أسلم: إن الشهداء والصديقين هم المؤمنون، وأنه متصل، وروي معناه عن النبي ﷺ وهذا قول ابن مسعود في تأويل الآية(٤).

قال القشيري: قال الله تعالى: «فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين».

فـ «الصديقون» هم الذين يلون الأنبياء.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٦) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد.
وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٩٨).

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٩٨). (٣) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٦٤.

(٤) أخرجه الطبري (١١/ ٦٨٣) عن البراء بن عازب مرفوعاً بلفظ: «مؤمنو أمتي شهداء» ومثله عن ابن مسعود موقوفاً أخرجه الطبري (١١/ ٦٨٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٦) وعزاه إلى عبد بن حميد.

و «الشهداء» هم الذين يلون الصديقين و «الصالحون» يلون الشهداء، فيجوز أن تكون هذه الآية في جملة من صدق بالرسل.

والمعنى: والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء، ويكون المعني بالشهداء من شهد لله بالوحدانية، أنهم شهداء عند ربهم على العباد في أعمالهم، والمراد أنهم عدول في الآخرة الذين تقبل شهاداتهم.

وقال الحسن: كل مؤمن فإنه شهيد كرامة[١].

وقال الفراء والزجاج[٢]: هم الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وقال ابن جرير: «الشهداء» هم الذين استشهدوا في سبيل الله[٣].

وروي عن النبي ﷺ قال: «ما تَعُدُّون الشُّهداء فيْكُمْ»؟ قالوا: المقتول، فقال: «إنَّ شُهَداء أمَّتِي إذاً لقَلِيلٌ»[٤].

وعلى هذا يكون منقطعاً عما قبله، وتكون «الواو» في «والشهداء» واو الاستئناف، وهذا مروي عن ابن عباس ومسروق.

وقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ مما عملوا من العمل الصالح. و «نورهم» على الصراط.

ثم لما ذكر حال المؤمنين أتبعه بذكر حال الكافرين[٥]، فقال: «والذين كفروا وكذبوا بآياتنا، أولئك أصحاب الجحيم». ولما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين ذكر بعده ما يدلّ على حقارة الدنيا، وكمال حال الآخرة، فقال:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

«ما» صلة، أي: حياة هذه الدار لعبٌ باطل لا حاصل له، وهو فرح ثم ينقضي، وزينة ومنظر تتزيّنُون به.

قوله: ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾.

العامة على تنوين «تَفَاخُر» موصوف بالظرف، أو عامل فيه.

والسلمي[٦] أضافه إليه، أي: يفخر به بعضكم على بعض.

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٩٨). (٢) ينظر: معاني القرآن له ٥/ ١٢٦.

(٣) ينظر: جامع البيان ١١/ ٦٨٤.

(٤) أخرجه مسلم (٣/ ١٥٢١) كتاب الإمارة، باب: بيان الشهداء حديث (٦٥/ ١٩١٥) من حديث أبي هريرة.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٠٢.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٢٣، والدر المصون ٦/ ٢٧٩.

قال المفسرون[١]: «اللّعب»: الباطل، «واللّهو»: الفرح.

وقال قتادة: «لعب ولهو»: أكل وشرب[٢].

وقال مجاهد: كل لعب لهو[٣].

وقيل: «اللعب»: ما رغب في الدنيا، «واللّهو»: ما ألهى على الآخرة.

قوله: ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾.

قال ابن عبَّاس: يجمع المال في سخطِ الله، ويباهي به على أولياء الله، ويصرفه في مساخط الله، فهي ظلمات بعضها فوق بعض، وكان من عادة الجاهلية أن يتكاثروا بالأموال والأولاد[٤].

قال بعض المتأخرين: «لعب» كلعب الصبيان، «ولهو» كلهو الفتيان «وزينة» كزينة النِّسْوان «وتفاخُر» كتفاخُر الأقران «وتَكاثُر» كتكاثُر الدُّهقان.

وقال علي ـ رضي الله عنه لـ «عمار»: لا تحزن على الدُّنيا، فإن الدنيا ستة أشياء: مأكول، ومشروب، وملبوس، ومشموم، ومركوب، ومنكُوح، فأحسن طعامها العسل، وهو بزقةُ ذبابة، وأكثر شرابها الماء، ويستوي فيه جميع الحيوان، وأفضل ملبوسها الدِّيباج وهو نسج دودة، وأفضل المشموم المِسْك وهو دم فأرة، وأفضل مركوبها الفرس، وعليها يقتل الرِّجال، وأما المنكوح فهو النساء وهو مبال في مَبال، والله إن المرأة لتزين أحسنها يراد به أقبحها[٥].

ثم ذكر تعالى لهذه الحياة مثلاً، فقال: «كمثل غيثٍ» أي: مطر «أعجب الكُفَّار نباتُهُ».

قال ابن مسعود: المراد بـ «الكُفَّار» هنا: الزُّرَّاع[٦].

وقال الأزهري[٧]: والعرب تقول للزَّارع: كافر؛ لأنه يكفرُ البَذْر [المبذور في الأرض][٨] بتراب الأرض، أي: يغطّيه.

والمعنى[٩]: أن الحياة الدُّنيا كالزَّرع يعجب النَّاظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيماً كأن لم يكن.

وقيل: المراد بالكُفَّار هنا هم الكُفَّار بالله، وهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا من المؤمنين.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٦٥.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٦٥) عن قتادة.

(٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٩/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٦٥).

(٦) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٩/ ٢٠٤).

(٧) الرازي ٢٩/ ٢٠٤.

(٨) في أ: بتراب يستره.

(٩) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٦٥.

وقوله: «نَبَاتُهُ» أي: ما ينبت من ذلك الغَيْث.

قوله: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾.

يجوز أن يكون في موضع نصب حالاً من الضمير في «لعب»؛ لأنه بمعنى الوصف، وأن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، أي: ذلك كمثل[١].

وجوز ابن عطية[٢]: أن يكون في موضع رفع صفة لما تقدم، ولم يبينه، وقد بينه مكي، فقال[٣]: نعت لـ «تفاخر». وفيه نظر لتخصيصه له من بين ما تقدم، وجوز أن يكون خبراً بعد خبر للحياة الدنيا.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يجفّ بعد خضرته ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: متغيراً عما كان عليه من النَّضارة[٤].

وقرىء[٥]: «مُصْفَارًّا» من «اصْفَارّ» وهو أبلغ من «اصْفَرّ».

قوله: «وفي الآخِرةِ» خبر مقدم، وما بعده مبتدأ مؤخر، أخبر بأن في الآخرة عذاباً شديداً، ومغفرة منه ورضواناً، وهذا معنى حسن، وهو أنه قابل العذاب بشيئين: بالمغفرة والرضوان، فهو من باب لن يغلب عُسْرٌ يُسرينِ[٦].

قال القرطبي[٧]: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، أي: للكافر، والوقف عليه حسن، ويبتدأ ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ أي: للمؤمنين.

وقال الفراء[٨]: «وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة» تقديره: إمَّا عذاب شديد، وإمَّا مغفرة، فلا يوقف على «شديد».

قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

وهذا تأكيد لما سبق، أي: تغرّ الكافر، فأما المؤمن فإن الدنيا له متاع بلاغ إلى الجنة.

وقيل: العمل للحياة الدنيا متاع الغرور تزهيداً في العمل للدنيا، وترغيباً للعمل في الآخرة.

وقال سعيد بن جبير: الدُّنيا متاع الغرور إذا ألْهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة، فنعم المتاع ونعم الوسيلة[٩].

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٩.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٦٦.
(٣) ينظر: المشكل ٢/ ٧١٩.
(٤) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٦٦.
(٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٧٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٣، والدر المصون ٦/ ٢٧٩.
(٦) الدر المصون ٦/ ٢٧٩.
(٧) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٦٦.
(٨) ينظر: معاني القرآن للفراء ٣/ ١٣٥.
(٩) ينظر: المصدر السابق. وذكره البغوي في «تفسيره (٤/ ٢٩٨)».

قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ الآية.

أي: سارعوا بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم.

وقيل: سارعوا بالتَّوبةِ؛ لأنها تؤدِّي إلى المغفرة. قاله الكلبي(١).

وقال مكحول: هي التكبيرة الأولى مع الإمام.

وقيل: الصف الأول.

فصل فيمن استدل بالآية على أن الأمر على الفور(٢)

احتج القائلون بأن الأمر على الفور بهذه الآية؛ لأنها دلت على وجوب المسارعة، فوجب أن يكون التراخي محظوراً(٣).

قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

﴿عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صفة، وكذلك «أعِدَّتْ»، ويجوز أن تكون «أعدت» مستأنفة(٤).

فصل في عرض الجنة

قال مقاتل: إنَّ السَّموات السَّبع والأرضين السبع لو جعلت صفائح، وألزق بعضها إلى بعض لكانت عرض جنة واحدة من الجنَّات، والعرض أقل من الطول، ومن عادة العرب أنها تعبر عن الشيء بعرضه دون طوله(٥)؛ قال: [الطويل]

٤٧٢٤ ـ كَأنَّ بِلادَ اللَّهِ وهْيَ عرِيضَةٌ　　على الخَائفِ المطلُوبِ كفَّةُ حَابِلِ(٦)

وقال عطاء عن ابن عباس: يريد أنَّ لكل واحد من المطيعين جنَّة بهذه الصِّفة(٧).

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/١٦٦.

(٢) ينظر اللمع ص ٨ البرهان ١/ ٢٣١ ـ ٢٤١ المحصول ١/ ٢/ ١٨٩ المستصفى ٢/ ٩ التبصرة ص ٥٢ المسودة ص ٢٤ إرشاد الفحول ص٥٩ أصول السرخسي ١/ ٢٦ المعتمد ١/ ١٢٠ جمع الجوامع ١/ ٣٨١ المنخول ص ١١١ المنتهى لابن الحاجب ص ٦٨ الإبهاج ٢/ ٥٧ روضة الناظر (١٠٥) تيسير التحرير ١/ ٣٥٦ فواتح الرحموت ١/ ٣٨١ التمهيد للإسنوي ص٨٠ الأحكام للآمدي ٢/ ١٥٣ نهاية السول ٢/ ٢٨٧ شرح التنقيح ص ١٢٨ العدة لأبي يعلى ١/ ٢٨١ القواعد والفوائد الأصولية ص ١٨٩ التلويح على التوضيح ٢/ ١٨٨ ـ ١٨٩ شرح العضد ٢/ ٨٣ المدخل ص ١٠٢ ـ ١٠٣ مختصر البعلى ص (١٠١).

(٣) ينظر: تفسير الرازي ٢٩/ ٢٠٤.　　(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٩.

(٥) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٩/ ٢٠٤).

(٦) يروى الشطر الأول من البيت:

كـأن فـجـاج الأرض وهـي عـريـضـة

ينظر اللسان (كفف) والقرطبي ١٧/ ١٦٦.

(٧) ينظر: المصدر السابق.

وقال السُّدي: إنه ـ تعالى ـ شبّه عرض الجنة بعرض السَّموات السبع والأرضين السبع، ولا شك أن طوله أزيد من عرضه[١].

وقيل: هذا تمثيل للعباد بما يعقلونه، وأكبر ما في أنفسهم مقدار السموات والأرض.

قاله الزجاج[٢]، وهو اختيار ابن عبَّاس[٣].

وقال طارق بن شهاب: قال قوم من أهل «الحيرة» لعمر رضي الله عنه: أرأيت قول الله عز وجل: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فأيْنَ النَّارُ؟ قال لهم عمر: أرأيتم الليل إذا ولَّى وجاء النهار، فأين يكون الليل؟ فقالوا: لقد نزعت بما في التوراة مثله[٤].

قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ شرط الإيمان لا غير، والمعتزلة وإن زعموا أن لفظ الإيمان يفيد جملة الطَّاعات، لكنهم اعترفوا بأن لفظ الإيمان إذا عدي بالباء، فإنه باقٍ على مفهومه الأصلي وهو التصديق، فالآية حجة عليهم، ومما يؤكّد ذلك قوله تعالى بعده: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ فبين أن الجنة فضل الله يؤتيها من يشاء، سواء أطاع أم عصى.

فإن قيل: فيلزمكم أن تقطعوا بحصول الجنة لجميع العُصاة، وأن تقطعوا بأنه لا عقاب لهم؟ فالجواب[٥]: قلنا: نقطع بحصول الجنَّة، ولا نقطع بنفي العقاب عنهم؛ لأنهم إذا عذّبوا مدة، ثم نقلوا إلى الجنة، وبقوا فيها أبد الآباد، فقد كانت الجنَّة معدة لهم.

فإن قيل: فالمرتد قد آمن بالله، فوجب ألاّ يدخل تحت هذه الآية.

قلنا: فالجواب خص من العموم، فبقي العموم حجة فيما عداه.

فصل في أن الجنة مخلوقة أم لا؟[٦]

احتجوا بهذه الآية على أن الجنة مخلوقة.

قالت المعتزلة: هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها لوجهين:

الأول: أن قوله تعالى ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] يدل على أن من صفتها بعد وجودها ألا تفتى، لكنها لو كانت الآن موجودة لفنيت بدليل قوله تعالى ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

---

(١) ينظر: المصدر السابق.

(٢) ينظر: معاني القرآن له ٥/ ١٢٨.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٠٥.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٦٦).

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٠٥.

(٦) ينظر: المصدر السابق.

الثاني: أن المخلوقة الآن في السماء السَّابعة، ولا يجوز إذا كانت في واحدة منها أن يكون عرضها كعرض كل السموات والأرض، فثبت بهذين الوجهين أنه لا بُدَّ من التأويل، وذلك من وجهين:

أحدهما: أنه ـ تعالى ـ لما كان قادراً لا يصحّ المنع عليه، وإذا كان حكيماً لا يصحّ الخلف في وعده، ثم إنه ـ تعالى ـ وعد على الطَّاعة بالجنة، فكانت الجنة كالمعدّة المهيّأة لهم تشبيهاً لما سيقع قطعاً بالواقع، كما يقول المرء لصاحبه: أعددت لك المكافأة إذا عزم عليها وإن لم يوجدها.

والثاني: أن المراد إذا كانت الآخرة أعدّها الله لهم، كقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠] أي: إذا كان يوم القيامة نادى.

والجواب: أن قوله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ﴾ [القصص: ٨٨] عام.

وقوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ مع قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ﴾ [الرعد: ٣٥] خاص، والخاصّ مقدّم على العام.

وأما قولهم: إنَّ الجنَّة مخلوقة في السماء السابعة كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ في صفة الجنة: «سَقْفُهَا عرْشُ الرَّحْمنِ» فأي استبعاد في أن يكون المخلوق فوق الشيء أعظم منه، أليس أن العرش أعظم المخلوقات، مع أنه مخلوق فوق السماء السابعة[1].

قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: أن الجنة لا تنال إلاَّ بفضل الله ورحمته[2]، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ (٢٢) لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ (٢٣) ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (٢٤) لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ (٢٥) وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ (٢٦)﴾

قوله: ﴿مِن مُّصِيبَةٖ﴾ فاعل «أصاب»، و «من» مزيدة لوجود الشرطين، وذكر فعلها؛ لأن التأنيث مجازي.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/٢٠٥.
(٢) القرطبي ١٧/١٦٦.

قوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يجوز أن يتعلق بـ «أصاب»، وأن يتعلق بنفس «مصيبة»، وأن يتعلق بمحذوف على أنه صفة لـ «مصيبة»، وعلى هذا فيصلح أن يحكم على موضعه بالجر نظراً إلى لفظ موصوفه، وبالرفع نظراً إلى محله، إذ هو فاعل.

والمصيبة غلبت في الشَّر.

وقيل: المراد بها جميع الحوادث من خير وشر، وعلى الأول يقال: لم ذكرت دون الخير؟

وأجيب[١]: بأنه إنما خصها بالذكر؛ لأنها أهمّ على البشر.

قوله: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ حال من «مصيبة»، وجاز ذلك وإن كانت نكرة لتخصصها إما بالعمل، أو بالصفة، أي: إلا مكتوبة.

قوله: «مِنْ قَبْلِ» نعت لـ «كتابٍ»، ويجوز أن يتعلق به. قاله أبو البقاء[٢]. لأنه هنا اسم للمكتوب، وليس بمصدر.

والضمير في «نَبْرأها» الظاهر عوده على المصيبة.

وقيل: على الأنفس.

وقيل: على الأرض، أي على جميع ذلك. قاله المهدوي، وهو حسن.

فصل في مناسبة الآية لما قبلها

قال الزجاج[٣]: إنه ـ تعالى ـ لما قال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وبين أن المؤدي إلى الجنة لا يكون إلا بقضاء الله تعالى وقدره، فقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾.

والمعنى لا توجد مصيبة من هذه المصائب إلا وهي مكتوبة عند الله، والمصيبة في الأرض قَحْط المطر، وقلّة النبات، ونقص الثِّمار، وغلاء الأسعار، وتتابع الجوائح.

وأما المصيبة في الأنفس فقيل[٤]: هي الأمراض، والفقر، وذهاب الأولاد، وإقامة الحدود عليها.

وقيل: ضيق المعاش وقيل: الخير والشَّر أجمع، لقوله بعد ذلك: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

وقوله: «إلا في كتابٍ» يعني: مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ[٥].

وقوله: «من قبل أن نَبْرَأها».

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٧٩. (٢) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢١٠.

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ٥/ ١٢٨، والفخر الرازي ٢٩/ ٢٠٦.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٠٦. (٥) القرطبي ١٧/ ١٦٧.

قال ابن عباس: من قبل أن نخلق المصيبة[١].

وقال سعيد بن جبير: من قبل أن نخلق الأرض والنفس[٢].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: خلق ذلك، وحفظه على الله يسير أي: هيّن[٣].

قال الربيع بن صالح: لما أُخذ سعيد بن جبيرٍ ـ رضي الله عنه ـ بَكَيْتُ، قال: ما يبكيك؟ قلت: أبكي لما أرى بك ولما تذهب إليه، قال: فلا تَبْكِ، فإنه كان في علم الله ـ تعالى ـ أن يكون، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية[٤].

قال ابن عباس: لما خلق الله القلم، قال له: اكتب، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة[٥].

وقد ترك جماعة من السلف الدواء في أمراضهم، فلم يستعملوه ثقةً بربهم وتوكلاً عليه، وقالوا: قد علم الله أيام المرض وأيام الصِّحة، فلم حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا، قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية، ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ عَرَفَ يُسْرَ اللَّهِ في القَدَر هَانَتْ عليْهِ المَصَائِبُ».

فصل في اتصال الآية بسياق الآيات قبلها[٦]

قيل: إن هذه الآية نزلت متّصلة بما قبلها، وهو أن الله ـ تعالى ـ هوَّن عليهم ما يصيبهم في الجهاد من قتل وجرح، وبين أن ما يخلفهم عن الجهاد من المحافظة على الأموال، وما يقع فيها من خسران، فالكل مكتوب مقدّر لا مدفع له، وإنما على المرء امتثال الأمر، ثم أدبهم فقال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق، وذلك أنهم إذا علموا أن الرزق قد فرغ منه لم ييأسوا على ما فاتهم منه.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن نبي الله ﷺ قال: «لاَ يَجِدُ أحدكُمْ طَعْمَ الإيمانِ حتَّى يعْلمَ أنَّ ما أصابهُ لَمْ يكُنْ ليُخطِئهُ، ومَا أخطَأهُ لَمْ يَكُنْ ليُصِيبَهُ»، ثمَّ قرأ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[٧] أي من الدنيا. قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٩٩) والقرطبي (١٧/ ١٦٧).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٦٧) عن سعيد بن جبير.
(٣) ينظر: القرطبي (١٧/ ١٦٧).
(٤) ينظر: القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٦٧) عن سعيد بن جبير.
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) ينظر: القرطبي (١٧/ ١٦٧).
(٧) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤١) وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ١١٠) رقم (٢٤٦) من حديث أبي الدرداء.
وأخرجه ابن أبي عاصم (١/ ١١٠) رقم (٢٤٧) من حديث أنس.
وذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٦٢٩) عن أنس وعزاه إلى ابن أبي عاصم.

فصل في أن ما كان وما يكون مكتوب في اللوح المحفوظ

قال ابن الخطيب(١): هذه الآية تدلّ على أن جميع الحوادث الأرضية قبل دخولها في الوجود مكتوبة في اللَّوح المحفوظ.

قال المتكلمون: وإنما كتب ذلك لوجوه:

أحدها: ليستدلّ الملائكة بذلك المكتوب على كونه ـ تعالى ـ على علم بجميع الأشياء قبل وقوعها.

وثانيها: ليعرفوا حكمة الله، فإنه ـ تعالى ـ مع علمه بأنهم يقدمون على المعاصي خلقهم ورزقهم.

وثالثها: ليحذروا من أمثال تلك المعاصي.

ورابعها: ليشكروا الله ـ تعالى ـ على توفيقه إياهم للطَّاعات، وعصمته إياهم عن المعاصي.

فصل في كيفية حدوث الأحداث

قال ابن الخطيب(٢): إن الحكماء قالوا: إن الملائكة الذين وصفهم الله بأنهم هم المدبِّرات أمراً، والمقسمات أمراً، إنما هي المبادىء لحدوث الحوادث في العالم السفلي بواسطة الحركات الفلكية، والاتصالات الكوكبية، وتغيراتها هي الأسباب لتلك المسببات، وهذا هو المراد من قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

فصل في مصائب الأنفس(٣)

قوله تعالى: ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ يتناول جميع مصائب الأنفس، فيدخل فيها كفرهم ومعاصيهم، فالآية دالة على أن جميع أعمالهم بتفاصيلها مكتوبةٌ في اللوح المحفوظ مثبتة في علم الله تعالى، فكان الامتناع من تلك الأعمال محال؛ لأن علم الله بوجودها مُنَافٍ لعدمها والجمع بين المتنافيين محال، وخصص مصائب الأرض والأنفس لتعلّقها بنا، ولم يقل: جميع الحوادث لشمولها حركات أهل الجنة والنار؛ لأنها غير متناهية، فإثباتها في الكتاب محال.

قال ابن الخطيب(٤): وفي الآية دليلٌ على أن الله ـ تعالى ـ يعلم الأشياء قبل وقوعها خلافاً لـ «هشام بن الحكم».

---

(١) ينظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٩/ ٢٠٦.
(٢) السابق نفسه.
(٣) السابق ٢٩/ ٢٠٧.
(٤) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٠٧.

قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا﴾. هذه «اللام» متعلقة بقوله «ما أصَابَ»، أي: أخبرناكم بذلك لكيلا يحصل لكم الحزن المقنط والفرح المطغي فأما ما دون ذلك فالإنسان غير مؤاخذ به، و «كي» هنا ناصبة بنفسها، فهي مصدرية فقط لدخول لام الجر عليها[١].

وقرأ أبو عمرو[٢]: «بما أتاكم» مقصوراً من الإتيان، أي: بما جاءكم.

قال أبو علي الفارسي[٣]: «لأن «أتاكم» معادل لقوله «فَاتَكُم»، فكما أنَّ الفعل للفائت في قوله: «فاتكم»، فكذلك الفعل الثاني في قوله: «بما أتاكم».

وقرأ باقي السبعة: «آتاكم» ممدوداً من «الإيتاء»، أي: بما أعطاكم الله إياه.

والعائد إلى الموصول في الكلمتين في الذكر المرفوع بأنه فاعل، و «الهاء» محذوفة من الصِّلة، أي: بما آتاكموه.

وقرأ عبد الله[٤]: «بما أوتيتم».

فصل في أن حزن المؤمن صبر وفرحه شكر[٥]

قال ابن عبَّاس: ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً وغنيمته شكراً، والحزن والفرح المنهي عنهما هما اللذان يتعدّى فيهما إلى ما لا يجوز[٦].

وقال جعفر بن محمد: يا ابن آدم ما لك تأسف على مقدر[٧] لا يردّه عليك الفَوْت، وما لك تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت.

وقيل لـ «بزرجمهر»: أيها الحكيم، ما لك لا تحزن على ما فات، ولا تفرح بما هو آتٍ؟ قال: لأن الفائت لا يتلافى بالعبرةِ، والآتي لا يستدام بالحَبْرةِ.

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٨٠.

(٢) ينظر: السبعة ٦٢٦، والحجة ٦/ ٢٧٥، وإعراب القراءات ٢/ ٣٥٢، والعنوان ١٨٦، وحجة القراءات ٧٠١، وشرح شعلة ٥٩٩، وشرح الطيبة ٦/ ٤١، وإتحاف ٢/ ٥٢٣.

(٣) ينظر: الحجة ٦/ ٢٧٥.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٨٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٦٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٤، والدر المصون ٦/ ٢٨٠.

(٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٦٧.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٨٧) والحاكم (٢/ ٤٧٩) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ١٤١) رقم (٩٧٧١) من طريق سفيان عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٧) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٧) في ب: مفقود.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: متكبر بما أوتي من الدنيا.

«فخور» به على النَّاس، قيل: الفخور الذي ينظر الناس بعين الاحتقار.

فصل فيمن قالوا بالإرادة والجبر

قال ابن الخطيب[1]: المعتزلة وإن نازعوا في القدرة والإرادة، فهم مسلمون في العلم والجبر، فيلزمهم الجبر باعتبارهما.

والفلاسفة مذهبهم الجَبْر؛ لأن سبب الحوادث عندهم الاتصالات الفلكية.

والقدرية قالوا: بأن الحوادث اتفاقية، فجميع فرق العقلاء يلزمهم الجبر، سواء أقروا به أو أنكروه.

فصل في إرادة العبد الحزن والفرح

قالت المعتزلة[2]: قوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ يدل على أنه إنما أخبرهم بكتبها ليحترزوا عن الحزن والفرح، ولولا قدرتهم عليه لم يكن لذلك فائدة، ويدل على أنه لا يريد أن يقع منهم الفرح والحزن، وهو خلاف قول المجبرة؛ لأنه قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ والمحبة هي الإرادة.

وأجيبوا بأن المحبة هي إرادة خاصة وهي إرادة الثواب، ولا يلزم من نفيها نفي الإرادة.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾. تقدم نظيره في سورة «النساء».

قال القرطبي[3]: «الذين» في موضع خفض نعتاً للمختال.

وقال ابن الخطيب[4]: بدل من قوله: «كل مُخْتَال».

وقيل: رفع بالابتداء، فهو كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله.

والمعنى: الذين يبخلون فالله غني عنهم.

قيل: أراد رؤساء اليهود الذين بخلوا ببيان صفة محمد ﷺ في كتبهم لئلا يؤمن به النَّاس، فتذهب مأكلتهم.

قاله السُّدي والكلبي.

فيكون «الذين» مبتدأ، وخبره محذوف يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

---

(١) ينظر: التفسير الكبير للرازي ٢٩/٢٠٨.
(٢) ينظر: السابق.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧/١٦٨.
(٤) التفسير الكبير ٢٩/٢٠٩.

وقال سعيد بن جبير: «الذين يَبْخَلُون» يعني بالعلم ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ بألاَّ يعلموا الناس شيئاً[١].

وقال زيد بن أسلم: إنه البُخْل بأداء حق الله تعالى[٢].

وقال عبد الله بن عامر الأشعري: هو البخل بالصدقة والحقوق[٣].

وقال طاوس: وهو البُخْل بما في يديه.

فصل في قراءات البخل

«بالبخل». قرأ العامة: «بالبُخْل» بضم الباء وسكون الخاء.

وقرأ أنس[٤] وعبيد بن عمير ويحيى بن يعمر ومجاهد وابن محيصن وحمزة والكسائي «بالبَخَل» بفتحتين، وهي لغة الأنصار.

وقرأ أبو العالية[٥] وابن السَّميفع: «بالبَخْل» بفتح الباء وإسكان الخاء.

وعن نصر بن عاصم[٦]: «البُخُل» ـ بضمتين ـ وكلها لغات مشهورة.

وقال قوم: الفرق بين البخل والسخاء من وجهين:

أحدهما: أن البخيل الذي يلتذُّ بالإمساك، والسَّخي الذي يلتذُّ بالعطاء.

الثاني: أن البخيل الذي لا يعطي عند السؤال، والسَّخي الذي يعطي بغير سؤال.

وتقدم الفرق بين البُخْل والشُّح في آخر آل عمران.

قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عن الإيمان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

قرأ نافع[٧] وابن عامر: «فإن الله الغني الحميد» بإسقاط «هو»، وهو ساقط في مصاحف «المدينة» و «الشام»، والباقون: بإثباته، وهو ثابت في مصاحفهم، فقد وافق كل مصحفه[٨].

قال أبو علي الفارسي[٩]: من أثبت «هو» يحسن أن يكون فصلاً، ولا يحسن أن يكون ابتداء؛ لأن الابتداء لا يسوغ حذفه.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/١٦٨). (٢) ينظر: المصدر السابق.

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) وقرأ بها الحسن ويحيى بن يعمر. ينظر: المحرر الوجيز ٥/٢٦٩، والقرطبي ١٧/١٦٨، والعنوان ١٨٦، وحجة القراءات ٧٠٢، وإتحاف ٢/٥٢٣.

(٥) القرطبي ١٧/١٦٨. (٦) السابق

(٧) ينظر: السبعة ٦٢٧، والحجة ٦/٢٧٦، وإعراب القراءات ٢/٣٥٢، وحجة القراءات ٧٠٢، والعنوان ١٨٦، وشرح شعلة ٥٩٩، وشرح الطيبة ٦/٤٢، وإتحاف ٢/٥٢٣.

(٨) ينظر: الدر المصون ٦/٢٨٠. (٩) الحجة ٦/٢٧٦.

يعني أنه رجح فصليّته بحذفه في القراءة الأخرى، إذ لو كان مبتدأ لضعف حذفه لا سيما إذا صلح ما بعده أن يكون خبراً لما قبله.

ألا ترى أنك لو قلت: إن زيداً هو القائم يحسن حذف «هو» لصلاحية «القائم» خبراً، وهذا كما قالوا في الصلة: إنه يحذف العائد المرفوع بالابتداء بشروط:

منها: ألاً يكون ما بعده صالحاً للصِّلة نحو: «جاء الذي هو في الدَّار، وهو قائم أبوه» لعدم الدلالة.

إلا أن للمنازع أن ينازع أبا عليٍّ ويقول: لا ألتزم تركيب إحدى القراءتين على الأخرى، وكم من قراءتين تغاير معناهما، كقراءتي: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦]، إلا أن توافق القراءتين في معنى واحد أولى، هذا مما لا نزاع فيه[١].

ومن أثبت «هو» فعلى أن يكون فصلاً، ويجوز أن يكون مبتدأ، و «الغَنِيّ» خبره والجملة خبر «إن».

قال ابن الخطيب[٢]: وقوله «الحميد» كأنه جواب من يقول: إذا كان الله عالماً بأنه يبخل، فلم أعطاه المال؟.

فأجاب: بأنه محمود حيث فتح أبواب الرحمة[٣] مع تقصير العبدِ في الطاعة.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

يعني المعجزات البينة، والشرائع الظاهرة.

وقيل[٤]: الإخلاص لله ـ تعالى ـ في العبادة.

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي الكتب التي أوحينا إليهم فيها خبر من كان قبلهم.

«والمِيزَانَ»، قال ابن زيد: هو ما يُوزَنُ به، ويتعامل[٥].

روي أن جبريل ـ عليه السلام ـ نزل بالميزان فدفعه إلى نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقال: مُرْ قَوْمكَ يَزِنُوا بِهِ ليقُومَ النَّاسُ بالقِسْطِ[٦]، أي: بالعدل في معاملاتهم.

وقيل: أراد به العدل.

قال القشيري: وإذا حملناه على الميزان المعروف، فالمعنى أنزلنا الكتاب ووضعنا الميزان وهو من باب: [الرجز]

٤٧٢٥ ـ عَلَفْتُهَا تِبْناً ومَاءً بَارِداً[٧]

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٨٠.

(٢) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٠٩.

(٣) في ب: الدين.

(٤) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٦٨.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٨٨).

(٦) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٩/ ٢١٠).

(٧) تقدم.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧].

قوله: «مَعَهُمْ» حال مقدرة، أي: صائراً معهم، وإنما احتجنا إلى ذلك؛ لأن الرسل لم ينزلوا، ومقتضى الكلام أن يصحبوا الكتاب في النزول.

وأما الزمخشري فإنه فسّر الرسل بالملائكة الذين يجيئون بالوحي إلى الأنبياء، فالمعية متحققة.

قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾.

روى ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللَّهَ تعَالَى أنْزلَ أرْبَعَ بركاتٍ مِنَ السَّماءِ إلى الأرْضِ: الحَديْدَ والمَاءَ والنَّارَ والثَّلْجَ»[١].

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: أنزل ثلاثة أشياء مع آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ الحَجَر الأسود وكان أشد بياضاً من الثَّلج، وعصا موسى، وكانت من آسِ الجنة، طولها عشرة أذرع مع طول موسى، والحديد أنزل معه ثلاثة أشياء: السَّنْدَان، والكَلْبتَان، والمِيْقَعَة، وهي المِطْرقَة[٢] ذكره الماوردي.

وروى الثعلبي عن ابن عبَّاس قال: نزل آدم من الجنَّة، ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدادين: السَّندان، والكلْبتَان، والمِيْقعَة، والمِطْرقَة والإبْرَة»[٣].

وحكاه القشيري قال: والمِيْقعَة: [ما يحدد به، يقال: وقعت الحديدة أقعها، أي حددتها.

وفي «الصحاح»[٤]][٥]: «المِيْقَعَة» الموضع الذي يألفه البازي فيقع عليه، وخشبة القصَّار التي يدقّ عليها، والمِطْرقَة، والمِسَنّ الطويل.

وروي أن الحديد أنزل يوم الثلاثاء.

«فيه بأس شديدٌ» أي: لإهراق الدِّماء، ولذلك نهي عن الفَصْد والحِجَامة يوم الثلاثاء؛ لأنه يوم جرى فيه الدَّم.

وروي عن رسول الله ﷺ «إنَّ فِي يَوْمِ الثلاثاءِ ساعةً لا يُرَاقُ فِيْهَا الدَّمُ»[٦].

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٤/ ٤٨٠) وقال: أخرجه الثعلبي من حديث ابن عمر وفيه من لا أعرفه.
وذكره أيضاً المتقي الهندي في «كنز العمال» (١٥/ ٤١٩) رقم (٤١٦٥١) وعزاه إلى الديلمي في «مسند الفردوس» عن ابن عمر.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ٤٨٣) والقرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٦٩).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٦٩) وعزاه إلى الثعلبي عن ابن عباس.

(٤) ينظر: الصحاح ٣/ ١٣٠١. (٥) سقط من أ.

(٦) ينظر: القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٦٩) وعزاه إلى الثعلبي عن ابن عباس.

وقيل: «أنزلنا الحديد» أي: أنشأناه وخلقناه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الزمر: ٦] وهذا قول الحسن. فيكون من الأرض غير منزل من السماء.

وقال أهل المعاني: أي أخرج الحديد من المعادن، وعلمهم صنعته بوحيه.

وقوله: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ جملة حالة من «الحديد»، والمراد بالحديد يعني: السلاح والجُنَّة.

وقيل: إن فيه من خشية القتل خوفاً شديداً.

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ قال مجاهد: يعني جُنَّة[١].

وقيل: انتفاع النَّاس بالماعون: الحديد كالسِّكين والفأس ونحوه.

قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾. عطف على قوله: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾، أي: لقد أرسلنا رسلنا، وفعلنا كيت وكيت ليقوم الناس، وليعلم الله.

وقال أبو حيان[٢]: علّة لإنزال الكتاب والميزان والحديد.

والأول أظهر؛ لأن نصرة الله ورسوله مناسبة للإرسال.

قوله: «ورُسُلَهُ» عطف على مفعول «ينصره»، أي: وينصر رسله.

قال أبو البقاء[٣]: ولا يجوز أن يكون معطوفاً على «من» لئلا يفصل به بين الجار، وهو «بالغيب»، وبين ما يتعلق به وهو «ينصر».

قال شهاب الدين[٤]: «وجعله العلة ما ذكره من الفصل بين الجار، وبين ما يتعلق به يوهم أن معناه صحيح لولا هذا المانع، وليس كذلك؛ إذ يصير التقدير: وليعلم الله من ينصره بالغيب، وليعلم رسله، وهذا معنى لا يصح ألبتة، فلا حاجة إلى ذكر ذلك، و «بالغيب» حال وقد تقدم مثله أول «البقرة».

فصل في معنى الآية[٥]

المعنى: وليعلم الله من ينصره، أي: أنزل الحديد ليعلم من ينصره، أو ليقوم الناس بالقسط؛ أي: أرسلنا رسلنا.

«وأنزلنا معهم الكتاب» وهذه الأشياء ليتعامل الناس بالحق، وليرى الله من ينصر دينه وينصر رسله بالغيب، أي: وهم لا يرونهم.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٨٩) عن ابن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٨) وعزاه إلى الفريابي وعبد بن حميد.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٢٥.

(٣) الإملاء ٢/ ١٢١٠.

(٤) الدر المصون ٦/ ٢٨٠.

(٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٦٩.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قوي في أخذه عزيز أي: منيع غالب.

وقيل: بالغيب أي: بالإخلاص.

فصل في الرد على من قال بحدوث علم الله[١]

احتج من قال بحدوث علم الله بقوله: «وليعلم الله».

وأجيب: بأنه ـ تعالى ـ أراد بالعلم المعلوم، فكأنه ـ تعالى ـ قال: ولتقع نُصْرة الرسول ممن ينصره.

فصل في الرد على الجبرية[٢]

قال الجبائي: قوله: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ يدل على أنه ـ تعالى ـ أنزل الميزان والحديد، ومراده من العباد أن يقوموا بالقسط، وأن ينصروا رسله، وإذا أراد هذا من الكل بطل قول المجبرة أنه أراد من بعضهم خلاف ذلك.

وأجيب: بأنه كيف يمكن أن يريد من الكُلِّ ذلك مع علمه بأن ضدّه موجود، والجمع بين الضِّدين محال، والمحال غير المراد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ الآية.

لما أجمل الرسل في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ فصل ها هنا ما أجمل من إرسال الرسل بالكتب، وأخبر أنه أرسل نوحاً وإبراهيم، وجعل النبوة في نسلهما[٣]، لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: جعلنا بعض ذريتهما الأنبياء، وبعضهم أمماً يتلون الكتب[٤] المنزلة من السماء كالتوراة والإنجيل والزَّبُور والفُرقَان.

وقال ابن عبَّاس: الخطّ[٥] بالقَلم.

قوله: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾.

والضمير يجوز عودهُ على الذُّرِّية، وهو أولى لتقدم ذكره لفظاً.

وقيل: يعود على المرسل إليهم لدلالة رسلنا والمرسلين إليهم.

والمعنى: منهم مهتد ومنهم فاسق، والمراد بالفاسق هاهنا، قيل[٦]: الذي ارتكب الكبيرة سواء كان كافراً أو لم يكن لإطلاق هذا الاسم، وهو يشمل الكافر وغيره.

وقيل: المراد بالفاسق ها هنا الكافر؛ لأنه جعل الفُسَّاق ضد المهتدين.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢١٢.
(٢) السابق.
(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٦٩.
(٤) في أ: التكاليف.
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٦٩).
(٦) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢١٣.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (٢٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٢٩)﴾

قوله: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾، أي: أتبعنا على آثارهم، أي: على آثار الذُّرية[١].

وقيل: على آثار نوح وإبراهيم برسلنا موسى وإلياس وداود ويونس، وغيرهم، «وقفّينا بعيسى ابن مريم»، فهو من ذرية إبراهيم من جهة أمّه.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾: وهو الكتاب المنزل عليه وقد تقدم اشتقاقه في أول آل عمران.

وقراءة الحسن[٢]: بفتح الهمزة.

قال الزمخشري[٣]: أمره أهون من أمر البَرْطِيل والسَّكينة فيمن رواها بفتح «الفاء»؛ لأن الكلمة أعجمية لا يلزم فيها حفظ أبنية العرب.

وقال ابن جنّي[٤]: قراءة الحسن ـ بفتح الهمزة ـ مثال مبالغة، لا نظير له؛ لأنه «أفعيل» وهو عندهم من نجلت الشيء إذا استخرجته لأنه يستخرج به الأحكام.

وقال ابن الخطيب: وغالب الظن أنه ما قرأه إلا عن سماع؛ وله وجهان:

أحدهما: أنه شاذ، كما حكي عن بعضهم في البَرْطِيل.

والثاني: أنه ظن الإنجيل أعجميًا، فحرف مثاله؛ تنبيهاً على كونه أعجمياً.

قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ على دينه يعني: الحواريين وأتباعهم[٥] ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٧٠.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٨١، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٧٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٦، والدر المصون ٦/ ٢٨١.

(٣) الكشاف ٤/ ٤٨١.

(٤) ينظر: المحتسب ٢/ ٣١٣، والفخر الرازي ٢٩/ ٢١٣.

(٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٧٠.

قرأ الحسن(١): «رَآفة» بزنة «فَعَالة».

قال مقاتل: المراد من الرَّأفة والرحمة: المودَّة فكان يوادّ بعضهم بعضاً كما وصف الله ـ تعالى ـ أصحاب محمد ﷺ بقوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾(٢) [الفتح: ٢٩].

وقيل: هذا إشارة إلى أنهم أمروا في الإنجيل بالصَّفْح، وترك إيذاء الناس وألان الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود الذين قستْ قلوبهم، وحرّفوا الكلم عن مواضعه.

والرَّأفة: [اللِّين.

والرحمة:](٣) الشَّفقةُ.

وقيل: الرأفة تخفيف الكُل، والرحمة تحمل الثقل.

وقيل: الرَّأفة: أشد من الرحمة وتم الكلام.

فصل في أن أفعال العبد خلق لله تعالى(٤)

دلت هذه الآية على أن فعل العبد خلق الله تعالى؛ لأنه حكم بأن هذه مجعولة، وحكم بأنهم ابتدعوا تلك الرهبانية.

قال القاضي(٥): المراد بذلك أنه ـ تعالى ـ لطف بهم حتى قويت دواعيهم في الرَّهبانية التي هي تحمّل الكلفة الزائدة على ما يجب.

والجواب: أن هذا ترك للظاهر من غير دليل، وإن سلمنا ذلك فهو يحصل مقصودنا؛ لأن الحال الاستواء بمنع حصول الرُّجحان؛ لأنَّ حصول الرجحان عند الاستواء ممتنع، فعند المرجوحية أولى بأن يصير ممتنعاً، وإذا امتنع المرجُوح وجب الراجح ضرورة أنه لا خروج عن طرفي النقيض.

قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾. في انتصابها وجهان(٦):

أحدهما: أنها معطوفة على «رأفة ورحمة».

و «جعل» إما بمعنى «خَلَق»، وإما بمعنى «صيّر»، و «ابتدعوها» على هذا صفة لـ «رَهْبَانية»، وإنما خصّت بذكر الابتداع؛ لأن الرَّأفة والرحمة في القلب أمر غريزة لا تكسُّب للإنسان فيها، بخلاف الرهبانية، فإنها أفعال البدن، وللإنسان فيها تكسُّب، إلا أن أبا البقاء منع هذا الوجه، بأن ما جعله الله لا يبتدعونه(٧).

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/٢٢٦، والرازي ٢٩/ ٢١٣، والدر المصون ٦/ ٢٨١.

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٩/ ٢١٣) (٣) سقط من أ.

(٤) ينظر: الرازي ٢٩/ ٢١٣. (٥) ينظر: الرازي (٢٩/ ٢١٣).

(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٨١. (٧) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢١١.

وجوابه: ما تقدم من أنه لما كانت مكتسبة صح ذلك منها.

وقال أيضاً: وقيل: هو معطوف عليها، و «ابتدعوها» نعتٌ له، والمعنى: فرض عليهم لزوم رهبانية ابتدعوها، ولهذا قال: ﴿مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾.

والوجه الثاني: أنها منصوبة بفعل مقدر يفسره الظَّاهر.

وقال أبو علي[١]: «ابتدعوها رهبانية»، وتكون المسألة من باب الاشتغال، وإليه نحا الفارسي والزمخشري[٢]، وأبو البقاء[٣] وجماعة.

إلاَّ أن هذا يقال: إنه إعراب المعتزلة[٤]، وذلك أنهم يقولون: ما كان من فعل الإنسان فهو مخلوق له، فالرأفة والرحمة لما كانت من فعل الله نسب خلقهما إليه، والرهبانية لمَّا لم تكن من فعل الله ـ تعالى ـ بل من فعل العبد يستقلّ بفعلها نسب ابتداعها إليه.

ورد عليهم أبو حيَّان[٥] هذا الإعراب من حيث الصناعة، وذلك أن من حق الاسم المشتغل عنه ألاَّ يصلح للرفع بالابتداء. و «رَهْبَانية» نكرة لا مسوغ للابتداء بها، فلا يصلح نصبها على الاشتغال.

قال شهاب الدين[٦]: وفيه نظر لأنا لا نسلم أولاً اشتراط ذلك، ويدل عليه قراءة من قرأ: ﴿سُورَةً أَنزَلْنَـٰهَا﴾ [النور: ١] بالنصب على الاشتغال، كما تقدم تحقيقه، ولئن سلمنا ذلك فثمَّ مسوغ وهو العطف، ومن ذلك قول الشَّاعر: [البسيط]

٤٧٢٦ ـ عِنْدِي اصْطِبَارٌ وشَكْوَى عِنْدَ قَاتلتِي فَهَلْ بأعْجَبَ مِنْ هَذَا امْرُؤٌ سَمِعَا؟[٧]

وقول الآخر: [الطويل]

٤٧٢٧ ـ تَغَشَّى ونَجْمٌ قَدْ أضَاءَ فَمُذْ بَدَا مُحَيَّاكِ، أخْفَى ضَوْءُهُ كُلَّ شَارِقِ[٨]

ذكر ذلك ابن مالك.

و «الرَّهْبَانية»: منسوبة إلى «الرَّهْبَان»، وهو «فَعْلاَن» من رهب، كقولهم: الخَشْيَان من خشي، وقد تقدم معنى هذه المادة في سورة «المائدة».

وقرىء[٩] بضم الراء.

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٨١. (٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٨٢.
(٣) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢١١.
(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٦، والدر المصون ٦/ ٢٨١.
(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٢٦. (٦) الدر المصون ٦/ ٢٨١.
(٧) تقدم. (٨) تقدم.
(٩) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٨١، والفخر الرازي ٢٩/ ٢١٣، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٧، والدر المصون ٦/ ٢٨١.

قال الزمخشري[١]: كأنها نسبة إلى «الرُّهْبَان»، وهو جمع: راهب، كـ «راكب، ورُكْبان».

قال أبو حيان[٢]: والأولى أن يكون منسوباً إلى «رَهْبَان» ـ يعني بالفتح ـ وغيِّر؛ لأنَّ النَّسب باب تغيير، ولو كان منسوباً لـ «رُهْبَان» الجمع لردّ إلى مفرده إلاَّ إن قد صار كالعلم، فإنه ينسب إليه كـ «الأنصار».

فصل في المراد بالرهبانية[٣]

والمراد من الرهبانية: ترهُّبهم في الجبال فارِّين من الفتنة في الدين متحملين كلفاً زائدة على العبادات التي كانت واجبة عليهم من الخلوة، واللِّباس الخَشِن، والاعتزال عن النساء، والتعبُّد في الغيرانِ والكهوف.

روى ابن عباس أن في أيام الفترةِ بين عيسى ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ غيَّر الملوكُ التوراة والإنجيل، فراح نفرٌ، وبقي نفر قليل، فترهبوا وتبتلوا[٤].

قال الضحاك: إن ملوكاً بعد عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ارتكبوا المحارم ثلاثمائة سنة، فأنكرها عليهم من كان بقيَ على منهاج عيسى فقتلوهم، فقال قوم بقوا بعدهم: نحن إذا نهيناهم قتلونا، فليس يسعُنَا المقام بينهم، فاعتزلوا الناس واتخذوا الصَّوامع[٥].

وقال قتادة: الرهبانية التي ابتدعوها رفضُ النساء، واتخاذ الصَّوامع[٦].

وفي خبر مرفوع: هي لحوقهم بالبرارِي والجبال.

قوله تعالى: ﴿مَا كَتَبۡنَـٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾.

صفة لـ «رهبانية»، ويجوز أن يكون استئناف إخبار بذلك[٧].

قال ابن زيد: معناه ما فرضناها عليهم، ولا أمرناهم بها[٨].

---

(١) الكشاف ٤/ ٤٨١.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٢٧.
(٣) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢١٤.
(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٩٠) عن ابن عباس بمعناه وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٩) وزاد نسبته إلى النسائي والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» وابن المنذر وابن مردويه.
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٧٠) عن الضحاك.
(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٩٠) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦٠) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.
(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٨٢.
(٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٩٠) عن ابن زيد.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾. فيه أوجه[١]:

أحدها: أنه استثناء متصل مما هو مفعول من أجله، والمعنى: ما كتبناها عليهم لشيء من الأشياء إلا ابتغاء مرضات الله، فيكون «كتب» بمعنى «قضى»، فصار المعنى: كتبناها عليهم ابتغاء مرضات الله، وهذا قول مجاهد.

والثاني: أنه منقطع.

قال الزمخشري[٢] ولم يذكر غيره: «أي: ولكنهم ابتدعوها».

وإلى هذا ذهب قتادة وجماعة، قالوا: معناه لم يفرضها عليهم، ولكنهم ابتدعوها.

الثالث: أنه بدل من الضمير المنصوب في «كَتَبْنَاها» قاله مكي[٣].

وهو مشكل، كيف يكون بدلاً وليس هو الأول لا بعضه، ولا مشتملاً عليه.

وقد يقال: إنه بدل اشتمال؛ لأن الرهبانية الخالصة المرعية حق الرعاية قد يكون فيها ابتغاء رضوان الله، ويصير نظير قولك: الجارية ما أحببتها إلا أدبها فأدبها بدل من الضمير في «أحببتها» بدل اشتمال، وهذا نهاية التمحُّل لصحة هذا القول.

والضمير المرفوع في «رَعَوْهَا» عائد على من تقدم.

والمعنى: أنهم لم يدوموا كلهم على رعايتها، وإن كان قد وجد هذا في بعضهم.

وقيل: يعود على الملوك الذين حاربوهم.

وقيل على أخلافهم و «حقَّ» نصبه على المصدر.

قال القرطبي[٤] فيها: وقيل: «إلاَّ ابتغاء» استثناء منقطع، والتقدير: «ما كتبناها عليهم، ولكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله».

﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾.

أي: ما قاموا بها حقَّ القيام، بل ضمُّوا إليها التثليث والاتحاد[٥]، وأقام الناس منهم على دين عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى أدركوا نبينا محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ فآمنوا به، فهو قوله تعالى: «فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم، وكثير منهم فاسقون».

وقيل[٦]: إنّا ما كتبنا عليهم تلك الرهبانية إلاَّ ليتوسلوا بها إلى مرضاة الله تعالى، ثم إنهم أتوا بتلك الأفعال لغير هذا الوجه، وهو طلب الدنيا والرِّياسة والسُّمعة.

وقيل: معناه أنا كتبناها عليهم فتركوها، فيكون ذلك ذمًّا لهم لتركهم الواجب.

---

(١) السابق.
(٢) الكشاف ٤ / ٤٨٢.
(٣) ينظر: المشكل ٢/ ٧٢٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٧٠.
(٥) التفسير الكبير ٢٩/ ٢١٤.
(٦) السابق.

وقيل: إن الذين لم يرعوها حق رعايتها هم الذين أدركوا محمداً ﷺ ولم يؤمنوا به.

فصل فيمن أحدث بدعة(١)

دلت هذه الآية على أن كل محدثة بدعة، فينبغي لمن ابتدع خيراً أن يدوم عليه، ولا يعدل عنه إلى ضده فيدخل في الآية.

وعن أبي أمامة الباهلي واسمه صديُّ بن عجلان أن النبي ﷺ قال: أحْدَثْتُم قيامَ رمضانَ ولمْ يُكتَبْ عليْكمْ، إنَّما كُتِبَ عليْكُمُ الصِّيامُ، فدُومُوا على القِيامِ إذْ فعلتُمُوهُ ولا تَتْرُكُوهُ، فإنَّ ناساً مِنْ بَنِي إسْرائِيلَ ابْتدَعُوا بِدَعاً ولَمْ يَكْتُبْهَا اللَّهُ عليهم ابتغَوْا بِهَا رضْوانَ اللَّهِ فَما رَعَوْهَا حَقَّ رعايتِهَا فعَاتَبهُم الله عليها بِتَرْكِهَا، فقال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ (٢) الآية.

فصل(٣)

دلّت الآية على العزلة عن الناس وذلك مَنْدُوبٌ إليه عند فساد الزمان، وتغير الأحوال والإخوان.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾.

أي: آمنوا بموسى وعيسى ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ﴾ بمحمد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾، أي: مثلين من الأجْر على إيمانهم بعيسى وبمحمد ﷺ؛ وهذا نظير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤].

و «الكِفْلُ»: الحظّ والنصيب(٤).

وقد تقدم، وهو في الأصل كساء يكتفلُ به الراكب يحفظه من السقوط. قاله ابن جرير(٥).

وقال الأزهري(٦): اشتقاقه من الكساء الذي يحويه راكب البعير على سنامه لئلا يسقط، والمعنى: يؤتكم نَصِيبيْنِ يحفظانكم من هلكةِ المعاصي كما يحفظ الكفلُ الراكب.

وقال أبو موسى الأشعري: «كِفْلَيْن» ضِعْفَيْن، بلسان «الحبشة».

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٧١.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٩٢) من حديث أبي أمامة.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٩) وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن مردويه وابن نصر.

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (١٧/ ١٧٢).

(٤) ينظر: تفسير القرطبي (١٧/ ١٧٢).

(٥) جامع البيان ١١/ ٦٩٣.

(٦) تهذيب اللغة ١٠/ ٢٥٠ (كفل).

وقال ابن زيد: «كِفْلين» أجر الدنيا والآخرة(١).

وقيل: لما نزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ افتخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبي ﷺ فنزلت هذه الآية.

فإن قيل: إنه ـ تعالى ـ لما أعطاهم كِفْلَيْنِ، وأعطى المؤمن كفلاً واحداً كان حالهم أعظم.

فالجواب(٢): أنه لا يبعد أن يكون النَّصيب الواحد أزيد قدراً من النصيبين.

روى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «ثَلاثَةٌ يُؤتَوْنَ أجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رجُلٌ كانَتْ لَهُ جَاريةٌ فأدَّبهَا وأحْسَنَ أدبهَا، ثُمَّ أعتقَهَا وتَزوَّجهَا، ورجُلٌ مِنْ أهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِكِتَابهِ، وآمَنَ بمُحمَّدٍ ﷺ وعبدٌ أحْسَنَ عبادةَ اللَّهِ ونَصَحَ سَيِّدَهُ»(٣).

قوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾.

قال مجاهد: أي: بياناً وهدى(٤).

وقال ابن عباس: هو القرآن(٥).

وقيل: ضياء يمشون به في الآخرة على الصراط، وفي القيامة إلى الجنة، وهو النور المذكور في قوله تعالى ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾.

وقيل(٦): تمشون به في الناس تدعونهم إلى الإسلام، فتكونون رؤساء في دين الإسلام لا تزول عنكم رياسة كنتم فيها، وذلك أنهم خافوا أن تزول رياستهم لو آمنوا بمحمد ﷺ وإنما كان يفوتهم أخذ رشوة يسيرة من الضعفة بتحريف أحكام الله تعالى، لا الرِّياسة الحقيقية في الدين ثم قال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، أي: ما أسلفتم من المعاصي، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٩٤). (٢) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢١٥.

(٣) أخرجه البخاري ١/ ٢٢٩ كتاب العلم، باب: تعليم الرجل أمته (٩٧)، وفي ٥/ ٢٠٥ كتاب العتق، باب: فضل من أدب جاريته وعلمها (٢٥٤٤)، وفي ٥/ ٢٠٧ باب العبد إذا أحسن عبادة ربه (٢٥٤٧)، وفي ٥/ ٢١٠ باب كراهية التطاول على الرقيق (٢٥٥١)، وفي ٦/ ١٦٩ كتاب الجهاد، باب: فضل من أسلم (٣٠١١)، وفي ٦/ ٥٥١ كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا﴾ (٣٤٤٦) وفي ٩/ ٢٩ كتاب النكاح، باب: اتخاذ السراري (٥٠٨٣)، ومسلم ١/ ١٣٤ ـ ١٣٥ كتاب الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ (٢٤١/ ١٥٤).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦٠) وعزاه إلى عبد بن حميد عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٩٦) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦٠) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٦) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٧٣.

هذه «اللام» متعلقة بمعنى الجملة الطَّلبية المتضمنة لمعنى الشرط، إذ التقدير: إن تتقوا الله، وتؤمنوا برسوله يؤتكم كذا وكذا لئلا يعلم(١).

وفي الآية هذه وجهان(٢):

أشهرهما عند النحاة والمفسرين: أنها مزيدة كهي في ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] و ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١]. على خلاف في هاتين الآيتين.

والتقدير: أعلمكم الله بذلك ليعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على شيء من فضلِ الله، وثبوت أن الفضل بيد الله، وهذا واضح بيِّن، وليس فيه إلا زيادة ما ثبتت زيادته شائعاً ذائعاً.

والثاني: أنها غير مزيدة، والمعنى: لئلا يعلم أهل الكتاب [عجز المؤمنين. نقل ذلك أبو البقاء(٣)، وهذا لفظه.

وكان قال قبل ذلك: «لا» زائدة، والمعنى: ليعلم أهل الكتاب](٤) عجزهم.

وهذا غير مستقيم؛ لأن المؤمنين عاجزون أيضاً عن شيءٍ من فضل الله، وكيف يعمل هذا القائل بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾، فإنه معطوف على مفعول العلم المنفي، فيصير التقدير: لئلا يعلم أهل الكتاب أنَّ الفضل بيد الله، وهذا لا يستقيم نفي العلم به ألبتة، فلا جرم كان قولاً مطرحاً.

وقرأ العامة: «لئلاَّ» بكسر لام كي، وبعدها همزة مفتوحة مخففة.

وورش يبدلها ياء محضة(٥). وهو تخفيف قياسي نحو: «مِيَة وفِيَة» في «مِئَة وفِئَة» ويدل على زيادتها **قراءة عبد الله**(٦)، **وابن عباس**، وعكرمة، والجحدري، وعبد الله بن سلمة: «ليعلم» بإسقاطها.

وقراءة حطَّان بن عبد الله(٧): «لأن يعلم» بإظهار «أن».

والجحدري أيضاً والحسن: «ليعلم».

وأصلها كالتي قبلها «لأن يعلم» فأبدل الهمزة ياء لانفتاحها بعد كسرة؛ وقد تقدم أنه قياسي كقراءة ورش «ليلاَّ» ثم أدغم النون في الياء.

---

(١) الدر المصون ٦/ ٢٨٢.

(٢) الدر المصون ٦/ ٢٨٢.

(٣) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢١١.

(٤) سقط من أ.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٨٢.

(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٧١، وقال ابن عطية: وروى إبراهيم التيمي عن ابن عباس: «كي يعلم»، وروي عن ابن عباس: «لكيلا يعلم»، وينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٢٧، والدر المصون ٦/ ٢٨٢.

(٧) ينظر: السابق، والقرطبي ١٧/ ١٧٣.

قال أبو حيان[١]: «بغير غُنَّةٍ كقراءة خلف «أن يضرب» بغير غُنَّةٍ». انتهى.

فصار اللفظ «ليعلم». وقوله «بغير غنة»، ليس عدم الغنة شرطاً في صحة هذه المسألة بل جاء على سبيل الاتفاق، ولو أدغم بغنة لجاز ذلك فسقوطها في هذه القراءات يؤيد زيادتها في المشهورة[٢].

وقرأ الحسن أيضاً[٣] فيما روى عنه أبو بكر بن مجاهد: «ليلا يعلم» بلام مفتوحة وياء ساكنة كاسم المرأة، ورفع الفعل بعدها.

وتخريجها: على أن أصلها «لأن لا» على أنها لام الجر ولكن فتحت على لغة مشهورة معروفة؛ وأنشدوا:

٤٧٢٨ ـ أُرِيـدُ لأَنْسَـىٰ ذِكْـرَهَـا... ....[٤]

بفتح «اللام»، وحذف الهمزة اعتباطاً، وأدغمت النون في «اللام» فاجتمع ثلاثة أمثال فثقل النطق به، وأبدل الوسط ياء تخفيفاً، فصار اللفظ «ليلا» كما ترى، ورفع الفعل؛ لأن «أنْ» هي المخففة لا النَّاصبة، واسمها على ما تقرر ضمير الشَّأن، وفصل بينهما وبين الفعل الذي هو خبرها بحرف النَّفي.

وقرأ الحسن[٥] أيضاً فيما روى عنه قطرب: «ليلا» بلام مكسورة، وياء ساكنة، ورفع الفعل بعدها، وهي كالَّتي قبلها في التخريج، غاية ما في الباب أنه جاء بلام الجر كما هي في اللغة الشهيرة.

وروي عن ابن عباس: «لكي يعلم» و «كي يعلم».

وعن عبد الله: «لكيلا»[٦].

وهذه كلها مخالفة للسَّواد الأعظم، ولسواد المصحف.

وقراءة العامة: «أن لا يقدرون» بثبوت النون، على أن «أنْ» هي المخففة.

وعبد الله: بحذفها[٧] على أن «أن» هي الناصبة.

وهذا شاذّ جداً؛ لأن العلم لا يقع بعده الناصبة.

وقوله: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ الظاهر أنه مستأنف.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٢٧،
(٢) الدر المصون ٦/ ٢٨٣.
(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٧١، والبحر المحيط ٨/ ٢٧٧، والدر المصون ٦/ ٢٨٣.
(٤) تقدم.
(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٧١، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٧، والدر المصون ٦/ ٢٨٣.
(٦) ينظر: المصدر السابق.
(٧) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٧١، والبحر المحيط ٨/ ٢٢٨، والدر المصون ٦/ ٢٨٣.

وقيل: هو خبر ثانٍ عن الفضل.

وقيل: هو الخبر وحده، والجار قبله حال، وهي حال لازمة؛ لأن كونه بيدِ الله لا ينتقل ألبتة[١].

فصل في اتصال الآية بما قبلها

نقل ابن الخطيب[٢] عن الواحدي أنه قال: هذه الآية مشكلة، وليس للمفسرين فيها قول واضح في كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها.

واعلم أن أكثر المفسرين على أن «لا» هاهنا صلة زائدة، والتقدير: ليعلم أهل الكتاب.

وقال أبو مسلم وجماعة: على أن «لا» ليست زائدة، ونحن نفسر الآية على القولين بعون الله وتوفيقه.

أما على القول بزيادتها، فاعلم أنه لا بُدَّ هاهنا من تقديم مقدمة، وهي أن أهل الكتاب كانوا يقولون: إن الوحْيَ والرسالة فينا، والكتاب والشرع ليس إلاَّ لنا، وإنّ الله خصَّنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين العالمين.

إذا عرفت هذا، فنقول: إن الله ـ تعالى ـ لما أمر أهل الكتاب بالإيمان بمحمد ﷺ ووعدهم الأجر العظيم في ذلك الإيمان أتبعه بهذه الآيةِ، والغرض منها أن يزيل عن قلبهم اعتقادهم بأن النبوة مختصة بهم، فقال: إنما بالغنا في هذا البيان ليعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيءٍ من فَضْل الله لقوم معينين، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة في قوم مخصوصين، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، ولا اعتراض عليه في ذلك أصلاً.

وأما القول بأن «لا» غير زائدة، فاعلم أن الضمير في قوله: «لا يَقْدرون» عائد إلى الرسول ﷺ وإلى أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ والتقدير: لئلا يعلم أهل الكتاب أن النبي والمؤمنين لا يقدرون على شيء من فضل الله، فإنهم إذا لم يعلموا أنهم لا يقدرون عليه، فقد علموا أنَّهم يقدرون عليه ثم قال: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ فيصير التقدير: إنا جعلنا كذا وكذا لئلا يعتقد أهل الكتاب أنهم يقدرون على حصر فضل الله في قوم معينين، وليعتقدوا أن الفضل بيد الله.

واعلم أنَّ هذا القول ليس فيه إلاَّ أنا أضمرنا فيه زيادة، فقلنا في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ تقديره: وليعتقدوا أنَّ الفضل بيد الله وأما القول الأول فقد افتقرنا فيه إلى حذف شيء موجود، ومن المعلوم أنَّ الإضمار أولى من الحذف؛ لأن الكلام إذا افتقر إلى الإضمار لم يوهم ظاهره باطلاً أصلاً.

---

(١) الدر المصون ٦/ ٢٨٣.

(٢) التفسير الكبير ٢٩/ ٢١٥، ٢١٦.

وأما إذا افتقرنا إلى الحذف كان ظاهرهُ موهماً للباطل، فعلمنا أن هذا القول أولى.

فصل في نزول هذه الآية[١]

قال قتادةُ: حسد أهل الكتاب المسلمين فنزلت: لئلا يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله[٢].

وقال مجاهد: قالت اليهود: يوشك أن يخرج منّا نبيٌّ يقطع الأيدي والأرجل، فلما خرج من العرب كفروا فنزلت: «لئلا يعلم»، أي: ليعلم أهل الكتاب ألا يقدرون يعني: أنهم لا يقدرون، كقوله: ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾[٣] [طه: ٨٩] والمراد من فضل الله.

قيل: الإسلام وقيل: الثواب.

وقال الكلبي: من رزق الله[٤].

وقيل: نِعَمُ الله التي لا تُحصَى.

﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ ليس بأيديهم، فيصرفوا النُّبُوَّة عن محمد ﷺ إلى من يُحِبُّون.

وقيل: إن الفضل بيد الله، أي: بقوله: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

روى البخاري عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو قائم على المنبر يقول: «إنَّما بَقَاؤكُم فِيمَا سَلَفَ قَبْلكُمْ مِنَ الأمم كما بَيْنَ صلاةِ العصْرِ إلى غُرُوبِ الشَّمسِ، أعْطِيَ أهْلُ التَّوراةِ التَّوْراةَ فَعمِلُوا بِهَا حتَّى انْتَصفَ النَّهارُ، ثُمَّ عَجزُوا فأعْطُوا قِيْراطاً قِيْراطاً، ثُمَّ أعطي أهْلُ الإنجيلِ الإنجيلَ فعمِلُوا بِهِ حتَّى صلاةِ العَصْرِ، ثُمَّ عَجَزُوا فأعْطُوا قِيْراطاً قِيْراطاً، ثُمَّ أعطيتُمُ القُرْآنَ فَعمِلْتُمْ بِهِ حتَّى غَربَتِ الشَّمْسُ فأعطيتُمْ قِيْراطَيْنِ قِيْراطَيْنِ، قال أهْلُ التَّوْرَاةِ: رَبَّنَا هؤلاءِ أقَلُّ عملاً وأكْثَرُ أجْراً، قال: هَلْ ظُلِمْتُمْ مِنْ أجْرِكُمْ شَيْئاً؟ قَالُوا: لا، قال: فذلِك فَضْلُ اللَّهِ أوتيهِ مَنْ أشَاءُ».

وفي رواية: «فَغَضِبَتِ اليَهُودُ والنَّصَارى وقالُوا: رَبَّنَا»[٥]. الحديث.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٧٣.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٩٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦١) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦١) عن مجاهد وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٧٣).

(٥) أخرجه البخاري (٢/ ٤٩) كتاب مواقيت الصلاة: باب من أدرك ركعة... حديث (٥٥٧) وفي (١٣/ ٤٥٥) كتاب التوحيد، باب: المشيئة والإرادة حديث (٧٤٦٧) و (١٣/ ١٥٧) كتاب التوحيد باب قوله تعالى: «قل فأتوا بالتوراة فاتلوها» حديث (٧٥٣٣). من حديث ابن عمر.

سورة المجادلة

[مدنية][1] في قول الجميع إلا رواية عن عطاء: أن العشر الأول منها مدني، وباقيها مكي[2].

وقال الكلبي: نزلت جميعها بـ «المدينة» غير قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] نزلت بـ «مكة»[3].

وهي ثِنْتَان وعشرون آية وأربعمائة وثلاث وسبعون كلمة وألف وسبعمائة واثنان وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ الآية.

«قَدْ» هنا للتوقع.

قال الزمخشري[4]: «لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع اللَّه مجادلتهما وشكواها، وينزل في ذلك ما يفرج عنها».

وإظهار الدال عند السين قراءة الجماعة[5] إلا أبا عمرو والأخوين.

ونقل عن الكسائي أنه قال: من بيَّن الدال عند السين فلسانه أعجمي، وليس بعربي. وهذا غير معرج عليه[6].

---

(١) في أ: مكية.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ٤٨٧).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) الكشاف ٤/ ٤٨٥.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٣٠، والدر المصون ٦/ ٢٨٤، وقال ابن عطية ٥/ ٢٧٢: وقرأ ابن محيصن «قد سمع» بالإدغام.

(٦) الدر المصون ٦/ ٢٨٤.

و «في زوجها» في شأنه من ظهاره إياها.

فصل فيمن جادلت الرسول ﷺ(١)

التي اشتكت هي خولة بنت ثعلبة.

وقيل: بنت حكيم.

وقيل: بنت خُويلد.

قال الماوردي(٢): وليس هذا بمختلف؛ لأن أحدهما: أبوها، والآخر: جدها، فنسبت إلى كل منهما.

قيل: كانت أمة.

وقيل: هي ابنة صامت.

وقيل: أمة لعبد الله بن أبي. وهي التي أنزل الله فيها: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٢٢] أي لا يكرهها على الزنا.

وقيل: هي ابنة حكيم.

قال النحاس: وهذا ليس بمُتناقض، يجوز مرَّة أن تنسب إلى أبيها، ومرَّة إلى أمها، ومرَّة إلى جدِّها، ويجوز أن تكون أمةً كانت لعبد الله بن أبي، فقيل لها: أنصارية بالولاء؛ لأنه كان في عداد الأنصاريين وأنه كان من المنافقين. نقله القرطبي.

وقيل: اسمها جميلة، وخولة أصح، وزوجها أوسُ بن الصَّامت أخو عبادة بن الصَّامت.

وروي أن عمر بن الخطاب مرَّ بها في خلافته، وهو على حمارٍ والناس معه، فاستوقفته طويلاً ووعظته، وقالت: يا عمرُ، قد كنت تدعى عُمَيراً ثم قيل لك: عمر، ثم قيل لك: أمير المؤمنين، فاتَّقِ الله يا عمر، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب، وهو واقف يسمع كلامها، فقيل له: يا أمير المؤمنين أتقفُ لهذه العجوز هذا الوقوف.

فقال: والله لو حَبَسَتْنِي من أول النهار إلى آخره لا زلت إلاَّ للصَّلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟ هذه خولة بنت ثعلبة، سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟!(٣).

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٧٥. (٢) النكت والعيون ٥/ ٤٨٧.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦٢)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم والبيهقي في «الأسماء والصفات» باختصار. عن ابن زيد عن عمر بن الخطاب أنه لقي امرأة.

وقالت عائشة: تبارك الذي وسِعَ سمعهُ كُلَّ شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله أكَلَ شَبَابي، ونَثَرْتُ له بطني حتَّى إذا كبرت سنّي، وانقطع ولدي ظاهر منّي، اللهم إني أشكو إليك فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ الآية[١].

روي أنها كانت حسنة الجِسْم، فرآها زوجها ساجدةً فنظر عجيزتها، فأعجبه أمرها، فلما انصرفت أرادها فأبَتْ فغضبَ عليها، قال عروة: وكان امرأً به لممٌ فأصابه بعض لممِهِ، فقال لها: أنْتِ عليَّ كظهْرِ أمِّي وكان الإيْلاء والظِّهار من الطلاق في الجاهلية، فسألت النبي ﷺ فقال لها: «حَرُمْتِ عليْهِ»، فقالت: والله ما ذكر طلاقاً، وإنه أبو ولدي وأحبّ الناس إليّ، فقال رسول الله ﷺ: «حَرُمْتِ عَليْهِ»، فقالت: أشكو إلى الله فَاقتِي ووحْدتِي، فقد طالت له صُحْبتي ونفَضْتُ له بَطْني، فقال رسول الله ﷺ: «مَا أرَاكِ إلاَّ قَدْ حَرُمْتِ عليْهِ ولَمْ أومر فِي شأنِك بِشيءٍ»، فجعلت تراجع رسول الله ﷺ وإذا قال لها رسول الله: «حَرُمْتِ عليْهِ» هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتِي وشدة حالي، وإن لي صبيةً صغاراً إن ضَممتُهُمْ إليَّ جاعُوا، وإن ضَممتُهُمْ إليه ضاعُوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهُم إني أشكو إليك فأنزل على لسان نبيك، وكان هذا أول ظهارٍ في الإسلام فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ الآية. فأرسل رسول الله ﷺ إلى زوجها، وقال: «مَا حَمَلَكَ عَلى ما صَنَعْتَ»؟ فقال: الشيطان، فهل من رُخْصَة؟ فقال: «نَعَمْ»، وقرأ عليه الأربع آيات، فقال: «هَلْ تَسْتطِيْعُ الصَّوْمَ»؟ فقال: لا والله، فقال: «هَلْ تَسْتطيعُ العِتْقَ»؟ فقال: لا والله، إني إن أخطأ في أن آكل في اليوم مرة أو مرتين لكلَّ بصري وظننت أني أموت، قال: «فأطْعِمْ ستِّيْنَ مِسْكيناً»، فقال: ما أجد إلا أن تعينني منك بعونٍ وصلةٍ، فأعانه رسول الله ﷺ بخمسةَ عشر صاعاً، وأخرج أوس من عنده مثله، فتصدق به على ستين مسكيناً.

فصل في اللمم الذي كان بأوس بن الصامت[٢]

قال أبو سليمان الخطَّابي[٣]: ليس المراد من قوله في هذا الخبر: وكان بن لَمَم الخبل والجنون، إذ لو كان به ثُمَّ ظاهر في تلك الحال لم يكن يلزمه شيء، بل معنى

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧)، وأحمد (٦/ ٤٦)، وابن ماجه (١/ ٦٦٦)، رقم (٢٠٦٣)، والحاكم (٢/ ٤٨١)، والبيهقي (٧/ ٣٨٢)، عن عائشة.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد روي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مختصراً ووافقه الذهبي.

وأخرجه البخاري (١٣/ ٣٨٤)، تعليقاً مختصراً عن عائشة.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢١٧.

(٣) ينظر: معالم السنن ٣/ ٢٥٤.

اللَّمَم هاهنا: الإلمام بالنساء وشدة الحِرْصِ والتَّوقَانِ إليهن.

فصل في الظهار(١)

اعلم أن الظِّهار كان من أشدّ طلاق الجاهلية؛ لأنه في التحريم أوكدُ ما يمكن، فإن كان الحكم صار مقرّراً في الشرع كانت الآية ناسخة له، وإلا لم يفد نسخاً؛ لأن النسخ إنما يدخل في الشَّرائع لا في عادة الجاهلية، لكن الذي روي أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال لها: «حَرُمْتِ» أوْ «مَا أَرَاكَ إلاَّ قَدْ حَرُمْتِ» كالدلالة على أنه كان شرعاً.

فأما ما روي أنه توقف في الحكم فلا يدل على ذلك.

وفي الآية دليل على أن من انقطع رجاؤه عن الخلق ولم يَبْقَ له في مهمه أحد سوى الخالق كفاه الله ذلك المُهِمّ.

فصل فيما حكاه الله عن هذه المرأة(٢)

اعلم أنَّ الله ـ تعالى ـ حكى عن هذه المرأة أمرين:

أحدهما: المجادلة وهو قوله تعالى: ﴿تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ أي: في شأن زوجها، وتلك المجادلة هي أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كلما قال لها: «حَرُمَتْ عَلَيْهِ»، قالت: والله ما ذكر طلاقاً.

والثاني: شكواها إلى الله فَاقَتَهَا ووحْدتهَا، وقولها: إن لي صبية صغاراً.

فصل في سمع الله تعالى

قال القرطبي(٣): الأصل في السماع إدراك المسمُوعات وهو اختيار أبي الحسن، وقال ابن فورك: الصحيح أنه إدراك المسمُوع.

وقال الحاكم أبو عبد الله: «السميع» هو المدرك للأصوات التي يدركها المخلوقون بآذانهم من غير أن يكون له أذن، وذلك راجع إلى أن الأصوات لا تخفى عليه، وإن كان غير موصوف بالحس المركب في الأذُن كالأصَم من النَّاس لما لم يكن له هذه الحاسة لم يكن أهلاً لإدراك الصوت، والسمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة، والحياة والإرادة، فهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه متّصفاً بهما.

وقرىء(٤): «تُحَاوِرُكَ» أي: تراجعك الكلام.

---

(١) الفخر الرازي ٢٩/ ٢١٨. (٢) ينظر السابق.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٧٧.

(٤) وقد نسبها ابن عطية إلى مصحف عبد الله، ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٣، والقرطبي ١٧/ ١٧٧.

قوله: ﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يجوز فيه وجهان[١]:

أظهرهما: أنه عطف على «تجادلك» فهي صلة أيضاً.

والثاني: أنها في موضع نصب على الحال، أي: تجادلك شاكيةً حالها إلى الله.

وكذا الجملة من قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ والحالية فيها أبعد.

و «شكا» و «اشتكى» بمعنى واحد.

و «المُحَاورة»: المراجعة في الكلام، حار الشيء يحُور حَوْراً، أي: رجع يرجع رجوعاً.

ومنه: «نعوذ بالله من الحور بعد الكورِ»، وكلمته فما أحار بكلمة، أي: فما أجاب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾. أي: يسمع كلام من يناديه، ويبصر من يتضرع إليه[٢].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ تقدم الخلاف في «تُظَاهرون» في سورة «الأحزاب»[٣]، وكذا في ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾ [الأحزاب: ٤].

وقرأ أبيّ هنا[٤]: «يَتَظَاهرون».

وعنه أيضاً: «يتظهرون».

وفي «الذين» وجهان[٥]:

أحدهما: أنه مبتدأ، وخبره: قوله «ما هُنَّ أمَّهاتِهِمْ».

الثاني: أنه منصوب بـ «بصير» على مذهب سيبويه في جواز إعمال «فعيل» قاله مكي[٦].

يعنى: أن سيبويه يعمل «فعيلاً» من أمثلة المبالغةِ، وهو مذهب مطعُون فيه على سيبويه؛ لأنه استدلّ على إعماله بقول الشاعر: [البسيط]

٤٧٢٩ ـ حَتَّى شَآهَا كَلِيلٌ مَوْهِناً عَمِلٌ ... بَـاتَـتْ طِـرَاباً وبَـاتَ الـلَّـيـلَ لَـمْ يَـنَـمِ[٧]

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٨٤. (٢) الفخر الرازي ٢٩/ ٢١٨.

(٣) سورة الأحزاب آية (٤).

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٣، والدر المصون ٦/ ٢٨٤، والقرطبي ١٧/ ١٧٧.

(٥) الدر المصون ٦/ ٢٨٤. (٦) ينظر: المشكل ٢/ ٧٢١.

(٧) قائل البيت هو ساعدة بن جؤية الهذلي.

ينظر خزانة الأدب ٨/ ١٥٥، ١٥٨، ١٦٤، وشرح أشعار الهذليين ٣/ ١١٢٩، وشرح المفصل ٦/ ٧٢، ٧٣، والكتاب ١/ ١١٤، والمنصف ٣/ ٧٦، والمقتضب ٢/ ١١٥، والمقرب ١/ ١٢٨، واللسان (عمل)، و(شأى)، و(أنق)، رصف المباني ٣/ ٧٦، حاشية يس ٢/ ٦٨، ومغني اللبيب ص ٤٣٥، والإيضاح الشعري للفارسي ص ٥٠٣، والدر المصون ٦/ ٢٨٤.

ورد عليه بأن «موهناً» ظرف زمان، والظروف يعمل فيها روائح الأفعال، والمعنى: يأتي «ما» قاله مكي.

وقرأ العامة: «أمَّهاتِهِمْ» بالنصب على اللغة الحجازية الفصحى، كقوله ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١].

وعاصم في رواية بالرفع على اللغة التميمية[١]، وإن كانت هي القياس لعدم اختصاص الحرف، وقرأ عبد الله[٢]: «بأمَّهاتهم» بزيادة الباء وهي تحتمل اللغتين.

وقال الزمخشري[٣]: «وزيادة الباء في لغة من يَنْصِبُ».

قال شهاب الدين[٤]: هذا هو مذهب أبي عليّ، يرى أن «الباء» لا تزاد إلا إذا كانت عاملة، فلا تزاد في التميمية، ولا في الحجازية إذا منع من عملها مانع، نحو: «ما إن زيد بقَائم»، وهذا مردُود بقول الفرزدق وهو تميمي: [الطويل]

٤٧٣٠ ـ لَعَمْرُكَ ما مَعْنٌ بتَارِكِ حَقِّهِ ... ولا مُنْسِىءٌ مَعْنٌ ولا مُتَيَسِّرُ[٥]

وبقول الآخر: [المتقارب]

٤٧٣١ ـ لَعَمْرُكَ مَا إنْ أبُو مالِكٍ ... بِوَاهٍ ولا بِضَعِيفٍ قُوَاه[٦]

فزادها مع «ما» الواقع بعدها «إن».

فصل في التعبير بلفظ الظهار

ذكر الظَّهْر كناية عن معنى الركوب، والآدمية إنما يُرْكَب بطنُها، ولكن كنَّى عنه بالظَّهر؛ لأن ما يركب من غير الآدميات فإنما يركب ظهره فكنَّى بالظهر عن الركوب، ويقال: نزل عن امرأته أي: طلقها كأنه نزل عن مركُوبه، ومعنى: أنت عليَّ كظهرِ أمي،

---

(١) ينظر: السبعة ٦٢٨، والحجة ٦/ ٢٧٧، وإعراب القراءات ٢/ ٣٥٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٧٣، والدر المصون ٦/ ٣٨٥، وقال القرطبي ١٧/ ١٨١: «وقرأ أبو معمر والسلمي وغيرهما بالرفع على لغة تميم».

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٣، والبحر المحيط ٨/ ٢٣١، والدر المصون ٦/ ٢٨٥.

(٣) الكشاف ٤/ ٤٨٥.

(٤) الدر المصون ٦/ ٢٨٥.

(٥) تقدم.

(٦) قائله هو المتنخل الهذلي، ونسب لذي الإصبع العدواني برواية:

وما إن أسيدُ أبو مالك ... بوان ولا بضعيف قواه

ينظر ديوان الهذليين ٢/ ٢٩، وأمالي المرتضى ١/ ٣٠٦، والخزانة ٢/ ٣٣، والهمع ١/ ١٢٧، والدرر ١/ ٣٠٠، والأشموني ١/ ٢٥٢، والأغاني ٢٣/ ٢٦٥، وشرح أشعار الهذليين ٣/ ١٢٧٦، والشعر والشعراء ٢/ ٦٦٤، وجواهر الأدب ص ٥٣، والدر المصون ٦/ ٢٨٥.

أي: أنت عليَّ محرمة لا يحلّ لي ركوبك نقله القرطبي[١].

ونقل ابن الخطيب[٢] عن صاحب «النظم»: أنه ليس مأخوذاً من الظَّهر الذي هو عضو من الجسد؛ لأنه ليس الظَّهر بأولى بالذكر في هذا الوضع من سائر الأعضاء التي هي مواضع المباضعةِ والتلذُّذ، بل الظهر هاهنا مأخوذ من العُلوّ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧] أي: يعلوه وكذلك امرأة الرجل ظهره؛ لأنه يعلوها بملك البضع وإن لم يكن ناحية الظَّهر، فكأن امرأة الرجل مركب للرجل وظهر له.

ويدلُّ على صحة هذا المعنى ما نقل عن العرب أنهم يقولون في الطلاق: نزلت عن امرأتي، أي: طلقتها، وفي قولهم: أنت عليّ كظهر أمي حذف وإضمار؛ لأن تقديره: ظهرك عليّ، أي ملكي إياك، وعلوي عليك حرام كما عُلوي على أمي وملكها عليّ.

فصل في حقيقة الظهار[٣]

حقيقة الظهار: تشبيه ظهر بظهر، والموجب للحكم منه تشبيه ظَهْر محلّل بظهر محرم، ولهذا أجمع الفقهاء على أنَّ من قال لزوجته: أنت عليَّ كظهرِ أمي، أنه مظاهر.

وقال أكثرهم: إذا قال لها: أنت عليّ كظهرِ ابنتي، أو أختي، أو من تحرم عليه على التأبيد من ذوات المحارم أنه مظاهر.

فصل في ألفاظ الظهار[٤]

وألفاظ الظِّهار: صريح وكناية:

فالصريح: أنت علي كظهر أمي، وأنت عندي، وأنت منّي، وأنت معي كظهر أمي، وكذلك أنت عليَّ كبطن أمي، أو كرأسها أو فرجها ونحوه، وكذلك فرجك، أو رأسك، أو ظهرك، أو بطنك، أو رجلك عليَّ كظهر أمي، فهو مظاهر مثل قوله: يدك، أو رجلك، أو رأسك، أو فرجك طالق تطلق عليه، ومتى شبهها بأمّه، أو بإحدى جداته من قبل أبيه، أو أمه فهو ظهار بلا خلاف[٥]، وإن شبهها بغيرهن من ذوات المحارم التي لا تحلّ له بحال كالبنت، والأخت، والعمة، والخالة كان مظاهراً عند أكثر الفقهاء.

والكناية: أن يقول: أنت عليَّ كأمي، أو مثل أمي، فإنه يعتبر فيه النية، فإن أراد الظهار كان ظهاراً، وإن لم ينو الظهار لم يكن مظاهراً على خلاف في ذلك، فإن شبه امرأته بأجنبيّة، فإن ذكر الظهر كان ظهاراً، وإن لم يذكر الظهر، فقيل: يكون ظهاراً.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٧٧.

(٢) الفخر الرازي: ٢٩/ ٢١٨، ٢١٩.

(٣) ينظر القرطبي ١٧/ ١٧٧.

(٤) ينظر القرطبي ١٧/ ١٧٨.

(٥) في أ: طلاق.

وقيل: طلاقاً.

وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يكون شيئاً.

وقيل: وهذا فاسد؛ لأنه شبّه محللاً من المرأة بمحرم، فأشبه الظهر. نقله القرطبي.

فإن قال: أنت عليَّ حرام كظهر أمي، كان ظهاراً ولم يكن طلاقاً؛ لأن قوله: أنت عليَّ حرام يحتمل التحريم بالطلاق، فيكون طلقة، ويحتمل التحريم بالظِّهار، فلما صرح به كان تفسيراً لأحد الاحتمالين، فقضي به فيه.

فصل

والظِّهار لازم في كلّ زوجة مدخول بها، أو غير مدخُول بها من كل زوج يجوز طلاقه[١].

وقال مالك: يجوز الظِّهار من كل من يجوز له وطؤها من إمائِهِ إذا ظاهر منهن لزمه الظِّهارُ فيهن، وقال غيره: لا يلزم.

قال ابن العربي[٢]: وهي مسألة عسيرةٌ جدًا؛ لأن مالكاً يقول: إذا قال لأمته: أنت عليَّ حرام لا يلزم، فكيف يبطل فيها صريح التحريم، وتصح كنايته.

قوله: ﴿مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ﴾ نعتان لمصدر محذوف أي قولاً منكراً وزوراً أي: كذباً وبهتاناً.

قاله مكي. وفيه نظر[٣]؛ إذ يصير التقدير: ليقولون قولاً منكراً من القولِ، فيصير قوله: «مِنَ القَوْلِ» لا فائدة فيه، والأولى أن يقال: نعتان لمفعول محذوف، لفهم المعنى، أي: ليقولون شيئاً منكراً من القول لتفيد الصفة غير ما أفاده الموصوف.

والمنكر من القول: ما لا يعرف في الشَّرْع، والزور: الكذب.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إذ جعل الكفارة عليهم مُخلصةً لهُمْ من هذا القَوْل المنكر[٤].

وقيل: «لعفو غفور» إما من قبل التوبة لمن يشاء، كما قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ١١٦].

أو بعد التوبة[٥].

فإن قيل: المظاهر إنما قال: أنْتِ عليَّ كظهرِ أمِّي، فشبه بأمه، ولم يقل: إنها أمه،

(١) ينظر القرطبي ١٧/ ١٧٩.
(٢) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٧٥١.
(٣) الدر المصون ٦/ ٢٨٥.
(٤) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٨١.
(٥) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٢٢.

فما معنى أنه جعله منكراً من القوْلِ وزُوراً. والزُّور: الكذب، وهذا ليس بكذب؟.

فالجواب[١]: أنَّ قوله إنْ كان خبراً فهو كذب، وإنْ كَانَ إنشاء فكذلك؛ لأنه جعله سبباً للتَّحريم، والشَّرْع لم يجعله سبباً لذلك.

وأيضاً فإنما وصف بذلك، لأن الأم مؤبدة التحريم، والزَّوْجة لا يتأبّد تحريمها بالظِّهار، وهذا ضعيف؛ لأنَّ المشبه لا يلزم أن يساوي المشبه به من كُلِّ وجهٍ.

فإن قيل: قوله: ﴿إلاَّ اللاَّئي ولَدْنَهم﴾ يقتضي أن لا أم إلا الوالدة، وهذا مشكل لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٦].

والحمل على حرمة النكاح لا يفيد؛ إذْ لا يلزمُ مِنْ عدم كوْنِ الزَّوجة أمَّا عدمُ الحُرمةِ، فظاهر الآية الاستدلال بعدم الأمومة على عدم الحرمة؟.

فالجواب[٢]: أنا نقول: هذه الزَّوجة ليست بأم حتى تحصل الحرمة بسبب الأمومة، ولم يرد الشرع بجعل هذه اللفظة سبباً للحرمةِ، فإذن لا تحصل الحرمة هناك ألبتّة فكان وصفهم لها بالحرمة كذباً وزوراً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ مبتدأ.

وقوله: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ مبتدأ ثان وخبره مقدم، أي: فعليهم، أو فاعل بفعل مقدر، أي: فيلزمهم تحرير، أو خبر مبتدأ مضمر، أي: فالواجب عليهم تحرير[٣].

فصل

ويلزم الظهار قبل النكاح إذا نكح التي ظاهر منها عند مالك، ولا يلزم عند غيره[٤] لقوله تعالى: ﴿مِّن نِّسَآئِهِمۡ﴾.

(١) ينظر: السابق.

(٢) السابق.

(٣) الدر المصون ٦/ ٢٨٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٧٩.

وإذا ظاهر صح ظهاره كما يصح طلاقه. وقال مالك: لا يلزم ظهاره؛ لأنه لا يصح تكفيره بالصِّيام، وهذا منقوض بظهار العبد، وهو لا يكفر بالعتقِ والإطعام.

فصل في عدم صحة ظهار المرأة من زوجها

لا يصح ظهار المرأة من زوجها، وعليها كفَّارة يمين، إنما الظهار على الرجال؛ لأن الحل والعقد في النكاح بيدِ الرجال ليس بيد المرأة منه شيء.

وقال الحسن بن زياد: هي مظاهرة.

وقال الزهري: أرى أن تكفر كفَّارة الظهار.

وقال محمد بن الحسن: لا شيء عليها.

فصل في المظاهرة حال الغضب والسكر

وإذا ظاهر حال غضبه لزمه حكم الظِّهار، للحديث، ويصح ظهار السكران وطلاقه، وإذا ظاهر من نسائه بكلمة واحدة فكفَّارة واحدة، وإن ظاهر منهنّ بكلمات فعليه لكل واحدة كفَّارة ظهار، وإذا قال لأربع نسوة: إن تزوجتكنّ فأنتن عليَّ كظهرِ أمي، فتزوج إحداهن لم يقربها حتى يكفِّر، ثم قد سقط اليمين فيه في سائرهن.

وقيل: لا يَطَأُ البواقي منهن حتى يكفر فإن قال لامرأته: أنت عليَّ كظهرِ أمي، وأنت طالق ألبتة، لزمه الطلاق والظِّهار معاً، ولم يكفر حتى ينكحها بعد زوج ولا يطؤها إذا نكحها حتى يكفر، فإن قال لها: أنت طالق ألبتَّة، وأنت عليّ كظهر أمي لزمه الطَّلاق، ولم يلزمه الظِّهار؛ لأن المبتُوتةَ لا يلحقها طلاق ولا ظهار(١)، ويصح الظهار المؤقّت كما لو قال: أنت اليوم عليَّ كظهرِ أمي فإنَّه يصحّ ويبطل بمضيّ اليوم.

وقال مالك: يتأبّد.

قوله: «منكم» توبيخ للعرب، وتهجين لعادتهم(٢) في الظِّهار؛ لأنه كان من أيمان الجاهلية خاصة، دون سائر الأمم.

وقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ أي: ما نساؤهم بأمهاتهم، ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾ أي إلا الوالدات.

وعلى التقادير الثلاثة، فالجملة خبر المبتدأ، ودخلت «الفاء» لما تضمنه المبتدأ من معنى الشرط.

قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾. في هذه «اللام» أوجه:

أحدها: أنها متعلقة بـ «يعودون».

---

(١) ينظر: القرطبي (١٧/ ١٧٩، ١٨٠).

(٢) الفخر الرازي ٢٩/ ٢٢١.

وفيه معان:

أحدها: والذين من عادتهم أنهم كانوا يقولون هذا القول في الجاهلية، ثمَّ يعودون لمثله في الإسلام.

الثاني: ثم يتداركون ما قالوا؛ لأن المتدارك للأمر عائد إليه، ومنه: «عَادَ غَيْثٌ عَلَى ما أفْسَدَ» أي تداركه بالإصلاح، والمعنى: أن تدارك هذا القول وتلافيه بأن يكفر حتى ترجع حالهما كما كانت قبل الظِّهار.

الثالث: أن يراد بما قالوا ما حرَّموه على أنفسهم بلفظ الظِّهار تنزيلاً للقول منزلة المقول فيه نحو ما ذكر في قوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾[1]، والمعنى: ثم يريد العود للتَّماسِّ. قاله الزمخشري[2].

وهذا الثالث هو معنى ما روي عن مالك، والحسن، والزهري: ثم يعودون للوطءِ، أي: يعودون لما قالوا: إنهم لا يعودون إليه، فإذا ظاهر ثُمَّ وطىء لزمتِ الكفَّارة عند هؤلاء.

الرابع: «لما قالوا»، أي: يقولونه ثانياً، فلو قال: أنت عليَّ كظهرِ أمي مرّة واحدة لم يلزمه كفارة؛ لأنه لم يَعُدْ لما قال، وهذا منقول عن بكير بن عبد الله الأشجّ، وأبي حنيفة، وأبي العالية، والفراء في آخرين، وهو مذهب أهل الظَّاهر.

قال ابن العربي[3]: وهذا القول باطل قطعاً؛ لأن قصص المتظاهرين قد رويت، وليس في ذكر الكفارة عليهم ذكر لعود القول منهم، والمعنى أيضاً ينقضه؛ لأن الله ـ تعالى ـ وصفه بأنه مُنْكَر من القول وزور، فكيف يقال: إذا أعدت القول المحرّم، والسَّبب المحظور وجبت عليك الكفَّارة، وهذا لا يعقل ألا ترى أنَّ كل سبب يوجب الكفَّارة لا يشترط فيه الإعادة من قتلِ ووطءِ في صوم؟.

الخامس: أن المعنى أن يعزم على إمساكها فلا يطلقها بعد الظِّهار حتى يمضي زمن يمكن أن يطلقها فيه، فهذا هو العودُ لما قال، وهو مذهب الشافعي، ومالك، وأبي حنيفة أيضاً.

وقال: العود هنا ليس بتكرير القول، بل بمعنى العزم على الوطء.

قال القرطبي[4]: وهذا ينتقض بثلاثة أمور:

أحدها: أنه قال: «ثُمَّ» وهي للتراخي.

الثاني: قوله: «ثم يعُودُون» يقتضي وجود فعل من جهته، ومرور الزمان ليس بفعل منه.

---

(١) الآية ٨ من سورة مريم.
(٢) الكشاف ٤/ ٤٨٧.
(٣) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٧٥٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٨٢.

الثالث: أن الطلاق الرَّجْعِي لا ينافي البقاء على الملك، فلم يسقط حكم الظِّهار كالإيلاء.

وقال مكي[١]: «واللام متعلقة بـ «يَعُودُون» أي: يعودون لوطءِ المقول فيه الظهار، وهن الأزواج فـ «ما» والفعل مصدر، أي: لقولهم، والمصدر في موضع المفعول به، نحو: «هذا دِرْهم ضرب الأمير» أي: مضروبه، فيصير المعنى، كقولهم للمقول فيه الظِّهار، أي: لوطئه».

وهذا معنى قول الزمخشري في الوجه الثالث الذي تقدم تقريره عن الحسن، والزهري، ومالك إلاَّ أن مكيًا قيد ذلك بكون «ما» مصدرية حتى يقع المصدر المؤول موضع اسم المفعول، وفيه نظر؛ إذ يجوز ذلك وإن كانت «ما» غير مصدرية لكونها بمعنى «الذي» ونكرة موصوفة، بل جعلها غير مصدرية أولى؛ لأن المصدر المؤول فرع المصدر الصريح، إذ الصريح أصل للمؤول به، ووضع المصدر موضع اسم المفعول خلاف الأصل، فيلزم الخروج عن الأصل بشيئين: بالمصدر المؤول، ثم وقوعه موقع اسم المفعول، والمحفوظ من لسانهم إنما هو وضع المصدر الصَّريح موضع المفعول لا المصدر المؤول فاعرفه.

لا يقال: إن جعلها غير مصدرية يحوجُ إلى تقدير حذف مضاف ليصحّ المعنى، أي: يعودون لوطء الذي ظاهر منها، أو امرأة ظاهر منها، أو يعودون لإمساكها.

والأصل: عدم الحذف؛ لأن هذا مشترك الإلزام لنا ولكم، فإنكم تقولون أيضاً: لا بد من تقدير مضاف، أي: يعودون لوطء أو لإمساك المقول فيه الظهار، ويدل على جواز كون «ما» في هذا الوجه غير مصدرية ما أشار إليه أبو البقاء، فإنه قال[٢]: يتعلق بـ «يعودون» بمعنى يعودون للقول فيه، هذا إن جعلت «ما» مصدرية، ويجوز أن تجعلها بمعنى «الذي» ونكرة موصوفة.

الثاني: أن «اللام» تتعلق بـ «تحرير»، وفي الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: والذين يُظَاهرون من نسائهم فعليهم تحرير رقبة لما نطقوا به من الظِّهار، ثم يعودون للوطء بعد ذلك. وهذ ما نقله مكي وغيره عن الأخفش.

قال أبو حيَّان[٣]: «وليس بشيء؛ لأنه يفسد نظم الآية».

وفيه نظر؛ لأنا لا نسلم فساد النظم مع دلالة المعنى على التقديم والتأخير، ولكن

---

(١) ينظر المشكل ٢/ ٧٢١.

(٢) ينظر: التبيان ص ١٢١٢، والدر المصون ٦/ ٢٨٦.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٣٢.

نسلم أن ادِّعاء التقديم والتأخير لا حاجة إليه؛ لأنه خلاف الأصل.

الثالث: أن «اللام» بمعنى «إلى»، و «اللام» و «إلى» يتعاقبان، قال تعالى: ﴿هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] وقال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] وقال: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [هود: ٣٦] قاله الأخفش.

الرابع: أنها بمعنى «في»، نقلها أبو البقاء، ومع ذلك فهي متعلقة بـ «يعودون».

الخامس: أنها متعلقة بـ «يقولون».

[قال مكي(١): وقال قتادة: ثم يعودون لما قالوا من التحريم فيحلونه(٢)، فاللام على هذا تتعلق بـ «يقولون»](٣).

قال شهاب الدين(٤): «ولا أدري ما هذا الذي قاله مكي، وكيف فهم تعلقها بـ «يقولون» على تفسير قتادة، بل تفسير قتادة نص في تعلقها بـ «يعودون»، وليس لتعلقها بـ «يقولون» وجه».

ونقل القرطبي(٥) عن الفرَّاء قال: اللام بمعنى «عن» والمعنى: ثم يرجعون عما قالوا، ويريدون الوطء.

وقال أبو مسلم(٦): العود هو أن يحلف أولاً على ما قال من لفظ الظهار، فلو لم يَحْلف لم تلزمه كفارة كما لو قال في المأكول: هو عليَّ حرام كَلَحْمِ الآدمي فلا كفَّارة عليه، فإذا حلف عليه لزمته كفارة يمين.

وهذا ضعيف؛ لأن الكفَّارة قد تجب بالجماعِ في الحجّ، وفي رمضان، وفي قتل الخطأ، ولا يمين هناك.

قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فعلية إعتاق رقبةٍ(٧)، يقال: حرَّرته، أي: جعلته حرًّا، ثم هذه الرقبة يجب أن تكون كاملة سالمة من كل عيب، ومن كمالها إسلامها كالرَّقبة في كفَّارة القتل، فإذا أعتق نصفي عبدين لم يجزه.

وقال الشافعي: يجزيه لأنَّ النِّصفين في معنى العبد الواحد؛ ولأن الكفَّارة في العتقِ طريقها المال، فجاز أن يدخلها التَّبعيض كالإطعام، ودليل الأول قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وهذا الاسم عبارة عن شخص واحد، وبعض الرقبة ليس رقبة؛ ولأنه لو أوصى رجلين أن يحجا عنه حجة لم يجز أن يحجّ واحد منهما نصفها، ولو أوصى أن يشتري رقبة فيعتق

---

(١) ينظر: المشكل ٢/ ٧٢٢.
(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٠٥).
(٣) سقط من: أ.
(٤) الدر المصون ٦/ ٢٨٧.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٨٣.
(٦) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٢٥.
(٧) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٨٣.

عنه لم يجز أن يعتق نصف عبدين، كذا ها هنا.

وروي عن أحمد ـ رضي الله عنه ـ إن كان باقيهما حراً صح وأجزأ، وإلاَّ فلا؛ لأن المقصود تكميل الحرية وقد كملت، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «لَيْسَ لِلَّهِ شَرِيْكٌ فإنْ أعْتِقَ مُكَاتبٌ عَنِ الكفَّارةِ لَمْ يَجْزهِ»[(١)].

وقال أبو حنيفة: إن أعتقه قبل أن يؤدي شيئاً أجزأه، وإن أعتق بعد أن أدى شيئاً لم يجزه، فإن أعتق ذا رحمه المحرم عن كفارته عتق، ولم يُجْزه عن الكفارة.

قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾، أي: من قبل أن يجامعها، فلا يجوز للمظاهر الوطء قبل التكفير فإن جامعها قبل التّكفير عصى، ولا يسقط عنه التكفير[(٢)].

وحكي عن مجاهد: أنه إذا وطىء قبل أن يشرع في التكفير لزمه كفَّارة أخرى[(٣)]، وعن غيره أن الكفَّارة الواجبة بالظِّهار تسقط عنه، ولا يلزمه شيء أصلاً؛ لأن الله ـ تعالى ـ أوجب الكفَّارة، وأمر بها قبل المسيسِ، فإذا أخَّرها حتى مسَّ فقد فات وقتُها، والصحيح ثبوت الكفَّارة؛ لأنه بوطئه ارتكب إثماً، وذلك ليس بمسقط للكفَّارة، ويأتي بها قضاء كما لو أخَّر الصلاة عن وقتها، وسواء كانت الكفَّارة بالعِتْقِ، أو الصوم، أو الإطعام.

وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: إن كانت بالإطعام جاز أن يطأ ثم يطعم، فأما غير الوطء من القبلة والمباشرة والتلذُّذ فلا يحرم في قول أكثر العلماء.

فصل فيمن ظاهر من امرأته مراراً

إذا ظاهر مراراً من امرأته ولم يُكفر، فكفَّارة واحدة إلا أن يكون قد كفَّر عن الأول، فعليه للثاني كفَّارة.

قال: وينبغي للمرأة ألا تدعه يقربها حتى يكفِّر، فإن تهاون بالتكفير حال الإمام بينها وبينه، ويجبره على التكفير وإن كان بالضرب حتى يوفيها حقها من الجماع.

قال الفقهاء: ولا شيء من الكفارة يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظِّهار وحدها؛ لأن ترك التكفير إضرار بالمرأة، وامتناع من إيفاء حقّها[(٤)].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾ أي: تؤمرون به.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ من التَّكفير وغيره.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٣٣)، وأحمد (٥/ ٧٤، ٧٥)، والبيهقي (١٠/ ٢٧٣)، من حديث أبي الوليد عن أبيه.

(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٨٣، ١٨٤.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٨٣).

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٢٦.

قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِطْعَامُ﴾ كقوله في الأوجه الثلاثة المتقدمة من قبلُ، متعلق بالفعل أو الاستقرار المتقدم، أي: فيلزم تحرير، أو صيام، أو فعليه كذا من قبل تماسهما. والضمير في «يتماسَّا» للمظاهر والمظاهر منها لدلالة ما تقدم عليها(١).

فصل إذا لم يجد الرقبة(٢)

من لم يجد الرقبة ولا ثمنها، وكان مالكاً لها إلاَّ أنه شديد الحاجة إليها لخدمته، أو كان مالكاً لثمنها إلاَّ أنه يحتاج إليه لنفقته، أو كان له مسكن ليس له غيره، ولا يجد شيئاً سواه فله أن يصوم.

وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: لا يصوم وعليه العتق، ولو كان محتاجاً إلى ذلك.

والصيام الواجب في هذه الكفَّارة أن يصوم شهرين متتابعين، فإن أفطر في أثنائها بغير عُذرٍ استأنفهما وإن أفطر بعذر من سفر أو مرض، فقال ابن المسيب والحسن وعطاء بن أبي رباح وعمرو بنُ دينار والشعبي: يبني على ما مضى، وهو الصحيح من مذهب الشافعي.

فإن ابتدأ الصيام، ثم وجد الرقبة لم يلزمه الانتقال عنه؛ لأنه أمر به حين دخل فيه.

وقال أبو حنيفة رضي الله عنه يعتق قياساً على الصغيرة المعتدة بالشهور إذا رأت الدَّم قبل انقضاء عدّتها، فإنها تستأنف الحَيْض إجماعاً، فإن وطىء المظاهر في خلال الشهرين نهاراً بطل التتابع، وإن وطىء ليلاً لم يبطل؛ لأنه ليس محلاً للصَّوم.

وقال أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ ومالك: يبطل بكل حال، ويجب عليه ابتداء الكفَّارة لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ وهذا شرط عائد إلى جملة الشهرين.

ومن طال مرضه طولاً لا يرجى بُرْؤه(٣)، وكان بمنزلة العاجز من كبرٍ، فيجوز له العدول عن الصيام إلى الإطعام.

فإن كان يرجى بُرْؤه، واشتدت حاجته إلى وَطْءِ امرأته فالاختيار له أن ينتظر البُرْءَ حتى يقدر على الصيام، فإذا كفَّر بالإطعام، ولم ينتظر القدرة على الصيام أجزأه.

فإن ظاهر وهو موسرٌ، ثم أعسر قبل أن يكفر صام، وإنما ينظر إلى حاله يوم يكفر، ولو جامعها في عدمه وعسره، فلم يكفر حتى أيسر لزمه العِتْق.

ولو ابتدأ بالصوم ثم أيسر، قال القرطبي رحمه الله(٤): فإن كان مضى من صومه صدر صالح كالجمعة وشبهها تمادى، وإن كان يوماً أو يومين ترك الصوم، وعاد إلى

---

(١) الدر المصون ٦/ ٢٨٧.

(٢) ينظر القرطبي ١٧/ ١٨٤.

(٣) القرطبي ١٧/ ١٨٤، ١٨٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٨٥.

العتق، وليس ذلك بواجب عليه.

ولو ظاهر عن امرأتين له فأعتق رقبة عن إحداهما لا بعينها لم يجز له وطء واحدة منهما حتى يكفر الكفَّارة الأخرى، ولو عين الكفَّارة عن إحداهما جاز له أن يطأها قبل أن يكفر الكفَّارة عن الأخرى.

قال القرطبي[١]: «ولو ظاهر من أربع نسوة، فأعتق عنهن ثلاث رقاب، وصام شهرين لم يجزه العِتْق ولا الصيام؛ لأنه إنما صام عن كل واحدة خمسة عشر يوماً، فإن كفر عنهن بالإطعام جاز أن يطعم عنهن مائتي مسكين، فإن لم يقدر فرّق بخلاف العتق والصيام؛ لأن صيام الشهرين لا يفرق والإطعام يفرق».

[قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ﴾ الآية كقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ في الأوجه الثلاثة المتقدمة، و «مِنْ قَبْل» متعلق بالفعل، أو الاستقرار المتقدم، أي: فيلزمه تحرير، أو صيام أو فعليه كذا من قبل تماسهما، والضمير في «يتماسّا» للمظاهر والمظاهر منها لدلالة ما تقدم][٢].

فصل في الترتيب في كفَّارة الظهار[٣]

اعلم أن الله ـ تعالى ـ أمر بكفَّارة الظهار مرتبة، فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الإعتاق، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام، فمن لم يطق الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكيناً لكل مسكين مد من طعام بمدِّ النبي ﷺ.

قال ابن عبد البرّ[٤]: والأفضل مُدَّان بمُدِّ النبي ﷺ ولا يجزىء عند مالك، والشافعي ـ رضي الله عنهما ـ أن يطعم أقل من ستين مسكيناً.

وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: لو أطعم مسكيناً واحداً كل يوم نصف صاعٍ حتى يكمل العدد أجزأه.

وعن أحمد ـ رضي الله عنه ـ إذا لم يجد إلاَّ مسكيناً واحداً ردد عليه بعدد الأيام.

فصل في نسخ الظهار لما كانوا عليه[٥]

حكم الظِّهار ناسخ لما كانوا عليه من كون الظِّهار طلاقاً في الجاهلية، روي ذلك عن ابن عباس وأبي قلابة وغيرهما.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا﴾.

---

(١) السابق.

(٢) تقدم بتمامه.

(٣) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٨٥.

(٤) الاستذكار: ١٠/ ١٠٤، ١٠٥.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٨٦.

قال الزَّجَّاج(١): «ذلك» فيه وجهان:

الأول: أنه في محل رفع، أي: الغرض ذلك الذي وصفنا من التَّغليظ في الكفَّارة، «لتُؤمِنُوا» أي: لتصدقوا أن الله أمر به.

الثاني: فعلنا ذلك للبيان والتعظيم للأحكام لتصدقوا بالله ورسوله ﷺ والعمل بشرائعه، ولا تستمروا على أحكام الجاهلية من جعل الظهار أقوى أنواع الطَّلاق.

فصل في أن الكفارة إيمان بالله تعالى(٢)

استدلّ بعض العلماء على أنَّ هذه الكفَّارة إيمان بالله تعالى؛ لأنه لما ذكرها وأوجبها، قال جل ذكره: «لتُؤمِنُوا باللَّهِ ورسُوله»، أي: ذلك لتكونوا مطيعين لله تعالى واقفين عند حدوده لا تتعدّوها، فسمى التكفير إيماناً؛ لأنه طاعة، ومراعاة للحد، فثبت أن كل ما أشبهه فهو إيمان.

فصل في معنى الآية(٣)

معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ أي: لئلا تعودوا للظِّهار الذي هو منكر من القول وزور.

قيل له: قد يجوز أن يكون كلاهما مقصوداً، فيكون المعنى: ذلك لئلا تعودوا، فتقولوا المنكر والزور، بل تدعونهما طاعة لله ـ سبحانه وتعالى ـ إذ كان قد حرمهما، ولتجتنبوا المظاهر منها إلى أن تكفروا إذا كان الله منع من مَسِيْسهَا وتكفروا إذا كان الله ـ عز وجل ـ أمر بالكفَّارة، وألزم إخراجها منكم، فتكونوا بهذا كله مؤمنين بالله ورسوله ﷺ لأنها حدود تحفظونها وطاعات تؤدّونها، والطَّاعة لله ورسوله ﷺ إيمان بالله ورسوله.

فصل في إدخال العمل تحت مسمى الإيمان

قال ابن الخطيب(٤): استدل من أدخل العمل في مسمى الإيمان بهذه الآية، فقال: إن الله ـ تعالى ـ أمرهم بها ليصيروا بعملها مؤمنين، فدل على أن العمل من الإيمان، ومن أنكر ذلك قال: إنه ـ تعالى ـ لم يقل: ذلك لتؤمنوا باللَّهِ بعمل هذه الأشياء، ونحن نقول: المعنى «ذلك لتؤمنوا بالله» والإقرار بهذه الأحكام.

فصل فيمن استدل بهذه الآية على أن أفعال الله معللة بالأغراض(٥)

استدلت المعتزلة في قوله تعالى «لتؤمنوا» على أن فعل الله معلل بالغرض، وعلى

---

(١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ٥/ ١٣٦، والفخر الرازي ٢٩/ ٢٢٨، والقرطبي ١٧/ ١٨٦.

(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٨٧. (٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٢٨. (٥) السابق.

أن غرضه أن تؤمنوا، ولا تستمروا على ما كانوا عليه من الكفر، وهذا يدلّ على أنه ـ تعالى ـ أراد منهم الإيمان وعدم الكفر.

قوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي بيّن معصيته وطاعته، فمعصيته الظِّهار، وطاعته الكفارة.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لمن جحد هذا وكذاب به، ولم يصدق بأحكام الله تعالى له عذاب جهنم(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية.

قال المبرد: أصل «المحادّة» الممانعة، ومنه يقال للبواب: حداد، وللممنوع الرزق: محدود(٢).

وقال أبو مسلم الأصفهاني: «المحادّة»: مفاعلة من لفظ الحديدِ، والمراد المقاتلة بالحديد، سواء كان ذلك في الحقيقة، أو كان منازعة شديدة شبيهة للخصومة بالحديد.

فصل في مناسبة الآية لما قبلها(٣)

لما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادّين المخالفين لها، قال المفسرون: المُحادة: المُعَاداة والمخالفة في الحدود، وهو كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: ١٣].

وقيل: يحادون الله، أي: أولياء الله كما جاء في الخبر: «مَنْ أهَانَ لِي وليًّا فقدْ بَارَزَني بالمُحاربةِ»(٤).

قال الزجاج(٥): المحادّة: أن تكون في حد يخالف حد صاحبك.

والضمير في قوله «يحادّون» يمكن أن يرجع إلى المُنافقين(٦)، فإنهم كانوا يوادّون الكافرين، ويظاهرونهم على النبي ﷺ فأذلهم الله سبحانه وتعالى، ويحتمل أن يرجع

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٨٧.
(٢) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٢٨.
(٣) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٨٧.
(٤) أخرجه بهذا اللفظ القضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٥٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣١٨ ـ ٣١٩)، وابن أبي الدنيا في «كتاب الأولياء» رقم (١).
والحديث أصله في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب... الخ». أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٦٥٠٢)، وله شاهد من حديث عائشة أخرجه أحمد (٦/ ٢٥٦)، والبزار (٣٦٢١ ـ كشف)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥)، والبيهقي في «الزهد» رقم (٦٩٣)، من طريق عبد الواحد بن ميمون عن عروة عنها.
وعبد الواحد بن ميمون قال البخاري: منكر الحديث.
(٥) ينظر: معاني القرآن ٥/ ١٣٦.
(٦) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٢٨، ٢٢٩.

لجميع الكُفَّار، فأعلم الله تعالى رسوله ﷺ أنهم كبتوا، أي خذلوا.

قال المبرد رحمه الله تعالى: كبت الله فلاناً، أي: أذلّه، والمردود بالذل يقال له مكبوت.

وقال أبو عبيدة والأخفش: أهلكوا.

وقال قتادة: خزوا كما خزي الذين من قبلهم[١].

وقال ابن زيد: عذبوا[٢].

وقال السدي: لعنوا[٣]، وقال الفراء: غيظوا يوم الخندق.

وقيل: يوم «بدر».

وقيل معنى كبتوا: أي سيكبتون، وهو بشارة من الله للمؤمنين بالنصر، وأخرج الكلام بلفظ الماضي تقريباً[٤] للمخبر عنه.

وقيل: لغة مذحج[٥].

ويحتمل أن يكون لتحقق وقوعه، والمراد بالذين من قبلهم أعداء الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فيمن حاد الله ورسوله من الذين من قبلهم فيما فعلنا بهم ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ بهذه الآيات ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يذهب بعزّهم وكبرهم، فبين تعالى أن عذاب المحاربين في الدنيا الذُّل والهوان، وفي الآخرة العذاب الشديد[٦].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾.

فيه أوجه[٧]:

أحدها: أنه منصوب بـ «عذاب مهين».

الثاني: أنه منصوب بفعل مقدر، فقدره أبو البقاء[٨]: يهانون أو يعذبون، أو استقر ذلك يوم يبعثهم، وقدره الزمخشري[٩] بـ «اذكر» قال: تعظيماً لليوم.

الثالث: أنه منصوب بـ «لهم». قاله الزمخشري[١٠]، أي: بالاستقرار الذي تضمنه لوقوعه خبراً.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٢)، عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦٩)، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٨٧)، عن ابن زيد.

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) في أ: تقريعاً.

(٥) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٨٧.

(٦) الفخر الرازي ٢٩/ ٢٢٩.

(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٨٧.

(٨) ينظر التبيان ص ١٢١٢.

(٩) الكشاف ٤/ ٤٨٩.

(١٠) السابق.

الرابع: أنه منصوب بـ «أحصاه»، قاله أبو البقاء[١]، وفيه قلق؛ لأن الضمير في «أحصاه» يعود على «ما عملوا». قوله: «جَمِيعاً» أي: الرجال والنساء، أي: كلهم لا يترك منهم واحداً.

وقيل: مجتمعين في حال واحدة ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ أي: يخبرهم بما عملوا في الدنيا تخجيلاً لهم وتوبيخاً[٢].

﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ عليهم في صحائف أعمالهم «ونَسُوهُ» حتى ذكرهم به في صحائفهم ليكون أبلغ في الحجة عليهم[٣].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي شاهد مطلع وناظر لا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾

ثم إنه ـ تعالى ـ أكد بيان كونه عالماً بكل المعلومات، فقال جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه سرّ ولا علانية.

قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ﴾.

«يكون» تامة، و «من نجوى» فاعلها، و «من» مزيدة فيه، و «نجوى» في الأصل مصدر، فيجوز أن يكون باقياً على أصله، ويكون مضافاً لفاعله، أي: ما يوجد من تناجي ثلاثة، ويجوز أن يكون على حذف، أي: من ذي نَجْوَى، ويجوز أن يكون أطلق على الأشخاص المتناجين مبالغة.

فعلى هذين الوجهين ينخفض «ثلاثة» على أحد وجهين[٤]:

إما البدل من «ذوي» المحذوفة، وإما الوصف لها على التقدير الثاني، وإما البدل، أو الصفة لـ «نجوى» على التقدير الثالث.

---

(١) ينظر التبيان ص ١٢١٢.

(٢) ينظر: الرازي ٢٩/ ٢٢٩.

(٣) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٨٧.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٨٧.

وقرأ ابن[١] **أبي عبلة**: «ثلاثة»، و «خمسة» نصباً على الحال، وفي صاحبها وجهان[٢]:

أحدهما: أنه محذوف مع رافعه تقديره: يتناجون ثلاثة، وحذف لدلالة «نجوى».

والثاني: أنه الضمير المستكن في «نجوى» إذا جعلناها بمعنى المتناجين [قاله الزمخشري[٣]، رحمه الله.

قال مكي[٤]: «ويجوز في الكلام رفع «ثلاثة» على البدل من موضع «نجوى»؛ لأن موضعها رفع و «من» زائدة، ولو نصبت «ثلاثة» على الحال من الضمير المرفوع إذا جعلت «نجوى» بمعنى المتناجين جاز في الكلام»][٥].

قال شهاب الدين[٦]: «ولا يقرأ به فيما علمت، وهو جائز في غير القرآن كما قال، وأما النصب فقد قرىء به، وكأنه لم يطلع عليه».

قوله: **﴿إلا هو رابعهم﴾**، **﴿إلا هو خامسهم﴾**، **﴿إلا هو معهم﴾** كل هذه الجمل بعد «إلا» في موضع نصب على الحال أي: ما يوجد شيء من هذه الأشياء إلا في حال من هذه الأحوال، فالاستثناء مفرغ من الأحوال العامة.

وقرأ أبو جعفر[٧]: «ما تكون» بتاء التأنيث لتأنيث النجوى.

قال أبو الفضل: إلا أنَّ الأكثر في هذا الباب التذكير على ما في قراءة العامة؛ لأنه مسند إلى «من نجوى» وهو اسم جنس مذكر.

قال ابن جني[٨]: التذكير الذي عليه العامة هو الوجه؛ لوقوع الفاصل بين الفعل والفاعل، وهو كلمة «من»، ولأن تأنيث النجوى غير حقيقي.

قوله: «ولا أكْثَرَ».

العامة على الجر عطفاً على لفظ «نجوى».

وقرأ الحسن[٩]، **والأعمش، وابن أبي إسحاق**، وأبو حيوة ويعقوب: «ولا أكثر» بالرفع، وفيه وجهان[١٠]:

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٨٩. والبحر المحيط ٨/ ٢٣٣، والدر المصون ٦/ ٢٨٧، والقرطبي ١٧/ ١٨٨، والرازي ٢٩/ ٢٣٠.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٨٧.

(٣) الكشاف ٤/ ٤٩٠.

(٤) ينظر المشكل ٢/ ٧٢٣.

(٥) سقط من ب.

(٦) الدر المصون ٦/ ٢٨٧.

(٧) وهي قراءة أبي حيوة كما في المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٦، وقراءة الأعرج وعيسى كما في القرطبي ١٧/ ١٨٨، وينظر: الرازي ٢٩/ ٢٣٠، والدر المصون ٦/ ٢٨٨.

(٨) ينظر: المحتسب ٢/ ٣١٥.

(٩) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٣، والدر المصون ٦/ ٢٨٨، والقرطبي ١٧/ ١٨٨، وزاد: «سلام، وأبو العالية، ونصر، وعيسى».

(١٠) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٨٨.

أحدهما: أنه معطوف على موضع «نجوى» لأنه مرفوع، و «من» مزيدة، فإن كان مصدراً كان على حذف مضاف كما تقدم، أي: من ذوي نجوى، وإن كان بمعنى متناجين، فلا حاجة إلى ذلك.

الثاني: «أدنى» مبتدأ، و «إلاَّ هو معهم» خبره، فيكون «ولا أكثر» عطفاً على المبتدأ، وحينئذ يكون «ولا أدنى» من باب عطف الجمل لا المفردات.

وقرأ الحسن ويعقوب[1] **أيضاً ومجاهد والخليل**: «ولا أكبر» بالباء الموحدة والرفع على ما تقدم.

وزيد بن علي[2]: «ينبيهم» ـ بسكون النون ـ من أنبأ إلاَّ أنه حذف الهمزة وكسر الهاء.

وقرىء كذلك إلا أنه بإثبات[3] **الهمزة** وضم الهاء، والعامة بالتشديد من «نبأ».

فصل في النجوى

«النَّجْوَى»: التناجي، وهو السرار وهو مصدر يوصف به، يقال: قوم نجوى، وذوو نجوى.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾.

قال الزجاج[4]: «النجوى» مشتقة من النجوة وهي ما ارتفع وتنجى، فالكلام المذكور سرًّا، لما خلا عن استماع الغير صار كالأرض المرتفعة، فإنها لارتفاعها خلت عن اتصال الغير، والسرار ما كان بين اثنين.

قوله: ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أي: يعلم، ويسمع نجواهم بدليل افتتاح الآية بالعلم[5].

فإن قلت: ما الحكمة في ذكره ـ سبحانه وتعالى ـ الثلاثة والخمسة، وأهمل الأربعة؟.

فالجواب من وجوه[6]:

الأول: أن ذلك إشارة إلى كمال الرحمة؛ لأن الثلاثة إذا اجتمعوا، فإذا تناجى اثنان

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٤، والدر المصون ٦/ ٢٨٨، والقرطبي ١٧/ ١٨٨، وقال: وقرأ الزهري وعكرمة «أكبر» بالباء.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٣٤، والدر المصون ٦/ ٢٨٨.

(٣) السابق.

(٤) ينظر: معاني القرآن ٥/ ١٣٧، والفخر الرازي ٢٩/ ٢٣٠.

(٥) القرطبي ١٧/ ١٨٨.

(٦) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٣٠، ٢٣١.

منهم بقي الثالث ضائعاً وحيداً، فيضيق عليه، ولهذا قال النبي ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلاثَةً فَلا يَتَنَاجَى اثْنَان دُونَ الثَّالِثِ إلاّ بإذْنِهِ فإنَّ ذلِكَ يُحْزِنه»[1].

فكأنه ـ تعالى ـ يقول: أنا جليسك وأنيسك، وكذا الخمسة إذا اجتمعوا بقي الخامس وحيداً فريداً.

الثاني: أن العدد الفرد أشرف من الزوج؛ لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ وتر يحب الوتر، فخص أعداد الفرد بالذكر تنبيهاً على أنه لا بد من رعاية الأمور الإلهية في جميع الأمور.

الثالث: أن أقل ما لا بد منه في المشاورة التي يكون الغرض منها تمهيد مصلحة ثلاثة حتى يكون الاثنان كالمتنازعين في النفي والإثبات، والثالث كالحاكم بينهما، فحينئذ تكمل المشورة، ويتم ذلك الغرض، فلهذا السبب لا بد وأن يكون أرباب المشورة عددهم فرداً، فذكر الله ـ تعالى ـ الفردين الأولين، واكتفى بذكرهما تنبيهاً على الباقي.

الرابع: أن الآية نزلت في قوم منافقين اجتمعوا على التناجي، وكانوا على هذين العددين.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في ربيعة، وحبيب بن أبي عمرو، وصفوان بن أمية كانوا يتحدّثون، فقال أحدهم: هل يعلم الله ما نقول؟ وقال الثالث: يعلم البعض.

الخامس: أنه في مصحف عبد الله بن مسعود: «ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ الله رابعهم، ولا أربعة إلا الله خامسهم، ولا خمسة إلا الله سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم إذا أخذوا في التناجي».

قوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ أي: يحاسب على ذلك، ويجازي عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهذا تحذير من المعاصي، وترغيب في الطاعات.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ الآية.

قيل: هم اليهود.

وقيل: هم المنافقون.

وقيل: فريق من الكفار.

وقيل: فريق من المسلمين، لما روى أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا ذات ليلةٍ نتحدَّث إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «مَا هَذِهِ النَّجْوَى»؟ فقلنا: تُبْنَا إلى الله يا رسول الله ﷺ إنا كُنَّا في ذكر المسيخ، يعني: الدجال فرقاً منه، فقال رسول الله

(١) أخرجه البخاري ١١/ ٨٢، كتاب الاستئذان، باب: إذا كانوا أكثر من ثلاثة (٦٢٩٠)، ومسلم (٣٧ ـ ٢١٨٤).

ﷺ: «ألا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عِنْدِي مِنْهُ؟» قلنا: بلى، يا رسول الله ﷺ، قال: «الشِّرْكُ الخَفِيُّ أن يَقُومَ الرَّجلُ يعْمَلُ لمكانِ رَجُلٍ»[١]. ذكره الماوردي.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون للمؤمنين، ويتغامزون بأعينهم، فقال المؤمنون: لعلهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل، أو مصيبة، أو هزيمة؛ ويسوؤهم ذلك، وكثرت شكواهم إلى رسول الله ﷺ فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا[٢]، فنزلت الآية.

وقال مقاتل: كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة، فإذا مرَّ بهم رجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظنّ المؤمن شرًّا، فيعرج عن طريقه فنهاهم الله ـ سبحانه ـ فلم ينتهوا فنزلت[٣].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يأتي النبي ﷺ فيسأله الحاجة ويناجيه، والأرض يومئذ خرب فيتوهّموا أنه يناجيه في حرب أو بليَّة أو أمر فيفزعون لذلك فنزلت[٤].

قال ابن الخطيب[٥] رحمه الله: والأولى أن تكون نزلت في اليهود؛ لأنه ـ عز وجل ـ حكى عنهم، فقال: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ وهذا إنما وقع من اليهود، كانوا إذا سلموا على الرسول ﷺ قالوا: السَّامُ عليكم، يعنون الموت.

قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ أي: يرجعون إلى المُناجاة التي نهوا عنها.

قوله: «ويَتَنَاجَوْنَ». **قرأ[٦] حمزة**: «وينْتَجُون» بغير ألف من «الانتجاء» من «النجوى» على وزن «يفْتَعلُون».

والباقون: «ويتناجون» من «التَّناجي» من «النجوى» أيضاً.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٤٠٦)، كتاب الزهد، باب: الرياء والسمعة حديث (٤٢٠٤)، وأحمد (٣/ ٣٠)، والحاكم (٤/ ٣٢٩)، من طريق كثير بن زيد عن ربيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه عن أبي سعيد به.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وقال البوصيري في «الزوائد» (٣/ ٢٩٦)، رقم (١٤٩٨): هذا إسناد حسن كثير بن زيد وربيح بن عبد الرحمن مختلف فيهما.
وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٩١، والقرطبي ١٧/ ١٨٩.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٨٩).

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦٩)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٨٩).

(٥) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٣١.

(٦) ينظر: السبعة ٦٢٨، والحجة ٦/ ٢٧٨، وإعراب القراءات ٢/ ٣٥٥، وحجة القراءات ٧٠٤، والعنوان ١٨٧، وشرح الطيبة ٦/ ٤٥، وشرح شعلة ٥٩٩، وإتحاف ٢/ ٥٢٦.

قال أبو علي[١]: والافتعال، والتفاعل يجريان مجرى واحداً، ومن ثَمَّ صححوا «ازْدَوجُوا واعتورُوا» لما كانا في معنى تزاوجوا وتعاوروا، وجاء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ﴾ [الأعراف: ٢٨] وادَّرَكُوا.

قال شهاب الدين[٢]: ويؤيد قراءة العامة الإجماع على تناجيهم، و«فلا تتناجوا» و«تناجوا»، فهذا من «التفاعل» لا غير، **إلاَّ ما روي عن عبد الله، أنه قرأ**[٣] «إذا انْتَجَيْتُم فلا تنتجوا».

ونقل أبو حيان[٤] عن الكوفيين والأعمش: «فلا تنتجوا» كقراءة عبد الله.

وأصل: «تَنْتَجُونَ» «تَنْتَجِيونَ» و «تَنَاجَوْن» فاستثقلت الضَّمَّة على الياء، فحذفت فالتقى ساكنان فحذفت لالتقائهما، أو تقول: تحرك حرف العلة وانفتح ما قبله، فقلبت ألفاً فالتقى ساكنان، فحذف أولهما وبقيت الفتحة دالة على الألف[٥].

قوله: ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

قرأ أبو حيوة[٦]: «بالعِدْوان» بكسر العين.

والمراد «بالإثم والعدوان»: الكذب والظلم، ﴿وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ ﷺ مخالفته.

وقرأ الضَّحاك[٧]: «ومعصيات الرَّسُول» ﷺ.

قوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

قال القرطبي[٨]: لا خلاف بين أهل النقل أن المراد به اليهود، وكانوا إذا سلموا على النبي ﷺ قالوا: السَّام عليك يعنون الموت. كما روت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السَّام عليك، قال النبي ﷺ: «عَلَيْكُمْ» فقالت عائشة رضي الله عنها: السَّام عليكم، ولعنة الله، وغضبه عليكم، فقال رسول الله ﷺ: «مَهْلاً يا عَائِشَةُ، عليْكِ بالرِّفْقِ وإيَّاكِ والعُنْفَ والفُحْشَ»، قالت: أو لم تسمع ما قالوا يا رسول الله؟، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك «أو لَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ ورَدَدْتُ عليْهِمْ فَيُسْتَجَابُ لي فيْهِمْ ولا يُسْتجابُ لهُمْ فِيْ؟»[٩].

---

(١) ينظر: الحجة ٦/ ٢٨٠.
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٨٨.
(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٩١.
(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٣٤.
(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٨٨.
(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٧، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٤، والدر المصون ٦/ ٢٨٨.
(٧) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٩١، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٧٧، والرازي ٢٩/ ٢٣٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٤، والدر المصون ٦/ ٢٨٨.
(٨) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٨٩.
(٩) أخرجه البخاري ١١/ ٤٤، في كتاب الاستئذان، باب: كيف الرد على أهل الذمة بالسلام (٦٢٥٦)، =

وقال النبي ﷺ عند ذلك: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الكتابِ، فقُولُوا: عَلَيْكَ مَا قُلْتَ»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾[1].

وروى أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَلَمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الكتابِ فقُولُوا: وعَلَيْكُمْ»[2] بالواو.

فقال بعض العلماء رضي الله عنهم: إن الواو العاطفة تقتضي التشريك، فيلزم منه أن يدخل معهم فيما دعوا به علينا من الموت، أو من سآمة ديننا وهو الهلاك، يقال: سَئِمَ يَسْأَمُ سَآمةً وسَآماً.

وقال بعضهم «الواو» زائدة كما زيدت في قول الشاعر: [الطويل]

٤٧٣٢ ـ فَلَمَّا أَجزْنَا سَاحَةَ الحَيِّ وانْتَحَىٰ ....[3]

أي: لما أجزنا انتحى، فزاد «الواو».

وقال آخرون: هي للاستئناف، كأنه قال: والسام عليكم، وقال آخرون: هي على بابها من العطف ولا يضرنا ذلك؛ لأنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا كما تقدم في قوله ﷺ لـ «عائشة» رضي الله عنها.

فصل في رد السَّلام على أهل الذمة

اختلفوا في ردّ السَّلام على أهل الذِّمة[4]، فقال ابن عباس والشعبي وقتادة: هو واجب لظاهر الأَمْرِ بذلك.

وقال مالك رضي الله عنه: ليس بواجب، فإن رددت فقل: عليك.

وقال بعضهم: نقول في الرد: علاكَ السَّلام، أي: ارتفع عنك.

وقال بعض المالكية: تقول في الرد: السلام عليك ـ بكسر السين ـ يعني الحجارة.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا﴾.

هذه الجملة التحضيضية في موضع نصب بالقول[5]، ومعنى الآية: أن اليهود ـ لعنهم الله ـ لما كانوا يقولون: السام عليك، ويوهمون أنهم يسلمون، وكان النبي ﷺ يرد عليهم بقوله: «عليكم» فإذا خرجوا قالوا: «لولا يعذبنا الله» أي: هلا يعذبنا بما نقول، أي: لو كان نبيًّا لعذبنا الله بما نقول.

= ومسلم ٤/ ١٧٠٦، في كتاب السلام، باب: النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام (١٠/ ٢١٦٥).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٤٤٢)، والترمذي (٥/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠)، رقم (٣٣٠١)، وابن ماجه (٢/ ١٢١٩)، رقم (٣٦٩٧)، من حديث أنس وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) ينظر الحديث السابق.

(٣) تقدم.

(٤) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٩٠.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٨٨.

وقيل: قالوا: إنه يرد علينا، ويقول: وعليكم السَّام، فلو كان نبيًّا لاستجيب له فينا ومتنا، وهذا موضع تعجب منهم، فإنهم كانوا أهل الكتاب، وكانوا يعلمون أنَّ الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ قد يغضبون، فلا يعاجل من يغضبهم بالعذاب(١).

قوله: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: كافيهم جهنم عقاباً غداً ﴿يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

أي: كفعل المنافقين واليهود.

قال مقاتل: أراد بقوله: «آمنوا» المنافقين آمنوا بلسانهم.

وقال عطاء: يريد الذين آمنوا بزعمهم قال لهم: لا تتناجوا بالإثم والعدوان، ومعصية الرسول ﷺ(٢).

وقيل: يا أيها الذين آمنوا بموسى صلوات الله وسلامه عليه.

قوله: ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ والمراد بالبر: الطاعة، وبالتقوى: العفاف عما نهى الله عنه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [أي]: تجمعون في الآخرة(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. تقدم قراءتنا «ليحزن» بالضم والفتح في «آل عمران» [آل عمران ١٧٦].

وقرىء(٤): «بفتح الياء والزاي» على أنه مسند إلى الموصول بعده، فيكون فاعلاً.

---

(١) ينظر القرطبي ١٧/ ١٩١.
(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٠٨).
(٣) ينظر القرطبي ١٧/ ١٩١.
(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٩١، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٧٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٥، والدر المصون ٦/ ٢٨٩.

فصل في تحرير معنى الآية

قال ابن الخطيب[١]: الألف واللام في لفظ «النجوى» لا يمكن أن يكون للاستغراق؛ لأن في «النجوى» ما يكون من الله ولله، بل المراد منه: المعهود السابق، وهو النجوى بالإثم ليحزن المؤمنين إذا رأوهم متناجين.

قال المفسرون[٢]: معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وتوهموا أن المسلمين أصيبوا في السَّرايا، أو إذا رأو اجتماعهم على مكايدة المسلمين، وربما كانوا يناجون النبي ﷺ فيظن المسلمون أنهم ينتقصونهم عند النبي ﷺ ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ﴾ أي: التناجي «شيئاً إلاَّ بإذْنِ الله» أي: بمشيئته.

وقيل: بعلمه.

وعن ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ بأمره.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يكلون أمرهم إليه، ويفوضون [جميع][٣] شئونهم إلى عونه.

فصل في النهي عن التناجي

روى ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا كَانَ ثلاثةٌ فَلا يَتَنَاجَى اثْنانِ دُونَ الواحِدِ»[٤].

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ ثَلاثَةٌ فَلا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ حتَّى يَخْتلطُوا بالنَّاسِ من أجْلِ أنْ يُحْزِنَهُ»[٥].

فبين في هذا الحديث غاية المنع، وهو أن يجد الثالث من يتحدث معه كما فعل ابن عمر، وذلك أنه كان يتحدث مع رجل، فجاء آخر يريد أن يناجيه فلم يُناجِهِ حتى دعا رابعاً، فقال له وللأول: تأخَّرا وناجى الرجل الطَّالب للمناجاة. خرجه في «الموطأ»[٦] ونبه فيه على العلة بقوله: «مِنْ أجْلِ أن يُحْزِنَهُ» أي: يقع في نفسه ما يحزن لأجله، وذلك بأن يقدر في نفسه أن الحديث عنه بما يكره، أو أنهم لم يروه أهلاً بأن يشركوه في حديثهم، إلى غير ذلك من ألقيات الشيطان، وأحاديث النفس، ويحصل ذلك كله من بقائه وحده، فإذا كان معه غيره أمن ذلك، وعلى هذا يستوي في ذلك كل الأعداد، فلا يتناجى أربعة دون واحد، ولا عشرة ولا ألف مثلاً، لوجود ذلك المعنى في حقه، بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأوقع، فيكون بالمنع أولى، وإنما خص الثلاثة بالذكر؛ لأنه أول عدد يتأتى ذلك فيه.

(١) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٣٣.
(٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٩١.
(٣) سقط من: أ.
(٤) تقدم.
(٥) تقدم.
(٦) ينظر: موطأ الإمام مالك ٢/ ٩٨٨.

قال القرطبي[١]: «وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال».

وذهب إليه ابن عمر ومالك والجمهور وسواء كان التناجي في مندوب، أو مباح، أو واجب فإن الحزن يقع به.

وقد ذهب بعض الناس إلى أن ذلك في أول الإسلام؛ لأن ذلك كان حال المنافقين، فيتناجى المنافقون دون المؤمنين، فلما فشا الإسلام سقط ذلك.

وقال بعضهم: ذلك خاصّ بالسفر، وفي المواضع التي لا يأمن الرجل فيها صاحبه، فأما في الحضر وبين العمارة فلا؛ لأنه يجد من يعينه، بخلاف السفر فإنه مظنَّة الاغتيال وعدم الغوث. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ الآية.

وجه التعلق: لما نهى المؤمنين عما يكون سبباً للتباغُضِ والتنافر، أمرهم الآن بما يصير سبباً لزيادة المحبَّة والمودة.

وقال القرطبي[٢]: لما بين أنَّ اليهود يحيوه بما لم يحيّه الله، وذمّهم على ذلك وصل به الأمر بتحسين الأدب في مجالسة رسول الله ﷺ حتى لا يضيقوا عليه المجلس، وأمر المسلمين بالتَّعاطف والتَّآلف حتى يفسح بعضهم لبعض حتى يتمكّنوا من الاستماع من رسول الله ﷺ والنظر إليه.

فصل في نزول الآية

قال قتادة ومجاهد والضحاك رضي الله عنهم: كانوا يتنافسون في مجلس رسول الله ﷺ فأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد بذلك مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب[٤].

وقال الحسن ويزيد بن أبي حبيب: كان النبي ﷺ إذا قاتل المشركين تشاح أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ على الصف الأول فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة في القتال والشهادة، فنزلت[٥]، فيكون كقوله تعالى: ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١].

وقال مقاتل: كان النبي ﷺ في «الصفة» وكان في المكان ضيق، وكان يكرم أهل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٩٢. (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٩٢.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨)، عن مجاهد وقتادة والضحاك وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٧١)، عن قتادة وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨). (٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٩٢).

«بدر» من المهاجرين والأنصار فجاءنا أناس من أهل «بدر» وقد سبقوا إلى المجلس فقاموا قبالة رسول الله ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف رسول الله ﷺ ما يحملهم على القيام، وشقّ ذلك على رسول الله ﷺ فقال ﷺ لمن حوله من غير أهل «بدر»: «قُمْ يا فُلانُ» بعدد القائمين من أهل «بدر»، فشقّ ذلك على من قام، وعرف النبي ﷺ الكراهة في وجوههم[(١)]. فقال المنافقون: والله ما عدل على هؤلاء أن قوماً أخذوا مجالسهم، وأحبوا القرب منه، فأقامهم وأجلس من أبْطَأ، فنزلت الآية يوم الجمعة.

وروي عن ابن عبَّاس قال نزلت الآية في ثابت بن قيس بن شماس، وذلك أنه دخل المسجد، وقد أخذ القوم مجالسهم، وكان يريد القرب من رسول الله ﷺ للوَقْر الذي كان في أذنيه، فوسعوا له حتى قرب من النبي ﷺ ثم ضايقه بعضهم وجرى بينهم وبينه كلام ووصف الرسول ﷺ محبته للقرب منه ليسمع كلامه، وإن فلاناً لم يفسح له، فنزلت هذه الآية[(٢)].

قوله تعالى: ﴿تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ﴾.

قرأ الحسن، وداود[(٣)] بن أبي هند، وعيسى، وقتادة: «تَفَاسحُوا»، والباقون: «تَفَسَّحوا» أي: توسعوا والفُسْحة: السَّعة، وفسح له: أي وسع له، ومنه قولهم: «بلد فسيحٌ» ولك في كذا فسحة، وفسح يَفْسَحُ، مثل: «مَنَعَ يَمْنَعُ» أي: وسع في المجلس، و «فَسُحَ يَفْسُحُ فَسَاحَةً» مثل: «كَرُمَ يَكْرُمُ كرامة» أي: صار واسعاً، ومنه مكان فسيح[(٤)].

وقرأ عاصم: «في المجالس» جمعاً اعتباراً بأن لكلّ واحد منهم مجلساً.

والباقون[(٥)]: **بالإفراد** إذ المراد مجلس الرسول ﷺ وهو أحسن من كونه واحداً أريد به الجمع، **وقرىء**[(٦)]: «في المَجْلَس» ـ بفتح اللام ـ وهو المصدر، أي: تفسحوا في جلوسكم، ولا تتضايقوا.

فصل في أن الآية عامة في كل مجلس خير

قال القرطبي[(٧)]: الصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع المسلمون فيه

---

(١) ينظر المصدر السابق.
(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» ٢٩/ ٢٣٤)، عن ابن عباس.
(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٧٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٥، والدر المصون ٦/ ٢٨٩.
(٤) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٩٣.
(٥) ينظر: السبعة ٦٢٩، والحجة ٦/ ٢٨٠، وإعراب القراءات ٢/ ٣٥٥، وحجة القراءات ٧٠٤، والعنوان ١٨٧، وشرح الطيبة ٦/ ٤٦، وشرح شعلة ٦٠٠، وإتحاف ٢/ ٥٢٧.
(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٣٥، والدر المصون ٦/ ٢٨٩.
(٧) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٩٣.

للخير، والأجر، سواء كان مجلس حَرْب أو ذكر، أو مجلس يوم الجمعة، وإن كل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَبَقَ إلى مَا سَبَقَ إلَيْهِ فَهُوَ أحقُّ بِهِ ولكِنْ يُوسِّعُ لأخيهِ ما لم يتأذَّى بذلكَ فيُخْرجهُ الضَّيِّقُ من موضعه»(١).

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «لا يُقِيمُ الرَّجلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيه»(٢).

وعن النبي ﷺ أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه، ويجلس فيه آخر، ولكن تفسّحوا وتوسّعوا(٣).

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يكره أن يقيم الرجل من مجلسه، ثم يجلس مكانه.

وروى أبو هريرة عن جابر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «لا يُقِيمنَّ أحَدُكُمْ أخَاهُ يَوْمَ الجُمعَةِ ثُمَّ يُخَالفُ إلى مَقْعَدهِ، فَيقْعُدَ فِيْهِ، ولكِنْ يقُولُ: أفسحوا»(٤).

فصل

إذا قام من مكانه، فقعد فيه غيرهُ نظرنا، فإن كان الموضع الذي قام إليه مثل الأول في سماع كلام الإمام، لم يكره له ذلك، وإن كان أبعد من الإمام كره له ذلك؛ لأن فيه تفويت حظه(٥).

فصل

إذا أمر رجل إنساناً أن يبكر إلى الجامع، فيأخذ له مكاناً يقعد فيه لا يكره، فإذا جاء الآمر يقوم من الموضع؛ لأن ابن سيرينَ كان يرسل غلامه إلى مجلس له في يوم الجمعة، فيجلس فيه، فإذا جاء قام له منه، وعلى هذا من أرسل بساطاً أو سجَّادة، فيبسط له في موضع من المسجد أنه لا يزعج منه.

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذَا قَامَ أحَدُكُمْ» ـ وفي حديث

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٧١)، والبيهقي (١٠/ ١٣٩)، والطبراني في «الكبير»، (١/ ٢٥٠).

(٢) أخرجه البخاري ١١/ ٦٢، في كتاب الاستئذان، باب: لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه (٦٢٦٩)، ومسلم ٤/ ١٧١٤، في السلام، باب: تحريم إقامة الإنسان من موضعه (٢٧/ ٢١٧٧).

(٣) انظر الحديث السابق.

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ١٧١٥)، كتاب السلام، باب: تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذي سبق إليه حديث (٣٠/ ٢١٧٨).

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٩٣).

أبي عوانة: «مَنْ قَامَ مِنْ مَجْلسهِ ـ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ»(١) ذكره القرطبي في «تفسيره»(٢).

قوله: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

قال ابن الخطيب(٣): هذا مطلق فيما يطلب النَّاس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر والجنة، قال: ولا ينبغي للعاقل أن يقيد الآية بالتفسُّح في المجلس بل المراد منه إيصال الخير إلى المسلم وإدخال السرور في قلبه.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾.

قرأ نافع، **وابن عامر**، **وأبو بكر**(٤) **بخلاف عنه** بضم شين «انْشُزُوا» في الحرفين، والباقون: بكسرهما، وهما لغتان بمعنى واحد، يقال: نشز أي: ارتفع، يَنْشِزُ ويَنْشُزُ كـ «عَرَشَ يَعْرِشُ ويَعْرُشُ؛ وعَكَفَ يَعْكِفُ ويَعْكُفُ» وتقدم الكلام على هذا في «المائدة».

فصل في معنى انشزوا

قال ابن عباس: معناه إذا قيل لكم: ارتفعوا فارتفعوا(٥).

قال مجاهد والضحاك: إذا نودي للصَّلاة فقوموا إليها، وذلك أن رجالاً تثاقلوا(٦) عن الصلاة(٧)، فنزلت.

وقال الحسن ومجاهد أيضاً: أي: انهضوا إلى الحرب(٨).

وقال ابن زيد والزَّجَّاج(٩): هذا في بيت النبي ﷺ كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبي ﷺ فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾ عن النبي ﷺ «فانْشُزُوا» أي ارتفعوا عنه فإن له حوائج فلا تمكثوا(١٠).

---

(١) أخرجه مسلم ٤/ ١٧١٥ في كتاب السلام، باب: تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذي سبق إليه (٣١/ ٢١٧٩)، وابن ماجه (٣٧١٧)، وأحمد في المسند ٢/ ٢٨٣، والدارمي في السنن ٢/ ٢٨٢، وعبد الرزاق في المصنف (١٧٩٢)، والبخاري في الأدب المفرد (١١٣٨).

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٩٣).

(٣) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٣٤.

(٤) ينظر: السبعة ٦٢٩، والحجة ٦/ ٢٨١، وإعراب القراءات ٢/ ٣٥٦، وحجة القراءات ٧٠٥، والعنوان ١٨٧، وشرح الطيبة ٦/ ٤٦، وشرح شعلة ٦٠٠، وإتحاف ٢/ ٥٢٧.

(٥) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٩/ ٢٣٥)، عن ابن عباس.

(٦) في أ: تغافلوا.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٩)، عن الضحاك.

(٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٩)، عن مجاهد والحسن وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٧١)، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد.

(٩) ينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣٩.

(١٠) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٩).

وقال قتادة: معناه: أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بالمعروف[١].

قال القرطبي[٢]: «وهذا هو الصحيح لأنه يعم، والنَّشْز: الارتفاع، مأخوذ من نَشْزِ الأرض، وهو ارتفاعها».

قوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بطاعاتهم لرسول الله ﷺ وقيامهم في مجالسهم، وتوسّعهم لإخوانهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على «الَّذين آمنوا»، فهو من عطف الخاص على العام؛ لأن الذين أوتوا العلم بعض المؤمنين منهم، ويجوز أن يكون «الذين أوتوا» من عَطْف الصفات، أي: تكون الصفتان لذات واحدة، كأنه قيل: يرفع الله المؤمنين العلماء، و «درجات» مفعول ثان. وقد تقدم الكلام على نحو ذلك في «الأنعام»[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: تم الكلام عند قوله تعالى: «منكم»، وينصب «الذين أوتوا» بفعل مضمر، أي: ويخصّ الذين أوتوا العلم بدرجات، أو يرفعهم درجات.

فصل في تحرير معنى الآية

قال المفسرون[٤] في هذه الآية: إن الله ـ تعالى ـ رفع المؤمن على من ليس بمؤمن، والعالم على من ليس بعالم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: مدح الله العلماء في هذه الآية[٥] والمعنى: أن الله ـ تعالى ـ يرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به.

وقيل: كان أهل الغنى يكرهون أن يزاحمهم من يلبس الصوف، فيسبقون إلى مجلس النبي ﷺ فالخطاب لهم.

ورأى رسول الله ﷺ رجُلاً من الأغنياء يقبض ثوبه نفوراً من بعض الفقراء أراد أن يجلس إليه، فقال: «يا فُلاَنُ أَخَشِيْتَ أنْ يتعدَّى غِناكَ إليْهِ أوْ فَقْرُه إلَيْكَ»[٦].

وبيّن في هذه الآية أن الرِّفعة عند الله ـ تعالى ـ بالعلم والإيمان لا بالسَّبْق إلى صدور المجالس.

وقيل: أراد بالذين أوتوا العلم الذين قرأوا القرآن.

وروى يحيى بن يحيى عن مالك ـ رضي الله عنه ـ «يَرْفعِ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا مِنكُمْ»

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٩٤). (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٩٤.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٨٩. (٤) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٩٤.

(٥) ينظر المصدر السابق وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٧١)، عن ابن مسعود بمعناه وعزاه إلى ابن المنذر.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٩٤).

الصحابة، ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ يرفع الله ـ تعالى ـ بها العالم والطالب.

قال القرطبي[١]: ثبت في الصحيح أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة فكلموه في ذلك، فدعاهم ودعاه، وسألهم عن تفسير: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] فسكتوا فقال ابن عباس: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله إيَّاه، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «بَيْنَ العَالِمِ والعَابِدِ مائَةُ دَرَجَةٍ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجتيْنِ حَضْر الجَوادِ المُضمَّرِ سَبْعِيْنَ سَنَة»[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «فَضْلُ العَالمِ عَلى العَابِدِ كَفضْلِ القَمَرِ ليْلَةَ البَدْرِ عَلى سَائِرِ الكَواكِبِ»[٤].

وقال رسول الله ﷺ: «يَشْفَعُ يَوْمَ القِيامَةِ ثلاثةٌ: الأنبِيَاءُ ثُمَّ العلماءُ ثُمَّ الشُّهداءُ»[٥].

فأعظم بمنزلة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله ﷺ.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: «خُيِّرَ سليمان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بين العلم والمال والملك، فاختار العلم فأعطي المال والملك معه»[٦].

---

(١) ينظر القرطبي (١٧/ ١٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٦٠٦)، كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾ حديث (٤٩٦٩).

(٣) ذكره الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٤/ ٤٩٢)، وقال: أخرجه أبو يعلى وابن عدي من رواية عبد الله بن محرر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة وعبد الله بن محرر ساقط الحديث وذكر ابن عبد البر في «العلم» أن ابن عون رواه عن ابن سيرين عن أبي هريرة وفي الباب عن عمرو بن العاص في «الترغيب» للأصبهاني.

(٤) أخرجه: أحمد في المسند ٥/ ١٩٦، والدارمي في السنن ١/ ٩٨، المقدمة، باب: في فضل العلم والعالم. وأبو داود في السنن ٤/ ٥٧ ـ ٥٨، كتاب العلم، باب: الحث على طلب العلم، الحديث (٣٦٤١)، والترمذي في السنن ٥/ ٤٨ ـ ٤٩، كتاب العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، الحديث (٢٦٨٢). وابن ماجه في السنن ١/ ٨١، المقدمة، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم، الحديث (٢٢٣). وصححه ابن حبان، أورده الهيثمي في موارد الظمآن، كتاب العلم، باب: طلب العلم والرحلة فيه، الحديث (٨٠).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٤٤٣)، كتاب الزهد، باب: ذكر الشفاعة حديث (٤٣١٣)، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ٢٦٢)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٣٦٧)، من حديث عثمان.
قال البوصيري في «الزوائد» (٣/ ٣٢١): هذا إسناد ضعيف لضعف علاق بن أبي مسلم.
ورواه أبو يعلى في «مسنده الكبير» بإسناد ابن ماجه ومتنه سواء.
وذكره الحافظ في «تخريج الكشاف» (٤/ ٤٩٣)، وقال: وفيه عنبة بن عبد الرحمن القرشي وهو متروك.

(٦) ذكره الحافظ في «تخريج الكشاف» (٤/ ٤٩٣)، وقال: ذكره صاحب الفردوس هكذا وذكره قبله ابن عبد البر في «العلم» بلا إسناد.

ومر النبي ﷺ بمجلسين في مسجده، أحد المجلسين يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه، فقال رسول الله ﷺ: «كِلاَ المَجْلِسيْنِ عَلَى خَيْرٍ، وأحَدُهُمَا أفْضَلُ مِنْ صَاحبِهِ، أمَّا هؤلاءِ فَيَدْعُونَ اللَّهَ ـ عزَ وجلَّ ـ ويرغبُون إليه، وأمَّا هؤلاءِ فيتعلَّمونَ الفقهَ ويُعَلِمُونَ الجاهلَ، فهؤلاءِ أفضلُ، وإنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّماً» ثم جلس فيهم[1].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ الآية.

قال ابن عباس في سبب النزول[2]: إن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية فكفَّ كثير من الناس.

وقال الحسن: إن قوماً من المسلمين كانوا يستخلون بالنبي ﷺ يناجونه، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النَّجوى، فشق ذلك عليهم، فأمرهم الله ـ تعالى ـ بالصَّدقة عند النجوى ليقطعهم عن استخلائه[3].

وقال زيد بن أسلم: إن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبي ﷺ ويقولون: إنه أُذن يسمع كلَّ ما قيل له، وكان لا يمنع أحداً مُناجاته، فكان ذلك يشقّ على المسلمين؛ لأن الشيطان كان يلقي في أنفسهم أنهم ناجوه بأن جموعاً اجتمعت لقتاله، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ الآية، فلم ينتهوا فأنزل الله هذه الآية فانتهى أهل الباطل عن النجوى؛ لأنهم لم يقدموا بين يدي نجواهم صدقة، وشقّ ذلك على أهل الإيمان، وامتنعوا عن النجوى لضعف مقدرة كثير منهم عن الصدقة، فخفف الله ـ تعالى ـ عنهم بما بعد الآية[4].

قال ابن العربي[5]: وهذا الخبر يدل على أن الأحكام لا تترتب بحسب المصالح[6]، فإن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ ثم نسخه مع أنه كونه خيراً وأطهر، وهذا يرد على المعتزلة في التزام المصالح.

---

(١) أخرجه ابن ماجه ١/ ٨٣، المقدمة باب: فضل العلماء (٢٢٩)، وقال صاحب الزوائد: إسناده ضعيف، وأخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ١/ ٣٦، والدارمي ١/ ٩٩.

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٩٥).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢١)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٧٢)، وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٩٥)، عن زيد بن أسلم.

(٥) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٧٦٢.

(٦) لا نزاع في بناء الأحكام على المصالح التي قام الدليل الشرعي على رعايتها، ومثال هذا حفظ العقل الذي دل على رعايته تحريم الخمر وإقامة الحد على شاربها، فإذا عرض للمجتهد مطعوم لا يسمى خمراً ولكنه يفعل بالعقل ما تفعله الخمر لم يتردد في تحريمه أخذاً بالدليل القائم على اعتداد الشارع بمصلحة حفظ العقل وبنائه بعض الأحكام على رعايتها، وهذا هو أصل القياس في الشريعة، فإنه =

فصل فيمن اعتبر الصدقة واجبة أو مندوبة(١)

ظاهر الآية يدلّ على أن تقديم الصَّدقة كان واجباً؛ لأن الأمر للوجوب، ويؤكد ذلك بعده قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا لا يقال إلا فيما بفقده يزول وجوبه.

وقيل: كان مندوباً بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ وهذا إنما يستعمل في التطوع لا في الواجب، ولأنه لو كان واجباً لما أزيل وجوبه لكلام متصل به وهو قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ﴾ [إلى آخر الآية](٢).

= مبني على التفقه في بعض الأحكام المنصوصة ومعرفة قصد الشارع فيها إلى مصلحة بعينها، حتى إذا وجدت هذه المصلحة في واقعة أخرى أخذت حكم الواقعة المصرح بها.

ولا نزاع في عدم الاعتداد بالمصالح التي قام الدليل الشرعي على إلغائها، والشارع الحكيم لا يلغي مصلحة إلا إذا عارضتها مصلحة أرجح منها؛ أو استتبعت مفسدة لا يستخف بأمرها، ومثال هذا الاستسلام للعدو: قد يبدو أن فيه مصلحة حفظ النفوس من القتل، ولكن الشارع رأى أن هذه المصلحة مغمورة بالمفاسد من كل جانب، فلم يعتد بها وأذن في دفاع العدو نظراً إلى مصلحة أرجح منها، وهي احتفاظ الأمة بالعزة والكرامة والتمكن من المسابقة في مضمار الحياة.

ومن هذا الباب تعدد الزوجات: يتبعه من الضرر أن تتألم المرأة من أن تشاركها في صلة الزوجية امرأة أخرى، ففي ترك التعدد مصلحة هي قطع وسيلة استياء الزوجة، ولكن الشارع ألغى هذه المصلحة مكتفياً بما اشترطه من العدل بين الزوجات، وأباح التعدد نظراً إلى ما قد يترتب عليه من المصالح، كتكثير النسل، ومساعدة الرجل على تجنب الحرام الذي قد يقع فيه صاحب الزوجة الواحدة إذا عرض مانع من التمتع بها مثل المرض والنفاس.

ويبقى النظر في المصالح التي لم يقم دليل معين على رعايتها أو على إلغائها، وهذه هي التي تسمى المصالح المرسلة، وقد اعتد بهذه المصالح كثير من الفقهاء، وبنوا بعض الفتاوى على رعايتها، والجاري على بعض الألسنة والأقلام أنها أصل من أصول المذهب المالكي، والواقع أن لها يداً في سائر المذاهب المعول عليها، وللمالكية القسط الأوفر في استثمارها، قال ابن دقيق العيد: الذي لا شك فيه أن لمالك ترجيحاً على غيره من الفقهاء في هذا النوع، ويليه أحمد بن حنبل، ولا يكاد يخلو غيرهما عن اعتباره في الجملة، ولكن لهذين ترجيح في استعماله. وقال البغدادي في «جنة الناظر»: لا تظهر مخالفة الشافعي لمالك في المصالح، فإن مالكاً يقول: إن المجتهد إذا استقرأ موارد الشرع ومصادره، أفضى نظره إلى العلم برعاية المصالح في جزئياته وكلياته، وأن لا مصلحة إلا وهي معتبرة في جنسها، لكنه استثنى من هذه القاعدة كل مصلحة صادمها أصل من أصول الشريعة، وما حكاه أصحاب الشافعي عن الشافعي لا يعدو هذه المقالة.

ولهذه القاعدة أمثلة مسوقة في كتب الأصول من فتاوى السلف وأقضيتهم.

ينظر: البحر المحيط للزركشي ٦/ ٧٦، الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٤/ ١٣٩، نهاية السول للإسنوي ٤/ ٣٨٥، منهاج العقول للبدخشي ٣/ ١٨٤، التحصيل من المحصول للأرموي ٢/ ٣٣١، المنخول للغزالي ٣٥٣، الإبهاج لابن السبكي ٣/ ١٨٨، حاشية التفتازاني والشريف على مختصر المنتهى ٢/ ٢٨٩، إرشاد الفحول للشوكاني ٢٤١.

وينظر المختصر لابن اللحام (١٦٢)، وتقريب الوصول (١٤٨).

(١) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/ ٢٣٦. (٢) سقط من أ.

وأجيب عن الأول: أن المندوب كما يوصف بأنه خير وأطهر، فكذلك أيضاً يوصف به الواجب.

وعن الثاني: أنه لا يلزم من اتصال الآيتين في التلاوة كونهما متَّصلتين في النزول كما قيل في الآية الدَّالة على وجوب الاعتداد أربعة أشهر وعشراً أنها ناسخة للاعتداد بحول، وإن كان الناسخ متقدماً في التلاوة على المنسوخ. انتهى.

فصل

اختلفوا في مقدار تأخُر الناسخ عن المنسوخ في هذه الآية[١]، فقال الكلبي رحمه الله: ما بقي ذلك التكليف إلا ساعة من النهار ثم نسخ[٢].

وقال مقاتل بن حيان: بقي ذلك التكليف عشرة أيام، ثم نسخ لما روي عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إنَّ في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي، ولا عمل بها أحد بعدي كان لي دينار، فاشتريت به عشرة دراهم، وكلما ناجيت النبي ﷺ قدمت بين يدي نجواي درهماً، ثم نسخت فلم يعمل بها[٣].

وروي عن ابن جريج، والكلبي، وعطاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ أنَّهم نهوا عن المُناجاة حتى يتصدقوا، فلم يُناج أحد إلاَّ عليٌّ تصدق بدينار، ثم نزلت الرخصة[٤].

وقال ابن عمر: لقد كانت لعلي ـ رضي الله عنه ـ ثلاثة، لو كانت لي واحدة منهن كانت أحب إليَّ من حمر النعم: تزويجه فاطمة ـ رضي الله عنها ـ وإعطاؤه الرَّاية يوم «خيبر»، وآية النجوى[٥].

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من إمساكها، «وأطْهَرُ» لقلوبكم من المعاصي ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟﴾ يعني: الفقراء ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

روى الترمذي عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) ينظر الفخر الرازي ٢٩/ ٢٣٦.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٩٥)، عن زيد بن أسلم.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٠)، والحاكم (٢/ ٤٨٢)، عن علي بن أبي طالب.
وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٧٢)، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وابن راهويه وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.
وذكره الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٣/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤)، وعزاه إلى إسحاق بن راهويه وابن أبي شيبة في مسنديهما.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٠)، عن مجاهد. وقد تقدم عن ابن عباس.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٦٦).

ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ سألت النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «مَا ترى دِيْنَاراً؟» قلت: لا يطيقونه، قال: «نِصْفَ دِيْنَارٍ»، قلت: لا يطيقونه، قال: «فَكَمْ»؟ قلت: شعيرة، قال: «إنَّكَ لزَهِيدٌ» فنزلت ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ﴾ الآية[1].

ومعنى قوله: «شعيرة» من ذهب، ومعنى قوله ﷺ: «إنَّك لزَهِيْدٌ» أي: لقليل المال فقدّرت على حسب حالك.

قال ابن العربي[2]: «وهذا يدلّ على نسخ العبادة قبل فعلها، وعلى النَّظر في المقدّرات بالقياس».

قال القرطبي[3]: «والظَّاهر أنَّ النسخ إنما وقع بعد فعل الصَّدقة كما تقدم».

فصل فيمن استدل بالآية على عدم وقوع النسخ[4]

أنكر أبو مسلم وقوع النسخ، وقال: إنَّ المنافقين كانوا يمتنعون عن بذل الصدقات، وإن قوماً من المنافقين تركوا النفاق وآمنوا ظاهراً وباطناً إيماناً حقيقيًّا، فأراد الله أن يميزهم عن المنافقين، فأمر بتقديم الصَّدقة على النَّجْوَى ليتميز هؤلاء الذين آمنوا على من بقي على نفاقه الأصلي، فلما كان هذا التكليف لأجل هذه المصلحة المقدرة لذلك الوقت، لا جرم يقدر هذا التكليف بذلك الوقت.

قال ابن الخطيب[5]: وحاصل قول أبي مسلم: أن ذلك التكليف مقدر بغاية مخصوصة، ووجب انتهاؤه عند الانتهاء إلى تلك الغاية المخصوصة، ولا يكون هذا نسخاً، وهذا كلام حسن، والمشهور عند الجمهور أنه منسوخ بقوله: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾.

وقيل: منسوخ بوجوب الزكاة.

قوله تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ﴾.

هذا استفهام معناه التقرير[6].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أأشفقتم» أي: أبخلتم بالصدقة[7].

وقيل: خفتم.

و «الإشفاق»: الخوف من المكروه، أي: خفتم بالصدقة، وشقّ عليكم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات.

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٧٩)، رقم (٣٣٠٠)، عن علي.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٧٦١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٩٦.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٣٧.

(٥) ينظر السابق.

(٦) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٩٦.

(٧) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣١١)، والقرطبي (١٧/ ١٩٦).

قوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾. في «إذ» هذه ثلاثة أقوال[١]:

أحدها: أنها على بابها من المعنى: أنكم تركتم ذلك فيما مضى، فتداركوه بإقامة الصَّلاة. قاله أبو البقاء[٢].

الثاني: أنها بمعنى «إذا» كقوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ [غافر: ٧١] وتقدم الكلام فيه[٣].

الثالث: أنها بمعنى «إن» الشرطية، وهو قريب مما قبله؛ إلا أن الفرق بين «إن»، و «إذا» معروف.

فصل في معنى الآية

المعنى: فإن لم تفعلوا ما أمرتم به، «وتَابَ الله عليكُمْ» أي: ونسخ الله ذلك الحكم، ورخص بكم في ألاَّ تفرطوا في الصَّلاة والزكاة، وسائر الطاعات، وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدق به، وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل.

قال القرطبي[٤]: وما روي عن علي ـ رضي الله عنه ـ ضعيف؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ وهذا يدلّ على أن أحداً لم يتصدق بشيء.

فصل في أنَّ الآية لا تدل على تقصير المؤمنين

فإن قيل: ظاهر الآية يدل على تقصير المؤمنين في ذلك التكليف، وبيانه من وجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا﴾ يدل على تقصيرهم.

الثاني: قوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾.

الثالث: قوله عز وجل: ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.

فالجواب: قال ابن الخطيب[٥]: ليس الأمر كما قلتم؛ لأن القوم لم يكلفوا بأن يقدموا على الصَّدقة، ويشتغلوا بالمناجاة، بل أمروا أنهم لو أرادوا المناجاة، فلا بد من تقديم الصَّدقة فمن ترك المناجاة، فلا يمكن أن يكون مقصراً، فأما لو قيل بأنهم ناجوا من غير تقديم الصدقة، فهذا أيضاً غير جائز؛ لأن المناجاة لا تمكن إلا إذا مكن الرسول ﷺ من المناجاة فإذا لم يمكنهم من ذلك لم يقدروا على المناجاة، فعلمنا أن الآية لا تدل على صدور التقصير منهم.

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٨٩.

(٢) ينظر التبيان ص ١٢١٣.

(٣) تفسير سورة غافر. آية (٧١).

(٤) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٩٦.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٣٧.

فأما قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ فلا يمنع من أنه ـ تعالى ـ علم ضيق صدور كثير منهم عن إعطاء الصدقة في المستقبل لو دام الوجوب. فقال هذا القول.

وأما قوله عز وجل: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ فليس في الآية أنه تاب عليهم من هذا التقصير، بل يحتمل أنكم إن كنتم تائبين راجعين إلى الله تعالى، وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة، فقد [كفاكم][1] هذا التَّكليف.

قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

روي عن أبي[2] عمرو: «خبير بِمَا يعْملُونَ» بالياء من تحت، والمشهور عنه كالجماعة بتاء الخطاب.

والمعنى: يحيط بأعمالكم ونيَّاتكم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾.

قال قتادة: هم المنافقون تولّوا اليهود[3].

وقال السدي ومقاتل: هم اليهود. «مَا هُمْ مِنْكُمْ ولا مِنْهُمْ»[4] يعني: المنافقين ليسوا من المؤمنين في الدين والولاء، ولا من اليهود والكافرين، كما قال جل ذكره: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

قال السدي ومقاتل رضي الله عنهما: نزلت في عبد الله بن أبيّ ابن سلول، وعبد الله بن نبتل المنافقين، كان أحدهما يجالس رسول الله ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينا رسول الله ﷺ في حُجْرة من حُجَره، إذ قال: «يَدْخُلُ الآنَ عَلَيْكُم رجُلٌ قلبهُ قَلْبُ جبَّارٍ، وينْظرُ بِعَيْني شَيْطانٍ»، فدخل عبد الله بن نبتل، وكان أزرق، أسمر قصيراً، خفيف اللحية، فقال له النبي ﷺ: «عَلامَ تَشْتُمنِي أنْتَ وأصْحَابُكَ»؟ فحلف بالله ما فعل، وجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما شتموه، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية فقال عز وجل: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كذبة[5].

---

(١) سقط من أ.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٣٦، والدر المصون ٦/ ٢٨٩.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٧٣)، وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٩٧).

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٧٣)، عن السدي مختصراً وعزاه إلى ابن أبي حاتم. وذكره بتمامه البغوي (٤/ ٣١١)، والقرطبي (١٧/ ١٩٧)، والرازي ٢٩/ ٢٣٨).

قال ابن الخطيب[١] رحمه الله: والمراد من هذا الكذب، إما ادِّعاؤهم كونهم مسلمين، وإما أنهم كانوا يسبُّون الله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ ويكيدون المسلمين، وإذا قيل: إنكم فعلتم ذلك خافوا على أنفسهم من القتل، فيحلفون أنهم ما قالوا ذلك وما فعلوه، فهذا هو الكذب الذي يحلفون عليه، وهذه الآية تدلّ على فساد قول الجاحظ: إن الكذب هو الخبرُ المخالف لاعتقاد المخبر.

قوله: ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ يجوز في هذه الجملة ثلاثة أوجه[٢]:

أحدها: أنها مستأنفة، لا موضع لها من الإعراب، أخبر عنهم بأنهم ليسوا من المؤمنين الخُلَّص، بل كقوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣] فالضمير في «ما هم» عائد على ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾، وهم المنافقون، وفي «مِنْهُمْ» عائد على اليهود، وهم الكافرون الخلص.

والثاني: أنها حالٌ من فاعل «تولوا» والمعنى على ما تقدم أيضاً.

والثالث: أنها صفة ثانية لـ «قوماً» فعلى هذا يكون الضمير في «ما هم» عائداً على «قوماً» وهم اليهود، والضمير في «منهم» عائد على «الذين تولّوا» يعني اليهود ليسوا منكم أيها المؤمنون، ولا من المنافقين، ومع ذلك تولاَّهم المنافقون. قاله ابن عطية[٣].

إلا أن فيه تنافر الضمائر، فالضمير في «وَيَحْلِفُونَ» عائد على «الذين تولّوا» فعلى الوجهين الأولين تتحد الضمائر لعودها على «الَّذيْنَ تولّوا» وعلى الثالث: تختلف كما عرفت.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية، أي: يعلمون أنه كذب، فيمينهم يمين غَمُوس ولا عُذر لهم فيها[٤].

قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: لهؤلاء المنافقين عذاباً شديداً في جهنم، وهو الدَّرْك الأسفل من النَّار.

وقيل: عذاب القبر.

قال ابن الخطيب[٥]: لأنا إذا حملنا هذا على عذاب القَبْر، وحملنا قوله جل ذكره: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ على عذاب الآخرة لا يلزم منه تكرار. ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بئست الأعمال أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ

(١) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/ ٢٣٨.
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٨٩.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٠.
(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٠.
(٥) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٣٩.

عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ
جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ
﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟
ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ
وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾.

قرأ العامة: «أَيْمَانَهُمْ» ـ بفتح الهمزة ـ جمع «يَمِين».

والحسن[١] **وأبو العالية** ـ بكسرها ـ مصدراً هنا، وفي «المُنَافقين»، أي: إقرارهم اتخذوه جُنّة يستجنُّون بها من القَتْلِ.

قال ابن جني[٢]: «هذا على حذف مضاف، أي: اتخذوا إظهار أيمانهم جُنَّة من ظهور نفاقهم».

وقوله تعالى: ﴿أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ مفعولان لـ «اتَّخذُوا»[٣].

قوله: «لهم عذاب مهين» في الدنيا بالقَتْل وفي الآخرة بالنار.

وقيل: المراد من الكل عذاب الآخرة، كقوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]. الصّد عن سبيل الله: المنع عن الإسلام.

وقيل: إلقاء الأراجيف وتَثْبِيط المسلمين عن الجهاد.

قوله تعالى: ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ تقدم الكلام عليه في آل عمران[٤].

قال مقاتل رحمه الله: قال المنافقون: إن محمداً يزعم أنه ينصر يوم القيامة لقد

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٨١، والفخر الرازي ٢٩/ ٢٣٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٦، والدر المصون ٦/ ٢٩٠.

(٢) ينظر: المحتسب ٢/ ٣١٣.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٠.

(٤) آية رقم (١٠).

شقينا إذاً، فوالله لننصرنّ يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا إن كانت قيامة، فنزلت الآية(١).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: لهم عذاب مهين يوم يبعثهم الله، فيحلفون له كما يحلفون لكم اليوم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يحلفون لله ـ تعالى ـ يوم القيامة كذباً كما حلفوا لأوليائه في الدنيا، وهو قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(٢) [الأنعام: ٢٣] ويحسبون أنهم على شيء، بإنكارهم وحلفهم.

قال ابن زيد: ظنوا أنه ينفعهم في الآخرة(٣).

وقيل: يحسبون في الدنيا أنهم على شيء؛ لأنهم في الآخرة يعلمون الحق باضطرار، والأول أظهر.

والمعنى(٤): أنهم لشدة توغلهم في النفاق ظنّوا يوم القيامة أنهم يمكنهم ترويج كذبهم بالأيمان الكاذبة على علام الغيوب، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

قال القاضي والجُبَّائي(٥): إن أهل الآخرة لا يكذبون، فالمراد من الآية أنهم يحلفون في الآخرة: إنا ما كنا كافرين عند أنفسنا، وعلى هذا الوجه لا يكون الحلف كذباً، وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي: في الدنيا.

قال ابن الخطيب: «وتفسير هذه الآية على هذا الوجه يقتضي ركاكة عظيمة في النَّظْم».

روى ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَيْنَ خُصَمَاءُ اللَّهِ تعالى؟ فتقُومُ القدريَّةُ مُسْودَّةً وجُوهُهُمْ، مُزْرَقَّةً أعْيُنُهُمْ، مَائِلٌ شِدْقُهُمْ يَسِيْلُ لُعَابهُم، فيقُولُونَ: واللَّهِ ما عَبَدْنَا مِنْ دُونِكَ شَمْساً ولا قَمراً ولا صَنماً، ولا اتَّخَذْنَا مِنْ دُونِكَ إلهاً»(٦).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: صدقوا والله، أتاهم الشرك من حيث لا يعلمون، ثم تلا: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، هم والله القدرية ثلاثاً(٧).

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ﴾. جاء به على الأصل، وهو فصيح استعمالاً، وإن شذ قياساً(٨).

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/١٩٧.
(٢) ذكره القرطبي (١٧/ ١٩٨).
(٣) ينظر المصدر السابق.
(٤) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٣٩.
(٥) ينظر المصدر السابق.
(٦) ينظر القرطبي (١٧/ ١٩٨).
(٧) ينظر المصدر السابق.
(٨) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٠.

وقد أخرجه عمر ـ رضي الله عنه ـ على القياس، فقرأ[١]: «اسْتَحَاذَ» كـ «استبان». وتقدم هذه المادة في «النساء» في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ١٤١].

قال الزجاج[٢]: «اسْتَحْوَذَ» في اللغة استولى، يقال: حذت الإبل، إذا استوليت عليها وجمعتها.

وقال المبرد: «استحوذ على الشيء: حواه وأحاط به».

قيل[٣]: المعنى غلب عليهم الشيطان بِوَسْوستِهِ في الدنيا.

وقيل: قوي عليهم فأنساهم ذكر الله، أي: أوامره في العمل بطاعته.

وقيل: زواجره في النهي عن معصيته، والنِّسيان قد يكون بمعنى الغَفْلة، ويكون بمعنى الترك، والوجهان محتملان هاهنا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾: طائفته ورهطُه ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في بيعهم؛ لأنهم باعوا الجنة بجهنم، وباعوا الهدى بالضلالة.

فصل فيمن استدل بالآية على خلق الأعمال

احتجّ القاضي[٤] بهذه الآية في خلق الأعمال من وجهين:

الأول: أن ذلك النسيان لو حصل بخلق الله ـ تعالى ـ لكان إضافتها إلى الشيطان كذباً.

الثاني: لو حصل ذلك بخلق الله لكانوا كالمؤمنين في كونهم حزب الله لا حزب الشيطان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ تقدم أول السورة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾. أي: من جملة الأذلاء لا أذلّ منهم؛ لأن ذل أحد الخصمين يدلّ على عز الخصم الثاني، فلما كانت عزة الله ـ تعالى ـ غير متناهية كانت ذلة من ينازعه غير متناهية أيضاً[٥].

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ﴾.

يجوز أن يكون «كَتَبَ» جرى مجرى القسم، فأجيب بما يجاب به[٦].

وقال أبو البقاء[٧]: وقيل: هي جواب «كتب»؛ لأنه بمعنى «قال».

وهذا ليس بشيء؛ لأن «قال» لا يقتضي جواباً، فصوابه ما تقدم.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٨١، والبحر المحيط ٨/ ٢٣٧، والدر المصون ٦/ ٢٩٠.

(٢) ينظر: معاني القرآن ٥/ ١٤٠.

(٣) ينظر: القرطبي ١٧/ ١٩٨.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٣٩.

(٥) السابق.

(٦) الدر المصون ٦/ ٢٩٠.

(٧) ينظر التبيان ص ١٢١٣.

ويجوز أن يكون «لأغلبن» جواب قسم مقدر، وليس بظاهر.

فصل في تفسير الآية

قال المفسرون[١]: «كتب الله لأغلبن» أي: قضى الله ذلك.

وقيل: كتب في اللوح المحفوظ قاله قتادة[٢].

وقال الفراء: «كتب» بمعنى «قال».

وقوله: «أنا» توكيد، «ورسلي» من بعث منهم بالحرب، فإن الرسول بالحرب غالب، ومن بعث منهم بالحُجّة غالب أيضاً، فإذا انضم إلى الغلبة بالحجة الغلبة بالحرب كان أغلب وأقوى.

قال مقاتل: قال المؤمنون: لئن فتح الله لنا «مكة» و «الطائف» و «خيبر» وما حولهن رجَوْنَا أن يظهرنا الله ـ تعالى ـ على «فارس» و «الروم»، فقال عبد الله بن أبيّ ابن سلول: أتظنون «الروم» و «فارس» كبعض القرى التي غلبتم عليها، والله إنهم لأكثر عدداً وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك، فنزلت: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ﴾[٣].

ونظيره: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

قوله: ﴿وَرُسُلِيٓ﴾.

قرأ نافع وابن عامر[٤] بفتح «الياء».

والباقون: لا يحركون.

قال أبو علي[٥]: «التَّحريك والإسكان جميعاً حسنان».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قوي على نُصْرة أنبيائه «عَزِيزٌ» غالب لا يدفعه أحد عن مُرَاده[٦].

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

«يوادُّون» هو المفعول الثاني لـ «تَجِدُ»، ويجوز أن تكون المتعدية لواحد بمعنى

---

(١) ينظر: القرطبي ١٧/١٩٨.

(٢) أخرجه الطبري بمعناه (١٢/ ٢٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٧٤)، وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٩٨).

(٤) ينظر: السبعة ٦٢٩، والحجة ٦/ ٢٨٢، وإعراب القراءات ٢/ ٣٥٦، والعنوان ١٨٧، وشرح الطيبة ٦/ ٤٦، وشرح شعلة ٦٠٠، وإتحاف ٢/ ٥٢٧.

(٥) الحجة للقراء السبعة ٦/ ٢٨٢.

(٦) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٤٠.

«صادق ولقي»، فيكون «يوادّون» حالاً، أو صفة لـ «قوماً»[(١)].

ومعنى «يوادُّون» أي: يحبون ويوالون ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. وقد تقدم الكلام على المُحَادّة.

والمعنى: أنه لا يجتمع الإيمان مع ودادةِ أعداء الله.

فصل في المراد بهذه الموادّة

فإن قيل[(٢)]: أجمعت الأمة على أنه تجوز مخالطتهم ومعاملتهم ومعاشرتهم فما هذه الموادة المحرمة؟.

فالجواب أن الموادّة المحرمة هي إرادة منافعه ديناً ودُنيا مع كونه كافراً، فأما سوى ذلك فلا حَظْر فيه.

قوله تعالى: «ولو كانوا» هذه «واو» الحال.

وقدّم أولاً الآباء؛ لأنهم تجب طاعتهم على أبنائهم، ثم ثنّى بالأبناء؛ لأنهم أعلقُ بالقلوب وهم حياتها[(٣)]، قال الحماسي في معنى ذلك، رحمة الله عليه رحمة واسعة: [السريع]

٤٧٣٣ ـ وإنَّمَا أوْلادُنَا بَيْنَنَا أكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الأرْضِ[(٤)]

ثم ثلّث بالإخوان؛ لأنهم هم الناصرون بمنزلة العضُد من الذِّراع.

قال رحمه الله: [الطويل]

٤٧٣٤ ـ أخَاكَ أخَاكَ إنَّ مَنْ لا أخَا لَهُ كَسَاعٍ إلى الهَيْجَا بِغَيْرِ سِلاحِ
وإنَّ ابْنَ عَمِّ المَرْءِ ـ فَاعْلَمْ ـ جَنَاحُهُ وهَلْ يَنْهَضُ البَازِي بِغَيْرِ جَنَاحِ[(٥)]

ثم ربع بالعشيرة؛ لأن بها يستعان وعليها يعتمد.

قال بعضهم، رحمة الله عليه: [البسيط]

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٠.
(٢) ينظر: الرازي ٢٩/ ٢٤٠.
(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩١.
(٤) قائله حطان بن المعلى ينظر ديوان الحماسة ١/ ١٠٨، والدر المصون ٦/ ٢٩١.
(٥) قائل البيتين هو مسكين الدارمي، ونسب إلى قيس بن عاصم وكذلك لابن هرمة ينظر ديوان مسكين ص ٢٩، والكتاب ١/ ١٢٩، والخزانة ٦٥١٣، ٦٧، وشرح أبيات سيبويه ١/ ١٢٧، وشرح التصريح ٢/ ١٩٥، والدرر ٣/ ١١، والمقاصد النحوية ٤/ ٣٠٥، وأرضح المسالك ٤/ ٧٩، وتخليص الشواهد ص ٦٢، والخصائص ٢/ ٤٨٠، وشرح شذور الذهب ص ٢٨٨، وشرح قطر الندى ص ١٣٤، وحماسة البحتري ص ٢٤٥، والحماسة البصرية ٢/ ٦٠، وفصل المقال ص ٢٦٩ والجمل في النحو للخليل بن أحمد ص ٥٦، والعقد الفريد ٢/ ٣٠٤.

٤٧٣٤ ـ لا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ   فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا[١]

وقرأ أبو رجاء: «عَشِيْراتهم»، بالجمع[٢]، كما قرأها أبو بكر في «التوبة» كذلك.

فصل في مناسبة الآية

لما بالغ في المنع من هذه الموادة في الآية الأولى من حيث أن الموادة مع الإيمان لا يجتمعان، بالغ هاهنا أيضاً من وجوه، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ والمعنى: أن الميل إلى هؤلاء أعظم أنواع المحبة، ومع هذا فيجب أن يكون هذا الميل مطرحاً بسبب الدين[٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم «أحد»، وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم «بدر»، وأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قال ابن جريج: حدثت أن أبا قحافة سبَّ النبي ﷺ فصكّه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ صكَّة سقط منها على وجهه ثم أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: «أو فَعَلْتَهُ لا تَعُدْ إليْهِ»، فقال: والذي بعثك بالحق نبيًّا لو كان السيف منِّي قريباً لقتلته[٤]، ومصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير، وعلي بن أبي طالب وحمزة وعبيدة ـ رضي الله عنهم ـ قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يوم «بدر» أخبر أن هؤلاء لم يوادُّوا أقاربهم وعشائرهم غضباً لله تعالى ودينه.

فصل في الاستدلال بالآية على معاداة القدرية

قال القرطبي[٥]: استدل مالك ـ رحمه الله ـ بهذه الآية على معاداة القدرية، وترك مجالستهم.

قال أشهب عن مالك: لا تجالسوا القدرية، وعادوهم في الله، لقول الله عز وجل: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

قال القرطبي[٦]: وفي معنى أهل القدر جميع أهل الظُّلم والعدوان.

وعن الثوري ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان.

---

(١) قائله قريط بن أنيف. ينظر ديوان الحماسة ١/ ١٣، والبحر ٨/ ٢٣٧، والدر المصون ٦/ ٢٩١.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٣٧، والدر المصون ٦/ ٢٩١.

(٣) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٤٠.

(٤) ذكره الحافظ في «تخريج الكشاف» (٤/ ٤٩٧)، وعزاه إلى الثعلبي في «تفسيره» وذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٢٧٤)، وعزاه إلى ابن المنذر عن ابن جريج.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٩٩).

(٦) ينظر السابق.

وعن عبد العزيز بن أبي رواد: أنه لقي المنصور في الطّواف فلما عرفه هرب منه، وتلا هذه الآية.

وعن النبي ﷺ أنه كان يقول: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ لفَاجِرٍ عِنْدِي نِعْمَةً، فإنِّي وجَدْتُ فِيْمَا أوْحَيْتَ إليَّ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية[1].

قوله: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ﴾.

قرأ العامّة: «كَتَبَ» مبنيًّا للفاعل، وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ «الإيمان» نصباً، **وأبو حيوة**[2] في رواية المفضل: «كُتِبَ» مبنيًّا للمفعول «الإيمان» رفع به.

والضمير في «منه» لله تعالى.

وقيل: يعود على «الإيمان»؛ لأنه روح يحيا به المؤمنون في الدارين. قاله السدي، أي: أيدهم بروح من الإيمان[3]، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فصل في معنى كتب الإيمان[4]

معنى «كتب الإيمان» أي: خلق في قلوبهم التصديق، يعني من لم يُوالِ من حاد الله.

وقيل: «كَتَبَ»: أثبت. قاله الربيع بن أنس.

وقيل: جعل كقوله تعالى: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣] أي: اجعلنا، وقوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقيل «كتب» أي: جمع، ومنه الكتيبة، أي: لم يكونوا ممن يقول: نؤمن ببعض، ونكفر ببعض.

وقيل: «كتب في قلوبهم الإيمان» أي: على قلوبهم الإيمان، كقوله تعالى: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١].

وخص القلوب بالذكر، لأنها موضع الإيمان.

قوله: «وأيَّدهُمْ»، أي: قوَّاهم ونصرهم بروح منه.

قال الحسن: بنصر منه.

قال ابن عباس: نصرهم على عدوهم، وسمى تلك النصرة روحاً؛ لأنه به يحيا أمرهم.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٧٤)، وعزاه إلى ابن مردويه عن كثير بن عطية عن رجل.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٧، والدر المصون ٦/ ٢٩١، والقرطبي ١٧/ ٢٠٠، والسبعة ٦٣٠، والحجة ٦/ ٢٨٢، وإعراب القراءات ٢/ ٣٥٦.

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣١٣).

(٤) ينظر: القرطبي (١٧/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

وقال الربيع بن أنس رضي الله عنه: بالقرآن وحججه.

وقال ابن جريح: بنُورٍ وبُرهان وهدى.

وقيل: برحمة من الله.

وقيل: أيَّدهم بجبريل صلوات الله وسلامه عليه.

قوله: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: قبل أعمالهم ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾ فرحوا بما أعطاهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وهذه في مقابلة قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وهذه الآية زجر عن التودّد إلى الكُفَّار والفُسَّاق، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بالصواب.

روى الثعلبي في تفسيره عن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورَةَ المُجادلةِ كُتِبَ مِنْ حِزْبِ الله ـ تعالى ـ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٤/ ٤٩٧)، وعزاه إلى الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب.

سورة الحشر

مدنية في قول الجميع، وهي أربع وعشرون آية وأربع مائة وخمس وأربعون كلمة وألف وتسعمائة وثلاثة عشر حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤)﴾

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدم نظيره.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾.

قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: قل: سورة النَّضير، وهم رهط من اليهود من ذرية هارون ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نزلوا بـ «المدينة» في فتن بني إسرائيل انتظاراً لمحمدٍ ﷺ فكان من أمرهم ما نصّ عليه[١].

قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

يجوز أن تكون «من» للبيان، فتتعلق بمحذوف، أي: أعني من أهل الكتاب.

والثاني: أنها حال من «الَّذين كفروا».

وقوله تعالى: ﴿مِن دِيَارِهِمْ﴾ متعلق بـ «أخرج»، ومعناها: ابتداء الغاية، وصحت إضافة الديار إليهم؛ لأنهم أنشئوها[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٤٩٧)، كتاب: التفسير، باب: سورة الحشر. حديث (٤٨٨٣).

(٢) ينظر الدر المصون ٦/ ٢٩٢.

قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ﴾.

هذه اللاَّم متعلقة بـ «أخرج» وهي لام التوقيت، كقوله تعالى: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] أي: عند أول الحشر.

وقال الزمخشري[١]: وهي كاللام في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]، وقوله: «جئت لوقت كذا» وسيأتي الكلام على هذه «اللام» في سورة «الفجر» إن شاء الله تعالى.

فصل في الكلام على الحشر

قال القرطبي[٢]: «الحشر»: الجمع، وهو على أربعة أضرب:

حشران في الدنيا وحشران في الآخرة.

أما اللذان في الدنيا فقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ﴾.

قال الزهري: كانوا من سِبْطٍ لم يصبهم جلاء، وكان الله ـ عز وجل ـ قد كتب عليهم الجلاء، فلولا ذلك لعذّبهم في الدنيا، وكان أول حشر حشروا في الدنيا إلى «الشام».

قال ابن عباس وعكرمة: من شك أن المحشر في «الشام» فليقرأ هذه الآية[٣].

وأن النبي ﷺ قال لهم: «اخْرُجُوا» قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرْضِ المَحْشَرِ».

قال قتادة رضي الله عنه: هذا أول المحشر[٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم أول من حشر من أهل الكتاب، وأخرج من دياره[٥].

وقيل: إنهم أخرجوا إلى «خيبر»، وإن معنى «لأول الحشر»: إخراجهم من حصونهم إلى «خيبر»، وآخرهم بإخراج عمر إياهم من «خيبر» إلى «نجد» و «أذرعات».

وقيل: «تيماء» و «أريحاء»، وذلك بكفرهم ونقض عهدهم.

---

(١) ينظر الكشاف ٤/ ٤٩٩.

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٣.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٤)، عن ابن عباس وعكرمة.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٧٧)، وعزاه إلى البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «البعث».

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٤٠)، عن قتادة.

(٥) ينظر المصدر السابق.

وأما الحشر الثاني: فحشرهم قرب القيامة.

قال قتادة: تأتي نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيلُ معهم حيث قالوا، وتأكل من تخلف منهم، وهذا ثابت في الصحيح[١].

وذكروا أن تلك النَّار ترى بالليل، ولا ترى بالنهار.

قال ابن العربي[٢]: للحشر أول ووسط، وآخر.

فالأول: إجلاء بن النَّضير.

والأوسط: إجلاء خيبر.

والآخر: حَشْر يوم القيامة.

وعن الحسن: هم بنو قريظة[٣]، وخالفه بقية المفسرين، وقالوا: بنو قريظة ما حشروا، ولكنهم قتلوا حكاه الثعلبي.

فصل في نسخ مصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم

قال إلكيا الطَّبري: ومُصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير شيء لا يجوز الآن، وإنما كان ذلك في دار الإسلام ثم نُسِخَ، والآن فلا بد من قتالهم، أو سبيهم، أو ضرب الجزية عليهم.

قوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾ أي: لعظم أمر اليهود لعنهم الله ومنعتهم وقوتهم في صدور المسلمين واجتماع كلمتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن المسلمين ظنوا أنهم لعزّتهم وقوّتهم لا يحتاجون إلى أن يخرجوا من ديارهم[٤].

قيل: المراد بالحصون: الوطيح والنَّطاة والسُّلالم والكتيبة[٥].

قوله: ﴿مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾. فيه وجهان[٦]:

أحدهما: أن تكون «حُصُونهم» مبتدأ، و «مَانِعتهم» خبر مقدم، والجملة خبر «أنهم». لا يقال: لم لا يقال: «مَانعتُهم» مبتدأ، لأنه معرفة، و «حصونهم» خبره، ولا حاجة إلى تقديم ولا تأخير؟ لأن القصد الإخبار عن الحُصُون، ولأن الإضافة غير محضة فهي نكرة.

---

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٤.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٤)، عن قتادة.

(٤) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٩/ ٢٤٣).

(٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤.

(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٢.

الثاني: أن تكون «مانعتهم» خبر «أنهم» و «حصونهم» فاعل به، نحو: إن زيداً قائم أبوه، وإن عمراً قائمة جاريته. وجعله أبو حيان[١] أولى؛ لأن في نحو: «قائم زيد» على أن يكون خبراً مقدماً ومبتدأ مؤخراً، خلافاً، الكوفيون يمنعونه، فمحل الوفاق أولى.

قال الزمخشري[٢]: «فإن قلت: فأي فرق بين قولك: وظنوا أن حصونهم تمنعهم، أو «مانعتهم»، وبين النظم الذي جاء عليه؟.

قلت: بتقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وُثُوقهم، ومنعها إياهم، وفي تغيير ضميرهم اسماً لـ «أن»، وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض إليهم، وليس ذلك في قولك: حصونهم تمنعهم» انتهى.

وهذا الذي ذكره إنَّما يتأتى على الإعراب الأول، وقد تقدم أنه مرجوح.

وتسلط الظن هنا على «أن» المشددة، والقاعدة أنه لا يعمل فيها ولا في المخففة منها إلا فعل «علم» وتعين إجراؤه مجرى اليقين لشدته وقوته، وأنه بمنزلة العلم.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من أمره.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾.

قال الزمخشري[٣]: قرىء «فأتاهم الهلاك» أي: أتاهم أمره وعذابه «من حيث لم يحتسبوا»، أي: لم يظنوا، وقيل: من حيث لم يعلموا[٤].

وقال ابن جريج والسدي وأبو صالح: «من حيث لم يحتسبوا: بقتل كعب بن الأشرف، وكانوا أهل خلعة وسلاح وقصور منيعة فلم يمنعهم شيء منها»[٥].

وقيل: الضمير في «فأتاهم الله» يعود إلى المؤمنين، أي: فأتاهم نصرُ الله وتقويته [لا] يمنعهم شيء منها[٦].

قوله: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ﴾ بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، وكان الذي قتله محمد بن مسلمة، وأبو نائلة سلكان بن سلامة بن وقش ـ وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة ـ وخبره مشهور في السيرة.

قال أهل اللغة: «الرُّعبُ»: الخوف الذي يرعب الصُّدور، أي: يملؤه، وقذفه: إثباته فيه، ومنه قالوا في صفة الأسد: مقذف، كأنه قذف اللحم قذفاً لاكتنازه وتداخل أجزائه.

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٤٢.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٤٩٩.
(٣) السابق.
(٤) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤.
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٤)، عن ابن جريج والسدي وأبي صالح.
(٦) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٤٣.

وهذه الآية تدلّ على أن الأمور كلها من الله تعالى؛ لأن الآية دلّت على أن وقوع ذلك بالرُّعب صار سبباً في إقدامهم على بعض الأفعال، وبالجملة فالفعل لا يحصل إلا عند حصول داعية متأكدة في القلب، وحصول تلك الداعية لا يكون إلا من الله تعالى، فكانت الأفعال بأسرها مستندة إلى الله ـ تعالى ـ بهذا الطريق(١).

قوله: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم﴾ يجوز أن يكون مستأنفاً للإخبار به، وأن يكون حالاً من ضمير «قلوبهم»، وليس بذاك(٢).

وقرأ أبو عمرو: «يُخَرِّبُونَ»(٣) بالتشديد، وباقيهم: بالتَّخفيف.

وهما بمعنى؛ لأن «خرَّب» عدَّاه أبو عمرو بالتضعيف، وهم بالهمزة.

وعن أبي عمرو: أنه فرق بمعنى آخر، فقال: «خرّب» ـ بالتشديد ـ هدم وأفسد، و «أخرب» ـ بالهمزة ـ ترك الموضع خراباً، وذهب عنه، وهو قول الفرَّاء.

قال المبرد: ولا أعلم لهذا وجهاً.

و «يُخْرِبُونَ» من خرب المنزل وأخربه صاحبه، كقوله: «عَلِمَ وأعْلَمَ، وقَامَ وأقَامَ».

وإذا قلت: «يخربون بيوتهم» من التخريب فإنما هو تكثير؛ لأن ذكر «بيوتاً» تصلح للتقليل والتكثير(٤).

وزعم سيبويه أنهما يتعاقبان في بعض الكلام، فيجري كل واحد مجرى الآخر، نحو: «فرحته وأفرحته».

قال الأعشى: [المتقارب]

٤٧٣٦ ـ .... وأخْـرَبْـتَ مِـنْ أرْضِ قَـوْمٍ دِيَـارا(٥)

واختار الهذلي قراءة أبي عمرو لأجل التَّكثير(٦).

ويجوز أن يكون «يخربون» تفسيراً للرُّعب فلا محلَّ له أيضاً.

قال أبو عمرو: وإنما اخترت التشديد؛ لأن الإخراب ترك الشيء خراباً بغير ساكن،

---

(١) ينظر السابق ٢٩/ ٢٤٤.
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٣.
(٣) ينظر: السبعة ٦٣٢، والحجة ٦/ ٢٨٣، وإعراب القراءات ٢/ ٣٥٧، وحجة القراءات ٧٠٥، والعنوان ١٨٨، وشرح الطيبة ٦/ ٤٧، وشرح شعلة ٦٠٠، وإتحاف ٢/ ٥٢٩.
(٤) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٤٤.
(٥) عجز بيت وصدره:

فـأقْـلَـلْـتَ قَـوْمـاً وأعْـمَـرْتَـهُـمْ

ينظر ديوانه ص ٨٢، والتفسير الكبير ٢٩/ ٢٨١.
(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٣.

وبنو النضير لم يتركوها خراباً، وإنما خرَّبوها بالهدم[١]، ويؤيده قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فصل في تفسير الآية

قال قتادة والضحاك رحمهما الله تعالى: كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا، واليهود يخربون من داخل ليبنوا به ما خرب من حصنهم[٢].

وقال مقاتل: إن المنافقين أرسلوا إليهم ألا يخرجوا وتدرّبوا على الأزِقَّة، وكان المسلمون يخربون سائر الجوانب[٣].

وقيل: إن المسلمين كانوا إذا ظهروا على دربٍ من دروبهم خربوه، وكان اليهود يتأخرون إلى ما وراء بيوتهم وينقّبُونها من وراء أدبارهم.

وقيل: إن المسلمين كانوا يخربون ظواهر البلد، واليهود لما أيقنُوا بالجلاء، فكانوا ينظرون إلى الخشبةِ في منازلهم مما يستحسنونه، أو الباب فيهدمون بيوتهم، وينزعونها، ويحملونها علي الإبل.

فإن قيل: ما معنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين؟.

قلت: لما عرضوهم لذلك، وكانوا السبب فيه، فكأنهم أمروهم به وكلفوه إياهم[٤].

وقال الزهري: «يخربون بيوتهم» بنقض المواعدة، «وأيدي المؤمنين» بالمقاتلة.

وقال أبو عمرو بن العلاء: «بأيديهم» في تركهم لها، «وأيدي المؤمنين» في إجلائهم عنها.

قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

والاعتبار: مأخوذ هنا من العبور والمجاوزة من شيء إلى شيء، وبهذا سميت العبرةُ عبرةً؛ لأنها تنتقل من العين إلى الخدِّ، وسمي علم التعبير؛ لأن صاحبه ينتقل من المتخيّل إلى المعقول، وسميت الألفاظ عبارات؛ لأنها تنقل المعاني عن لسان القائل إلى عقلِ المستمع.

ويقال: السعيد من اعتبر بغيره؛ لأنه ينتقل عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤، ٥.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ٥٠٠)، عن الضحاك.

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٩/ ٢٤٤).

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٤٤، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ١٤٤.

ولهذا قال المفسرون: الاعتبار هو النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها[١].

وقوله عز وجل: «يا أولي الأبصار».

قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد أهل اللُّب والعقل والبصائر[٢].

قال الفراء: أي من عاين تلك الوقائع والأبصار جمع البصر.

ومن جملة الاعتبار هنا أنهم اعتصموا بالحُصُون من الله، فأنزلهم الله ـ تعالى ـ منها، وسلط عليهم من كان ينصرهم، وأنهم هدموا أموالهم بأيديهم، ومن لم يعتبر بغيره اعتبر في نفسه[٣].

واستدل الأصوليون بهذه الآية على وجوب العمل بالقياس.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾.

العامة: على مده وهو الإخراج.

يقال: أجليت القوم، وجلا هو جلاء.

وقال الماوردي[٤]: الجلاء أخصّ من الخروج؛ لأنه لا يقال إلا لجماعة، والإخراج يكون للجماعة والواحد.

وقال غيره: الفَرْق بينهما أن الجلاء كان مع الأهل والولد، بخلاف الإخراج فإنه لا يستلزم ذلك.

وقرأ الحسن[٥] وعلي ابنا صالح: «الجَلاَ» بألف فقط.

وطلحة[٦]: مهموزاً من غير ألف كـ «النبأ».

والمعنى[٧]: أنه لولا أنه قضى أنه سيجليهم عن ديارهم، وأنه يبقون مدة، فيؤمن بعضهم ويولد لهم من يؤمن ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بالقتل كما فعل بإخوانهم «بني قريظة»، والجلاء مفارقة الوطن يقال: جلا بنفسه جلاء، وأجلاه غيره إجلاء.

وأما قوله: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾، فهو كلام مبتدأ غير معطوف على ما قبله، إذ لو كان معطوفاً على ما قبله لزم ألا يوجد؛ لأن «لولا» تقتضي انتفاء الجزاء لحصول الشرط[٨].

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٤٥.
(٢) ذكره الرازي في تفسيره (٢٩/ ٢٤٥)، عن ابن عباس.
(٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ٥.
(٤) ينظر: النكت والعيون ٥/ ٥٠١، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٣.
(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٤٣، والدر المصون ٦/ ٢٩٣.
(٦) السابق.
(٧) ينظر: القرطبي ١٨/ ٦.
(٨) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٤٦.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

أي: عادوه وخالفوا أمره[١].

﴿وَمَن يُشَآقِّ اللَّهَ﴾.

قرأ طلحة[٢] **بن مصرف، ومحمد بن السميفع**: بالفك، كالمتفق عليه في الأفعال، وأدغم الباقون.

والمقصود من الآية الزَّجْر.

قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ الْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٧﴾

قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾.

«ما» شرطية في موضع نصب بـ «قطعتم»، و «من لينة» بيان له، و «فبإذن الله» جزاء الشرط، فلا بد من حذف، أي: فقطعها بإذن الله، فيكون «بإذن الله» الخبر لذلك المبتدأ[٣].

واللِّيْنَة: فيها خلاف كبير[٤].

قيل: هي النَّخْلة مطلقاً.

وأنشد الشاعر في ذلك: [الطويل]

٤٧٣٧ ـ كَأنَّ قُتُودِي فوقهَا عُشُّ طَائرٍ عَلَى لِينَةٍ سَوْقَاءَ تَهْفُو جُنُوبُهَا[٥]

وقال ذو الرمة: [الطويل]

٤٧٣٨ ـ طِرَاقُ الخَوافِي واقِعٌ فَوْقَ لِينَةٍ نَدَى لَيْلِهِ فِي رِيشِهِ يَتَرقْرَقُ[٦]

وقيل: هي النَّخْلة ما لم تكن عجوة. قاله الزهري، ومالك، وسعيد بن جبير وعكرمة، والخليل.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/٦.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/٢٤٣، والدر المصون ٦/٢٩٣، والقرطبي ١٨/٦.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/٢٩٣. (٤) ينظر: القرطبي ١٨/٨.

(٥) قائله ذو الرُّمة، ينظر ديوانه (٨٥)، والكشاف ٤/٨١، والسراج المنير ٤/٢٤١، والدر المصون ٦/٢٩٣.

(٦) تقدم.

وقيل: ما لم تكن عجوة ولا برنيَّة، وهو قول أبي عبيدة.

قال جعفر بن محمد: هي العجوة خاصة، وذكر أن العتيق والعجوة كانتا مع نوح في السفينة والعتيق: الفَحْل، وكانت العجوة أصل الإناث كلها، فلذلك شقّ على اليهود قطعها حكاه الماوردي[١].

وقيل: هي النَّخْلة الكريمة، أي: القريبة من الأرض.

وأنشد الأخفش رحمة الله عليه: [الخفيف]

٤٧٣٩ ـ قَدْ شَجَانِي الحمَامُ حِينَ تَغَنَّى بِفِراقِ الأحْبَابِ مِنْ فَوْقِ لِينَهْ[٢]

وقال سفيان بن عيينة: هي ضرب من النخل، يقال لثمره: اللَّون. تمره أجود التَّمر، وهو شديد الصُّفرة يرى نواه من خارجه، ويغيب فيه الضِّرْس، النخلة منها أحب إليهم من وصيف.

وقيل: هي الفَسِيْلة؛ لأنها ألينُ من النخلة.

وأنشد: [الخفيف]

٤٧٤٠ ـ غَرَسُوا لِينَةً بِمَجْرَى مَعِينٍ ثُمَّ حَفُّوا النَّخِيلَ بِالآجَامِ[٣]

وقيل: اللينة هي الأشجار كلها للينها بالحياة، وأنشد بيت ذي الرمة المتقدم.

وقال الأصمعي: إنها الدَّقَل. قال: وأهل «المدينة» يقولون: لا تنتفخ الموائد حتى توجد الألوان يعنون الدَّقل.

قال ابن العربي[٤]: «والصَّحيح ما قاله الزهري ومالك».

وفي عين «لينة» قولان[٥]:

أحدهما: أنها «واو»؛ لأنها من اللون، وإنما قلبت ياء لسكونها، وانكسار ما قبلها كـ «ديمة» و «قيمة».

الثاني: أنها «ياء»؛ لأنها من اللين.

وجمع اللينة «لين»؛ لأنه من باب اسم الجنس كـ «تمرة، وتمر».

وقد كسر على «ليان» وهو شاذّ؛ لأن تكسير ما يفرق بتاء التأنيث شاذ كـ «رطبة ورطب وأرطاب».

وأنشد: [المتقارب]

---

(١) ينظر: النكت والعيون ٥/ ٥٠٢. (٢) ينظر: القرطبي ١٧/ ٨.

(٣) ينظر: القرطبي ١٧/ ٨، والبحر ٨/ ٢٤٣، والدر المصون ٦/ ٣٩٤.

(٤) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٧٦٩. (٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٤.

٤٧٤١ ـ وسَالِفَةٍ كَسَحُوقِ اللِّيَا نِ أضْرَمَ فِيهَا الغَوِيُّ السُّعُرْ[١]

والضمير في قوله «تَرَكْتُمُوهَا» عائد على معنى «ما»[٢].

قوله: «قَائِمَةً».

قرأ عبد الله والأعمش وزيد[٣] **بن علي**: «قُوَّماً» على وزن «ضُرَّباً» جمع «قائم» مراعاة لمعنى «ما» فإنه جمع.

وقرأ[٤] **عبد الله**: «ما قطعتم من لينةٍ ولا تركتموها على أصولها» أي: لم تقطعوها.

وقرىء[٥]: «قَائِماً» مفرداً مذكراً.

وقوله: ﴿أُصُولِهَا﴾.

قرىء: «أصُلها»[٦] بغير «واو»، وفيه وجهان:

أحدهما: أنه جمع «أصل» نحو: «رَهْن ورُهُن».

والثاني: أن يكون حذف الواو استثقالاً لها، واكتفى بالضمة عن «الواو».

فصل في نزول الآية

روي أن رسول الله ﷺ لما نزل بنو النضير، وتحصنوا بحصونهم أمر بقطع نخيلهم وإحراقها فجزع أعداء الله عند ذلك، وقالوا: يا محمد زعمت أنك تريد الصَّلاح، أفمن الصلاح قطع الشجر وعَقْر النخل؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض؟ فوجد المسلمون في أنفسهم وخشوا أن ذلك فساداً، واختلفوا في ذلك.

فقال بعضهم: لا تقطعوا فإنها مما أفَاءَ اللَّه علينا.

وقال بعضهم: بل نُغيظهم بقطعها، وأنزل الله هذه الآية بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطعه من الإثم[٧].

وروي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: حرَّق رسول الله ﷺ نخل بني النضير وقطع

---

(١) قائله هو امرؤ القيس، ويروى «السمر» مكان «السعر».
ينظر ديوانه ص ١٦٥، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٩١، واللسان (سحق)، ومجمع البيان ٩/ ٣٨٥، والقرطبي ١٨/ ٨، والمعاني الكبير ص ١٧.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٤.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٥، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٤، والدر المصون ٦/ ٢٩٤، والقرطبي ١٨/ ٨.

(٤) ينظر: القرطبي ١٨/ ٨.

(٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٠١، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٤، والدر المصون ٦/ ٢٩٤.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٤٤، والدر المصون ٦/ ٢٩٤.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٣)، من طريق ابن إسحاق عن يزيد بن رومان وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣١٥).

وهي «البُويرة»، فنزل: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1] أخبر في هذه الآية أن ما قطعوه وما تركوه «فبإذْنِ الله» أي: بأمره ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

و «اللام» في «ليخزي» متعلقة بمحذوف أي: أذن في قطعها ليسرَّ المؤمنين ويعزهم ويخزي الفاسقين[2].

فصل في هدم حصون الكفار

احتجُّوا بهذه الآية على أنَّ حصون الكفرة وديارهُم يجوز هدمُهَا وتحريقُهَا وتغريقها وأن ترمى بالمجانيق وكذلك أشجارهم[3].

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنهم قطعوا منها ما كان موضعاً للقتال[4].

وروي أن رجلين كانا يقطعان أحدهما العجوة والآخر اللون، فسألهما رسول الله ﷺ فقال هذا: تركتها لرسول الله ﷺ، وقال الآخر: قطعتها غيظاً على الكُفَّار[5].

واستدلوا به على جواز الاجتهاد بحضرة النبي ﷺ.

قال الماوردي رحمه الله[6]: في هذه الآية دليل على أن كل مجتهد مصيب.

وقال إلكيا الطبري: وإن كان الاجتهاد يبعد في مثله مع وجود النبي ﷺ بين أظهرهم، ولا شكَّ أن رسول الله ﷺ رأى ذلك وسكت، فتلقوا الحكم من تقريره فقط.

قال ابن العربي[7]: وهذا باطل لأن رسول الله ﷺ كان معهم، ولا اجتهاد مع حضور النبي ﷺ وإنما يدل على اجتهاد النبي ﷺ فيما لم ينزل عليه أخذاً بعموم الأذية للكفار، ودخولاً في الإذْنِ للكل فيما يقضي عليهم بالبوارِ، وذلك قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ الآية.

قال المبرد[8]: «يقال: أفاء يفيء، إذا رجع، وأفاء الله، إذا رده».

وقال الأزهري[9]: «الفَيْء: ما رده الله على أهل دينه من أموالٍ بلا قتالٍ إما بأن

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٤٩٧)، كتاب التفسير، باب: «ما قطّعتم من لينة» حديث (٤٨٨٤)، من طريق نافع عن ابن عمر.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٤. (٣) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٤٧.

(٤) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٩/ ٢٤٧)، عن ابن مسعود.

(٥) ينظر المصدر السابق.

(٦) ينظر: النكت والعيون ٥/ ٥٠٢، والقرطبي ١٨/ ٧.

(٧) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٧٦٩. (٨) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٤٧.

(٩) ينظر: تهذيب اللغة ٥/ ٧٨.

يجلوا عن أوطانهم ويخْلُوهَا للمسلمين، أو يصالحون على جزيةٍ يؤدّونها عن رءوسهم، أو مال غير الجزية يفتدون به من سفكِ دمائهم، كما فعله بنو النضير حين صالحوا رسول الله ﷺ على أن لكل ثلاثة منهم حمل بعير مما شاءوا سوى السلاح، ويتركوا الباقي، فهذا المال هو الفيءُ، وهو ما أفاء الله على المسلمين، أي: رده من الكفار على المسلمين».

وقوله: «مِنْهُمْ» أي: من يهود بني النضير.

قوله: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ﴾.

الفاء جواب الشرط، أو زائدة، على أنها موصولة متضمنة معنى الشَّرط، و «ما» نافية[١].

والإيْجَاف: حمل البعير على السَّير السريع، يقال: وجف البعير والفرس إذا أسرع، يَجِفُ وجْفاً ووَجِيفاً ووجفَاناً، وأوجفته أنا إيجافاً، أي: أتعبته وحركته.

قال العجاج: [الرجز]

٤٧٤٢ ـ نَـاجٍ طَـوَاهُ الأيْـنُ مِـمَّـا وجَـفَـا[٢]

وقال نصيب: [الطويل]

٤٧٤٣ ـ ألاَ رُبَّ رَكْبٍ قَدْ قطَعْتُ وجيفَهُمْ إلَـيْكَ ولـوْلاَ أنْـتَ لَـمْ يُـوجـفِ الـرَّكْـبُ[٣]

قوله تعالى: ﴿مِنۡ خَيۡلٍ﴾.

«من» زائدة، أي: خيلاً، والرِّكاب: الإبل، واحدها: راحلة، ولا واحد لها من لفظها.

قال ابن الخطيب[٤]: والعرب لا يطلقون لفظ الرَّاكب إلاَّ على راكب البعير، ويسمون راكب الفرس فارساً.

والمعنى: لم تقطعوا إليها شُقَّة، ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقة، وإنما كانت من «المدينة» على ميلين قاله الفراء. فمشوا إليها مشياً ولم يركبوا خيلاً، ولا إبلاً إلا النبي ﷺ فقيل: إنه ركب جملاً.

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٩٤.

(٢) وبعده:

طـيَّ الـلَّـيَـالـي زُلَـفـاً فـزلـفـا سَـمَـاوة الـهـلال حـتـى احـقـوقـفـا

ينظر: ديوانه ٢/ ٢٣٢، والكتاب ١/ ٣٥٣، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٣١٩، وجمهرة اللغة ص ٥٥٣، واللسان (حقف)، و(زلف)، و(وجف)، و(سما). والبحر المحيط ٨/ ٢٤٠، والدر المصون ٦/ ٢٩٤.

(٣) ينظر البحر ٨/ ٢٤٠، والدر المصون ٦/ ٢٦٤.

(٤) ينظر «التفسير الكبير» (٢٩/ ٢٤٧).

وقيل: حماراً مخطُوماً بليفٍ، فافتتحها صُلْحاً.

قال ابن الخطيب[١]: إن الصحابة طلبوا من الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يقسم الفَيْءَ بينهم كما يقسم الغنيمة بينهم، فذكر الله ـ تعالى ـ الفرق بين الأمرين، وأن الغنيمة هي التي أتعبتم أنفسكم في تحصيلها، وأما الفيءُ فلم يوجف عليه بخيل ولا ركابٍ، فكان الأمر فيه مفوضاً إلى النبي ﷺ يضعه حيث يشاء.

وها هنا سؤال، وهو أن أموال بني النَّضير أخذت بعد القتال؛ لأنهم حوصروا أياماً، وقاتلوا وقتلوا، ثم صالحوا على الجلاء، فوجب أن تكون تلك الأموال من جملة الغنائم لا من جملة الفيء؟ فلهذا السؤال ذكر المفسرون ها هنا وجهين:

الأول: أن هذه الآية ما نزلت في قرى بني النضير؛ لأنهم أوجفوا عليه بالخيل والرِّكاب، وحاصرهم رسول الله ﷺ والمسلمون، بل هي فيء «فَدَك»؛ لأن أهله انجلوا عنه، فصارت تلك القرى والأموال التي في يد رسول الله ﷺ من غير حربٍ، فكان رسول الله ﷺ يأخذ من غلَّة «فدك» نفقته ونفقة من يعوله، ويجعل الباقي للسِّلاح والكراع، فلما مات رسول الله ﷺ ادعت فاطمة ـ رضي اللهعنها ـ أنه كان نحلها «فدكاً»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أنت أعز الناس علي فقراً، وأحبهم إلي غنى، لكني لا أعرف صحة قولك، ولا يجوز لي أن أحكم بذلك، فشهدت لها أم أيمن ومولى للرسول ﷺ فطلب منها أبو بكر الشَّاهد الذي يجوز شهادته في الشرع فلم يكن فأجرى أبو بكر ذلك على ما كان يجريه الرسول ﷺ ينفق منه على من كان ينفق عليه الرسول، ويجعل ما يبقى في السلاح والكُراع.

وكذلك عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ جعله في يد علي ـ رضي الله عنه ـ يجريه على هذا المجرى، ورد هذا في آخر عهد عمر ـ رضي الله عنه ـ وقال: إن بنا غنًى وبالمسلمين إليه حاجة.

وكان عثمان ـ رضي الله عنه ـ يجريه كذلك، ثم عاد إلى علي ـ رضي الله عنه ـ فكان يجريه هذا المجرى، والأئمة الأربعة ـ رضي الله عنهم ـ اتَّفقوا على ذلك.

والقول الثاني[٢]: أن هذه الآية نزلت في بني النضير وقراهم، وليس للمسلمين يومئذ كثير خيل ولا ركاب، ولم يقطعوا إليها مسافة كبيرة، وإنما كانوا على ميلين من «المدينة»، فمشوا إليها مشاة، ولم يركب إلا رسول ﷺ فلما كانت المقاتلة قليلة، والخيل والركاب غير حاصل أجراه الله ـ تعالى ـ مجراه ما لم يحصل فيه المقاتلة أصلاً، فخص رسول الله ﷺ بتلك الأموال فروي أنه ﷺ قسمها بين المهاجرين، ولم يُعْطِ الأنصار شيئاً

---

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) ينظر: الفخر الرازي (٢٩/ ٢٤٨).

منها إلا ثلاثة نفرٍ كانت بهم حاجة: أبو دجانة، وسهل بن حنيف، والحرث بن الصمة.

قال بعض العلماء: لما ترك بنو النضير ديارهم وأموالهم طلب المسلمون أن يكون لهم منها حظ كالغنائم، فبين الله ـ تعالى ـ أنها فيءٌ، وكان قد جرى بعض القتال؛ لأنهم حوصروا أياماً، وقاتلوا وقتلوا، ثم صالحوا على الجلاء، ولم يكن قتالٌ على التحقيق، بل جرى مبادىء القتال، وجرى الحصار، فخص الله ـ تعالى ـ تلك الأموال برسول الله ﷺ.

وقال مجاهد رضي الله عنه: علمهم الله ـ تعالى ـ وذكرهم أنه إنما نصر رسوله ﷺ ونصرهم بغير كراع ولا عدة[١].

«ولكن الله يسلط رسله على من يشاء من عباده» من أعدائه.

وفي هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصة لرسول الله ﷺ دون أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾.

قال الزمخشري[٢]: «لم يدخل العاطف على هذه الجملة؛ لأنها بيان للأولى، فهي منها غير أجنبية عنها».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي «قريظة» و «النضير»، وهما بـ «المدينة» و «فدك» وهي على ثلاثة أميال من «المدينة» و «خيبر»، وقرى «عرينة» و «ينبع» جعلها الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ وبين أن في ذلك المال الذي خصه الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ سُهماناً لغير الرسول ﷺ تطييباً منه لعباده[٣].

فصل في المراد بذي القربى

قال ابن الخطيب[٤]: أجمعوا على أن المراد بذي القربى بنر هاشم، وبنو المطلب.

وقال القرطبي[٥]: وقد تكلم العلماء في هذه الآية والتي قبلها على معناهما هل معناهما واحد أو مختلف، والآية التي في الأنفال؟.

فقال بعضهم: إن قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ منسوخ بآية «الأنفال» من كون الخمس لمن سمي له، والأخماس الأربعة لمن قاتل، وكان في أول الإسلام تقسم الغنيمة على هذه الأصناف، ولا يكون لمن قاتل عليها شيء، وهذا قول

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٨٤)، عن مجاهد وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٢) الكشاف ٤/ ٥٠٢.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥)، عن ابن عباس بمعناه وذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٠).

(٤) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٤٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٠، ١١.

يزيد بن رومان، وقتادة وغيرهما، ونحوه عن مالك رضي الله عنه.

وقال بعضهم: ما غنمتم بصُلْح من غير إيجاف خيل، ولا ركاب، فيكون لمن سمى الله تعالى فيه فيئاً، الأول للنبي ﷺ خاصة إذا أخذ منه حاجته كان الباقي في مصالح المسلمين.

وقال معمر رضي الله عنه: الأولى: للنبي ﷺ. والثانية: هي الجزية والخراج للأصناف المذكورة فيه. والثالثة: الغنيمة في سورة «الأنفال» للغانمين.

وقال الشافعي رضي الله عنه وبعض العلماء: إنَّ معنى الآيتين واحد، أي: ما حصل من أموال الكفار بغير قتال قسم على خمسة أسهم، أربعة منها لرسول الله ﷺ ويقسم الخمس الباقي على خمسة أسهم؛ سهم لرسولَ الله ﷺ أيضاً، وسهم لذوي القُرْبى، وهم بنو هاشم، وبنو المطلب؛ لأنَّهم منعوا الصدقة، فجعل لهم حق في الفيء. وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لأبناء السبيل.

وأما بعد وفاة الرسول ﷺ فالذي كان من الفيء لرسول الله ﷺ يصرف عند الشافعي ـ رضي الله عنه ـ في قول إلى المجاهدين المترصّدين للقتال في الثُّغُور؛ لأنهم القائمون مقام الرسول ﷺ.

وفي قول آخر: يصرف إلى مصالح المسلمين من سد الثُّغور، وحفر الأنهار، وبناء القناطر، يقدم الأهم فالأهم، وهذا في أربعة أخماس الفيء.

فأما السهم الذي كان له من خمس الفيء والغنيمة فهي لمصالح المسلمين بعد موته ﷺ بلا خوف، كما قال ﷺ: «لَيْسَ لي مِنْ غَنائِمكُمْ إلاَّ الخمسُ، والخمسُ مردودٌ فِيكُم».

وكذلك ما خلفه من المال غير موروث، بل هو صدقة عنه يصرف في مصالح المسلمين، لقوله ﷺ: «إنَّا لا نُورثُ ما تركناهُ صدقة».

وقيل: كان مال الفيء لنبيه ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ فأضافه إليه، غير أنه كان لا يتأثّل مالاً، إنما كان يأخذ بقدر حاجة عياله، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين.

قال ابن العربي رحمه الله[١]: لا إشكال أنها ثلاثة معانٍ في ثلاث آيات:

فالآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ يعني: من أهل الكتاب معطوفاً عليهم ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يريد ـ كما بينا ـ فلا حق لكم فيه، ولذلك قال

(١) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٧٧٢.

عمر: كانت خالصة لرسول الله ﷺ يعني بني النضير، وما كان مثلها فهذه آية واحدة، ومعنى متحد.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، وهذا كلام مبتدأ غير الأول لمستحق غير الأول وسمى الآية الثانية آية الغنيمة، ولا شك في أنه معنى آخر باستحقاق آخر لمستحق آخر، بيد أن الآية الأولى والثانية مشتركتان في أن كل واحدة منهما تضمنت شيئاً أفاء الله على رسوله، واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال، واقتضت آية «الأنفال» أنه حاصل بقتال، وعريت الآية الثالثة وهي قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾، عن ذكر حصوله بقتال، أو بغير قتال، فمن ها هنا نشأ الخلاف.

فقالت طائفة: هي ملحقة بالأولى، وهو مال الصُّلح كله ونحوه.

وقالت طائفة: هي ملحقة بآية «الأنفال»، واختلفوا هل هي منسوخة كما تقدم أو محكمة؟.

قال القرطبي[١]: «وإلحاقها بالتي قبلها؛ لأن فيه تجديد فائدة ومعنى».

وقد قيل: إن سورة «الحشر» نزلت بعد «الأنفال»، ومن المُحَال أن ينسخ المتقدم المتأخر.

فصل في أموال الأئمة والولاة

الأموال التي للأئمة والولاة فيها مدخل ثلاثة أضرب:

الأول: ما أخذ من المسلمين على طريق التَّطهير لهم كالصَّدقات والزكوات.

والثاني: الغنائم، وهو ما يحصل في أيدي المسلمين من أموال الكفار بالحرب والقهر والغلبة.

والثالث: الفيء، وهو ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عفواً صفواً من غير قتال، ولا إيجاف كالصلح والجزية والخراج والعُشُور والمأخوذ من تجار الكفار.

ومثله أن يهرب المشركون، ويتركون أموالهم، أو يموت منهم أحد في دار الإسلام ولا وارث له.

فأما الصدقة فمصرفها الفقراء والمساكين والعاملون عليها حسب ما ذكره تعالى في سورة التوبة[٢].

وأما الغنائم فكانت في صدر الإسلام للنبي ﷺ يصنع فيها ما شاء كما قال في «الأنفال»: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨/١١.

(٢) آية ٦٠.

الآية وقد مضى وأما الفيء وقسمته وقسمة الخمس سواء.

قال القرطبي(١): «والأمر فيهما عند مالك إلى الإمام، فإن رأى حبسهما لنوازِلَ تنزل بالمسلمين فعل، وإن رأى قسمتهما، أو قسمة أحدهما، قسمها كلها، أو قسم أحدهما بين الناس، ويستوي فيه غريبهم ومولاهم، ويبدأ بالفقراء من رجال ونساء حتى يغنوا، ويعطي ذوي القربى من رسول الله ﷺ من الفيءِ سهمهم على ما يراه الإمام، وليس لهم حد معلوم».

وهل يعطي الغني منهم؟.

فأكثر الناس على إعطائه؛ لأنه حق لهم.

وقال مالك رضي الله عنه: لا يعطي منهم غير فقرائهم؛ لأنه جعل لهم عوضاً من الصدقة.

وقال الشافعي رضي الله عنه: إن ما حصل من أموال الكفار بغير قتال كان يقسم في عهد النبي ﷺ على خمسة وعشرين سهماً للنبي ﷺ عشرون سهماً يفعل فيها ما يشاء، والخمس يقسم على ما يقسم عليه خمس الغنيمة.

قال أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي: وهذا القول ما سبقه به أحد علمناه، بل كان ذلك خالصاً له كما ثبت في الصحيح عن عمر مبيناً للآية، ولو كان هذا لكان قوله: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: ٣٢] يجوز أن يشركهم فيها غيرهم.

فصل في تقسيم هذه الأموال(٢)

وتقسم هذه الأموال المتقدم ذكرها في البلد الذي جُبِيَ فيه، ولا ينقل عن ذلك البلد الذي جبي فيه حتى يغنوا، ثم ينقل إلى الأقرب من غيرهم، إلاَّ أن ينزل بغير البلد الذي جبي فيه فاقة شديدة، فينتقل إلى أهل الفاقة حيث كانوا كما فعل عمر ـ رضي الله عنه ـ في أعوام «الرَّمادة» وكانت خمسة أعوام أو ستة.

وقيل: عامين.

وقيل: عام اشتدّ فيه الطَّاعون مع الجوع، وإن لم يكن ما وصفنا. ورأى الإمام إيقاف الفيء أوقفه لنوائب المسلمين، ويبدأ بمن أبوه فقير، والفيء حلال للأغنياء، ويساوي فيه بين الناس، إلا أنه يؤثر أهل الحاجة والفاقة، والتفضيل فيه إنما يكون فيه على قدر الحاجة، ويعطي منه الغرماء ما يؤدون به ديونهم، ويعطي منه الجائزة والصِّلة إن كان ذلك أهلاً، ويرزق القضاة والحكام، ومن فيه مصلحة للمسلمين، وأولاهم بتوفير الحظ منهم أعظمهم للمسلمين نفعاً، ومن أخذ من الفيء شيئاً في الديوان كان عليه أن يغزو إذا وقع الغزو.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١١.
(٢) السابق ١٨/ ١٢

قوله تعالى: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ﴾.

قرأ هشام[1]: «تكون» بالتاء والياء، «دولة» بالرفع فقط، والباقون: بالياء ـ من تحت ـ ونصب «دولة» فأما الرفع فعلى أن «كان» تامَّة، وأما التذكير والتأنيث فواضحتان؛ لأنه تأنيث مجازي.

وأما النصب فعلى أنها الناقصة، واسمها ضمير عائد على الفيء، والتذكير واجب لتذكير المرفوع، و «دولة» خبرها[2]. وقيل «دولة» عائد على «ما» اعتباراً بلفظها.

وقرأ العامة: «دولة» بضم الدال.

وعلي بن أبي طالب[3] **ـ رضي الله عنه ـ والسلمي**: بفتحها.

فقيل: هما بمعنى، وهو قول عيسى بن عمر، ويونس، والأصمعي، وهو ما يدولُ للإنسان، أي: ما يدور من الجد والغنى والغلبة.

وقال الحُذَّاق من البصريين والكسائي: «الدَّوْلة» ـ بالفتح ـ من المُلك ـ بضم الميم ـ، وبالضم من «المِلْك» ـ بكسرها ـ أو بالضم في المال، وبالفتح في النُّصْرة.

وهذا يرده القراءة المروية عن علي والسلمي، فإن النصرة غير مرادة قطعاً، و «كي لا» علة لقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أي: استقراره لكذا لهذه العلة[4].

قال المبرد[5]: الدولة اسم للشَّيء الذي يتداوله القوم بينهم.

والدولة ـ بالفتح ـ انتقال حال سارة من قوم إلى قوم، فالدُّولة ـ بالضم ـ اسم لما يتداول، وبالفتح مصدر من هذا، ويستعمل في الحالة السارّة التي تحدث للإنسان، فيقال: هذه دولة فلان، أي قد أقبل، والمعنى: كي لا يكون الفيءُ الذي حقه أن يعطى للفقراء ليكون لهم بُلغةً يعيشون بها واقعاً في يد الأغنياء ودولة لهم.

والمعنى[6]: فعلنا ذلك في هذا الفيءِ، كي لا يقسمه الرؤساء والأغنياء والأقوياء بينهم دون الفقراء والضعفاء منها أيضاً بعد المرباع ما شاء.

---

(١) ينظر: إعراب القراءات ٢/ ٣٥٧، والعنوان ١٨٨، وشرح الطيبة ٦/ ٤٧، وشرح شعلة ٦٠٠، وإتحاف ٢/ ٥٣٠، وهي قراءة أبي حيوة كما في القرطبي ١٨/ ١٢، وقراءة ابن مسعود كما في المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٦.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٤.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٤، والدر المصون ٦/ ٢٩٤، وزاد القرطبي ١٨/ ١٢: أبا حيوة.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٥.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٤٨.

(٦) القرطبي ١٨/ ١٣.

وفيها يقول شاعرهم: [الوافر]

٤٧٤٤ ـ لَكَ المِرْبَاعُ مِنْهَا والصَّفَايَا ....[١]

يقول: لئلا يعمل فيه كما كان يعمل في الجاهلية.

قال الكلبي: إنها نزلت في رؤساء المسلمين، قالوا فيما ظهر عليه رسول الله ﷺ من أموال المشركين: يا رسول الله، خُذْ صفيَّك والربح، ودعنا والباقي، فهكذا كنا نفعل في الجاهلية[٢]؛ وأنشد: [الوافر]

٤٧٤٥ ـ لَكَ المِرْبَاعُ مِنْهَا والصَّفَايَا وحُكْمُكَ والنَّشِيطَةُ والفُضُولُ[٣]

فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [من الأخذ والغلول «فانتهوا»][٤].

قاله الحسن وغيره[٥].

وقال السدي: ما أعطاكم من مال الفيء فاقبلوه، وما منعكم عنه فلا تطلبوه، قال ابن جريج: ما آتاكم من طاعتي فافعلوه، وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه[٦].

فصل في أن أوامر النبي ﷺ من أوامر الله تعالى[٧]

هذه الآية تدل على أن كل ما أمر به النبي ﷺ أمر من الله ـ تعالى ـ لأن الآية وإن كانت في الغنائم، فجميع أوامره ﷺ ونواهيه داخل فيها.

قال عبد الرحمن بن زيد: لقي ابن مسعود رجلاً محرماً وعليه ثيابه، فقال: انزع عنك هذا.

فقال الرجل: اتقرأ عليَّ بهذه آية من كتاب الله تعالى؟ قال نعم: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

---

(١) صدر بيت لعبد الله بن عنمة الضبي قاله عندما قتل بسطام بن قيس، ينظر سمط اللآلىء ١/ ٣٨٩، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/ ٤٠٢١، والمعاني الكبير ص ٩٤٨، واللسان (ربع)، و(فضل)، و(نشط)، والقرطبي ١٨/ ١٣.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ٥٠٤)، والقرطبي (١٨/ ١٤).

(٣) ينظر تخريج البيت السابق.

(٤) سقط من: أ.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٨)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٨٧)، وعزاه إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٦) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ٥٠٤)، والقرطبي (١٨/ ١٣).

(٧) ينظر: القرطبي (١٨/ ١٣).

وقال عبد الله بن محمد بن هارون الفريابي: سمعت الشافعي ـ رضي الله عنه ـ يقول: سَلُوني عمَّا شئتم أخبركم من كتاب الله ـ تعالى ـ وسنة نبيكم ﷺ قال: فقلت له: أصلحك الله، ما تقول في المحرم يقتل الزُّنْبُور؟ قال: فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾. وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن خراش عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقْتَدُوا باللَّذيْنِ من بَعْدِي أبي بَكرٍ وعُمر رضِيَ اللَّهُ عنهُمَا»(١).

حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه أمر بقتل الزُّنْبُور.

وهذا الجواب في غاية الحسن أفتى بجواز قتل الزنبور في الإحرام، وبيَّن أنه يقتدي فيه بـ «عمر»، وأن النبي ﷺ أمر بالاقتداء به، وأنَّ الله ـ تعالى ـ أمر بقُبول ما يقوله الرسول ﷺ فجواز قتله مستنبط من الكتاب والسُّنَّة.

وسئل عكرمة عن أمهات الأولاد، فقال: هل هُنَّ أحرار؟ فقال: في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وفي «صحيح مسلم» وغيره عن علقمة عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ الواشِمَاتِ والمُسْتوشِمَاتِ والمُتنمِّصَات والمُتَفلِّجَاتِ للحُسْنِ، المُغيِّراتِ لخَلْقِ الله» فبلغ ذلك امرأة من «بَنِي أسد» يقال لها: أم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال: وما لي لا ألعَنُ من لعنه رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله تعالى، فقالت: لقد قرأت ما بين الدفتين(٢) فما وجدت فيه ما تقول، فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه، أما قرأت: [﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾.

قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى الله عنه. الحديث(٣).

فصل في الكلام على الآية(٤)

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي ٥/ ٥٧٠، كتاب المناقب، باب: في مناقب أبي بكر وعمر (٣٦٦٣)، وابن ماجه ١/ ٣٧، المقدمة باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (٩٧)، وأحمد في المسند ٥/ ٣٨٢ ـ ٣٨٥، والحاكم في المستدرك ٣/ ٧٥، وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي.

(٢) في أ: اللوحين.

(٣) أخرجه البخاري ٨/ ٦٣٠، في كتاب التفسير، باب: وما أتاكم الرسول فخذوه (٤٨٨٦)، ومسلم ٣/ ١٦٧٨، في كتاب اللباس، باب: تحريم فعل الواصلة (١٢٠/ ٢١٢٥).

(٤) ينظر السابق ١٨/ ١٤.

وإن جاء بلفظ الإيتاء وهو المناولة، فإن معناه الأمر بدليل قوله تعالى][1]: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾.

فقابله بالنهي، ولا يقابل النهي إلا بالأمر، بدليل ما تقدم، مع قوله ﷺ «إذَا أَمَرتكُمْ بشَيءٍ فأتُوا مِنْهُ ما اسْتطعْتُمْ، وإذَا نَهيْتُكُمْ عن شَيْءٍ فانتهُوا».

قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ أي: عذاب الله، إنه شديد لمن عصاه.

وقيل: اتقوا الله في أوامره ونواهيه، فلا تضيعوها، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٩)﴾

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ فيه ثلاثة أوجه[2]:

أحدها: أنه بدل من «لِذي القُربى». قاله[3] أبو البقاء والزمخشري[4].

قال أبو البقاء: «قيل: هو بدل من «لذي القربى» وما بعده».

[وقال الزمخشري[5]: «بدل من «لذي القُربى» وما عطف عليه»][6]، والذي منع الإبدال من «لله وللرسول» والمعطوف عليهما، وإن كان المعنى لرسول الله ﷺ أن الله - عز وجل - أخرج رسوله ﷺ من الفقراءِ في قوله: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ وأن الله - تعالى - يترفع برسوله ﷺ عن تسميته بالفقيرِ، وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عز وجل.

يعني أنه لو قيل: بأنه بدل من «الله ورسوله» ﷺ وهو قبيح لفظاً، وإن كان المعنى على خلاف هذا الظاهر كما قيل: إن معناه لرسول الله ﷺ وإنما ذكر الله - عز وجل - تفخيماً، وإلا فالله - تعالى - غني عن الفيء وغيره، وإنما جعله بدلاً من «لذي القُربى»؛ لأنه حنفي، والحنفية يشترطون الفقر في إعطاء ذوي القربى من الفيءِ[7].

الثاني: أنه بيان لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وكررت لام الجر لما كانت

---

(١) سقط من: أ.
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٥.
(٣) ينظر الإملاء ٢/ ١٢١٥.
(٤) الكشاف ٤/ ٥٠٣.
(٥) الكشاف ٤/ ٥٠٣.
(٦) سقط من: أ.
(٧) وقال الشافعي رحمه الله: لهم خمس الخمس يستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ويقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين، ويكون لبني هاشم وبني المطلب دون غيرهم، لقوله تعالى: ﴿**ولذي القربى**﴾، من غير فصل بين الغني والفقير. ينظر: الهداية ٢/ ١٤٨.

الأولى مجرورة بـ «اللام» ليبين أنَّ البدل إنما هو منها. قاله ابن عطية[١].

وهي عبارة قلقةٌ جداً.

الثالث: أن «للفقراء» خبر لمبتدأ محذوف، أي: ولكن الفيء للفقراء.

وقيل: تقديره: ولكن يكون للفقراء، وقيل: اعجبوا للفقراء.

قوله «يبتغون» يجوز أن يكون حالاً، وفي صاحبها وجهان[٢]:

أحدهما: للفقراء.

والثاني: «واو» أخرجوا. قالهما مكي[٣].

فصل في معنى الآية

ومعنى الآية أن الفيء والغنائم للفقراء والمهاجرين[٤].

وقيل: «كي لا يكون دولة بين الأغنياء» ولكن يكون «للفقراء» وهو مبني على الإعراب المتقدم، وعلى القول بأنه بيان لذوي القربى، «واليتامى والمساكين» أي: المال لهؤلاء؛ لأنهمْ فقراء ومهاجرون، وقد أخرجوا من ديارهم فهم أحق الناس به.

وقيل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ للفقراء المهاجرين كي لا يكون المال دولة بين الأغنياء مهاجرين من بني الدنيا.

وقيل: والله شديدُ العقاب للفقراء المهاجرين، أي: شديد العقاب للكافر بسبب الفقراء المهاجرين ومن أجلهم، ودخل في هؤلاء الفقراء المتقدم ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾.

قال القرطبي[٥]: «وقيل: هو عطف على ما مضى، ولم يأت بواو العطف كقولك: هذا المال لزيد لبكر لفلان.

و «المهاجرون»: من هاجر إلى النبي ﷺ حبًّا فيه ونُصرةً له».

وقال قتادة: هؤلاء المهاجرين الذين تركوا الدِّيار والأموال والأهلين والأوطان حبًّا لله - عز وجل - ولرسوله ﷺ حتَّى إن الرجل منهم كان يَعْصِبُ على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ما له دثار غيرها[٦].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي: أخرجهم كفار «مكة»، أي: أحوجوهم إلى الخروج، وكانوا مائة رجل «يَبْتَغُونَ» أي: يطلبون ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾: أي غنيمة في

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٧،
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٥.
(٣) ينظر: المشكل ٢/ ٧٢٥.
(٤) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٤.
(٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٤.
(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٨٨)، عن قتادة وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

الدنيا «ورضْوَاناً» في الآخرة أي: مرضاة ربهم ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في الجهاد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في فعلهم ذلك[١].

وروي أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ خطب بـ «الجابية»، فقال: من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبيَّ بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومَنْ أراد أن يسأل عن الفقهِ، فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني، فإن الله ـ تعالى ـ جعلني له خازناً وقاسماً، ألا وإنِّي بادٍ بأزواج النبي ﷺ فمعطيهنّ، ثم بالمهاجرين الأولين أنا وأصحابي، أخرجنا من «مكة» من ديارنا وأموالنا[٢].

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

يعني: أنهم لما هجروا لذَّات الدنيا، وتحملوا شدائدها لأجل الدِّين ظهر صدقهم في دينهم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

يجوز في قوله: «والذين تبوّءوا الدار» وجهان[٤]:

أحدهما: أنه عطف على «الفقراء» فيكون مجروراً، ويكون من عطف المفردات، ويكون «يحبون» حالاً.

والثاني: أن يكون مبتدأ، خبره «يُحبُّون» ويكون حينئذ من عطف الجمل.

وفي قوله: «والإيمان». ستة أوجه:

أحدها: أنه ضمن «تَبَوَّءوا» معنى لزموا، فيصح عطف الإيمان عليه، إذ الإيمان لا يتبوأ.

الثاني: أنه منصوب بمقدر، أي: واعتقدوا، أو وألفوا، أو وأحبوا، أو وأخلصوا، كقوله: [الرجز]

٤٧٤٦ ـ عَلَفْتُهَا تِبْناً ومَاءً بَارِداً ....[٥]

وقوله: [مجزوء الكامل]

٤٧٤٧ ـ .... مُتَقَلِّداً سَيْفاً ورُمْحَا[٦]

الثالث: أنه يتجوّز في الإيمان، فيجعل اختلاطه بهم وثباتهم عليه كالمكان المحيط

---

(١) ينظر القرطبي ١٨/ ١٥.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ٥٠٥)، عن علي بن رباح اللخمي عن عمر بن الخطاب.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٤٩.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٥.

(٥) تقدم.

(٦) تقدم.

بهم، فكأنهم نزلوه، وعلى هذا فيكون جمع بين الحقيقة والمجاز في كلمة واحدة. وفيه خلاف مشهور.

الرابع: أن يكون الأصل: دار الهجرة، ودار الإيمان، فأقام «لام» التعريف في «الدار» مقام المضاف إليه، وحذف المضاف من دار الإيمان، ووضع المضاف إليه مقامه.

الخامس: أن يكون سمى «المدينة»؛ لأنها دار الهجرة، ومكان ظهور الإيمان.

قال بهذين الوجهين الزمخشري(١).

وليس فيه إلاَّ قيام «ال» مقام المضاف إليه، وهو محل نظر، وإنما يعرف الخلاف، هل يقوم «ال» مقام الضمير المضاف إليه؟.

فالكوفيون يُجِيزُونه، كقوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١] أي: مأواه.

[والبصريون: يمنعونه، ويقولون: الضمير محذوف، أي: المأوى له](٢).

وقد تقدم تحرير هذا وأما كونها عوضاً من المضاف إليه فلا نعرف فيه خلافاً.

السادس: أنه منصوب على المفعول معه أي: مع الإيمان معاً. قاله ابن عطية.

وقال(٣): وبهذا الاقتران يصح معنى قوله «من قبلهم» فتأمله.

قال شهاب الدين(٤): «وقد شرطوا في المفعول معه أن يجوز عطفه على ما قبله حتى جعلوا قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١] من باب إضمار الفعل؛ لأنه لا يقال: أجمعت شركائي، إنما يقال: جمعت».

فصل في المراد بهذا التبوء(٥)

«التَّبَوُّء»: التمكن والاستقرار، وليس يريد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبي ﷺ إليهم، ولا خلاف أن الذين تبوَّءُوا الدار هم الأنصار الذين استوطنوا «المدينة» قبل المهاجرين إليها، والمراد بالدَّار: «المدينة».

والتقدير: والذين تبوَّءُوا الدار من قبلهم.

فصل

قيل هذه الآية معطوفة على قوله: «للفقراء المهاجرين» وأن الآيات في «الحَشْر» كلها معطوفة بعضها على بعض.

قال القرطبي(٦): ولو تأملوا ذلك، وأنصفوا لوجدوه على خلاف ما ذهبوا إليه؛ لأن

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٠٤، ٥٠٥.
(٢) سقط من: أ.
(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٧.
(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٦.
(٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٥.
(٦) السابق: ١٨/ ١٥، ١٦.

الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ ـ إلى قوله ـ «الفاسقين» فأخبر عن بني النضير وبني قينقاع، ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ فأخبر أن ذلك للرسول ﷺ لأنه لم يوجف عليه حين خلّوه، وما تقدم فيهم من القتال، وقطع شجرهم فقد كانوا رجعوا عنه وانقطع ذلك الأمر، ثم قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وهذا كلام غير معطوف على الأول، وكذا «والذين تبوّءوا الدار والإيمان» ابتداء كلام في مدح الأنصار والثناء عليهم، فإنهم سلموا ذلك الفيء للمهاجرين، وكأنه قال: الفَيْء للفقراء المهاجرين، والأنصار يحبون لهم لم يحسدوهم على ما صفا لهم من الفيء، وكذا ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ابتداء كلام، والخبر «يَقُولُونَ ربَّنا اغفِرْ لَنَا».

وقال إسماعيل بن إسحاق: إن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ معطوف على ما قبله، وأنهم شركاء في هذا الفيء، أي: هذا المال للمهاجرين، والذين تبوَّءوا الدار والإيمان.

وقال مالك بن أوس: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١]، فقال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ حتى بلغ ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي بـ «سَرْو حمير» نصيبه منها لم يعرق جبينه.

وقيل: إنه دعا للمهاجرين والأنصار واستبشارهم بما فتح الله عليه من ذلك، وقال لهم: تبينوا الأمر وتدبروه ثم اغدوا عليَّ ففكر في ليلته، فتبين له أن هذه الآيات في ذلك أنزلت فلما غدوا عليه، قال: قد مررت البارحة بالآيات التي في سورة «الحشر» وتلا: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ فلما بلغ قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ قال: ما هي لهؤلاء فقط، وتلا قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ إلى قوله ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ثم قال: ما بقي أحد من أهل الإسلام إلا وقد دخل في ذلك.

فصل

روى مالك بن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: لولا من يأتي من آخر النَّاس ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر[1].

(١) أخرجه البخاري ٧/ ٥٦٠ في المغازي، باب غزوة خيبر (٤٢٣٦).

وصح عن عمر أنه أبقى سواد «العراق» و «مصر» وما ظهر عليه من الغنائم ليكون في أعطيات المقاتلة، وأرزاق الجيش والذَّراري، وأن الزبير وبلالاً وغير واحد من الصحابة أرادوه على قسم ما فتح عليهم، فكره ذلك منهم[(١)].

واختلف فيما فعل من ذلك: فقيل: إنه استطاب أنفس أهل الجيش فمن رضي له بترك حظه بغير ثمن ليبقيه للمسلمين فله، ومن أبى أعطاه ثمن حظه فمن قال: إنما أبقى الأرض بعد استطابة أنفس القوم جعل فعله كفعل النبي ﷺ لأنه قسم «خيبر»، لأنّ اشتراءه إياها وترك من ترك عن طيب نفسه بمنزلة قسمها.

وقيل: إنه أبقاها بغير شيء أعطاه أهل الجيوش.

وقيل: إنه تأول في ذلك قول الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ على ما تقدم أيضاً.

فصل في اختلاف الفقهاء في قسمة العقار[(٢)]

اختلفوا في قسمة العقار، فقال مالك ـ رضي الله عنه ـ للإمام أن يوقفها لمصالح المسلمين.

وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: الإمام مخير بين قسمتها، أو وقفها لمصالح المسلمين.

وقال الشافعي ـ رضي الله عنه ـ ليس للإمام حبسها عنهم بغير رضاهم، بل يقسمها عليهم كسائر الأموال، فمن طاب نفساً عن حقه للإمام أن يجعلها وقفاً عليهم فله، ومن لم تطب نفسه فهو أحق بماله.

وعمر ـ رضي الله عنه ـ استطاب نفوس القائمين واشتراها منهم، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ مقطوعاً مما قبله، وأنهم ندبوا بالدعاء للأولين والثناء عليهم.

فصل في فضل المدينة

قال القرطبي[(٣)]: «روى ابن وهب قال: سمعت مالكاً يذكر فضل «المدينة» على غيرها من الآفاق، فقال: إن «المدينة» تُبُوئتْ بالإيمان والهجرة، وإن غيرها من القرى افتتحت بالسيف، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية».

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/١٦). (٢) ينظر القرطبي ١٨/١٧.

(٣) السابق.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾. فيه وجهان[١]:

أحدهما: أن الحاجة هنا على بابها من الاحتياج إلا أنها واقعة موقع المحتاج إليه، والمعنى: لا يجدون طلب محتاج إليه مما أوتي المهاجرون من الفيءِ وغيره، والمحتاج إليه يسمى حاجة تقول: خذ منه حاجتك، وأعطاه من ماله حاجته. قاله الزمخشري[٢].

فعلى هذا يكون الضمير الأول للجائين بعد المهاجرين، وفي «أوتُوا» للمهاجرين.

والثاني: أن الحاجة هنا من الحسد.

قال الحسنُ: حسداً وحزازة مما أوتوا المهاجرين دونهم، وأطلق لفظ الحاجة على الحسد والغيظ والحزازة؛ لأن هذه الأشياء لا تنفك عن الحاجة فأطلق اسم اللازم على الملزوم على سبيل الكناية.

والضميران على ما تقدم قبل.

وقال أبو البقاء[٣]: «الحاجة مس حاجة». أي: أنه حذف المضاف للعلم به، وعلى هذا، فالضميران لـ «الذين تبوّءوا الدار والإيمان».

وقال القرطبي[٤]: «يعني لا يحسدون المهاجرين على ما خُصُّوا به من مال الفيءِ وغيره، كذلك قال الناس. وفيه تقدير حذف مضافين، والمعنى: مس حاجة من فقد ما أوتوا، وكل ما يجد الإنسان في صدره مما يحتاج إلى إزالته فهو حاجة».

فصل في سبب نزول الآية

قال القرطبي[٥]: كان المهاجرون في دور الأنصار، فلما غنم رسول الله ﷺ أموال بني النضير، دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين في إنزالهم إياهم في منازلهم وإشراكهم في الأموال، ثم قال رسول الله ﷺ: «إنْ أحْبَبْتُمْ قَسَمْتُ مَا أفَاءَ اللَّه عَلَيَّ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ بَيْنكُمْ وبَيْنَهُمْ، وكَانَ المُهَاجِرُونَ على مَا هُمْ عليْهِ مِنَ السُّكْنَى في مَسَاكنكُمْ وأمْوالكُمْ، وإنْ أحَببْتُمْ أعْطَيتُهم وخَرَجُوا من دِيَارِكُمْ»، فقال سَعْدُ بنُ عُبادَةَ وسَعْدُ بْنُ معاذٍ - رضي الله عنهما - بَلْ نَقْسِمهُ بَيْنَ المهاجرينَ، ويُكونُونَ في دُورنا كَمَا كَانُوا، ونادت الأنصار: رَضِيْنَا وسلَّمْنَا يا رسُولَ الله، فقال رسُولُ الله ﷺ: «اللَّهُمَّ ارْحَم الأنصَارَ وأبْنَاءَ الأنْصَارِ» وأعطى رسول الله للمهاجرين، ولم يعط الأنصار إلا الثلاثة الذين ذكرناهم[٦].

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٦.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٠٥.

(٣) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢١٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٧.

(٥) السابق.

(٦) أخرجه البخاري ١٣/ ٢٧٨، كتاب الاعتصام، باب: ما يكره من كثرة السؤال (٧٢٨٩)، ومسلم ٤/ ١٨٣١، كتاب الفضائل، باب: توقيره ﷺ (١٣٢/ ٢٣٥٨).

ويحتمل أن يريد به ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ إذا كانوا قليلاً يقنعون به، ويرضون عنه، وقد كانوا على هذه الحال حين حياة النبي ﷺ دنيا، ثم كانوا عليه بعد موته ﷺ بحكم الدنيا، وقد أنذرهم النبي ﷺ وقال: «سَتَرَونَ بَعْدِي أَثَرَةً فاصْبِرُوا حَتَّى تلْقَونِي على الحَوْضِ»[(١)].

قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال النبي ﷺ يوم بني النضير: «إن شِئْتُم قَسمْتُمْ للمُهَاجرينَ من أمْوالكُمْ ودِيَاركُمْ وشَارَكتُمُوهُم في هذه الغنيمةِ، وإنْ شِئْتُم كَانَتْ لكُم ديَاركُمْ وأموالكُمْ ولَمْ نَقْسِمْ لَكُمْ مِنَ الغَنِيمَةِ شَيْئاً». فقالت الأنصار: بل نقسم لإخواننا من ديارنا وأموالنا ونؤثرهم بالغنيمة، فنزل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية[(٢)].

قال ابن الخطيب[(٣)]: «وذكر المفسرون أنواعاً من إيثار الأنصار للضيف بالطعام، وتعللهم عنه حتى يشبع الضيف، ثم ذكروا أن هذه الآية نزلت في ذلك الإيثار، والصحيح أنها نزلت بسبب إيثارهم المهاجرين بالفيء، ثم لا يمتنع أن يدخل فيها سائر الإيثارات.

فذكر القرطبي[(٤)]: أن الترمذي روى عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً بات به ضيف، ولم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه، فقال لامرأته: نومي الصبية، وأطفئي السراج، وقربي للضيف ما عندك، فنزلت هذه الآية»[(٥)].

وخرجه مسلم أيضاً: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهودٌ، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق نبيًّا ما عندي إلا ماء، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُضيف هذا الليلة رحمه الله؟» فقام رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله أنا، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا، إلا قوت صبياني، قال: فعلليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج، وذكر نحو الحديث الأول[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري ٧/ ٦٤٤، كتاب المغازي، باب: غزوة الطائف (٤٣٣٠)، وطريقه في (٧٢٤٥)، ومسلم في المصدر السابق (١٣٩ ـ ١٠٦١).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ١٨). (٣) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٥٠.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٧.

(٥) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٨١)، كتاب التفسير، باب (٥٩) من سورة الحشر رقم (٣٣٠٤) عن أبي هريرة. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وانظر الحديث الآتي.

(٦) أخرجه البخاري (١٧/ ١٤٩)، كتاب مناقب الأنصار، باب: قول الله عزّ وجلّ: ﴿ويؤثرون على=

وفي رواية: فقام رجل من الأنصار يقال له: أبو طلحة، فانطلق به إلى رحله.

وذكر المهدوي: أنها نزلت في ثابت بن قيس، ورجل من الأنصار يقال له: أبو المتوكل، ولم يكن عند أبي المتوكل إلا قوته.

وذكر القشيري قال: أهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال: إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منّا، فبعثه إليه ولم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها[١] سبعة أبيات حتى رجعت إلى أولئك، فنزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية.

وذكر الثعلبي عن أنس، قال: أهدي لرجل من الصحابة رأس شاة، وكان مجهوداً فوجه به إلى جار له، فتداوله سبعة أنفس في سبعة أبيات، ثم عاد إلى الأول، فنزلت الآية[٢].

فصل في معنى الإيثار[٣]

الإيثار هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية رغبة في الحظوظ الأخروية،

= **أنفسهم﴾** حديث (٣٧٩٨)، (٨/ ٥٠٠)، كتاب التفسير، باب: **﴿ويؤثرون على أنفسهم﴾** حديث (٤٨٨٩)، ومسلم (٣/ ١٦٢٤)، كتاب الأشربة، باب: إكرام الضيف وفضل إيثاره حديث (١٧٢/ ٢٠٥٤)، والترمذي (٥/ ٣٨١)، رقم (٣٣٠٤)، مختصراً والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤١)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٨٦)، من طريق أبي حازم عن أبي هريرة به.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(١) في أ: تناولها.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٨٤)، عن ابن عمر من طريق عبيد الله بن الوليد عن محارب بن دثار عنه.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ورده الذهبي بقوله: قلت عبيد الله ضعفوه.
وعبيد الله بن الوليد هو الوصافي أبو إسماعيل الكوفي. قال الحافظ في «التهذيب» (٧/ ٥٥): قال أبو طالب عن أحمد: ليس بمحكم الحديث يكتب حديثه للمعرفة وقال ابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم: ضعيف الحديث.
وقال ابن معين مرة: ليس بشيء.
وقال عمرو بن علي والنسائي: متروك الحديث، وقال النسائي في موضع آخر: ليس بثقة.
وقال العقيلي: في حديثه مناكير لا يتابع على كثير من حديثه.
وقال ابن حبان: يروي عن الثقات ما لا يشبه الأثبات حتى يسبق إلى القلب أنه المتعمد لها فاستحق الترك.
وقال الحاكم: روى عن محارب أحاديث موضوعة.
قلت: ومع قول الحاكم فيه فقد صحح له كما سبق في «المستدرك».
والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٨٩)، وزاد نسبته إلى ابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٨، ١٩.

وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة، يقال: آثرته بكذا، أي: خصصته به وفضلته، ومفعول الإيثار محذوف، أي: يؤثرونهم على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم، لا عَنْ غِنًى بل مع احتياجهم إليها.

فإن قيل: قد صح في الخبر النهي عن التصدق بجميع ما يملكه المرء؟.

فالجواب[1]: إنما كره ذلك في حق من لا يوثق به بالصبر على الفقر، وخاف أن يتعرّض للمسألة إذا فقد ما ينفقه، فأما الأنصار الذين أثنى الله - تعالى - عليهم بالإيثار على أنفسهم، فكانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فكان الإيثار فيهم أفضل من الإمساك، والإمساك لمن لا يصبر ويتعرض للمسألة أولى من الإيثار.

كما روي أن رجلاً جاء إلى النبي بمثل البيضة من الذَّهب، فقال هذه صدقة، فرماه بها، وقال: «يَأتِي أحدُكُمْ بِجميعِ مَا يَملِكُهُ فيتصدَّق بِهِ، ثُمَّ يقعدُ فيتكفَّفُ النَّاس» انتهى.

فصل في الإيثار بالنفس[2]

الإيثار بالنَّفس فوق الإيثار بالمال وإن عاد إلى النفس.

ومن الأمثال: [البسيط]

٤٧٤٨ - الجُودُ بالمَالِ جُودٌ ومكرمةٌ ... والجُودُ بالنَّفْسِ أقْصَى غايةِ الجُودِ[3]

وأفضل من الجود بالنفس الجود على حماية رسول الله ﷺ.

ففي الصحيح: أن أبا طلحة ترس على النبي ﷺ يوم أحد، وكان النبي ﷺ يتطلع ليرى القوم، فيقول له أبو طلحة: لا تشرف يا رسول الله، لا يصيبونك، نحري دون نحرك يا رسول الله ووقى بيده رسول الله ﷺ فشلتْ.

وقال حذيفة العدوي: انطلقت يوم «اليَرْموك» أطلب ابن عم لي [ومعي شيء من الماء وأنا أقول: إن كان به رمقٌ سقيته، فإذا أنا به، فقلت له: أسقيك، فأشار برأسه أن

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٩،

(٢) ينظر: السابق ١٨/ ٢٠.

(٣) قائل البيت هو مسلم بن الوليد ورواية الشطر الأول في الديوان:

تَجُودُ بِالنَّفسِ إذْ أَنْتَ الضنينُ بِهَا

ويروى:

تَجُودُ بِالنَّفسِ إذْ ضَنَّ الجَوَادُ بِهَا

ينظر ديوانه ص ١٦٤، والقرطبي ١٨/ ٢٠.

نعم]، فإذا أنا برجل يقول: آه آه فأشار إليّ ابن عمي أن انطلق إليه، فجئت إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فأشار أن نعم، فسمعت آخر يقول: آه آه فأشار هشام أن انطلق إليه، فجئت إليه، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات.

وقال أبو اليزيد البسطامي رحمه الله: ما غلبني أحد سوى شاب من أهل «بلخ» قدم علينا حاجًّا، وقال: يا أبا اليزيد، ما حد الزهد عندكم؟.

فقلت له: إذا وجدنا أكلنا وإذا فقدنا صبرنا.

فقال: هكذا كلاب «بلخ» عندنا.

فقلت: وما حدّ الزهد عندكم؟.

قال: إذا فقدنا شكرنا، وإذا وجدنا آثرنا.

وسئل ذو النون المصري: ما حدُّ الزهد؟ قال: ثلاث، تفريق المجموع، وترك طلب المفقود، والإيثار عند الفوت.

وحكي عن أبي الحسن الأنطاكي: أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلاً بقرية من قرى «الري» ومعهم أرغفة معدودة لا تشبع جميعهم، فكسروا الرغفان وأطفئوا السراج، وجلسوا للطعام، فلما فرغوا فإذا الطعام بحاله لم يأكل أحد منهم شيئاً إيثاراً لصاحبه على نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

هذه واو الحال، والخصاصة: الحاجة، وأصلها من خصاص البيت، وهي فروجه، وحال الفقير يتخللها النقص، فاستعير لها ذلك(١).

وقال القرطبي(٢): «أصلها من الاختصاص، وهو الانفراد بالأمر، فالخصاصة: انفراد بالحاجة، أي: ولو كانت بهم فاقة وحاجة».

ومنه قول الشاعر: [الكامل]

٤٧٤٩ ـ أمَّا الرَّبيعُ إذَا تَكُونُ خَصَاصَةٌ عَاشَ السَّقِيمُ بِهِ وأثْرَى المُقْتِرُ(٣)

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾.

العامة على سكون الواو، وتخفيف القاف من الوقاية، **وابن أبي عبلة**(٤) **وأبو حيوة**: بفتح الواو وتشديد القاف.

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٦. (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٢٠.

(٣) ينظر اللسان (قتر)، القرطبي ٨/ ٢٠، وفتح القدير ٥/ ٢٠١.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٨، والدر المصون ٦٨/ ٢٩٦.

والعامة ـ بضم الشين ـ من «شح»، **[وابن أبي عبلة]**[(١)] **وابن عمر**[(٢)] **ـ رضي الله عنهما ـ بكسرها.**

قال القرطبي[(٣)]: الشُّحُّ والبخل سواء، يقال: رجل شحيح بيِّن الشُّح والشَّح والشحاحة.

قال عمرو بن كلثوم: [الوافر]

٤٧٥٠ ـ تَرَى اللَّحِزَ الشَّحِيحَ إذَا أمِرَّتْ عَلَيْهِ لِمَالِه فِيهَا مُهِينَا[(٤)]

وجعل بعض أهل اللغة الشُّحَّ أشد من البخل.

وفي «الصحاح»[(٥)]: الشح: البخل مع حرصٍ، شَحِحْتُ ـ بالكسر ـ تشحّ، وشَحَحْتُ أيضاً تَشُحُّ وتشِحُّ، ورجل شَحِيحٌ، وقومٌ شحاحٌ وأشحَّة.

والمراد بالآية: الشُّح بالزكاة، وما ليس بفرض من صلة ذوي الأرحام والضِّيافة، وما شاكل ذلك، فليس بشحيح ولا بخيل من أنفق في ذلك وإن أمسك عن نفسه، ومن وسّع على نفسه ولم ينفق فيما ذَكرنا من الزكوات والطَّاعات فلم يُوقَ شح نفسه.

روى الأسود عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رجُلاً أتاه فقال: إنِّي أخاف أن أكون قد هلكت، قال: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وأنا رجل شحيح لا أكاد أخرج من يديّ شيئاً، فقال ابن مسعود: ليس ذلك الذي ذكر الله ـ تعالى ـ، إنما الشُّحُّ أن تأكل مال أخيك ظُلْماً، ولكن ذلك هو البخل، وبئس الشيء البخل، ففرق رضي الله عنه بين الشح والبخل[(٦)].

وقال طاوس: البخل أن يبخل الإنسان بما في يده، والشُّحُّ أن يشح بما في أيدي

---

(١) سقط من: أ.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٦، والدر المصون ٦/ ٢٩٦.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٢٠.

(٤) ينظر: شرح المعلقات السبع للزوزني ص ١١٩، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٩٧، واللسان (لحز)، والطبري ٢٨/ ٢٩، والقرطبي ١٨/ ٢٠.

(٥) ينظر: الصحاح ١/ ٣٧٨، مادة (شحح).

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢)، والحاكم (٢/ ٤٩٠)، عن ابن مسعود.
وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٨٩)، وزاد نسبته إلى الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان».
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٢٦)، وعزاه للطبراني.

النَّاس[١]، يحب أن يكون له ما في أيديهم بالحل والحرام فلا يقنع.

قال ابن زيد: ليس الشح أن يمنع الرجل ماله، إنما الشُّح أن تطمح عين الرجل فيما ليس له[٢].

وقال ابن جريج: الشح: منع الزكاة وادخار الحرام[٣].

وقال ابن عيينة: الشح: الظلم[٤].

وقال الليث: ترك الفرائض وانتهاك المحارم[٥].

وقال ابن عباس: من اتبع هواه، ولم يقبل الإيمان، فذلك هو الشحيح[٦].

وقال ابن زيد: من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه، ولم يمنع شيئاً أمره الله بإعطائه، فقد وقاه الله شحَّ نفسه[٧].

وقال أنس رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «بَرِيء مِن الشُّحِّ مَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ وأقْرَى الضَّيْفَ، وأعْطَى في النَّائِبَة»[٨].

وعنه أن النبي ﷺ كان يدعو «اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنْ شُحِّ نَفْسِي، وإسْرافِهَا وَسوآتِهَا»[٩].

وقال أبو الهياج الأسدي: رأيت رجلاً في الطواف يدعو: اللهم قني شُحَّ نفسي، لا يزيد على ذلك، فقلت له، فقال: إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزْنِ ولم أفعل، فإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه[١٠].

قال القرطبي[١١]: ويدل على هذا قوله ﷺ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ فإنَّ الظُّلْمَ ظُلماتٌ يَوْمَ

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٨٩)، وعزاه إلى ابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٨٩)، عن ابن عمر وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٢١).

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) ينظر المصدر السابق.

(٦) ينظر المصدر السابق.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢)، وينظر المصدر السابق.

(٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢)، والطبراني في «الكبير» (٤/ ٢٤١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٨٤٢)، من حديث أنس.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٩١)، وزاد نسبته إلى ابن مردويه.
وذكره أيضاً من حديث يزيد بن جارية وعزاه إلى عبد بن حميد.
وللحديث شاهد من حديث جابر ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٩٠) وعزاه إلى ابن مردويه.

(٩) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٢١).

(١٠) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٢)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٨٩)، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن عساكر.

(١١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٢١.

القِيَامةِ، واتَّقُوا الشُّحَّ فإنَّ الشُّحَّ أهْلكَ مَن كَانَ قَبْلَكُم حَملهُمْ على أن سفكُوا دِمَاءهُمْ واسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»(١).

وروى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ في سَبيلِ اللَّهِ ودُخَانُ جَهَنَّم في جَوْفِ عَبْدٍ أبَداً، ولا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ والإيمَانُ في قَلْبِ عَبْدٍ أبَداً»(٢).

وقال كسرى لأصحابه: أي شيء أضرُّ بابن آدم؟ قالوا: الفقرُ، فقال: الشح أضر من الفقر، لأن الفقير إذا وجد شبع، والشحيح إذا وجد لم يشبعْ أبداً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو﴾. يحتمل الوجهين المتقدمين في «الذين» قبله، فإن كان معطوفاً على «المهاجرين»، فـ «يقولون» حال لـ «يحبون» أي: قائلين أو مستأنف، وإن كان مبتدأ فـ «يقولون» خبره(٣).

فصل

هذه الآيات قد استوعبت جميع المؤمنين؛ لأنهم إما المهاجرون أو الأنصار. ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾. قال بعض المفسرين: هذا عطف على «المُهَاجرينَ» وهم الذين هاجروا من بعد.

---

(١) أخرجه مسلم في المصدر السابق (٥٦ ـ ٣٥٧٨)، وأحمد في المسند ٣/ ٣٢٣، والبيهقي ٦/ ٩٣، والحاكم في المستدرك ١/ ١١.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٧٢)، والنسائي في «الكبرى» (٣/ ١٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٥٧)، من حديث أبي هريرة.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٧.

وقيل: التابعون لهم بإحسان، ومن دخل في الإسلام إلى يوم القيامة[١].

قال ابن أبي ليلى[٢]: الناس على ثلاثة منازل: الأولى منازل المهاجرين، والثانية هي: الذين تبوءوا الدار والإيمان، والثالثة: والذين جاءوا من بعدهم، فاجتهد ألاَّ تخرج من هذه المنازل.

وقال بعضهم: كن مهاجراً، فإن قلت: لا أجد، فكن أنصارياً، فإن لم تجد فاعمل كأعمالهم، فإن لم تستطع فأحبَّهم، واستغفر لهم كما أمرك الله.

وقال مصعب بن سعد: الناس على ثلاثة منازل، فمضت منزلتان، وبقيت منزلة، فأحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدِّه، أنه جاءه رجل فقال: يا ابن بنت رسول الله ما تقول في عثمان؟ فقال له: يا ابن أخي أنت من قوم قال الله فيهم ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾؟ الآية، قال: لا، قال: فأنت من قوم قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾؟ الآية، قال: لا، قال: فوالله لئن لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجن من الإسلام، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

وروي أن نفراً من أهل «العراق» جاءوا إلى محمد بن علي بن الحسين، فسبُّوا أبا بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ فأكثروا، فقال لهم: أمن المهاجرين الأولين أنتم؟ قالوا: لا، قال: أفمن الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم؟، قالوا: لا، قال: فقد تبرأتم من هذين الفريقين، أنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، قوموا قد فعل الله بكم وفعل. ذكره النحاس[٣].

فصل في وجوب محبة الصحابة[٤]

هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لأنه جعل لمن بعدهم حظًّا في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم، والاستغفار لهم، ومن أبغضهم أو واحداً منهم، أو اعتقد فيه شرًّا أنه لا حقَّ له في الفيء.

قال مالك: من كان يبغضُ أحداً من أصحاب محمد ﷺ وكان في قلبه لهم غلّ فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٥٠.
(٢) ينظر: القرطبي ١٨/ ٢١.
(٣) القرطبي ١٨/ ٢٢.
(٤) ينظر السابق.

فصل

قال القرطبي[١]: دلت هذه الآية على أن الصحيح من أقوال العلماء قسمة المنقول وإبقاء العقار والأرض بين المسلمين أجمعين كما فعل عمر ـ رضي الله عنه ـ إلا أن يجتهد الوالي فينفذ أمراً فيمضي عمله فيه لاختلاف الناس فيه، وإن هذه الآية قاضية بذلك، لأن الله ـ تعالى ـ أخبر عن الفيء وجعله لثلاث طوائف: المهاجرين والأنصار ـ وهم معلومون ـ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ فهي عامة في جميع التابعين والآتين من بعدهم إلى يوم [الدين][٢].

يروى أن النبي ﷺ خرج إلى المقبرة، فقال: «السَّلامُ [عليكم] دارَ قَوْم مُؤمِنينَ وإنَّا إن شَاءَ اللَّهُ بكم لاحِقُونَ وددْتُ لَوْ رأيتُ إخواننا» قالوا: يَا رسُولَ اللَّهِ، ألَسْنَا إخْوَانَكَ؟ فقَالَ رسُولُ الله ﷺ: «بَلْ أنتُمْ أصْحَابِي، وإخْواننا الذين لَمْ يأتُوا بَعْدُ، وأنَا فَرَطُهمْ على الحوْضِ»[٣].

فبين النبي ﷺ أن إخوانهم كلُّ من يأتي بعدهم، لا كما قال السُّديُّ والكلبي: إنهم الذين هاجروا بعد ذلك.

وعن الحسن أيضاً: أن الذين جاءوا من بعدهم من قصد إلى النبي ﷺ إلى «المدينة» بعد انقطاع الهجرة.

قوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

قيل[٤]: أمروا أن يستغفروا لمن سبق هذه الأمة من مؤمني أهل الكتاب، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أمرهم أن يستغفروا لهم فَسبُّوهم.

وقيل: أمروا أن يستغفروا للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أمر الله سبحانه بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ وهو يعلم أنهم سيُفْتَنُونَ[٥].

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أمرهم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ فسبوهم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تَذْهَبُ هذهِ الأمة حتَّى يلعَنَ آخِرُهَا أوَّلهَا»[٦].

---

(١) السابق نفسه. (٢) في أ: القيامة.

(٣) أخرجه مسلم ١/ ٢١٨، كتاب الطهارة، باب: استحباب إطالة الغرة والتحجيل (٣٩/ ٢٤٩).

(٤) ينظر: القرطبي (١٨/ ٢٢). (٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٢٢).

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٩٣)، عن عائشة وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في «المصاحف» وابن مردويه عن عائشة.

وقال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا رأيتم الَّذين يسُبُّونَ أصْحَابِي فقُولُوا: لَعَنَ اللَّه شَرَّكُم»[١].

وقال العوام بن حوشب: أدركت هذه الأمة يقولون: اذكروا محاسن أصحاب رسول الله ﷺ حتى تتآلف عليهم القلوب، ولا تذكروا ما شجر بينهم فتجسروا الناس عليهم[٢].

وقال الشعبي: تفاضلت اليهود والنَّصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وسئلت النصارى: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب عيسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وسئلت الرافضة: من شرُّ أهلِ ملتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد ﷺ أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم، فالسيف عليهم مسلولٌ إلى يوم القيامة لا تقوم لهم راية، ولا يثبت لهم قدم، ولا تجتمع لهم كلمة، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله بسفكِ دمائهم وإدحاض حجتهم، أعاذنا الله وإياكم من الأهواء المضلّة[٣].

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: حسداً وبغضاً، ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ﴾. للتبليغ فقط بخلاف قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العنكبوت: ١٢] فإنها تحتمل ذلك وتحتمل العلة.

فصل

قال القرطبي رحمه الله[٤]: هذه الآية سبب التعجب من اغترار اليهود لما وعدهم المنافقون من النصر معهم مع علمهم بأنهم لا يعتقدون ديناً ولا كتاباً.

قال المقاتلان[٥]: يعني عبد الله بن أبيّ ابن سلول، وعبد الله بن نبتل، ورفاعة بن زيد، وقيل: رفاعة بن تابوت، وأوس بن قيظي، كانوا من الأنصار ولكنهم نافقوا، ومالوا ليهود قريظة والنضير.

والإخوان: هم الإخوة، وهي هنا تحتمل وجوهاً[٦]:

أحدها: الأخوّة في الكفر؛ لأن اليهود والمنافقين اشتركوا في عموم الكفرِ بمحمد ﷺ.

وثانيها: الأخوّة بسبب المصادقة والموالاة والمعاونة.

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣/ ١٩٥)، وابن عساكر (٦/ ٢٣١ ـ تهذيب)، من حديث ابن عمر.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٢٣). (٣) ينظر القرطبي ١٨/ ٢٣.

(٤) السابق. (٥) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٥١.

(٦) السابق.

وثالثها: الأخوّة بسبب اشتراكهم في عداوة محمد ﷺ.

فقالوا لليهود: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من المدينة ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾.

وقيل: هذا من قول بني النضير لقريظة، وقولهم: «ولا نُطِيعُ فيكُم أحداً أبداً» يعنون محمداً ﷺ قالوا: لا نطيعه في قتالكم.

وفيه دليل على صحة نبوّة نبينا محمد ﷺ من جهة علم الغيب؛ لأنهم أخرجوا فلم يخرجوا معهم، وقوتلوا فلم ينصروهم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم وفعلهم[1].

فقولهم: «ولا نُطِيعُ فيكُم أحداً أبداً» أي: في قتالكم أو في خذلانكم[2].

قوله تعالى: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾.

أجيب القسم المقدر، لأن قبل «إن» لام موطئة حذفت للعلم بمكانها، فإنَّ الأكثر الإتيان بها، ومثله قوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ﴾ [المائدة: ٧٣] وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

أجيب القسم لسبقه، ولذلك رفعت الأفعال ولم تجزم، وحذف جواب الشرط لدلالة جواب القسم عليه، ولذلك كان فعل الشرط ماضياً[3].

وقال أبو البقاء[4] رحمه الله: قوله تعالى: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ لما كان الشرط ماضياً ترك جزم الجواب انتهى. وهو غلط؛ لأن ﴿لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ ليس جواباً للشرط بل جواب القسم، وجواب الشرط محذوف كما تقدم وكأنه توهم أنه من باب قوله: [البسيط]

٤٧٥١ ـ وإنْ أتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْألَةٍ يَقُولُ: لا غَائِبٌ مَالِي ولا حَرِمُ[5]

وقد سبق أبا البقاء ابنُ عطية إلى ما يوهم شيئاً من ذلك، ولكنه صرح بأنه جواب القسم، فقال: «جاءت الأفعال غير مجزومة في «لا يخرجون ولا ينصرون»؛ لأنها راجعة على حكم القسم[6] لا على حكم الشرط، وفي هذا نظر».

فقوله: «وفي هذا نظر» يوهم أنه جاء على خلاف ما يقتضيه القياس وليس كذلك، بل جاء على ما يقتضيه القياس.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ٢٣.
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٧.
(٣) ينظر: السابق ٦/ ٢٩٧.
(٤) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢١٦.
(٥) تقدم.
(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٩.

وفي هذه الضمائر قولان[١]:

أحدهما: أنها كلها للمنافقين.

والثاني: أنها مختلفة بعضها لهؤلاء، وبعضها لهؤلاء.

فصل

اعلم أنه ـ تعالى ـ عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها[٢]، وقد أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لئن أخرجوا، فهؤلاء المنافقون لا يخرجون معهم، وكان الأمر كذلك؛ لأن بني النضير لما خرجوا لم يخرج معهم المنافقون، وقاتلوا أيضاً فما نصروهم، وهذا كما يقول المعترض الطاعن في كلام الغير: لا نسلم أن الأمر كما تقول، ولئن سلمنا أن الأمر كما تقول إلا أنه لا يفيد ذلك فائدة فكذا هاهنا ذكر تعالى أنهم لا يخرجون معهم، وبتقدير أن ينصروهم إلا أنهم لا بد وأن يتركوا النُّصرة وينهزموا، ويتركوا أولئك المنصورين في أيدي أعدائهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

[وقيل[٣]: معنى لا ينصرونهم: لا يدومون على نصرهم، هذا على أن الضميرين متفقان على اختلاف الضميرين، فالمعنى: لئن أخرج اليهود لا يخرج معهم المنافقون، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ أي: ولئن نصر اليهود المنافقين ليولُّنَّ الأدبار][٤].

قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾.

مصدر من «رُهِبَ» المبني للمفعول، فالرهبة واقعة من المنافقين لا من المخاطبين، كأنه قيل: لأنتم أشد رهوبية في صدورهم من الله، فالمخاطبون مُرْهِبُونَ وهو قول كعب بن زهير ـ رضي الله عنه ـ في مدح رسول الله ﷺ: [البسيط]

٤٧٥٢ ـ فَلَهْوَ أَخْوَفُ عِنْدِي إِذْ أُكَلِّمُهُ ... وَقِيلَ إِنَّكَ مَحْبُوسٌ وَمَقْتُولُ

مِنْ ضَيْغَمٍ بِثَرَاءِ الأَرْضِ مُخْدَرُهُ ... بِبَطْنِ عَثَّرَ غِيلٌ دُونَهُ غِيلُ[٥]

و «رَهْبَةً» تمييز[٦].

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٧.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٥١.

(٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ٢٣.

(٤) سقط من: أ.

(٥) البيتان لكعب بن زهير من قصيدته المشهورة (بانت سعاد). ينظر ديوانه (٢٠)، والمقرب لابن عصفور ١/ ٧١، ٧٢، واللسان (عثر)، والدر المصون ٦/ ٢٩٨.

(٦) ينظر الدر المصون ٦/ ٢٩٧، ٢٩٨.

فصل في معنى الآية

المعنى[١]: لأنتم يا معشر المسلمين ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي خوفاً وخشية في صدورهم من الله، يعني صدور بني النضير.

وقيل: صدور المنافقين، ويحتمل أن يرجع إلى الفريقين، أي: يخافون منكم أكثر مما يخافون من ربهم، «ذَلِكَ» إشارة إلى الخوف أي ذلك الخوف «بأَنَّهُمْ قومٌ لا يَفْقَهُونَ» قدر عظمة الله وقدرته حتى يخشوه حقَّ خشيته.

قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ يعني اليهود والمنافقين لا يقدرون على مقاتلتكم مجتمعين «إلاَّ» إذا كانوا ﴿فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالخنادق والدُّروب[٢] والحيطان [يظنُّون][٣] أنها تمنعهم منكم، ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ أي: من خلف حيطانٍ يستترون بها لجبنهم ورهبتهم[٤].

قوله: «جَمِيعاً» حال، و «إلاَّ في قُرَى» متعلق بـ «يُقَاتِلُونَكُمْ»[٥].

وقوله: «جُدُر».

قرأ ابن كثير[٦] **وأبو عمرو**: «جدار» بالإفراد. وفيه أوجه[٧]:

أحدها: أنه السُورُ، والسُورُ الواحد يعم الجميع من المقاتلة ويسترهم.

والثاني: أنه واحد في معنى الجمع لدلالة السياق عليه.

والثالث: أن كل فرقة منهم وراء جدار لا أنهم كلهم وراء جدار.

والباقون قرأوا: «جُدُر» ـ بضمتين ـ اعتباراً بأن كل فرقة وراء جدار، فجمع لذلك.

وقرأ الحسن وأبو[٨] **رجاء وابن وثاب** والأعمش، ويروى عن ابن كثير وعاصم: بضمة وسكون؛ وهي تخفيف الأولى، **وقرأ ابن كثير ـ أيضاً**[٩] **ـ في رواية هارون** عنه، وهي قراءة كثير من المكيين: «جَدْر» بفتحة وسكون.

فقيل: هي لغة في الجدار.

وقال ابن عطية[١٠]: معناه أصل بنيات كالسور ونحوه، قال: ويحتمل أن يكون من

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ٢٤.
(٢) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٥٢.
(٣) سقط من: أ.
(٤) ينظر: القرطبي ١٨/ ٢٤.
(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٨.
(٦) ينظر: الحجة ٦/ ٢٨٣، وإعراب القراءات ٢/ ٣٥٧، وحجة القراءات ٧٠٥، والعنوان ١٨٨، وشرح الطيبة ٦/ ٤٩، وشرح شعلة ٦٠١، وإتحاف ٢/ ٥٣١.
(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٨.
(٨) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٧، والدر المصون ٦/ ٢٩٨.
(٩) السابق.
(١٠) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٩.

جَذْر النخيل أي من وراء نخيلهم. يقال: أجدر النخل إذا طلعت رءوسه أول الربيع. والجدر: نبت، واحده جدرة.

وقرىء[١]: «جَدَرٌ» ـ بفتحتين ـ حكاها الزمخشري.

وهي لغة في الجدار أيضاً.

وقرىء: «جُذْر» ـ بضم الجيم وإسكان الدَّال ـ جمع الجدار.

قال القرطبي[٢]: ويجوز أن تكون الألف في الواحد كألف «كتاب» وفي الجمع كألف «ظِراف» ومثله «ناقة هجان، ونوق هجان» لأنك تقول في التثنية «هجانان»، فصار لفظ الواحد والجمع مشتبهين في اللفظ مختلفين في المعنى.

قاله ابن جني[٣].

قوله: ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ﴾.

«بَيْنَهُمْ» متعلق بـ «شديد» و «جميعاً» مفعول ثانٍ، أي: مجتمعين.

وقوله: ﴿وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾. جملة حالية، أو مستأنفة للإخبار بذلك.

والعامة على «شتى» بلا تنوين، لأنها ألف تأنيث.

ومن كلامهم: «شَتَّى تئوب الحلبة» أي متفرقين[٤].

وقال آخر: [الطويل]

٤٧٥٣ ـ إِلَى اللَّهِ أَشْكُو نِيَّةً شَقَّتِ العَصَا ... هِيَ اليَوْمَ شَتَّى، وهيَ أمْسِ جَمِيعُ[٥]

وقرأ مبشر[٦] **بن عبيد**: «شَتًّى» منونة، كأنه جعلها ألف الإلحاق.

وفي قراءة ابن مسعود: «وقُلُوبُهُمْ أشتُّ»[٧] يعني أشد تشتيتاً أي أشد اختلافاً.

فصل في معنى الآية[٨]

معنى «بأسُهُم بَيْنَهُمْ شَديدٌ» أي: عداوة بعضهم لبعض. قاله ابن عباس.

وقال مجاهد: «بَأسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ» بالكلام والوعيد لنفعلن كذا[٩].

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٠٧، والدر المصون ٦/ ٢٩٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٢٤.

(٣) ينظر: المحتسب ٢/ ٣١٧.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٨.

(٥) ينظر القرطبي ١٨/ ٢٥، والبحر ٨/ ٢٤٨، والدر المصون ٦/ ٢٩٨.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٤٨، والدر المصون ٦/ ٢٩٨.

(٧) ينظر السابق، والقرطبي ١٨/ ٢٥.

(٨) ينظر: القرطبي ١٨/ ٢٤.

(٩) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٢٤).

وقال السُّدي: المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحدٍ[١].

وقيل: «بَأسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ» إذا لم يلقوا عدوًّا نسبوا أنفسهم إلى الشدة والبأس، وإذا لقوا العدو انهزموا.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

يعني اليهود والمنافقين. قاله مجاهد. وعنه أيضاً: يعني المنافقين.

وقال الثوري: هم المشركون وأهل الكتاب.

وقال قتادة: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين على أمْر ورأي. ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾: أي: متفرقة فأهل الباطل مختلفة آراؤهم وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق[٢].

وعن مجاهد أيضاً: أراد أن دين المنافقين مخالف لدين اليهود، وهذا يقوي أنفس المؤمنين عليهم[٣] «ذَلكَ بأنَّهُمْ قومٌ لا يَعْقِلُونَ» أي: ذلك التشتيت والكفر بأنهم قوم لا يعقلون أمر الله.

وقيل: لا يعقلون ما فيه الحظ لهم.

وقيل: لا يعقلون أن تشتيت القلوب مما يوهن قواهم[٤].

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

خبر مبتدأ مضمر، أي: مثلهم مثل هؤلاء.

و «قريباً» فيه وجهان[٥]:

أحدهما: أنه منصوب بالتشبيه المتقدم، أي: يشبهونهم في زمن قريب سيقع لا يتأخر، ثم بين ذلك بقوله: ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾.

والثاني: أنه منصوب بـ «ذاقوا» أي: ذاقوا في زمن قريب.

أي: ذاقوه في زمن قريب سيقع ولم يتأخّر.

وانتصابه في وجهيه على ظرف الزَّمان.

فصل في معنى الآية

يعني مثل هؤلاء اليهود كمثل الذين من قبلهم.

---

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٩٥)، وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٦)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٩٥)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) ينظر القرطبي ١٨/ ٢٤، والرازي ٢٩/ ٢٥٢.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٨.

قال ابن عباس: يعني به بني قينقاع أمكن الله منهم قبل بني النضير[١].

وقال قتادة: يعني بني النضير أمكن الله منهم قبل قريظة، وكان بينهما سنتان[٢].

وقال مجاهد رضي الله عنه: يعني كفَّار قريش يوم بدر، وكان ذلك قبل غزوة بني النضير قاله مجاهد[٣].

وكانت غزوة بدر قبل غزوة بني النضير بستة أشهر، فلذلك قال: «قَرِيباً»[٤].

وقيل: هو عامٌّ في كل من انتقم منه على كفره قبل بني النضير من نوح إلى محمد ﷺ.

«وَبَالَ أمرهم» أي: جزاء كفرهم. ومن قال: هم بنو قريظة جعل «وبَالَ أمْرِهِمْ» نزولهم على حكم سعد بن معاذ، فحكم فيهم بقتل المقاتلة وسبي [الذرية][٥]. وهو قول الضحاك. ومن قال: المراد بنو النضير، قال: «وبَالَ أمْرِهِمْ» الجلاء والنفي، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾.

هذا مثل ضربه الله للمنافقين واليهود في تخاذلهم وعدم الرجاء في نصرتهم، وحذف حرف العطف ولم يقل: وكمثل الشيطان، لأن حذف حرف العطف كثير، كقولك: أنت عاقل، أنت كريم، أنت عالم[٦].

وقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ كالبيان لقوله ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

فصل

روي عن النبي ﷺ: أن الإنسان الذي قال له الشيطان: اكفر؛ راهب، نزلت عنده امرأة أصابها لممٌ ليدعو لها فزيّن له الشيطان فوطئها فحملت، ثم قتلها خوفاً أن يفتضح، فدلّ الشيطان قومها على موضعها، فجاءوا فاستنزلوا الراهب ليقتلوه، فجاء الشيطان فوعده إن سجد له أنجاه من هذه الورطة منهم فسجد فتبرّأ منه فأسلمه، ذكره[٧] القاضي إسماعيل، وعلي بن المديني، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عروة بن عامر، عن عبيد بن رفاعة الزرقي، عن النبي ﷺ وذكر خبره مطولاً.

وذكر ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أنه كان راهب في

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٦)، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٢٢).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٦)، عن مجاهد.

(٤) ينظر: القرطبي ١٨/ ٢٥. (٥) في أ: الذراري.

(٦) السابق.

(٧) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٩٦)، وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في «مكايد الشيطان» والبيهقي في «شعب الإيمان».

الفترة يقال له: برصيصا، قد تعبد في صومعته سبعين سنة لم يعص الله فيها طرفة عين حتى أعيا إبليس، وذكر خبر برصيصا بتمامه[١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فضرب الله ذلك مثلاً للمنافقين مع اليهود، وذلك أن الله ـ تعالى ـ أمر نبيه أن يُجلِيَ بني النضير من «المدينة»، فدس إليهم المنافقون ألاَّ تخرجوا من دياركم، فإن قاتلوكم قاتلنا معكم، وإن أخرجوكم كنا معكم، فحاربوا النبي ﷺ فخذلهم المنافقون وتبرءوا منهم كما تبرأ الشيطان من برصيصا العابد[٢].

وقيل[٣]: المعنى مثل المنافقين في غدرهم لبني النضير كمثل إبليس إذ قال لكفار قريش: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨] الآية.

وقال مجاهد: المراد بالإنسان ها هنا جميع الناس في غرور الشيطان إياهم[٤].

ومعنى[٥] قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾.

أي: أغواه حتى قال: إنِّي كافر، وليس قول الشيطان: «إنِّي أخافُ اللَّه ربَّ العالمينَ» حقيقة، إنما هو على وجه التبرُّؤ من الإنسان، فهو تأكيد لقوله تعالى: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ﴾.

وفتح الياء من «إني» نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأسكن الباقون[٦].

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا
يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢٩٦)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/٢٨)، عن ابن عباس.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/٢٥٣، والقرطبي ١٨/٢٨.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٤٩)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢٩٧)، وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٥) القرطبي ١٨/٢٨، ٢٩.

(٦) ينظر: السبعة ٦٣٢، والحجة ٦/٢٨٤، والعنوان ١٨٨، وشرح الطيبة ٦/٤٩، وشرح شعلة ٦٠١، وإتحاف ٢/٥٣١.

ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ﴾.

العامة على نصب «عَاقِبَتَهُمَا» والاسم «أن» وما في حيزها، لأن الاسم أعرف من «عاقبتهما أنهما في النار». وقد تقدم تحرير هذا في «آل عمران»[(١)] و «الأنعام»[(٢)].

وقرأ الحسن وعمرو[(٣)] **بن عبيد** وابن أرقم: برفعها، على جعلها اسماً، و «أن» وما في حيزها خبر كقراءة: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ [الأنعام: ٢٣].

قوله: ﴿خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾.

العامة على نصبه، حالاً من الضمير المستكن في الجار لوقوعه خبراً.

والتثنية ظاهرة فيمن جعل الآية مخصوصة في الراهب والشيطان، ومن جعلها في الجنس فالمعنى فكان عاقبة الفريقين أو الصنفين[(٤)].

قال مقاتل: يعني المنافقين واليهود.

ونصب «عَاقِبَتَهُمَا» على أنه خبر «كان» والاسم «أنَّهما في النَّارِ».

وقرأ عبد الله، وزيد[(٥)] **بن علي، والأعمش، وابن أبي عبلة**: برفعه خبراً، والظرف ملغى، فيتعلق بالخبر، وعلى هذا فيكون تأكيداً لفظيًّا للحرف، وأعيد معه ضمير ما دخل عليه كقوله: ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

وهذا على مذهب سيبويه[(٦)]، فإنه يجيز إلغاء الظرف وإن أكد.

والكوفيون يمنعونه، وهذا حجة عليهم، وقد يجيبون بأنا لا نسلم أن الظرف في هذه القراءة ملغى بل نجعله خبراً لـ «أن» و «خالدان» خبر ثان، وهو محتمل لما قالوا إلا أن الظاهر خلافه.

قال القرطبي[(٧)]: وهذه القراءة خلاف المرسوم.

وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المشركين، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

---

(١) آية (١٣٧). (٢) آية (١١).
(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٨، والدر المصون ٦/ ٢٩٩.
(٤) ينظر: القرطبي ١٨/ ٢٩.
(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٠، والبحر المحيط ٨/ ٣٢٤٨، والدر المصون ٦/ ٢٩٩.
(٦) ينظر: الكتاب ١/ ٢٨٧. (٧) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٢٩.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أوامره ونواهيه، وأداء فرائضه واجتناب معاصيه. ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعني يوم القيامة، والعرب تكني عن المستقبل بالغد.

وقيل: ذكر الغد تنبيهاً على أن الساعة قريبة؛ كقوله: [الطويل]

٤٧٥٤ ـ وإنَّ غـداً لـلـنَّـاظـريـنَ قـريـبُ[١]

وقال الحسن وقتادة: قرب الساعة حتى جعلت كغد؛ لأن كل آت قريب، والموت لا محالة آت[٢]. ومعنى «ما قدَّمتْ» أي: من خير أو شرّ.

ونكر النفس لاستقلال النفس التي تنظر فيما قدمت للآخرة، كأنه قال: فلتنظر نفس واحدة في ذلك، ونكر الغد، لتعظيمه وإبهام أمره، كأنه قيل: الغد لا يعرف كنهه لعظمه[٣].

وقرأ العامة بسكون لام الأمر في قوله: «ولتنظر».

وأبو حيوة ويحيى[٤] بن الحارث بكسرها على الأصل.

والحسن[٥]: بكسرها ونصب الفعل، جعلها لام «كي»، ويكون المعلل مقدّراً، أي: ولتنظر نفس حذركم وأعمالكم.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تأكيد.

وقيل: كرر لتغاير متعلق التقويين فمتعلق الأولى: أداء الفرائض لاقترانه بالعمل، والثانية: ترك المعاصي لاقترانه بالتهديد والوعيد، قال معناه الزمخشري[٦].

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

قال سعيد بن جبير: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بما يكون منكم[٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾.

---

(١) قائله هو ضرار بن أجدع يخاطب النعمان بن المنذر، ولفظ البيت:

فَـإنْ يَـكُ صَـدْرُ هَـذَا الـيَـوْمِ وَلَّـى ... فَـإنَّ غـداً لِـنَـاظِـرِهِ قَـرِيـبُ

ينظر القرطبي ١٨/ ٢٩.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٠)، عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٩٨)، وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٥٣.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٩١، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٩، والدر المصون ٦/ ٢٩٩.

(٥) ينظر المصدر السابق.

(٦) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٠٨، والدر المصون ٦/ ٢٩٩.

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٢٩).

العامة: على الخطاب، وأبو حيوة: على الغيبة[١]، على الالتفات.

﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: تركوه ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أن يعملوا لها خيراً. قاله المقاتلان[٢].

وقيل: نسوا حق الله، فأنساهم حق أنفسهم. قاله سفيان.

وقيل: «نسُوا اللَّه» بترك ذكره وتعظيمه «فأنساهم أنفسَهُمْ» بالعذاب أن يذكر بعضهم بعضاً. حكاه ابن عيسى[٣].

وقيل: قال سهل بن عبد الله: «نَسُوا اللَّهَ» عند الذنوب «فَأنسَاهُم أنفُسهُمْ» عند التوبة.

وقيل: «أنسَاهُمْ أنفسَهُمْ» أي: أراهم يوم القيامة من الأحوال ما نسوا فيه أنفسهم، كقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

ونسب تعالى الفعل إلى نفسه في «أنسَاهُمْ» إذ كان ذلك بسبب أمره ونهيه، كقولك: أحمدت الرجل إذا وجدته محموداً.

وقيل: «نَسُوا اللَّهَ» في الرجاء «فأنساهُمْ أنفُسهُمْ» في الشدائد.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾. قال ابن جبير: العاصون[٤].

وقال ابن زيد: الكاذبون[٥]، وأصل الفِسْق الخروج، أي: الذين خرجوا عن طاعة الله[٦].

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: في الفضل والرتبة[٧]، لما أرشد المؤمنين إلى ما هو مصلحتهم يوم القيامة[٨]، بقوله: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، وهدّد الكافرين بقوله: ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ بين بهذه الآية الفرق بين الفريقين. واعلم أن الفرق بينهما معلوم بالضرورة، وإنما ذكر الفرق في هذا الموضع للتنبيه على عظم ذلك الفرق[٩]، ثم [قال: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

وهذا كالتفسير لنفي تساويهما.

و «هم» يجوز أن يكون فصلاً، وأن يكون مبتدأ، فعلى الأول: الإخبار بمفرد، وعلى الثاني: بجملة[١٠].

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٩١، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٩، والدر المصون ٦/ ٢٩٩.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٥٣.

(٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ٢٩.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٢٩).

(٥) ينظر المصدر السابق.

(٦) ينظر: القرطبي ١٨/ ٢٩.

(٧) ينظر القرطبي ١٨/ ٣٠.

(٨) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ١٥٣.

(٩) ينظر: السابق ٢٩/ ٢٥٤.

(١٠) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٩٩.

ومعنى «الفَائِزُونَ» المقربون المكرمون[١].

وقيل: الناجون من النار، ونظير هذه الآية قوله: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١١٠]، وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨]، وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[٢] [ص: ٢٨].

فصل

احتجّت المعتزلة بهذه الآية على أن صاحب الكبيرة لا يدخل الجنة بهذه الآية[٣]، قالوا: لأن الآية دلت على أن أصحاب النار وأصحاب الجنة لا يستويان، [فلو دخل صاحب الكبيرة الجنة لكان أصحاب الجنة وأصحاب النار يستويان][٤]، وهو غير جائز وجوابه معلوم.

فصل في أن المسلم لا يقتل بالذمي

دلت هذه الآية على أن المسلم لا يقتلُ بالذمي كما هو مذكور في كتب الفقه[٥].

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

وهذا حثّ على تأمل مواعظ القرآن، وبيّن أنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبالُ مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه، ورأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أي: متشققة من خشية الله.

والخاشع: الذَّليل. والمتصدّع: المتشقق.

وقيل: «خاشعاً» لله بما كلفه من طاعته، «متصدعاً» من خشية الله أن يعصيه فيعاقبه.

وقيل: هو على وجه المثل للكفار[٦].

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ٣٠.

(٢) سقط من: أ.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٥٤.

(٤) سقط من: أ.

(٥) لا يجوز قتل مسلم بكافر وهو مذهب عمر بن عبد العزيز والأوزاعي والثوري وابن شبرمة والشافعي ومالك وأحمد وأبي ثور. واحتج هؤلاء بما أخرجه البخاري في كتاب الديات، باب: العاقلة ١٢/ ٢٥٦ (٦٩٣)، عن أبي جحيفة أنه قال: سألت علياً هل عندكم شيء ليس في القرآن؟ فقال والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما عندنا إلا ما في القرآن إلا فهماً يعطى رجل في كتابه وما في الصحيفة. قلت: وما في الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر. عمدة القارىء ١٩/ ٣٤٩، فتح الباري ١٢/ ٢٧٢، روضة الطالبين ٩/ ١٥٠.

(٦) ينظر: القرطبي ١٨/ ٣٠.

أي: أنه لو أنزل القرآن على الجبل لخشع لوعده، وتصدع لوعيده، وأنتم أيها المقهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده، ولا ترهبون من وعيده[١].

والغرض من هذا الكلام التنبيه على فساد قلوب هؤلاء الكفار وغلظ طباعهم[٢]، ونظيره قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

وقيل[٣]: الخطاب للنبي ﷺ أي: لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت وتصدع من نزوله عليه، وقد أنزلناه عليك وثبتناك له، فيكون ذلك امتناناً عليه أن ثبته لما لم يثبت عليه الجبال.

وقيل: إنه خطاب للأمة، وأن الله ـ تعالى ـ لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدّعت من خشية الله، والإنسان أقل قوة وأكثر ثباتاً، فهو يقوم بحقه إن أطاع، ويقدر على ردّه إن عصى؛ لأنه موعود بالثواب، ومزجُور بالعقاب[٤].

قوله: «خاشعاً» حال؛ لأن الرؤية بصرية.

وقرأ طلحة[٥]: «مصّدعاً» بإدغام التاء في الصاد.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

لما وصف القرآن بالعظم، ومعلوم أن عظم الصفة تابع لعظم الموصوف، أتبع ذلك بشرح عظمة الله تعالى، فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: عالم السر والعلانية[٦].

وقيل: ما كان وما يكون.

وقال سهل: عالم بالآخرة والدنيا.

وقيل: «الغيب» ما لم يعلمه العباد ولا عاينوه، و «الشَّهَادة» ما علموا وشاهدوا.

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾. تقدم مثله.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾.

قرأ أبو دينار وأبو السمال[٧]: «القَدُّوس» بفتح القاف.

---

(١) ينظر السابق.
(٢) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٥٤.
(٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ٣٠.
(٤) السابق.
(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٩١، والبحر المحيط، ٨/ ٢٤٩، والدر المصون ٦/ ٢٩٩.
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٣٠)، عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٠٠)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم.
(٧) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٩، والدر المصون ٦/ ٣٠٠، والقرطبي ١٨/ ٣١.

[قال الحسن: هو الذي كثرت بركاته[١]][٢].

والعامة: بضمها، وهو المنزّه عن كل نقص، والطَّاهر عن كل عيبٍ[٣].

والقدَس ـ بالتحريك ـ السّطل بلغة أهل الحجاز، لأنه يتطهر منه.

ومنه «القادوس» لواحد الأواني الذي يستخرج به الماء من البئر بالسانية.

وكان سيبويه يقول: «قَدُّوس، وسبُّوح» بفتح أولهما.

وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائي أعرابياً فصيحاً يكنى أبا الدينار يقرأ: «القَدُّوس» بفتح القاف.

قال ثعلب: كل اسم على «فَعُّول» فهو مفتوح الأول، مثل: سَفُّود، وكَلُّوب، وتَنُّور، وسَمُّور، وشَبُّوط، إلا السُّبُّوح والقُدُّوس، فإنَّ الضم فيهما أكثر، وقد يفتحان، وكذلك: الذروح بالضم[٤].

قوله: «السَّلامُ». أي: ذو السلامة من النقائص.

قال ابن العربي: اتفق العلماء على أنّ قوله: «السَّلامُ» النسبة، تقديره: ذو السلامة، ثم اختلفوا في ترجمة النسبة.

فقيل: معناه الذي سَلِمَ من كل عيب، وبَرِيءَ من كل نقص.

وقيل: المسلم على عباده في الجنّة، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وقيل: معناه الذي سلم الخلق من ظلمه. وهذا قول الخطابي.

قال القرطبي[٥]: وعلى هذا والذي قبله يكون صفة فعل، وعلى الأول يكون صفة ذات.

وقيل: معناه: المسلم لعباده.

قوله: «المُؤمِنُ».

أي: الذي أمن أولياؤه عذابهُ، يقال: أمنه يؤمنه فهو مؤمن.

وقيل[٦]: المصدق لرسله بإظهار معجزاته عليهم، ومصدق المؤمنين ما وعدهم به من الثواب، ومصدق الكافرين ما أوعدهم من العقاب.

وقال مجاهد: المؤمن الذي وحّد نفسه بقوله: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ»[٧].

---

(١) ذكره الرازي في في تفسيره (٢٩/ ٢٥٤)، عن الحسن.

(٢) سقط من: أ.

(٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ٣١.

(٤) ينظر: القرطبي ١٨/ ٣١.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٣١.

(٦) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٥٥، والقرطبي ١٨/ ٣١.

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٣١).

وقرأ العامة: «المُؤمِن ـ بكسر الميم ـ اسم فاعل من آمن بمعنى أمن».

وأبو جعفر محمد بن علي بن الحسين، وقيل ابن القعقاع: بفتحها[١].

فقال الزمخشري[٢]: بمعنى المؤمن به، على حذف حرف الجر، كقوله: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] المختارون.

وقال أبو حاتم: لا يجوز ذلك، أي: هذه القراءة؛ لأنه لو كان كذلك لكان المؤمن به، وكان جائزاً، لكن المؤمن المطلق بلا حرف جر يكون من كان خائفاً فأمن، فقد ردّ ما قاله الزَّمخشري[٣].

فصل

قال ابن عباس: إذا كان يوم القيامة أخرج أهل التوحيد من النار، وأول من يخرج من وافق اسمه اسم نبي حتى إذا لم يبقَ فيها من يوافق اسمه اسم نبي، قال الله تعالى لباقيهم: أنتم المسلمون وأنا السلام، وأنتم المؤمنون وأنا المؤمن، فيخرجهم من النار ببركة هذين الاسمين[٤].

قوله: ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ﴾.

قيل: معنى المهيمن «الشاهد» الذي لا يغيب عنه شيء[٥]. وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي ومقاتل.

قال الخليل وأبو عبيدة: هَيْمَنَ يُهَيْمِنُ فهو مُهَيْمِنٌ، وقد تقدم الكلام عليه عند قوله: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال ابن الأنباري: «المُهَيْمِنُ»: القائم على خَلْقِه بقدرته.

وأنشد: [الطويل]

٤٧٥٥ ـ ألاَ إنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ نَبِيِّهِ ... مُهَيمِنُهُ التَّالِيهِ في العُرْفِ والنُّكْرِ[٦]

وقيل هو في الأصل: مُؤيمن فقلبت الهمزة هاء، كقوله: «أرَقْت وهرقت» ومعناه: المؤمن. نقله البغوي[٧].

وتقدم الكلام على «العَزِيز».

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٤٩، والدر المصون ٦/ ٣٠٠.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٠٩.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٠.

(٤) ينظر: القرطبي (١٨/ ٣١).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٢)، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

(٦) ينظر اللسان (همن)، والتفسير الكبير ٢٩/ ١٩٤.

(٧) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٣٢٦.

قوله: «الجبَّارُ».

استدل به من يقول: إن أمثلة المبالغة تأتي من المزيد على الثلاثة، فإنه من «أجبره على كذا»، أي قهره[١].

قال الفرَّاء: ولم أسمع «فعّالاً» من «أفعل» إلا في «جبَّار ودرَّاك» من أدرك انتهى واستدرك عليه: أسأر، فهو سَئَّار.

وقيل: هو من الجبر، وهو الإصلاح.

وقيل: هو من قولهم: نخلة جبَّارة إذا لم ينلْها الجُناة.

قال امرؤ القيس: [الطويل]

٤٧٥٦ ـ سَوَامِقَ جَبَّارٍ أثيثٍ فُرُوعُهُ وعَالَيْنَ قِنْوَاناً من البُسْرِ أحْمَرا[٢]

يعني النَّخْل التي فاتت اليد.

قال ابن الخطيب[٣]: فيه وجوه:

أحدها: أنه «فعّال» من جبر، إذا أغنى الفقير وأصلح الكسير.

قال الأزهري[٤]: «هو لعمري جابرٌ لكل كسيرٍ وفقير، وهو جابر دينه الذي ارتضاه».

قال العجاج ـ رحمه الله ـ: [الرجز]

٤٧٥٧ ـ قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الإلَهُ فَجَبَرْ[٥]

الثاني: أن يكون من جبره إذا أكرهه على ما أراده.

قال السديُّ: إنه هو الذي يقهر الناس، ويجبرهم على ما أراده.

قال الأزهري: «هي لغة «تميم»، وكثير من الحجازيين يقولونها».

وكان الشافعي ـ رحمه الله ـ يقول: جبره السلطان على كذا، بغير ألف.

الثالث: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجبَّار هو الملك العظيم.

وقيل: الجبار الذي لا تُطاق سطوته[٦].

قال الواحدي[٧]: هذا الذي ذكرنا من معاني الجبار في صفة الله تعالى، وأما معاني الجبار في صفة الخلق فلها معان:

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٠.

(٢) تقدم.

(٣) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/ ٢٥٥.

(٤) ينظر: تهذيب اللغة ١١/ ٦٠. مادة (جبر).

(٥) وبعده:

وعَوَّر الرَّحْمَنُ مَنْ ولَّى العَوَرْ

ينظر ديوان العجاج ص ٤، والخصائص ٢/ ٢٦٣، والأشموني ٤/ ٢١٤، والاقتضاب ص ٤٠٧، واللسان (جبر)، وتهذيب اللغة للأزهري ١١/ ٦٠ (جبر).

(٦) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ٣١).

(٧) الرازي ٢٩/ ٢٥٥.

أحدها: المُسَلَّط، كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾ [ق: ٤٥].

الثاني: العظيم الجسم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢].

والثالث: المتمرّد عن عبادة الله كقوله: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا﴾ [مريم: ٣٢].

الرابع: القتال كقوله: ﴿بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠] وقوله: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: ١٩].

قوله: ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾.

قال ابن عباس: الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثله[١].

وقيل: المتكبر عن كل سوء، المتعظم عما لا يليق به من صفات الحدوث والذم.

وأصل الكبر والكبرياء الامتناع وقلّة الانقياد[٢].

قال حميد بن ثور: [الطويل]

٤٧٥٨ ـ عَفَتْ مِثْلَ مَا يَعْفُو الفَصِيلُ فأصْبَحَتْ بِهَا كِبْرِيَاءُ الصَّعْبِ وهي ذَلُولُ[٣]

قال الزجّاج[٤]: وهو الذي تعظَّم عن ظلم عباده.

وقال ابن الأنباري: «المتكبر» ذو الكبرياء.

والكبرياء عند العرب الملك، قال تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ٧٨] واعلم أن المتكبر في صفات الله مدح، وفي صفات المخلوقين ذم[٥].

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ يرويه عن ربه ـ تبارك وتعالى ـ أنه قال: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قصمته ثم قذفته في النار»[٦].

وقيل: المتكبر معناه العالي[٧].

وقيل: الكبير، لأنه أجل من أن يتكلف كبراً.

وقد يقال: تظلّم بمعنى ظلم، وتشتّم بمعنى شتم، واستقر بمعنى قرّ، كذلك المتكبر بمعنى الكبير، وليس كما يوصف به المخلوق إذا وصف بـ «تفعل» إذا نسب إلى ما لم يكن منه[٨]، ثم نزّه نفسه فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

كأنه قال[٩]: إن المخلوقين قد يتكبرون، ويدّعون مشاركة الله في هذا الوصف،

---

(١) ينظر القرطبي (١٨/ ٣١).
(٢) ينظر القرطبي (١٨/ ٣٢).
(٣) في الديوان يروى الطليح مكان الفصيل، ينظر ديوانه ص ٥٨، واللسان (عفا)، والقرطبي ١٨/ ٣٢.
(٤) ينظر: معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥١.
(٥) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٥٦).
(٦) تقدم.
(٧) في أ: الباقي.
(٨) ينظر: القرطبي ١٨/ ٣٢.
(٩) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٥٦.

لكنه سبحانه منزّهٌ عن التكبر الذي هو حاصل للخلق؛ لأنهم ناقصون بحسب ذواتهم، فادعاؤهم الكبر يكون ضم نقصان الكذب إلى النقصان الذاتي، وأما الله ـ سبحانه وتعالى ـ فله العلو والعزّ، فإذا أظهره كان ذلك ضمَّ كمال إلى كمال، فسبُحانَ اللَّهِ عمَّا يشركُون في إثبات صفة المتكبريَّة للخلق.

قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾.

«الخَالقُ» هنا المقدر، و «البَارِىءُ» المنشىء المخترع، وقدم ذكر الخالق على البارىء؛ لأن الإرادة مقدمة على تأثير القدرة[1].

قوله: «المُصَوِّرُ».

العامة: على كسر الواو ورفع الراء، إما صفة وإما خبر.

وقرأ أمير المؤمنين[2] علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ والحسن بن السميفع، وحاطب بن أبي بلتعة: بفتح الواو ونصب الراء. وتخريجها على أن يكون منصوباً بـ «البَارِىءُ».

و «المصوَّر» هو الإنسان إما آدم، وإما هو وبنوه.

وعلى هذه القراءة يحرم الوقفُ على المصور، بل يجب الوصل ليظهر النَّصب في الراء، وإلا فقد يتوهم منه في الوقف ما لا يجوز[3].

وروي عن أمير المؤمنين أيضاً: فتح الواو وجرّ الراء، وهي كالأولى في المعنى إلا أنه أضاف اسم الفاعل لمعموله مخففاً نحو: «الضارب الرجل».

والوقف على «المصوّر» في هذه القراءة أيضاً حرام، وقد نبَّه عليه بعضهم.

وقال مكي[4]: «ويجوز نصبه في الكلام، ولا بد من فتح الواو فتنصبه بـ «البارىء»، أي: هو الله الخالق المصور، يعني: آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبنيه». انتهى. وكأنه لم يطلع على هذه القراءة.

وقال أيضاً: «ولا يجوز نصبه مع كسر الواو، ويروى عن علي رضي الله عنه».

يعني أنه إذا كسرت الواو، وكان من صفات الله تعالى، وحينئذ لا يستقيم نصبه عنده؛ لأن نصبه باسم الفاعل قبله.

وقوله: «ويروى» أي: كسر الواو ونصب الراء، وإذا صح هذا عن أمير المؤمنين،

---

(١) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/ ٢٥٦.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٩، والدر المصون ٦/ ٣٠٠، والقرطبي ١٨/ ٣٢.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٠.

(٤) ينظر: المشكل ٢/ ٧٢٧.

فيتخرج على أنه من القطع، كأنه قال: أمدح المصور، كقولهم: «الحَمْدُ للَّه أهل الحمد» بنصب أهل؛ وقراءة من قرأ: ﴿ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بنصب «رب»[١].

قال مكي[٢]: و «المصور» «مُفَعِّل» من «صَوّر يُصَوّر»، ولا يحسن أن يكون من «صار يصير»، لأنه يلزم منه أن يقال: المصير، بالياء».

وقيل: هذا من الواضحات ولا يقبله المعنى أيضاً.

وقدم «البارىء» على «المصور» لأن إيجاد الذوات مقدّم على إيجاد الصفات[٣]، فالتصوير مرتب على الخلق والبراية وتابع لهما، ومعنى التصوير[٤]: التخطيط والتشكيل، وخلق الله الإنسان في بطن أمه ثلاثَ خلق، جعله علقة ثم مضغة ثم جعله صورة، وهو التشكيل الذي يكون به ذا صورة يعرف بها ويتميز عن غيره، فتباركَ الله أحسنُ الخالقين.

قوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدم نظيره.

روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت خليلي أبا القاسم رسول الله ﷺ عن اسم الله الأعظم، فقال: «عليْكَ بأواخر سُورةِ الحَشْرِ، فأكثر قراءتها» فأعَدْتُ عليْهِ فأعَادَ عليَّ[٥].

وقال جابر بن زيدٍ: إنَّ اسم الله الأعظم هو الله لمكان هذه الآية[٦].

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَرَأ سُورَة الحَشْرِ غُفِرَ الله لَهُ ما تقدَّمَ من ذَنبه ومَا تأخَّر»[٧].

وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ خَواتِيمَ سُورة الحَشْرِ في لَيلٍ أو نهارٍ، فقبضهُ اللَّهُ في تلْكَ اللَّيلةِ أو ذلِكَ اليَوْمِ فَقَدْ أوْجَبَ اللَّهُ لَهُ الجنَّة»[٨].

تمَّ الجزء الثَّامن عشر، ويليه الجزء التَّاسع عشر

وأوّله: تفسير سورة الممتحنة

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٠.

(٢) ينظر: المشكل ٢/ ٧٢٧.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٥٦.

(٤) ينظر: القرطبي ١٨/ ٣٢.

(٥) ذكره الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٤/ ٥١٠)، وقال: أخرجه الثعلبي من رواية علي بن رزيق عن هشام بن سعد عن يزيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة.
وفي الواحدي من حديث ابن عباس رفعه بلفظ: اسم الله الأعظم في ست آيات من آخر سورة الحشر.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٣٣).

(٧) ذكره الحافظ في «تخريج الكشاف» (٤/ ٥١٠)، وعزاه إلى الثعلبي من طريق يزيد بن أبان عن أنس به.

(٨) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ١١٦٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٩٢)، رقم (٢٥٠١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٢/ ٤٤٤)، من طريق سليم بن عثمان التوزي عن محمد بن زياد الألهاني عن أبي أمامة مرفوعاً وقال البيهقي: تفرد به سليم بن عثمان عن محمد بن زياد.
قلت وهو ضعيف متهم. قال ابن عدي: روى عن محمد بن زياد مناكير. وقال أبو حاتم في «الجرح والتعديل» (٤/ ٢١٦): عنده عجائب وهو مجهول وذكره الذهبي في «المغني» (١/ ٢٨٤)، وقال: متهم واهٍ.

فهرس المحتويات

سورة قٓ

سورة الذاريات

سورة الطور

سورة النجم

سورة القمر

سورة الرحمن

سورة الواقعة

سورة الحديد

سورة المجادلة

سورة الحشر